«نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ»

«بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ»

[سورة يوسف ٣]

سِيرَةُ الرَّسُولُ

صُوَرٌ مُقتَبَسَةٌ مِنَ القُرآنِ الكَرِيمِ

وتحليلات ودراسات قرآنية

مؤلفها

محمد عزة دروزه

مطبعة الاستقامة بالقاهرة

١٣٦٧ – ١٩٤٨

تطلب من المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد على بمصر
لصاحبها : مصطفى محمد

[الطبعة الأولى]

أقسام الكتاب الرئيسية (١)

(١) اقرأ الفهرست فى آخر الكتاب .

بسم الله الرحمن الرحيم

الباعث على كتابة الكتاب - إمكان كتابة فصول في نطاق القرآن - كتب السيرة القديمة - كتب السيرة في العهود المتوسطة - كتب السيرة الحديثة - سداد وفائدة وطرافة السيرة في نطاق القرآن - فصول الكتاب واتساقها - اعتراف المؤلف بالعجز عن الاحاطة - اعتذار عن كثرة الآيات وتبرير لها - الروايات في الكتاب .

- ١ -

الباعث على كتابة الكتاب

بعد أن انتهيت من كتابي « عصر النبي عليه السلام وبيئته قبل البعثة »[١] ، تساءلت عما إذا كان في الإمكان وضع كتاب في السيرة النبوية الشريفة : اقتباساً من القرآن الكريم مثله ، وعما إذا كانت الحوافز التي دفعتني إلى كتابة ذلك الكتاب يمكن أن تحفز إلى وضع مثل هذا الكتاب .

إمكان كتابة فصول في نطاق القرآن

أما بالنسبة للنقطة الأولى فإني بعد أن استقصيت ما في القرآن الكريم من آيات مكية ومدنية متصلة بالسيرة النبوية الشريفة لعهديها المكي والمدني وصنفتها في مجموعات متناسبة[٢] أيقنت أن في الإمكان كتابة فصول للسيرة إذا لم تكن في نسق تاريخيّ مطرد، كالذي كتبت وتكتب به كتب السيرة ، وإذا لم تحتو أسماءً وأعلاماً

(١) صدر هذا الكتاب في دمشق الشام في أوائل عام ١٣٦٦ هجرية .

(٢) نقول هذا في صدد إمكان وتعيين أدوار السيرة من القرآن ؛ وإلا فإن القرآن بجميعه يمثل هذه السيرة ، وإن لم يكن ذلك مقصوداً لذاته ، وليس فيه آية إلا وهي تشير إلى دور أو موقف من أدوار ومواقف النبي صلى الله عليه وسلم فيما بلغه عن ربه من وعد ووعيد وأمر ونهي وتعليم وتشريع وتأديب وأمثال وقصص ودعوة وجهاد وجدال وحجاج ... الخ .

وأرقاماً وتفصيلات مثلها ، فإنها يمكن أن تعطينا صوراً صحيحة وقوية ومشرقة فيها أشياء كثيرة جديدة ، وأشياء كثيرة تغاير ماهو مستقر فى الأذهان ؛ سواء عن شخصية النبي صلى الله عليه وسلم وما أودعه الله فيها من مواهب وقوى خلقية ونفسية وعقلية بلغت الذروة من الكمال والسناء والروعة والعظمة ، أو عما كان فى سياق الدعوة من أحداث بارزة ، ووقائع مهمة ، من جدال ونضال ، وأخذ وردّ ، وأذى وكيد ، وتعجيز وتحدّ ، وهجرة وجهاد ، وغزوات وفتوح وبركات ، واحتكاك مع غير العرب وخاصة مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وما كان من نجاح الدعوة فى النهاية فى الأوساط الشركية والكتابية على السواء ؛ وما اقتضته الحكمة من نزول الآيات والقصص فى ذلك ، وما تخللها من تنوع وسائل الدعوة وأساليبها ، وما ورد فى سياقها من تشريع وتعليم ، وموعظة وحجج دامغة ، وما كان من خطوات تطورية تعبر عن آثار الدعوة الإسلامية والسيرة النبوية .

وهذا هو فى الحقيقة الهدف الصحيح لتدوين السيرة النبوية فيما أرى ؛ لأنه يشف عما كان فى الشخصية النبوية الكريمة من قوى ومواهب جعلت صاحبها صلى الله عليه وسلم موضع التكريم والعناية الربانية وأهلا للاصطفاء للرسالة العلوية ، ولأنه يطلعنا على الناحية الرائعة حقاً من الظروف والأدوار التى تقلبت فيها الدعوة حتى انتهت إلى ذلك النصر العزيز والفتح المبين ، وحتى صارت كلمة الله هى العليا ، وأتم الله نعمته بتوطيد الدين الإسلامى ؛ وهى فى الوقت نفسه الناحية الجوهرية من السيرة ؛ بل إن هذه الناحية من حيث العموم هى التى تبقى خطوطها مرتسمة فى الذهن من جملة مايطالعه الناس فى كتب التاريخ والسير والتراجم ؛ وكل من قرأ شيئا من هذه الكتب كثيراً أو قليلا يعرف أن مايبقى مرتسما فى الذهن مما قرأه إنما هو الخطوط العامة ، والأحداث البارزة ، وما كان لها من نتائج ، وما يكون فيها من مواضع العبرة والقدوة ، على حين تنمحى من الذهن أكثر الأسماء والأعلام والأرقام والتفصيلات الجزئية ، أو ينسج عليها النسيان أغطيته .

— ٢ —

كتب السيرة القديمة

وأما بالنسبة للنقطة الثانية ونعني الحوافز التي حفزت إلى وضع الكتاب الأول، وهي قله وضعف الأنباء والروايات عن عهد ماقبل البعثة، فمن الحق أن نعترف أن الذين كتبوا السيرة النبوية قديماً قد أفاضوا فى ذلك، لاسيما فى القسم الذى يتصل بما بعد البعثة؛ لأن ذلك هو الموضوع الأصلى فى الكتب التى كتبوها، كما يمكن أن يقال إن روايات أحداث السيرة النبوية ووقائعها، من دعوة وكفاح، وهجرة وجهاد، وجدال وحجاج، وما يتعلق بحياة النبى صلى الله عليه وسلم الخاصة ـ هى أكثر توافراً، وأدعى إلى الثقة، وإنها جاءت بشكل ما متعددة الطرق والرواة، ومستندة أو مفروضاً أنها مستندة إلى مشاهدات، وإنها لقيت عناية واهتماماً عظيمين حمل عليهما الإيمان والعاطفة الدينية، اللذان يدعوان إلى التحرى والتمحيص والصدق، لأن موضوع تلك الروايات هو شخص النبى صلى الله عليه وسلم وأقواله وأفعاله وحياته وسيرته، وفى كل من ذلك تشريع وتعليم وتأديب، وتحليل وتحريم، وأسوة وقدوة، وإن من هذه الروايات ماورد فى صورة أحاديث مروية فى كتب الحديث، ومرّ به مامرّ من تمحيص علمائه وتعديلهم وتجريحهم، فثبت على التمحيص والنقد.

غير أن من الحق أن يقال أيضاً: إن هذه الروايات وتلك الآثار ظلت تحتفظ بها الصدور، وتتناقلها الأفواه مدى غير قصير ربما زاد على القرن من بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم، وإنه من المعقول الذى يؤيده الواقع أن يكون قد طرأ على كثير منها زيادة ونقص، وتبديل وتغيير، كما أن منها مايمكن أن يكون قد لفق تلفيقاً ونحل نحلا، وإن منها مايتناقض مع النصوص والقرائن والملهمات القرآنية. وكل من قرأ تلك الكتب رأى ولا ريب مافيها من تعدد الروايات واختلاف الرأى فى الحادث الواحد، أو فى الأسماء والأرقام والأعلام والأيام والشهور، وما فى بعضها من تناقض يدعو إلى الشك أو يحمل على التوقف فى أخذه حقائق مسلمة أو روايات موثوقاً بها، سواء مايتصل منها بأحداث السيرة بوجه عام، أو بخصوصيات النبى صلى الله عليه وسلم بنوع خاص.

وهذه سيرة ابن هشام ، وطبقات ابن سعد الكبرى، وهما أقدم ماوصل إلينا ، وربما كانا أوثق مافى أيدى الباحثين ، وأكثره دقة واحتياطاً ، وإنهم مع ذلك يستطيعون أن يروا فى كل فصل من فصولهما دليلا يؤيد مانقوله بشكل من الأشكال .

ومن الحق أن نعترف أن ابن هشام خاصة قد استشهد على كثير مما نقله من حوادث ، أو دونه من وقائع ، أو أورده من روايات - بالآيات القرآنية ، يوردها كسبب للنزول ، ويشرح الحوادث بها ؛ وهى مزية يستحق من أجلها التنويه والتقدير ؛ غير أن تلك الآيات لم تكن هى كل شواهده فيما نقل وروى ودوّن . كما أن فى بعض المواقف التى يستشهد فيها بآيات القرآن مايوحى بأنه كان يقصد التوفيق ، وفى بعضها مايسمح بالتوقف فى أخذ تلك الآيات دليلا على الحادثة أو الرواية وشاهداً صحيحاً عليها ؛ هذا إلى أن كثيراً مما ورد فى سيرته إنما جاء على ألسنة الرواة والنقلة ، أو نقله مما وصلت إليه يده من صحف مكتوبة من قبل ، وهو نفسه يعترف فى أماكن كثيرة من كتابه فى سياق ماينقل من شعر أو أحداث بأنه يرتاب فى صحة ماينقل ، وأن أهل العلم يرتابون فيه كذلك وينكرونه .

وهذا الذى نقوله ينطبق على قليل أو كثير مما جاء فى طبقات ابن سعد من أحاديث ، وما جاء فى كتب السنة من أحاديث متصلة بالسيرة النبوية عامة ، والخصوصيات النبوية خاصة أيضاً ؛ فهى مثل تلك الروايات : ظلت تحتفظ بها الصدور ، وتتناقلها الأفواه عشرات السنين ، واتصف كثير منها بما اتصفت به تلك من تعدد الروايات واختلاف الرأى والتناقض ، كما يرى ذلك كل من أنعم النظر فيها .

كتب السيرة فى العهود المتوسطة

وأما الذين كتبوا السيرة بعد ذلك العهد الأول ، وقبل عهدنا هذا ، فإنهم قد سردوا مافى روايات السيرة سرداً تقريباً ، وزادوا عليها ماوجدوه متفرقاً أو ما كان ضعيفاً أو مشتبهاً فيه من الأحاديث والروايات، فبدت كتبهم وعليها طابع من الإغراق العجيب ، وخرجت بذلك من صفة الكتاب التاريخى إلى صفة الكتاب التعبدى ، كما يمكن أن يرى نموذج ذلك فى الشفاء والقسطلانى وشروحه ومختصراته ؛ وما استمد منها من قصص المولد الشريف التى تتلى فى الحفلات لمقاصد تعبدية وتبركية .

كتب السيرة الحديثة

ومن الحق كذلك أن نعترف بأنه قد كتب فى عهدنا أكثر من كتاب فى السيرة بأقلام إسلامية ، وإنه بدا اتجاه من قبل أعلام من العلماء والأدباء إلى القيام بواجب العناية والاهتمام بهذه السيرة الشريفة ، وما انطوت عليه من روائع ، وما نتج عنها من باهر النتائج ، وعرضها بأسلوب حديث ، أو درسها دراسة علمية أو قومية أو إسلامية ، وإن منها ماتضمن شواهد قرآنية كثيرة : غير أنه يلحظ أن هذه الكتب قداستندت بصورة عامة إلى روايات وكتب السيرة القديمة ، حتى ماورد فيها من شواهد قرآنية يلمس فيها كل من أنعم النظر وأمعن فى التدقيق والموازنة فكرة التوفيق المتأخرة أكثر مما يلحظ التوافق والمطابقة بين الحادثة والآية التى سيقت للاستشهاد . هذا مع اعترافنا بالرغبة الصادقة والجهد البارع والديباجة المشرقة من جانب بعض هؤلاء الكتاب المحدثين ، هذا إلى حسن العرض والتخريج والتبويب والاستدراكات ، ودحض افتراءات المغرضين ورد سهامهم المسمومة وغير ذلك من المقاصد التى يستحقون عليها جميل الشكر وعظيم الثناء .

- ٣ -

مراد وفائدة وطرافة السيرة فى نطاق القرآن

استحضرنا هذا كله فى ذهننا فأيقنا أن كتابة فصول فى السيرة النبوية مقتبسة من القرآن الكريم يصح أن يعد عملا سديداً ومفيداً من جهة ، وطريفاً حقا من جهة أخرى ، حتى لو كان فى هذه الفصول ماقد يعد اليوم بدائه معروفة ؛ لأن القرآن الكريم - كما قلنا أكثر من مرة فى كتابنا الأول - سيظل هو الأوثق والأصدق والأصح والأسلم ، وإن مايمكن أن يهدى إليه من الاستدلالات والإستنتاجات ، ومن الأحداث والتطورات والصور - سيظل فوق كل مظنة ، وأجلُّ وأوثق من كل رواية ؛ ولأن مثل هذا العمل لم يسبق إليه . ومادامت روايات السيرة وأنباؤها وما تضمنته من أسماء وأرقام وأعلام وتواريخ قد تعددت وتناقضت واختلفت

بحيث لايمكن أن يقال إنها تبعث فى النفس الطمأنينة والثقة ، فضلا عن اليقين بوجه عام - فإن كتابة مثل هذه الفصول خالية من الأسماء والأرقام والأعلام والتواريخ لايعدّ عملا كثير الثغرات كبير النقص من الوجهة التاريخية العلمية ، على حين تكون بما احتوته من خطوط عامة - وهى الجوهر الباقى - أصدق وأوثق وأقوى من الوجهة المذكورة كما هو واضح .

ولقد امتدّ بنا الفراغ الذى ساعدنا على كتابة الكتاب الأوّل ، فرأينا أن نغتنمه فرصة سانحة لتنفيذ الفكرة ، فكتبنا هذه الفصول التى تألف منها هذا الكتاب ، والتى نرجو أن نكون قد قمنا بها بشىء من واجبنا فى خدمة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وسيرته الشريفة ، وفى تصوير ظروف ومجرى هذه السيرة تصويراً يساعد على فهم الشخصية النبوية الكريمة وما تحلت به من مواهب عظمى ، واضطلعت به من مهمة كبرى ، قامت بها خير قيام ، وكان لها هذا التأثير الخالد فى حياة البشرية ، وما تخلل ذلك من المواقف الرائعة ، والمشاهد الباهرة التى من شأنها أن تلهم أقوى العواطف وأروعها ، وأن تبعث فى النفس أشد الانفعالات والرغبة فى التأسى والاقتداء استجابة لقول الله تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » .

- ٤ -

فصول الكتاب واتساقها

وهذه الفصول وإن كانت تبدو مستقلا بعضها عن بعض يتضمن كل فصل منها صوراً خاصة للموضوع الذى عقد له - قد حرصنا على أن تكون فى اتصال بعضها ببعض متسقة بحيث يمكن أن يتكون من مجموعها سلسلة متصلة الحلقات ؛ فقد بدأناها بفصل فى شخصية النبي عليه السلام إلى حين مبدإ الوحى وكنهه وأثره الأول فى نفسه ، وأفردنا فيه مباحث فى أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وحياته الزوجية والبيتية وخصوصياته الأخرى ، ومواقف المسلمين السلوكية منه وأزماته النفسية فى أثناء الدعوة ، وأتبعنا ذلك بقسم خاص بالعهد المكى ذى فصلين : الأول فيما كان بين النبي صلى الله عليه وسلم والعرب فى سياق الدعوة وآثار ذلك ، وما كان بين المشركين

والمسلمين ؛ والثانى فى الكتابيين وآثار الدعوة فيهم ؛ ثم أتبعنا هذا بقسم خاص بالعهد المدنى ذى ستة فصول : الأول فى سير انتشار الدعوة فى هذا العهد ، والثانى فى اليهود ، والثالث فى النصارى ، والرابع فى المنافقين ، والخامس فى الجهاد ، والسادس فى التشريع وتطوره .

اعتراف المؤلف بالعجز عن الاحاطة

ونعترف بكل إخلاص أننا أعجز من أن ندعى الإحاطة بكل شىء ؛ فالقرآن لا يبلى جديده ، ولا تنفد معجزاته ؛ ولقد لمسنا هذا فى أثناء عملنا ، فإننا بالرغم عن كثرة قراءتنا له ، ووقوفنا عند آياته فى صدد العمل الذى قمنا به فى السلسلة القرآنية التى منّ الله علينا بإتمامها ـ كنا وما زلنا نرى فى كل تلاوة معنى جديداً لم نكن فطنا إليه ، ودلالة غابت عنا ، وإشارة أخطأناها ، وقرينة لم نكن تبيناها ؛ ولذلك فإننا نتوقع أن نكون قد ذهبت عنا أشياء ، وأخطأنا فى أشياء ، وأسأنا فهم أشياء ، وأن تكون بعض استنتاجاتنا قامت على ما نكون قد أسأنا فهمه وغابت عنا دلالته ؛ وإذا كان لنا من دعوى فى عملنا فهى أننا لم نرد به إلا الخدمة الخالصة للسيرة الشريفة النبوية ، والقيام بواجب عظيم لتحقيق أهدافها وعرضها على القارئ بأسلوب طريف وصحيح ، يسنده القرآن الذى هو أوثق وثيقة وصلت إلينا سليمة من كل شائبة عن هذه السيرة .

— ٥ —

اعتذار من كثرة الآيات وتبرير لها

هذا ؛ ونعتذر هنا كما اعتذرنا فى الكتاب الأول من كثرة ما أثبتنا فى الكتاب من الآيات القرآنية وعدم اكتفائنا بالإشارة إليها ، فإن القرآن هو سند الكتاب ، وليس فيه آية إلا وهى تمثل موقفاً من مواقف السيد الرسول صلى الله عليه وسلم أو ظرفاً من ظروف سيرته الشريفة ؛ ومع ما يبدو من تشابه أو اتحاد فى الدلالة بين كثير من الآيات فإنها تحتوى بعض الفروق التى تحمل دلالات ومعانى فيها بعض التفاوت

مما يكون فى إثباته تقوية للدلالة أو المعنى المرادُ تقريره ؛ هذا إلى ما فى تعدد الآيات المتشابهة أو المتحدة فى الدلالة من تقوية وتوكيد لها ؛ على أننا توخينا فى هذا أيضاً ما توخيناه فى الكتاب السابق من تجديد الصلة بين القرآن وبين ناشئتنا ، تلك الصلة التى تكاد تكون مبتوتة ؛ لاسيما أن هذا الكتاب مجموعة دراسات وتحليلات قرآنية من شأنها أن تساعد الناشئة العزيزة على تذوق القرآن وفهم دلالاته وملهماته وقرائنه وظروف نزوله ومراميه المعاصرة والخالدة .

الروايات فى الكتاب

ونريد أن ننبه إلى نقطة أخرى ؛ ذلك أننا على الرغم مما قلناه عن روايات وأنباء السيرة المروية فى كتب السيرة والحديث والتفسير ـ لم نهملها إهمالا تاما ، بل استأنسنا بها بسبيل الشرح والتفصيل حين رأينا فيها ما لا يتناقض مع القرآن ، إذ كان القرآن هو أصل الكتاب وسنده ؛ وهى الطريقة التى جرينا عليها فى الكتاب الأول أيضاً .

وكل ما نرجوه بعد أن يتقبل الله هذه الخدمة ، أن يجعل فيها الخير والفائدة ، وأن يتغمدنا برحمته وغفرانه . ولا حول ولا قوة إلا به ؟

١٩ صفر سنة ١٣٦٦ — محمد عزة دروزه
١٣ كانون الثانى (يناير) سنة ١٩٤٧ (١)

---

(١) هذا التاريخ هو تاريخ الانتهاء من إعداد النسخة المهذبة الأخيرة للطبع . أما تاريخ الفراغ من تسويد الكتاب لأول مرة فقد كان فى أواسط شهر رمضان لسنة ١٣٥٩ وفق تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٠

فصـــل

فى شخصية النبى عليه السلام

يتألف هذا الفصل من المباحث الآتية :

١ — عروبة النبى صلى الله عليه وسلم ومكيته وقرشيته .

٢ — شخصية النبي صلى الله عليه وسلم ونشأته وسيرته قبل البعثة .

٣ — أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم وفضائله .

٤ — حياة النبى صلى الله عليه وسلم الزوجية والبيتية .

٥ — صور لسلوك المسلمين مع النبى صلى الله عليه وسلم .

٦ — الوحى وأولياته .

المبحث الأول

عروبة النبي صلى الله عليه وسلم ومكيته وقرشيته

تحويم المستشرقين حول عروبة جد النبي صلى الله عليه وسلم وخطورة دلالة القرآن على ذلك - المؤيدات القرآنية لمكية النبي صلى الله عليه وسلم وعروبته وقرشيته - موقف متشابه بين اليهود المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم والمستشرقين ورد القرآن الحاسم - دلالة قرآنية على قدم صلات القربى بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش - استدلالات على مكانة عشيرة النبي صلى الله عليه وسلم الخاصة ورفعة شأنها .

- ١ -

إن تحويم بعض المستشرقين حول أصالة عروبة النبي صلى الله عليه وسلم ومكيته وقرشيته - على رغم أن ذلك من الأمور اليقينية عند المسلمين - يجعل الاستدلال على ذلك من القرآن سديداً ، ويجعل له فى الوقت نفسه معنى قويا وخالصاً ؛ لأن غير المسلمين ، والمستشرقين خاصة ، يعترفون بأن القرآن أصدق وأسلم مدوّنة وصلت إلينا من عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

ولقد ورد فى بعض الروايات أن عبد المطلب جدّ النبي صلى الله عليه وسلم الأقرب ، نشأ وترعرع فى يثرب عند أخواله ، وأن عمه المطلب حمله وأتى به إلى مكة وقال لمن سأله عنه إنه عبد له ؛ ولقد ورد فى بعض الروايات كذلك أن لوالد النبي أخوالا فى يثرب كما كان لأبيه عبد المطلب ، وأنه كان يقضى كثيراً من أوقاته فى زيارتهم ، ولقد مات فى طريقه إلى إحدى هذه الزيارات ؛ كما ورد فى بعض الروايات أن والدة النبي صلى الله عليه وسلم أخذت ابنها وهو طفل إلى يثرب لتزيره أخواله أو أخوال أبيه فيها ، وأنها ماتت فى طريق عودتها من هذه الزيارة ؛ ولقد ندرت تسمية « عبد الله » عند العرب ؛ ولقد قيل عن هذه التسمية إن العرب يسمون بها

حينما يريدون أن يبق الاسم الأصلى مجهولا ، أو أنهم يطلقونها على صاحب الشخصية المجهولة ؛ وإزاء هذه الروايات والأقوال أطلق المستشرقون (١) لخيالهم العنان يستشفون ماوراءها من معان ومَغاز ومجهولات ، لاسيما أن فى يثرب جاليات يهودية إسرائيلية ، والنبوات السماوية إنما عرفت فى هذا القبيل من البشر خاصة ، وتساءلوا مشككين عما إذا كانت أصالة عروبة النبى صلى الله عليه وسلم وأبيه وجدّه ومكيتهم وقرشيتهم لايصح أن تكون موضع اشتباه ، وعما إذا كان لايصح أن يكون هناك اتصال دم وصهر واستعداد جنسى بين جدّ النبى صلى الله عليه وسلم أو أبيه وبين إسرائيلي يثرب ؛ ورأوا فى تعدّد الروايات واختلافها وتغايرها ماجعلهم ينظرون إلى شجرة نسب النبى صلى الله عليه وسلم القريب منها والبعيد على أنها مأثورات دينية إسلامية قد صنعت بعد الإسلام ؛ ومن الغريب ألا يخطر ببالهم حين أثاروا هذه الشبهات أو أرادوا أن يثيروها أن العرب لو عرفوا مغمزاً فى نسب النبى لوجهوه إليه ولذكره القرآن فى معرض الردّ كما ذكر كل التهم والمغامز التى وجهوها إليه ، ومن الغريب كذلك ألا يخطر ببالهم أن ينعموا النظر ، أو لعلهم عجزوا عن إنعام النظر ، فى الآيات القرآنية ليكفوا أنفسهم مؤونة هذه الحيرة أو هذا التشكيك والتحويم الذى يحلو لهم حول كثير مما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم والذى يساعدهم فيه ـ والحق يقال ـ ثغرات الروايات العربية الإسلامية .

— ٢ —

والآن نأتى إلى ذكر المؤيدات القرآنية :

أولا : فى سورة محمد آية صريحة الدلالة على أصالة مكية النبى صلى الله عليه وسلم وهى هذه :

« وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ

(١) اقرأ مثلا المبحث الطويل فى الجزء الأول من كتاب كايتانى ـ ترجمة تركية ـ فى نسب النبى صلى الله عليه وسلم .

فَأَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ... ١٣

ثانياً : لقد تكرر ورود تعبير : من أنفسهم ، ومنكم ، ومنهم ، فى معرض الخطاب للعرب ولأهل مكة خاصة ، وفى ذلك توكيد لتلك الأصالة من جهة ولصلة النبي صلى الله عليه وسلم بالعرب بوجه عام من جهة أخرى ، كما ترى فيما يلى :

١ – رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ (١) ...

البقرة ١٧٨

٢ – لَقَدْ مَنَّ ٱللهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ...

آل عمران ١٦٤

٣ – لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ ... التوبة ١١١

٤ – وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللهِ فَأَذَاقَهَا ٱللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (٢) ... النحل ١١٢ – ١١٣

ثالثاً : كذلك تكرر وصف النبي صلى الله عليه وسلم بالأمى ، وهو الوصف الذى جاء فى القرآن لغير الكتابى ، أو للعرب لأنهم غير كتابيين أيضا ، كما ترى فى الآيات التالية :

١ – فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ

---

(١) هذه الآية من دعوات إبراهيم وإسماعيل صلى الله عليهما وسلم أثناء رفعهما قواعد الكعبة ودعاء إبراهيم صلى الله عليه وسلم بأن يجعل مكة بلداً آمناً ، والسلسلة تدل بقوة على أنها فى معرض توكيد صلة الأبوة بينهما وبين العرب .

(٢) جمهور المفسرين على أن القرية هنا هى مكة وأن الآية نزلت فى ظرف ابتلائها بقحط ومجاعة فكان ذلك دلالة على عذاب الله لأن أهل مكة كذبوا الرسول الذى جاءهم وهو منهم .

أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ ... آل عمران ٢٠

٢ - الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ... الأعراف ١٥٧

٣ - هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ... الجمعة ٢

وهكذا تلتحم الصلة بين العرب والنبي صلى الله عليه وسلم فى الجنسية أيضاً فوق التحامها بينه وبين مكة وأهلها .

ويحسن أن نقف قليلا عند آية الجمعة لنشير إلى مايلهم مضمونها ومضمون مابعدها من مؤيدات ، وإلى موقف لبعض اليهود فيه شيء من التشابه من ناحية مما مع ماحام حوله بعض المستشرقين . ونورد أولا الآيات التالية التى جاءت بعدها :

« وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ . مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ... ٣ - ٦

فالآية السابقة وهذه الآيات تلهم بقوة أن اليهود أنكروا نبوة النبي لأنه من العرب الأميين ، وهو أمر مخالف لما كانوا يعتقدون من اختصاص بنى إسرائيل بالنبوات من دون الناس ؛ فأكدت الآيات من جهة أن الله قد بعث فى العرب رسولا منهم ليعلمهم ويهديهم هم وآخرين منهم من بعدهم أيضا ، وردت من جهة

ثانية على اليهود بأنه لاحرج على الله فهو صاحب الفضل يؤتيه من يشاء ، ونددت من جهة ثالثة بهم بأسلوب لاذع لتكذيبهم بآيات الله ناسبة إليهم مناقضة التوراة وعدم رعايتها .

ويظهر أن هذا الموقف من اليهود قد تكرر واستمر ، فتكرر التنديد القرآني بهم بأساليب فيها وضوح أكثر ، كما ترى فيما يلي :

١ — وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَٰبٌ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ . بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ... البقرة ٨٩ — ٩٠

٢ — وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ... البقرة ١٠١

٣ — وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ (١) لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ... البقرة ١٠٩

والاستنتاج الذى تؤدى إليه الآية ٨٩ هو على ماذكره الرواة زهوهم على العرب قبل البعثة وقولهم إنه سيبعث نبيّ من العرب عندهم صفاته يكونون معه حزباً عليهم . وجملة « فلما جاءهم ماعرفوا » وجملة « من بعد ماتبين لهم الحق » تتضمنان إشارات تفسيرية تؤيد الروايات ، كما أن آية الأعراف ١٥٧ التى نقلناها قبل ، تتضمن تأييداً من ناحية أخرى ، إذ لايمكن أن يكون محلا للريب ماتؤكده هذه الآية ـ من أن اليهود والنصارى يجدون صفات النبى صلى الله عليه وسلم عندهم ـ وهى تتلى جهرة ،

(١) سياق الآيات فى حق اليهود .

فليس لهذا معنى إلا أن يكون مما قالوه وقرروه؛ والآيات صريحة فى تدليل موقف اليهود وتناقضهم بأن ذلك إنما هو حسد وبغى ومكابرة.

وواضح أن التوكيد القرآنى تجاه إنكار اليهود هو توكيد قرآنى حاسم كذلك تجاه تحويمات المستشرقين حول موقف يماثله من ناحية ما.

رابعا: لقد تكرر ورود كلمة «قوم» مضافة إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى آيات مكية كما ترى فيما يلى:

١ — وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ... الأنعام ٦٦

٢ — وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ الزخرف ٤٤

وفى آية فى سورة إبراهيم تقرر أن الرسل لا يرسلون إلا بلسان أقوامهم، وفى هذا ينطوى تقرير كونه منهم كما ترى فيها:

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ... ٤

ولقد تكررت التقريرات القرآنية بعروبة القرآن، وبأن الله قد يسره بلسان النبى صلى الله عليه وسلم؛ ليفهمه الذين خوطبوا لأول مرة وهم العرب، كما ترى فى الآيات التالية:

١ — إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ... يوسف ٢

٢ — فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ... مريم ٩٧

٣ — نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ... الشعراء ١٩٣ - ١٩٥

وهكذا تلتحم الصلة أيضاً من هذه الناحية بين عروبة النبى صلى الله عليه وسلم وكونه جزءاً من العرب، ثم جزءاً من عرب مكة وقريشها بنوع خاص.

خامساً: فى سورة الأحزاب الآية التالية:

« إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ الَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ

خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ … ٥

فهذه الآية تدل بصراحة على أنه كان للنبي صلى الله عليه وسلم فى مكة أعمام وعمات وأخوال وخالات ، وأنه قد تزوج من بناتهم اللاتى كنّ فى عداد المسلمين المهاجرين إلى يثرب . والمعروف اليقينى أنه لم يكن بين زوجات النبي صلى الله عليه وسلم هاشميات ، وبطن هاشم هو بطن النبي الأقرب ؛ فعائشة بنت أبى بكر رضى الله عنه من بطن التيم ، وحفصة بنت عمر رضى الله عنها من عدى ، وأم حبيب بنت أبى سفيان رضى الله عنها من عبد شمس ، وأم سلمه رضى الله عنها من بنى مخزوم أو عامر الخ الخ . كذلك من المعروف أن العمومة والخؤولة عند العرب لا تعنى العم المباشر أو الخال المباشر فحسب ، وأنهما قد ترجعان إلى العمومة والخؤولة غير المباشرتين أيضاً ، بحيث يصح القول مثلا إن بنى أمية وبنى هاشم أبناء عم لاجتماعهم فى عبد مناف أبى هاشم وعبد شمس جدى الأسرتين ، وإن بنى النجار فى يثرب هم أخوال النبي صلى الله عليه وسلم لأنهم أخوال أبيه أو جده .

وهكذا تبدو بنص القرآن صلة القربى بالعمومة والخؤولة غير المباشرتين ، وبالتالى صلة القربى القديمة التى قد تعود إلى عدة أجيال بين النبي صلى الله عليه وسلم ومختلف بطون قريش قائمة لا تحتمل مماراة . ولقد أشير إلى هذه الصلة إشارة قوية فى إحدى آيات سورة الشورى وهى :

« قُل لَّا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ … ٢٣

فهى تدعو النبي إلى أن يقول لبطون قريش : إن وشائج القربى بينه وبينهم يجب أن تكون قرينة قاطعة لهم على أن دعوته إياهم إلى الدين فوق كل شبهة من مطامع أو أجر ، وإنما هى دعوة القريب قريبه إلى ما فيه الخير ، للمصلحة المشتركة والمودة المتبادلة ؛ ولقد روى عن ابن عباس رضى الله عنه فى صدر هذه الرواية . أنه لم يكن من بطن من بطون قريش إلا وله صلة قربى بالنبي صلى الله عليه وسلم (١) .

---

(١) نعتقد أن هذا أو ما يقاربه هو التأويل الأقرب إلى الحق من ذلك التأويل الذى يجعل الآية أمراً بمودة ذوى قربى النبي صلى الله عليه وسلم أجرا على هدايته للناس . هذا مع التسليم بواجب المسلمين باحترام آل النبي صلى الله عليه وسلم لكرامة انتسابهم إليه بقطع النظر عن الآية . ونعتقد أن ذلك التأويل إنما دعت =

سادساً : لقد ورد فى سورة الشعراء الآية التالية :

« وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ... ٢١٤

والآية تتضمن - كما هو ظاهر - دلالة قاطعة على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له فى مكة عشيرة ، أو بطن خاص يلتحم به التحام القرابة العصبية المباشرة ، فوق ما يلتحم هذا البطن الخاص بوشائج القربى مع سائر بطون قريش . والقرائن القرآنية مضافة إلى أخبار السيرة والروايات ، تدل على أن هذا البطن الخاص كان ذا مكانة محترمة وجانب عزيز ، فقد اضطر كثير من القرشيين المسلمين إلى الهجرة من مكة إلى الحبشة بسبب ما نالهم من اضطهاد قريش وذوى قرباهم لمتابعتهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وعدم وجود من يحميهم وينصرهم ، وهو معنى أشارت إليه آية فى سورة النحل هى :

« وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ... ٤١

هذا فى حين أن النبي صلى الله عليه وسلم ومعه غيره من رجالات المسلمين القرشيين لم يهاجروا ، وظل النبي يقوم بدعوته قويا صريحاً عنيفاً فى التنديد والتبكيت والهجوم والإنذار بلسان القرآن ؛ ومع الاعتراف بأن لتأييد الله له بروحه ، وخلقه العظيم ، واستغراقه فى الدعوة دون مبالاة شىء ، أثراً كبيراً فى ثباته فى موقفه رغم ما كان يناله من كيد زعماء قريش ومكرهم ومؤامراتهم وأذاهم ، على ماسوف نذكره بعد - فإن مما لاريب فيه أن قوة عصبيته أيضا كان لها أثر غير يسير فى هذا ، كما كان ذلك شأن الذين تخلفوا عن الهجرة من رجالات المسلمين القرشيين . وهذا ما تضمنت الإشارة إليه فقرة فى إحدى آيات سورة الأنعام على ما قاله جمهور المفسرين وهى :

« وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ... ٢٦

ومعلوم أن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم كان يتولى سقاية الحاج ، وأنه

= إليه تلك الخلافات الحزبية الأولى ؛ على أنه لايلائم عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يتسق مع آيات عدة ورد فيها الأمر للنبي بأن يعلن أنه لايسأل أحدا أجرا ، وإنما تذكر دعوته للناس حتى يهتدوا (اقرأ آيات الأنعام ٩٠ والمؤمنون ٧٢ والفرقان ٥٧ وسبأ ٤٨ والطور ٤٠ والقلم ٤٦ ؛ والخبر المروى عن ابن عباس مما يستأنس به على صحة تأويلنا ، كما أن تشابه الاستثناء فى آيتى الشورى والفرقان يدعم أيضا .

المقصود فى المقايسة التى تضمنتها آية التوبة التالية :

« أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ... ١٩

وهذه المهمة التى كان يتولاها العباس، واحدة من المهام العليا التى كان يتولاها رؤساء بيوتات قريش الرفيعة أو نبهاؤها ووجهاؤها، أو بتعبير آخر هى عضوية فى حكومة مشيخة الأشراف المكية، وفى هذا دلالة قرآنية من ناحية ما أيضاً على ما كان لبطن النبى صلى الله عليه وسلم الخاص من عزة ومكانة.

المبحث الثانى

شخصية النبي صلى الله عليه وسلم ونشأته وسيرته قبل البعثة

غلو بعض المسلمين فى شخصية النبي صلى الله عليه وسلم غلوا لا تبرره نصوص القرآن - بواعث الغلو - كفار العرب وشخصية النبي صلى الله عليه وسلم - طبيعة النبي البشرية فى القرآن - عدم علمه من أمر نبوته شيئا قبل نزول الوحى عليه - مماثلته لسائر الأنبياء - كونه عرضة للأعراض البشرية المتنوعة - تحليلات واستدلالات قرآنية حول نشأته - مدى تعبير « ووجدك ضالا فهدى » - تعليق على ما يردده بعضهم من أن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم رسالة قومية - حفاوة القرآن بملة إبراهيم ومداها - اتباع ملة ابراهيم قبل البعثة وترجيح كون النبي صلى الله عليه وسلم منهم - اعتكافاته الروحية قبل البعثة وأثرها - تعبداته - مشاركته فى بعض تقاليد الجاهلية - تنزهه عن فاسد الأخلاق وشائبة الشرك - صلته ببعض الكتابيين - رفاقه - معارفه المكتسبة - مدى جهد بعض العلماء فى نفى ذلك وعدم وجاهته وجدواه - انقباضه وعدم فضوله - مقامه ورجحان عقله وخلقه فى قومه - عدم بروزه فى طبقة الزعماء - عدم معرفته الكتابة والقراءة - تنبيهات فى صدد ذلك .

— ١ —

من العجيب أن يكون فى القرآن آيات كثيرة فيها الكفاية لرسم صورة صادقة لشخصية النبي صلى الله عليه وسلم وفيها قرائن وإشارات ودلالات عديدة تساعد على التعرف على نشأته وسيرته قبل البعثة ، ثم يعمد بعض المسلمين بل بعض علمائهم ، إلى تجاوز ذلك إلى مالا تساعد عليه نصوص القرآن ، بل ما تتناقض معها .

فإذا كنت ممن تسنى لهم أن يسمعوا قصة من هذه القصص التى تتلى فى حفلات المولد فقد سمعت ولاريب نماذج من الغلو الذى يكاد يجعل للنبي صلى الله عليه وسلم شخصية لاهوتية أو فى نطاق اللاهوتية . ولقد وقع غير واحد من كتاب السيرة والشمائل وشراحها فى هذا الغلو : سواء فى سياق ذكر ماقبل نشأة الإنسان الأولى ، أو فى سياق

ذكر نسب النبي صلى الله عليه وسلم وحمله وولادته وبشائره ، دون أن يكون لذلك أصل من قرآن أو سند من حديث صحيح ، أو دعامة من منطق معقول ؛ بل لم يرد فى روايات السلف ومدونات السيرة القديمة أيضاً . ويبدو أن غلاة المسلمين لم يكتفوا بالوقوف عند الإنسان الكامل فى النبي صلى الله عليه وسلم الذى يتجلى فى التميز فى عظم الخلق ، وصفاء النفس ، وكبر القلب ، وقوة الإيمان ، والفناء فى الله والمهمة العظمى التى اضطلع بها ، ورأوا أنه لابد أن يكون من لوازم نبوته واصطفائه أن تكون ثمة مقدمات وبشائر ، وإن كان فيها ما يخرج النبي صلى الله عليه وسلم عن النطاق الطبيعى للبشر أولا ولسائر الأنبياء ثانياً ، ويدخله فى نطاق اللاهوتية أو ما فى معناها ؛ وذلك حين يصفونه بأنه الأب الأكبر لجميع الموجودات ، وأنه خص بالاستخراج من ظهر آدم قبل نفخ الروح فيه لأنه هو المقصود من خلق النوع الإنسانى ، وأن جميع الكائنات من عرش ولوح وقلم وكرسى وسماوات وأرضين وإنس وجن وشمس وقمر وملائكة وجنة ونار قد خلقت من نوره ، وأن أحد أجداده ، إلياس ، كان يسمع تلبيته بالحج وهو فى صلبه ، وأنه كان يعلم بأمر نبوته منذ كان فى عالم الذر وبعد خلقته ، ويرى علائم ذلك فى الشجر والحجر ، وأن أمه سمعت بشائر نبوته ورأت علائمها حين وضعته ، إلى آخر ذلك مما تجده فى القسطلانى وشروحه ومختصراته وغيرها من كتب السيرة والدلائل والشمائل ، وغفلوا عن أن ذلك قد يذهب بحكمة الاصطفاء الربانى لبعض البشر التى انطوت فى الجملة القرآنية :

« اَللّٰهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ... الأنعام ١٢٤

— ٢ —

ومن الغريب والطريف معاً أن يكون مثل هذا الغلو فى اعتقاد صفات النبوة هو الذى حمل طائفة من العرب على أن يجحدوا نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ويقفوا منه موقفا جحوديا ، إذ تخيلوا أن النبي لا بد أن يكون فوق البشرية فى القدرة على الخوارق ومعرفة الغيب وتسخير الأكوان والخلود والصعود إلى السماء واستنزال الملائكة الخ ، فلما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم بشراً مثلهم يقرر بلسان القرآن مثليته

البشرية ، ويرد عليهم حينما يطلبون منه الخوارق بأنه ليس إلا بشراً رسولا ، عجبوا وجحدوا ، وردد القرآن موقفهم وندد به فى آيات كثيرة ، كما ترى فى الأمثلة التالية :

١ — وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا . وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ...

الإسراء ٩٠ - ٩٤

٢ — وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ...

الأنبياء ٧ - ٨

٣ — وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ...

الفرقان ٧ - ٨

والآن نأتى إلى المؤيدات القرآنية .

— ٣ —

فأولا : ما يتصل بشخص النبي صلى الله عليه وسلم .

إن النصوص القرآنية صريحة :

١ - بأن النبي صلى الله عليه وسلم بشر ، وأن بشريته مماثلة لبشرية الناس جميعا : كما

ترى فى الجملة القرآنية التالية :

• قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ... الكهف ١١٠ وفصلت ٥

وقد أكد هذا المعنى فى معرض الرد على الذين طلبوا الخوارق من النبى صلى الله عليه وسلم ، كما جاء فى آيات الاسراء ٩٠ - ٩٤ وفى معرض توكيد أن الأنبياء جميعا بشر كسائر الناس كما جاء فى آيات الأنبياء ٧ - ٨ التى نقلناها آنفاً .

٢ - بأنه لم يكن يعلم من أمر نبوته شيئاً قبل نزول الوحى عليه كما ترى فى الآيات التالية :

• قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ... يونس ١٦

٣ - بأنه لم يكن بدعاً من بين الرسل ولم يكن فى شخصيته ورسالته ووحى الله له غير ما كان فى الرسل السابقين ، كما ترى فى الآيات التالية :

ا - وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ... آل عمران ١٤٤

ب - إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ... النساء ١٦٢

ت - وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى ... يوسف ١٠٩

ث - وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ... الرعد ٣٨

ج - وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ... الفرقان ٢٠

ح — قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَىَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ... الأحقاف ٩

وننبه خاصة إلى أن جل هذه الآيات إنما ورد ردًا على الذين جحدوا نبوة النبي صلى الله عليه وسلم لأنه بشر كسائر البشر ولأن شخصيته كسائر الشخصيات البشرية؛ وهذا مما يدعم المعنى الذى نقرره.

٤ - بأنه لم يكن من جنس الملائكة أو المخلوقات العلوية ولم يكن يعرف الغيب وأنه عرضة للضرر والأعراض المتنوعة الأخرى كسائر البشر كما ترى فى الآيات التالية:

ا — قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَىَّ ... الأنعام ٥٠

ب — قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ... الأعراف ١٨٨

ت — وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ... الأنبياء ٣٤

ث — وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ. وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ... المؤمنون ٩٧ - ٩٨

ج — لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ... الأحزاب ٥٢

ح — يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ... التحريم ١

خ — أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ . وَوَجَدَكَ ضَآلاً فَهَدَىٰ . وَوَجَدَكَ عَائِلا فَأَغْنَىٰ ... الضحى ٦ - ٨

د — أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ . ٱلَّذِى أَنْقَض ظَهْرَكَ ... الشرح ١ - ٣

وإذا كان أكثر هذه الآيات قد نزل لمناسبات حدثت بعد البعثة - إذ جاء بعضها فى معرض الرد على تعجيز الكفار وتحديهم ، وبعضها فى صدد ظروف النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية - فإن شمول دلالتها لشخصيته قبل البعثة من باب أولى ؛ كما هو المتبادر .

— ٤ —

وثانياً : ما يتصل بنشأة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته قبل البعثة .

فأولا : أن آيات سورة الضحى ٦ - ٨ من أقوى وأوضح النصوص القرآنية فى نشأة النبي صلى الله عليه وسلم وحياته إلى مبدإ الوحى ؛ وقد نقلناها قبل قليل ؛ إذ تقرر الآيتان الأولى والثالثة :

ا - ماهو من البداهة المعروفة اليوم من أن النبي كان يتيما ، وأنه نشأ فى حضانة رحيمة من جده ثم من عمه أبي طالب . وتعبير « فآوى » يتضمن تقرير هذه الحضانة بالصفة التي وصفناها والتي استمرت حتى انقلبت إلى حماية قوية من عمه كما يدل معنى « الإيواء » . ولقد استعمل هذا التعبير فى آيات أخرى تضمنت تقرير هذا المعنى ، كما ترى فيما يلى :

١ — وَٱذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ... الأنفال ٢٦

٢ — إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى

سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا ... الأنفال ٧٢

ب - أنه كان فقيراً فأغناه الله. وأخبار السيرة التى لا اختلاف فى جوهرها ولا تناقض: تذكر ظروف ذلك على ماهو معروف من صلة السيدة خديجة بنت خويلد رضى الله عنها به عن طريق عمله لها فى التجارة واقترانه بها نتيجة لهذه الصلة.

وإذا كان ثمة شىء نذكره على هامش ذلك: فهو ما نعتقده من أن هذه الصلة كانت فاتحة عهد جديد، بل حادثاً حاسماً فى حياة السيد الرسول صلى الله عليه وسلم كان له أكبر الأثر فى الإتجاه النهائى الذى اتجه إليه، وتهيأت به نفسه وقواه الروحية لتلقى الرسالة العظمى والنهوض بها؛ إذ أغناه الله عن الضرب فى الأرض فى سبيل الرزق، فاستطاع أن يتمتع فى جانب السيدة بالحياة العائلية الهنيئة المطمئنة من جهة، وأن يتفرغ من جهة أخرى بنفسه وقلبه وفكره وروحه للتدبر فى ملكوت الله وآلائه، والقيام برياضاته أو اعتكافاته الروحية، فارغ القلب من هموم المعيشة وضروراتها.

ولعلنا لا نتجوز إذا قلنا أن الإشارة القرآنية إلى هذا الحادث بالأسلوب الذى وردت به. تتضمن تنويها أو بالأحرى تقريراً لاستحقاق الحادث للتنويه. وننبه على على أن روايات السيرة لم تذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم قام بأى رحلة تجارية، أو شغل نفسه بأى مشغلة دنيوية كسبية بعد اقترانه بالسيدة خديجة رضى الله عنها، وكل ماذكرته فهو أخبار رياضاته واعتكافاته، ثم أخبار قليلة أخرى أهمها حادث التحكيم فى وضع الحجر الأسود فى ركن الكعبة: وفى هذا توكيد لصحة ما تقرره.

وإنه ليكفى المرأة العربية فخراً أن يكون للسيدة خديجة هذا الأثر العظيم فى حياة السيد الرسول صلى الله عليه وسلم، والذى استمر عظيما بعد بعثته أيضاً إلى أن توفاها الله، وهو أثر نوهت به الأحاديث المروية وخاصة فى بدء بعثته، وماكان من ثنائها عليه وتشجيعها له وتثبيتها إياه، وإيمانها بكل ما أخبر به، على ما سوف نشير إليه بعد، ثم ماكان من تفجع السيد الرسول صلى الله عليه وسلم على وفاتها وأثرها فى نفسه وفى سيرته فى أواخر العهد المكى.

أما الآية الثانية: أى «ووجدك ضالا فهدى» فإنها تقرر فيما نعتقد، حالة ذات

خطورة ودلالة كبيرتين فى صدد نشأة النبى صلى الله عليه وسلم الروحية.

ولقد قال المفسرون : إن الآية تحتوى إشارة إلى حادث تيهان وقع للنبى صلى الله عليه وسلم فى طفولته أو فى إحدى رحلاته ورووا فى ذلك روايات ، كما قالوا : إنها تعنى أنه كان غافلا عن الشريعة التى لا تتقرر إلا بالوحى الربانى ، أو أنه كان حائراً فى أسلوب العبادة لله ؛ ونفوا عنه على أى حال أن يكون ضالا أى « مندمجاً » فى العقائد والتقاليد الشركية . والنفس لا تطمئن إلى رواية تيهان النبى صلى الله عليه وسلم مضموناً وسنداً ، بل أنها ليست متسقة مع ما تضمنته الآية من من الله على النبى صلى الله عليه وسلم بأعظم أفضاله عليه ؛ وتفسير ضال « بحائر » يحمل معنى الآية على أن المقصود الحيرة فى الطريق التى يجب أن يسار فيها إلى الله وعبادته على أفضل وجه ، وهو المعنى الذى نراه ، ويعضد ذلك :

١ — جملة « مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَـٰبُ وَلَا الْإِيمَـٰنُ » الشورى ٥٢ .

٢ — آيات الأنعام التالية :

« قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَـٰلَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ... ١٦١ - ١٦٣

حتى لكأن هذه الآيات بمثابة شرح وتفسير لآية الضحى .

— ٥ —

ولقد ذكرت ملة إبراهيم صلى الله عليه وسلم فى القرآن مرات عدة بحفاوة عظيمة ، فى آيات مكية ومدنية ، وفى صدد الجدل والخطاب مع العرب فى مكة ومع اليهود فى المدينة ، وفى صدد الدعوة إليها والتنويه بها وتقرير صفتها وما هيتها لذاتها أيضاً ، كما ترى فى الأمثلة الآتية :

١ — وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ... البقرة ١٣٥

٢ - قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ... آل عمران ٩٥

٣ - إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ . شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ . ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ... النحل ١٢٠ - ١٢٣

٤ - وَجَٰهِدُوا فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ ٱجْتَبَٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ... الحج ٧٨

فهذه الآيات وأمثالها تلهم أن ملة إبراهيم صلى الله عليه وسلم التوحيدية الحنيفية، كانت مما تتداوله الألسنة قبل البعثة، وعنواناً على الملة المثلى لمعرفة الله وعبادته.

ولقد وردت روايات عديدة عن أفراد من العرب فى مكة ويثرب تخلوا قبل البعثة عن تقاليد العرب الشركية ووحدوا الله، ومنهم من تنصر بعد ذلك، ومنهم من عبد الله على ملة إبراهيم أو ماظنه ملة إبراهيم، ومنهم من خرج ينشد اليقين عنهما. على ما ذكرناه فى كتابنا «عصر النبى صلى الله عليه وسلم وبيئته قبل البعثة»، ومما ورد فى تلك الروايات أن النبى صلى الله عليه وسلم لقى بعضهم قبل البعثة مثل: زيد بن عمرو، وورقة بن نوفل، وأمية بن أبى الصلت، وعبد الله بن جحش.

والذى نعتقده وهو ما وصلنا إلى استنتاجه وتقريره أيضاً فى كتابنا الآنف الذكر، ونرى أن الآيات القرآنية تلهمه: أن النبى صلى الله عليه وسلم كان من هؤلاء الأفراد الذين أنفوا من تقاليد الآباء الشركية والجاهلية، واعتنقوا فكرة الوحدانية وأخذوا يعبدون الله على ملة إبراهيم صلى الله عليه وسلم أو ماظنوه كذلك أو أخذوا يبحثون عنها، ولم يعتنقوا اليهودية ولا النصرانية لما رأوا من انحراف أهلهما واختلافهم وتفرقهم شيعاً متنازعة؛ وأنه كان كذلك منذ أن نضج شبابه، وأن اقترانه بالسيدة خديجة رضى الله عنها ساعده على التفرغ لاتجاهه وحياته الروحية هذه التى كان من

مظاهرها تلك الرياضات أو الاعتكافات الروحية السنوية فى رمضان وفى غار حراء خاصة، والتى كانت وسيلة من وسائل تصفية نفسه وتجلية ذهنه، واستغراقه فى آلاء الله وملكوته وعظمة كونه ووحدانيته والفناء فيه، مع شىء من الحيرة وقلق النفس، إلى أن خصه الله بفضله، فاصطفاه دون غيره من أهل طبقته لما علمه فيه من مواهب عظمى جعلته أهلا للرسالة، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، فصار من الحيرة والقلق إلى الهدى والطمأنينة والخطة الواضحة القويمة.

- ٦ -

هذا؛ ونريد أن نشير إلى مايردده بعض القوميين من العرب من أن الرسالة المحمدية هى رسالة قومية؛ أى أنها استهدفت النهوض بالأمة العربية وإصلاحها وتقويتها وتوحيدها الخ؛ ومع أن فى القرآن آيات تذكر مسئولية العرب عن الرسالة السامية التى شرفهم الله بها مثل:

١ — وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ... الزخرف ٤٤

٢ — وَجَٰهِدُوا فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ ٱجْتَبَٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ... الحج ٧٨

فإن فى تلك الدعوى فى الحقيقة تجوزاً كبيراً، وإن من الحق أن يقرر أن اتجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قبل بعثته كان دينيا منبعثاً من شعور ذاتى، أو إلهام، بما كان عليه العرب من سخف فى العقائد الشركية والوثنية، وانحراف عن سبيل الهدى الدينى، وأن رياضاته الروحية، وانصرافه عن كل شىء، واستغراقه فى آلاء الله، فى الفترة التى سبقت اتصال وحى الله به، قدكانت بسبيل ذلك فى الدرجة الأولى، وهذا مفسر لعمومية وإنسانية الدعوة القرآنية وطابعها الدينى البارز، وخاصة فى القرآن المكى. ولعل فى آية سورة يونس (١٦) التى نقلناها من قبل قرينة قرآنية

حاسمة ؛ إذ تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم قبل نزول الوحي كان بعيداً عن أي نشاط وفضول ، ولم تظهر منه أي بادرة من دعوة عامة قومية أو دينية .

— ٧ —

ثانياً : ليس فى القرآن ما يمكن الاستدلال به على كيفية تعبد النبي صلى الله عليه وسلم لربه قبل البعثة .

ولقد استدللنا فى كتابنا « عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته قبل البعثة » بآيات عدّة ، مثل آيات البقرة ٤٣ و ١٢٥ والأنفال ٣٥ وإبراهيم ٣٧ ومريم ٣١ والحج ٢٦ والإسراء ١٠٧ على أن أهل هذه البيئة من العرب كانوا يعرفون أن الصلاة مظهر من مظاهر العبادة لله أو الآلهة ، وأنهم كانوا يقومون بصلاة تعبدية ، وأن حالات القيام والركوع والسجود كانت معروفة وممارسة ككيفيات تعبدية عند العرب والكتابيين ، وعند العرب أمام الكعبة بنوع خاص ؛ وبناء على هذا فإننا نستطيع أن نقرر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعرف هذه الكيفيات ، وأنه كان يمارسها جهراً عند الكعبة وفى خلواته كعمليات تعبدية قبل بعثته لله وحده تبعاً لاتجاهه الديني الذى ذكرناه آنفاً .

ثالثاً : إن آية الصوم :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ » البقرة ١٨٣

صريحة بأن الصوم كعمل تعبدى كان معروفاً وممارساً عند أهل الكتاب الذين كان منهم فى الحجاز عدد كبير ؛ ونص الآية يسوغ تقرير أن العرب أيضاً كانوا يعرفون الصوم كعمل تعبدى دينى أيضاً .

أما أنهم كانوا يمارسون ذلك أو يمارسه النبي صلى الله عليه وسلم فليس فى القرآن ما يدل عليه ؛ غير أن هناك روايات وأحاديث يمكن أن يستأنس بها على وقوع ذلك ، ولقد ورد فى البخارى حديث عن عائشة رضى الله عنها ذكر فيه أن قريشاً كانوا يصومون يوم عاشوراء فى الجاهلية وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصومه أيضاً . وهو يوم تجديد أستار الكعبة .

رابعاً : ليس فى القرآن نص يمكن الاستدلال به على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يؤدى قبل البعثة شعائر الحج ومناسك الكعبة من طواف واعتكاف واستلام وسعى ووقوف بعرفة ، أو أنه كان يقوم بالمناسك ويرعى الحرمات المتنوعة الأخرى كتقريب القرابين وتحريم الصيد والأشهر الحرم الخ الخ ؛ غير أن الآيات الواردة فى شعائر الحج ومناسك الكعبة المتنوعة تدل دلالة لاريب فيها على أن جل مافى الإسلام من هذه الشعائر كان يمارسه العرب قبل البعثة ، فلما جاء الإسلام طهره من شوائب الشرك والوثنية على ماقررناه فى كتاب عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته قبل البعثة ، وبناء على هذا فإن مما يسوغ الجزم به أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم بمختلف شعائر الحج ومناسك الكعبة قبل البعثة مجردة من شوائب الشرك والوثنية تبعاً لاتجاهه الديني التوحيدى أيضاً . ومما يجدر التنبه إليه فى هذا المقام أن كل أو جل هذه الشعائر والمناسك فى أصلها من ملة إبراهيم كما ذكر القرآن ، وأن العرب كانوا يعرفون ذلك ويعترفون به ؛ وقد كان النبي ممن ينشدون ملة إبراهيم ، ولكنه كان على يقين أن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ؛ فمن المعقول أن يكون قد مارس تلك الشعائر والمناسك منزهة عن تلك الشوائب .

— ٨ —

خامساً : فى القرآن قضية معينة متصلة بممارسة النبي صلى الله عليه وسلم لتقليد من تقاليد الجاهلية ، وهى قضية تبنيه لزيد بن حارثة ؛ والمجمع عليه أن هذا التبنى قد كان قبل البعثة .

أما النص القرآنى الذى يتضمن تبنى النبي صلى الله عليه وسلم لزيد فهو هذا :

« وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً . وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ

وَٱتَّقِ اللهَ وتُخْفِى فى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وتَخْشَى النَّاسَ واللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَىْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وكانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا ... الأحزاب ٣٦ — ٣٧

وهناك آية أخرى تنفى أبوة النبى صلى الله عليه وسلم لزيد جاءت بعد قليل من هذه الآيات وهى :

« مَا كانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ولَكِنْ رَسُولَ اللهِ وخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ... الأحزاب ٤٠

والآيات تحتوى قرائن قوية على أن قضية زيد متصلة بالنبى صلى الله عليه وسلم وتبنيه ، وأنها بسبيل إبطال هذا التقليد وآثاره التى فصلناها فى كتابنا عصر النبى صلى الله عليه وسلم وبيئته ، والتى منها حرمة نكاح مطلقة أو أرملة المتبنى أسوة بحرمة نكاح مطلقة الابن من الصلب أو أرملته .

وإذا لم يكن فى القرآن ما يستدل به على أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يمارس قبل بعثته تقليداً آخر من التقاليد العائلية والاجتماعية التى كانت جارية فى بيئته فإننا نرجح ، إن لم نقل نجزم ، قياساً على ممارسته هذا التقليد وتقاليد الحج المتنوعة ، أنه كان يمارس غير هذه وذاك أيضاً .

وفى أخبار السيرة خبر حفلة زواج النبى صلى الله عليه وسلم بالسيدة خديجة رضى الله عنها وتبادل الخطب القصيرة فيها وفقاً للعادات التى كانت تجرى وقتئذ ، وخبر اشتراك النبى صلى الله عليه وسلم فى حرب الفجار حيث كان يهيئ السهام ويعطيها لبعض أعمامه وهو فتى ، وخبر اشتراكه أو شهوده عقد حلف الفضول ، وخبر تحكيمه فى أمر وضع الحجر الأسود فى ركن الكعبة عند تجديد بنائها الخ الخ

على أن من الواجب أن ننبه إلى أن ثناء القرآن على أخلاقه فى آيات مبكرة جدا فى النزول وهى آيات سورة القلم :

« نٓ . وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ . وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ . وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ... ١ — ٤

يدل دلالة حاسمة على أنه لم يكن يتورط فى عادة أو تقليد جاهلى ينبو عنه الذوق السليم والخلق الكريم ولا يتسق مع انصرافه إلى الله وحده واعتكافاته ورياضاته الروحية ، من مثل أكل الميتة وشرب الخمر ومقارفة الزنا والقمار وتقريب القرابين للأوثان ، والاشتراك فى حفلات وطقوس عبادتها وتكريمها الخ الخ .

— ٩ —

سادساً : فى سورة النحل آية تحكى دعوى بعض الكفار أن شخصا أجنبيا معينا كان يعلم النبي ، وترد هذه الدعوة ، وهى هذه الآية :

« وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ... ١٠٣

والآية تنفى التعليم الذى أراد ناسبوه فى ادعائهم جحود نزول الوحى الربانى بالقرآن على النبي صلى الله عليه وسلم ، غير أنها لاتنفى اتصالا ما بينه وبين أحد أفراد الجالية الأجنبية كما هو ظاهر ؛ والمتبادر أن الجاحدين لم يكونوا ليقولوا ماقالوه لو لم يروا أو يعرفوا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتردد على شخص من أفراد هذه الجالية فى مكة هو أهل علم وتعليم دينى ، وله وقوف على الكتب الدينية السماوية . ولقد أورد المفسرون فى سياق هذه الآية رواية مفادها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتردد فعلا على نصرانى غير عربى اسمه جبرا كان يشتغل بالحدادة ، وأنه كان يستمع أحياناً إلى مايقرأ من تلك الكتب . وليس من المستبعد - إن لم نقل من المرجح - أن يكون هذا الاتصال ، بقطع النظر عن اسم الشخص وصنعته ، قبل البعثة ، ثم امتد إلى مابعد البعثة ، وأن يكون الشخص المنسوب إليه تعليم النبي ممن آمن به وصدق برسالته واندمج فى دعوته ، وكان ممن تشير إليهم الآيات المكية الكثيرة التى تستشهد على صحة الرسالة النبوية بهم وتذكر فرحهم بما أنزل الله على النبي صلى الله عليه وسلم وإيمانهم به ، مثل آيات القصص ٥٢ - ٥٣ - والاسراء ١٠٧ - ١٠٩ التى نقلناها فى

مناسبة سابقة ، ومثل الآيات التالية :

١ — الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ...

الأنعام ٢٠

٢ — والَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ...

الأنعام ١١٤

٣ — والَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ...

الرعد ٣٦

سابعاً : فى سورة الفرقان آية تحكى كذلك دعوى بعض الكفار أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستعين فى نظم القرآن بقوم آخرين ، كما ترى :

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ ٱفْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَاءُو ظُلْماً وزُوراً ...

٤

والآية إنما تنفى كذلك دعوى الاستعانة ولا تنفى اتصالا أو صحبة بين النبي صلى الله عليه وسلم وفريق من الناس ، كما أن تعبير « قوم آخرون » يلهم أن المنسوب إليهم أكثر من واحد ، وبالتالى يسوغ القول أنه غير الشخص الأعجمى المعنىّ فى آية النحل والذى يتبادر إلى الذهن أن الكفار لم يكونوا ليقولوا ما قالوه مما حكته الآية لو لم يروا أو يعرفوا أنه كان للنبى صلى الله عليه وسلم حلقة أو رفاق يجتمعون إليه ويجتمع إليهم ويتحدثون فى الأمور الدينية . وليس من المستبعد ـ إن لم نقل من المرجح ـ أن هذا كان قبل البعثة ثم امتد إلى مابعدها ، وأن يكون من هؤلاء الرفاق أفراد من الجالية الكتابية الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم واندمجوا فى دعوته ، وممن كانت تعنيهم تلك الآيات المكية . وقد ذكرت الروايات أسماء عدد من هؤلاء بين المسلمين السابقين كسلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى رضى الله عنهم . ولقد كان أبو بكر رضى الله عنه صديق النبي صلى الله عليه وسلم الصدوق قبل البعثة ، وكان دائم الاتصال به على ماذكرته الروايات المتعددة ، وكان أول من آمن به من الرجال ، وكان بعض كبار الصحابة مثل عثمان وسعد وسعيد وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وأبى عبيدة

رضوان الله عليهم كذلك من المؤمنين السابقين، وكانوا من فتيان قريش النيرين الذين يكتبون ويقرأون، فلا يبعد أن يكون هؤلاء وغيرهم ممن لم نذكر من السابقين الأولين من فتيان قريش أيضاً - من هذه الحلقة أو هؤلاء الرفاق.

- ١٠ -

ثامناً: في القرآن بعض آيات تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان غافلا قبل نزول القرآن عليه كما ترى في الآية التالية:

« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْءَانَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَٰفِلِينَ » يوسف ٣

وأن الله قد علمه مالم يكن يعلم كما ترى في الآية التالية:

« وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ... » النساء ١١٣

وأنه لم يكن يتلو قبل القرآن من كتاب ولا يخطه بيمينه؛ وقد سبق هذا للتدليل على عدم وجاهة ارتياب الجاحدين في صحة التنزيل والوحي الرباني كما ترى في الآية التالية:

« وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ... » العنكبوت ٤٨

فهذه الآيات وأمثالها قد حملت على ما يبدو بعض علماء المسلمين على نفي الاكتساب العلمي عن النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة، بل على بذل الجهد في هذا النفي وتوكيده؛ وهذا ما جعلنا نتعرض لهذا الأمر في هذه النبذة لأن له صلة وثيقة بأحوال النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته قبل البعثة.

ونحن لا نرى حكمة أو ضرورة تحمل هؤلاء العلماء على نفي الاكتساب العلمي عن النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته وبذل الجهد في هذا النفي، كما أننا لا نرى هذه الآيات تتعارض مع صحة القول بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد اكتسب معارف

كثيرة مما كانت تحتويه الكتب الدينية وغيرها من مبادئ وأسس وتشريعات وقصص ومما كان يدور على ألسنة الناس من مثل ذلك، كتابيين كانوا أو غير كتابيين، بسبب تلك الاتصالات التي تلهم وقوعها الآيات القرآنية، وبسبب الرحلات التي أجمعت الروايات على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قام بها، وبسبب طبيعة وجوده في بيئة تلم إلماماً غير يسير بهذه المعارف؛ وكل ما في الأمر أن هذه الآيات هي بسبيل توكيد صحة الوحي الرباني والتنزيل القرآني، والتنبيه على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن قد فكر قبل الوحي والتنزيل بالدعوة أو أمل بأن يكون هو الذي اصطفاه الله ورآه أهلا لوحيه وتنزيله مما يمكن أن تكون الآيات التالية قد أرادت تقريره كما ترى فيها:

١ — قُل لَّوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ... (١)
يونس ١٦

٢ — وَمَا كُنتَ تَرْجُوا أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ...
القصص ٨٦

٣ — وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ...
الشورى ٥٢

ولقد أثبتنا بالاستدلالات القرآنية في كتابنا «عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته قبل البعثة» أن أهل بيئة النبي صلى الله عليه وسلم كانوا على اتصال بالأمم الكتابية وغير الكتابية عن طريق المستقرين منهم في الحجاز وعن طريق الرحلات المستمرة إلى البلاد المجاورة، وأن كثيرا من أخبارهم ومعارفهم وعقائدهم ومقالاتهم وأحوالهم قد تسربت إلى العرب وشاهدوا مشاهدها التاريخية والمعاصرة، وليس من الطبيعي ولا من المعقول أن يبقى النبي صلى الله عليه وسلم في عزلة أو غفلة عن هذا كله؛

(١) تتضمن الآية فوق ذلك إشارة إلى أنه لم يبدر منه قبل نزول القرآن بادرة دعوة أو سعي في سبيلها حتى يكون للجاحدين مسوغ لاتهامه باقتراء القرآن ونسبته الدعوة إلى الله مؤخراً.

حقيقة قد علم الله النبي بوحيه وتنزيله أموراً متنوعة كثيرة كان غافلا عنها هو وقومه، ولكن ذلك لا يقتضي أنه كان غافلا عن كل ما حوله من أمور وما يدور في بيئته وعلى ألسنة معاصريه من كتابيين وغير كتابيين وعرب وغير عرب من أنباء وقصص وظروف وحالات؛ فإن هذا يناقض طبائع الأشياء.

ولقد يقال إن فى القرآن آيات قررت أن النبي صلى الله عليه وسلم وقومه لم يكونوا يعلمون ماجاءت به القصص القرآنية، مثل الآيتين التاليتين:

١ — « تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا ... هود ٤٩

٢ — « ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ... يوسف ١٠٢

غير أننا لا نرى هذا مما ينقض ما قلناه أو يتعارض معه؛ فهناك آيات كثيرة أخرى فيها مؤيدات على أن العرب لم يكونوا غافلين أو جاهلين لكثير مما كانوا يسمعونه من قصص القرآن وأخبار الأنبياء والأمم الغابرة وأحوالهم كما نرى فى الآيات التالية:

١ — « وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ... الأنفال ٣١

٢ — « بَلْ قَالُوا أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ... الأنبياء ٥

٣ — فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ... القصص ٤٨

٤ — وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ... العنكبوت ٣٨

٥ — وإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ . وبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعقِلُونَ ... [١]

الصافات ١٣٧ — ١٣٨

فآيتا هود ويوسف لاتقرران شمول نفى علم النبي وقومه بكل قصة أو خبر قرآنى قبل نزول القرآن ، وإنما هما بسبيل قصتى نوح ويوسف صلى الله عليهما وسلم اللتين جاءت الآيتان عقبهما ، فمن الجائز أن يكون فى القصتين بعض المعانى أو المواقف الدقيقة التى غفل عنها النبي صلى الله عليه وسلم والسامعون ، وأن تكون الآيتان إنما عنتا ذلك ، لاسيما أن قصتى نوح ويوسف صلى الله عليهما وسلم من القصص الواردة فى التوراة بإسهاب ، وقد كانت التوراة متداولة بين أيدى الكتابيين وخاصة اليهود الذين كان منهم جاليات كبيرة مستقرة فى الحجاز كما هو معروف ؛ وليس مما يصح فرضه أن تكون القصتان برمتهما مجهولتين جهلا تاماً فى بيئة النبي صلى الله عليه وسلم دون غيرهما من القصص القرآنية الواردة فى التوراة .

ومعلوم أن فى القرآن إشارات إلى أمور كثيرة جدا مما كان عليه الناس فى بيئة النبي صلى الله عليه وسلم ودائراً فيها من شؤون وظروف وحالات دينية واجتماعية وأخلاقية ومعاشية ومعارف وأنباء تناولها القرآن بالذكر جدلا وعظة وتعليما وتنديداً وإصلاحاً وتشريعاً وحظراً وإباحة ، ولا يقول أحد بطبيعة الحال إن هذه الامور جاءت فى القرآن جديدة ، أو إن النبي صلى الله عليه وسلم كان أو يمكن أن يكون فى غفلة أو عزلة عنها قبل بعثته ، وكثير منها متصل بتاريخ وأحوال وتقاليد وظروف عربية وغير عربية ، وليس هناك فرق فيما نعتقد فى المدى بين الحالتين .

— ١١ —

تاسعاً : أن فى الفقرة الثانية من آية يونس (١٦) التى نقلناها منذ قريب تدليلا لأهل مكة أو لزعمائهم على أن الدعوة النبوية والتنزيل القرآنى من أمر الله ووحيه ، إذ لو كانت الدعوة من عند النبي صلى الله عليه وسلم لبدت منها بوادر قبل بعثته أيضاً ، على حين أن شيئاً من هذا لم يبدر منه فى السنين الطويلة

---

(١) أعنى قوم لوط وأطلال لهم المدمرة فى طريق القوافل التجارية الحجازية .

السابقة التي قضاها بين قومه، ففي هذا التقرير صورة لما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته من انقباضه وعدم تدخله فيما لا يعنيه وعدم ابتداره الناس بأى شأن متصل بعقائدهم وتقاليدهم الدينية. والفقرة القرآنية تنطوي على تذكير زعماء مكة بهذه الصورة النبوية في الحقبة الطويلة من حياة النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته، والتي نعتقد أنه قضاها في الاعتكافات والرياضات الروحية، وخاصة منذ نضج شبابه وسكون نفسه بالطمأنينة العائلية، وإغناء الله له عن الضرب في الأرض ابتغاء الرزق على ما ذكرناه قبل.

ونظن أننا في غنى عن القول بأنه لا تعارض بين هذه الصورة وما ذكرناه في الفقرتين السابقتين، من ترجيح تردده على بعض الكتابيين، ووجود حلقة رفاق له يجتمع إليهم من الكتابيين وغيرهم، وجريان الحديث بينه وبينهم في أمور دينية وثقافية متنوعة؛ فهذه دائرة ضيقة وخاصة كما هو واضح، بل قد تكون حلقة من حلقات اعتكافاته ورياضاته الروحية.

عاشراً : في سورة «المؤمنون» الآية التالية :

«أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ... ٦٩

وقد جاءت في سياق التنديد بكفار قريش على تكذيبهم وجحودهم وعدم تدبرهم فيما جاءهم ورميهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجنون أو مخالطة الجن له كما ترى فيما يلي :

«أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ . أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ . أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ... ٦٨ — ٧٠

والسؤال في الآية (٦٩) استنكاري، للتنديد بالكفار على تجاهلهم للنبي صلى الله عليه وسلم مع أنهم يعرفونه حق المعرفة، ويتضمن تعبير «يعرفونه» معاني عديدة كما تلهمه روح الآية : أي أنهم يعرفونه بالعقل الراجح، والأمانة والصدق، وبعدم الفضول والتدخل فيما لا يعنيه، وبحبه الخير ومكارم الأخلاق واشتهاره بهما، وبانقباضه

عن الشرور والمنكرات والفواحش ومواقف التهم ؛ لأن التنديد بالكفار لم يكن ليستحكم إلا على تجاهلهم مثل هذه الصفات السامية التي يعرفونها فيه تمام المعرفة من قبل .

وفى كل هذا صور عما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته من أحوال وأخلاق معروفة ، ومكانة محترمة بسببها . ولقد روت روايات السيرة المعتبرة حادث تحكيم زعماء قريش النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الخلاف على وضع الحجر الأسود فى ركن الكعبة ، وأنهم كانوا يسمونه الأمين ؛ وإن قوة الصورة التى تتضمنها الآية لتلهم بأن هذا الحادث صحيح ، كما تلهم أن تسمية النبي صلى الله عليه وسلم بهذه التسمية العظيمة صحيحة أيضاً .

- ١٢ -

حادى عشر : فى سورة الزخرف الآية التالية :

« وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ...

٣١

وقد تضمنت الآية حكاية حنق الزعماء وعجبهم لعدم نزول القرآن على عظيم من عظماء مكة والطائف ، واختصاص النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الشرف الربانى . ومعنى هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم - على أنه كان معروفا غير نكرة على ماذكرناه فى الفقرة السابقة ، وعلى أنه كان من بطن ذى مكانة محترمة وعصبية عزيزة على ماذكرناه فى فقرة قبلها - لم يكن من الزعماء البارزين فى بيئته ، وأن هذا كان من أسباب وقوف زعماء قريش منه موقف الاستكبار والأنفه ، ترفعا عن اتباع شخص ليس له زعامة توجب الطاعة وتبرر الاتباع ؛ فقد كان للزعامة أثر ودور قويان فى بيئة النبي صلى الله عليه وسلم وعصره قبل البعثة كما ذكرنا ذلك فى كتابنا عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وبيئته ، ولقد ردّدت آيات أخرى هذه الأقوال والمعانى وردّت عليها كما ترى :

١ — وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ

حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِىَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ...

الأنعام ١٢٣ — ١٢٤

٢ — وإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَٰذَا الَّذِى بَعَثَ اللهُ رَسُولاً ... الفرقان ٤١

٣ — وأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً . ٱسْتِكْبَاراً فِى الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ... فاطر ٤٢ — ٤٣

٤ — أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ... ص ٨

ونظن أننا فى غنى هنا أيضا عن التنبيه إلى أن عدم بروز النبي صلى الله عليه وسلم فى مجال الزعامة، وما ورد فى آية الفرقان من حكاية استهزاء الكفار به، لا يتناقض مع ماقلناه فى الفقرات السابقة من أنه كان معروفاً برجاحة العقل ومكارم الأخلاق، ومن أن عشيرته الأقربين كانت ذات مكانة محترمة وجانب عزيز؛ فليس ضروريا أن يكون كل معروف بكرم الخلق ورجاحة العقل، أو كل فرد من عشيرة ذات مكانة فى المجتمع، زعيما عظيما بارزاً كما لا يخفى. ولعل هذا ما استهدفت تقريره الآية التى تلت آية الزخرف التى نقلناها وهى :

« أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ... ٣٢

إذ ردت على الزعماء الذين أبدوا العجب لاختصاص النبي صلى الله عليه وسلم من دونهم بالرسالة مع أنهم الزعماء النافذون المطاعون إذا أمروا، والمستجابون إذا دعوا - ردا حاسما بأن هذه أعراض دنيوية، وبأن أمر النبوة رحمة ربانية خاصة منوطة بمؤهلات عظمى لا تمت إلى تلك الزعامات والأعراض الدنيوية بسبب، وهو ما قررته آيات الأنعام أيضاً بسبيل الرد عليهم كما هو ظاهر.

ثانى عشر : إن آية العنكبوت ٤٨ التى نقلناها قبلا تضمنت نصا صريحاً على أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن يكتب أو يقرأ قبل بعثته ، وصيغة الآية تدل على أن هذا الأمر لم يكن يجهله قومه ، إذ تساق فى معرض التدليل على صحة الوحي والتنزيل الربانى . وفى سورة الفرقان آية أخرى قد تكون مؤيدة للنقطة الأخيرة خاصة والنقطة الأولى أيضاً وهى :

« وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ... ٥

فتعبير « تملى عليه » بمعنى: تتلى عليه ، وتعبير « اكتتبها » بمعنى استكتبها[١] والقول حكاية عن الكفار ، أى أنهم كانوا يقولون إنه كان يستكتب قصص الأمم السابقة ويستمع إلى من يتلوها عليه صبحاً ومساء حتى يحفظها ثم يقصها على أنها وحى من الله ، وهذا يؤيد أنه كان لا يقرأ ولا يكتب ، وأن زعماء مكة كانوا يعرفون ذلك .

وننبه أولا إلى أن هاتين الآيتين هما اللتان تفيدان أن النبى لم يكن يقرأ أو يكتب لا كلمة « الأمى » التى وصف بها فى آيتى الأعراف ١٥٧ و ١٥٨ اللتين نقلناهما فى مناسبة سابقة ، إذ أن هذه الكلمة قد استعملت فيهما كما استعمل جمعها فى الآيات القرآنية الأخرى[٢] بمعنى غير كتابى وغير كتابيين ، وصفاً للعرب الذين هم ليسوا أهل كتاب .

وثانياً إلى أن آية العنكبوت إنما تنفى معرفة القراءة والكتابة عن النبى صلى الله عليه وسلم قبل بعثته ؛ ولقد وردت روايات تفيد أنه كان بعد بعثته يكتب اسمه ، وأنه محا كتابة معينة بيده فى أثناء مفاوضات صلح الحديبية وكتابة عقد الصلح . وبقطع النظر عن سند ومضمون تلك الروايات فليس من المستبعد أن يكون قد تعلم القراءة والكتابة بعد بعثته ، كما أن الآية لا تنفى ذلك ، غير أن هذا إن كان وقع ، فقد ظل فيما

(١) اقرأ تفسير الطبرى والكشاف لآية الفرقان

(٢) يمكن استثناء آية البقرة ٧٨ لاحتمال دلالة « الأميين » فيها على معنى الضعفاء فى القراءة والكتابة أو الجهال

نعتقد فى دائرة محدودة لا تعدو كتابة الاسم أو قراءة بعض الجمل ، لأنه لو تعدى هذه الدائرة لأثر فى الروايات والأحاديث على الأقل .

وثالثاً لقد رأينا بعض المستشرقين (١) يحاول البرهنة على أنه من غير المعقول ألا يكون النبي صلى الله عليه وسلم قارئاً كاتباً على حين قد احتوى القرآن على معارف كتابية كثيرة ، وكان كثير من فتيان قريش من أمثاله وفى مثل سنه يقرأون ويكتبون ؛ بل قد رأينا بعضهم يزعم أنه كان يكتب ويقرأ وإنما كان يحاول كتمان ذلك عن الناس وعن أصدقائه الذين يعرفون ذلك فيه . ومع أننا لا نرى كبير شىء فى كتابة النبي صلى الله عليه وسلم وقراءته وعدمهما ، كما لا نرى إلمامه بذلك أو عدمه ينقص من عظمة شأنه على ماسوف نبينه بعد قليل ، فإننا نرى ذلك الزعم غير سليم وغير مستقيم ، وخاصة بالنسبة لما قبل البعثة تجاه صراحة آية العنكبوت التى كانت تتلى على الناس وعلى أصدقائه الأدنين الذين يرون صدقه وأمانته وإخلاصه من المقدسات التى تعلو فوق كل مظنة والتى يقوم عليها إيمانهم برسالته ؛ فلا يعقل بأى حال أن تنطوى آية قرآنية على نفى شىء يعرفون عكسه ، كما لا يعقل بأى حال أن يحاول النبي صلى الله عليه وسلم كتمان أمر مثل هذا عن الناس وعن أصدقائه وهم يعرفون صفته ؛ وليس من الضرورى أن يكون قارئاً كاتباً لأن أمثاله ولداته قارئون كاتبون ؛ إذ من الممكن أن يكون عدم قراءته وكتابته بسبب ظروف حياته الخاصة ، إذ تيسر لرفاقه ولداته مالم يتيسر له ، وهو اختلاف طبيعى ونعتقد أنه هو الواقع .

أما الدعوى بأن ما اكتسبه النبي صلى الله عليه وسلم من معارف كثيرة كتابية وغير كتابية وتاريخية وجغرافية واجتماعية وكونية ودينية تتوقف على معرفته الكتابة والقراءة ، فمنشؤها فى نظرنا أن الباحثين ينظرون بعين الحاضر وعقله أكثر مما ينظرون بعين زمن مضى منذ أربعة عشر قرنا وعقله فى بيئة مثل بيئة الحجاز بنوع خاص . وقليل من التفكير يكفى لتبين الغلو فى هذه النظرة ؛ فلا مطابع ولا مكاتب ولا وراقة ولا كتب منتشرة متيسرة ؛ وكل ما هنالك بعض كتب ورسائل وصحف دينية مكتوبة على الأعم الأغلب بغير اللغة العربية ، وفى نطاق محدود جداً . ومن المعقول جدا أن يكون الاعتماد فى مثل هذه الظروف على الذاكرة الواعية ؛ وليس بدعاً ولا غريباً

---

(١) كايتانى فى بحث الخط العربى ونشأته

أن يكون السماع والحفظ هما طريق اكتساب المعارف التى اكتسبها النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته وبعدها - إن لم يكن اكتسابه بالوحى الربانى - ومثل هذا غير نادر الوقوع فى كل زمان ومكان إلى اليوم، ومن الأولى أن يكون هو الأكثر حدوثاً فى عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته.

ورابعاً مادام اكتساب المعارف ليس متوقفاً على القراءة والكتابة لاسيما فى ذلك العصر وتلك البيئة، وما دامت المعارف الكثيرة التى تعلمها النبي صلى الله عليه وسلم بطريق الوحى والتنزيل الربانى لا تتعارض مع احتمال، بل حقيقة اكتسابه كثيراً من المعارف المتنوعة عن غير طريق الوحى لاسيما قبل بعثته، فإننا لانرى فى عدم كتابة النبي صلى الله عليه وسلم وقراءته ما يحاول أن يراه بعض علماء المسلمين أيضا للتدليل على دعوى أنه لم يكتسب شيئاً من المعارف اكتساباً خارج نطاق الوحى، سواء أكان ذلك قبل البعثة أو بعدها، لأن فى هذا غلوا لانرى له محلا ولا إليه ضرورة فى صدد كرامة النبي صلى الله عليه وسلم وعظمة شأنه وقدره، فوق ما فيه من التناقض مع طبائع الأشياء على ماذكرناه من قبل بشىء من الإسهاب. ولقد يتوهم متوهم أن فى آية العنكبوت نفسها ما ينقض قولنا هذا؛ ونحن لانعتقد ذلك؛ لأن الآية بسبيل التدليل على صحة الوحى الربانى بالقرآن والتنديد بجاحدى ذلك؛ والمعارف التى يمكن أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد اكتسبها شىء، وأسلوب الكتب السماوية التى كانت تتداولها الأيدى شىء، والوحى القرآنى فى طابعه وأسلوبه وطريقته ومداه وروحانيته المستولية النافذة شىء آخر. وكأنما تقول الاية: لو كنت تقرأ وتكتب ولم يكن القرآن وحى الله لكان فى أسلوبه ومداه ونظمه وطريقته كالكتب المعروفة المتداولة، ولكان للجاحدين المبطلين أن يجدوا سبباً للارتياب. ولا تعارض البتة فيما نعتقد بين هذا وبين ماقررناه مدى ومعنى.

المبحث الثالث

أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وفضائله

في القرآن من وصف أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وفضائله ما يغني عن التزيد ـ تجاهل المستشرقين والمبشرين لنصوص القرآن وتمسكهم بالروايات ومدى ذلك ـ العبرة في موقف النبي صلى الله عليه وسلم من هجمات كفار العرب ـ تحليلات واستدلالات في صدد أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ـ مدى ثناء القرآن على خلقه العظيم في آيات مبكرة ـ لين جانبه وعدم فظاظته وغلظته ـ رأفته وحرصه ـ حياؤه ـ حزنه لعدم اهتداء قومه ومغزاه ـ بطولته في ميادين الحرب ـ استغراقه في مهمته وتعاليه عن مباهج الحياة ـ جرأته على الزعماء وعنادها ـ صدقه وأمانته ـ معرفته لحدوده وإخلاصه ـ صلة ما بين أخلاقه بعد البعثة بأخلاقه قبلها ـ أخلاقه وفضائله الأخرى ـ تفنيد ما نسب إليه من الجنون والسحر والشعر والكهانة والافتراء .

— ١ —

في القرآن آيات كثيرة جدا من شأنها أن تساعد على إعطاء صورة مشرقة قوية وصادقة لأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وفضائله ، تغني عن كثير من المبالغات التي يعمد اليها بعض المسلمين على غير ضرورة وعلى غير سند وثيق ، كما أن من شأنها أن تكون ردا حاسما وقويا على الموقف المنكر الذي يقفه سفهاء المبشرين ، ومغرضو المستشرقين من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وفضائله ، إذ يتجاهلون أو يغفلون عما في القرآن من نصوص وتقريرات ، ويتمسكون دونها بالروايات التي كثيراً ما تكون مخترعة أو مدسوسة أو ضعيفة ، او يشوهونها أو يحملونها مالا تحتمل فينسبون إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعض الأخلاق والصفات والأعمال المعيبة أو المريبة أو المسفة ، أو يعزون إليه التناقض بين الأقوال والأفعال ، وخاصة في العهد المدني ؛ في حين أن في القرآن من الآيات ما فيه كل المقنع لمن لم يختم الله على قلبه بما كان عليه السيد الرسول عليه السلام من الصميمية والرحمة والصدق والبساطة والتجرد والزهد والاستغراق في الله والتزام المثل الأعلى وإعطاء القدوة الحسنى لذلك كله ، وتبليغه كل ما كان يوحى إليه من الآيات التي احتوت المؤاخذة والعتاب واللوم على ما كان يبدو

منه من تصرفات اجتهادية تخالف مافى علم الله أنه الأولى ، وفيه ما يحمل كل منصف من غير المسلمين إذ يقرأ تلك الآيات ـ بل إذ يقرأ القرآن كله ـ على اليقين بعظمة النبي صلى الله عليه وسلم كل العظمة ، لاسيما حين يطلع على الصورة القرآنية الصادقة القوية التي تضمنت قصة ماكان من نضال بينه وبين الجاحدين ، وحكاية ماكانوا يتقولونه عليه ، وينسبونه إليه من مثل تلك الأقاويل والنسب ، وماكان يرد عليهم القرآن من الردود الساحقة المفحمة ؛ ثم اليقين بما يمكن أن يدل عليه ذلك النضال فى أدوار الدعوة المختلفة من قوة شخصية ، وماكان له من نصاعة بيان وسلامة منطق وسطوع حجة وإخلاص وبساطة مشرقة أخاذة .

— ٢ —

وإنه لمما يذهل الإنسان ويثير فيه أشد العجب أن يكون القرآن فى متناول كل شخص ، وفيه مافيه من الدعوة القوية إلى الله وحده منزها عن كل شائبة ، وتوطيد الإيمان والاحترام لجميع أنبيائه وكتبه ، وفيه مافيه من الحض على كل مكرمة أخلاقية واجتماعية وإنسانية ، والتشنيع على الظلم والإثم والباطل والفواحش ماظهر منها ومابطن ، والحث على السلم والسلام ، والبر بكل مسالم ، ومراعاة العدل والحق فى كل موقف وجعلهما فوق كل اعتبار ، والدعوة بالموعظة والحكمة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتعاون على البر والتقوى ، وفيه مافيه من حكاية مواقف أهل الكتاب وخاصة النصارى وفيهم القسيسون والرهبان وماكان منهم من خشوع وخضوع وتصديق واندماج ، حينما لقوا النبي صلى الله عليه وسلم واستمعوا له وشاهدوا أعلام نبوته الصادقة ـ ثم يكون من هؤلاء الناس الذين يزعمون أنهم داعون إلى الله وهادون إلى سبيله ومبشرون بملكوته وحاضون على المحبة والسلام ، وأنهم القيمون على الحضارة الإنسانية والآداب الإنسانية والحرية الإنسانية ـ يكون منهم هذا الجحود وهذا التجاهل وهذا الحقد وهذا الإقذاع فى النيل من شخصية من بلغ هذا القرآن وتخلق بأخلاقه وقام بدعوته ، وتحمل فى سبيل ذلك راضيا مطمئنا مالا يتحمله إلا أولو العزم الجبار والإيمان الفياض . ومهما يبلغ الحقد فى الناس من العمق والشدة ، فإنه ليكون من البشاعة فى أقصى درجاتها أن يكابر بعض الناس

فى إيمان هذه الشخصية الكريمة الطاهرة وقوة عقلها ونبل خلقها وإخلاص قلبها .

— ٣ —

وإنه لمن العجيب الذى يزيد فى غثاثة موقف هؤلاء أن يكون كفار العرب قد وجهوا إلى صاحب الرسالة نفسه وفى حياته كل تهمة ، ورموه بكل فرية ، ونسبوا إليه كل نسبة على أوسع مدى مما يوجهه هؤلاء ويرمونه به وينسبونه إليه ، كالكذب والافتراء والاستعانة بالغير والأخذ عمن سبق والتعلم والجنون والسحر والشعر والكهانة ، مما حكاه القرآن ، وأن يصمد لهم صموداً باهراً ، وأن يرد عليهم بلسان الوحى القرآنى كل مايتهمونه به وينسبونه إليه رداً قوياً مفحما ولاذعاً ، وأن يستمر فى دعوته ثابت الجنان ، قوى الإيمان ، إلى أن صارت كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى الدنيا ، وإلى أن اندمج فيها أكثرية العرب الساحقة بما فيهم أولئك الذين كذبوا وماروا وجحدوا ونسبوا إليه مانسبوا إذ لم يعد فى إمكانهم المكابرة والمماراة وقد رأوا ثم أيضاً من أعلام النبوة مارأى من سبقهم إلى الإيمان من عرب وكتابيين ، ولسانهم يردد ماحكاه القرآن عنهم : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا — من العجيب أن يكون ذلك شأن العرب ثم يأتى أولئك السفهاء والمغرضون اليوم ليكرروا ماقيل من حديث مملول ويعيدوا ماكان من أكاذيب ممجوجة قد هدمها القرآن هدماً ساحقاً . يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

— ٤ —

والآن نأتى إلى المؤيدات القرآنية :

(١) إن الآيات القرآنية الواردة فى صدد أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم وفضائله متنوعة الأساليب والمناسبات ، فمنها ماهو فى معرض التنويه والتخصيص فى الخطاب ، ومنها ماهو فى معرض أحداث السيرة النبوية فى عهديها المكى والمدنى . والآيات لاتفرق بين ماقبل البعثة وما بعدها كما لا تفرق بين عهدى مكة والمدينة ؛ وكثير مما

هو فى معرض أحداث السيرة إنما هو فى صدد مواقف النبي صلى الله عليه وسلم بعد البعثة ، وبالتالى فى صدد ماظهر منه بعد البعثة من أخلاق وفضائل ومواقف .

غير أن هناك أولا تنويهاً وثناء نزل مبكراً جداً فى أوائل ما نزل من القرآن : وهو آية القلم .

« وإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ... ٤

كما أن هناك آية مكية نزلت فى أواسط العهد المكى تضمنت حكمة الله فى اصطفائه رسله ، فى معرض الرد على زعماء قريش وتخص النبي صلى الله عليه وسلم فى الدرجة الأولى ، وهى آية الأنعام :

« وإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ... ١٢٤

فهاتان الآيتان يمكن أن تكونا تعبيرين قويين لأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ومواهبه واستعداداته الروحية والذهنية بوجه عام وبالنسبة إلى ما قبل البعثة فى الدرجة الأولى ، كما أنهما يصح أن تكونا مسوغين قويين للقول بأن الأخلاق والفضائل النبوية التى أشارت إليها الآيات القرآنية فى مناسبات أحداث السيرة راجعة فى الأصل إلى هذه الأخلاق والمواهب والاستعدادات التى نضجت فى النبي صلى الله عليه وسلم قبل اتصاله بوحى الله وقبل أن يتلق رسالته وآياته .

والإطلاق فى الآيتين يعنى سعة الشمول من دون ريب ؛ وليس من وصف يمكن أن يكون أقوى وأصدق وأوسع مدى مما فيهما . فتعبير « الخلق العظيم » يشمل كل عمل وميزة وعادة ومظهر يتصل بخلق شخصى أو اجتماعى أو إنسانى أو عائلى ، ويطبعه بطابع العظمة والسمو والتميز كما لايخفى . ولعل فيما روى فى حديث البخارى من أقوال السيدة خديجة رضى الله عنها حين عودته من غار حراء بعد نزول الوحى عليه لأول مرة : « والله لايخزيك الله أبداً . إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » - شيئاً من بيان هذا الخلق العظيم الذى وصف به النبي فى أوائل آيات القرآن فى معرض التثبيت وبعث الطمأنينة ، كما تدل على ذلك الآيات السابقة لآية القلم وهى :

« نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ . وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ . وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ . فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ . بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ... ١ — ٧

ومقام الرسالة من الرفعة والعظمة لايسامى، ويقتضى من المؤهلات الشخصية والخلقية والعقلية والروحية ما لا يمكن أن يوجد إلا فيمن وصلت فيه هذه المؤهلات إلى الكمال؛ والتعبير الوارد فى آية الأنعام تقرير ربانى بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد وصل إلى الذروة من عظمة الخلق وقوة الروح وصفاء النفس وكبر القلب ورجاحة العقل، فاستأهل بذلك أن يكون موضع اصطفاء الله ورسالته لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور. ولأن نقول لك إن السيد الرسول صلى الله عليه وسلم هو الإنسان الذى وصلت به أخلاقه وروحه وعقله وفضائله ومواهبه إلى ذروة الكمال الإنسانى — أقوى وأعظم بكثير من أن نقول إنه خلق قبل الأكوان وإن الأكوان قد خلقت لأجله وإنه أبوها الأكبر الخ؛ لأن هذه الأقوال إلى ما فيها من تعارض مع طبيعة الأشياء، ونصوص القرآن، فيها إيهام بأن له صفة جزئية إلهية جعلته منذ الأزل فى هذه الصفات والأخلاق ولم يكتسبها اكتساباً كما يكتسب الناس أخلاقهم وفضائلهم.

— ٥ —

(٢) فى سورة آل عمران الآية التالية .

« فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ... ١٥٩

فهذه الآية تقرر ما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم من دماثة الخلق ولين الجانب وحسن المعاشرة، والتنزه عن فظاظة الخلق وغلظ القلب . وهذه أخلاق كريمة عظيمة كانت دون ريب من عوامل نجاحه فى مهمته العظمى، وفيما كان من تفانى أصحابه فى سبيله وفنائهم فيه، وانضواء الناس إلى دعوته ورايته فى النهاية كما تلهمه الآية نفسها .

(٣) فى سورة التوبة الآية التالية :

« وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ هُوَ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ ... ٩١

وهذه الآية وردت فى معرض حكاية أخلاق المنافقين ومواقفهم وأقوالهم والرّدّ عليها ، حين قالوا إنه أذن ، أى سريع الاستماع والتصديق ؛ فصدّقت الآية الوصف ثم فسرته ، فهو سريع الاستماع والإجابة لكل شىء أو قول فيه خير للمؤمنين ، قوى الإيمان بالله والاعتماد عليه ، قوىّ الركون إلى المؤمنين المخلصين والاعتماد عليهم أيضا ، قوى الاعتقاد بحسن نياتهم ، وهو بهذه الصفات رحمة لهم ؛ وهكذا احتوت الآية وصف ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من خلق رضى وقلب نقى وسريرة طيبة ورغبة شديدة فى خير المؤمنين وعظم ثقته بحسن نياتهم .

(٤) فى السورة نفسها الآية التالية :

« لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ... ١٢٨

وهذه الآية تصور أقوى تصوير ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من رحمة ورأفة وبر وحرص شديد على مصلحة قومه والمؤمنين ، وشعور بما يلم بهم من آلام وما ينالهم من مشاق ، وما يلقى من جهد وعنت فى سبيل إزالة آلامهم وتخفيف ما يشق عليهم . ومما لاريب فيه أن هذه الأخلاق الكريمة كانت هى أيضا من أقوى عوامل نجاحه وتفانى أصحابه فى سبيله وفنائهم فيه وانضواء الناس إلى دعوته ورايته فى النهاية .

(٥) فى سورة الأحزاب الآية التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ (١) وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي

(١) نضجه ، أى لا تنتظروا نضجه فى البيت .

مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحِى مِنَ الحَقِّ ... ٥٣

وقد تضمنت الآية تنويها بخلق من أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم، وهو الحياء والصبر على ما يؤذى نفسه من أصحابه، وتجنبه كسر قلوبهم وجرح عواطفهم. وهذا من أعظم الأخلاق وأكرمها وخاصة فى الدعاة الهداة.

(٦) فى سورة الكهف وطه والشعراء وفاطر الآيات التالية:

١ — فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ (١) نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الحَدِيثِ أَسَفًا ... الكهف ٦

٢ — طه . مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ... طه ١ — ٢

٣ — لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ... الشعراء ٣

٤ — أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ... فاطر ٨

فهذه الآيات تشير إلى ما كان يطرأ على النبى من غم وهم وحزن وشدة من جراء مواقف قومه من الدعوة وعدم استجابتهم لها واهتدائهم بهديها. وهذا من أعظم الأخلاق وأكرمها، وهو متصل بما قررته آية التوبة ١٢٨ من خلق الحرص الشديد على مصلحة قومه وهدايتهم ورأفته عليهم.

وهناك آيات عدة تلهم روحها أن من مقاصدها تهدئة روع النبى صلى الله عليه وسلم وتسليته عما يجده ـ بسبب عناد قومه وجحودهم وعدم اهتدائهم ـ من هم وغم حرصا على خيرهم ومصلحتهم ونجاتهم وإسعادهم مما هو متصل بالخلق الذى تضمنته الآيات السابقة، ونكتفى من هذه الآيات بما يلى:

١ — وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ... الأنعام ٣٥

---

(٢) مهلك أو قاتل.

٢ — وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ... يونس ٩٩

— ٦ —

(٧) فى جملة آيات سورة آل عمران فى وقعة أحد وردت هذه الآية:

« إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ ... ١٥٣

وقد تضمنت الآية وصف الموقف حينما دارت الدائرة على المسلمين وانهزموا وثبت السيد الرسول صلى الله عليه وسلم وحيداً أو كالوحيد فى ميدان المعركة غير مبال بما كان، حتى ظن أنه من جملة القتلى كما ذكرت ذلك آية أخرى فى السورة نفسها: «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم» لولا أن بعض أصحابه سمعوا دعاءه فأسرعوا إليه والتفوا حوله. وكان موقفه وثباته سبب استمساك المسلمين شيئاً ما. وفى الموقف صورة رائعة لما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم من شجاعة وثبات جنان فى مواقف الشدة وميادين الكفاح والقتال.

ومن هذا الباب موقفان آخران للنبى صلى الله عليه وسلم أشارت إليهما الآيات القرآنية؛ أحدهما: موقفه يوم حنين الذى ذكر فى سورة التوبة فى الآيات التالية:

« وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ. ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ... ٢٥ — ٢٦

إذ تضمنت أن السيد الرسول صلى الله عليه وسلم كان على رأس الفئة القليلة التى ثبتت فى الميدان عند ما انهزم أكثر المسلمين وكادت تدور عليهم الدائرة؛ وقد روت الروايات هذا، كما روت أن النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا اليوم كان يهتف بالمنهزمين ويرتجز: أنا النبى لا كذب. أنا ابن عبد المطلب.

وثانيهما : موقفه فى وقعة الأحزاب التى ذكرت بعض مشاهدها ونتائجها آيات من سورة الأحزاب إذ جاء أمر عظيم تزلزل منه المسلمون كما ذكرته هذه الآيات :

• إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ... ١٠ — ١١

وقد اغتنم المنافقون الفرصة فشمتوا ودسوا وثبطوا ، كما ذكرت ذلك هذه الآيات :

• وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا . وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ... ١١ — ١٢

فكان النبى صلى الله عليه وسلم قطب الرحى فى هذا الموقف العصيب ، إذ ثبت ثبات الجبال ، رابط الجأش مطمئن النفس ، فكان فى ذلك الأسوة الحسنة التى دعا القرآن المسلمين إلى التأسى بها فى هذه الآية التى جاءت فى سياق وصف الوقعة ، والتى تعنى فى الدرجة الأولى موقفه فيها :

• لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ... الأحزاب ٢١

على أن من الحق أن نذكر أن صورة بطولة النبى صلى الله عليه وسلم وثبات جنانه ورباطة جأشه فى ميادين الجهاد ليست فى القرآن قاصرة على هذه الوقعات الثلاث ، بل هى قوية البروز فى جميع المواقف الجهادية التى تضمنتها سور القرآن كما يلمس ذلك فى سور البقرة والنساء والأنفال والتوبة والمجادلة والحشر والممتحنة والصف ، إذا ما أنعمنا النظر فى آياتها الجهادية ونفذنا إلى روحها ، وسوف نستعرض هذه الآيات فى فصل الجهاد فنكتفى هنا بهذه الإشارة .

- ٧ -

(٨) فى سورة الأحزاب الآيات التالية :

« يَٰأَيُّهَا النَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا . وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ...

٢٨ — ٢٩

وهذه الآيات تعرف بآيات التخيير ، وتروى فى سبب نزولها رواية مفادها أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم طالبنه بزيادة النفقة والاستمتاع بمتع الحياة بأوسع ما يستمتعن ، وألحن عليه حتى أثرن غضبه . وروح الآيات تؤيد هذا السبب لاسيا أنها قد جاءت بعد الإشارة إلى ماكان من استيلاء المسلمين على أموال يهود بنى قريظة وديارهم وأرضهم ، إذ يلهم ذلك أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم طالبن بما طالبن ، بعد أن رأين أنّ الله قد فتح على النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين هذا الفتح العظيم ، فأثار هذا فى نفسه ألماً وغضباً أدى إلى أن يهجرهن شهراً وأن يعتزلهن وأخذ يعيش فى مخدع وحده كما جاء فى روايات السيرة أيضاً على اختلاف لا تأثير له فى جوهر الموقف .

والآيات تتضمن فى الحقيقة تعليما وتوجيهاً ربانيين ، غير أنها وخاصة ظروف نزولها تلهم أنها تأييد ربانى لما اعتلج فى نفس النبي صلى الله عليه وسلم من مضاضة وألم لموقف نسائه الذى من شأنه أن يعوقه عن أداء ما عليه من واجب ، وعن حمل ما على كاهله من أعباء عظمى ، لتعارض ذلك مع ما يطلبن . وفى القرآن أمثلة كثيرة لمثل هذا التأييد الربانى نذكر منها ما تضمنته إحدى آيات تحويل القبلة هذه :

« قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ...

البقرة ١٤٤

وفى هذا الذى تلهمه آيات التخيير صورة رائعة جدا من أخلاق النبي صلى الله

عليه وسلم تتجلى فى عيافه عن زينة الحياة الدنيا ومباهجها ، واستغراقه فى مهمته العظمى وفنائه فيها ، وتقديره تعارض تلك مع هذه ، وتخيير نسائه بين رضائهن معه على ماتطمئن به نفسه ولا يتعارض مع مهمته وخلقه ، وبين انصرافهن عنه وتركه يتفرغ لأعباء واجبه الأكبر . وهى من أعلى ما وصلت إليه أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم من ذرى . وكانت دون ريب من عوامل نجاح الدعوة الإسلامية ، كما أنها فى الوقت نفسه أقوى ردّ على سفهاء المبشرين ومغرضى المستشرقين الذين حاولوا النيل من أخلاقه الكريمة فى نسبتهم حب الدنيا ومباهجها وشهواتها إليه ، مع ماكان منه من استغراق فى الدعوة وابتعاد عن ذلك فى مكة . وتبدو قوة الرد حينما يلاحظ أن الآيات قد نزلت فى أواسط العهد المدنى وبعد أن تمكن من القضاء على أعدائه اليهود وخضد شوكة المنافقين ورد عادية الأحزاب الذين غزوا يثرب بقوى هائلة لم يجرءوا بعدها على معاودة الكرة .

— ٨ —

(٩) فى القرآن آيات كثيرة جدا تتضمن ردوداً عنيفة قاسية على زعماء قريش وسادتهم وكبرائهم وأغنيائهم وطغاتهم كالآيات التالية :

١ — كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ . نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ . فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ . كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ...

العلق ١٥ - ١٩

٢ — وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ . هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ . مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ . عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ . أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ . سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ...

القلم ١٠ — ١٦

٣ — وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ . الَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ . يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ . كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ . وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا الْحُطَمَةُ . نَارُ اللَّهِ

الْمُوقَدَةُ . الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ . إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ . فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ...

الهمزة ١ - ٩

٤ — تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ . وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ...

المسد ١ - ٦

مما كان ينبعث منه الشرر ، ويوجه به إلى وجوههم لطمات داميات بالوعيد والتقريع والتحدى . وقد عبرت آية فى سورة الحج عن أثر ذلك كله فيهم كما ترى :

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ... ٧٢

وفى اعتقادنا أن صرخات النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الآيات وتوجيهها إلى زعماء القوم وطغاتهم ، وعدم مبالاته بقوتهم وضعفه ، وكثرتهم وقلته ـ لاسيما أنها من أوائل مانزل حين كان المشركون فى عنفوانهم وقدكان منهم ماكان من اضطهاد كثير ممن آمن به وتابعه اضطهاداً أودى بحياة بعضهم ، وأدى إلى أفتتان بعضهم ـ لتمثل خلقاً عظيما من أخلاقه الشريفة ، وهو الجرأة فى الحق وعدم خشية أحد فيه .

— ٩ —

(١٠) وفى القرآن آيات عدة تحتوى عتابا أو لوما على ماكان يبدو منه من تصرف خلاف الأولى فى علم الله ، وماكان يعتلج بنفسه من خلجات لم يكن يطلع عليها غيره ، مثل الآيات التالية :

١ — مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ...

الأنفال ٦٧ - ٦٨

٢ — فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَايُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ... هود ١٢

٣ — وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا . وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا . إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَاتَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ... الأسراء ٧٣ - ٧٥

٤ — آية الأحزاب ٣٧ التي نقلناها قبلًا

٥ — عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ . أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ . أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ . أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ . فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ . وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ . وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ . وَهُوَ يَخْشَىٰ . فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ... عبس ١ - ١٠

ففي تبليغ هذه الآيات يتجلى في أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم الصدق والأمانة في أعلى درجاتهما ؛ ولقد روى عن عائشة رضى الله عنها حديث جاء فيه : أن النبي صلى الله عليه وسلم لو كان كاتماً لشيء من وحي الله لكان كاتماً آيات الأحزاب ؛ مما يمت إلى ما نحن في صدد تقريره .

(١١) كذلك هناك آيات عدة تحتوي أوامر للنبي صلى الله عليه وسلم بالدفاع عن نفسه والاعتراف بحدوده والوقوف عندها مثل الآيات التالية :

١ — آيتي الأنعام ٥٠ والأعراف ١٨٨ اللتين نقلناهما قبلا

٢ — وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَايَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَايَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي

إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ... يونس ١٥

٣ – أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ...

الشورى ٢٤

٤ – أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ... الأحقاف ٨

ففي هذه الآيات وفي تبليغها يتجلى كذلك من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم في أعلى درجاتها ، الإخلاص والشعور بواجب الوقوف عند ما يجب الوقوف عنده من حدود .

ولقد يقال إن مرجع ما جاء خاصة في الفقرات ٨ - ١١ في صدد تبليغات النبي صلى الله عليه وسلم للفصول والآيات القرآنية ، عصمة النبي التي مظهرها الرئيسي التبليغ التام للقرآن وواجب الرسل الذي لا تتحقق صفتهم إلا به ، والذي عبرت عنه آية في سورة الأحزاب وهي :

« الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ... ٣٩

ثم ذلك الإيمان العميق المستولي على كل مشاعره ، والذي جعله يفني في الله والدعوة إليه كل الفناء ، ويرتفع إلى ذرى العظمة والقوة الروحية ، فيستوي عنده الغنى والفقر ، والشبع والجوع ، واللذة والألم ، والراحة والتعب ، وينتفي من نفسه كل خوف من غير الله ، وكل حساب لغير الله ، وكل تردد في سبيل الله ، وتتضاءل في نظره عظمة العظماء ، وهيبة الكبراء ، وعنجهية الأحساب والأنساب ، وعصبية الأنانية والذات . وهذا حق لا يحتمل أي شك ، غير أن مما لا شك فيه كذلك أن

تحلى النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الأخلاق التى قلنا أنها تتجلى فى هذه التبليغات ، أمر طبيعى حتى يصح أن يكون أهلا للاصطفاء الربانى الذى قررت سداه الجملة القرآنية : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ، وموضعاً للثناء العظيم الذى عبرت عنه الجملة القرآنية هذه : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

— ١٠ —

(٢ .) وإذا كنا قد عرضنا الآيات التى عرضناها بسبيل التنويه بما تدل عليه من أخلاق وفضائل معينة فى النبي صلى الله عليه وسلم ، فليس معنى هذا أن الأخلاق والفضائل النبوية محصورة فى هذا النطاق : وإنما ذكرناها لأنها وردت بسبيل التخصيص فقط . ففى القرآن آيات كثيرة جدا منبثة فى مجموعاته بل فى جميع سوره تقريباً انبثاثا : يجعلنا فى غنى عن عرض أمثلة منها ، احتوت تنويها بمتنوع الأخلاق الفاضلة الإنسانية والشخصية والاجتماعية والمعاشية ـ من صدق وعدل وبر وأمانة والتزام حق ، واعتدال وإحسان وصلة رحم ، ولين جانب ووفاء عهد ووعد ، ورحمة للضعيف ومساعدة للمحتاج ونصرة للمظلوم ، وصبر وأمر بالمعروف ودعوة إلى الخير وتواص بالحق والرضاء به وعدم اللجاج فيه والكرم والإنفاق لله والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالتى هى أحسن ، والتعاون على البر والتقوى والرغبة فى السلم والمسالمة الخ ـ وحثا عليها وثناء على المتصفين بها وتبشيرهم . وهناك آيات كثيرة أيضاً منبثة فى مجموعات القرآن بل فى جميع سوره تقريباً احتوت تنديداً بمتنوع الأخلاق السيئة والخصال المذمومة ـ من كذب وظلم وبغى وإثم ، وقتل نفس وارتكاب فاحشة ، وانتهاك عرض وإفك وزور ، وعربدة سكر وإسراف وتبذير وخيانة ونكث وغدر وخديعة ، وقطع رحم وحرمان محتاج ، وأكل أموال الناس بالباطل وجبن وشح وأمر بمنكر ، وغلظة قلب وفظاظة خلق وتناقض بين القول والعمل ، ورياء ومن ، ومكابرة وانتقام باغ الخ ـ وتحذيراً منها وإنذاراً للمتصفين بها . ولقد أثر عن عائشة رضى الله عنها حديث فيه جواب لمن سألها عن أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم أنها أخلاق القرآن : وهو جواب فيه كل الحق والصدق والبداهة ، فإن من الحق والمعقول أن القرآن مانوه وأثنى وحث على خلق إلا والذى أوحى إليه به أشد الناس اتصافاً به قولا وعملا ، وأنه ماندد ونهى عن خلق إلا والذى

أوحى إليه به أشد الناس اجتناباً له ونفرة عنه قولا وعملا ؛ والمصداق القرآنى لهذا ثناء الله العظيم عليه وحث الناس على اتباعه وإطاعته والاقتداء به :

١ — قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ... آل عمران ٣١

٢ — مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ... النساء ٨٠

٣ — لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ التوبة ١٢٨

٤ — وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ ... الحج ٦٧

٥ — وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ... المؤمنون ٧٣

٦ — يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً . وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ... الأحزاب ٤٥ — ٤٦

٧ — وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ... الشورى ٥٢

٨ — وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ... القلم ٤

وأى مماراة فى هذا من غير المسلم مهدومة لا تمت إلى أى معنى من معانى المنطق والعقل والإنصاف ، لأن عظمة النبى الهادى ، ونجاح الرسول الداعى إنما يقومان بهذا ، وبهذا فقط ، فهو الأسوة التى يتأسى بها المهتدون به ، والقدوة التى يقتدى بها المستجيبون له ، ولا يتحقق هذا إلا إذا اتصف بأحاسن ما بشر به ، واجتنب كل ماندد به ونفر عنه ؛ ولقد نجحت الدعوة النبوية أيما نجاح فاستجاب له عدد غير يسير من العرب والقسم الأكبر من غير العرب والكتابيين الذين كانوا فى مكة أولا ، وبكل رضاء واندفاع وفناء ، واستجاب له عدد عظيم من العرب وعدد آخر من غير العرب والكتابيين الذين كانوا فى المدينة ثانياً وبكل رضاء واندفاع وفناء ؛ وليس من شك فى أن هذا النجاح إنما كان لما شاهده المستجيبون من أعلام النبوة الصادقة وجماع صفات الخير والفضيلة فى شخص النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا يحتمل أى شك أن

يكون النبي صلى الله عليه وسلم أول من قدر وأصدق من طبق آية البقرة :

« أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ... ٤٤

وأول من استجاب لأمر ربه ووحيه فى آية الزخرف :

« فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِىَ إِلَيْكَ ... ٤٣

وأى رواية تتضمن ماقد يتناقض مع هذا فهى دون ريب كاذبة أو مفتراة أو مدسوسة أو محرفة .

— ١١ —

هذا ؛ وقد يكون مما يتصل بهذا البحث النظر فيما كان يوجهه كفار العرب إلى النبي صلى الله عليه وسلم من تهم وعلل عقلية وروحية وخلقية على ما حكاه القرآن عنهم ، كالجنون والكذب والافتراء والسحر والكهانة والشعر .

والذى نعتقده أن التصدى لتفنيد هذه التهم والعلل من نافلة القول : فحكايتها فى القرآن — إلى ما فيه من الدليل الناصع على خلق الصدق والأمانة الذى تجلى فى تبليغها وتدوينها — أقوى دليل على كذبها وزيفها ، لاسيما أن القرآن لم يكتف بحكايتها بل تولى تكذيبها وتزييفها وردها إلى وجوه قائليها ردا قويا عنيفاً فى كل مناسبة حكاها عنهم وكفى بذلك تكذيبا وتزييفا . غير أن ترديد سفهاء المبشرين ومغرضى المستشرقين لبعضها وخاصة ابتلاء النبى صلى الله عليه وسلم بالصرعة يجعل قول كلمة فى هذا الموضوع مفيداً ؛ فوق أنه قد خطر لنا بعض الخواطر المستلهمة من القرآن رأينا المناسبة صالحة لتسجيلها .

نحن نعلم أن ترديد هؤلاء لابتلاء النبى صلى الله عليه وسلم بالصرعة قد استنتج استنتاجا من بعض روايات ذكرت ماكان يطرأ على النبي صلى الله عليه وسلم حينما يوحى إليه أحيانا من حالة جهد وغيبوبة وتصبب عرق ، غير أن الروايات التى حكت ذلك ذكرت أن النبى صلى الله عليه وسلم كان حينما تنفرج عنه أزمته يستدعى كاتبه ليملى عليه القرآن الذى أوحى إليه به ، أو يجيب على ما يكون قد وجه إليه من سؤال ، كما ترى فى النصوص التالية :

١ — حديث فى البخارى أن صفوان بن يعلى بن أمية أخبر أن يعلى كان يقول : ليتنى

أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ينزل عليه ! قال : فبينا النبي صلى الله عليه وسلم بالجعرانة وعليه ثوب قد أظل فيه معه ناس من أصحابه ، إذ جاءه أعرابى عليه جبة متضمخ بطيب فقال: يارسول الله ، كيف ترى فى رجل أحرم بعمرة فى جبة بعد أن تضمخ بالطيب ؟ فأشار عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى يعلى بيده أن تعال، فجاء يعلى فأدخل رأسه ، فإذا النبي صلى الله عليه وسلم محمر الوجه يغط كذلك ساعة ثم سرى عنه فقال : أين الذى يسألنى عن العمرة آنفاً ؟ فالتمس الرجل فأتى به، فقال: أما الطيب الذى بك فاغسله ثلاث مرات، وأما الجبة فانزعها ثم اصنع كما تصنع فى حجك .

٢ — من حديث بخارى قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً .

٣ — من حديث بخارى عن زيد : فأنزل الله على رسوله وفخذه على فخذى ، فثقلت علىّ حتى خفت أن ترض فخذى، ثم سرى عنه فأنزل الله « غير أولى الضرر » وأمرنى بكتابتها (١) .

٤ — فى مسند أحمد عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه . سألت النبي صلى الله عليه وسلم : هل تحس بالوحى؟ فقال : أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك فما من مرة يوحى إلىّ إلا ظننت أن نفسى تقبض .

وليس لمنصف متدبر أن يصل باستنتاجه إلى تلك النتيجة التى زعموا من هذه الأحاديث أما ما كان من نسبة الكفار الجنون إلى النبي صلى الله عليه وسلم فإن الآيات التى حكت ذلك عنهم تلهم أنهم لم يكونوا يقصدون بها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مريضاً مخبول العقل أو مبتلى بصرعة ، وهى الصفات التى تلازم المريض بالجنون . وهو مالا يعقل عنهم فى حد ذاته ، وهم يرونه يتلو الآيات القرآنية الرائعة فى بلاغتها ونصاعتها وقوتها ؛ والتى كانت تنفذ إلى أعماقهم رغم مكابرتهم على ماذكرته الروايات العديدة (٢) ؛ وإنما كانوا يقصدون رمى النبي صلى الله عليه وسلم بغرابة الأطوار

(١) هذا الحديث فى سياق رواية نزول آية « لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم » حيث روى أن فقرة « غير أولى الضرر » لم تنزل أولا وكان ابن أم مكتوم الضرير حاضراً فقال : يارسول الله أنا ضرير! فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم الوحى، ثم نزلت الفقرة

(٢) فى الجزء الأول من ابن هشام ص ٢٨٥ حديث طويل عن استماع نفر من زعماء قريش للقرآن وتأثيره فيهم ، وكذلك فى الجزء نفسه ص ٢٦٥ حديث طويل عن استماع عتبة بن ربيعة القرآن وانبهاره به .

والشذوذ فيما يدعو إليه ويبشر به وينذر، على ماتعود الناس أن يرموا بمثل ذلك من يتصدى لدعوة جديدة أو يبدى رأياً أو يقول قولا أو يخبر خبراً غير مألوف فى المجتمع الذى يعيش فيه؛ وهذا واضح كل الوضوح فى الأمثلة الآتية :

١ — وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ. لَوْمَا [1] تَأْتِينَا بِالْمَلَٰئِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ... الحجر ٦ - ٧

٢ — أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَالَمْ يَأْتِ ءَابَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ. أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ. أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ... المؤمنون ٦٨ - ٧٠

٣ — إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ. وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ... الصافات ٣٥ - ٣٦

٤ — وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ. أَفْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِى الْعَذَابِ وَالضَّلَٰلِ الْبَعِيدِ ... سبأ ٧-٨

٥ — وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ. وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَٰلَمِينَ ... القلم ٥١ - ٥٢

— ١٢ —

وأما ماكان من نسبتهم إليه الشعر والسحر والكذب والكهانة والاستعانة بالغير فالآيات التى تحكى هذا عنهم تلهم حيناً إنهم كانوا يعنون مايقولون وحيناً أنهم كانوا يقولون ذلك على سبيل المماراة واللدد وقصد الإنكار أو الاستنكار كما ترى فى الأمثلة الآتية :

---

(١) لوما : بمعنى هلا .

١ — وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ … هود (١) ٧

٢ — وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ … النحل (٢) ١٠٣

٣ — لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ … الأنبياء (٣) ٣

٤ — بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ … الأنبياء (٤) ٥

٥ — وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ … ص (٥) ٤

٦ — وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ … القمر (٦) ٢

ومهما يكن من أمر فالردود القرآنية كاسحة ساحقة لايمكن لذى عقل ومنطق وإنصاف من غير المسلمين أن يمارى أويكابر فى قوة نفوذها ومداها وروحانيتها وصدقها وهدمها لما ينسبونه إليه هدماً تاماً كما ترى فى الأمثلة التالية :

١ — وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ … الأنعام ٩٣

---

(١) بقصد الاستنكار والمماراة .

(٢) فى هذا يعنون مايقولون حقيقة وقد ردت الآية عليهم .

(٣) فى هذا يعنون السحر حقيقة ، وفى الآية رد عليهم ووصف لهم بالظلم .

(٤ و ٥) بقصد المماراة والاستنكار .

(٦) فى هذا يعنون السحر حقيقة ، وفى الآية رد على مايبدو منهم من مكابرة .

٢ — قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ... يونس [١] ٧٧

٣ — فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ . وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ . . يونس [٢] ٨١ - ٨٢

٤ — إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ... النحل ١٠٥

٥ — هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ . وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ...

الشعراء [٣] ٢٢١ - ٢٢٦

٦ — قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ . قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ... سبأ [٤] ٤٦ - ٤٩

٧ — آية الشورى ٣٤ وآية الأحقاف ٨ التى نقلناهما قبل

(١ و ٢) حملة القرآن على السحر ولو من باب الحكاية تتضمن تزييف نسبة السحر إلى النبي صلى الله عليه وسلم

(٣) تزييف نسبة الشعر جاءت هنا فى صورة حملة على الشعراء ، وهذه بلاغة قرآنية .

(٤) يكلفهم أن يفكروا فى الأمر منفردين بعيدين عن تشويش المشوشين وحينئذ يتضح لهم الحق ويعرفون فى قرارة أنفسهم حقيقة الرسالة النبوية والانذار النبوى .

٨ ـ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ . وَمَا لَا تُبْصِرُونَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ . تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ . وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ . وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ... الحاقة ٣٨ - ٤٨.

المبحث الرابع

حياة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية والبيتية

صور القرآن لحياة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية تصحح كثيراً من الأغلاط المستقرة - مدى تعدد زوجات النبي واحتفاظه بعدد أكبر من المحدد - تنظيم القرآن لزواج النبي وعلاقاته الزوجية ومداه - تعليق على موقف المبشرين والمستشرقين في هذا الموضوع - مدى وصف زوجات النبي بأمهات المؤمنين - مدى إشارة القرآن إلى هبة المؤمنات أنفسهن للنبي - ضنك معيشة النبي البيتية ودلالته ومداه - اختصاصات قرآنية بزوجات النبي ومسئولياتهن ومداه . مدى عبارة أهل البيت - قضية زواج النبي من مطلقة متبناه وتحليلات قرآنية في صددها - عدم التكلف في دخول بيوت النبي وتنظيم القرآن له ومداه - مدى حجاب بيوت النبي وزوجاته تنظيم القرآن لخروج نساء النبي والمسلمين ومداه - صور لمكايدات نساء النبي وغيرتهن - حديث الافك ومداه وأثره - مدى الحلة والتقريرات القرآنية فيه - ذرية النبي صلى الله عليه وسلم - حجرات النبي - مسجده ومجلسه - تعليق على خبر خوخات الصحابة عليه - مستلهمات قرآنية عن وقت وفاة النبي وتماسه العظيم في مهمته السامية .

— ١ —

في القرآن آيات كثيرة تتضمن صوراً عديدة لحياة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية والبيتية . والذى ينعم النظر فيها يرى أن في بعض الصور المستقرة في الأذهان ، والمستندة إلى الروايات أغلاطاً لا تتسق معها ؛ وقد استغل بعض ذوى الهوى هذه الروايات التي يحتمل أن يكون كثير منها مدسوساً ومحرفاً استغلالا غير نزيه ، وكان يكفي أن تتعارض مع النصوص القرآنية ليظهر الحق واضحاً جليا .

وفيما يلي نعرض هذه الصور :

— ٢ —

(١) في سورة الأحزاب الآيات التالية .

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ

وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عمّاتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبىُّ أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا مافرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيماً . ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقرّ أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم مافى قلوبكم وكان الله عليماً حليماً . لايحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ماملكت يمينك وكان الله على كل شىء رقيباً .. : ٥٠ - ٥٢

فهذه الآيات تلهم أنها نزلت بعد آية النساء الثالثة التى اعتبرت محددة لما يجوز للمسلم جمعه فى عصمته من الزوجات بأربع وهى :

« وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ماملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا [1] ...

وقد ذكرت روايات السيرة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يجمع فى عصمته حين نزول الآيات تسع زوجات بعقد ، ست منهن قرشيات وثلاث غير قرشيات ؛ أما الإماء أوملك اليمين فكان له منهن اثنتان .

وهناك رواية أن آية الأحزاب (٥٢) نزلت متأخرة ، وأن الآيتين ٥٠ - ٥١ نزلتا على حدة ، وليس من ريب فى أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يطلق ولم يتزوّج بعد الآية (٥٢) . ولما كان هناك رواية تذكر أنه تزوّج فى أثناء عمرة القضاء وهى العمرة

---

(١) بمعنى الا تجوروا .

التى أداها فى السنة التالية من صلح الحديبية أى فى السنة الهجرية الثامنة فتكون الآية (٥٢) إذا صح أنها نزلت على حدة قد نزلت بعد هذه العمرة، أما إذا كانت الآيات الثلاث قد نزلت دفعة واحدة فتكون قد نزلت فى السنة الثامنة، وتكون آية النساء قد نزلت أيضاً فى الظرف نفسه ولكن قبل هذه الآيات فاقتضت الحكمة تنزيلها لتنظيم حالة النبى صلى الله عليه وسلم الزوجية ـ بمالها من صلة بمدى وتحديد آية النساء.

ومهما يكن من أمر فآيات الأحزاب قد استهدفت: (١) استثناء النبى صلى الله عليه وسلم من التحديد الذى ورد فى آية النساء: (٢) تحريم زواج جديد عليه (٣) تنظيم علاقاته الزوجية أو صلاته الجنسية بأزواجه.

والنقطة الأخيرة مستلهمة من مضمون الآية (٥١)، إذ تكاد توحى بأنها تتضمن تعليما للنبى صلى الله عليه وسلم بأن يتصل اتصالا جنسيا فى وقت واحد بأربع من أزواجه، وتخوله أن يبدل ويغير فى هذا الاتصال فيرجى أى يؤجل مؤقتاً من يشاء ثم يعود إلى من يبتغى ممن عزل وأجل منهن؛ بل نكاد نقول إن هذا القصد ظاهر فى مضمون الآية ظهوراً قويا.

وهناك مبرر قوى لهذا المعنى وهو عدم احتمال خروج النبى صلى الله عليه وسلم عن روح التشريع القرآنى العام مما هو متصل بأخلاقه الشريفة التى نوهنا بها فى البحث السابق. ولقد روى الزمخشرى فى كشافه رواية ذكرت أن النبى صلى الله عليه وسلم قد عاشر بعد هذه الآيات أربعاً فقط من نسائه وهن: عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب رضى الله عنهن، وأرجأ خمساً. وفى الرواية شىء مما يتسق مع ماقررناه من ملهمات الآية (٥١)، وإن كنا نرى الآية أوسع مدى إذ جعلت عملية الإيواء والإرجاء والعزل والمراجعة شاملة لجميع زوجات النبى صلى الله عليه وسلم لتقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتاهن كلهن؛ ولهذا نرجح أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يطبق هذه العملية على الجميع.

والروايات مجمعة على أن المسلمين الذين كانوا يجمعون فى عصمتهم أكثر من أربع نساء قد طلقوا من شاؤوا من الزوائد واحتفظوا بأربع. ويبدو أن نساء النبى صلى الله عليه وسلم خفن هذا المصير الذى يفوت على المطلقات منهن كرامة الزوجية النبوية وكرامة أمومة المؤمنين التى كرمهن الله بها فى آية الأحزاب هذه:

« النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ... ٦

واللى يرجح أنها نزلت قبل الآيات ٥٠ - ٥٢ من السورة : لحزن وقلقن [1] ، فاقتضت الحكمة الربانية استثناءهن من التحديد مع تنظيم صلات النبى صلى الله عليه وسلم الزوجية بهن تنظيما يتسق مع روحه .

والآية (٥٢) ذات مدى آخر ؛ فإنها حرمت على النبى صلى الله عليه وسلم الزواج ولم تجعل العدد الذى فى عصمته أساساً ، بحيث حظرت عليه أن يطلق إحدى زوجاته ليأخذ مكانها غيرها التزاما للعدد كما هو جائز فى حق سائر المسلمين الذين يحق لهم أن يحتفظوا فى عصمتهم بأربع زوجات ، وليس عليهم إلا مراعاة العدد المحدد .

ولقد أبدأ بعض المستشرقين والمبشرين وأعادوا فى زيجات النبى صلى الله عليه وسلم هذه ، وقالوا : إنه قد سنّ لنفسه قانونا ينقض القانون الذى سنه لسائر المسلمين ، كما تطاولوا عليه بسبب عدد النساء اللاتى تزوج بهن أو جمعهن فى عصمته ، ولقد رد كتاب المسلمين على هذا وذاك ردوداً متنوعة وجيهة ، منها أن النبى صلى الله عليه وسلم فى تعدد زوجاته لم يكن شاذا عن بيئته أو عن الطبيعة البشرية ، وأن لجل زيجاته ظروفاً غير دواعى الرغبة الجنسية إذ توخى فى بعضها تكريم صاحبيه أبى بكر وعمر رضى الله عنه بابنتيهما عائشة وحفصة رضى الله عنهما ، وفى بعضها توثيق الرابطة بين الإسلام وبعض القبائل كزيجته بجويرية ابنة رئيس بنى المصطلق ، وفى بعضها تكريم الزوجات المهاجرات اللاتى فقدن أزواجهن فى هجرة الحبشة وجبر نفوسهن كزواجه من أم حبيب بنت أبى سفيان ، وأم سلمة وسودة وزينب بنت خزيمة رضى الله عنهن لا سيما أن نصف زوجاته كن من المتقدمات فى السن وأولات أولاد ممن تقل الرغبة الجنسية عادة فيهن . وجوهر ومدى الردود صحيحان كل الصحة ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يرى أنه فى حاجة إلى تشريع خاص به مناقض للقانون العام — ونحن نستعمل التعبير مساجلة — لولا أن هناك ظروفاً قاهرة ، وكان بإمكانه أن يستغنى عن المتقدمات فى السن وذوات البنين وغير الجميلات لو كانت دواعى المسألة هى الرغبة الجنسية فحسب ، فلا يضطر إلى تشريع خاص به ؛ وقد كان تنظيم الصلات كما جاء فى الآية (٥١) حاسما فى أمر هذه الرغبة ومبرراً لاستيفاء الجميع فى العصمة النبوية .

هذا ؛ وبمناسبة وصف زوجات النبى صلى الله عليه وسلم بأمهات المؤمنين نقول :

---

(١) هناك حديث يذكر أن سودة رضى الله عنها إحدى زوجات النبى صلى الله عليه وسلم أفصحت للنبى عن رضاها بالتنازل عن حقها فى المباشرة ، ورجته عدم تطليقها وتفويت ما نالته من شرف الزوجية النبوية .

إن هذا الوصف تكريمي فقط، وأنه لم يترتب عليه أن يكون لهن حقوق الأمهات الإرثية على المؤمنين، ولا حرمة نكاحهن: بدليل أن هناك نصا آخر على حرمة نكاحهن كما ترى فى هذه الآية.

« وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَٰجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ... الأحزاب ٥٣

وبدليل النص على أن محارمهن الذين يجوزلهم أن يدخلوا عليهن بدون استئذان هم آباؤهن وأبناؤهن وأخواتهن وأبناء إخوانهن وأبناء أخواتهن فحسب، كما جاء فى آية أخرى من سورة الأحزاب وهى:

« لاجُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِى ءَابَآئِهِنَّ وَلا أَبْنَآئِهِنَّ وَلا إِخْوَٰنِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلا نِسَآئِهِنَّ وَلا مَامَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ... ٥٥

وأخيراً نشير إلى جملة « وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها » إذ تنطوى على صورة من صور زواج النبى صلى الله عليه وسلم الخاصة به، فهو فوق أنه كان يخطب نساءه ويمهرهن جرياً على العادة المعروفة، كان بعض النساء المؤمنات يعرضن أنفسهن عليه هبة. ومما لاريب فيه أن هذا إنما كان قصد التشرف بالصلة به والحرص على نيل الكرامة العليا فى الزوجية النبوية، وقد أباح الله له الاستجابة لمن شاء منهن تقديراً لهذه الرغبة المخلصة فى نيل شرف هذه الزوجية الكريمة. ولعل فى هذا ما يؤيد ما كان من حزن نسائه وقلقهن من احتمال الفراق، وما كان من حكمة الله ورحمته بهن بالإبقاء.

— ٣ —

(٢) فى سورة الأحزاب الآيات التالية:

« يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ قُلْ لِأَزْوَٰجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا. وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ

ورَسُولَهُ والدَّارَ الآخِرَةَ فَإنَّ اللهَ أعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أجرًا عَظِيماً . يَٰنِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا العَذَابُ ضِعْفَيْنِ وكانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً . ومَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلهِ ورَسُولِهِ وتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَا أجرَهَا مَرَّتَيْنِ وأعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيماً . يَٰنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فى قَلْبِهِ مَرَضٌ وقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا . وقَرْنَ فى بُيُوتِكُنَّ ولا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَٰهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وأقِمْنَ الصَّلَوٰةَ وءَاتِينَ الزَّكَوٰةَ وأطِعْنَ اللهَ ورَسُولَهُ إنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أهْلَ الْبَيْتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا . واذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ اللهِ والْحِكْمَةِ إنَّ اللهَ كانَ لَطِيفًا خَبِيراً ... ٢٨ - ٣٤

ولقد جعلنا الآيتين الأوليين من هذه الآيات موضوعاً خاصا فى بحث أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وقلنا فى صدد ذلك مافيه الكفاية .

غير أن فيهما وفى الآيات التالية لهما صوراً متصلة بهذا المبحث غير تلك الصورة الأخلاقية النبوية .

فأولا : أن الآيتين الأوليين تدلان على أن معيشة النبي صلى الله عليه وسلم فى بيوته كانت ضنكا على ماأيدته الروايات الكثيرة ؛ وكان نساؤه يتحملنها على مضض فلما رأين أن الله قد أفاء عليه أموال بنى قريظة على ماذكرته الآيات السابقة لهاتين الآيتين طالبنه بالتوسعة فكان هذا التخيير الذى جاء مؤيداً ومردداً لما عرا النبي صلى الله عليه وسلم من غضب وانزعاج بسبب رغبة نسائه فى الاستمتاع بمباهج الدنيا وشعوره بأن هذا مما لايتناسب مع مهمته العظمى ، ومما قد يعوقه عن حملها أو التفرغ لها . وهذه الظروف تسوغ القول بأن العيشة الضنك التى كان يعيشها النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن لقلة ذات اليد والعجز عن التوسعة مطلقاً ، بدليل أنها ظلت كذلك طيلة

حياته، وإلى مابعد أن امتلأ بيت مال المسلمين بالفيء والغنائم.

وثانياً : أن الآيات التالية للآيتين الأولين جاءت استطراداً على ماهو المتبادر، لتنبيه نساء النبي صلى الله عليه وسلم إلى مركزهن وواجباتهن ومسئولياتهن الكبيرة بسبب مانلنه من شرف الزوجية النبوية ؛ كأنما أريد بها التنبيه إلى مايجب عليهن فهمه وإدراكه ؛ فعقاب ماقد يقترفنه من ذنب بسبب ذلك الشرف وثواب مايبدو منهن من حسنات وخضوع وطاعة مضاعفان ؛ وقد جعلهن هذا الشرف فى مستوى خاص بهن بحيث صرن قدوة للناس ، وترتب عليهن واجبات أخلاقية وسلوكية وتعليمية كبيرة تتعلق بمالهن من صلة بالمؤمنين والمؤمنات وبأهداف المهمة النبوية، وخصصن بالعناية الربانية فى رفعة القدر وقصد الإبعاد عن الرجس والتطهير لأنهن صرن أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ولقد جعلتهن الآية الأخيرة مرجعاً من مراجع الناس فى أمور الدين لأنهن ألصق الناس بمن تنزل عليه آيات الله وحكمته وأكثرهم فرصة وقرباً لسماعها وتلقيها وفهمها ؛ ومن هنا أيضاً جاء هذا المستوى الخاص الذى جعل لهن ، وهذه المضاعفة فى العقاب والثواب ، وهذا التنبيه على عدم الضعف فى القول وإطماع مرضى القلوب فى التساهل والغفلة فى ذكر أوامر الله وحكمته وآياته التى تتلى فى بيوتهن وهذا الأمر بالقرار فى بيوتهن وعدم الجنوح إلى التبرج واللهو . ولقد احتوت كتب الحديث شيئاً كثيراً عنهن - وخاصة عن اللاتى عمرن منهن طويلا بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم - فى صدد سنن النبى صلى الله عليه وسلم وسيرته ، كأثر من آثار هذه التلقينات والأعباء التى قررتها الآيات . هذا ؛ وعبارة أهل البيت هنا لاتدع مجالا لتردد ما فى أنها قد قصد بها نساء النبى صلى الله عليه وسلم اللاتى هنّ أهل بيته ؛ وفى توسيع فى مداها إلى أبعد من ذلك شىء غير يسير من التجوز ، كما أن صرفها عن نساء النبى صلى الله عليه وسلم هو فى منتهى التناقض والغرابة ولقد تكرر هذا التعبير فى سياق قصص الأنبياء ، وكان المقصود به الزوجة فى كل مرة كما ترى فى الآيات التالية :

١ — قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَٰتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ... هود [1] ٧٣

٢ — وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ . إِذْ رَءَا نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءَانَسْتُ نَاراً ... طه ٩ - ١٠

٣ — إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي ءَانَسْتُ نَاراً سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ... النمل ٧

٤ — قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءَانَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ... القصص ٢٩

- ٤ -

(٣) فى سورة الأحزاب الآيات التالية :

« وما كان لِمُؤْمِنٍ ولا مُؤْمِنَةٍ إذا قضى اللهُ ورسولُهُ أمرًا أن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ ورسولَهُ فقد ضلَّ ضلٰلًا مُّبِيناً . وإذْ تقولُ لِلَّذِي أنعمَ اللهُ عليهِ وأنعمتَ عليهِ أمسِكْ عليكَ زوجَكَ واتَّقِ اللهَ وتُخْفِي في نفسِكَ ما اللهُ مُبْدِيهِ وتخشى النَّاسَ واللهُ أحقُّ أنْ تخشٰهُ فلمَّا قضى زيدٌ منها وطراً زوَّجنٰكها لِكَيْ لا يكونَ على الْمُؤْمِنِينَ حرجٌ في أزوٰجِ أدعيائِهِمْ إذا قضوْا منهنَّ وطراً وكانَ أمرُ اللهِ مفعولًا . مَّا كانَ على النَّبيِّ مِنْ حرجٍ فيما فرضَ اللهُ لهُ سُنَّةَ اللهِ في الَّذِينَ خلَوْا مِنْ قبلُ وكانَ أمرُ اللهِ قدراً مقدوراً . الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسٰلٰتِ اللهِ ويخشونَهُ ولا يخشونَ أحداً إلَّا اللهَ وكفى باللهِ حسيباً .

---

(١) الخطاب لزوجة إبراهيم عليه السلام .

مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ... ٣٦ - ٤٠

وهذه الآيات نزلت على ما أجمعت عليه الروايات فى صدد زواج النبي صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش رضى الله عنها مطلقة دعيه أو متبناه زيد بن حارثة رضى الله عنه .

ولقد روى بعض الرواة أن النبي صلى الله عليه وسلم مال إلى زينب بعد زواجها من زيد لما رآه من مفاتنها ، وأنها شعرت بذلك فأخذت تكايد زوجها ، وأن هذا شعر بالأمر فأراد تطليقها ليتسنى للنبي صلى الله عليه وسلم أن يتزوجها . وتمسك المبشرون والمستشرقون بهذه الرواية ، وأضفوا عليها معاني خيالية ، وأخذوا يبدون ويعيدون ويتطاولون بالباطل على الأخلاق النبوية .

ولقد كانت الرواية موضوع نقد ونقاش قديماً وحديثاً ،فاستبعدها بعض المفسرين القديمين واستنكروها وقالوا إنها مدسوسة ، وتناولها الكتاب الحديثون لينزهوا النبي صلى الله عليه وسلم عما قاله بعض ذوى الهوى .ولم نر أحداً فيما اطلعنا عليه أنعم النظر فى نصوص الآيات نفسها إنعاما وافياً مجرداً عن الروايات وأقوال المفسرين والمؤولين مع أن فيها صراحة تساعد على فهم الموضوع فهماً صحيحاً وتضع الأمر فى نصابه الحق ، على أن القرآن هو السند الأوثق والمستلهم الأقوى .

ففى الآيات تعليل صريح بأن تزوج النبي مطلقة متبناه هو لإبطال تقليد حرمة زواج المتبني بمطلقة المتبنى ورفع الحرج عن المؤمنين فى تزوج مطلقات أدعيائهم أو أبنائهم بالتبنى . ونعتقد أن هذا التعليل هو مفتاح الحادثة كلها . فقد كانت العادة قوية راسخة ، ولم يجرؤ - على ما يبدو - أحد على نقضها بعد أن عابت آيات الأحزاب ٤ - ٦ عادة التبنى وأمرت بإبطالها ، وهى هذه :

« وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ . ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً . النَّبِيُّ

أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ [١] ... » .

فألهم الله النبي صلى الله عليه وسلم أن يقوم على إبطال هذه العادة بنفسه فى زينب. ولعل زينب التى رضيت التزوج من زيد الذى كان يدعى زيد بن محمد، قد انبثق فى نفسها شىء من التكبر عليه وأحست معنى من معانى عدم التكافؤ بينها وبينه حينما أبطلت الآيات التبنى فصار يدعى زيد بن حارثة، ويعتبر مولى من موالى المسلمين الذين ليس لهم نسب يباهون به، وانبتت صلته الأولى بالنبي صلى الله عليه وسلم؛ فكان تغير نظرة زينب إلى زوجها وموقفها منه مزعجاً له ومبعثاً لشكواه، وداعياً له للتفكير فى طلاقها فأمره النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر والتحمل مع ما قام فى نفسه بإلهام الله أن يتزوج بها إذا طلقها ليبطل بنفسه هذه العادة الجاهلية الراسخة ويكون قدوة لغيره. والعتاب الربانى فى الآيات مصبوب على تردده فى الإقدام على تنفيذ ما ألهم الله خشية انتقاد الناس وحياء منهم؛ وقد تضمنت الآيات توضيح الأمر؛ فليس عليه من حرج فى تنفيذ ما ألهمه الله إياه، وهذه سنة الله فى أنبيائه إذ اختارهم لتبليغ رسالاته وجعل لهم إبطال وإلغاء وتعديل وإثبات ما اقتضت حكمته من عادات وتقاليد، وأوجب عليهم الإقدام وعدم خشية أحد غيره فى ذلك. ولعل مفهوم الآية الأولى يدل على أن نقض هذه العادة لم يصعب على النبي صلى الله عليه وسلم وحده، بل صعب على زينب أيضاً إذ كانت تعد نفسها كأنها زوجة ابنه، والناس يعدونها كذلك ولم يكونوا قد تأثروا بعد بما كان من معابة آيات الأحزاب الأولى ٤ - ٦ لهذه العادة؛ فاحتوت الآيات ما احتوته من عبارات قوية بسبيل الحض على الرضاء بما أمر به الله ورسوله وعدم عصيانه؛ وزينب وزيد رضى الله عنهما كانا يعرفان بطبيعة الحال أن التقليد لا يسمح بتزوج النبي منها، وهذه نقطة مهمة من شأنها أن تهدم ركناً من أركان الرواية وما دار حولها هدماً ساحقاً، وأن تجعل الجزم سائغاً بأن زيداً إنما أراد تطليقها لأسباب غير أسباب تيسير تزوج النبي صلى الله عليه وسلم بها بأن ما يمكن أن يكون قد بدأ من زينب من سلوك مزعج لم يكن يمت إلى هذا الأمر بسبب.

---

(١) فى الفقرة الأخيرة هذه نسخ لتوارث المتبنين والأبناء بالتبنى أيضا إذ جعل التوارث بين ذوى الأرحام فحسب.

وفوق ما قلناه نقرر استيفاء لمقتضيات الجدل أن إثبات الحادث فى القرآن مع ما فيه من عتاب شديد أكبر برهان على أنه لم يكن فى سياقه شىء ما يمس كرامة النبى صلى الله عليه وسلم ونزاهته وتصرفه؛ وكل الأمر هو ما كان من تردده فى تنفيذ إلهام ربانى فيه إبطال عادة جاهلية؛ ولقد جاءت الآية الأخيرة مقوية للتعليل، وانطوت على تدعيم حاسم لما قلنا إنه مفتاح الحادثة كلها؛ فما كان محمد أبا أحد من الناس حتى يحرم عليه نكاح مطلقة ويسبب هذا قيلا وقالا فوق ما فى عمل النبى من رفع للحرج عن المؤمنين فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا.

وقد كررنا تعبير الإلهام لأن الآيات تدل على أن الحادث قد وقع بغير وحى قرآنى؛ وأنها قد نزلت بعد وقوعه؛ وتدل كذلك على أن الحادث سبب قيلا وقالا فوق ما كان من تردد النبى صلى الله عليه وسلم وخشيته حديث الناس ووقوع ما توقعه من ذلك فعلا؛ فنزلت الآيات للرد على المنتقدين وتأييد النبى صلى الله عليه وسلم فى تصرفه والدفاع عنه، إلى عتابه على ما كان من تردده. ومثل هذا تكرر فى القرآن كثيرا. ومن الأمثلة عليه سورتا الأنفال والفتح اللتان نزلتا بعد حادثى بدر والحديبية، وتضمنتا تأييدا للنبى صلى الله عليه وسلم فى تصرفه. ولعل آيات الأحزاب ٤ - ٦ التى أبطلت عادة التبنى وآثارها هى التى ألهمت النبى صلى الله عليه وسلم التفكير فى إبطال حرمة نكاح مطلقة المتبنى إتماما لهدم العادة نهائيا؛ وهذا يعلل فيما يتبادر لنا ما تضمنته الآيات ٣٦ - ٤٠ من اعتبار الفكرة إلهاما أو أمرا ربانيا ومن عتاب النبى صلى الله عليه وسلم على تردده وخشية الناس فيه.

وأخيرا نرى أن ننبه إلى أمر، وهو ما يمكن أن يوهمه عتاب الله للنبى صلى الله عليه وسلم لإخفائه فى نفسه ما الله مبديه وخشيته الناس والله أحق أن يخشاه، من مناقضة لما استدللنا عليه ونوهنا به فى المبحث السابق من خلق جرأة النبى صلى الله عليه وسلم فى الحق. ولسنا نرى فى هذا الموقف تناقضا ولا مفخرا؛ فالأمر متصل بخصوصية من خصوصيات النبى صلى الله عليه وسلم الشخصية أولا، وليس فيه وحى قرآنى صريح ثانيا؛ وكان مرجع التردد الذى بدا منه اجتهاديا لاحتمال حدوث رد فعل قد يؤثر تأثيرا ما فى أوساط المسلمين والعرب فيما نعتقد ثالثا، ولم يلبث النبى صلى الله عليه وسلم مع ذلك أن تغلب عليه وأقدم على ما ألهمته فطرته رابعا. وما كان العتاب إلا على لحظة التردد الاجتهادى الذى هو خلجة نفسية كانت خلاف الأولى الذى فى علم الله وحسب.

– ٥ –

(٤) فى سورة الأحزاب الآيات التالية :

« يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَاهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَٰجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا . إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا . لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِى ءَابَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ... ٥٣ - ٥٥

وقد روى عن سبب لنزول القسم الأولى من الآية الأول أنها نزلت يوم زفاف النبي صلى الله عليه وسلم على زينب ، إذ دعا المسلمين إلى الوليمة فانتظروا نضج الطعام ولم ينصرفوا بعده وأطالوا المكث فى الحديث والسمر على الرغم مما بدا من النبي صلى الله عليه وسلم من ضيق ؛ وروى عن سبب نزول قسم الحجاب من الآية أن عمر رضى الله عنه ظل يلح على النبي صلى الله عليه وسلم أن يحجب نساءه حتى نزل ؛ وروى عن سبب نزول الفقرة الأخيرة منها أن أحد المسلمين قال : لأتزوجن بعائشة رضى الله عنها بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم عنها !

والرواية الأولى متسقة مع روح الفقرات الأولى من الآية فإن لم تكن هذه الرواية صحيحة بنصها فلا بدّ أن تكون قد وقعت مناسبة مماثلة لها . والرواية الثانية تذكر أن عمر رضى الله عنه كان يودّ حجب نساء النبي صلى الله عليه وسلم فلا يختلطن

بالناس ولا يخرجن بارزات أو سافرات ، ولحوى النص القرآني لا يؤدى إلى هذا عند إنعام النظر فيه ، ولقد جاء فى الرواية الأولى أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما أخبر بانصراف الناس من بيته وعاد ، أمر حالا بضرب الستار - وهو الحجاب - على الباب ومنع خادمه أنس بن مالك رضى الله عنه من الدخول وتلا الآية ؛ والنفس تطمئن أكثر إلى أن حادث وضع الحجاب على الباب هو المقصود وأنه متصل بالحادث الأول ؛ وعلى كل حال فليس الحجاب هنا هو نقاب الوجه كما هو مستقر فى بعض الأذهان .

ومع أن الآيات قد نزلت لأسباب خاصة فإن من الممكن الاستدلال بها على أن المسلمين كانوا يدخلون إلى بيوت النبي صلى الله عليه وسلم بإذن وبلا إذن ، وبدعوة وبغير دعوة ، وينتظرون نضج الطعام إذا كانوا مدعوين إلى طعام ، ويقضون الوقت فى السمر والحديث ، وأن نساء النبي صلى الله عليه وسلم كن يحضرن مجالسهم ، وأن هذا كان يؤذى النبي صلى الله عليه وسلم ويضايقه ولكنه كان يستحي أن يجبههم بالمنع ؛ والراجح أن هذا كان شأن المسلمين عامة فيما بينهم أيضاً ، جرياً على مألوفهم ، أو بالأحرى على مألوف العرب الذى تلهمه آيات سورة النور (٢٧ - ٣١ و ٥٨ - ٦٠) على ما سوف نذكره فى مناسبة أخرى ؛ مع احتمال أنهم كانوا يكثرون منه بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم وبيوته ، لأنه صار فيهم الهادى المرشد ، والزعيم الجامع ، والمعلم الواعظ ، والقاضى والمفتى ، وصارت بيوته مثابتهم لأنها بيوت الأمة العامة ؛ ولعل النبي صلى الله عليه وسلم كان فى الوقت نفسه يكثر دعوة المسلمين إلى الطعام فى بيته ، ولقد استفاضت الروايات بأنه كان كثيراً ما كان يطعم الذين كانوا يعتكفون فى مسجده من فقراء المسلمين وغربائهم والمتعطلين عن الكسب منهم .

والذى تلهمه روح الآيات ونصوصها أن ما كان يؤذى النبي صلى الله عليه وسلم هو إطالة المكث فى بيوته والدخول إليها بلا إذن وفى غير الأوقات المناسبة ، لاسيما أن البيوت فيما نرجح لم تكن تحتوى على مرافق تستطيع زوجاته فيها التمتع بحرياتهن ؛ وأن الآيات هى بسبيل تنظيم هذا الأمر ، مع استثناء محارم زوجات النبي صلى الله عليه وسلم الأدنين وملك اليمين والنساء . وليس فى الآيات نص صريح يحظر دخول المسلمين إلى بيوت النبي صلى الله عليه وسلم بعد الاستئذان والإذن ولحاجة غير تناول الطعام ؛ وقد تعددت الروايات التى تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأذن لمن شاء من المستأذنين بالدخول عليه فى بيوته ؛ وليس فى الآيات كذلك نص صريح

يحظر اجتماع المسلمين من غير المحارم بنساء النبي صلى الله عليه وسلم على الطعام أو غيره وفى بيوته بعد الاستئذان والإذن والدعوة أو فى خارجها ولو لحاجة غير تناول الطعام ، وإن كانت روح الآيات أميل إلى الحظر ، وعلى كل حال ففى الآيات صورة لما كان الأمر عليه وما صار إليه فى حياة النبي صلى الله عليه وسلم البيتية وصلة المسلمين بها :

— ٦ —

(ه) فى سورة الأحزاب الآية التالية :

« يَٰأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ... ٥٩

وروایة النزول تذكر أن النساء كن يخرجن لقضاء حاجاتهن بزى واحد حرائر وإماء ، وكان بعض الرجال يتعرضون لهن بدون تفريق ؛ فأمرت الآية حرائر المسلمين بإسبال الجلباب للتفريق بينهن وبين غيرهن .

وقد جاء بعد هذه الآية ثلاث آيات يرجح أن يكون لها صلة بها وهى :

« لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَٰفِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا . مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا . سُنَّةَ اللَّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ... ٦٠ - ٦٢

وقد تدل الآيات على أن المنافقين ومرضى القلوب والأخلاق لم يكونوا يتورعون عن إدارة ألسنتهم فى أعراض النساء وإشاعة الشوائع عنهن ، وإسماعهن بذىء الكلام وفاسقه ، فأنذرتهم الآيات هذا الإنذار القاصم ، هذا مع احتمال أن يكون الإنذار بسبب ما كان يلقاه نساء المسلمين من الأذى الذى أشارت إليه الآية (٥٩) وما كان يبدر من هذه الفئات من بذاءات وغمزات بصورة عامة .

والآية (٥٩) عامة الشمول ، وإنما سلكناها فى هذا المبحث لأنها ذكرت نساء النبي صلى الله عليه وسلم وبناته ، ولأنها تبعا لذلك أدمجتهن فى الصورة التى تنطوى فيها .

وننبه إلى أن فى الآية إلهاماً تشريعياً آخر ؛ وهو أن الأحكام التى احتوتها آيات الأحزاب ٢٨ - ٣٤ و ٥٣ - ٥٥ التى نقلناها من قبل ، هى خاصة بزوجات النبى صلى الله عليه وسلم دون سائر نساء المسلمين ؛ فلما اقتضت الحكمة أن يكون حكم عام أو تعليم عام للجميع ذكرن مع سائر النساء ، على أن الآيات المذكورة تحتوى فى حد ذاتها شيئا من الصراحة فى هذا المعنى أيضا :

— ٧ —

(٦) فى سورة التحريم الآيات الآتية :

« يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ واللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ واللهُ مَوْلَـٰكُمْ وهُوَ العَلِيمُ الْحَكِيمُ . وإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَـٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ العَلِيمُ الْخَبِيرُ . إِن تَتُوبَآ إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَـٰهُ وجِبْرِيلُ وصَـٰلِحُ الْمُؤْمِنِينَ والمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ . عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَـٰتٍ مُّؤْمِنَـٰتٍ قَـٰنِتَـٰتٍ تَـٰٓئِبَـٰتٍ عَـٰبِدَٰتٍ سَـٰٓئِحَـٰتٍ ثَيِّبَـٰتٍ وأَبْكَارًا ... ١ - ٥

وقد روى المفسرون فى سياق هذه الآيات روايات عدة على اختلاف بينها فى الوقائع والأسماء ، ومنها مايجعل مناسبة آيات الأحزاب (٢٨ - ٣٤) التخييرية متصلة بها ، بل ومنها مايذكر أن بعض الحديث الذى أسرّ به النبى صلى الله عليه وسلم متعلق بالخلافة من بعده .

وخلاصة الرأى الأقرب إلى الصحة من غيره من أسباب نزول الآيات أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يطيل المكث عند زوجته زينب ويشرب عسلا ، فتواطأت عائشة وحفصة على الكيد لها ، واتفقتا على أن تقولا له إن رائحته رائحة مغافير ، وهو صمغ حلو الطعم غير طيب الرائحة يمتصه النحل ، فلما قالتا له ذلك أو قالته إحداهن قال : بل شربت عند زينب عسلا ! فقالت له : لعل العسل جنى العرفط ؛ وهو الشجر الذى يخرج منه الصمغ . لحلف أو وعد بأن لا يعود إليه ، وطلب ممن حلف أمامها أن تكتم القصة ولكنها لم تكتمها ، وأخبرت بها زميلتها ، ففشا الحديث فغضب النبى صلى الله عليه وسلم وحلف أن لا يقرب زوجاته شهراً ، وهجرهن حتى قيل إنه طلقهن ، ثم سكت عنه الغضب عند تمام الشهر ونزلت الآيات . وهناك رواية تذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم اجتمع بمارية فى بيت حفصة ، فلما علمت استرضاها بيمين أن لا يقرب مارية واستكتمها الخبر ، ولكنها أفشته لعائشة .

ومهما يكن من أمر الروايات فالآيات تحتوى صورة حادث بيتى وقع بين النبى صلى الله عليه وسلم وبعض زوجاته ، وأنه قد وقع بسبب الغيرة النسائية ، وأن اثنتين منهما كانتا متآمرتين فيه ، وأن النبىّ صلى الله عليه وسلم أحب أن يتصرّف فى الحادث تصرفاً فيه مسايرة ومراضاة ، فاستغلت إحداهما هذا الموقف الكريم منه وأفشت ماحدثها أو ما وعدها به ، وأن هذا آلمه وحزّ فى نفسه حتى هم بتطليق نسائه ، ثم أوحى الله إليه بالآيات التى اكتفى فيها بالتنديد والإنذار . أما ما حرمه النبى صلى الله عليه وسلم على نفسه باليمين فمن الصعب الجزم به ، فمن المحتمل أن يكون العسل أو قرب مارية مدة ما أو ما كان من حلفه بهجر نسائه شهراً ؛ ونحن نرجح أن يكون أحد الأمرين الأولين أو ما يماثلهما ، لأن الآية تنص على أن النبى صلى الله عليه وسلم حرّم على نفسه ما يحل له ، وأنه حرّمه مرضاة لأزواجه ؛ ونتبه إلى أن تحريم النبى صلى الله عليه وسلم ما أحل الله له ليس بمعنى جعل الحلال حراماً ، وإنما بمعنى حرمان نفسه ما هو حل له مما ليس غريباً فى الحياة البشرية .

— ٨ —

(٧) فى سورة النور الآيات التالية :

« إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ

خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِىٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ . لَّوْلَا (١) إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ . لَّوْلَا جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللهِ هُمُ الْكَٰذِبُونَ . وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ . وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ . يَعِظُكُمُ اللهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَٰتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَٰحِشَةُ فِى الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ...

١١ - ١٩

وموضوع الآيات هو ماعرف فى السيرة النبوية بحديث الإفك عن زوجة النبي صلى الله عليه وسلم عائشة رضى الله عنها . وخلاصة القصة على مارواه البخاري ومسلم : أن النبي صلى الله عليه وسلم استصحب عائشة فى إحدى غزواته على عادته استصحاب إحدى نسائه معه ، وأن الجيش فى العودة نزل منزلا فذهبت عائشة لحاجتها ثم فقدت عقداً لها فتأخرت فى البحث عنه فلما رجعت وجدت الجيش قد رحل بهودجها إذ حمله الموكلون به يظنون أنها فيه ، فجلست مكانها أملا أن تفتقد فيرسل فى أثرها ، وكان أحد المجاهدين متأخراً ؛ فلما وقع نظره عليها أناخ بعيره فركبته ولحقت بالجيش . وقد كان تأخرها وقدومها مع المجاهد وسيلة لظن بعض المسلمين والمنافقين السوء ، وقد استغل رئيس المنافقين «أبى» الحادث استغلالا قبيحاً فتولى إشاعته والخوض فيه

---

(١) هى وغيرها فى الآيات بمعنى : هلا .

واتسعت دائرته بالتناقل حتى أثر ذلك فى نفس النبى صلى الله عليه وسلم ، واتفق أن مرضت عائشة فرأت من النبى صلى الله عليه وسلم شيئاً من الجفاء لم تعهده ، فاستأذنت وانتقلت إلى بيت أبيها ؛ ومع أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يزورها فقد ظل منقبضاً جافياً حتى أنه أخذ يشاور أخصاءه فى أمرها ؛ وقد شكا على المنبر ما ناله من أذى من الخوض فى الحديث ، ولقد جرى كل هذا دون أن تدرى عائشة منه بشىء إلى أن عرفت ذلك اتفاقا بعد نحو شهر ، فكبر همها وبكت كثيراً لما فى الحديث من إفك قبيح وما كان له من أثر وذيوع . وقد تحدث إليها النبى صلى الله عليه وسلم أخيراً فى مجلس من بيت أبيها وعلى مسمع من أبويها طالبا إليها أن تقول شيئاً وأن تستغفر الله إن كانت ألمت بذنب ، فتكهرب الجو وأخذتها الأنفة أن تبرئ نفسها معلنة طمأنينتها إلى أن الله لابد أن يبرئها . وقد أخذ الوحى النبى صلى الله عليه وسلم فى المجلس ، فلما انفصل عنه تهلل وجهه وهتف بعائشة مبشراً ثم تلا الآيات .

ومع أن الآيات ليست بسبيل حكاية القصة ، شأنها فى ذلك شأن ما ورد فى القرآن من أحداث السيرة ، فإنها تحتوى بعض الدلالات المتسقة مع المروى إجمالا ، كما أن فيها دلالة على ما كان للحادث وظروفه من آثار مزعجة ومؤذية ، ومستوجبة للنقد والتنديد ، لاسيما ما كان من غفلة جمهور المسلمين عما فيه من إفك ظاهر وكيد بين كان يجب أن يدركوه بداهة حينما سمعوه ، لأن الذين قيل فى حقهم أرفع وأطهر من أن يتورطوا فيه ، وما كان فى سلوكهم من بواعث الألم النفسانى فى النبى صلى الله عليه وسلم وعائشة وذويها ، وفيها كذلك نقد أو عتب على من يتصل الحادث بهم شخصياً بسبب سكوتهم أو حيرتهم أو اختلاج نفوسهم باحتمال صحته ، إذ كان يجب أن يدركوا لأول وهلة ما فيه من كذب وبهتان ، وأن يعلنوا هذا فى الحال .

ولعل ما يحمل عليه التنديد بالساكتين الغافلين أو الحائرين المترددين من جمهور المسلمين أو الأخصاء ، وعلى انتقاد موقفهم ، بيان ما فى الحديث من إفك بديهى ، وأنه لا يمكن أن يصح فى العقل ، أولا : أن تقترف زوجة النبى صلى الله عليه وسلم إثما خطيرا مثل الذى نسب إليها ، وهى ابنة أول بيت فى الإسلام بعد بيت النبى صلى الله عليه وسلم وفى مرتبة سامية من الكرامة عند الله والمسلمين تمنعها منه بداهة ، وهى مع ذلك زوجة النبى التى كانت تعتقد أن وحى الله متصل به وأن الله لا يخفى عليه شىء . وثانيا : أن يجرؤ مسلم على التعرض لزوجة النبى صلى الله عليه وسلم وفيه ذرة من إيمان بالله

ورسوله . والحق أنه من الغريب ألا تكون هذه الحجة وروح الآيات مقنعة لكل ذى عقل ببراءة عائشة وتنزهها ، وأن يكابر أحد فى ذلك مكابرة ما ؛ ونعتقد أن إعارة الروايات كل الاهتمام ، والغفلة عن التمعن فى نصوص الآيات وروحها ، والأهواء الحزبية التى كان مبعثها الفتنة الهوجاء بعد استشهاد عثمان رضى الله عنه - من أسباب ما كان حول هذا الحادث من قيل وقال ، وروايات جعلت بعض ذوى الهوى يستغلونه استغلالا مغرضاً كما استغله المنافقون ومرضى القلوب فى زمن النبي ؛ والآية الأخيرة قوية التعبير عن هذا المعنى ؛ إذ تدل على أن فئة كانت هنا لك تتعمد إشاعة الفاحشة وأخبار السوء عن المسلمين المخلصين ، وهى التى خاضت فى الحديث وتولت كبره ؛ ولقد جاء بعد قليل من الآيات آية أخرى متصلة بذلك وهى :

« إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَٰتِ الْغَٰفِلَٰتِ الْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ... » ٢٣

— ٩ —

(٨) إن رواة أسباب نزول سورة الكوثر :

« إِنَّا أَعْطَيْنَٰكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » .

قالوا : إن بعض بغاة الكفار وصف النبي صلى الله عليه وسلم بالأبتر تعييراً له ، لأنه لم يعش له أولاد ذكور ، فنزلت السورة تندد به من جهة ، وتبشر النبي صلى الله عليه وسلم بماله من قدر عظيم عند الله من جهة أخرى .

وروايات السيرة المتعددة التى بلغت مبلغ اليقين تخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قد رزق أولاداً ذكوراً من السيدة خديجة رضى الله عنها زوجته الأولى ، ومن أمته مارية رضى الله عنها ، ولكنهم لم يعمروا إلا قليلا . ولقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم التاع أشد اللوعة عندما مات إبراهيم بن مارية فى يثرب . وروح السورة تلهم أن تعيير النبي صلى الله عليه وسلم بالأبتر قد حزّ فى نفسه كثيراً ، وقد يكون فى هذا

مايدل على أن عدم تعمير أبنائه الذكور كان شديد الأثر فيه . ولقد ذكر بعض الكتاب أن مما يمكن أن يخطر بالبال أن يكون زواج النبي صلى الله عليه وسلم بعائشة وصفية وجويرية وميمونة ومارية رضى الله عنهن وكلهن فتيات ، بسائق الرغبة فى الأولاد الذكور ، ولا يخلو هذا من بعض الوجاهة فيما نرى .

ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم تبنى قبل بعثته : زيد بن حارثة رضى الله عنه وهو فتى صغير ، وكان عبدا لخديجة رضى الله عنها فاستوهبها إياه وأعتقه وتبناه . فليس مما يستبعد أن يكون هذا التبنى بسبب من عدم تعمير أولاده الذكور من السيدة خديجة رضى الله عنها .

والقرآن ينص بصراحة على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له بنات بلغن مبلغ النساء ، وذلك فى آية الأحزاب (٥٩) ؛ والأخبار اليقينية أن بناته من السيدة خديجة أيضاً ، وأن السيدة فاطمة رضى الله عنها منهن هى التى خلفت ذرية ، وأن الثلاث الأخريات: زينب زوجة الربيع بن العاص ، ورقية وأم كلثوم زوجتى عثمان بن عفان رضى الله عنهما بالتوالى ، قد متن بلا ذرية .

— ١٠ —

(٩) فى سورة الحجرات الآية التالية :

« إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ...

٤ – ٥

ورواية سبب النزول تذكر أن وفدا من البادية جاء ليرى النبي صلى الله عليه وسلم فى المسجد ؛ فلما لم يجده أخذ يناديه من وراء حجراته بأصوات عالية حتى أيقظه من قيلولته .

والآية الأولى مع ما روى سببا لنزولها تدل على أن بيوت النبي صلى الله عليه وسلم كانت حجرات متلاصقة فى طرف مسجده ، بحيث كان المسجد منها كأنه ساحة أمامها . وهذا مؤيد بالروايات التى بلغت مبلغ اليقين .

— ١١ —

والمناسبة سانحة لقول كلمة بشأن مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ومجالسه فيه؛ فقد كان المسجد على ما ذكرته الروايات المتواترة ساحة مسوّرة بأربعة أضلاع، وفى أحد أركانها حجرات النبى صلى الله عليه وسلم؛ وإن هذه الساحة كانت مكان صلاة النبى صلى الله عليه وسلم بالمسلمين كما كان بها مجلسه معهم للوعظ والقضاء والفتيا واستقبال الوفود وحل المشاكل والمداولة فى شؤون المسلمين المتنوعة؛ وكان بعضها مغطى بسعف النخل وقد أقيم السقف على أعمدة من جذوع الشجر، وصنع له نجار فى أخريات سنيه درجتين من خشب للإشراف من فوقهما على المسلمين قاعدا وقائماً، وهما اللتان يسميان منبره الشريف.

ولقد جاء فى سورة المائدة فى صدد شهادة أوصياء من يموت غريباً، إشارة إلى استماع شهادتهم بعد الصلاة، وهى فى هذه الآية.

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ... ١٠٦

إذ احتوت الآية تعليما بعقد مجلس قضائى بعد الصلاة؛ وهذا بالنسبة للظرف الذى نزلت فيه هو فى الغالب موجه للنبى صلى الله عليه وسلم ليعقد المجلس فى مسجده بعد صلاته بالناس حيث يكونون شهوداً. وفى هذا قرينة أو بالأحرى دلالة على ما ذكرناه آنفاً وتواترت به الروايات.

ولقد جاء فى سورة البقرة آية فيها حث على المحافظة على الصلاة الوسطى وهى

« حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ... ٢٣٨

والجمهور على أنها صلاة العصر؛ حتى أن فى موطأ الإمام مالك حديثين عن عائشة وحفصة رضى الله عنهما أنهما أمرتا ناسخاً ينسخ مصحفين لهما أن يكتب جملة «صلاة العصر» بعد جملة «الصلاة الوسطى»، ولعل ذلك من قبيل التفسير. ولقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجلس إلى أصحابه بعد صلاة العصر؛ فمن السائغ أن يقال إن إطلاق كلمة الصلاة فى آية المائدة إنما كان لأن وقت مجالس النبي صلى الله عليه وسلم للقضاء والوعظ وحل المشاكل المتنوعة كان معروفاً؛ ولعل اختصاص الصلاة الوسطى التى هى صلاة العصر بالحث على المحافظة عليها هى لبعث اهتمام المسلمين لشهود هذه المجالس. والحق أن وقت العصر هو الملائم لهذا بسبب قيظ النهار ومشاغل الناس فيه.

ولقد جاء فى سورة المجادلة الآية التالية:

«يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِى الْمَجَـٰلِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ... ١١

والآية تتضمن تأديباً عاماً مستمر التلقين؛ وقد قال جمهور المفسرين والرواة: إن المجالس المذكورة هى مجالس النبي صلى الله عليه وسلم؛ وهذا وجيه من ناحية نزول الآيات لظروف ومناسبات حاضرة ثم تكون تشريعاً وتعليماً مستمرين. وعلى هذا فالآية تلهم أن المسلمين قد تأثروا بالحث على شهود الصلاة الوسطى لشهود مجالس النبي صلى الله عليه وسلم بعدها، وأنهم كانوا يتسابقون إليها حتى ليصعب على المتأخرين أو الشيوخ أو المرضى أو الضعفاء أن يجدوا مكاناً. فاقتضت الحكمة تأديبهم بهذا الأدب الذى ينطوى على التطيب والوعد الحسن فى الوقت ذاته.

ولقد جاء فى سورة المجادلة الآيات التالية:

«يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا نَـٰجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ

عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ... ١٢ - ١٣

وقد روى أكثر من رواية فى سبب نزول الآيتين ؛ منها : أن الناس سألوا النبي فأكثروا حتى ثقل عليه ذلك فأراد الله أن يخفف عنه فأمرهم بتقديم صدقة بين يدي أسئلتهم.

ومنها : أن الأغنياء كانوا يغلبون الفقراء على مجالس النبي صلى الله عليه وسلم فثقل ذلك عليه وعليهم فنزلت الآية الأولى فكانت فرجا لهؤلاء ومشقة على أولئك وقلت مراجعة الأغنياء للنبي فلم تلبث أن نزلت الآية الثانية بنسخ الأولى.

وصيغة الآيتين تدل على أن كلا منهما نزلت لحدتها على ماجاء فى الرواية الثانية ؛ غير أننا غير مطمئنين لجميع ماجاء فى هذه الرواية ولا الرواية الأولى ؛ لأن هذا غير منسجم مع مهمة الرسول وطبيعة أخلاقه على ما نعتقد ؛ والذى يتبادر لنا أن المسلمين كانوا يراجعون النبي صلى الله عليه وسلم فى غير المجالس العامة المعينة أيضا ويستفتونه فى مشاكلهم الخاصة ، ومنهم من كان يطلب منه خلوة أو مجلساً خاصا من أجل ذلك ، وهذا هو مفهوم تعبيرى « ناجيتم ، ونجواكم » اللذين ينطويان على معنى المسارّة ، وأن هذا قد كثر فاقتضت حكمة التنزيل أن يفرض رسم على الأغنياء منهم لتصرف حصيلته فى أمور المسلمين العامة كما تدل عليه تسميته بالصدقة ، فثقل ذلك على هؤلاء وقالوا إن الزكاة كافية ، فاقتضت الحكمة العدول عنه فى الآية الثانية.

ومهما يكن من أمر ففى الآيتين صورة لما كان يعقده النبي صلى الله عليه وسلم من مجالس أو خلوات خاصة لمن يطلب من المسلمين ، بسبيل الاستماع إلى مشاكلهم الذاتية وحلها أيضا.

— ١٢ —

هذا ؛ ولقد ذكر المفسرون فى سياق تفسير فقرة جاءت فى آية سورة النساء (٤٣) وهى « إلا عابرى سبيل » أنه كان لبعض أصحاب رسول الله أبواب (خوخات) مفتوحة على المسجد النبوى ، وكان ساكنو البيوت يضطرون إلى العبور منها ، فرخص

لهم . ونحن نتوقف فى قبول هذا الخبر لتعارضه مع رواية بناء أسوار المسجد ، ونميل إلى القول بأن الترخيص القرآنى إنما كان لسكان بيوت النبى صلى الله عليه وسلم . نقول هذا ونحن نعرف أن هناك حديثاً عن النبى صلى الله عليه وسلم يأمر فيه بإغلاق خوخات المسلمين عن مسجده إلا خوخة أبى بكر رضى الله عنه ؛ فهل أقام أصحاب رسول الله مساكنهم من وراء سور المسجد بعد إنشائه ثم فتحوا خوخات لهم فى هذا السور ؟ سؤال نحار فى جوابه ، ولا نمنع أنفسنا من استغراب الأمر لبعده عن الاحتمال ، لاسيما أن هناك روايات تذكر أن مسكن أبى بكر رضى الله عنه كان فى محلة السفح التى كانت بعيدة بعداً غير قليل عن المسجد ؛ ونخشى أن يكون لما كان من مشادة بين أهل السنة والشيعة حول الخلافة النبوية أثر مافى هذا الخبر ، ففى الروايات المروية أسبابا لنزول بعض الآيات . وفى الأحاديث المسندة أو المرفوعة إلى النبى صلى الله عليه وسلم - كثير من هذا الباب .

— ١٣ —

ليس فى القرآن بطبيعة الحال شىء عن وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكن هناك روايات فى صدد سورة النصر وغيرها تتصل بتعيين وقت هذه الوفاة .

فهناك رواية تفيد أن آخر ما نزل من القرآن هو الجملة القرآنية : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » من آية المائدة الثالثة ؛ وأنها نزلت فى حجة الوداع النبوية فى السنة الهجرية العاشرة ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يلبث بعدها ألا أشهرا قلائل .

وقد توقفنا فى تفسيرنا عن قبول هذه الرواية ونبهنا إلى بعدها لأن الجملة بعض آية طويلة لها صلة وثيقة بمطلع السورة وبالآيات التى تليها ، ولأن كلمة « اليوم » التى اتخذت دعامة على مايبدو للرواية قد تكررت فى الآية الخامسة من السورة التى لم يقل أحد إنها نزلت مع تلك الجملة .

وهناك روايات عن آخر ما نزل من القرآن ليست وثيقة من جهة وليس معها قرينة زمنية متصلة بوقت وفاة النبى صلى الله عليه وسلم من جهة أخرى . غير أن هناك رواية تذكر أن سورة النصر وهى :

« إذا جَاءَ نَصْرُ ٱللهِ وٱلْفَتْحُ . ورأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُون فى دِينِ ٱللهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وٱسْتَغْفِرْهُ إنَّهُ كانَ تَوَّابًا » .

قد نزلت قبيل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، بل تذكر أنها آخر السور القرآنية نزولا ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم وأهل الفطنة من المسلمين قد استشعروا منهما انتهاء مهمته وقرب وفاته . وروح آيات السورة ومدى مضمونها من جهة والقرينة الزمنية بقدوم وفود العرب ومبايعتهم النبي صلى الله عليه وسلم ودخول الناس فى دين الله أفواجاً فى السنتين التاسعة والعاشرة من الهجرة - إذ ثبت بالتواتر الذى بلغ مبلغ اليقين أن النبي مات فى ربعها الأول - من جهة أخرى - تؤيد هذه الرواية أكثر من غيرها فإن السورة - وأن كانت قد تضمنت كلمة « الفتح » التى ذهب المفسرون أن المقصود بها مكة - قد جاءت بسبيل التذكير أولا ، واحتوت الآية الثانية من السورة إلى ذلك إشارة إلى المشاهد التى تمثلت فى سيل الوفود المتدفق من أنحاء الجزيرة على المدينة ليبايع النبي صلى الله عليه وسلم على الإسلام بعد انهدام السور الذى كان يحول بين عامة العرب وبينه بوقوف مكة موقف الجاحد المناوئ له ثانياً : وقد بدأت هذه المشاهد فى العام التاسع وامتدت إلى العام العاشر ، وطبيعى أن ذكر هذه المشاهد إنما كان عقب حدوثها أو على الأقل عقب ما يصح أن يكون مفهوما واقعيا للآية الثانية ، ولذلك نرجح الرواية التى تذكر أن سورة النصر هى آخر السور نزولا حتى ولو لم تكن آخر الآيات القرآنية نزولا ؛ وأنها نزلت فى أوائل السنة الهجرية العاشرة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يلبث أن توفى قرير العين بالنجاح الباهر الذى يسره الله له فيما ندبه له من رسالته الربانية ، وبانتشار كلمة التوحيد والإسلام فى مختلف أنحاء الجزيرة ، وانفتاح الآفاق الأخرى أمامها ، وتوطيد سلطانها ؛ وفى اجتماع العرب فى كيان عام بعد أن كانوا شيعاً ، وفى انفساح المجال أمامهم بعد الحياة الاجتماعية والاقتصادية الضيقة ؛ وفى إتمام دوره السياسى والاجتماعى والتشريعى العظيم إلى جانب دوره الدينى والروحى ؛ وهو الدور الخالد على اختلاف الدهر وتعاقب الأيام والذى يفترق فيه عن أدوار النبيين والرسل من قبله ؛ إذ كانت أدوارهم إما دينية وروحية ، وإما قومية ومحلية تحقيقاً للدعوة التى أمره الله بها فى هذه الآيات :

١ — الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ
فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ
الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلَالَ الَّتِي
كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي
أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ
إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي
وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ
وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ... الأعراف ١٥٧ - ١٥٨

٢ — يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ
تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ
مُبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ...
المائدة ١١٥ - ١١٦

والصفات التي وصفه بها :

• يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ
بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ... الأحزاب ٤٥ - ٤٦

ومستحقا لما اختصه الله به من الصلوات والبركات :

• إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا
عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ... الأحزاب ٥٦

فيستجيب اليها أتباعه الذين يعدون بمئات الملايين مرات عدة كل يوم ومنذ ألف وثلاثمائة عام ونيف هاتفين مرات عدة فى اليوم الواحد وفى مشارق الأرض ومغاربها : اللهم صل وسلم وبارك عليه .

المبحث الخامس

صور لسلوك المسلمين مع النبي صلى الله عليه وسلم

تناول هذا المبحث صوراً مشرقة عن مواقف المسلمين من النبي في العهد المكي وتفانيهم في اتباعه وتعظيمه ودلالة هذه المواقف – تنوع مواقف المسلمين في الاحتشام والتأدب في مجالس النبي – صور مشابهة أخرى ـ موقف بعض المسلمين من تشريع صدقة النجوى ـ مواقف غير مستحبة تلهمها بعض الآيات ـ توطيد القرآن لطاعة النبي ومدى ذلك ـ انعدام المواقف السلوكية غير المستحبة إزاء النبي في العهد المكي وكثرتها في العهد المدني وتعليل ذلك .

— ١ —

في القرآن آيات تأديبية وتعليمية كثيرة في صدد سلوك وآداب المسلمين نحو النبي كما فيه آيات تنويهية فيها ثناء على ما كان يبدو من المسلمين المخلصين من تفان وإخلاص وطاعة له ، فرأينا أن نعقد لها هذا المبحث لأنها تنطوي على بعض الصور المتصلة بشخصية النبي صلى الله عليه وسلم من ناحية ما ، وننبه إلى أن ما نعرضه هنا هو غير ما انطوت عليه آيات أخرى من صور لسلوك المنافقين أو سلوك المسلمين من الدعوة إلى الجهاد وظروفه ، إذ يأتي هذا وذاك في فصليهما الخاصين .

— ٢ —

(١) أوردنا في نهاية المبحث السابق الآية (١٥٧) من سورة الأعراف . وقد احتوت صورة مشرقة من تفاني المسلمين في العهد المكي في النبي صلى الله عليه وسلم ونصره وتوقيره واتباع وصاياه والنور الذي أنزل معه ؛ وهذه الصورة كما تلهمه الآية تشمل الكتابيين ، بل إن الآية تكاد تكون فيهم لولا فقرتها الأخيرة التي احتوت تعميما للذين آمنوا .

وينطوي في هذه الصورة وصف رائع لما كان من تأثر المسلمين الأولين بالنبي صلى الله عليه وسلم ونور نبوته الساطع وأعلامها الصادقة ، ويقين الكتابيين منهم

بأنها منطبقة على ما يجدونه عندهم من أوصاف وإشارات للنبي الموعود والهادى المنتظر، انطباقا يظل خالد الشهادة على كر الدهور

(٢) فى سورة الزمر الآيات التالية :

• والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد. الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ... ١٧ - ١٨

وهذه أيضا احتوت صورة مشرقة أخرى لتفانى المسلمين فى العهد المكى فى الإصغاء إلى تعاليم النبى صلى الله عليه وسلم وإرشاده وما يتلوه من آيات قرآنية، وبالتالى لتأثرهم بنور نبوته وأعلامها الصادقة، وحرصهم نتيجة لهذا التأثر على تحرى الأفضل والأحسن والأهدى واتباعه.

— ٣ —

(٢) فى سورة الحجرات الآيات التالية :

• يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم. يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون. إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ...

١ — ٣

والروايات عن سبب نزول الآية الأولى متعددة، منها اختلاف أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فى أمر فى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم دون أن يسألها رأيهما فيه، ومنها صيام بعض المسلمين رمضان قبل أن يعلن النبى صلى الله عليه وسلم ثبوته، ومنها ذبح بعض المسلمين قربان عيد الأضحى قبل ذبحه ؛ وروى فى صدد الآية الثانية

أنها نزلت فى مسلم جهير الصوت كان إذا تكلم ارتفع صوته حتى يرتفع على صوت النبى صلى الله عليه وسلم ؛ ولم يرو سبب لنزول الآية الثالثة .

ومهما يكن من هذه الروايات وما تحتمله من المناقشة فإن مما لا شك فيه أن الآيات نزلت بمناسبة بعض وقائع اقتضت الحكمة الربانية التنبيه على مافيها من مآخذ، وتأديب المسلمين فيها . وعلى كل حال فالآيات تدل على أن المسلمين كانوا أصنافا مع النبي صلى الله عليه وسلم ؛ إذ كان بعضهم لا يحتشم فى مجلسه ومخاطبته، كما كان بعضهم يتسرع فى إبداء الرأى والبدء فى العمل قبل أن يبدى رأيه أو يفعل، فى حين كان بعضهم يعرف قدره العظيم وشأنه الرفيع صلى الله عليه وسلم فيلزم الأدب والحشمة ويقف عند الحدود الواجبة عليه فى حضرته .

وواضح أن هذا متسق مع اختلاف طبائع الناس من جهة، ومع طبيعة بيئة لم تعود أن تتقيد بمثل هذه الآداب مهما يكن الفارق بين الناس، وكان الكبير والرئيس يخاطبون فيها مخاطبة الند وبدون استعمال ألفاظ توقيرية من جهة ثانية، ثم ما كان من قدم إيمان بعضهم ورسوخه فى أنفسهم وتأثرهم أبلغ التأثر بشخصية النبي صلى الله عليه وسلم وتفانيهم فى تعظيمه وتوقيره، وجدة الإيمان عند بعضهم وانسياق بعضهم فى الإسلام بدوافع متنوعة من جهة ثالثة، فنزلت الآيات تؤدب المسلمين وتعلمهم وتوطد مكانة النبي صلى الله عليه وسلم وحقه، وتثنى على من كان يوفيه هذا الحق، لأن ظروف البيئة الإسلامية المدنية اقتضت ذلك .

ولقد جاء بعد الآيات الثلاث آيتان فيهما وصف موقف سلوكى آخر وهذا نصهما :

« إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ...

٤ — ٥

إذ احتوت الآية الأولى منهما إشارة تنديدية إلى صورة فيها جفاء بدرت من وفد بدوى على ماروته الروايات جاءوا إلى المدينة ليجتمعوا بالنبي صلى الله عليه وسلم فلما لم يجدوه فى المسجد أخذوا ينادونه من وراء حجراته بأصوات عالية ؛ وهو أمر يتصل بالتعليل الذى ذكرناه آنفاً، وكانت الحادثة وسيلة إلى التأديب القرآنى الذى

احتوته الآية الثانية .

— ٤ —

(٤) فى سورة النور الآيات التالية :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ... ٦٢ - ٦٣

وقد ذكرت روايات النزول أن الآيات نزلت فى ظروف حفر الخندق ووقعة الاحزاب . ومهما كان من أمر ففيها منظر آخر مشابه للمنظر الذى احتوته آيات الحجرات السابقة كما هو واضح ؛ إذ كان بعض المسلمين ينسحبون خفية من مجلس النبي صلى الله عليه وسلم أو من اجتماع دعا إليه لأمرهام دون استئذان ، ولم يكن بعضهم يفرق بين دعوة النبي صلى الله عليه وسلم ودعوة سائر الناس فيعتذر أو يهمل الإجابة ، فى حين كان بعضهم يعتزم الأدب والواجب فيهتم لدعوته ، ويسارع إلى شهود مجالسه ، ويحرص على البقاء فيها ، ولا يتركها إلا لعذر مهم وبعد الاستئذان والإذن .

(٥) فى سورة النور أيضاً الآيات التالية :

« وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ . وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ . وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ

مُذْعِنِينَ . أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ
عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ . إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
إِذَا دُعُوا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا
وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ . وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ
فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَائِزُونَ ... ٤٧ - ٥٢

ومع أن الآيات تتحمل أن تكون بسبيل التنديد بموقف بعض المنافقين ، فأنها تتحمل أن تكون بسبيل التنديد ببعض المسلمين من غير المنافقين أيضاً ؛ وفى القرآن تنديدات مماثلة وجهت إلى المؤمنين دون المنافقين ؛ ولذلك يسوغ أن يقال إن فيها صورة لمواقف بعض المسلمين الذين كانوا يتهربون من التقاضى لدى النبي صلى الله عليه وسلم إلا إذا كان الحق لهم خشية أن يقضى ضدهم بالحق . ومع أن الآيتين الأخريين هما بمثابة تقرير لما يجب أن يكون عليه المؤمن المخلص فإن روحهما تلهم أنهما تنطويان على صورة واقعية لموقف المخلصين من دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وأحكامه أيضاً .

— ٦ —

(٦) فى سورة الأحزاب الآيات التالية :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ
مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَقُولُوا
قَوْلًا سَدِيدًا . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ... ٦٩ - ٧١

وقد روى أن بعض العرب نسبوا إلى النبي عدم العدل فى قسمة الغنائم فتأذت نفسه وقال : فمن يعدل إن لم يعدل رسول الله ؟ ثم قال : يرحم الله موسى فقد أوذى بأكثر من هذا فصبر ! فنزلت الآيات ؛ وقد وردت أحاديث عن الأذى الذى أوذى به موسى فى سياق تفسير الآيات ، إذ نسب بنو إسرائيل إليه قتل هرون ، وإذ أغرى قارون

بغياً لتهم موسى بالفاحشة ، وإذ أنه كان يتحفظ كثيراً فى التجرد حياء فقالوا : إن فى جسده آفة يخشى أن يراها بنو إسرائيل ؛ وقد ذكرت الأحاديث أنه وقع ما برأ الله به موسى من التهم .

وعلى كل حال ففى الآيات تحذير للمسلمين من إيذاء النبى صلى الله عليه وسلم بقول أو عمل أو موقف ، وأن لا يكونوا كبنى إسرائيل ، وتنبيه إلى أن الله حاميه ومطهره : والمرجح أنه قد وقع حادث فيه قلة أدب وذوق فى حق رسول الله صلى الله عليه وسلم أو تعجيز أوشك آذى نفسه فنزلت الآيات .

ومن هذا القبيل ما انطوت عليه آيات الأحزاب ٥٤ - ٥٦ التى نقلناها فى مبحث حياة النبى صلى الله عليه وسلم الزوجية ، إذ احتوت صورة لموقف فيه شىء من التثقيل على النبى صلى الله عليه وسلم ولقول فيه شىء من الأذى لنفسه فى زوجاته .

(٧) ولقد أوردنا فى المبحث السابق آيتى سورة المجادلة ١٢ - ١٣ ؛ وننبه هنا إلى أنهما فوق ما تضمنتا من صورة لمجالس النبى صلى الله عليه وسلم الخاصة ومراجعات الناس له فى مشاكلهم الذاتية فإنهما تتضمنان كذلك صورة لما كان يظهر من بعض المسلمين من اللجاج والتلكؤ فى سياق التشريعات والتكليفات المالية التى يأمر بها أو يبلغها النبى صلى الله عليه وسلم عن ربه . وقد تكرر هذا منهم فى مناسبات توزيع غنائم بدر وفىء بنى النضير ، وحكته عنهم سورتا الأنفال والحشر ؛ وسوف نعرض له فى فصلى الجهاد والتشريع ، لأن الموقف ثمة أوسع شمولا من الصورة التى احتوتها آيات المجادلة .

— ٧ —

وفى القرآن آيات عدة فيها إيجاب طاعة النبى صلى الله عليه وسلم وحث عليها وتوطيد لها واعتبارها ملازمة للإيمان بالله ورسوله وأثراً من آثاره ، ووسيلة إلى الله ، كما أن فيها تنديدات لاذعة بالذين لا يستشعرون هذا الواجب على الوجه الذى ينبغى ، كما تراه فى الأمثلة التالية :

١ — قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ

ذُنوبَكُمْ واللهُ غفورٌ رَّحيمٌ . قُلْ أَطِيعُوا اللهَ والرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَ
اللهَ لا يُحِبُّ الكَـٰفِرِينَ ... ٣١ - ٣٢

٢ — وأطيعُوا اللهَ والرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ... آل عمران ١٣٢

٣ — تِلْكَ حُدُودُ اللهِ ومَنْ يُطِعِ اللهَ ورَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا الأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وذَٰلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ . ومَنْ يَعْصِ اللهَ
ورَسُولَهُ ويَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَـٰلِدًا فِيهَا ولَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ...
النساء ١٣ — ١٤

٤ — ومَنْ يُطِعِ اللهَ والرَّسُولَ فَأُولَـٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم
مِّنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ والصَّـٰلِحِينَ وحَسُنَ أُولَـٰئِكَ رَفِيقًا ...
النساء ٦٩

٥ — مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ومَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَـٰكَ
عَلَيْهِمْ حَفِيظًا . ويَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ
غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ واللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ
وكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلًا ... النساء ٨٠ - ٨١

٦ — ومَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ ولَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا
أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ واسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ
تَوَّابًا رَّحِيمًا . فَلَا ورَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ
لا يَجِدُوا فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ...
النساء ٦٤ - ٦٥

٧ — يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا أَطِيعُوا اللهَ ورَسُولَهُ ولا تَوَلَّوْا عَنْهُ وأَنتُمْ

تَسْمَعُونَ . ولا تَكُونُوا كالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وهُمْ لا يَسْمَعُونَ ...

الأنفال ٢٠ - ٢١

٨ — يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ ولِلرَّسُولِ إذا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ واعْلَمُوا أنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وقَلْبِهِ وأنَّهُ إلَيْهِ تُحْشَرُونَ ...

الأنفال ٢٤

٩ — يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لاتَخُونُوا اللهَ والرَّسُولَ وتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ . واعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ...

الأنفال ٢٧ - ٢٨

١٠ — والمُؤْمِنُونَ والمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... التوبة ٧١

١١ — لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ والمُهَاجِرِينَ والأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ العُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَاكَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ... التوبة ١١٧

فهذه الآيات تلهم أن بعض المسلمين كانوا يقفون مواقف التلكؤ فى واجب الطاعة والانقياد ، بل الأمانة للنبى ، وتلهم أن هؤلاء ليسوا من المنافقين ، وإن كانت تلهم أن منهم المنافقين أيضاً . وقد احتوت تنويها بالذين كانوا يطيعون رسول الله وينقادون لأوامره فى ظروف الشدة وغيرها ، وبتعبير آخر ، أن الآيات قد تضمنت صوراً متنوعة لمواقف المسلمين على اختلاف درجات إيمانهم وتفانيهم . ويظهر أن المواقف غير المستحبة كانت أكثر فاقتضت الحكمة تكرار الأوامر فى مختلف المناسبات لتوطيد ذلك الواجب العظيم . وننبه إلى أن جميع الآيات مدنية ؛ فالتعليل الذى ذكرناه من قبل فى صدد وقوع مالا يستحب من حوادث ومواقف من المسلمين تجاه النبي صلى الله عليه وسلم ، يطرد هنا ويبدو مفهوما واضحاً .

— ٨ —

ونريد أن نلفت النظر إلى أمر هام بهذه المناسبة فى صدد الأهداف القرآنية والدعوة النبوية وواجب الطاعة. ومع أن من الطبيعى أن تكون طاعة الرسول واجباً دينيا لا حاجة فيه إلى تعليل وإقناع لأنه يصدر فى تبليغاته عن الله، فإن فى الآيات التى نقلناها وخاصة آيات آل عمران ١٣٢ والنساء ١٣ - ١٤ والأنفال ٢٤ تعليلا لهذه الطاعة، أنها لخير المسلمين وحياتهم ومصلحتهم. وفى آية فى سورة الممتحنة ذكر أنها تطلب منهم الطاعة فى المعروف ولا تطلبها منهم مطلقة كما ترى فيها:

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... ١٢

وفى هذا ما فيه من أسلوب الخطاب الإقناعى والدعوة الحكيمة، وهو الطابع العام لأسلوب الدعوة والخطاب القرآنى، الذى تتفتح له نفوس من شرح الله صدورهم ولم يضلهم هواهم، وتطمئن به قلوبهم. وفيه دليل كذلك على أن حياة النبى صلى الله عليه وسلم وسيرته ورسالته كانت إلى جانب روحانيتها وعلويتها وصلتها بالله، متسقة مع الاعتبارات البشرية الطبيعية التى تكون فيها المصلحة بارزة والإقناع وسيلة رئيسية.

— ٩ —

ومن الجدير بالتنبيه أن الآيات التى احتوت صوراً سلوكية نحو النبى صلى الله عليه وسلم غير مستحبة هى مدنية، وأن الآيات القليلة التى جاءت فى السور المكية متضمنة صوراً سلوكية نحوه لم تحتو إلا ما فيه معنى التفانى فى اتباعه ونصره وتأييده. وكذلك كانت الآيات التى تحث على واجب طاعة النبى صلى الله عليه وسلم والاستماع إليه والاستجابة له بأساليبها المتنوعة والمتكررة، مدنية أيضاً.

وهذا متصل بطبيعة العهدين؛ فالعهد المكى كان عهد قلة وضعف ونضال مع

أغلبية باغية قوية ؛ وهذا يقضى على الأقلية بالتضامن والتفانى ، ثم هو عهد آمن المؤمنون فيه عن رغبة واندفاع وبقطع النظر عن كل اعتبار خاص ، ومع عدم المبالاة بما كان من أذى الأغلبية ومناوأتها وقوتها ، بحيث لم ينتسب فيه تقريبا إلا الأقوياء فى نفوسهم وأخلاقهم والذين رأوا فى الإسلام ملاذاً ونجاة وطمأنينة قلب وضمير، وكشف الله عن بصيرتهم فشاهدوا نور النبوة الوهاج وأعلامها الصادقة فامتلأت بذلك قلوبهم ؛ فلم يكن ثمة مجال لمواقف متنوعة أزاء النبي صلى الله عليه وسلم وخاصة المواقف غير المستحبة ، فى حين اتسعت دائرة الإسلام كثيرا فى العهد المدنى ، وانضم إليها طبقات وفئات متنوعة ومتفاوتة فى أخلاقها وبواعثها وظروفها من حضر وأعراب ، كما كان من الذين انتسبوا إلى الإسلام منافقون وطامعون وانتهازيون ودساسون ودعاة فتنة ، ثم كان عهد طمأنينة واستقرار نوعاً ما ، وعهد تأسيس دولة كان النبي صلى الله عليه وسلم فيها الرئيس والقائد والقاضى والمشرع وقاسم المال الخ فكان المجال ثمة واسعاً لظهور الناس على سجاياهم ، وتفرغهم لأمورهم الخاصة متعة وكسباً ونشاطاً ، وطمعاً ومغامرة الخ ، وطبيعى أن تكون هذه الظروف المتنوعة وهذا التفاوت باعثاً على صور سلوكية غير مستحبة .

ونستدرك أمراً فى صدد صور المسلمين فى العهد المكى ؛ فالذى عنيناه هنا ماله صفة سلوكية نحو النبي صلى الله عليه وسلم فقط ، وإلا ففى السور المكية مايلهم صوراً متنوعة لهم سنعرض لها فيما بعد ؛ وهذا ماجعلنا نورد كلمة « تقريباً » ؛ لأن فى بعض السور المكية آيات تلهم شيئاً من الضعف والتزعزع فى بعض الذين انتسبوا إلى الإسلام فى هذا العهد أيضاً .

المبحث السادس

الوحى وأوليـــاته

متناول هذا المبحث ـ مفهوم الوحى ومداه من القرآن ـ وحى الله للنبي وأنبيائه صلوات الله عليهم وسنن الله فى وحيه ـ تنزيل جبريل القرآن على قلب النبي ـ كنه الوحى سر متصل بسر النبوة وواجب الوجود ـ الوحى منفصل عن النبي وليس نابعاً منه ـ تعليق على خبر رؤية الناس لجبريل حينما يتمثل برجل ـ التقريرات القرآنية الحاسمة فى صدق شعور النبي بصلته بالوحى ـ مؤيدات قرآنية أخرى ـ بعض الأحاديث المروية ـ مداها ودلالتها ـ مدى النهى عن تدوين غير القرآن من النبي ـ الأحاديث القدسية ـ عدم فهم الانسان كنه الوحى والنبوة لا يمنع صدقهما ـ شهادة العيان الحاسمة فى صدق أعلام النبوة والوحى ـ كيفية بدء اتصال الوحى بالنبي ـ وقت بدء الوحى القرآني ـ تحليلات واستدلالات فى صدد أوليات القرآن نزولا ـ أثر اتصال الوحى لأول عهده فى نفس النبي ـ صورة أخرى بمناسبة فترة الوحى وتعليقات فى صددها .

ـ ١ ـ

إن الوحى شأن متصل بشخص النبي صلى الله عليه وسلم فى الدرجة الأولى ، والدعوة إنما كانت بعد اتصاله الأول به ؛ وهذا ما حدا بنا إلى جعل هذا المبحث من مواضيع هذا الفصل .

وسيتناول الكلام فى هذا المبحث خمس نقاط :

(١) مفهوم الوحى ومداه .

(٢) كيفية بدء اتصال الوحى بالنبي صلى الله عليه وسلم .

(٣) وقت بدء نزول القرآن .

(٤) أوليات القرآن نزولا .

(٥) أثر الوحى لأول عهده فى نفس النبي صلى الله عليه وسلم .

- ٢ -

مفهوم الوحى ومداه :

(١) يتلخص ما قاله المفسرون واللغويون فى معنى كلمة « الوحى » أنه القذف فى الروع ، والإلهام ، والإشارة السريعة الخاطفة التى هى أقرب إلى الإسرار منها إلى الإعلان.

(٢) وقد وردت كلمة الوحى ومشتقاتها فى القرآن نحو سبعين مرة ، منها ما لا يتصل بمعناه وصدوره عن الله ومنها ما يتصل .

ومن النوع الأول ماجاء بمعنى الإشارة كما ترى فى الآية التالية :

« فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ... مريم ١١

وبمعنى الوسوسة والتآمر الخفى كما ترى فيما يلى :

١ — « وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ...

الانعام ١٢١

٢ — وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ... الأنعام ١١٢

أما النوع الثانى فنه ماجاء بمعنى الإلهام الغريزى كما ترى فيما يلى :

« وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ... النحل ٦٨

وبمعنى الإلهام لغير الأنبياء والملائكة ، والقذف بالروع كما ترى فيما يلى :

١ — وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ... القصص ٧

٢ — وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ...

المائدة ١١١

وواضح أن هذا وذاك ليس مما يدخل فى مدى وحى الله لأنبيائه ، أما مايتصل بذلك فمنه ماجاء مطلقاً لا يفهم منه كنه ولا كيفية كما هو فى الآيات التالية :

١ — إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ... النساء ١٦٣

٢ — وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ الأنعام ١٩

٣ — إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ... يونس ١٥

ومنه ماجاء فيه بعض الدلالات التى يمكن استلهامها شيئاً عن مفهوم الوحى النازل على الأنبياء والنبي محمد صلى الله عليه وسلم ومداه كما فى الآيات التالية :

١ — فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ . وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ . وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ . وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ . وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَـٰنٍ رَجِيمٍ . فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ . إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَـٰلَمِينَ . لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ . وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَـٰلَمِينَ ... التكوير [١] ١٥-٢٩

٢ — وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ . وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ . ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ . وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ . فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ . مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ . أَفَتُمَـٰرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ... النجم [٢] ١ - ١٢

---

(١) الخنس : جمع خنساء وهى النجوم التى تأتى ثم تكر راجعة . الكنس : جمع كنساء وهي المحجوبة . الرسول فى الآيات يعنى الملك .

(٢) ذو مرة : ذو قوة . والراجح أن الأوصاف هي أوصاف الملك ، وأن كلمة عبده تعنى النبي .

٣ - وما كانَ لِبَشَرٍ أنْ يُكلِّمَهُ اللهُ إلَّا وَحْيًا أوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَايَشَاءُ إنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ . وَكَذَلِكَ أوْحَيْنَا إلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أمْرِنَا مَاكُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَٰبُ ولا الإيمَٰنُ ولَٰكِنْ جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وإنَّكَ لَتَهْدِي إلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ...

الشورى ٥١ - ٥٢

وهناك آيات عظيمة الدلالة فى صدد الوحى وتنزله بالقرآن على قلب النبى صلى الله عليه وسلم لم يرد فيها لفظ الوحى ، وهى هذه :

١ - قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ...

البقرة ٩٧

٢ - قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءامَنُوا ...

النحل ١٠٢

٣ - نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ...

الشعراء ١٩٣ - ١٩٤

وقد ورد فى سورة النحل آية فيها صراحة بأن الله ينزل الملائكة على من يشاء من عباده (أى أنبيائه) ولم يرد فيها لفظ الوحى أيضاً وهى هذه :

« يُنَزِّلُ الْمَلَٰئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أنْ أنذِرُوا أنَّهُ لاإلَٰهَ إلَّا أنَا فَاتَّقُونِ ...

٢

وقريب من هذه آية فاطر التالية :

« الْحَمْدُ لِلهِ فَاطِرِ السَّمَٰوَٰتِ والأرْضِ جَاعِلِ الْمَلَٰئِكَةِ رُسُلًا أولِي أجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وثُلَٰثَ ورُبَٰعَ ...

١

فجميع هذه الآيات تدل على أن الله سنَّ فى الاتصال بمن يختارهم من البشر لرسالته

وخطابه أولا ، وعلى شيء من كيفية اتصال وحى الله بهم وبالنبي محمد صلى الله عليه وسلم ثانياً ، وهذه السنن هى :

١ - إنزال الملائكة بأمره ووحيه .

٢ - اتخاذ الملائكة رسلا بينه وبين الناس .

٣ - قذف الله فى روع من يريد أن يكلم من البشر .

٤ - إسماع الله من يريد من البشر كلاما دون واسطة ودون رؤية .

٥ - إن روح القدس والروح الأمين الذى هو جبريل هو الذى كان ينزل القرآن على قلب النبي صلى الله عليه وسلم .

والسنة الثالثة مستلهمة من آيات الشورى التى احتوت بيان ثلاث طرق وهى : الوحى ، والكلام من وراء حجاب ، والكلام بواسطة رسول ؛ فذكر الوحى مع ذكر الرسول الذى هو الملك يسوغ تفسير الوحى بمعنى القذف فى الروع . والسنة الرابعة كذلك مستلهمة من هذه الآيات . أما تفسير جبريل بالروح القدس والروح الأمين فإنه مستلهم من تشارك تعبير « التنزيل على القلب » فى آيات البقرة والنحل والشعراء مع ذكر جبريل بصراحة فى آية البقرة ، وهذا مجمع عليه تقريباً عند المفسرين .

- ٣ -

وليس فى القرآن شيء يمكن أن يفيد بصراحة ماهية الملائكة وكنههم أو يفيد أن غير من اختصه الله يمكن أن يراهم ، أو يفهم كيفية إدراك النبي صلى الله عليه وسلم نزول جبريل على قلبه أو كيفية رؤيته إياه بالأفق أو قريبا منه قاب قوسين أو أدنى ، وسماعه صوته ، أو كيفية إدراك النبي وحى الله حينما يكون بطريق الإلهام والقذف التى هى إحدى الطرق التى ذكرتها آيات الشورى .

فهذه الأمور مما كانت وظلت فى حقيقة كنهها سرا على غير النبي صلى الله عليه وسلم لأنها متصلة بسر النبوة المتصل بسر الوجود وواجب الوجود ؛ وهى من المسائل الإيمانية التى يجب على المسلم الإيمان بها لأنها وردت نصا فى القرآن . وفى الأحاديث والروايات الكثيرة أن جبريل كان ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم ويكلمه ويلقى إليه بل يتحدثان معا والنبي جالس بين الناس فلا يرى أحد شيئا أو يسمع صوتا ، ويبقى الأمر بين النبي وجبريل صلى الله عليهم وسلم حادثا روحيا لا يدرك كنهه أحد .

ونقبه إلى أن النصوص القرآنية صريحة الدلالة على أن الوحى الربانى الذى كان يتصل بالنبي كان شيئا طارئا عليه وليس كما يقول بعض الباحثين أنه نابع من ذاته وباطنه ، لأن شخصية الملك جبريل - مهما تكن غير مدركة الكنه - هي شخصية غير شخصية النبي صلى الله عليه وسلم كما هو واضح .

ولقد ورد فى بعض الأحاديث أن جبريل كان يأتى إلى النبى على صورة دحية الكلبي فيراه غير النبى صلى الله عليه وسلم ، أو يأتى إلى مجلس النبى على صورة رجل يسأله عن بعض الأمور الإسلامية فيراه الناس أيضا ؛ وإزاء سكوت النبى عن هذا من جهة ، والأحاديث الكثيرة التى ذكرت أن وحى الله كان ينزل على النبى وهو بين الناس دون أن يراه أو يحس به أحد غيره من جهة ثانية ، ثم إزاء سكوت القرآن صراحة وقرينة عن إمكان رؤية غير الذين اختصهم الله للملائكة من جهة ثالثة - لا نمنع أنفسنا من التوقف عن قبول تلك الأحاديث ؛ وننبه إلى أن توقفنا ليس فى خبر تمثل الملك للنبي رجلا ، وإنما فى خبر رؤية الناس للملك الذى تمثل رجلا ؛ والحالة الأولى تدخل فى الكنه والسر .

- ٤ -

وفى القرآن آيات فيها ردود على الكفار والمهارين فى صلة وحى الله بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وهى ردود قوية حاسمة الدلالة على صدق شعور النبى بصلته به ؛ منها آيات التكوير والنجم التى نقلناها ؛ وآيات التكوير تلهم أن الكفار قالوا حينما أخبر النبي بأنه رأى ملك الله : إن ماراه شيطان ؛ وفقاً لعقائدهم كما فصلناه فى كتابنا عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته قبل البعثة ؛ كما قالوا إنه مجنون ، أى مخالط فى عقله ، فاحتوت الآيات التوكيد القوى النافذ ؛ وشبيه بهذا ما جاء فى سورة الشعراء ردا على زعمهم أن الذى يتصل بالنبى شيطان ، كما ترى فيما يلى :

« وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَـٰطِينُ . وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ...

٢١٠ - ٢١١

وتتبع الآيات بعد قليل آيات تزيد الرد قوة وإلحاما كما ترى فيما يلى :

« هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَـٰطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ... ٢٢١ - ٢٢٣

وآيات النجم احتوت - فوق توكيد رؤية النبي صلى الله عليه وسلم للملك ووصف ذلك وصفا تتجلى فيه المشاهدة الواقعية التي لا تتحمل مكابرة - ردا مفحما آخر؛ فرؤية النبي صلى الله عليه وسلم للملك هي شخصية خاصة به لا يمكن أن يكون للمماراة محل فيها، لأن المماراة إنما تصح في مشاهد مشتركة بين الناس.

وفي القرآن تنديد شديد بمن يقول إنه يوحى إليه ولم يوح إليه كما ترى.

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ... الأنعام ٩٣

وهي قوية الدلالة من ناحية ما على صدق شعور النبي صلى الله عليه وسلم وما يستشعره من رهبة إزاء إخباره بصلته بوحي الله، ومثل هذا في القوة والنفوذ إلى الأعماق الآيات التالية:

١ - قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ... الأنعام ٥٠

٢ - وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَـٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ... الأعراف ٢٠٣

٣ - قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِ ... الأنعام ١٩

٤ - وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ

إلا ما يُوحَىٰ إلَيَّ إنِّيٓ أخافُ إنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ...

يونس ١٥

٥ – أمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا فَإنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ البَٰطِلَ وَيُحِقُّ الحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِ إنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ ...

الشورى ٢٤

٦ – أمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئًا هُوَ أعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ...

الأحقاف ٨

وفي سورتي طه والقيامة ، تأييدات لما نحن في صدد تقريره .

ففي السورة الأولى هذه الآية :

« فَتَعَٰلَى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ ولا تَعْجَلْ بِالقُرْءانِ مِنْ قَبْلِ أنْ يُقْضَىٰ إلَيْكَ وَحْيُهُ ...

١١٤

وفي الثانية هذه الآيات :

« لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وقُرْءانَهُ . فَإذا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءانَهُ . ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ...

١٦ - ١٩

فهذه الآيات احتوت تنبيها للنبي في صورة النهي عن الاستعجال في تلاوة ما يوحى إليه به أو تحريك لسانه به قبل أن يتم الوحي إلقاء ما يوحى به إليه ، وفيها صورة قوية الدلالة لشعوره بالوحي الطارئ عليه الملقي إليه بالقرآن ، إذ كان يردد ما يلقى عليه حال إلقائه وقبل انتهائه خشية أن يفلت منه شيء أو ينساه .

وفي سورة مريم هذه الآية :

« وَمَا نَتَنَزَّلُ إلَّا بِأمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ...

٦٤

وقد ذكر المفسرون ورواة التنزيل أن الآية جواب ملك الله للنبي على سؤاله إياه أن يكثر من زيارته ؛ فإذا صحت الرواية ففيها تأييد من ناحية ما لما نقرره أيضا .

- ٥ -

هذا ؛ ومن قبيل الاستئناس نورد فيما يلي بعض الأحاديث الواردة في صلة النبي صلى الله عليه وسلم بالوحي ومظاهرها وكيفياتها :

١ - حديث بخاري عن عائشة رضى الله عنها :

« أول ما بدأ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم : فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب إليه الخلاء . وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود إلى ذلك . ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء . فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارئ . قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارئ . فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ فقلت ما أنا بقارئ . فأخذني فغطني الثالثة ثم قال : اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي . فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الأنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيراً قد عمي . فقالت له خديجة : يا ابن عم ، اسمع ابن أخيك . فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله خبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى . ياليتني فيها جذع ! ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو مخرجي هم ؟ قال نعم ؛ لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي . وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا . . . »

٢ - حديث رواه الطبري عن عبد الله بن الزبير :

« قال رسول الله فجاءنى وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: اقرأ. فقلت: ما أقرأ؟ فغتنى حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلنى فقال اقرأ. فقلت ماذا اقرأ؟ وما أقول ذلك إلا افتداء من أن يعود إلىّ بمثل ماصنع بى. قال اقرأ باسم ربك الذى خلق ... إلى قوله علم الإنسان مالم يعلم. قال فقرأته ثم انتهى ثم انصرف عنى. وهببت من نومى وكأنما كتب فى قلبى كتابا. قال ولم يكن من خلق الله أبغض على من شاعر أو مجنون كنت لا أطيق أن أنظر إليهما. قال قلت إن الأبعد يعنى نفسه لشاعر أو مجنون. لاتحدث بها عنى قريش أبدا. لأعمدنّ إلى حالق من الجبل فلأطرحنّ نفسى منه فلأقتلنها فلأستريحن. قال فخرجت أريد ذلك، حتى إذا كنت فى وسط الجبل سمعت صوتا من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل. قال فرفعت رأسى إلى السماء فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول: يامحمد أنت رسول الله وأنا جبريل. قال فوقفت أنظر إليه وشغلنى ذلك عما أردت فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفا ما أتقدم أمامى ولا أرجع ورائى حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى حتى بلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى؛ ثم انصرف عنى وانصرفت راجعا إلى أهلى ... »

٣ — حديث بخارى عن عائشة رضى الله عنها :

« إن الحرث بن هشام سأل النبى صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىّ فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول. قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا ... »

٤ — حديث بخارى عن عائشة رضى الله عنها.

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ياعائشة هذا جبريل يقرئك السلام. قالت وعليه السلام ورحمة الله. قالت: وهو يرى مالا نرى ».

---

(٥) حديث فى مسند أحمد عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه: وحديث بخارى عن صفوان بن يعلى رضى الله عنه، وقد نقلناهما فى مبحث أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم

وواضح أن هذه الأحاديث متسقة إجمالا مع ما استلهمناه من الآيات من حيث رؤية النبي صلى الله عليه وسلم للملك ونزول الوحي عليه بين الناس دون أن يراه أو يحس به أحد . وفيها شيء غير وارد في القرآن في صدد وحي الله للنبي، وهو تمثل الملك للنبي رجلا دون أن يراه أحد (١) ، ثم وصف الجهد الذي كان يثقل على النبي ويكاد يقبض نفسه، ومجيء الوحي أحيانا مثل صلصلة الجرس ، وهذا المشهد الأخير قد جاء مجرداً عن ذكر مرافقة الملك .

- ٦ -

ولقد أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن تدوين شيء غير القرآن عنه ، كما تواترت الأخبار بأنه كان يأمر أحد كتابه بتدوين ما كان ينزل عليه من الوحي فوراً ؛ فهذا وذاك متصلان بشعوره الخاص بالفرق بين ما كان ينزل على قلبه من وحي القرآن وبين كلامه العادي ، وبحرصه على عدم الخلط بين كلامه العادي وبين ما ينزل عليه وحياً قرآنياً ؛ ولعل مما يتصل بهذا ويزيده وضوحاً ما يروى من الأحاديث القدسية المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم عن الله ، فليس يمكن أحداً أن يفهم منطقيا الفرق بينهما إذا صحت - وبين ما يوحى قرآناً ، ومحتوياتها مما يتصل بمحتويات القرآن وعظاً وإنذاراً وتبشيراً أو أخباراً أو قصة الخ ومع ذلك فقد فرق بينهما فلم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم بتدوينها . ومما لاريب فيه أن هذا التفريق يتصل بالصفة القرآنية التي كان يدركها النبي صلى الله عليه وسلم فيما يوحى إليه قرآناً .

ومهما يكن من أمر فإننا من الذين يرون أن عقل الإنسان الذي يقف مشدوها ذاهلا أمام ما في نفسه من قوى واستعداد وأمام ما في الكون من عظمة ونظام وقوى وسعة وعوالم ودقائق يعجز عن إدراكها والإحاطة بها، حقيق بأن يكون أشد عجزاً عن إدراك ما وراء ذلك والإحاطة به ؛ ولسنا من الذين يرون ضرورة للمحاولة أو بالأحرى للتمحل في التوفيق بين المسائل الإيمانية والنواميس الكونية ، أو لزوما

(١) نقول هذا بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم مع التنبيه إلى أنه ورد في سورة مريم ما يفيد أن روح الله تمثل لمريم رجلا وأنها رأته ؛ ومع ذلك أصح أن يقال إن مريم تدخل في عداد من اختصهم الله بالرؤية.

لتأويل ما ورد فى القرآن حتى لا يكون متعارضا مع هذه النواميس . فالمؤمن بعد أن يؤمن بإله أزلىّ أبدىّ شامل القدرة وخالق للأكوان وموجد لها من العدم، يدبرها ويسيرها على حسب مااقتضت حكمته - وأمره بين الكاف والنون - لا يرى ولا ينبغى له أن يرى فى الإيمان بالمسائل الإيمانية كالنبوة وصلة الأنبياء بالله صعوبة أو حاجة إلى تأويل وتوفيق إذا اقترنت بالنصوص القرآنية القطعية أو الأحاديث النبوية الصحيحة .

وإذا كان المسلم لايصح إسلامه إلا بالإيمان بهذه الصلة على المدى الذى تساعد على بيانه وشموله النصوص ، فإن أى شخص متصف بحسن النية مهما كانت نحلته إذا أنعم النظر فى الآيات لايسعه إلا التصديق بصدق الشعور النبوىّ بها ، وكون النبى صلى الله عليه وسلم إنما كان يصدر عن أمر راهن طارئ عليه وإن ظل سرا ربانيا لا يمكن المماراة فيه .

على أن فى شهود النبى صلى الله عليه وسلم عيانا حقيقة حاسمة فيما نعتقد أيضا ، وتزداد هذه الحقيقة قوة أنها مما سجله القرآن بصراحة وقطعية فى آياته المكية والمدنية على السواء ، وهو الوثيقة المدونة الصادقة التى وصلت إلينا سليمة كل السلامة من العهد النبوى مروية عن لسان النبى صلى الله عليه وسلم وتبليغه مباشرة ، ولا مثيل له فى المدوّنات الكتابية المقدسة السابقة . فقد شهد حادث النبى آلاف من الناس منهم العرب ومنهم غير العرب ومنهم المشركون ومنهم الكتابيون ومنهم المستقرون فى مكة والمدينة ومنهم الوافدون خصيصا للاستعلام والاطلاع على النبأ العظيم الذى بلغهم وسمعوا توكيدات النبى بلسان القرآن بنزول ملك الله عليه بالوحى وشعوره به منفصلا عن ذاتيته ، ولقد آمن بنبوة النبى صلى الله عليه وسلم فى بدء الأمر مئات منهم فى مكة ممن طابت نفوسهم وحسنت نياتهم وأنار الحق قلوبهم ، بين المعارضة الشديدة التى تولى كبرها زعماء أقوياء أعداء لأسباب عدة ذكرها القرآن ، وستكون من مواضع الفصل التالى .

وكان بين المؤمنين تلك الطبقة النيرة القوية فى عقولها وشخصياتها وأروماتها ، والتى لمع أفرادها لمعانا باهرا فيه الدلالة على ذلك ، أمثال أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وسعد وسعيد وطلحة والزبير وخالد وعمرو وأبى عبيدة وعبدالرحمن وغيرهم وغيرهم

رضوان الله عليهم ، ثم كان بينهم كثير من أهل الكتاب المستقرين والوافدين ممن حسنت نياتهم وطابت طوياتهم ، وتجردوا من الهوى والغرض ، وأنفوا من المكابرة والعناد على ماوصفت مشاهد آيات الأسراء ١٠٧ - ١٠٩ والقصص ٥٢ - ٥٣ والرعد ٣٦ ، ٤٣ والأحقاف ١٠ التى نقلناها سابقا ، ثم آمن بالنبوّة الرعيل الأول من أهل المدينة وكان من شأنهم ما كان من نصر وتفان فى تأييد دين الله ونبيه ، وآمن فريق من علماء اليهود بين معارضة شديدة قادها بعض زعماء العرب وزعماء اليهود لأسباب عدة ذكرها القرآن - وسوف تكون موضوع فصول من هذا الكتاب - وآمن عديد من علماء النصارى وقسيسيهم ورهبانهم ، وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم فى المدينة مستطلعين مستعلمين أيضا على ماوصفت مشاهده وأخباره آيات النساء ١٦٢ وآل عمران ١٩٩ والمائدة ٨٢ - ٨٤ التى نقلناها سابقا أيضا .

فالرعيل الأول من المؤمنين العرب فى مكة والمدينة الذين آمنوا رغبة وطوعا وفى ظروف ضعف النبي المادى الشديد ، واستهانوا بكل شيء فى سبيل إيمانهم ، والكتابيون فى مكة الذين آمنوا رغبة وطوعا مع أنهم أكثر تعرضا للأذى ، والكتابيون الوافدون الغرباء الذين فعلوا مثل ذلك وهم فى مثل تلك الحال ، وعلماء اليهود فى المدينة الذين آمنوا رغبة وطوعا ، واستهانوا بكل شيء من قومهم ، وعلماء النصارى وقسيسوهم ورهبانهم الذين جاءوا مستطلعين فآمنوا كذلك - ما كانوا ليؤمنوا لو لم يشهدوا من أعلام النبوة وصدق الدعوة النبوية واللهجة النبوية ، وصحة دلائل وأمارات صلة النبي بالله ووحيه مالا يسع أحداً طيب النفس واسع الأفق متجردا عن الغرض والهوى أن يمارى فيه . ولعل آية سورة الشورى هذه :

« وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِى اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ... ١٦

قد عنت فيما عنته وهى تندد بالمكابرين فى الله ورسالة نبيه هذه الحقيقة الحاسمة والحجة الدامغة .

- ٧ -

كيفية بدء اتصال الوحى بالنبي صلى الله عليه وسلم

ليس فى القرآن إشارة إلى كيفية بدء اتصال الوحى بالنبى . غير أن آيات التكوير ١٥ - ٢٦ وآيات النجم ١ - ١٢ التى نقلناها سابقا احتوت توكيداً بأن النبى قد رأى الملك ذا القوة فى الأفق . والحديث الذى نقلناه عن الطبرى والمروى عن عبدالله بن الزبير قد احتوى وصف رؤية النبى صلى الله عليه وسلم للملك فى السماء، أى فى الأفق، وعلى صورة أذهلت النبى عن كل شىء . والذى نرجحه أن آيات السورتين المذكورة هى بسبيل وصف أولية بدء اتصال الوحى بالنبى وأولية رؤية النبى لملك الله ؛ يلهم هذا صيغة الآيات والتوكيد القوى الذى احتوته والذى يدل على أنه بسبيل الرد على من كابر وكذب أو شك وارتاب فيما أخبر به النبى ووصفه من اتصال وحى الله به ورؤيته لملك الله ؛ كما يلهم أن السورتين مبكرتان فى النزول، لاسيما سورة التكوير التى تأتى سادسة فى أربع روايات مأثورة لترتيب النزول، وسابعة فى ثلاث[1] وأسلوبها ومضامينها مما يؤكد تبكيرها فى النزول أيضا .

وهذا الاتساق الإجمالى بين وصف الآيات ووصف الحديث يجعلنا نرى فى الحديث وصفا صادقا لكيفية بدء الاتصال، وقد احتوى وصفا وافيا لذلك كما يظهر من نصه السابق، وفى الحديث البخارى الأول عن عائشة رضى الله عنها مايتمم هذا الوصف من حيث ظروف الحادث، ومحله الأول، وماسبقه من اعتكافات ورياضات روحية وتعبدية ؛ وليس فيه مايتناقض مع الآيات أو حديث ابن الزبير .

— ٨ —

وقت بدء الوحى

فى القرآن بضع آيات يمكن أن تساعد على تعيين وقت نزول أول وحى بالقرآن وهى :

١ — شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِنَ

---

(١) هذه التراتيب هى ترتيب المصحف المعروف بمصحف الملك فؤاد، والمأخوذ عن المصادر المعتبرة القديمة بواسطة لجنة علماء خاصة، وترتيب رواه الخازن، وترتيب مروى فى تفسير مجمع البيان، وتراتيب واردة فى الاتقان للسيوطى واحد منها منسوب للحسين وعكرمة وثان لجابر بن زيد وثالث لابن عباس ورابع منفل النسبة وقد وضعنا ثبتا للسور المكية فى مطلع قسم السيرة النبوية فى العهد المكى وللسور المدنية فى مطلع قسم السيرة فى العهد المدنى .

الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ... البقرة ١٨٥

٢ ـــ حم . وَالْكِتَٰبِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ . فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ . أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ... الدخان ١ - ٦

٣ ـــ إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ . لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ . سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ... القدر

وآية البقرة صريحة بأن القرآن قد أنزل فى شهر رمضان . ولما كان إنزاله لم ينحصر فى هذا الشهر ، فالتعبير ينصرف على ماهو المتبادر إلى أولية نزوله . وقد قال هذا كثير من العلماء والمفسرين كما أنه مؤيد ببعض الروايات الموثوق بها . ولقد قيل فى صدد الآية إن القرآن إنما نزل جملة واحدة إلى سماء الدنيا فى شهر رمضان ثم أخذ جبريل ينزل به منجما على النبى صلى الله عليه وسلم . وهذا القول لايبعث الطمأنينة إلى النفس وغير مؤيد بمأثور وثيق ، ولا تفهم له حكمة ، وغير متسق مع طبائع الأشياء ؛ ويتبادر لنا أنه متصل بما كان من جدل حول خلق القرآن وأزليته .

وفى آيات الدخان والقدر صراحة على أن الله قد أنزل القرآن فى ليلة القدر وفى ليلة مباركة . وفى سورة القدر لم يذكر القرآن صراحة ولكن المفسرين والرواة مجمعون على أن الضمير عائد إليه ، وأما آيات سورة الدخان فالآية الثانية ذكرت « الكتاب المبين » والضمير فى « أنزلناه » يعود إليه . وطبيعى أن القرآن كان ينزل فى وقت بعد وقت ، فالتنوية ينصرف على ما هو المتبادر إلى أولية النزول أيضا . ولقد قيل فى صدد هذه الآيات ماقيل فى صدد آية البقرة من أن المقصود جميع القرآن وأن الإنزال هو الإنزال إلى سماء الدنيا مما علقنا عليه آنفاً . كذلك قيل فى صدد الليلة المباركة فى آيات الدخان إنها ليلة النصف من شعبان وإنها ليلة تقدير الأعمار والأرزاق السنوية . وهذا القول غير موثق بمأثور صحيح وغير مفهوم الحكمة

ولا متسق مع طبائع الأمور. وسبق ورود لفظ «الكتاب» قرينة حاسمة على أن المقصود هو نزول القرآن كما أن روح الآيات جملة تلهم ذلك. ومن العجيب أن يقول قائلون ذلك القول إزاء هذه القرينة الحاسمة.

أما ليلة القدر فهناك أحاديث مروية بشأنها ورد فى بعضها أنها فى العشر الأخير من رمضان، وفى بعضها أنها ليلة السابع والعشرين منه. والمتعارف المتواتر هو أنها ليلة السابع والعشرين.

وهكذا يصح أن يقال استلهاماً من القرآن إن وقت بدء نزول الوحى بالقرآن هو إحدى ليالى شهر رمضان، واستئناساً بالأحاديث إن هذه الليلة هى ليلة السابع والعشرين منه. أما السنة فليس هناك ما يمكن الاستدلال عليها من القرآن. غير أن المروى المتواتر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان فى سن الأربعين من عمره؛ ويوافق هذا سنة ٥٧٠ بعد الميلاد المسيحى، والسنة الثالثة عشرة قبل الهجرة النبوية على ماحسبه الحاسبون.

على أن فى سورة الأحقاف آية يمكن أن يستأنس بها إلى حدّ ما على أن سن النبي صلى الله عليه وسلم عند نزول الوحى عليه كانت أربعين وإن لم يكن ذلك حاسماً وهى:

«وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَٰلُهُ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ...

١٥

إذ جعلت هذه السن حدا لبلوغ الرجل أشده ونضج عقله وكمال إدراكه.

— ٩ —

· أوليات القرآن نزولا:

ليس فى القرآن ما يمكن الاستدلال به على أوليات القرآن نزولا؛ وكل ما هناك

روايات لأسباب وظروف نزول آيات قرآنية تعد فى تاريخ القرآن من الأوليات.

ومع أن أوثق الروايات وأكثرها اعتباراً وأخذاً تذكر أن أول ما نزل من القرآن هو الآيات الخمس الأولى من سورة العلق، فإن هناك روايات يذكر بعضها أن هذا الأول هو « الفاتحة » وبعضها يذكر أنه « الضحى » وبعضها يذكر أنه الآيات الأولى من سورة المدثر، وبعضها يذكر أنه الآيات الأولى من سورة المزمل.

ولعل من مرجحات أولية آيات العلق فوق وثاقة واعتبار رواياتها، أنها لاتحتوى أمراً بدعوة، وأنها من قبيل الإعداد للنبى صلى الله عليه وسلم وتنبيهه وتلقينه.

وتراتيب السور القرآنية المأثورة جميعها تضع سورة العلق أول السور دون أى شذوذ فيما اطلعنا عليه؛ وهذا بسبب أولية آياتها الخمس الأولى على الأرجح؛ لأن مضمون الآيات التالية يدل على أنها تأخرت عنها وقتاً ما، إذ احتوت صورة لموقف أحد الطغاة من النبى صلى الله عليه وسلم، ولا يعقل هذا إلا بعد أن تلقى النبى الأمر بالدعوة وسار فى تنفيذ الأمر شوطاً ما.

— ١٠ —

وتراتيب النزول تضع سورة القلم ثانية السور والمزمل ثالثتها والمدثر رابعتها بدون خلاف؛ ثم يبدأ الخلاف، فهناك ترتيب يجعل الفاتحة خامسة، وترتيب آخر يجعل الخامسة هى المسد؛ وهناك ما يضع التكوير سادسة على حين يضعها ترتيب آخر سابعة..

وفى اعتقادنا أن الترتيب المأثور للقلم لا يصح إلا إذا روعيت آياتها الأربع الأولى فقط، وهى هذه:

« نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ. مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ. وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ. وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ... »

إذ كانت الآيات التالية لها قد نزلت متأخرة مثل بقية آيات سورة العلق؛ لأن فيها حكاية موقف صد وتكذيب، وحملة شديدة على بعض الزعماء، ونهياً للنبى عن مطاوعتهم ومداهنتهم؛ وهذا لابد أن يكون بعد أن سار النبى صلى الله عليه وسلم بالدعوة شوطاً ما أيضاً؛ كما أن فيها هذه الآية: « إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير

الأولين - ١٥ ، إذ تدل على أنه قد نزل جملة ما من القرآن ، كان النبي يتلوها على الناس حتى قال المكذبون هذا القول .

وإذا صح نزول الآيات الأربع من سورة القلم لحدتها كان مايهدف إليه بث الطمأنينة فى نفس النبي ونفى الخاطر الذى خطر لباله من مسه بالجنون على ما ذكره حديث الطبرى ، وثناء على أخلاقه العظيمة بسبيل ذلك . وليس على هذا التوجيه مأخذ إلا من حيث أن نظم آيات السورة متسق آخذ بعضه برقاب بعض ، إذ تبدأ الآية الخامسة بفاء تلهم أنها تعقيب على ما سبق ؛ وأن نفى الجنون عن النبى كان رداً على مانسبه إليه الذين عنتهم الآيات :

« فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ . بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ... ٥ - ٧

ومثل هذا لا يرد على آيات العلق الأولى وما بعدها على مايظهر حين إنعام النظر فيها ، على أنه ليس ثمة مايمنع مع ذلك أن تكون الآيات التالية للآيات الأربع الأولى من سورة القلم قد نزلت متأخرة عنها وجاء أسلوب نظمها متسقاً معها .

— ١١ —

والآيات التالية للآيات التسع الأولى من سورة المزمل تحتوى هى أيضا تثبيتا للنبى أمام تكذيب المكذبين وأنذاراً لهم ؛ وهذا لابد أن يكون بعد أن سار النبى شوطا ما فى الدعوة ، ويحمل على القول بأن الآيات التسع الاولى قد نزلت لحدتها وأن مابعدها نزل متأخراً عنها أيضا . غير أن هناك مأخذين على احتمال كون الآيات التسع الأولى هى ثالثة مجموعة قرآنية ؛ الأول مضمونها ؛ وهو :

« يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ . قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا . إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا . إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا . إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا . وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا . رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ

إلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا ... »

ففى الآيات أمر للنبى بترتيل القرآن . ولا ندرى كيف يكون هذا ولم يكن قد نزل من القرآن إلا خمس آيات من سورة العلق وأربع من سورة القلم إن صحت الروايات ! ولقد يرد بأن الأمر بالنسبة للمستقبل ، وأن فى الآية الخامسة قرينة على ذلك ؛ ومهما يكن من أمر فإن الآيات فى ذاتها لا تحتوى أمرا بالدعوة وإنما تحتوى إعدادا للنبى وبثا للطمأنينة فى نفسه ، وتنبيها على ما فى العبادة الليلية من فوائد روحية عظيمة تصفى نفسه وتقويها على حمل المهمة العظمى التى ستلقى إليه ؛ وقد احتوى مطلعها خطابا محببا حكى أسبابه حديث البخارى حيث ذكر أن النبى لما عاد من حراء إلى بيته يرجف قلبه قال لأهله : زملونى زملونى ؛ وهذا كله يمكن أن يكون جوابا على المأخذ الأول ، ويجعل فى رواية نزول الآيات لحدتها وكونها من الأوليات الأولى وجاهة ما ، أما المأخذ الثانى فهو اتساق نظم الآيات التسع وما يليها اتساقا قويا ، والفاء التى تبدأ بها الآية العاشرة ، على أنه يصح أن يقال هنا ما قلناه فى آية سورة القلم أيضا .

- ١٢ -

والآيات التالية للآيات السبع الأولى فى سورة المدثر هى كذلك مثل الآيات التالية فى السور الثلاث السابقة تحتوى حملة على زعم جاحد ، ووصفاً لموقف له من القرآن إذ قال : « إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر ٢٤ - ٢٥ » وهو قول لا يمكن أن يكون إلا بعد نزول طائفة من القرآن وقطع النبى شوطاً ما فى الدعوة ؛ وعلى هذا فترتيبها إنما يصح إذا فرض أن الآيات الأولى منها قد نزلت لحدتها أيضا وهى هذه :

« يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ . وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ . وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ... ١ - ٧

وليس ما يمنع هذا الفرض ، بل إن صحته لأقوى من صحة فرض ذلك فى سورتى القلم والمزمل بسبب فرق النظم بين هذه الآيات وما بعدها كما هو شأن آيات العلق

الأولى وما بعدها ؛ ولعل مما يحمل على ترجيح صحة أولية هذه الآيات أنها احتوت فوق مطلعها التحبي الذى يبث الطمأنينة فى نفس النبي صلى الله عليه وسلم، أمراً بالنشاط إلى إنذار الناس ودعوتهم إلى الله. وإذا صح نزول الآيات الأولى للسور الثلاث السابقه - العلق والقلم والمزمل - لحدتها، يكون الاتساق قد تم؛ إذ احتوت مطالع السور تثبيتا وتطمينا وتنبيها وإعدادا حتى إذا ما سكن روع النبي صلى الله عليه وسلم وهدأ اضطرابه من حادث الوحي الأول ورؤية ملك الله، نزل عليه مطلع السورة الرابعة - المدثر - بالقيام بالدعوة والإنذار؛ وقد احتوى المطلع فوق هذا - على ما يتبادر لنا - خطة للنبي فى سيره فى الدعوة ؛ فالله أكبر من كل شيء فعليه أن يذكر ذلك بقلبه ولسانه، والصبر والثبات ومكارم الأخلاق كافلة للنجاح فى المهمة العظمى التى ندب لها، فعليه أن يصبر على ما حمله ربه من واجب ، وعليه أن يهتم للطهارة والنظافة وأن يهجر فاحش القول والمواقف وأن يكون متواضعا غير منان.

— ١٣ —

وقد اختلفت الروايات فى الخامسة من السور بين الفاتحة والمسد؛ كما قلنا، والذى نرجحه أنها الفاتحة لأن المسد احتوت حملة على موقف أبى لهب وامرأته ، ولا بد أن يكون هذا بعد شوط ما من الدعوة، فى حين أن الفاتحة احتوت تمجيداً لله وطلب هدايته وتعليما بأن تكون العبادة له وحده؛ وبالتالى أسساً من أسس الدعوة العامة؛ ولعل من الأدلة على أوليتها بل من دلائل سبقها فى الأولية لغيرها أنها صارت مفتتح كل صلاة، وكل ركعة من كل صلاة بالسنة النبوية اليقينية، وأنها سميت أم الكتاب وفاتحة الكتاب.

وإننا لنرجح إن لم نقل نجزم أن الفاتحة وسوراً مماثلة لها احتوت شرح مبادئ الدعوة إنذاراً وتبشيراً وخلت من العنف ومن الإشارات إلى مواقف لجاج الكفار وجحودهم وتكذيبهم ومن الحملة عليهم مثل سور الأعلى والشمس والليل والعصر والإخلاص والعاديات والتين والتكاثر والقارعة الخ الخ هى التى نزلت قبل المسد وقبل التكوير التى ذكرت التراتيب أنها السادسة أو السابعة والتى احتوت هى أيضاً مشهداً حجاجيا، وقبل الآيات التالية لمطالع السور الأربع الأولى - العلق والقلم والمزمل والمدثر - إذا صح القول بأن هذه المطالع نزلت منفصلة ومبكرة عن بواقيها، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أخذ يدعو الناس وينذرهم ويبشرهم ويخبرهم بأخبار

وحى الله ويتلو عليهم الآيات القرآنية الموحاة إليه، قوبل بالصد والتكذيب والشك والارتياب والاستنكار والتهجم والتجهم من الزعماء فأخذت آيات السور الأربع الأولى التالية لمطالعها، وسور المسد والتكوير والهمزة وغيرها تتابع فى النزول تحتوى الردود والتنديد والحملات القاصمة وتحتوى التوكيد والتثبت والمواعظ والأمثال والقصص الخ.

وأنت إذ تقرأ آيات سورة الأعلى :

« سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى . الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ . وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ . وَالَّذِى أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ . فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ . سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ . إِلَّا مَاشَاءَ اللهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ . وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ . فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ . سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ . وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى . الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ . ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ . قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ . بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا . وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ . إِنَّ هَٰذَا لَفِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ . صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ » .

وآيات سورة الشمس :

« وَالشَّمْسِ وَضُحَٰهَا . وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَٰهَا . وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّٰهَا . وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا . وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَٰهَا . وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَٰهَا . وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا . كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَا . إِذِ انبَعَثَ أَشْقَىٰهَا . فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَٰهَا . فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا . وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا » .

وآيات سورة العصر :

« وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » .

إلى أمثالها مما ذكرناه ترى فيما نقرره وجاهة لا تتحمل التوقف والارتياب . على أن من المفيد أن نذكر أن عدداً من هذه السور وما يدخل فى مداها هو مما روت الروايات نزوله مبكرا جدا ووضع فى ترتيب النزول فى الدرجات الأولى ، مثل الأعلى التى وضعت ثامنة والليل تاسعة والفجر عاشرة والعصر ثالثة عشرة والعاديات رابعة عشرة . . فهذا الترتيب المروى مما يدعم ما نقرره .

— ١٤ —

أثر اتصال الوحى لأول عهده بالنبى صلى الله عليه وسلم .

واضح مما ذكرناه فى سياق البحث السابق أن مطالع سور القلم والمزمل والمدثر تلهم صحة الوصف الذى احتواه حديثا البخارى والطبرى لأثر اتصال الوحى بالنبى لأول مرة فى نفسه ؛ إذ يخاطب بالمزمل والمدثر ، وإذ ينفى خاطر الجنون الذى خطر لباله ، وتبث فيه الطمأنينة ويثنى على خلقه ، ويطلب منه الصبر والاتكال على الله والاستعداد لتلقى أوامره وقرآنه ، والثبات فى المهمة التى ندب لها ، والتمسك بالأخلاق الكريمة قولا وفعلا ومظهرا .

وتكرار هذا فى ثلاث مجموعات صارت مطالع ثلاث سور ، يلهم أن هذا الاضطراب النفسانى قد استمر وقتا ما كما هو المتبادر .

على أن أثر الوحى فى نفس النبى صلى الله عليه وسلم لم يقتصر على ما كان من إحداث ذلك الاضطراب النفسانى فيه ، فإن سورة الضحى تحتوى صورة عكسية أخرى . وإليك آيات السورة المتصلة بذلك أولا .

« وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ . وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ . وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ . أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ . وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ... ١-٩

ولقد وردت روايات فى نزول هذه السورة تفيد فى جملتها أن الوحى قد فتر عن رسول الله فى مبادئه ، وبعد أن سار شوطاً فى مهمة الإنذار والتبشير والدعوة وصار له أعداء ، ومكذبون ومتربصون . فحز هذا الفتور فى نفسه وآلمه ، لاسيما أن

السيدة خديجة كما جاء في إحدى الروايات قد أظهرت خوفها من أن يكون وحي الله قد انقطع عنه وأن ربه قد قلاه وتركه ، وقد أخذت أم جميل أخت أبي سفيان وامرأة أبي لهب في رواية تعيره وتبدي شماتتها حينما علمت بفتور الوحي عنه .

ومهما يكن من أمر ؛ فنص الآيات وروحها معاً يلهم أنها نزلت في ظرف أزمة نفسية شديدة طرأت على النبي صلى الله عليه وسلم بسبب فترة الوحي عنه ، هذا مع التنبيه إلى أننا غير مطمئنين للرواية التي ذكرت السيدة خديجة ، فالرواية غير موثقة والسيدة كانت مؤمنة كل الإيمان به ومشجعة كل التشجيع له ، ومضمون الآيات وروحها يلهمان أن القائل عدو استغل خبر الفترة ، إذ تبث في نفسه الطمأنينة وتؤكد له كذب ظن الناس ، وأن الله لم يقله ولم يدعه ، وقد كان الجاحدون يستغلون كل حادث يرون فيه ثغرة ضد النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وسوف نعرض صورة من ذلك في الفصل التالي .

وسورة الضحى من السور المبكرة في النزول إذ يجيء ترتيبها العاشرة أو الحادية عشرة ، وهذا يعني أن فترة الوحي كانت في مبادئ الوحي ، ويعني كذلك أن النبي كان قد استأنس بالوحي استئناساً شديداً فلم يستطع أن يكتم حزنه حينما شعر بفتوره عنه ، فانتشر ذلك عنه حتى بلغ الأعداء . ونعتقد أن هذا الحادث في ظرفه وأثره على جانب عظيم من الخطورة في صدد صحة صلة النبي بالوحي الرباني وشعوره بأنه كان شيئاً منفصلا عن ذاته يتوالى ويفتر .

ورواية موقف امرأة أبي لهب من الحادث مع رواية تبكير نزول سورة المسد وتبكير نزول سورة الضحى ، تجعلنا نرى صلة بين هذا الموقف وبين الحملة عليها هي وزوجها في سورة المسد ؛ وسنعود لذلك في الفصل التالي .

والروايات متغايرة ومتعددة في مدة فترة الوحي ؛ إذ تتراوح على اختلاف الروايات بين الأيام والأشهر والسنين إذ تصل في بعضها إلى ثلاث سنين .

على أن تعاقب السور المكية بالإنذار والتبشير والدعوة وحكاية مواقف الكفار والحملة عليهم - حتى ليكاد يكون قد نزل نصف القرآن المكي قبل أن تنزل سورة النحل التي تتضمن إشارة إلى هجرة المسلمين إلى الحبشة التي كانت في أواسط العهد المكي - يجعلنا نشك في فتور الوحي مدة طويلة تبلغ السنين ؛ وكل ما تطمئن به النفس أن تكون أياما أو أسابيع معدودة .

عهد السيرة النبوية المكى

محتويات هذا القسم

تمهيـــد

الدعوة فى العهد المكى تناولت المشركين والكتابيين - تقسيم الكلام على العهد إلى فصلين بسبب ذلك - القرآن المكى ومميزاته البارزة - طبيعة هذا العهد من أسلوب القرآن المكى ومضامينه - مظاهر التشابه فى القرآن المكى ودلالتها - الطريقة التى سرنا عليها فى عرض مشاهد العهد المكى - ثبت تراتيب نزول السور المكية

— ١ —

لم يكن العرب المشركون وحدهم فى مكة ، بل كان إلى جانبهم كتابيون أيضاً ، وإن كانت الكثرة والقوة لأولئك دون هؤلاء الذين كانوا أقلية ضعيفة ، وكان جلهم أفراد جاليات نازحة ، وأرقاء ، على ما فصلناه فى كتابنا «عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته قبل البعثة» .

ولقد وجهت الدعوة الإسلامية إلى الفريقين على السواء ، وآيات الأعراف ١٥١-١٥٢ التى نقلناها فى أحد مباحث الفصل السابق تمثل هذه الدعوة ؛ والأعراف مما نزل مبكراً فى العهد المكى على ماذكرته الروايات وتراتيب نزول السور .

وقد كان لكل منهما موقف متميز بعض التميز من الدعوة ، متصل بطبيعة كيان وعقيدة وقوة كل منهما . ومع أن القسم الأعظم من القرآن المكى هو فى صدد دعوة ومواقف الفريق الأول فإنه قد احتوى آيات عدة فى صدد دعوة ومواقف الفريق الثانى أيضاً . ولهذا رأينا أن يكون العهد المكى فصلين ، فصلا خاصا بالعرب غير الكتابيين وآخر بالكتابيين .

— ٢ —

ويمثل القرآن المكى العهد المكى بطبيعة الحال ، وهو نحو ثلثى القرآن عدد آيات ، وأقل من ثلثيه كماً وعدد أجزاء ، ونحو ثلاثة أرباعه عدد سور ، على اختلاف فى مكية ومدنية بعض هذه السور ؛ وله مميزات بارزة نشير إليها فيما يلى :

١ - إن أغلب سوره ومجموعاته تنحو منحى التسجيع والتوازن والاتساق فى الروى أولا ، وقصر الآيات ثانياً ، كما أنها قوية الأداء والإيقاع والنفوذ

فى تقريرها ووصفها وخطابها وجدلها وتنديدها وتنويهها ووعدها ووعيدها وتبشيرها وإنذارها .

٢ - إنها تتكشف فيها الدعوة إلى الله وإثبات استحقاقه وحده للخضوع والعبادة ومحاربة الشرك وكل مايتصل به ، بأسلوب قوى نافذ ومتنوع ، كما تتكشف فيها كذلك المبادىء الإسلامية الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية والروحية بأسلوب قوى ونافذ ومتنوع أيضاً .

٣ - إن أسلوب الدعوة الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية أسلوب حث وحض وتشويق وتمثيل ووعد وجدل أكثر منه أسلوب تشريع وتقنين .

٤ - إن حكاية حال الكتابيين ومواقفهم هادئة لا عنف فيها ، ويوحى أسلوبها ومضمونها بأن الهدف والحزبية متحدان بينهم وبين الدعوة الإسلامية .

٥ - إن وصف مشاهد الحياة الأخروية وثوابها وعقابها والإنذار والتبشير بها قد كثر وتكرر وتنوع كما كثر وتكرر وتنوع إيراد قصص الأنبياء وأقوامهم وآدم وإبليس ، وذكر الملائكة والجن باسهاب حيناً واقتضاب حيناً آخر .

٦ - إن حكاية أقوال ومواقف الكفار التكذيبية والجدلية والاتهامية ، والرد عليهم وتقريعهم وتكذيبهم والحملة عليهم ، قد كثرت وتنوعت أيضاً .

٧ - إن القرآن المكى قد خلا تقريباً من ذكر المنافقين وحكاية مواقفهم ومكايدهم

٨ - إن المشاهد التى احتوتها سور القرآن المكى ومجموعاته ومناسباتها تكاد تكون متشابهة دعوة وتقريراً ووصفا وحكاية وجدلا وإنذارا وتبشيراً وقصصاً .

وفى كل هذا دليل على ما كانت عليه طبيعة العهد حين كان النبى صلى الله عليه وسلم والإسلام ضعيفين فى القوة والعدد ، وحين كانت الدعوة قائمة على قوتها الروحية والإقناعية والجدل والحجاج والمناظرة ، وحين كانت الزعامة العربية هى المؤثرة فى الموقف تأثيراً يجعل الجمهور تابعاً لها ، وحين لم يكن فى مكة جاليات كتابية كبيرة وقوية ومتكتلة تصطدم مصالحها بالدعوة الإسلامية كما كان شأن اليهود فى المدينة ، وحين كان العهد عهد دعوة تشابه المخاطبون بها فى العقائد والتقاليد والمواقف . ولم يكن فيه والحالة هذه تشريع وتمنين يقوم على تنفيذهما سلطان نافذ كما لم يكن فيه مجال

لإضمار فريق من الناس الكفر وإظهار الإسلام تزلفاً للنبي والمسلمين كما كان شأن المنافقين فى المدينة .

- ٣ -

ومن مظاهر هذا التشابه الذى ذكرناه فى مواضيع المجموعات والسور المكية أن قارئ القرآن يجد أسلوب الإنذار وضرب الأمثال والتذكير والتنديد بالعرب لعدم ارعوائهم وتأثرهم واستجابتهم وحكاية جدلهم والرد عليهم وموقفهم الجدلى والإعراضى - هادئاً لا عنف فيه فى كثير من السور والمجموعات المروى نزولها فى هذا العهد ، سواء فى أدواره الأولى وفى أواسطه وأواخره ، كما يجد إلى جانب هذا عنفاً وشدة فى أسلوب ذلك فيما روى نزوله فى أوائل العهد وأواسطه وأواخره أيضا ، مع التنبيه إلى أن أسلوب العنف والشدة أكثر بروزا وأوسع حيزا من جهة ، وإلى أن طابع الاعتدال والهدوء يضعف فى السور المروى نزولها فى أواخر العهد من جهة أخرى .

وهذه المظاهر تدل على طبيعة العهد المكى ، وتتسق مع طبيعة الأشياء ؛ فالعهد دام نحو ثلاث عشرة سنة ، والسيد الرسول عليه السلام كان يتصل بمختلف الفئات والطبقات والأفواج المستقرين والقادمين فى ظروف متقاربة مع اختلاف المناسبات ، فيكون الموقف هادئاً مع فئة وشديدا مع أخرى ، كما يمكن أن يكون هادئا فى ظرف وشديدا فى آخر ؛ هذا مع احتفاظ الزعماء العنيفين بغلوائهم والمعتدلين بهدوئهم ، ومع سيطرة الاولين على الموقف طيلة العهد ، وبقاء الدعوة فى نطاق ضيق محفوف بالمحن والأخطار .

وفى هذا صور متنوعة للنشاط والجهد والمواقف والأحداث ، تساعد على تبين ما كان يبذله النبي صلى الله عليه وسلم من قوة وجهد ، وبالتالى على أدوار وأحداث السيرة النبوية فى هذا العهد .

- ٤ -

ولقد كنا نود أن نعرض هذه الصور المتنوعة دورا دورا ؛ غير أن مظاهر التشابه

التي أشرنا إليها تجعل هذا غير يسير كما هو واضح ؛ هذا إلى أن من العسير معرفة تاريخ نزول السور والمجموعات القرآنية المكية معرفة صحيحة ، وإن كان مما يخفف هذه الصعوبة بعض التخفيف ما هناك من روايات مأثورة لترتيب نزول السور ، وما في مضامين السور والمجموعات من قرائن تلهم صحة كثير من هذه الروايات أو مقاربتها للصحة . ولذلك رأينا أن نسير في دراسة هذا العهد ورسم سوره القرآنية على طريقة نلائم فيها بين ملاحظة الزمن ما وسعنا ذلك وبين جعل الدراسة والصور في نطاق مواضيع مستقلة .

وسنضع أمام القارئ بعد هذا الكلام ثبتا يحتوي ترتيبات النزول المأثورة للسور المكية مما استند في وضعه وروايته إلى روايات ودراسات مأثورة على الأرجح ؛ وسيرى القارئ فيها تقاربا كثيرا يسوغ القول باحتمال مقاربة الترتيبات المذكورة للصحة ، وإننا لنأمل أن نفيد القارىء في تتبع سير السيرة وأدوارها في عهدها المكي .

ومع أن من المحتمل أن تكون مجموعات من سورة ما ـ وخاصة من السور الطويلة ـ قد نزلت منفصلة عن مجموعاتها الاخرى ، فإن مما يجدر التنبيه إليه أن مضامين ونظم السور القصيرة والمسجوعة أولا ؛ وتلاحق الفصول في كثير من السور المتوسطة والكبرى غير المسجوعة ووحدة الموضوع فيها بوجه عام ثانيا ، يمكن أن يلهم أن جل السور المكية قد نزل جملة واحدة كما يمكن أن يلهم أن ما نزلت مجموعاته منفصلة منها قد تلاحقت دون أن يفصل بينها نزول مجموعات من سور أخرى ؛ وهذا مما يضمن الفائدة المرجوة آنفا إلى حد غير يسير .

وقد يرد أن وجود آيات مدنية في السور المكية مما يدعو إلى التوقف في قبول وحدة نزول هذه السور أو تلاحق فصولها أو ترتيب آياتها منذ العهد المكي على الوجه الذي ورد في المصحف ، ولكننا لا نرى ذلك ، لأن الآيات المدنية الصحيحة الطابع والثبوت ليست كثيرة في عددها وفي عدد السور التي احتوتها وقد وضعت في مناسباتها مما يدل على أن ترتيب آيات السور المكية وتلاحق فصولها لم يطرأ عليه تعديل كبير في العهد المدني . ولقد حرصنا على التنبيه إلى هذه الأمور وملاحظتها في تفسيرنا الكامل وفي مقدمته أيضا .

وإليك الثبت (*) :

اسم السورة	رقم ترتيب المصحف	رقم نزول مصحف فؤاد	رقم ترتيب الخازن	رقم ترتيب مجمع البيان	رقم ترتيب السيوطي	رقم ترتيب الحسن وعكرمة	رقم ترتيب ابن عباس	رقم ترتيب جابر
العلق	٩٦	١	١	١	١	١	١	١
القلم	٦٨	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢
المزمل	٧٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣
المدثر	٧٤	٤	٤	٤	٤	٤	٤	٤
الفاتحة	١٠٦	٥	٠	٠	٠	٠	٠	٥
المسد	١٠١	٦	٥	٥	٥	٥	٥	٦
التكوير	٨١	٧	٧	٦	٦	٦	٦	٧
الأعلى	٨٧	٨	٨	٧	٧	٧	٧	٨
الليل	٩٢	٩	٩	٨	٨	٨	٨	٩
الفجر	٨٩	١٠	١٠	٩	٩	٩	٩	١٠
الضحى	٩٣	١١	١١	١٠	١٠	١٠	١٠	١١
الشرح	٩٤	١٢	١٢	١١	١١	١١	١١	١٢

(*) ١ – الصفر في العيون إما بسبب سقوط اسم السورة من الترتيب ، أو بسبب أنها فيه مدنية .

٢ – الفلق والناس في ترتيب الخازن مدنيتان وترتيبهما ١٦ و ١٧ .
الاخلاص والكوثر وقريش والعصر والعاديات والقدر والمطففون والفاتحة مما ورد أنها مدنيات ؛ والجمهور على أنها مع الفلق والناس مكيات ؛ وأسلوبها وروحها يلهمان ذلك أيضا .

٣ – الزلزلة والانسان والرعد والحج مدنيات في أكثر الروايات وجميع التراتيب . وهناك روايات تذكر أنها مكيات ؛ وأسلوبها ومضامينها وخاصة الثلاث الأول تشبه الأسلوب المكي أكثر مما تشبه الأسلوب المدني .

٤ – تسمى الجاثية بالشريعة ، وفصلت بالمصابيح ، وغافر بالمؤمن ، وص بداود ، والمسد أبي لهب ، والنبأ بالتساؤل ، والمعارج سأل ، والقلم بنون ، والفاتحة بأم الكتاب ، وفاطر بالملائكة ، والاسراء بني إسرائيل ، والنحل بالنعم : تسميات مشهورة ، حتى أن بعض المصاحف تسميها بهذه الأسماء بدلا من أسمائها الأكثر شهرة ؛ هذا بالاضافة إلى أن لبعض السور أسماء أخرى ولبعضها أسماء عدة أقل شهرة .

اسم السورة	رقم ترتيب المصحف	رقم نزول مصحف فؤاد	رقم ترتيب الخازن	رقم ترتيب مجمع البيان	رقم ترتيب السيوطي	رقم ترتيب الحسن وعكرمة	رقم ترتيب ابن عباس	رقم ترتيب جابر
العصر	١٠٣	١٣	١٣	١٢	١٢	١٢	١٢	١٣
العاديات	١٠٠	١٤	١٤	١٣	١٣	١٣	١٣	١٤
الكوثر	١٠٨	١٥	١٥	١٥	١٤	١٤	١٤	١٥
الماعون	١٠٧	١٧	١٧	٣١	١٦	١٦	١٦	١٧
الكافرون	١٠٩	١٨	١٨	١٤	١٤	١٧	١٧	١٨
الفيل	١٠٥	١٩	١٩	١٦	١٨	١٨	١٨	١٩
الفلق	١١٣	٢٠	٠	١٧	١٩	١٩	١٩	٢٠
الناس	١١٤	٢١	٠	١٨	٢٠	٢٠	٢٠	٢١
الإخلاص	١١٢	٢٢	٢٠	١٩	٢١	٢١	٢١	٢٢
النجم	٥٣	٢٣	٢١	٢٠	٢٢	٢٢	٢٢	٢٣
عبس	٨٠	٢٤	٢٢	٢٠	٢٣	٢٣	٢٣	٢٤
القدر	٩٧	٢٥	٢٣	٢١	٢٤	٢٤	٢٤	٢٥
الشمس	٩١	٢٦	٠	٢٢	٢٥	٢٥	٢٥	٢٦
البروج	٨٥	٢٧	٢٤	٢٣	٢٦	٢٦	٢٦	٢٧
التين	٩٥	٢٨	٢٥	٢٤	١٣	٢٦	٢٦	٢٧
قريش	١٠٦	٢٩	٢٦	٢٥	٢٨	٢٨	٢٨	٢٩
القارعة	١٠١	٣٠	٢٧	٢٦	٢٩	٢٩	٢٩	٣٠
القيامة	٧٥	٣١	٢٨	٢٧	٣٠	٣٠	٣٠	٣١
الهمزة	١٠٤	٣٢	٢٩	٢٨	٣١	٣١	٣١	٣٢
المرسلات	٧٧	٣٣	٣٠	٢٩	٣٢	٣٢	٣٢	٣٣
ق	٥٠	٣٤	٣١	٣٠	٢٣	٣٣	٣٣	٣٤
البلد	٩٠	٣٥	٣٢	٣٢	٣٤	٣٤	٣٤	٣٥
الطارق	٨٦	٣٦	٣٣	٣١	٣٥	٣٥	٣٥	٣٦

اسم السورة	رقم ترتيب المصحف	رقم نزول مصحف فؤاد	رقم ترتيب الخازن	رقم ترتيب كتاب المباني	رقم ترتيب السيوطي	رقم ترتيب الحسن وعكرمة	رقم ترتيب ابن عباس	رقم ترتيب جابر
القمر	٥٤	٣٧	٣٤	٣٣	٣٦	٣٦	٣٦	٣٧
ص	٣٨	٣٨	٣٥	٣٤	٣٧	٣٧	٣٧	٣٨
الأعراف	٧	٣٩	٣٦	٣٥	٣٨	٠	٣٨	٣٩
الجن	٧٢	٤٠	٣٧	٣٦	٣٩	٣٨	٣٩	٤٠
يس	٣٦	٤١	٣٨	٣٧	٤٠	٣٩	٤٠	٤١
الفرقان	٢٥	٤٢	٣٩	٣٨	٤٣	٤٠	٤١	٤٢
فاطر	٣٥	٤٣	٤٠	٣٩	٤٢	٤١	٤٢	٤٣
مريم	١٩	٤٤	٤١	٤٠	٤١	٠	٤٣	٤٤
طه	٢٠	٤٥	٤٢	٤١	٤٤	٤٢	٤٤	٤٥
الواقعة	٥٦	٤٦	٤٣	٤٢	٤٥	٤٥	٤٥	٤٦
الشعراء	٢٦	٤٧	٤٤	٤٣	٤٦	٤٤	٤٦	٤٧
النمل	٢٧	٤٨	٤٥	٠	٤٧	٤٥	٤٧	٤٨
القصص	٢٨	٤٩	٤٦	٤٥	٤٨	٤٦	٤٨	٤٩
الإسراء	١٧	٥٠	٤٧	٤٦	٤٩	٤٧	٤٩	٥٠
يونس	١٠	٥١	٤٨	٤٧	٥٠	٤٨	٥٠	٥١
هود	١١	٥٢	٤٩	٤٨	٥١	٤٩	٥١	٥٢
يوسف	١٢	٥٣	٥٠	٤٩	٥٢	٥٠	٥٢	٥٣
الحجر	١٥	٥٤	٥١	٥٠	٥٣	٥١	٥٣	٥٤
الأنعام	٦	٥٥	٥٢	٥١	٥٤	٥٢	٥٤	٥٥
الصافات	٣٧	٥٦	٥٣	٥٢	٥٥	٥٣	٥٥	٥٦
لقمان	٣١	٥٧	٥٤	٥٣	٥٦	٥٤	٥٦	٥٧
سبأ	٣٤	٥٨	٥٥	٥٤	٥٧	٥٥	٥٧	٥٨
الزمر	٣٩	٥٩	٥٦	٥٥	٥٨	٥٦	٥٨	٥٩
غافر	٤٠	٦٠	٥٧	٥٦	٥٩	٥٧	٥٩	٦٠
فصلت	٤١	٦١	٥٨	٥٧	٦٠	٥٨	٦٠	٦١

اسم السورة	رقم ترتيب المصحف	رقم نزول مصحف فؤاد	رقم ترتيب الخازن	رقم ترتيب عمر القبان	رقم ترتيب السيوطي	رقم ترتيب الحسن وعكرمة	رقم ترتيب ابن عباس	رقم ترتيب جابر
الشورى	٤٢	٦٢	٥٩	٥٨	٦١	٥٩	٦١	٦٩
الزخرف	٤٣	٦٣	٦٠	٥٩	٦٢	٦٠	٦٢	٦٢
الدخان	٤٤	٦٤	٦١	٦٠	٦٣	٥٨	٦٣	٦٣
الجاثية	٤٥	٦٥	٦٢	٦١	٦٤	٦١	٦٤	٦٤
الأحقاف	٤٦	٦٦	٦٣	٦٢	٦٥	٦٢	٦٥	٦٥
الذاريات	٥١	٦٧	٦٤	٦٣	٦٦	٦٣	٦٦	٦٦
الغاشية	٨٨	٦٨	٦٥	٦٥	٦٧	٦٤	٦٧	٦٧
الكهف	١٨	٦٩	٦٦	٦٦	٦٨	٦٥	٦٨	٦٨
النحل	١٦	٧٠	٦٧	٤٤	٦٩	٦٦	٦٩	٧٢
نوح	٧١	٧١	٦٨	٦٧	٧٠	٦٧	٧٠	٧٣
إبراهيم	١٤	٧٢	٦٩	٦٨	٧١	٦٨	٧١	٠
الأنبياء	٢١	٧٣	٧٠	٦٩	٧٢	٦٩	٧٢	٧١
المؤمنون	٢٣	٧٤	٧١	٧٠	٧٣	٧٠	٧٣	٧٥
السجدة	٣٢	٧٥	٧٢	٧١	٧٤	٧١	٧٤	٧٠
الطور	٥٢	٧٦	٧٢	٧٢	٧٥	٧٢	٧٥	٧٤
الملك	٦٧	٧٧	٧٣	٧٣	٧٦	٧٣	٧٦	٧٦
الحاقة	٦٩	٧٨	٧٤	٧٤	٧٧	٧٤	٧٧	٧٧
المعارج	٧٠	٧٩	٧٥	٧٥	٧٨	٧٥	٧٨	٧٨
النبأ	٧٨	٨٠	٧٧	٧٧	٨٠	٧٧	٨٠	٨٠
النازعات	٧٩	٨١	٧٦	٧٦	٧٩	٧٧	٧٩	٧٩
الانفطار	٨٢	٨٢	٧٨	٧٨	٨١	٧٩	٨١	٨١
الانشقاق	٨٤	٨٣	٧٩	٧٩	٨٢	٧٨	٨٢	٨٢
الروم	٣٠	٨٤	٨٠	٠	٨٣	٨٠	٨٣	٨٣
العنكبوت	٢٩	٨٥	٨١	٨٠	٨٤	٨١	٨٤	٨٤
المطففون	٨٣	٨٦	٨٢	٨١	٨٥	٠	٨٥	٨٥

فصـــل

فى موقف العرب غير الكتابيين من الدعوة

هذا الفصل يتناول أشد أدوار السيرة النبوية قدراً وخطراً ، وأعظم صورها النضالية التى تمثل قوة نضال الحق مع الباطل على قلة أنصار الأول وكثرة أنصار الثانى . ويتألف من المباحث التالية :

١ - دور الخطوات الأولى .

٢ - موقف زعماء مكة من النبي ودعوته وبواعثه .

٣ - مشاهد وصور متنوعة بين النبي والزعماء : بين الشدة والاعتدال .

٤ - مشاهد التحدى .

٥ - محنة الأذى والفتنة ومشاهدها ونتائجها .

٦ - الأزمات النفسية النبوية .

٧ - صور متنوعة للمسلمين فى العهد المكى .

المبحث الأول

دور الخطوات الأولى

صورة عامة لهذا الدور - نهي النبي عن الصلاة والدعوة - احتمالات كون المتصدى من رجال سلطات مكة ومدى هذا - عدم إطاعة النبي ودلالته - قوة آيات العلق ودلالتها - آيات سورة القلم ودلالتها على كثرة المكذبين - طبقة مخادعة من الزعماء منذ البدء - رغبة هذه الطبقة فى تبادل التساهل مع النبي - أول مرة ينعت فيها القرآن بأساطير الأولين - تلازم الأغنياء والزعماء فى المعارضة وبواعثه - مشهد مناظرة محتمل - نفى المغنمة والطمع عن النبي ودلالة الآيات الواردة فى ذلك - دهشة الجاحدين لآيات القرآن ونذره - مدى أمر النبي بالصبر والهجر الجميل - احتمال صلة الأمر بدار الأرقم - تعليق على رواية سرية الدعوة - أول القول عن القرآن أنه سحر وقول بشر - مواقف أبي لهب وامرأته - تعليق على رواية مشهورة لنزول سورة المدثر - أول مواقف الجاحدين فى الشك فى اتصال النبي بملك الله وظنهم أنه شيطان - ذكر المؤمنين فى بعض السور الأولى ودلالتها - تلخيص لهذا الدور وطابعه وصور عن المسلمين فيه وبواعث أقبالهم على الدعوة ودلالتها .

— ١ —

وصلنا فى الفصل السابق إلى أن مطالع سور العلق والقلم والمزمل والمدثر يصح أن تكون قد نزلت وحدها ؛ وأنه لابد أن تكون سور عدة قد نزلت قبل نزول بواقيها ؛ وأنها قد احتوت مبادئ الدعوة ، وإنذاراً وتبشيراً خاليين من العنف ، وخلت من الإشارة إلى مواقف الجاحدين والحملة عليهم .

وعلى هذا يمكن أن يقال إن الخطوات الأولى للدعوة كانت اتصالا بالأخصاء ومن توسم النبي صلى الله عليه وسلم فيهم القبول والحجى ، وتلاوة لهذه السور عليهم ودعوتهم .

والسور المكية التى خلت من ذكر المكذبين والجاحدين والتنديد بهم والحملة عليهم قليلة : وهذا ما يسوغ القول إن الدعوة لم تلبث أن أخذت منذ خطواتها الأولى تصطدم بالإنكار والاستنكار والصد والتكذيب : وإن السور والمجموعات القرآنية لم تلبث أن أخذت تنزل متلاحقة بوصف مواقف الصادين والمكذبين والتنديد بهم

والحملة عليهم .

وما دام الأمر كذلك فليس ما يمنع أن تكون الآيات التالية لمطالع السور الأربع الأولى من أول ما نزل بعد السور التي نزلت بعد هذه المطالع واقتصرت على الدعوة والإنذار والتبشير كما قلنا ؛ وفي هذه الآيات صور لرد فعل الخطوة النبوية الأولى ؛ وقرائن على أنها من أوليات القرآن نزولا .

— ٢ —

إن الآيات التي أعقبت مطلع سورة العلق هي هذه :

« كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ . أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ . إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ . أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ . عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ . أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ . أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ . أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ . أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ . كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ . نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ . فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ . كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ... ٦ - ١٩

فهذه الآيات تلهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أخذ يصلي على شكل جديد ؛ جهرة على ملأ من الناس في فناء الكعبة على الأرجح ؛ وأنه أخذ يدعو بدعوته إلى الله وتقواه بمجانبة الشرك والآثام وعبادة الله وحده واتباع مكارم الأخلاق مما حوته سورة الأعلى ومثيلاتها ؛ وأنه أخذ يقابل بالتكذيب والانصراف من جهة ، ثم تصدى له من جهة أخرى شخص ينهاه عن صلاته ودعوته ، وتلهم الآيات أن هذا الشخص كان من الزعماء ، أبطره ما كان له من غنى وجاه وأطغاه ، ورأى لنفسه قوة على نهي النبي والتصدي لحريته في الصلاة والدعوة .

وعبارة « ناديه » تعني مجلس القوم ؛ ويمكن أن تكون قد عنت ما عرف في أخبار السيرة بدار الندوة التي كانت في فناء الكعبة ، وكانت مجتمع مشيخة مكة ورجال سلطاتها الدينية والزمنية على ما ذكرناه في كتابنا عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته ؛ وإذا صح توجيهنا هذا ساغ أن يقال إن السلطات الرسمية في مكة رأت في صلاة

النبي صلى الله عليه وسلم صلاة علنية جديدة ، وفى تلاوته قرآناً فيه دعوة إلى مايخالف التقاليد الجارية ، وفى دعوته الناس جهارا إلى دين جديد - بدعة يجب الوقوف أمامها بشكل ما ؛ وأنها عهدت إلى أحد أعضائها بتنفيذ ذلك ؛ أو لعل المتصدى كان أشد حماسة من سائر رجال هذه السلطات فكان هو الذى تولى النهى والصد ووقف الموقف الذى ذكرته الآيات ونددت به .

وقد قيدنا الكلام بتعبير « بشكل ما » ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمتنع ، ولم يلاحق بمنع رسمى كان من الجائز أن يستمر . ولعل الحرية الدينية التى كانت مطلقة للناس فى البيت الحرام عاكفين وبادين ، والتى كانت تكفلها حرمة البيت الحرام أو التى تقوم عليها هذه الحرمة لما يعود من ورائها من منافع عظمى على أهل الحرم - هى التى جعلت الأمر يقف عند حد الجدل والحجاج والصد والتكذيب والمناوأة والأذى الشخصى ، أو عند المحاولة التى لم تتبع بملاحقة رسمية حازمة ؛ ولعلنا لانخطئ إذا قلنا إن هذا لم يقتصر على دور الخطوات الأولى ، بل هو الذى استمر طيلة العهد أو أكثره ، وكان من عوامل انفساح المجال لاستمرار النبى صلى الله عليه وسلم فى دعوته ؛ وقد قلنا طيلة أكثره ، لأن التآمر على اغتيال النبى صلى الله عليه وسلم أو حبسه أو نفيه فى أواخر العهد واشتراك أكثر زعماء قريش البارزين فيه هو خروج عن هذا الموقف من ناحية ما ؛ على ما سوف نذكره فى مبحث آخر .

على أنه إذا لم يصح توجيهنا ولم يكن « ناديه » دار الندوة ، ولم يكن النهى بأمر رجال السلطات ، ولا من أحدهم - فإن الدلالة قائمة فى الآيات - على كل حال - على أن المتصدى من زعماء القوم الأقوياء ذوى الأنصار والمكانة ؛ وعبارة « فليدع ناديه » أى فليتضامن مع أهل مجلسه أو أنصاره ، تحتمل كلا الاحتمالين .

وظروف الموقف تدل على أنه من أبكر مواقف الصد والنهى والتكذيب إن لم يكن أبكرها ؛ وروح الآيات ومضمونها يلهمان هذا ، إذ تندد بالمتصدى لنهيه عبداً إذا صلى أو أمر بالتقوى ، وإذ تأمر رسول الله بعدم المبالاة وبالاستمرار فى عبادته . ولعل إكمال سورة العلق - التى كانت آياتها الأولى أول ما نزل من القرآن - بهذه الآيات دليل على هذا التبكير .

وإذا لاحظنا هذا ولاحظنا أن النبى لم يكن بعد قد آمن به إلا أفراد يعدون على الأصابع ،

تبين لنا الموقف العصيب الذى واجهه، والجرأة العظيمة التى واجه بها هذا الموقف بأمر ربه، بما كان يوجهه إلى الزعيم القوى الغنى الطاغى بما يوحى إليه من آيات فيها الصفعات الداميات والشرر المحرق، ثم بما كان من تثبيت القرآن له على دعوته وعبادته وثباته فيهما فعلا، وتبين لنا - كما قلنا فى الفصل السابق فى النبى صلى الله عليه وسلم - العظمة الخلقية، والإيمان العميق، والجرأة الشديدة فى الحق على كل باغ مهما كان قويا عاتيا. ولقد كان هذا دأبه فى كل المواقف التالية لهذا الموقف العصيب، سواء كانت فى الخطوات الأولى أو ما بعدها. وفى هذا سر من أسرار اصطفائه للرسالة العظمى من دون ريب.

والروايات تذكر أن هذا الزعيم هو المغيرة بن هشام المخزومى، الذى عرف فى تاريخ الإسلام بأبى جهل بعد أن كان أبا الحكم؛ ونحن لا نستبعد ذلك؛ فتبز عظيم من عظماء قريش بهذا اللقب لا بد من أن يكون لسبب قوى؛ وأولية التصدى للنبى ونهيه عن الصلاة والدعوة هى سبب قوى من دون ريب. وازداد هذا قوة باستمرار أبى جهل فى موقفه الشديد العنيف الباغى من الدعوة إلى أن هلك فى غزوة بدر الكبرى.

— ٣ —

والآيات التى أعقبت مطلع سورة القلم هى هذه:

« فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ. بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ. فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ. وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ. وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ. هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ. مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ. عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ. أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ. إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ. سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ... »(١)

٥ - ١٦

(١) المفتون: الضال أو المنحرف إلى دين آخر. تدهن: تلاين. هماز: عياب. عتل: جاف غليظ. زنيم: دعى. سنسمه: سنضع عليه سمة بالكى على عادة العرب بوسم أبلهم. الخرطوم: هو للفيل، والتعبير لقم الذى قال عن القرآن أساطير الأولين.

والآيات تحتوى مشاهد من السيرة النبوية نرجح أنها من مشاهدها الأولى. وترجيحنا قائم أولا على أن هذه الآيات وما بعدها إلى آخر السورة صارت تتمة سورة مطلعها من أوليات القرآن نزولا على الراجح، وثانيا على سين الاستقبال التى بدئت بها الآية الأولى، واستشهاد الله على الضال من المهتدى، وثالثاً على ما جاء فى آخر السورة من تثبيت النبى صلى الله عليه وسلم وتصبيره ودعوته إلى عدم الضيق بتكذيب قومه كما فعل صاحب الحوت، إذ جاء فيها:

« فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ. لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ. فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ... ٤٨ - ٥٠

أما المشاهد التى احتوتها الآيات فهى:

١ - إلهامها أن المكذبين قد كثروا، وأنهم صاروا يحاجون النبى صلى الله عليه وسلم وينتقدونه لانحرافه أو ضلاله عن دين آبائه محاولين رده عن ذلك.

٢ - إنّ المتصدين له هذه المرة لم يكونوا غلاظاً شديدين بالنهى والنقد، بل تظاهروا بالرغبة فى الملاينة، وودوا منه اللين والوعد منه بالتفاهم على أمر وسط؛ فيتنازل عن بعض موقفه ويتنازلون هم عن بعض موقفهم

٣ - إنّ منهم من كان يقسم الإيمان للنبي على ما كان يقوله أو يعرضه حتى يتساهل ويلين،

٤ - إنّ الموقف لم ينته إلى تفاهم وتوافق، وإن الحلاف الذى تظاهر بالاعتدال كان فى الحقيقة يعيب النبي صلى الله عليه وسلم ويكذب عليه ويصد عنه الناس ويسعى بالنميمة بينه وبينهم، وإنه لم يلبث أن جاهر بطويته فوصف آيات القرآن بأنها أساطير الأولين، أى أنها قصص الأولين المتداولة أو الخرافية أو أنها مقتبسات عنها على ما تحتمله هذه الجملة. وهذه أول مرة نعت القرآن هذا النعت الذى تكرر من قبل الكفار مراراً بعد ذلك.

٥ - إن هذا الحلاف النمام كان غنيا قويا بأبنائه وأنصاره.

وتعبير « حلاف مهين » يمكن أن يلهم أن هذا الحلاف كان يحلف للناس بكذب النبي، أو كان يحلف للنبي صلى الله عليه وسلم باستعداده لمجاراته

على حين كان يضمر التكذيب والصد . وقد رجحنا الشق الثانى استلهاماً من جملة « فلا تطع » التى نرجح أنها تعنى « لاتصدق » أو « لاتسمع » أو « لاتقبل » ثم من الحملة الشديدة التى تبعت الآية ، والتى ندّدت الخلاف بنعوت تدل على ماكان عليه من سوء النية وخبث الطوية ، وما يضمر من الكذب والخداع وتأليب الناس على النبى بالنميمة والوقيعة .

والآيات وإن دلت فى أولها على كثرة المكذبين والمحاجين فإن النعوت المتتابعة فيها تدل على شخص بعينه . ولسنا نرى فى هذا تناقضاً ؛ إذ من الممكن أن يكون المحاجون جمعاً وأن يكون أحدهم أشد لؤماً وكيداً ومكرا ، أوأن تكون الآيات قد احتوت حكاية مواقف متنوعة فى ظرف واحد .

وهكذا تبدو فى هذه المشاهد صورة غير الصورة التى تلهمها آيات العلق كما هو واضح ؛ كما يبدو أن من الذين تصدوا للنبى صلى الله عليه وسلم فى أول خطواته من كان عنيفاً شديدا ومن كان مداهناً مخادعاً . ولقد ظلت هاتان الصورتان تتكرران طيلة العهد المكى بأشكال متنوعة على ماأشرنا إليه من قبل . ويبدو كذلك أن الزعماء والأغنياء قد تلازموا فى مواقف الصد والتكذيب ، وتضامنوا فى قيادة حملتهما ؛ وهذا أيضاً من المشاهد التى ظلت تتكرر طيلة هذا العهد .

ولقد يخطر بالبال أن من طبيعة المجتمع العربى إذ ذاك أن يجتمع الغنى والزعامة فى شخص واحد ، غير أن الحملات القرآنية تخص حيناً الأغنياء وحيناً الزعماء ، مما يحتمل أن يكونا صنفين كما يلمح فى آيات سورتى العلق والقلم نفسهما وفى كثير غيرها ، وأنهما تضامنا معاً ، الأولون خشية على ثرواتهم والآخرون خشية على مراكزهم ؛ لأن الدعوة الإسلامية نددت بالأغنياء الذين يقبضون أيديهم عن مساعدة الطبقات المعوزة وحثت على الإنفاق كثيراً ، كما أنها حاربت الزعامة الطاغية الباغية المعتزة بالقوة والمتكبرة عن الحق .

— ٤ —

وفى آيات سورة القلم الأخرى مشاهد أخرى جديرة بالتنويه أيضاً :

(١) ففيها مايلهم أنه مشهد مناظرة أو تنديد فى مقام مناظرة ؛ إذ احتوت الآيات التالية :

« أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ . مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ . إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ . أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ . سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ . أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَٰدِقِينَ ... ٣٥ - ٤١

وهذا الأسلوب متكرر كثيراً فى القرآن المكى . والذى يخطر بالبال فى صدده أنه إمّا أن يكون تعقيباً أو تعليقاً على موقف جدل ومحاجة بين النبي صلى الله عليه وسلم والكفار ، وإمّا أن يكون على سبيل تلقين الحجة المفحمة فى مواقف الجدل والحجاج .

وتكراره كثيراً يلهم أن النبي كثيراً ما كان يشتبك مع بعض الجاحدين بالجدل والمحاجة التى تنطوى من ناحية على التنديد والتبكيت والتحدى ، وتجرى من ناحية أخرى على طريقة منطقية يوجه الكلام فيها إلى العقل دون أن يكون فيها شدة أو مهاترة ؛ وهذا مما يؤيد ما قلناه آنفاً من تنوع طبيعة الجاحدين بين الشدة واللين والغلظة والمداهنة ، ومن أن هاتين الصورتين بدأتا منذ الخطوات الأولى واستمرتا متلازمتين .

(٢) وفيها سؤال إنكارى عما يمكن أن يكون للنبي من نفع يلتمسه من وراء دعوته أو من مطمح يسعى إليه ، كما ترى فى الآية التالية :

« أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِّنْ مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ... ٤٦

وإذ كان السؤال من قبيل الإنكار أو الاستنكار فإن الآية تنفى طلب الأجر ، وتنكر على الجاحدين موقفهم ، فالنبي لايطلب أجراً ولا جعلا حتى يروا فيما يدعوا اليه كلفة وغرامة . ولقد تكرر هذا كثيراً فى القرآن المكى بأساليب متنوعة ؛ ومع أنه لم يرد فى أى مرة فى صدد نفى تهمة موجهة إلى النبي أو بصورة رد على تهمة ؛ فإن تكراره قد يلهم أن من الزعماء والأغنياء من ظن أن النبي صلى الله عليه وسلم يسعى وراء مطمع خاص ، أو رأى أن فى دعوته مايهدد مراكزهم وثرواتهم ؛ ولعل هذا من أسباب التجهم للدعوة منذ بدئها ، ولعل ذكر القرآن للزكاة ودعوته إلى التصدق ومساعدة المعوزين ومراعاة حق اليتيم والبر به وفك الرقاب ، ونعيه على الناس البخل وحب

المال والانهماك في الدنيا وإيثارها على ما عند الله ، في السور المبكرة جدا التي احتوت مبادئ الدعوة والإنذار والتبشير بصورة عامة كما ترى في الأمثلة التالية :

١ - بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا . والآخِرَةُ خَيْرٌ وأَبْقَىٰ ...

الأعلى ١٦ - ١٧

٢ - كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ . ولا تَحَٰضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ . وتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا . وتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ...

الفجر ١٧ - ٢٠

٣ - فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ . ومَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ . أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ . يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ . أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ...

البلد ١١ - ١٦

٤ - فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ واتَّقَىٰ . وصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ . وأَمَّا مَنْ بَخِلَ واسْتَغْنَىٰ . وكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ . ومَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ . إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ . وإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ والْأُولَىٰ . فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ . لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى . الَّذِي كَذَّبَ وتَوَلَّىٰ . وسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ . ومَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ . إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ . ولَسَوْفَ يَرْضَىٰ ...

الليل ٥ - ٢١

... قد جعل زعماء الكفار وأغنياءهم ينسبون إلى النبي صلى الله عليه وسلم الطمع في أموالهم أو التآمر على ثرواتهم منذ الخطوات الأولى ، فنفى القرآن في آياته المبكرة ذلك عنه شخصيا ، ثم ظل ينفيه من آن لآخر أيضاً .

(٣) وفيها صورة لحالة الكفار النفسية ظاهرها وباطنها حينما كان يتلو النبي صلى الله عليه وسلم عليهم القرآن وينذرهم ويبشرهم به كما ترى في الآيات التالية :

« وإنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ . وما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَـٰلَمِينَ ... »[1]

القلم ٥١ - ٥٢

ووصف هذا الموقف قد تكرر كثيراً فى القرآن المكى . ووروده فى آيات سورة القلم يلهم أنه كان منذ الخطوات الأولى للدعوة ؛ وصيغة الآية (٥١) قوية الدلالة على أن الكفار لم يكونوا يقصدون نعت النبى بالجنون المرضى ، بل يقصدون بيان دهشتهم مما كان يتلوه عليهم ، حيث أرادت الآية أن تقول إنهم كانوا يحملقون فى وجهه وتكاد عيونهم تأكله عجباً ودهشة لما سمعوه من آيات القرآن .

وهذا الوصف أثر من آثار الدعوة فى جمهور الناس ، ويبدو أن الزعماء قد استغلوه أعظم استغلال فى حملة الصد والتكذيب التى تولوا كبرها ؛ كما تدل على ذلك آيات كثيرة ، هذا مثال منها :

« وقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ . أَفْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فى الْعَذَابِ والضَّلَـٰلِ الْبَعِيدِ ... »

سبأ ٧ - ٨

وواضح أن « الذين كفروا » تعنى الزعماء إذ كانوا يقولون للناس الكلام الذى جاء بعد الجملة على سبيل الدعاية والصد . ومن هذا القبيل آية أخرى فى السورة نفسها وهى هذه :

« وإذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا مَا هَـٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُكُمْ وقَالُوا ماهَـٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ... » ٤٣

---

(١) « الذكر » الأول كناية عن القرآن وقد تكرر مرات بهذا المعنى ، والثانى : بمعنى التذكير والذكرى وقد تكرر مرات أيضاً .

— ٥ —

ومن الآيات التى أعقبت مطلع سورة المزمل الآيتان التاليتان :

« واصْبِرْ عَلَى ما يَقُولُونَ واهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا . وذَرْنِي والمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ ومَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ... ١٠ - ١١

وفى الآيتين أمر للنبى صلى الله عليه وسلم بالصبر على تكذيب المكذبين وأقوالهم ، وبهجرهم هجراً جميلا أى لا قطيعة فيه ولا شدة ، وبوكالة أمر هؤلاء المغرورين بما تيسر لهم من الجاه والنعمة إلى الله ، وبتوعدهم بأن نتائج موقفهم تقع عليهم فى أجل قريب ؛ والآية الثانية واضحة الدلالة على أن المكذبين من الزعماء ذوى الجاه والثراء ؛ وهذا مما سبق من المشاهد ومما تكرر فيما بعد .

وقد احتوت الآيتان تثبيتاً وطمأنة للنبي صلى الله عليه وسلم فى هذا الموقف الذى أخذ يلقاه مكرراً فى خطواته الأولى ؛ وهذا كذلك استمرار لما سبق من تلقينات لتثبيته وطمأنينته كانت من دون ريب من عوامل ثبات النبي صلى الله عليه وسلم فى مهمته . وتعبير « الهجر الجميل » ذو مغزى خطير ؛ فهو متسق مع طبيعة مهمة النبي من عدم قطع الحبل قطعا بائنا بينه وبين الزعماء الجاحدين الذين فى يدهم زمام الناس مهما كابروا وكذبوا ، وبينه وبين جمهور الناس عامة الذين لم يكونوا قد استجابوا إلى الدعوة ، ومتسق كذلك مع ما تمليه ظروف الخطوات الأولى ، إذ تملى أن يلائم صاحب الدعوة بين الظروف المتباينة ، فلا يعنف ولا يقسو من جهة ، ولا يتعرض هو وأصحابه للمكروه دون ما ضرورة من جهة أخرى .

ولقد تواترت الروايات على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد اتخذ له مركزاً سريا أو بالأحرى منعزلا ، وهو « دار الأرقم » يجتمع فيه هو وأصحابه ، يقيمون الصلاة ويتدارسون القرآن ، ويتلقون عن النبي صلى الله عليه وسلم تعاليم الدين والأخلاق ، كما أثر عنه أحاديث يدعو فيها ربه أن يعز الإسلام ببعض الأقوياء ، وأن هذا الحال دام نحو ثلاث سنين من أوائل العهد المكى إلى أن أسلم عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب رضى الله عنهما وغيرهما من الأقوياء المعروفين ، فليس بعيداً

أن تكون هذه الآية قد لقنت النبي صلى الله عليه وسلم هذا التصرف المروى أو ما يقرب منه ، حينما أخذ يلقى التكذيب والمناوأة ، وأخذ الطغاة من الجاحدين يتعرضون لضعفاء المسلمين بالأذى على ما سوف نذكره بعد .

ولقد روى فيما روى أن الدعوة بدأت سرّية إلى أن قوي الإسلام ، ونزلت آيتا الحجر .

« فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّا كَفَيْنَٰكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ ... ٩٤ - ٩٥

ونحن لا نسلم بهذا ؛ استلهاماً من آيات العلق التي تذكر أن زعيما نهى النبي عن الصلاة وعن الأمر بالتقوى ، أي الدعوة ، ومن آيات القلم التي تذكر أن الكافرين كانوا يكادون يلتهمون النبي بعيونهم حينما سمعوا القرآن ويقولون إنه لمجنون ، ويودون لو لاينهم ليلاينوه ، ويقولون إن ما يتلوه هو أساطير الأولين ؛ ومن آيات المزمل هذه التي تذكر المكذبين وتهددهم ، ومن آيات المدثر وغيرها وغيرها مما هو مجمع على نزوله مبكراً ، واحتوى حكاية مواقف الكفار وجدلهم وتكذيبهم . والوجه الحق فيما نرى هو أن الدعوة بدأت علنية وجهاراً ، وكل ما يمكن أن يكون مما تلهم آية المزمل (١٠) هذه أن النبي تجنب ـ بتلقينها وبإملاء الظروف ـ المعاندين والطغاة مؤقتاً مع عدم قطع الحبل ومجانبة الشدّة في خطابهم ، وأنه قصر دعوته مؤقتاً على من كان يتوسم فيهم الخير والاستجابة ، ولا يرى فيهم الغلظة والقسوة والعنف في الصد والتكذيب ، كما أن من الممكن أن يكون قد تجنب إقامة الصلاة جماعة وتلاوة القرآن جهراً على ملأ من الناس ، وفي فناء الكعبة خاصة رعاية لأصحابه الضعفاء ، وأن يكون قد اتخذ دار الأرقم مكان اجتماع وصلاة خاصاً ؛ وقد وصفنا المكان بالمنعزل لا بأنه سري ؛ لأننا لا نرى من المعقول أن يكون مكان الاجتماع والصلاة هذا سريا في بلد كمكة في ذلك العهد ، وقد كان يؤمه عدد مهما قل فإنه يبلغ العشرات ، وكان مركز اجتماع شخص أثار دهشة الزعماء والجمهور وبعث في نفوسهم الحيرة والاضطراب ـ مع أصحابه الذين تابعوه . وإذا كان قد تسنى لهم الاستمرار في أمرهم مدة غير قصيرة ـ ثلاث سنوات مثلا ـ فالراجح أن هذا عائد إلى أنه فكرة مطاردة النبي صلى الله عليه وسلم

ومنع حريته بالقوة لم تكن مما اتفق عليه الزعماء ، فلما اعتزلهم وتحفظ فى دعوته وصلاته واجتماعاته لم يكن منهم إلا مجاراة الحالة والسكوت عليها .

— ٦ —

ومن الآيات التى أعقبت مطلع سورة المدثر الآيات التالية :

« ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً . وَجَعَلْتُ لَهُ مالًا مَمْدُوداً . وَبَنِينَ شُهُوداً . وَمَهَّدتُ لَهُ تَمْهِيداً . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً . سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً . إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ...

١١ - ٢٥

وقد احتوت الآيات مشهداً آخر من مشاهد المكذبين ومواقفهم ، اختلفت فيه الصورة شكلا عن سابقتها مع اتفاقهما فى المدى . وما دامت الآيات من تتمة لسورة مطلعها من أوليات القرآن ؛ فقد صح أن يقال إن المشهد من المشاهد المبكرة أيضاً وأنه أثر من آثار الخطوات الأولى للدعوة فى الذين اتصل بهم النبى صلى الله عليه وسلم ودعاهم وتلا عليهم القرآن ؛ وروح الآيات تلهم هذا ، كما يساعد على ترجيحه تقارب الصور والمشاهد المكية فى السور السابقة .

والصورة كما هى واضحة ، صورة غنى ذى بنين وجاه اتصل به النبى ودعاه وتلا عليه القرآن ؛ فكان منه الموقف الذى وصفته الآيات أقوى وصف منددة مقرعة ، والذى انتهى به إلى القول بأن ما سمعه هو قول بشر لا وحى ربانى ، وأن ما يبشر به النبى صلى الله عليه وسلم ليس إلا من نوع السحر المأثور الذى يخيل للمرء ما لا حقيقة له .

وفى أواخر السورة جاءت الآيات التالية :

« فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ . كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ . فَرَّتْ

مِن قَسْوَرَةٍ . بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُم أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ...

٤٩ - ٥٢

فاحتوت صورة طريفة وقوية لمواقف الجاحدين من الدعوة النبوية وأثرها فيهم ، فهم معرضون عن سماع الإنذار والدعوة إعراضاً كأنما يرون فيهما خطراً ، وهم فى هذا أشبه بقطيع من الحمر الوحشية رأت سبعاً فامتلأت فزعاً وفرت لا تلوى على شىء . . . وقد احتوت الآية الأخيرة صورة أخرى فيها تحد تعجيزى للجاحدين إذ كانوا يقولون إنا لا نصدق مالم تنزل على كل منا صحف مكتوبة من السماء مؤيدة له ؛ وقد تكررت حكاية هذا التحدى أكثر من مرة مما يدل على أنه كان يتكرر من الجاحدين حيناً بعد حين .

- ٧ -

ومن السور المجمع على تبكيرها بالنزول سورة المسد ؛ وقد جاءت الخامسة فى أكثر التراتيب ؛ وإذا كنا استبعدنا هذا فى الفصل السابق - مبحث أوليات الوحى - فلسنا نستبعد أن تكون من السور المبكرة جدا ، وكل ماعنيناه أن يكون قد نزل قبلها وقبل بواقى السور الأربع الأولى سور عدة فى الدعوة وأهدافها . وهناك روايات معقولة تجعل احتمال نزولها مبكرة جدا ، مرجحاً .

ونص السورة هو هذا :

« تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . ما أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ . وامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . فى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ »

ويكاد يكون من المجمع عليه أن أبا لهب هو عم النبى صلى الله عليه وسلم وأن اسمه هو « عبد العزى » ، وأن امرأته هى أم جميل أخت أبى سفيان الزعيم الأموى المشهور . ولسنا ندرى هل الكنية قرآنية إسلامية على سبيل التحقير ؟ أم أنها سابقة للسورة أو سابقة للبعثة ولقب نبزى ، وإن كنا نرجح الأمر الأول .

ومما يروى أن أبا لهب كان يمشى وراء النبى صلى الله عليه وسلم فكلما حدّث النبى أحداً أتى إليه فقال له : لا تصدقه فإن فيه مسا ، أي جنوناً ، وأن أم جميل كانت تضع

الأقذار فى طريق النبى وأمام بيته الذى كان مجاوراً لبيت عمه ، وأنها كانت تشيع عنه الإشاعات المثيرة . وقد ذكرنا فى مبحث أثر الوحى فى نفس النبى صلى الله عليه وسلم أنها أبدت شماتتها حينما علمت بخبر فتور الوحى وأخذت تقول هازئة إن ربه قد قلاه .

وآيات السورة شديدة قاصمة ، ولابد أن يكون أبو لهب وامرأته قد استحقا بعمل أو موقف ما هذه اللعنة القرآنية الخالدة التى لم تسجل فيه لأحد بعينه دونهما .

ومن الغريب أن أكثر الرواة والمفسرين ، بل نكاد نقول جميعهم ، رووا وقالوا إن هذه السورة نزلت بمناسبة قول أبى لهب للنبى صلى الله عليه وسلم « تبًّا لك ! ألهذا دعوتنا ؟ » وذلك حينما نزلت آية الشعراء « وأنذر عشيرتك الأقربين » وجمع النبى بنى هاشم ودعاهم وأنذرهم على ما سوف نذكره بعد ؛ هذا مع أن هذه الآية من سورة غير مبكرة ، وقد قال الرواة : إنها نزلت بعد ثلاث سنين من البعثة ، ومع أنهم قالوا إن سورة المسد من أبكر ما نزل من القرآن ، ومع أن ذلك القول معزو إلى أبى لهب والسورة قد جمعت امرأته معه ؛ وهذا ما يجعلنا نتوقف فى الرواية المشهورة عن سبب نزول السورة .

ولقد ذكرت الروايات أن الصلات بين النبى صلى الله عليه وسلم وعمه قبل البعثة كانت حسنة ، وأن بيتيهما كانا متجاورين ، وأن ابنتى النبى كانتا مخطوبتين لابنى عمه هذا ، وأن أبا لهب وامرأته قد حملا ولديهما على فسخ الخطبة بعد قيام النبى بدعوته ؛ فالذى يرد على البال وينسجم مع تبكير نزول السورة ومضمونها ومع هذه الروايات هو أن النبى صلى الله عليه وسلم اتصل بعمه فى أول من اتصل بهم بعد نبوته ، ودعاه وأهله فى أول من دعا ؛ بل لعله كان أول من اتصل به ودعاه بعد السيدة خديجة ، فهو عمه وجار بيته وصهره ، ولعله كان يكثر من التردد عليه وقد انعقدت بينهما مودة وعدم كلفة ، ومن المعقول أن يفاتحه قبل كل إنسان من غير أهل بيته وأن يفضى إليه بأمره وأن يطلب منه التصديق والتأييد وهو واثق كل الثقة بمقابلته بالحسنى والإجابة والاستبشار ، وبأنه واجد فيه العضد القوى والسند المتين ، لاسيما أنه كان طائل الثروة كما تصفه السورة ؛ ولكنه لم يلبث أن خاب أمله فقوبل أسوأ مقابلة ، وكان من عمه وامرأته أشد موقف من الأذى والعناد والتعطيل وقطيعة الرحم ؛ وعمومة أبى لهب للنبى صلى الله عليه وسلم مما تزيد فى أثر موقفه منه سوءاً وشدة : فموقف العم أشد من موقف الغريب البعيد فى نفس النبى ، وتأثيره فى سير الدعوة وعرقلتها أقوى

من موقف الغريب البعيد كذلك فى الناس لأنه يقوى حجتهم إذا هم انصرفوا عن إجابة الدعوة ووقفوا منها موقف المناوأة والعناد .

ونعت امرأة أبى لهب بحمالة الحطب تلهم ـ عندنا ـ أنها كانت تزيد نار المعارضة لهيباً ، ولعل هذا يعنى أنها كانت تنفخ روح العداوة فى زوجها كلما رأت منه جنوحاً إلى التروى والفتور ، بسبب ما كان يربطه بالنبى صلى الله عليه وسلم من روابط العصبية وتقاليدها ، وليس بعيداً أن يكون تأثيرها عاملا فى شذوذ هذا العم عن سائر أفراد عشيرة النبى صلى الله عليه وسلم الأقربين الذين كانوا ينصرونه ويحمونه اندفاعاً بقوة العصبية بالرغم من أن أكثرهم أو بالأحرى جلهم لم يكونوا قد استجابوا إلى دعوته ، بل ظلوا كذلك أمداً طويلا . وإذا صحت رواية أن أم جميل هى أخت أبى سفيان ـ ولم يرد مايشكك فى ذلك فيما اطلعنا عليه ـ فلا يبعد أن يكون موقفها متأثراً بموقف أخيها الذى كان من أبرز الزعماء وذوى الشأن فى قريش ، والذى كان لعائلته المكانة البارزة ، وظل يناوئ الدعوة طيلة العهد المكى وأكثر العهد المدنى ، أى إلى فتح مكة ، مناوأة عنيفة ، ويقود أحياناً ويجهز أحيانا الجيوش التى كانت تشتبك مع المسلمين أو تغزو المدينة دار الهجرة النبوية .

وبناء على هذا التوجه الذى نرجو أن يكون وجيهاً يصح أن يقال إن سورة المسد تنطوى على الأشارة إلى مشهد من مشاهد الخطوات المبكرة الأولى ، وإلى موقف أليم شديد غير منتظر من مواقفها وكان له أثر عظيم فى سيرها .

— ٨ —

وسورة التكوير هى كذلك من السور المجمع على تبكيرها فى النزول ؛ إذ كان ترتيبها السابعة فى رواية والسادسة فى أخرى . ونقول هنا ما قلناه فى سورة المسد آنفاً ، فإن ترجيحنا نزول سور أخرى قبلها لا يعنى عدم نزولها مبكرة ؛ على أن مضمونها يلهم بقوة أنها نزلت مبكرة جدا .

والسورة احتوت موضوعين مختلفين بعض الاختلاف : الأول الإنذار باليوم الآخر ومشاهده . والثانى وحى الله وملك الوحى وتوكيد رؤية النبى له وإلقائه القرآن إليه . وهذه هى آيات الموضوع الأول منهما ، أما آيات الموضوع الثانى فقد أوردناها فى

مبحث الوحى وأولياته من الفصل الأول :

« إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ . وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ . وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ . وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ . وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ . وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ . بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ . وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ . وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ . وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ . وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ . عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ...

١ - ١٤

وآيات الموضوع الأول إنذار عام لا عنف فيه ، وهذه الصفة التى رجحناها للأوليات القرآنية ؛ وآيات الموضوع الثانى هى التى تتصل بالبحث الذى نحن فى صدده ، وتلهم أن النبى صلى الله عليه وسلم حينما أخذ يخطو خطواته الأولى فى سبيل الدعوة ، ويروى قصة رؤيته ملك الله ، ويؤكد تلقيه القرآن عنه ، قوبل بالشك والارتياب ممن اتصل بهم ودعاهم وذكر لهم أمره ، وأن بعضهم ظن أن الذى رآه واتصل به وألقى إليه هو شيطان من الجن على ما كان العرب يعتقدون باتصال شياطين الجن بالسحرة والكهان والشعراء وبصعودهم إلى السماء واستراق السمع منها على ما ذكرناه فى كتابنا الآنف الذكر ؛ فنزلت الآيات تؤكد صحة ما أخبر به ورواه بهذا الاسلوب القوى النافذ . أما تعبير « وما صاحبكم بمجنون » فالذى تلهمه الآيات أنه تدعيم للتوكيد ، وتنبيه للقائلين إلى حقيقة مايعرفونه عن النبى عليه السلام ورجاحة عقله .

واجتماع آيات الموضوعين فى سورة قصيرة ، وما يلهمه طابع آيات الموضوع الأول من كونها من أوليات القرآن نزولا ؛ يدل على تبكير حدوث هذا المشهد ، لاسيما أن آيات الموضوع الثانى تلهم أنها فى صدد موقف الجاحدين من أخبار النبى صلى الله عليه وسلم أنه رأى ملك الله فى الأفق ، وهى الرؤية التى كانت عقب اتصال الوحى به فى غار حراء لأول مرة . والجديد فى المشهد هو ما تلهم الآيات من ظن السامعين أن الذى اتصل بالنبى شيطان ، فى حين أن الصور السابقة تضمنت قولهم : إن القرآن قول بشر ، وإنه أساطير الأولين ، وإنه من نوع السحر وآثاره المأثورة ، وأشارت إلى تكذيبهم ومخادعتهم وتأليبهم ونهيهم النبى عن الصلاة والدعوة .

— ٩ —

والسور التي استعرضنا بعض آياتها وإن كانت على الأغلب في صدد حكاية مواقف الجاحدين والمكذبين ـ يتضمن بعضها ذكرا للمؤمنين والمتقين والمسلمين وأصحاب اليمين ؛ كما ترى في الآيات التالية منها :

١ ـ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ النَّعِيمِ . أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ... القلم ٣٤ - ٣٦

٢ ـ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَٰبَ النَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَٰفِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ... المدثر ٣١

٣ ـ إِلَّا أَصْحَٰبَ الْيَمِينِ . فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ الْمُجْرِمِينَ . مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ... المدثر ٣٩ - ٤٢

وهذا يعني كما هو المتبادر أن الدعوة في هذا الدور لم تقابل بالصد البات الشامل . بل إنها استجيبت وآمن بها أناس ، وقام إلى جانب النبي صلى الله عليه وسلم طبقة من المؤمنين مقابل ما قام في وجهه من طبقة الكافرين ، وإن كان يعني أن الطبقة الثانية هي الأكثر والأقوى ، إذ شغل الحديث عنها جل آيات السور في حين لم يرد عن الأولى إلا إشارات استطرادية كالتي مر نقلها . على أنه يصح ان يدخل في نطاق الاشارات أيضاً آيات أخرى في سور مبكرة جدا في التنزل، مثل :

١ ـ يَٰٓأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فَادْخُلِي فِي عِبَٰدِي . وَادْخُلِي جَنَّتِي ... الفجر ٢٧ - ٣٠

٢ ـ وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ... سورة العصر

٣ – آيات سورة الليل ٥ - ٢١ التى نقلناها فى مناسبة قريبة سابقة .

ومهما يكن من أمر فإن هذا مؤيد بما روته الروايات اليقينية من إيمان فريق من الناس فى دور الخطوات الأولى ، فيهم طبقة من بيوتات قريش المعروفة أمثال أبى بكر وعثمان وسعد وسعيد وطلحة والزبير وأبى عبيدة وعبد الرحمن وأبى سلمة بالإضافة إلى خديجة وعلىّ وجعفر ابنى عمه وزيد متبناه ، وفاطمة بنت الخطاب وعبد الله بن مسعود ، وبالإضافة إلى بعض الكتابيين أمثال سلمان وصهيب ، والأرقاء أمثال ياسر وزوجته وابنه عمار وبلال وغيرهم وغيرهم رضوان الله عليهم ، من السابقين الأولين الذين كان جلهم من عمد الإسلام فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم وبعده .

— ١٠ —

هذا ؛ ونرى فيما عرضناه من مشاهد هذا الدور كفاية، كما أن الدعوة بعدها خرجت من دور الخطوات الأولى أيضاً .

وإذا كان لنا أن نلخص مشاهد هذا الدور أو نرسم له صورة عامة فأننا نقول إنه من ناحية ما يصح أن يطلق عليه دور الأشخاص ؛ فأول من تصدى للنبى صلى الله عليه وسلم وحاول منعه من الصلاة والدعوة شخص معين ، كما أن آيات سورة القلم والمدثر والمسد قد حكت على الأكثر مواقف أشخاص ؛ هذا أولا ، وثانياً إن الأشخاص الذين حكت آيات هذه السور مواقفهم المضادة هم من ذوى الثروة والزعامة .

ويبدو من هذا وذاك ما يصح أن يكون طبيعيا من أن النبى قد بدأ اتصالاته بالأشخاص الذين توسم فيهم الإجابة بصورة عامة ، ومن ذوى الثروة والزعامة من هذه الطبقة بصورة خاصة ، على أمل أن يضمن النجاح فى ميدانهم ، النجاح فى الميادين العامة أو الجمهورية .

ومن الجدير بالذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يخب فى هذا الميدان وإن كان نجاحه فيه ضيق المدى ، حيث استجاب له بعض أبناء البيوتات الرفيعة ، وكان من بينهم من هو غنى كأبى بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهم ؛ ولقد ظل هذا

الضيق طابع العهد المكى بطوله ، حيث ظل أكثر الزعماء والأغنياء فى جانب المعارضة والجحود .

وطبيعى أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقتصر فى خطواته الأولى على الاتصال بذوى الزعامة والثراء . وروايات السيرة تذكر بدون خلاف أسماء كثيرة من أرقاء وفقراء وغير ذوى عصبية ، بل تذكر أن هذه الطبقة كانت أكثرية المسلمين الأولين ، أو بالأحرى أكثرية مسلمى العهد المكى ؛ غير أنه يلاحظ أن النبي قد صرف أكبر همه وجهده إلى تلك الطبقة على ذلك الأمل الذى أشرنا إليه . ولعل فى آيات سورة عبس الأولى ، والسورة من السور المبكرة فى النزول ، مايمكن أن يعد دليلا على هذا كما يبدو من نصها التالى :

« عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ . أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ . أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ . أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ . فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ . وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ . وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ . وَهُوَ يَخْشَىٰ . فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ...
١ - ١٠

هذا ؛ ونلفت النظر من ناحية ثانية إلى وصف آيات عبس : مجىء الأعمى ساعيا خاشيا راغبا فى الاستفادة والاسترشاد ، وما يمكن أن يلهم هذا الوصف من كون الرغبة الخالصة والإخلاص التام هما اللذين كانا يدفعان المسلمين الأولين الذين كانت تتألف أكثريتهم من الطبقة الثانية إلى الاستجابة للدعوة والانضواء إلى اللواء النبوى ؛ مما يدل على أن مبادئ الدعوة التى كانت تحتويها سور القرآن الأولى كانت تلقى إقبالا من هذه الطبقة بنوع خاص ، لأنها لم يكن لها مايجعلها تفكر فى الوقوف منها موقف المتحفظ أو المعارض أو الخائف على مركزه وثروته مما كان سبباً فى بقاء الإسلام فى نطاق ضيق . ولعل هذه الطبقة كانت مضطهدة من الزعماء والأغنياء فكان هذا من دوافع الإقبال على الدعوة الجديدة التى جاءت تبشر المنضوين إليها بالأمن والطمأنينة والحرية والخير والبركات فى الدنيا والآخرة . وفى هذا صورة من صور العهد المكى للمسلمين فى دوره الأول كما هو واضح .

ولقد احتوت سورتا الأنعام والكهف آيات فيها تأييد لهذا الوصف وشموله ، تدل

على أن هذه الطبقة كانت مطمئنة النفس بالدين الجديد مستغرقة فيه ، يدعو أفرادها ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه ، ويبتغون فضله ، ويرجون ثوابه ، ويخشون عقابه ، كما ترى فيها :

١ — وأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ ولا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ . ولا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَوٰةِ والْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّـٰلِمِينَ . وكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَـٰؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّـٰكِرِينَ ... الأنعام ٥١ - ٥٣

٢ — واصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَوٰةِ والْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ولا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ولا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا واتَّبَعَ هَوَاهُ وكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ... الكهف ٢٨

فالآيات احتوت تنويها بهذه الطبقة وتلقينا للنبي صلى الله عليه وسلم بوجوب الاهتمام لها وترضية نفسها وتطييب قلبها وعدم الاستماع للغائبين من الزعماء والأغنياء فيها . وهكذا تبدو طبيعة الدعوة الإسلامية منذ بدئها عظيمة رائعة فى حدبها على هذه الطبقة التى تتألف منها عادة أكثرية الجماهير وتحريرها ورفع مستواها . ولعل هذا التشجيع كان من أقوى الدوافع على التحاق من تمكن من التفلت من أفرادها بالدعوة .

على أن من الحق أن ننوه بانضواء الأغنياء والشرفاء من المسلمين الأولين إلى الراية النبوية فى خطوات الدعوة الأولى ؛ إذ ينطوى فيه أن فئة من المجتمع المكى القرشى الرفيع والغنى على قلتها تفلتت من تأثير التقاليد وانبثقت فيها الرغبة الخالصة والإخلاص التام ، فسارعت إلى الاستجابة للحق والاندماج فيه حين رأت أعلامه الباهرة ، وأنواره الساطعة ؛ ولم تبال شيئاً مما يمكن أن تتعرض له أو تصير إليه . ولعل هذه الصورة أقوى إشراقاً من أختها الأولى .

المبحث الثانى

موقف زعماء مكة من النبي عليه السلام وبواعثه

وصف موقف زعماء مكة وأثره فى عهد الدعوة المكى ـ بواعث موقف الزعماء ـ أثر ما كان للزعامة من دور فى عصر النبي وبيئته ـ أثر عصبية التقاليد فى المجتمع العربى ـ أثر خوف زعماء مكة على امتيازاتهم وامتيازات مكة وأمانتها ومنافعها ـ أثر البعث والحساب والحملة على الزعماء والأغنياء ـ أثر طبيعة النفس البشرية .

— ١ —

كان موقف زعماء مكة من النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته سلبيا ، بل وعدوانيا منذ الخطوات الأولى من العهد المكى كما رأينا فى المبحث السابق ، وظل الأمر كذلك باستثناءات قليلة طيلة هذا العهد . وقد كان لهذا الموقف أثر كبير ، بل نكاد نقول كل الأثر فى بقاء الإسلام ضعيفاً فى نطاقه وعدده وقوته وفيما لاقاه النبي والمسلمون من صعوبات ومشاق وأذى طيلة العهد الذى استمر ثلاثة عشر عاماً على أرجح الأقوال . ومما هو بسبيل تأييد صورة الإسلام والمسلمين هذه تذكر آية الأنفال المدنية المسلمين بما كانوا عليه إلى نهاية العهد كما ترى فيها :

« واذْكُرُوا إذْ أَنتُمْ قليلٌ مُّستَضعفُونَ فى الأَرْضِ تخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَكُمْ وأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ ورَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ... ٢٦

وجميع صور السيرة النبوية لهذا العهد وأحداثها ـ وخاصة بالنسبة للعرب غير الكتابيين ـ تكاد تكون متصلة بهذا الموقف أو متفرعة عنه . ويمثل هذا الموقف بصورة عامة آيات كثيرة من أصرحها وأهمها هذه الآيات :

١ — وبَرَزُوا لِلهِ جَمِيعًا فقَالَ الضُّعَفَٰؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِن شَىْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ

لَهَدَيْنَـٰكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ...

إبراهيم ٢١

٢ — وإذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ . لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ...

النحل ٢٤ - ٢٥

٣ — يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وأَطَعْنَا الرَّسُولَا . وقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ... (١)

الأحزاب ٦٦ - ٦٧

٤ — وقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا الْقُرْءَانِ ولا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ولَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ . وقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الَّيْلِ والنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وجَعَلْنَا الْأَغْلَـٰلَ فِى أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وما أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ . وقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وأَوْلَـٰدًا وما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ...

سبأ ٣١ - ٣٥

---

(١) هاتان الآيتان مدنيتان ، ولكنهما حكاية حال جمهور الكفار الذين يدخل كفار مكة فى شمولهم إن لم يكونوا هم المقصودون بالذات ، على سبيل التنديد والعظة .

٥ — وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفوا للذين استكبروا إنا كنا
لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ... غافر ٤٧

- ٢ -

ويبدو من إلهام الآيات القرآنية حيناً ومضامينها حيناً آخر، أن هذا الموقف قد نشأ عن أسباب أصلية، ثم امتزجت بأسباب أخرى متصلة بطبيعة الدعوة الإسلامية من جهة ونتيجة للتشاد الذى كان بين الزعماء والنبى صلى الله عليه وسلم وما كان من حملات متقابلة بسبيله من جهة أخرى، وسعت الهوة، وجعلت أكثر الزعماء يركبون رءوسهم، ويعاندون فى موقفهم عناداً لا هوادة فيه، ويكابرون فى المنطق والحقيقة، ويتآمرون استكباراً وكيداً وانسياقاً بدافع الغرض والهوى واللجاج، كما يبدو من الآيات الآتية:

١ — وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شيطين الإنس والجن يوحى
بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ... الأنعام ١١٢

٢ — وإذا تتلى عليهم ءايتنا بينت تعرف فى وجوه الذين كفروا
المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم ءايتنا ... الحج ٧٢

٣ — ولقد صرفنا فى هذا القرءان للناس من كل مثل وكان الإنسن
أكثر شىء جدلا . وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى
ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا .
وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجدل الذين كفروا بالبطل
ليدحضوا به الحق واتخذوا ءايتى وما أنذروا هزوا ...
الكهف ٥٤ - ٥٦

٤ — وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا
ونصيرا ... الفرقان ٣١

٥ - أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا . أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ...

الفرقان ٤٣ - ٤٤

٦ - وأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا . اسْتِكْبَارًا فِى الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ...

فاطر ٤٢ - ٤٣

٧ - وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ...

يس ١٠

٨ - وعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُّنْذِرٌ مِّنْهُمْ وقَالَ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِداً إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ . وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَٰقٌ . أَءُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ..

ص ٤ - ٨

٩ - وقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ...

الزخرف ٣١

- ٣ -

ولعل من أهم الأسباب الأصلية ما كان للزعامة من دور خطير فى المجتمع العربى على ما نبهنا عليه فى كتابنا عصر النبى صلى الله عليه وسلم وبيئته ؛ حيث كان الزعماء وخاصة الزعماء الأغنياء - وكثيراً ما كان التلازم بين الغنى والزعامة فى هذا المجتمع - يتمتعون بنفوذ السيادة : يأمرون فيطاعون ، ويدعون فيستجابون ، ويسنون فيتبعون ، وتكون لهم الكلمة الفاصلة فى المشاكل والقضايا ؛ فلما أخذ النبى صلى الله عليه وسلم

يدعو بدعوته ، ويبلغ عن ربه ، ولم يكن بعد قد تجاوز سنّ الشباب كثيراً ، كما لم يكن بارزاً فى مجال الزعامة ، بغتوا وعظم عليهم أن يكون هذا داعية يستجاب ، ومرشداً يهتدى به الناس ، ولواء ينضوون إليه دونهم ، وقد أريد أن يكونوا هم أنفسهم من المدعوين المستجيبين المنضوين إلى هذا اللواء أسوة بسائر الناس ؛ فاستنكروا الأمر واستكبروا وقالوا إنه لو كان حقاً لكانوا هم المنتدبين للدعوة ، والمكلفين بالمهمة ؛ لأن الناس إنما يستجيبون إليهم ، وتساءلوا كيف ينزل عليه الذكر من بينهم كما جاء فى آيات ص والزخرف وفاطر ؟ وقالوا إننا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله كما جاء فى آية الأنعام ١٢٣ التى نقلناها فى بحث سابق ، وهزءوا بالنبى صلى الله عليه وسلم كما جاء فى آيتى الأنبياء والفرقان التاليتين :

١ — وَإِذَا رَءَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ... الأنبياء ٣٦

٢ — وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ... الفرقان ٤١

ويمكن أن يدخل فى هذه الأسباب من ناحية ويمتزج بطبيعة الدعوة الإسلامية من ناحية أخرى، ما كان من قوة رسوخ عصبية التقاليد فى المجتمع العربى على ما شرحناه فى كتابنا الآنف الذكر ، وما استهدفته الدعوة من هدم كثير من تقاليد العرب الأصلية والفرعية أو تعديلها ، كالشرك على أنواعه ، والاستشفاع بالملائكة وعقيدة كونهم بنات الله ، وما شاب الشرك من وثنية مادية ، وكالعصبية الاجتماعية الضيقة وما كانت تتشدد فيه من حزبيات عائلية وقبلية ، وتنجرّ إليه من إسراف فى الدماء والترات ، وشؤون اليتامى والمرأة والرقيق، والتحريم والتحليل فى الأطعمة والأنعام، إلى آخر ما فصلناه فى كتابنا المذكور ، إذ كانت هذه الأهداف مما احتوته السور والفصول القرآنية الأولى ثم استمرت بدون انقطاع ولا تراخ إلى آخر العهد ، كما يتضح ذلك من تلاوة السور على حسب تنزيلها ، مما لا نرى حاجة إلى التمثيل له لانبثاثه فى أكثر السور ، فكان ذلك كله نقاط اصطدام وتشادّ ، وبواعث مناوأة ومعارضة للدعوة النبوية منذ أول عهدها . وظلت كذلك إلى نهاية العهد . ويمثل هذه المواقف منهم

بوجه عام آيات عدة وردت فى سور مبكرة ومتوسطة ومتأخرة فى النزول ، مما يدل على تبكير المواقف واستمرارها ، نذكر منها الأمثلة الآتية :

١ — سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ... الأنعام ١٤٨

٢ — وَإِذَا فَعَلُوا فَـٰحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ... الأعراف ٢٨

٣ — وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ... النحل ٣٥

٤ — وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ... لقمان ٢١

٥ — وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا مَا هَـٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُكُمْ ... سبأ ٤٣

٦ — آيات سورة ص ٤ - ٨ التى نقلناها منذ قليل .

وهذه العصبية - وإن كانت عامة يستوى فيها الزعماء وغيرهم - كان الزعماء أحرص على الاستمساك بها والدفاع عنها كما تلهم الآيات التالية :

« بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ . وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ..

الزخرف ٢٢ - ٢٣

وفى آيات سورة ص ٤ - ٨ مثل هذا الإلهام ؛ إذ حكت تحريض الشرفاء « الملأ » لسائر الناس على الاستمساك بما هم عليه ؛ وهذا بالإضافة إلى الآيات الأخرى التي حكت استمساك الكفار بما كان عليه الآباء والدفاع عنه ، إنما يحكى فى الحقيقة

أقوال الزعماء ، لأنهم هم الذين كانوا يجادلون النبي صلى الله عليه وسلم ويشادّونه ؛ وحرص الزعماء على الاستمساك بالتقاليد والدفاع عنها أكثر من غيرهم متسق مع طبائع الأشياء ، لأن كيانهم مستمد من ذلك . وخاصة في مجتمع كالمجتمع العربي في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم وعصره .

— ٤ —

ولعل من أهم الأسباب التي نشأت من طبيعة الدعوة الإسلامية والتي تتصل بالتقاليد القائمة ، خوف الزعامة القرشية وأغنياء مكة معاً على ما كان لهم ولمكة من مركز ومنافع أدبية ومادية عظيمة بسبب وجود بيت الله في مكة وسدانتهم له ؛ فقد كان هذا البيت مثابة وأمناً لجميع العرب على اختلاف أديانهم وقبائلهم ، يؤمّونه من كل فج وصوب ، ويقيمون حوله أسواقهم . كما كانوا يعتبرون قريشاً إماماً لهم في الأمور الدينية والدنيوية ؛ وكانت هذه الإمامة تحفظ لهؤلاء عزة الجانب ووفرة الحرمة على ما فصلنا في كتابنا المذكور آنفاً ؛ وكان ذلك الخوف ناشئاً من أن نجاح الدعوة الجديدة سيكون سبباً لانصراف الناس عن مكة والحج ، أو تجهم العرب لمكة وأهلها ، كما تلهم آية القصص التالية :

« وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ... ٥٧

ولم تبعث الفقرة الثانية في نفسهم الطمأنينة على ما يبدو ، فظلوا يرون في هذه الدعوة تهديداً لذلك المركز العظيم والمنافع الكبرى ، ويتشددون في معارضتها ومناوأتها .

ويمكن أن يدخل في الأسباب الناشئة عن طبيعة الدعوة الإسلامية ما أثاره فيهم الإنذار بالبعث والقيامة والوصف المسهب للحياة الأخروية الوارد في القرآن من عجب واستغراب ؛ لاسيما أن هذا لم يكن مما هو معروف بهذه الصراحة والإسهاب عند الأمم الكتابية التي كان لها أثر كبير في أفكار العرب ومعارفهم . ولعل هذا الموضوع من أهم مواضيع القرآن المكي الوسائلية والتدعيمية ومن أكثرها خيراً وسعة فيه ؛

وتوكيداً وجدلا وتكذيباً ورداً وبرهنة وعظة وإنذاراً وتبشيراً ووعداً ووعيداً حوله، حتى لا تكاد تخلو سورة من سوره منه، مما يدل من دون ريب على أنه كان من أهم المواضع التي ثار حولها الجدل واللجاج والتشاد بين النبي صلى الله عليه وسلم والعرب. ولقد حكى القرآن كثيراً مواقف العرب منه وأقوالهم فيه بأساليب متنوعة تدل على أن موقفهم منه كان موقف المستنكر حيناً والمدهوش حيناً والمكذب حيناً والمستهزئ حيناً والمتحدي حيناً، منذ البدء إلى النهاية. ولا نرى حاجة إلى التمثيل لأن الآيات في ذلك كثيرة جداً ومبثوثة في جل السور المكية؛ وقد يكون أثر هذا عاماً في الزعماء وغيرهم؛ غير أن الآيات إنما كانت تمثل جدل المجادلين الذين هم الزعماء والنابهين، وبالتالي فإن هؤلاء هم الذين تصدوا لتكذيب اليوم الآخر ووقفوا من الإنذار به تلك المواقف في الدرجة الأولى.

ولعله مما يتصل بهذا أن يكون ما احتواه القرآن من نعي على الأغنياء والأقوياء والزعماء لكثرة تفاخرهم وتكاثرهم بالأموال والأولاد والأنصار والأحساب، ومن إنذاره بأن هذا كله لن يجديهم في الآخرة نفعاً وأنهم محشورون إلى ربهم فيها مجردين عنه جميعه وليس معهم إلا عملهم كسائر الناس بدون أي فرق، مما كان يثير في هذه الطبقة قوة المناوءة والعناد والصد استكباراً من جهة، ولئلا يؤثر في سائر الطبقات فتفلت من يدها قيادتها من جهة أخرى؛ وإليك بعض الآيات في هذا الصدد:

١ — وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ. وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ... الأنعام ٩٣ - ٩٤

٢ — وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ

كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا . الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَالْبَٰقِيَٰتُ
الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ... الكهف ٤٥ - ٤٦

٣ — فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ . فَمَن
ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُ فَأُولَٰئِكَ
الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ... المؤمنون ١٠١-١٠٣

٤ — وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ . قُلْ إِنَّ
رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .
وَمَا أَمْوَٰلُكُمْ وَلَا أَوْلَٰدُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ
صَٰلِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ .
وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ...
سبأ ٣٥ - ٣٨

٥ — وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ . الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ . يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ
أَخْلَدَهُ . كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ . نَارُ اللَّهِ
الْمُوقَدَةُ . الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ . إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ . فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ،
الهمزة

ولعل مما تكرر فى القرآن من فصول المحاجة بين الزعماء والضعفاء فى النار – مما أوردناه فى الفقرة الأولى من هذا المبحث – ما أثار قوة العناد والصد فى طبقة الزعماء أيضاً ؛ فما يصح أن يقال إن هذه الآيات قد استهدفت فيما استهدفته تنبيه السواد إلى أن اتباعهم الزعماء والكبراء فى الكفر والتكذيب لن يغنى عنهم يوم القيامة شيئاً مهما اعتذروا واحتجوا ، وأن الزعماء سيكونون فى حالة عجز تام عن نصر أنفسهم فضلا عن نصرهم ؛ وفى هذا إثارة للسواد على الزعماء وتحريض على عصيانهم فيما يأمرونهم به من عدم الاستجابة إلى الدعوة ، كما فيه تهوين لشأنهم كما هو واضح .

وفى سورة البقرة آيتان يتمثل فيهما هذا المعنى قويا نوردهما ولو أنهما مدنيتان لاتصالهما بالموضوع :

« إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ...
١٦٦ - ١٦٧

- ٥ -

وقد كانت طبيعة النبي البشرية من أسباب هذا الموقف أيضاً ؛ وهذا متصل بأسباب طبيعة الدعوة الإسلامية كما هو واضح ؛ فقد تمنى العرب أو بالأحرى نابهوهم بعثة نبيّ فيهم حقا ، ولكنهم كانوا يتخيلون أن النبي لا بد أن يكون ذا قوى خارقة يفترق بها عن طبائع البشر ، ويستطيع أن يفعل بها ما لا يفعله سائر الناس من خوارق العادات والمشاهد ؛ ولعل ما كان يبلغهم عن الأنبياء ومعجزاتهم الخارقة وظروف نشأتهم وحياتهم مما كان يقوى صحة هذا التخيل فيهم ؛ فلما رأوا النبي مثلهم ومنهم ، يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، ويتعرض لكل ما يتعرض له الناس بطباعهم البشرية ، وسمعوه يعلن بلسان القرآن أنه لا يعلم الغيب ، وأنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرا إلا ما شاء الله ، وأنه ليس إلا بشراً مثلهم ، وليس هو من جنس آخر أو ملكاً ، وأنه يتبع ما أوحاه الله إليه ويقف عنده كما جاء فى آيات عدة أوردناها فى فصل الكتاب الأول - جحدوا دعوى نبوّته ، وكذبوا صلته بالله وملكه ، وقالوا إن من يتصل به شيطان ، ونعتوه بالمجنون حيناً والشاعر حيناً والساحر حيناً والكاهن حيناً والكاذب المفترى حيناً والمتعلم المقتبس من الغير حيناً ، وظلوا يكررون هذا فى مختلف أدوار العهد المكى ، كما يفهم من الآيات العدة التى أوردنا كثيراً منها فى الفصل الأول أيضاً .

والآيات وإن كان أكثرها يحكى حكاية مواقف الكفار عامة بحيث يصح أن

يقال إنه استوى فيها الزعماء وغير الزعماء - يتبادر منها إلى الذهن أن الزعماء هم الذين كانوا يتولون كبر المشادة والجدل ، وبالتالى أن المواقف هى مواقفهم فى الدرجة الأولى ، وأنهم قد اتخذوا طبيعة النبي البشرية وسيلة لصدّ السواد عن دعوته كما كانت عاملا من عوامل جحودهم بالذات ؛ وفى آية فى سورة الأنبياء يبدو هذا واضحاً جليا كما ترى فيها :

« لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَـٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ... ٣

إذ تصف جحود الزعماء أنفسهم وتحكى قولهم للسواد : إن النبي ليس إلا بشراً وإنّ ماجاء به ليس إلا سحراً .

المبحث الثالث

مشاهد وصور متنوعة بين النبيّ والزعماء

بين الشدة والاعتدال

غرض هذا المبحث - إفراد مشاهد التحدى والأذى بمبحثين خاصين - المشاهد والصور هي مشاهد وصور الإعراء في الدرجة الأولى - الصور والمشاهد العنيفة الاشارة إلى مشاهد وسور العلق والقلم والمدثر والمسد التى أوردناها فى مبحث الخطوات الأولى - مشاهد من سور الهمزة - القمر - ص - يس - الفرقان - الأنعام - الصافات - لقمان - سبأ - الزمر - الزخرف - الجاثية - النحل - إبراهيم الأنبياء - المؤمنون - الروم - العنكبوت - الحج - الأنفال - العداء الخاص الذى تشبع به بعض زعماء الكفار للنبى وأثره - الصور والمشاهد التى تنم عن اعتدال أصحابها: مشاهد من سور القلم - التكوير - الكافرون - الفرقان - القصص - الاسراء - يونس - الأنعام - الزخرف - الكهف - تناقض هذه المشاهد بعد الثلث الثانى من العهد المكى وسببه - مواقف ومشاهد عامة متنوعة أخرى من سور النجم - والصافات - الأعراف - لقمان - المؤمنون - النمل - فاطر - الأنعام - يونس - فصل طويل فى سورة الأنعام عن مشهد حجاجي فى صدد تقاليد العرب فى المحرمات - لفت نظر إلى التشابه بين القصص القرآنية وآيات وفصول المواقف والمشاهد بين النبى والكفار فى مكة ومداه.

— ١ —

قلنا فى التمهيد لهذا القسم إن فى القرآن صوراً متنوعة ومتقابلة تتراوح بين الشدة والاعتدال، وردت فى ظروف متقاربة ومختلف أدوار العهد المكى. ونريد الآن أن نستعرض الآيات التى تتضمن هذه الصور، إذ تساعد على فهم سير أدوار وأحداث السيرة النبوية فى هذا العهد.

وننبه إلى أن هناك صوراً عدة لمشاهد التحدى، وأخرى لمشاهد محنة الأذى والفتنة ونتائجها، رأينا أن نفرد لها مبحثين خاصين نظراً لخطورة شأنها وبعد مداها فى السيرة والدعوة، ولو كانت فى الحقيقة مما يدخل فى نطاق مشاهد وصور الجدل والمماراة والمكابرة والعنف والشدة.

ولقد رأينا فى المبحث السابق أن الزعماء كانوا هم الطرف الرئيسى المقابل فى مواقف

العهد المكى - وأنهم كانوا المتولين كبر الصد وقيادة حملة المقاومة والمعارضة والتكذيب والجدل. وسنرى فى الصور التى سنستعرض آياتها مصداق ذلك بارزاً؛ إذ هى فى الحقيقة صور ومشاهد ومواقف الزعماء؛ سواء منها العنيفة والمعتدلة؛ إذ كان منهم العنيف البذىء القاسى الذى تبرز فيه صفات الكبر والأنانية والشدة والمكابرة، وكان منهم الهادئ المعتدل الذى يجنح إلى الجدل والحجاج المعتدل والذى يبدو أن تمسكه بكفره ناتج عن غفلة أو عصبية أو حياء أو خشية عدوان وفوات منفعة ... الخ.

- ٢ -

وفيما يلى صور للمشاهد والمواقف العنيفة. ونلفت النظر إلى أننا رتبنا الصور على حسب ترتيب السور فى النزول، حتى يرى القارئ أن المواقف كانت تحدث فى مختلف أدوار العهد المكى منذ العهد الباكر إلى النهاية، كذلك ننبه إلى أننا أوردنا الآيات التى تبرز فيها الصور بقوة ووضوح، وإلى أن فى القرآن آيات كثيرة أخرى تمت إلى هذا الباب لم نوردها اكتفاء بما أوردناه.

(١) أوردنا فى مبحث الخطوات الأولى آيات العلق ٦ - ١٩ والقلم ١٠ - ١٦ والمدثر ١١ - ١٩ و ٤٩ - ٥٢ وسورة المسد وشرحنا ملهماتها؛ وفيها أبكر صور عنيفة لمواقف بعض الزعماء، وأبكر حملات عنيفة قرآنية مقابلة لها. لذلك رأينا أن نشير إليها هنا لتكون الحلقات الأولى فى سلسلة هذا البحث.

(٢) إن سورة الهمزة التى أوردنا نصها فى المبحث السابق تتضمن حملة شديدة على الذين اعتادوا غمز الناس وعيبهم من الأغنياء؛ والراجح أنها نزلت بمناسبة مواقف مماثلة بدت من أشخاص من أغنياء الكفار؛ ولعلهم كانوا يلمزون النبى والمسلمين الأولين الذين كانت أكثريتهم من الفقراء والأرقاء، معتدين بثرواتهم وقوتهم، والحملة الشديدة التى تضمنتها السورة تدل على أن هذه المواقف كانت شديدة الأثر والوقع فاستحق أصحابها هذه الحملة بالمقابلة.

(٣) فى سورة الممتحنة آيتان جاءتا بقصد تحديد موقف المسلمين من الكفار، وهما:

« لا يَنْهَـٰكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم من دِيَـٰرِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَـٰكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فى الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّـٰلِمُونَ ...

٨ - ٩

والآيتان تشريعيتان كما هو ظاهر . وقد ذكر رواة أسباب النزول أنهما نزلتا فى مناسبة قدوم زائرة من كفار مكة من أقارب إحدى زوجات النبى صلى الله عليه وسلم ، فتحرجت الزوجة من قراها حتى يأذن لها النبى ، فنزلتا .

والمناسبة محتملة الوقوع ، غير أن روح الآيتين والآيات السابقة لها منذ مطلع السورة ، تلهم بقوة أنهما أوسع شمولا من حادث الزائرة ؛ بحيث يصح أن يقال بشىء من الجزم إنه كان فى مكة طبقة من الكفار لم يعنف أفرادها فى عداوتهم للنبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين والدعوة الإسلامية ، ولم يشتركوا فى الأذى والتآمر ولم يظاهروا عليهما ؛ والآيتان قد نزلتا فى عهد متأخر بعد الهجرة ، وبتعبير آخر بعد صلح الحديبية وبين يدى فتح مكة ، وهذا قد يعنى أن تلك الطبقة قد ظلت ثابتة فى موقفها المعتدل الحيادى أو البار بشكل ما أيضاً . وفى هذا كله صورة من صور مواقف الكفار من الدعوة الإسلامية متسقة مع طبائع الأشياء ، ومع الفصول القرآنية المتعددة التى أوردناها فى هذا القسم .

(٤) فى سورة القمر الآيات الآتية .

« أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَـٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فى الزُّبُرِ . أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ . سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ . بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ . إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ . يَوْمَ يُسْحَبُونَ فى النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ . وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ . وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ

مِن مُّدَّكِرٍ ... ٤٣ - ٥١

والخطاب موجه إلى كفار قريش تعقيباً على سلسلة قصص الأمم السابقة ، وما كان من تنكيل الله بها . وفى الآيات ترديد لما كان زعماء قريش يعتزون به من الكثرة ، ونعتهم بالمجرمين ؛ والحملة الإنذارية الشديدة عليهم من دلائل أن الآيات موجهة إلى أناس من الزعماء بسبب مواقف عنيفة وقفوها من الدعوة ، أضاعوا فيها صوابهم ، واعتدوا فيها بقوتهم وجبروتهم كما تلهم نصوص بعضها .

(٤) فى مطلع سورة ص الآيات التالية :

« صٓ وَالقُرْءَانِ ذِى الذِّكْرِ . بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ . كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ . وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ . وَانطَلَقَ المَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فى المِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَٰقٌ . أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ . أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ العَزِيزِ الوَهَّابِ . أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فى الأَسْبَٰبِ . جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ ... ١ - ١١

والآيات تحكى موقفاً تكذيبيا شديد العناد لزعماء الكفار ، وتحريضاً منهم للعامة على التكذيب والتمسك بدين الآباء وآلهتهم ، وترديداً لما كانوا يتبجحون به من العزة والقوة ولاستخفافهم بالنبى وتساؤلهم عن مدى صدق اختصاصه بالقرآن من دونهم . وقد تضمنت الآيات حملة شديدة عليهم وتهكماً بدعاواهم وتبجحاتهم بالمقابلة .

(٥) فى سورة يسٓ الآيات التالية :

« لَقَدْ حَقَّ القَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . إِنَّا جَعَلْنَا

فى أعناقِهِمْ أغْلالًا فهِىَ إلى الأذقانِ فهم مُقمَحُونَ (١) . وجعلنا مِن بَيْنِ أيديهِمْ سَدًّا ومِنْ خلفِهِمْ سَدًّا فأغشيناهم فهُمْ لا يُبْصِرونَ . وسَواءٌ عَلَيهِم ءَأنذرتَهم أمْ لَمْ تُنذِرهُمْ لا يُؤمِنونَ ... ٧ - ١٠

وقد تضمنت وصف شدة العناد والمكابرة التى كان عليها الكفار بحيث لايفيدهم إنذار ولا وعيد . والصورة مما يدخل فى نطاق مواقف الكفار العنيفة الشديدة فى المكابرة والإعراض كما هو واضح .

(٦) فى سورة الفرقان الآيات التالية :

« واتخذُوا مِن دُونِهِ ءالِهَةً لَّا يَخلقونَ شيئًا وهُمْ يُخلَقونَ ولا يَملِكونَ لِأنفُسِهِمْ ضَرًّا ولا نَفعًا ولا يَملِكونَ مَوتًا ولا حَيوٰةً ولا نُشورًا . وقالَ الذينَ كفَروا إنْ هٰذا إلَّا إفكٌ افتَراهُ وأعانَهُ عَلَيْهِ قومٌ ءاخَرونَ فقَدْ جاءُو ظُلمًا وزُورًا . وقالوا أساطيرُ الأوَّلينَ اكتَتَبَها فهِىَ تُملَىٰ عَلَيهِ بُكرَةً وأصِيلًا . قُلْ أنزَلَهُ الذِى يَعلَمُ السِّرَّ فى السَّمٰوٰتِ والأرضِ إنَّهُ كانَ غَفورًا رَّحِيمًا . وقالُوا مَالِ هٰذا الرَّسُولِ يأكُلُ الطَّعامَ ويَمشِى فى الأسواقِ لولا أُنزِلَ إليهِ مَلَكٌ فيكونَ مَعَهُ نَذيرًا . أو يُلقَىٰ إليهِ كَنزٌ أو تكونُ لهُ جَنَّةٌ يأكُلُ مِنها وقالَ الظّٰلِمونَ إن تَتَّبِعونَ إلَّا رَجُلًا مَّسحُورًا . انظُرْ كيفَ ضَرَبوا لكَ الأمثالَ فضَلُّوا فلا يَستطِيعونَ سَبيلًا ... ٣ - ٩

والآيات تتضمن حكاية مواقف تكذيب واتهام وتحد من الكفار متصلة بما كانوا يتخيلونه من شخصية النبي وبما كان موقفهم منه حينما رأوه على غير ماتخيلوه ذا طبيعة بشرية . والآية الأولى تمهيد ساخر لاذع منهم ، فهم يتهمون ويعترضون فى حين يستخفون إلى درجة اتخاذ آلهة عاجزين كل العجز . ولايستبعد أن تكون هذه

(١) رافعو رءوسهم لايستطيعون تحريكها من شدة الأغلال .

الآيات بمثابة تعليق أو تعقيب على موقف جدل وحجاج ومكابرة بين بعض زعماء الكفار والنبي صلى الله عليه وسلم ، إذ احتوت على شيء من الحوار .

(٧) في سورة الأنعام الآيات التالية :

« وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ...

١٢٣ - ١٢٤

والآيات بسبيل وصف الزعماء المجرمين وما كانوا منهمكين فيه من مؤامرات ومكر ضدّ النبي ودعوته وحمله عليهم . وفيها وصف لشدّة مكابرتهم وعنادهم واستكبارهم ، أو لعله وصف لموقف مكابرة وتحدّ تجلت فيه هذه الصفات الذميمة قالوا فيه إنهم لن يؤمنوا إلا إذا خاطبهم الله مباشرة كما يخاطب رسله ونزل عليهم آيات كما ينزلها على رسله .

(٨) في سورة الصافات الآيات التالية :

« إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ . رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَٰرِقِ . إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ . وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ . لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ . دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ . إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ . بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ . وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ . وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ . وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ . أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوَ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ . قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ .

فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ . وَقَالُوا يَاوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ . هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ . احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ . مِن دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ . وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ . مَالَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ . بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ . وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ . قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ . قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ . فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ . فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ . فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ . إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ . إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ . وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ . بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ . إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ . وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ... ٤ - ٣٩

تضمنت هذه الآيات صورا لمواقف جحود وتكذيب وتحدّ وسخرية واستكبار وقفها الكفار ، واتهامات بالشعر والسحر والجنون اتهموا بها النبى صلى الله عليه وسلم وإنكار للحياة الآخرية ، كما تضمنت مقابلة قرآنية وإنذارية عنيفة وساخرة ولاذعة ؛ وفيها حوار عن لسان حالهم فى الآخرة وتعاتبهم وتحسرهم على ماقدمت أيديهم فى الدنيا . وهو جزء من المقابلة القرآنية .

وقد ذكرت المواقف وجاءت المقابلة بأسلوبين مختلفين : أحدهما وجاهى وثانيهما لسان حال تذكيرى ، ولكنهما متصلان اتصالا وثيقاً كما يبدو منهما . والسلسلة من المجموعات المهمة التى احتوت وصف مواقف وحالات وصور متنوعة فيها عنف وشدّة

(٩) فى سورة لقمان الآيات التالية :

« ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ
عِلْمٍ ويَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ . وإذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا
وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فى أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ ... ٦ - ٧

والآيتان بسبيل وصف موقف عناد واستكبار وتهويش وتشويش وصد لبعض زعماء الكفار تجاه النبي والقرآن ؛ وقد تضمنت مقابلة إنذارية عنيفة تتسق مع صور الموقف .

(١٠) فى سورة سبأ الآيات التالية :

١ — وقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ
مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ . أَفْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ
الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ فى الْعَذَابِ والضَّلَـٰلِ الْبَعِيدِ ... ٧ - ٨

٢ — ويَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَـٰدِقِينَ . قُل لَّكُمْ مِيعَادُ
يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً ولا تَسْتَقْدِمُونَ . وقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن
نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا الْقُرْءَانِ ولا بالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ... ٢٩ - ٣١

٣ — وقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وأَوْلَـٰدًا وما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ . قُلْ إِنَّ
رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ ويَقْدِرُ ولَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ .
وما أَمْوَالُكُمْ ولا أَوْلَـٰدُكُمْ بالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ
وعَمِلَ صَـٰلِحًا ... ٣٥ - ٣٧

٤ — وإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا مَاهَـٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ
أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُكُمْ وقَالُوا مَاهَـٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وقَالَ

الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ . وَمَا ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ . وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ . قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ . قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ . قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ... ٤٣ - ٤٩

وفى الآيات الأولى وصف موقف شديد عنيد بتكذيب الحياة الأخرى ، ودعاية تهويشية بين الناس ضد النبي صلى الله عليه وسلم بسبب إنذاره بها ؛ وواضح أنه موقف لطغاة الزعماء . وقد تضمنت ردا إنذاريا بالمقابلة ، واستمر الرد فى الآيات التى تلتها أيضاً .

وفى الآيات الثانية حكاية تساؤل ساخر واستنكارى من قبل الكفار عن وقت تحقيق وعد البعث والعذاب ، وإعلانهم التصميم على الجحود بالقرآن وغيره من الكتب السماوية . والموقف موقف عناد شديد كما هو واضح ، وقد أمرت الآيات النبي صلى الله عليه وسلم بالرد عليهم بتوكيد مجيء ميعادهم المحتوم ، كما تضمنت بقية الآية ٣١ والآيات ٣٢ - ٣٣ التى نقلناها فى مناسبة سابقة حكاية حالهم حينما يبعثون وكيف يعاتب بعضهم بعضاً وكيف كان الزعماء يؤلبون العامة فى الليل والنهار على الجحود ، وما سيلقونه من عقاب رهيب على سبيل الرد والإنذار . والمقطع الذى أثبتناه قد يلهم أنه ترديد لموقف حجاج مواجه كان بين النبى صلى الله عليه وسلم وبعض الكفار .

وحكاية قول الكفار إنهم لن يؤمنوا بالذى بين يدى القرآن ، أى الكتب السماوية السابقة أيضاً ، فى حين أنهم كانوا ينقون فى الكتابيين ويطالبون النبى بمثل ما جاء به موسى والأنبياء الآخرون على ما أوردنا آياته - قد تلهم أن موقف الكتابيين التصديق

فى مكة واستشهاد القرآن بهم وحسن شهادتهم - مما سوف نشرحه فى فصل الكتابيين التالى - قد أثار غيظ الزعماء وحنقهم ؛ وفى هذا صورة لما كان من أثر إيمان الكتابيين فى زعماء كفار قريش ، وبالتالى صورة من صور السيرة النبوية الطريفة ؛ ولقد جاء فى آية من سورة القصص ما يلهم أن زعماء الكفار كانوا يلومون الكتابيين على مواقفهم هذه ، وهى :

« وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ... ٥٥

وهو يدعم صحة الصورة التى اقتبسناها .

والآيات الثالثة : تلهم كذلك أنها ترديد لموقف حجاج مواجه تبجح فيه بعض أغنياء الزعماء بكثرة أموالهم وأولادهم ، وبحصانتهم من العذاب بسبب ذلك ، وهو موقف عناد واستكبار وغرور كما هو واضح ؛ وقد رد عليهم القرآن مفنداً لدعواهم .

والآيات الرابعة : تصف موقف جحود شديد للزعماء ، فيه تهويش على النبى صلى الله عليه وسلم ، وفيه اتهام بذىء . وقد توعدهم القرآن بالنكال الذى أصاب من هو أقوى منهم ، ثم أمر للنبى صلى الله عليه وسلم بتوجيه رد خطابى إليهم ، فيه حجة دامغة وفيه عظة وفيه تقرير قوى للحق الذى جاء به . والآية ٤٦ التى احتوت العظة عظيمة المغزى ، إذ يطلب منهم فيها أن يتفكروا منفردين أو اثنين اثنين أو مرة بعد أخرى بعيدين عن التهويش والعناد ، ويلاحظوا ما يعرفونه من بعد النبى صلى الله عليه وسلم عن الجنون والخرق والغلو والمطمع الخاص : وحينئذ يبين لهم الحق واضحاً ، وإذ يدل هذا الطلب على أن تهويش المهوشين الشديدى العناد والاستكبار من الزعماء هو الذى كان يسيطر على الموقف ويجر غيرهم إليه دون أن يجدوا مجالا للمخالفة ؛ والآية فى الوقت نفسه رد قوى على التهويش ؛ فالأمر يجب أن يفكر فيه مجرداً عن الهوى والعناد بعيداً عن التهويش ؛ ولعل فيها خطاباً للناس أو المعتدلين الذين يتأثرون بالمهوشين ولا يجدون مجالا للتفكير الحر المجرد . وعلى كل حال فما لا ريب فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم صدع بالأمر ووجه هذا الخطاب القوى الدامغ النافذ إلى الجاحدين متكبريهم ومعتدليهم وزعمائهم وسوادهم على السواء .

(١١) فى سورة الزمر الآيات التالية :

« أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ . وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ . قُلْ يَٰقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ . مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ... ٣٦ - ٤٠

وقد ذكر المفسرون أن الكفار كانوا يخوفون النبي من انتقام آلهتهم أو شركائهم، أو ينتظرون انتقامهم منه ، فنزلت الآيات ، ومضمونها يتسق مع هذا القول . وفيها رد لاذع على الكفار وسخرية بشركائهم الذين يخوفونه بهم وإنذار لهم بسوء المصير، وإعلان بأن الله كافيه وكافله ؛ وهى بجملتها ترديد لموقف حجاج وجدل بين النبي صلى الله عليه وسلم وبعض الكفار العنيدين المكابرين .

(١٢) فى سورة الزخرف الآيات التالية :

« وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَٰفِرُونَ . وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ... ٣٠ - ٣٢

والآيات تتضمن وصف حنق الزعماء المتكبرين من نبوة النبي بالذات، لأنها لم تكن نصيب أحدهم فى مكة أو الطائف، مما ساقهم إلى الجحود والصد، وهو تكرار

للموقف الذى وصفته آيات سورة فاطر ٤٢-٤٣ وسورة الأنعام ١٢٣-١٢٤ التى تقدم شرحها ؛ ويدل هذا التكرار على أن هؤلاء الزعماء ظلوا يبدون غيظهم واستخفافهم بالنبي مرة بعد مرة. وقد سفهت الآية الأخيرة أحلامهم بقوة لاذعة ؛ فالنبوة رحمة من الله لا يؤتاها إلا مستحقها، وليست نوعاً من التفاضل الدنيوى بين الناس والذى هو ناموس عمرانى ليس غير ؛ واختصاص محمد صلى الله عليه وسلم بها يجعله فى قدره وعظمته خيراً وأسمى من زعاماتهم وأموالهم . .

(١٣) فى سورة الجاثية الآيات التالية :

١ - وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يَسْمَعُ ءَايَٰتِ اللهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ... ٧ - ١١

٢ - أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ . وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ . قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ... ٢٣ - ٢٧

وفى الآيات الأولى وصف لمواقف شديدة العناد والعنف كان يقفها الكفار ، إذ كانوا يصرون على الكفر والاستكبار ويتخذون ما يسمعونه من آيات القرآن موضوع سخرية واستهزاء ، وقد احتوت الآيات حملة إنذارية شديدة تتناسب مع أصحاب الموقف الموصوف الذين وصفوا بالأفاكين الآثمين .

والآيات الثانية بسبيل التعقيب على موقف من مواقف المكابرة والتكذيب واللجاج والتحدى ، وقفه بعض الكفار من الدعوة والإنذار بالحياة الأخروية كما يبدو من مضمونها ؛ وكان الغرض والهوى هو المؤثر الأقوى فيه حتى لم يعد أمل فى هدايتهم ؛ والتحدى بالإتيان بالآباء إزاء الإنذار بالبعث الذى احتوته الآيات قد تكررت حكايته عنهم ، مما يدل على أنهم كانوا يكررونه فى المواقف مرة بعد أخرى؛ كما أن الصيغة تدل على أن هذا القول كان يوجه إلى النبى صلى الله عليه وسلم مواجهة كلما تلا ما فيه إنذار بالحياة الأخروية .

(١٤) فى سورة النحل الآيات التالية :

« إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ . لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ... ٢٢ - ٢٥

والآيات تتضمن وصف مواقف الزعماء المستكبرين الذين كانوا يكررون القول عن القرآن كلما تلا النبى منه شيئاً بأنه أساطير الاولين وقصصهم ، كما تتضمن الإشارة إلى ما كان من أثرهم فى إضلال الناس الغافلين والحيلولة دون استجابتهم إلى دعوة الحق .

(١٥) فى سورة إبراهيم الآيات التالية :

١ — اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ . الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ

عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَـٰئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ بَعِيدٍ ... ٢ - ٣

٢ — وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ . وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ . وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ . فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ... ٤٤ - ٤٧

والآيات الأولى تتضمن وصفاً لشدة موقف الزعماء الجحودى وانهماكهم بالدنيا وماكانوا يبذلون من سعى فى صد الناس عن الدعوة وعرقلتها .

والآيات الثانية تصف ما كان يبيته الزعماء من مكر ويحيكونه من دسائس ومكايد فى سبيل عرقلة الدعوة وتنذرهم إنذاراً قاصماً . ووصف مكرهم وآثاره قوى جدا ، يدل على أنهم جعلوا الدعوة وعرقلتها وصد الناس عنها والتأليب والتهويش عليها أكبر همهم . وهذا من دون ريب سبب بقائها فى نطاقها الضيق : كما أن فيه صورة لما لقيه النبي والمسلمون من شدة ومحنة وأذى .

(١٦) فى سورة الأنبياء الآيات التالية :

١ — ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ . مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ . لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَـٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ . قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ . بَلْ قَالُوا أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ . مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ . وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِى إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ

لا تعلمون . وما جعلنٰهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خٰلدين ...
١ - ٨

٢ - وإذا رءاك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً أهٰذا الذى يذكر ءالهتكم وهم بذكر الرحمٰن هم كٰفرون . خلق الإنسٰن من عجل سأوريكم ءايٰتى فلا تستعجلون . ويقولون متى هٰذا الوعد إن كنتم صٰدقين . لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون . بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون . ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون ... ٣٦ - ٤١

والآيات الأولى تتضمن وصف موقف جحود وتصامم للزعماء ، وحكاية لاجتماعاتهم السرية بسبيل المكر والكيد للدعوة ، إذ كانوا يهوشون على الناس فيها مشيرين إلى بشرية النبى المماثلة لبشريتهم ، وأن ذلك غير منطبق على صفة النبوة ، كما يتخيلونها ، وأن ما يأتى به وينذر به من قبيل السحر الذى لا يليق بعقولهم أن ينخدعوا به ، أو من أضغاث الأحلام ، وأن ما يتلوه من القرآن هو من قبيل الشعر ، وإلا فليأت بالخوارق والمعجزات إن كان صادقاً كما فعل الأنبياء من قبله ؛ وقد ردت عليهم الآيات منذرة بالهلاك من جهة ومستشهدة بأهل الكتب السماوية على أن أنبياءهم كانوا رجالا مثله يأكلون الطعام وغير خالدين . ومن المحتمل أن تكون الآيات ترديداً أو تعقيباً على موقف حجاج مواجه بين النبي صلى الله عليه وسلم وبعض الزعماء أيضاً ، بالإضافة إلى ما فيه من إشارة إلى الاجتماعات السرية التهويشية ؛ وعلى كل حال ؛ فالآيات تتضمن صورة أو بالأحرى صوراً لشدة عناد الزعماء ومكابراتهم ومكايدهم ومساعيهم للحيلولة دون نجاح الدعوة والاستجابة إليها كما هو واضح .

والآيات الثانية تحكى كذلك موقفاً استخفافيا لزعماء الكفار ، فيه تحد للنبى وسخرية به ؛ وخاصة فى أسلوب تساؤلهم عن تحقيق موعد ما ينذرهم به ؛ وقد قابلتهم الآيات

بإنذار شديد بالنكال الدنيوى والأخروى متناسب مع موقف جحودهم العنيد الساخر. ويبدو من مضمون الآيات أن هذا الموقف مما كان يتكرر ومما كان يقع مواجهة.

(١٧) فى سورة المؤمنون الآيات التالية :

١ — فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ. أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ. نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ... ٥٤ - ٥٦

٢ — بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ. حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ. لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ. قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ. مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ. أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ. أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ. أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ... ٦٣ - ٧٠

وفى الآيات الأولى تسفيه لما يظنه الأغنياء من أن ماهم فيه من نعمة دليل على عناية الله بهم ؛ ويبدو أن هذا مما كانوا يحاجون به ويتبجحون فى سبيل الزراية على المسلمين.

وفى الآيات الثانية حملة إنذارية وتسفيهية معاً على الكفار ، إذ كانوا ينكصون على أعقابهم استكباراً كلما سمعوا النبى يتلو آيات القرآن ، ويهجرونه كأنما هو قصص ؛ فى حين أنهم يعرفون أن ما أتى به ليس بدعاً ، وأنه غير نكرة فى عقله وأخلاقه ، ولا يصح أن يتهم بجنون.

(١٨) فى سورة الروم الآيات التالية :

« وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ. كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ

عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ... ٥٨ - ٦٠

وفى الآيات صورة لمواقف العناد والمكابرة التى كان يقابل بها الكفار آيات القرآن مع ما احتواه من ضروب الأمثال والوعظ ، كما فيها تصبير للنبى وطمأنة له بوعد الله الحق . والآية الأخرى تدل على أن مواقف العناد والمكر قد اشتدت حتى أخذت تصل إلى الإحراج ، فأمر الله نبيه بالصبر والثبات . وسورة الروم من أواخر ما نزل من القرآن ، ومعلوم أن مكر الكفار وكيدهم قد أخذ يشتدّ فى أواخر العهد المكى ؛ فمن المحتمل أن يكون النبي أخذ يفكر فى الخروج من مكة قبل الأوان المناسب فصبر وثبت . ولعل هذا الظرف هو ظرف خروجه إلى الطائف ، أو ظرف اتصاله بوفود يثرب على ما سوف نذكره بعد .

(١٩) فى سورة العنكبوت الآيات التالية :

« قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ . وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَٰفِرِينَ . يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ... ٥٢ - ٥٥

وفى الآيات صورة لموقف تكرر من الكفار ، وهو تحديهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بالعذاب الموعود تحدى الجاحد الساخر ؛ وإنذار توكيدى لهم . والإلحاح الذى حكته الآيات عنهم فى استعجال العذاب يزيد الصورة قوة وعنفاً . والسورة من أواخر ما نزل من القرآن حين اشتدّ ضغط زعماء الكفار وكيدهم ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يشتدّ فى إنذارهم بعذاب الله ونكاله فقابلوه بهذا الإلحاح الساخر .

(٢٠) فى سورة « المطففون » الآيات التالية .

« إنَّ الذِينَ أجرَمُوا كانُوا مِنَ الذِينَ ءامَنُوا يَضحَكونَ . وإذا مَرُّوا بِهِمْ يَتغامَزُونَ . وإذا ٱنقلبُوا إلىٰ أهلِهِمُ ٱنقلبُوا فكِهِينَ . وإذا رأوْهُمْ قالُوا إنَّ هٰؤلاءِ لَضالُّونَ . ومَا أُرسِلُوا عَلَيْهِمْ حٰفِظِينَ . فالْيَوْمَ الذِينَ ءامَنُوا مِنَ الكُفَّارِ يَضحَكونَ . عَلَى الأرائِكِ يَنظُرُونَ . هَلْ ثُوِّبَ الكُفَّارُ ما كانُوا يَفعَلُونَ ... ٢٩ - ٣٦

والآيات تضمنت وصفاً لمواقف الكفار من المسلمين ، إذ كانوا يسخرون ويضحكون منهم ويتغامزون عليهم وينعتونهم بالضالين المفتونين ؛ وقد تضمنت تسلية للمسلمين . فسينقلب الأمر يوم القيامة ويكون دور السخرية والضحك لهم على الكفار الذين سينالون جزاء عملهم .

- ٣ -

(٢١) - فى سورة الحج بضعة مقاطع عديدة تحتوى صوراً لمواقف عناد الكفار الشديدة . وهذه السورة لم ترد فى تراتيب نزول السور المكية ، لأن أكثر الروايات على أنها مدنية . وقد أشرنا إلى الترجيح بأن أكثر فصولها مكية .

وعلى كل حال فالمقاطع المذكورة تحتوى صوراً عن كفار وظروف العهد المكى فيما نعتقد . وإليك المقاطع أولا :

١ — ومِنَ النَّاسِ مَنْ يُجٰدِلُ فى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ويَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطٰنٍ مَرِيدٍ . كُتِبَ عَلَيْهِ أنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فأنَّهُ يُضِلُّهُ ويَهْدِيهِ إلىٰ عَذابِ السَّعِيرِ ...

٣ - ٤

٢ — ومِنَ النَّاسِ مَنْ يُجٰدِلُ فى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ولا هُدًى ولا كِتٰبٍ مُنِيرٍ . ثانِىَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عنْ سَبِيلِ ٱللهِ لَهُ فى الدُّنْيا خِزْىٌ ونُذِيقُهُ يَوْمَ القِيٰمَةِ عَذابَ الحَرِيقِ ... ٨ - ٩

٣ — وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ . وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ . يَٰأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ . مَاقَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ... ٧١ - ٧٤

وفى المقطع الأول وصف لفريق من الكفار دأبه الجدل فى الله ، وهو جاهل ولكنه يستمع لوساوس الشياطين البغاة الذين يضلون الناس ولا يهدونهم إلا إلى النار . ويبدو من خلال الآيات دور الزعماء وأثره فى إضلال الناس حتى كان منه أن انسجم بعض الناس الذين أضلوهم فى رعايتهم وصاروا مثلهم يجادلون فى الله .

وفى المقطع الثانى وصف لفريق آخر يجادل فى الله كذلك بدون سند من علم ولا كتاب ، وقد اعتدّ بنفسه وكان يثنى عطفه خيلاء واستكباراً عن سماع كلام الله ، ويسعى فى إضلال الناس وصدهم عن الدعوة .

وفى المقطع الثالث تسفيه الكفار على عبادتهم دون الله غير مستندين فى ذلك إلى علم ووحى ربانى ، ووصف لمواقف بعض زعمائهم حينما كانوا يسمعون النبى يتلو من آيات القرآن إذ كانت تبدو على وجوههم علامات الغيظ والشر حتى ليهمون بالبطش به . وقد احتوت الآيات أولا جواباً عنيفاً قذف فى وجوههم إذ هتف أن موعدهم النار وبئس المصير ؛ وثانياً تنديداً لاذعاً حيث أمر النبى بإعلانهم جهرة : أن ما يدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو ظاهر بعضهم بعضاً، وأن الذباب الذى هو أعجز الهوام لو سلبهم شيئاً لعجزوا عن استنقاذه منه . والآيات تلهم أنها ترديد أو تعقيب لموقف مواجه بين النبى صلى الله عليه وسلم وبعض الزعماء العنيدين العنيفين .

٢٢ - وفى سورة الأنفال الآيات التالية :

« وإذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ الْمَٰكِرِينَ . وإذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إنْ هَٰذَا إلَّا أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ . وإذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إنْ كانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ... ٣٠ - ٣٢

وسورة الأنفال مدنية ؛ وقد قيل إن الآيات مكية ، وقد رجحنا مدنيتها وكونها بسبيل التذكير . وعلى كل حال فموضوعها من صور العهد المكى وظروفه حتما . والآية الاولى تدل على أن حنق الكفار قد اشتد على النبي إلى درجة أنهم أخذوا يتآمرون على قتله أو حبسه أو نفيه ، مما سوف نتكلم عنه فى مبحث محنة الأذى والفتنة ، أما الآيتان الأخريان ففيهما صورة لموقف شديد الجحود والسخرية كان يقفه بعض الكفار أو بالأحرى زعماؤهم حينما كان النبي يتلو القرآن ، إذ كانوا يستخفون ويقولون : إننا لو أردنا أن نقول كما يقول لفعلنا وإن ما يقوله ليس إلا من قصص الأولين ومدوناتهم ، ثم يتبعون هذا بتحديهم هذا التحدى الساخر الذى حكته الآية الثالثة ، ويعلنون به جحودهم القاطع لنبوّة النبي صلى الله عليه وسلم . ولعلنا لانعدو الصواب إذا قلنا إن تذكير النبي والمسلمين بهذه المواقف فى العهد المدنى يلهم أنها من أشدّ المواقف نكاية وشدّة ووقعاً عليهم . ولعل هذا يتضح خاصة بالنسبة للمؤامرة التى أشارت إليها الآية الأولى ؛ لأنها كانت السبب المباشر لخروج النبي من مكة مسقط رأسه ومهبط وحى الله عليه .

- ٤ -

هذا ؛ ونختم الكلام فى هذا الموضوع بآيتين فى سورتى الأنعام والفرقان لهما مغزى خاص ؛ وهما هاتان :

١ — وكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ الإنْسِ والْجِنِّ يُوحِى

بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ... الأنعام ١١٢

٢ — وكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا ونَصِيرًا ... الفرقان ٣١

فهاتان الآيتان وإن كانتا بسبيل بيان طبيعة بشرية عامة تجاه الانبياء جميعهم من جهة ، وبقصد تسلية النبي فيما كان يلقاه من الصد والمناوأة من جهة أخرى ، فأنهما تلهمان أن فريقاً من الزعماء قد تشبعوا بالعداء للنبي صلى الله عليه وسلم ورسالته لأسباب عدة : كالأنانية والاستكبار والحنق من اختصاصه بالرسالة دونهم ، ولا يبعد أن يكون منها التنافس العائلي ؛ وأن عداءهم هذا هو الذى كان يجعلهم يصمون آذانهم عن الحق مهما كان دامغاً ويغمضون أعينهم عن الحقيقة مهما كانت ساطعة النور ، ويسكتون ضمائرهم عن الارعواء مهما كان الصوت المنبه قويا ؛ وهو الذى كان يحدوهم إلى نشاطهم العظيم فى الصد والمناوأة والتعطيل وعقد الاجتماعات ووضع خطط الدعاية والإزعاج والتعجيز والتحدى والتهويش ، فكان لذلك الأثر الأكبر فيما لقى النبي والمسلمون من شدة وعنت وعنف ، وفى بقاء الدعوة فى العهد المكى فى نطاق ضيق محفوف بالأخطار .

— ٥ —

وفيما يلى صور للمشاهد والمواقف التى تنم عن اعتدال أصحابها ؛ وقد رتبنا آيات السور حسب ترتيب نزولها أيضاً ليرى القارئ أن المواقف المعتدلة كانت كتلك : تحدث فى مختلف أدوار العهد منذ أوله . وتنبه هنا إلى ما نبهنا إليه فى القسم السابق من أننا اكتفينا بإيراد الآيات التى تبرز فيها الصور بوضوح دون غيرها مما يمت إلى الباب نفسه .

(١) فى سورة القلم التى هى من أبكر السور نزولا : جاءت هاتان الآيتان :

« فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ . وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ... ٨ - ٩

وفيهما إشارة صريحة إلى أن بعض الجاحدين لما جاء به النبي كانوا يودون أن يساير فى مبادئ الدعوة فيقابلوه بالمثل ؛ وقد أمرته الآية الأولى بعدم الاستماع

لمطلبهم . وبقطع النظر عن مدى المسايرة التى كانوا يطلبونها من النبي ومدى استعدادهم للمقابلة فإن المتبادر أن يكون هؤلاء من الفريق المعتدل غير العنيف فى جحوده ومواقفه من النبي ؛ إذ كان يبحث فى حل وسط يقترب كل طرف من الطرفين إليه شيئاً ؛ وهكذا يصح أن يقال إن هذا النوع من الزعماء قد أخذ يبرز منذ الخطوات الأولى للدعوة ؛ ولهذا مغزى غير يسير فى صور السيرة النبوية .

(٢) ولقد نقلنا فى مناسبة سابقة آيات التكوير ١٥ - ٢٩ ؛ والمتمعن فى أسلوبها يجد فيه هدوءاً وخطاباً موجهاً إلى العقل والقلب ، وقصداً إلى الإقناع ؛ مما يلهم أن الذين وجه إليهم هم من الفريق المعتدل الذى لم يبد منه عنف فى التكذيب أو الارتياب ؛ والآيات مثل تلك من أبكر ما نزل من القرآن ، وهى متصلة بما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من اتصال وحى الله به ورؤيته للملك فى أفق السماء لأول مرة على ما ذكرناه فى مناسبة سابقة .

(٣) ويتجلى فى نص سورة « الكافرون » الهدوء الخطابى أيضاً كما يرى فيه :

« قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ . لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ . وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ » .

وقد روى المفسرون أنها نزلت بمناسبة مراجعة الزعماء للنبي صلى الله عليه وسلم وطلبهم التبادل فى عبادة الآلهة وتكريمها ، فيصلى لآلهتهم ويكرمها ، ويصلون هم لله ويعلنون تعظيمه . وليس فى الآيات ما لا يتسق مع الرواية إجمالا . ولعل فيها ما يفسر ما أرادته آية القلم : « ودوا لو تدهن فيدهنون » . وعلى كل حال فالمستلهم من صيغة وأسلوب الخطاب ويستأنس من الرواية أن الذين راجعوا النبي هم من الفريق المعتدل الذى يجنح إلى المفاوضة والمناقشة والتوفيق بدون عنف .

(٤) فى سورة الفرقان الآيات التالية :

« وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ... ٥٦ - ٥٧

والآية الأولى بسبيل تقرير مهمة النبي ، فليس هو إلا مبشراً ونذيراً وداعياً ، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ؛ وهذا مما تكرّر كثيراً في القرآن بأساليب ومناسبات متنوعة . وفيه من جهة تسلية للنبي على ما كان يلقاه من جحود الأكثرية الساحقة ، كما فيه من جهة أخرى إعلان للناس أن النبي ليس مكلفاً بإجبارهم على الاستجابة ؛ وفي هـذا صورة من صور الملاينة الخطابية أو التكليف الحر كما هو المتبادر مما يمت إلى الموضوع الذي نحن فيه ببعض الصلة .
والآية الثانية مما يدعم هذا المعنى ، إذ يؤمر النبي بها بأن يعلن الناس أنه لاينتظر منهم أجراً وليس له مطمع ، وقصارى دعوته وجهده أن يرعووا فيرجعوا إلى الله ويسيروا في سبيله ؛ وأسلوبها يلهم أنها موجهة إلى أناس غير عنيفين في تكذيبهم وجحودهم وعدائهم .

ومضمون الآية الثانية أيضاً قد تكرّر مرات عديدة . ولقد ذكرت الروايات أن بعض زعماء قريش جاءوا إلى أبي طالب ، أو بعثوا إليه أحدهم وطلبوا منه التوسط إلى ابن أخيه حتى لايستمر في تسفيههم ، وعرضوا عليه فيما عرضوا أن يغدقوا عليه المال حتى يجعلوه أغناهم إذا أراد ، وأن أبا طالب عرض الأمر على النبي صلى الله عليه وسلم فأبى قائلا : إنهم لو وضعوا الشمس بيميني والقمر بشمالي لما عدت عما ادعو إليه من رسالة ربي ؛ ولا نستبعد أن تكون هذه الآية بسبيل الرد على هذه العرض ، وإعلان أن النبي صلى الله عليه وسلم لايتوخى جزاء ولا يضمر مطمعاً فيما حمله من رسالة ربه ، وأن الآيات ظلت تردّد هذا الرد بين حين وآخر ؛ ومن المعقول أن لاتكون هذه المراجعات التي يمكن أن تلهم صحة وقوعها إجمالا هذه الآية وأمثالها إلا من فريق يودّ حسم الأمر بالتي هي أحسن ، دون أن يتفاقم ، وبعبارة ثانية من فريق معتدل من الزعماء أو بإلحاح هذ الفريق .

(٥) في سورة القصص آيتان ؛ أولاهما هي هذه :

« إِنَّكَ لَاتَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ...

ومع احتمال أن تكون الآية بسبيل تسلية النبي - وفي القرآن آيات كثيرة تهدف إلى ذلك - فإنها صريحة الإلهام أيضاً بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان حريصاً على اهتداء بعض الناس وانحيازهم إلى صف المسلمين بصورة خاصة، وأنه كان يحز في نفسه أن لا ينجح في ذلك؛ وقد تلهم كلمة «أحببت» أن هؤلاء ممن كان بينهم وبين النبي مودة أو صداقة قبل البعثة.

وقد قال المفسرون والرواة إنها نزلت في عم النبي صلى الله عليه وسلم أبي طالب حينما أصر على التمسك بدين آبائه عند وفاته، والآية نزلت مبكرة نوعاً ما على الأرجح، في حين أن أبا طالب توفي في أواخر العهد؛ ولهذا فالنفس لا تطمئن إلى رواية نزولها عند وفاته؛ وهذا لا يمنع أن تكون نزلت في عمه، فما لا شك في أن النبي كان يعرض عليه الإسلام من آن لآخر فيأبى، فيحز ذلك في نفسه إذ كان شديد الحرص على هدايته شديد الحب له؛ كما أن من الممكن أن يكون هناك غير أبي طالب أيضاً من المحببين إلى النبي صلى الله عليه وسلم والذين كان يتوسم فيهم الخير، ولم يكونوا في موقف عنيف منه، وكان يحرص على هداهم ويراجعهم من آن لآخر فيأبون خشية الرأي العام وبقوة عصبية التقليد. ولعل من الصواب أن يسلك أقارب النبي صلى الله عليه وسلم الأدنون - الذين كان أكثرهم ينتصرون له ويمتنع الناس عن أذاه خشية منهم، والذين ظل أكثرهم متمسكين بدين الآباء في العهد المكي وفيهم عمه العباس وعمه أبو طالب - في هذا السلك؛ ومهما يكن من أمر فالآية تدل على أنه كان بين الجاحدين زعماء وغير زعماء: أناس معتدلون محببون إلى النبي وبينه وبينهم صلات حسنة، يتمنى بصورة خاصة أن يهتدوا ولكنهم كانوا يأبون.

أما الآية الثانية فهي هذه:

«وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ... ٥٧

وقد روى المفسرون أنها نزلت في الحرث بن عثمان بن نوفل أحد نابهي قريش إذ قال للنبي صلى الله عليه وسلم: إنا لنعلم أن الذي تقول الحق، ولكنا إن تابعناك

أخرجتنا العرب من مكة ، ولسنا أكثر من أكلة رأس . والرواية متسقة إجمالا مع مضمون الآية ، غير أن حكاية القول جاءت بصيغة الجمع ، الأمر الذى قد يلهم أن هذا لم يكن رأى شخص خاص وإنما هو تعبير عن رأى الكثيرين من زعماء مكة ونبهائها ؛ ومجئ الآية عقب الآية السابقة قد يلهم أن الآيتين متصلتان فى المناسبة لاسيما أنهما ليستا مختلفتين فى المدي ؛ فقد يكون القول الذى حكته هذه الآية هو ما كان يعتذر به أولئك الأشخاص المحببون إلى النبي صلى الله عليه وسلم الذين كان يحرص على هداهم بصورة خاصة .

ومهما يكن من أمر فالآية تلهم أن أصحاب القول المحكى ، من الفريق المعتدل الذى يجنح إلى الاعتذار الهادئ ولا يعنف فى الرد والتكذيب والجحود .

(٦) فى سورة الإسراء الآيات التالية :

« وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا . وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا . إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ... ٧٣ - ٧٥

وتتضمن الآيات مشهداً خطيراً من مشاهد العهد المكى ؛ ومضمونها وروحها يلهمان أن الطرف الثانى فى المشهد هم زعماء معتدلون ممن كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر الاتصال بهم ويتوسم الاستجابة منهم وأنهم عرضوا عليه بعض العروض حتى يتابعوه ويتخذوه صديقاً لهم وخليلا ، وأنه خطر بباله أن يتساهل بعض التساهل معهم حرصاً على هداهم ، ولكنّ الله عصمه لأن فيما طلبوه شيئاً من الشذوذ عما أوحى الله إليه من أسس الدعوة .

وقد روى المفسرون والرواة فى صدد الآيات عدة روايات ؛ منها أن فريقاً من الكفار اقترح على النبي أن يسكت عن شتم آلهتهم وتحقيرها ؛ ومنها أن الاقتراح هو التساهل فى الإبقاء على تقاليدهم مدة من الزمن ؛ ومنها أن الاقتراح هو السماح لهم بتكريم آلهتهم بعض التكريم ؛ ومنها أن الاقتراح هو إلمام النبي بآلهتهم ـ أصنامهم ـ ولمسها كما يفعل بالحجر الأسود .

ومن هذه الروايات أنه جرى على لسان النبي صلى الله عليه وسلم فى إحدى صلواته فى فناء الكعبة مع المسلمين بقوة إلحاح المعتدلين من الزعماء الكفار ووعودهم بالاستجابة وفى أثناء تلاوته سورة النجم ـ بعض فقرات ليست منها ـ حيث قال بعد آيات « أفرأيتم اللاة والعزى . ومناة الثالثة الأخرى » هذه المقاطع : « تلك الغرانيق العلى . وإن شفاعتهن لترتجى » : فلما سجد : سجد الكفار معه وقالوا إن محمداً ذكر آلهتنا بالخير ، وأن هذا الخبر انتشر حتى وصل إلى المهاجرين فى الحبشة على صورة مكبرة وهى : أن أهل مكة استجابوا للدعوة وصلوا مع النبى فعاد كثير منهم إلى مكة .

وقد فند كثير من المفسرين وكتاب السيرة الرواية الأخيرة ، وبينوا ما فيها من علل ، وقرّروا أنها افتراء على النبي صلى الله عليه وسلم دسه بعض أعداء الإسلام . ومنهم من قال إن هذه المقاطع قالها الكفار رداً على النبي حينما تلا آيات النجم وذكر آلهتهم بالتسفيه والتسخيف ؛ بل منهم من قال إن الشيطان هو الذى تفوه بهذه المقاطع فى معرض الرد والدس،أو إن الشيطان هو الذى ألقاها على لسان النبى ، وإن آيات سورة الحج ٥٢ ـ ٥٤ هى متصلة بهذا المعنى .

وروح الآيات وصيغتها وظروف نزولها تثبت من الوجهة الجدلية عدم انطباقها على أية رواية من روايات وأقوال حكاية الغرانيق ، كما أن آيات سورة الحج غير متصلة بالمرة بها كما يأتى الكلام عليها فى مناسبة أخرى ؛ والرواية تشير إلى أن النبى قد قال قولا ، فى حين أن الآيات تقول إنه كاد ، أى لم يقع منه قول أو فعل ؛ وسياق آيات النجم لا يمكن أن يحتمل استطراداً من هذا القبيل ، لأنه مصبوب على تسفيه الكفار ؛ وسورة الإسراء نزلت قبل منتصف العهد ولم يكن المهاجرون إلى الحبشة قد هاجروا إليها بعد ؛ هذا إلى أن النبى والمسلمين كانوا فى انزعاج دائم ، وكان الضعفاء منهم فى أشد أدوار محنة الاذى ، فلم يكن من الممكن أن يقيموا الصلاة جهرة فى فناء الكعبة ...

وكل ما تلهمه الآيات ما قلناه فى شرحها ، وهو عرض بعض المعتدلين بعض اقتراحات تساهلية ، وميل النبى إلى الجنوح إلى شىء من التساهل حرصاً على هدايتهم ، ولكن الأمر لم يتعدّ الخاطر إلى الفعل ؛ ولا نستبعد أن يكون الاقتراح بعض ما ذكرته الروايات التى أشرنا إليها . وهكذا يتكرّر هذا المشهد الذى بدأ فى أوائل

البعثة فنزلت به آيات القلم : « فلا تطع المكذبين . ودوا لو تدهن فيدهنون » . وتكراره يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم ما فتئ يبدى حرصه الشديد على كسب فريق من الزعماء لدعوته حتى ليعتلج فى نفسه أن لو سايرهم شيئا ما ؛ لأن بقاء الزعماء بعيدين عنها ومعارضين لها هو الذى أبقاها فى نطاقها الضيق الحرج ، كما يدل أيضاً على أن الفريق المعتدل من زعماء الجاحدين كان لا يفتأ يبحث عن وسيلة إلى حل وسط يقرب بين النبي والجاحدين ؛ غير أنه لم يكن ليحصل لأن فى الحل الوسط شائبة من الشرك ومساومة فى دين الله الحق ، وإنما أرسل الله رسوله لمحاربة الشرك بكل أنواعه ، وليكون الدين كله لله ، وليحق الحق حتى لا يبدئ الباطل ولا يعيد . فكان أن ثبت رسوله فى الموقف الذى لا يحتمل مساومة ولا تعدداً .

وجملة « لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا » بنوع خاص تدل بقوة وصراحة على أن ما خطر بباله من الجنوح للتساهل قد كان شيئاً غير مهم ، مما يصح أن يوصف بأنه إنما كان اجتهاداً فيه خلاف الأولى الذى فى علم الله وحسب .

ولقد جاء فى آخر سورة القصص الآيات التالية :

« إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ . وَمَا كُنتَ تَرْجُوا أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ الْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ . ولا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ولا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . ولا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ... (١) ٨٥ - ٨٨

---

(١) لقد ذكر بعض الرواة عن ابن عباس رضى الله عنه أن هذه الآيات نزلت فى الجحفة فى طريق هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وأن فى الآية الأولى جواباً على ما اعتلج فى صدره من حرقة من جراء خروجه من مكة ، فى حين روى بعض الرواة عن ابن عباس أيضاً رواية مغايرة لهذه الرواية فى صدد الآيات ؛ وهذا التغاير يسوغ التوقف كما هو المتبادر . هذا بالاضافة إلى أن مضمون الآيات يسوغ ترجيح صرفها إلى موقف حجاج ومشهد مساجلة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين الكفار وتثبيت النبي فيه .

وسورة القصص تأتى فى الترتيب قبل سورة الإسراء مباشرة ؛ ويلمح فى الآيات شىء مما جاء فى آيات سورة الإسراء بصراحة أكثر ؛ إذ احتوت أمراً للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يشهد الله على المهتدى من الضال ، وتنبيهاً له بأن لا يظاهر ولا يوادّ الكافرين ، وبأن لا يدعهم يصدونه عما أنزل الله إليه ، وبأن لا يأتى بأى شىء فيه أى معنى من معانى إشراك أحد غير الله مع الله ؛ ويلهم هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يختلج فى نفسه مسايرة الزعماء شيئًا ما رغبة فى كسبهم إلى صفه ؛ ومن الطبيعى أن يكون هؤلاء من الفئة المعتدلة التى كان لايرى منها عنفاً فى الصد والمعارضة ويتوسم فيها الارعواء .

وتكرر الإشارات إلى هذا النوع من المشاهد ؛ قد يدل على أن مفاوضات الزعماء المعتدلين ومساجلاتهم مع النبي صلى الله عليه وسلم كانت تتكرر من حين إلى آخر .

(٧) فى سورة يونس الآيات التالية :

« وإذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ الَّذِينَ لايَرْجُونَ لِقَاءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءانٍ غَيْرِ هَـٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قُل لَّوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَـٰتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ . وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰؤُلَاءِ شُفَعَـٰؤُنَا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِى السَّمَـٰوَاتِ ولا فى الأَرْضِ سُبْحَـٰنَهُ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ...

١٥ - ١٨

والآيات تتضمن حكاية موقف طلب وحجاج مواجه بين النبى وبعض الكفار ؛ وقد روى المفسرون أن الطلب المحكى فى الآية الأولى : هو قرآن لا يحتوى تسفيه أحلامهم وتسخيف عقائدهم وتقاليدهم .

ومهما يكن من أمر فأسلوب الآيات هادئ يلهم بقوة أن الذين طلبوا واعتذروا وأمر النبي بمساجلتهم واعتذارهم ، هم من الفريق المعتدل الذى يجنح إلى النقاش بدون عنف وقوة ...

(٨) فى سورة الأنعام الآية التالية :

« وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَـٰتُ عِنْدَ اللهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ ...

١٠٨

والخطاب فى « يشعركم » هو للنبي والمسلمين ، ويلهم أن من المسلمين من كان يتمنى أن يستجيب الله طلب الكفار فيظهر لهم معجزة فلا يبقى لهم مجال للاعتذار فيسلموا فتنتصر الدعوة .

والذى نرجحه أن هذا لا يعقل أن يكون إلا من طرف أناس معتدلين ، كان الاتصال بينهم وبين المسلمين قائماً ، وكان موقفهم يبعث فى نفوس هؤلاء أملا بارعوائهم وانضمامهم إليهم .

وفى هذا الذى تلهم الآية صورة للحالة فى بعض أدوار العهد المكى ، إذ كان المسلمون على صلة مع الفريق المعتدل من الكفار ، وكان الفريقان يتحاجان ويتناظران فى أمر الدعوة ، وكان المسلمون يبذلون جهدهم فى إقناع الكفار ويحرصون كل الحرص على كسبهم ، وكان هؤلاء يعتذرون بالأعذار المتنوعة ، ومن جملتها أنهم كانوا يحلفون لهم بأنهم سيؤمنون إذا ما رأوا معجزة مؤيدة لنبوة النبي .

ولقد جاءت بعد قليل هذه الآية :

« وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَـٰئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ... ١١١

وتلهم روحها أنها بسبيل إقناع المسلمين وبالتالى تدعم ماذكرناه آنفاً .

وفى سورة الرعد الآية التالية كذلك :

« ولو أن قرءانا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى (١) بل لله الأمر جميعا أفلم ييئس الذين ءامنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد ...

٣١

وتلهم روحها وصيغتها أن الجاحدين كرروا للمسلمين توكيدهم وتحديهم ، وأن هؤلاء كرروا رغبتهم وأمنيتهم .

(٩) فى سورة سبأ الآيات التالية :

« قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين . قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون . قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ...

٢٤ - ٢٦

والآيات تتضمن أوامر ربانية للنبى بمناقشة الكفار ومساجلتهم فى الحديث ، والأسلوب هادئ يلهم أن الطرف الثانى فى الموقف هو من الفريق المعتدل الذى يأخذ ويعطى ويناقش بدون عنف ولا قوة .

(١٠) فى سورة الزخرف الآيات التالية :

« أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفكم بالبنين . وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم . أو من ينشؤا فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين . وجعلوا الملائكة الذين هم عبد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهدتهم ويسألون . وقالوا

---

(١) فى الكلام جملة مضمرة تقديرها « لما آمن الجاحدون » على اعتبار أن الايمان إنما يكون عن انشراح صدر ورغبة ، وأن المطالب التعجيزية لا تصدر عن أصحاب النية الحسنة .

لَوْ شَاءَ الرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ . أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ . بَلْ قَالُوٓا إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ... ١٦ - ٢٢

والآيات تتضمن تنديداً بعقائد المشركين، وحكاية لأقوالهم واعتذاراتهم؛ وتلهم أنها ترديد أو تعقيب على موقف حجاج مواجه بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم؛ والأسلوب هادئ وفيه حكاية أخذهم وردّهم مع النبي اعتذاراً وتقريراً؛ مما يلهم أن هذا الموقف إنما كان مع الفريق المعتدل الذي يجنح إلى الأخذ والرد والاعتذار ولا يعنف ويقسو في الجحود والتكذيب.

(١١) وفي السورة نفسها الآيات التالية:

« وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوٓا ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ . إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ...

٥٧ - ٥٩

وقد تضمنت الآيات تعقيباً على مشهد من مشاهد الجدل بين النبي صلى الله عليه وسلم والكفار. فقد سبقها آية تنفي أن يكون الله قد جعل من دونه آلهة تعبد كما ترى في هذه الآية:

« وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ... ٤٥

فقالوا على ما تلهم الآيات كيف هذا والنصارى أهل كتاب وأنبياء ويعبدون المسيح؟ ثم استطردوا إلى ادعاء أفضلية عقيدتهم بنوة الملائكة لله وعبادتهم إياهم على عقيدة النصارى بنوة المسيح لله وعبادتهم إياه؛ والراجح أنهم بنوا هذا التفضيل على أساس أن الملائكة أقرب عائلة لله من المسيح الذي هو إنسان له طبائع البشر؛ وقد ردّت الآية عليهم بأن عقيدة بنوة المسيح وعبادته باطلتان

عند الله ، ثم تبع الآيات آيات أخرى بما كان من رسالة عيسى لقومه وبأن الانحراف إنما كان من عند أنفسهم كما ترى فيها :

« ولَمَّا جاءَ عِيسَى بالْبَيِّنَـتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ ولِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وأَطِيعُونِ . إنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي ورَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ... ٦٣ - ٦٥

والمهم هنا بالنسبة لبحثنا هو أن الجدل من النوع الهادى الذى يلهم أنه إنما كان مع الفريق المعتدل الذى يجنح إلى البحث والنقاش فى حدود ما يظنه المنطق .

(١٢) فى سورة الكهف الآيات التالية :

« واَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالْغَدَوٰةِ والعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ولا تَعْدُ عيناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنيا ولا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا واَتَّبَعَ هَوَاهُ وكانَ أَمْرُهُ فُرُطًا . وقُلِ الْحَقُّ مِن رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِن ومَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ إنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وإنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِماءٍ كالمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وسَاءَتْ مُرْتَفَقًا . إنَّ الَّذِينَ ءامَنُوا وعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ إنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ... ٢٨ - ٣٠

والآيات تأمر النبى بالصبر على صحبة المسلمين المخلصين مهما كان أمرهم ، وبعدم الانصراف عنهم للاهتمام لأصحاب الجاه والمال ، وعدم الاستماع لهؤلاء ، وما قد يقترحون ، وبإعلان أن الحق الإلهى واضح جلى ، فمن شاء الخير لنفسه آمن ومن شاء الشر لنفسه كفر ؛ وللمؤمنين الأجر العادل من الله .

وقد ذكرت الروايات فى نزول الآيات أن بعض زعماء الكفار كانوا يستطيلون على الفقراء والمساكين من المسلمين بعدم الاستجابة إلى دعوة النبى ويعيرونه بهم ،

ويطلبون منه إقصاءهم عنه إذا ما جلسوا إليه أو جلس إليهم ؛ وأن النبي خطر لباله الاستجابة إلى طلبهم أملا بإسلامهم ، وأنه أخذ فعلا يتشاغل عن تلك الطبقة أحياناً وخاصة حينما يتحدث إلى الزعماء فى أمر الدعوة انسياقاً وراء هذا الأمل .

وليس فى الرواية ما لا يتسق إجمالا مع مضمون ومدى الآية الاولى كما هو المتبادر . والمرجح أن الزعماء المحكى عنهم هم من الفريق المعتدل الذى لم تنقطع الصلة بينه وبين النبي والذين كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوسم فيهم الاستجابة ، والمشهد من المشاهد الخطيرة فى العهد المكى كما هو ظاهر .

وفى سورة الأنعام التى نزلت قبل سورة الكهف آيتان يمكن أن يكون فيهما مشهد مماثل ، وإن كانت آية الكهف أشد إيضاحا له ، وهما :

« ولا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَوْةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَاعَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّـٰلِمِينَ . وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَـٰؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّـٰكِرِينَ ... ٥٢ - ٥٣

إذ احتوت أمراً للنبي بعدم طرد أصحابه المؤمنين الذين هم على الغالب أولئك الفقراء والمساكين ، وحكاية سخرية الزعماء بهم ؛ وينطوى فى الأمر إلهام أن النبي صلى الله عليه وسلم قد هم أن يفعل ذلك ليخلى مجلسه لأولئك الزعماء .

وآيات سورة عبس ١ - ١٢ التى نقلناها فى مناسبة سابقة احتوت مشهداً مماثلا أيضاً .

وتكرار الإشارة إلى هذا فى القرآن يدل على ما هو المتبادر على تكرر المشهد بين حين وآخر ، وعلى ما كان يعتلج فى نفس النبي صلى الله عليه وسلم من الحرص الشديد على إسلام الفريق المعتدل من الزعماء على الأقل ، لأن الزعماء جميعهم على اختلافهم فى الشدّة والاعتدال كانوا القدوة للناس ، وكانوا المؤثر الأقوى فى بقاء الدعوة فى نطاقها الضيق ومركزها الحرج .

٦

هذا ؛ ونلاحظ أولا أن الصور التى اقتبسناها للمواقف الحادثة والمعتدلة هى

أقل بكثير من الصور العنيفة ، وثانياً أن سورة الكهف التي كانت آخر السور مقتبساً في مشاهد هذا القسم ليست من أواخر السور نزولا ، إذ يجيء بعدها سبع عشرة سورة منها ثلاث طويلة نوعاً وثلاث متوسطة نوعاً ؛ وأنه لم يبد لنا مشهد بارز طرفه معتدلون في السور التي بعد الكهف في ترتيب النزول . وقد نبهنا على هذا التمهيد إذ قلنا إن طابع الاعتدال والهدوء يضعف فيما تضمنته سور القرآن الأخيرة من مشاهد في حين أن طابع العنف والشدة يستمر ملحوظاً في جميع السور إلى آخرها نزولا .

ويمكن أن يقال في تعليل هذا إن استمرار الزعماء الطغاة في غلوائهم الذي كان من نتيجته اضطرار عدد كبير من المسلمين إلى الجلاء عن مكة إلى الحبشة ، والذي كان من نتيجته كذلك ارتداد بعض المسلمين عن دينهم على ما سوف نذكره بعد - قد أثر تأثيراً شديداً في سير الدعوة أولا ، وفي الفريق المعتدل حتى انجرف في العداء والصد ، أو انكمش أكثر من ذي قبل عن الاتصال بالنبي والمسلمين ثانياً ؛ فلم تعد السور التي نزلت في الثلث الأخير من العهد المكي تردد مواقف ومشاهد طرفها الثاني معتدلون ، وانحصرت مضامين هذه السور في ترديد مشاهد الشدة والعنف ، والتنديد بالكفار وإنذارهم بسوء المصير ، وتصبير النبي والمسلمين والتنويه بهم ووعدهم بالنصر والتأييد وحسن العاقبة ، مما يستفاد من السور المذكورة حين إنعام النظر في فصولها ؛ وقد استعرضنا أمثلة كثيرة منها في القسم الأول .

— ٧ —

وهناك فصول وآيات مكية عدة احتوت حملات على عقائد العرب وتقاليدهم ، ومكابراتهم ومواقفهم الجحودية بصورة مطلقة ، واصطبغ بعضها بصبغة الجدل حيناً ، والتحدي حيناً ، والتسفيه والتنديد والسخرية حيناً ؛ واستعمل فيها ضمير المخاطب كأنما كانت تلقى مواجهة وانطوى فيها صور ومشاهد من العهد المكي ، ومواقف مما كان يحدث بين النبي صلى الله عليه وسلم والمشركين - رأينا أن نلحقها بهذا المبحث للصلة الوثيقة بينها وبين موضوعه ؛ مع التنبيه إلى أن منها ما يمكن أن يكون بين النبي والزعماء العنيفين ، ومنها ما يمكن أن يكون بينه وبين الزعماء المعتدلين وإن لم

يمكن تمييز ذلك بجزم أو ترجيح.

(١) فمن ذلك آيات فى سورة النجم وهى :

١ - أفرءيتم اللت والعزى . ومنوة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذا قسمة ضيزى . إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وءاباؤكم ما أنزل الله بها من سلطن إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ... ١٩ - ٢٣

٢ - إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملئكة تسمية الأنثى . وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا ... ٢٧ - ٢٨

وقد وجه الخطاب فى الآيات الأولى إلى المشركين بأسلوب تنديدى لاذع ؛ ومما لا شك فيه أن النبى قد خاطبهم به مواجهة فى أحد المواقف بينهم وبينه.

(٢) ومن هذا الباب آيات فى سورة الصافات وهى :

« فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون . أم خلقنا الملئكة إناثا وهم شهدون . ألا إنهم من إفكهم ليقولون . ولد الله وإنهم لكذبون . أصطفى البنات على البنين . مالكم كيف تحكمون . أفلا تذكرون . أم لكم سلطن مبين . فأتوا بكتبكم إن كنتم صدقين ...

١٤٩ - ١٥٧

إذ وجه الخطاب فيها إلى المشركين بأسلوب لاذع كذلك ؛ ومما لا يتحمل شكا أن النبى قد خاطبهم بها فى أحد المواقف المواجهة.

(٣) ومن ذلك آيات الأعراف التالية :

« أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون . ولا يستطيعون لهم

نَصْرًا ولا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ . وإنْ تَدْعُوهُمْ إلى الْهُدَى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ . إنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ ءاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ . إنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ . والَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ ولا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ . وإنْ تَدْعُوهُمْ إلَى الْهُدَى لا يَسْمَعُوا وتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إلَيْكَ وهُمْ لا يُبْصِرُونَ ...

١٩١ - ١٩٨

إذ احتوت حملة تنديدية لاذعة على شركاء العرب وأصنامهم فيها سخرية وتحد ، وفيها ماهو بمثابة موقف جدلى ، إذ وجه الخطاب فى بعضها إلى المشركين . وطبيعى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد خاطبهم بهذا منددًا ساخرًا فى موقف من المواقف المواجهة .

(٤) ومن ذلك الآيات التالية فى سورة لقمان :

« أَلَمْ تَرَوْا أنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فى السَّمَوَاتِ وما فى الأَرْضِ وأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وبَاطِنَةً ومِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ولا هُدًى ولا كِتَابٍ مُنِيرٍ . وإذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءابَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ...

٢٠ - ٢١

إذ احتوت تسفيهاً شديداً لما يحتج به المشركون من تفضيل اتباع الآباء ، وانطوى فيها تعقيب أو ترديد لموقف جدلى بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم .

(٥) ومن ذلك الآيات التالية فى سورة المؤمنون :

« بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَاقَالَ الْأَوَّلُونَ . قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا وكُنَّا تُرَابًا وعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وءَابَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ . قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ . قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ... ٨١ - ٨٩

إذ احتوت حكاية لموقف مكابرة للجاحدين وتعقيباً عليه وأمراً للنبي صلى الله عليه وسلم بتوجيه الخطاب إليهم مفحماً متحدياً . ومن الطبيعي أن النبي قد وجه إليهم الخطاب في مشهد من المشاهد المواجهة بينه وبينهم .

ومن هذا القبيل آيات في سورة النمل وهي :

« قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ . أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ . أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَا أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ . أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَٰلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ

صٰدِقِينَ . قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فى السَّمٰوٰتِ والأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ
وما يَشعُرُونَ أَيَّانَ يُبعَثُونَ . بَلِ ٱدّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فى الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فى
شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ . وقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرٰبًا وءاباؤُنا
أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ . لَقَدْ وُعِدْنَا هٰذَا نَحْنُ وءاباؤُنا مِن قَبلُ إِنْ هٰذَا إِلَّا
أَسٰطِيرُ الأَوَّلِينَ ... ٥٩ - ٦٨

والتشابه فى الموقف والحوار والمكابرة كبير جدا بين الفصلين القرآنيين كما هو ظاهر ، وإن كانت حكاية إنكارهم الآخرة جاءت فى آخر الفصل هنا على حين جاءت فى أول الفصل هناك . وطبيعى أنه كان فى سياق توجيه الآيات مشهد من المشاهد المواجهة بين النبي صلى الله عليه وسلم والجاحدين .

(٦) ومن ذلك الآيات التالية فى سورة فاطر :

١ — يٰأَيُّهَا النَّاسُ اذكُرُوا نِعمَتَ اللهِ عَلَيكُمْ هَلْ مِنْ خٰلِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنّٰى تُؤْفَكُونَ ... ٣

٢ — يٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيٰوةُ الدُّنيا ولا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ . إِنَّ الشَّيطٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحٰبِ السَّعِيرِ ... ٥ - ٦

٣ — ... ذٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ والَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مايَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ . إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ولَوْ سَمِعُوا ما ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ولا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ . يٰأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ واللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وما ذٰلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ ... ١٤ - ١٧

٤ — قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا

خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا ...

٤٠

ففى هذه المقاطع هتافات بالناس ، فى صدد الدعوة ، احتوت تذكيراً وتسفيهاً وإنذاراً ، ولا ريب فى أن النبى صلى الله عليه وسلم قد وجهها إلى العرب فى مواقف مواجهة كانت بينه وبينهم .

(٧) ومن ذلك الآيات التالية فى سورة الأنعام :

« قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فى ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ...

١٦٠ - ١٦٥

وطبيعى أن النبى صلى الله عليه وسلم قد نفذ أمر ربه فوجه هذا الهتاف إلى الناس فى مشهد أو مشاهد مواجهة كانت تنعقد بينه وبينهم .

ومن هذا الباب آيات سورة يونس التالية :

١ — قل يا أيها الناس إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين . وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين ...

١٠٤ - ١٠٥

٢ - قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ...

١٠٨

إذ كانت هذه المقاطع من دون ريب توجه للناس فى مشهد أو مشاهد مواجهة تنعقد بين النبى صلى الله عليه وسلم وبينهم تنفيذاً لأمر ربه.

— ٨ —

(٨) ومن ذلك فصل طويل فى سورة الأنعام فى صدد تقاليد دينية للمشركين فى الأنعام والنذور ننقله فى المقطعين التاليين :

١ - وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ . وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ . وَقَالُوا مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ...

١٣٦ - ١٣٩

٢ - ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ الضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ . وَمِنَ الْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ

حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَـٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ . فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ . سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ . قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ . قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَـٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ . قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ

لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا وإذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ولَوْ كانَ ذَا قُرْبَىٰ وبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. وأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ... ١٤٣ - ١٥٣

وقد احتوت الآيات حملة تقريعية لاذعة على سخف تقاليد المشركين فى الأنعام والنذور وتحليلهم وتحريمهم الكيفى، كما احتوت تعليماً للنبي بجادلتهم فى ذلك، وأجوبة منهم فى هذه المجادلة ... والظاهر أنهم احتجوا بما عند اليهود من محرمات وأنهم ليسوا بدعاً، فردت عليهم أن ما حرّمه الله هو الرجس والفسق، وأنه إذا كان حرّم على اليهود شيئاً آخر فإنما ذلك عقوبة خاصة بهم؛ ولقد احتج المشركون بأن ما هم عليه بمشيئة الله، فعلمت الآيات النبي الرد عليهم وتحديهم، ثم استطردت إلى أمر النبي بإعلامهم بأن ما حرّم الله من أعمال ودعا إليه من مكارم هو وحده الذى يجب أن يتبع؛

وهكذا احتوت الآيات مشهداً جدلياً أو ترديداً وتعقيباً أو تعليما لموقف جدلى مواجه قد وقع حتما تنفيذاً لأمر الله وتعليمه، بين النبي وفريق من زعماء المشركين، ويبدو أنه من أهم المشاهد والمواقف الجدلية الموضوعة. وأسلوب الآيات قد يلهم أن الطرف الثاني فى هذا المشهد كان فريقاً معتدلا أكثر منه عنيفاً عاتيا.

ولقد جاء بعد هذه الآيات فصل متصل بالموقف كما ترى فيما يلى:

« ثُمَّ ءاتَيْنَا مُوسَى الكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وهُدًى ورَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ. وهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنْزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ واتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الكِتَٰبُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الكِتَٰبُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وهُدًى ورَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَٰتِ اللهِ وصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي

الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ...

١٥٤ - ١٥٧

إذ استمرت فيها الدعوة بقوة دامغة ، فالله آتى موسى الكتاب ثم أنزل القرآن مصدقاً لما سبقه من كتب الله بلسانهم فيه النور والهدى والرحمة والبينات ، لئلا يحتجوا بأن الكتب السابقة بغير لسانهم ولم يتيسر لهم الاطلاع عليها ودراستها ويعتذروا ويقولوا لو أنه أنزل علينا كتاب بلساننا لكنا أهدى من أصحاب الكتب السابقة .

ويتصل بالموضوع الذى احتواه القسم الأول من الآيات آيات أخرى فى سورتى يونس والنحل فيها ترديد أو تعقيب أو تعليم لموقف حجاجي وتنديدى فى صدد المحرمات وفى آيات سورة النحل عطف على بعض ما جاء فى القسم الثانى من الآيات فى صدد المحرمات اليهودية كما ترى فيما يلى :

١ - قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ . وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ... يونس ٥٩ - ٦٠

٢ - إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ... النحل ١١٥ - ١١٨

وتكرار الكلام على الموضوع يدل على أن الحجاج فى صدده ظل يتكرر ،

وبالتالى على أنه من المواضيع المهمة التى كانت وسيلة للحجاج والنقاش بين النبي صلى الله عليه وسلم والمشركين الذين كانوا على صلة ما بالنبي والمسلمين أو المشركين بوجه الإجمال .

- ٩ -

ومما هو جدير بالتنبيه ومتصل بهذا الباب ، التشابه الموجود بين ما حكته القصص القرآنية عن رسالات الأنبياء السابقين لأقوامهم ومواقف أقوامهم منهم - سواء منها ما كان عربيا غير توراتى كقصص هود وعاد وصالح وثمود وشعيب ومدين ، أو توراتيا كقصص نوح ولوط وموسى وفرعون وبنى إسرائيل وداوود وسليمان ويونس الخ ، - وبين ما احتوته الآيات القرآنية من حكاية مواقف جاحدي العرب وأقوالهم ، وما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتوجيهه إليهم من هتاف وخطاب وتنديد وإنذار ؛ فى هذا التشابه حكمة من حكم تلك القصص ، وورودها مكررة بأساليبها المتنوعة ، إذ كانت تنزل فى مناسبات مواقف الجاحدين المتكررة والمتنوعة ، لتسلية النبى صلى الله عليه وسلم بأن ما يلقاه من قومه - من جحود أكثريتهم الساحقة وتكذيبهم له ونسبتهم إليه السحر والافتراء والجنون ، وتحديهم إياه بالآيات والخوارق ، واتخاذه هو والمسلمين معه موضع سخرية وهزء واستخفاف ، واستكبارهم ومكابرتهم وعنادهم ومؤامراتهم ومكرهم ومكايدهم - قد لقيه من قبله من الأنبياء والرسل ؛ وللتنديد بالجاحدين بأن ما يقع منهم قد وقع مثله ممن قبلهم أيضاً ، ولإنذارهم بأن الله محيط بهم ومنكل كما أحاط ونكل بمن سبقهم من أمثالهم ؛ وهكذا يصح أن يقال إن القصص القرآنية تحتوى بطريقة غير مباشرة صوراً لمشاهد ومواقف للجاحدين فى العهد المكى الذى نزلت جميعها تقريباً فيه .

ومن هذه القصص ما جاء مسهبا ومنها ما جاء مقتضباً ، وهى منبثة فى سور الأنعام والأعراف وهود وإبراهيم والحجر ومريم وطه والأنبياء والفرقان والشعراء والنمل والقصص والعنكبوت ويس والصافات وص وغافر وفصلت والزخرف والدخان والأحقاف وق والقمر والقلم والحاقة ونوح والفجر ؛ ومن التطويل الذى لا حاجة إليه نقل نصوصها هنا ؛ وإن المتمعن فيها ثم المتمعن فى الآيات والفصول التى

نقلناها فى هذا المبحث ، والتى سننقلها فى المباحث التالية ، ليجد التماثل بينها قويا ويسلم بصحة ما نبهنا إليه فى صددها .

وتنبه خاصة فى هذا الصدد إلى ماورد فى القرآن ولم يرد فى التوراة من قصص إبراهيم صلى الله عليه وسلم مع أبيه وقومه وأقواله ومواقفه ودعائه ، وهى مبثوثة فى سور الأنعام وإبراهيم ومريم والأنبياء والشعراء والعنكبوت والصافات والزخرف ؛ فى هذه القصص تنديد بالأصنام وعبادتها ، وتبرؤ إبراهيم صلى الله عليه وسلم منها ومن قومه وأبيه بسببها ، وإعلانه إسلام وجهه لله وأنه كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ؛ وفيها تعقيبات بالدعوة إلى الاقتداء به والتنديد بجاحدى العرب بسبب شذوذهم عن الطريق الحق . وعدم ورود هذه القصص والمواقف فى التوراة مما يسوغ القول أنها مما كان متداولا معروفاً فى أوساط العرب كمرويات ومنقولات عربية عن الآباء إلى الأبناء استتباعاً لصلة الأبوة التى كانت متداولة معروفة بين العرب على ماذكرناه فى كتابنا عصر النبى وبيئته . وثمة حكمة من حكم التنزيل فى إيرادها ، هى تذكير العرب بما كان عليه أبوهم ، والتنديد بهم لمخالفتهم إياه إلى الشرك والوثنية وبالتالى يصح أن يكون فيها مقاصد ومواقف وهتافات توجيهية للعرب السامعين كما هو المتبادر .

المبحث الرابع

مشاهد التحدى

مدى هذه المشاهد وبواعثها ـ كثرة التحدى والموقف السلبي الذى يمثله القرآن المكى أزاءه ـ فصول قرآنية صريحة بعيدة المدى فى الدلالة على الموقف السلبي من التحدى ـ مايلهمه هذا الموقف من آثار فى سير الدعوة وموقف الزعماء ـ تحديات متصلة بالقرآن خاصة ـ تحديات مقابلة لها ـ تحدى المشركين بعربية القرآن ـ القرآن ليس معجزة تحد وإنما هو معجزة بذاته ـ الموقف السلبي فى صدد المعجزات أما البراهين والخطاب والحجاج ففيها إيجابية قوية ـ ماتلهمه الآيات من حكمة الموقف السلبي ـ مزية الرسالة المحمدية وترشحها للخلود ـ استدراك فى صدد معجزات انشقاق القمر والاسراء والمعجزات المروية والتأييدات الربانية للنبي ـ المقصد من المعجزة التى كان الموقف سلبياً من تحديها ـ الاسراء والمعراج حادثان خاصان بالنبي ولايدخلان فى نطاق معجزة التحدى ـ بحث فى معجزة انشقاق القمر ـ التأييدات الربانية التى تسمى معجزات لاتدخل فى نطاق معجزة التحدى ـ استدراك فى صدد وجوب الايمان بقدرة الله على المعجزات ووجوب الايمان بما أخبر به القرآن منها ـ مشهد من مشاهد العهد المدنى حول الاسراء النبوى .

— ١ —

من أهم مشاهد التشاد والجدل التى كانت تقع بين النبي صلى الله عليه وسلم وزعماء العرب فى مكة نتيجة للموقف السلبي والعدائى الذى وقفوه منذ البدء ، مشاهد التحدى المتقابلة ؛ فإن الزعماء لما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم بطبيعة بشرية مثل طبيعتهم ، ورأوا فى دعوته تحدياً لزعامتهم ، وتهديداً لمكانتهم ، وضربة على تقاليدهم المتنوعة ، ومبعث خوف على إمامة مكة ومركزها ومنافعها المادية والمعنوية ـ وقفوا منذ البدء موقف الإنكار والجحود والصد والتعطيل ، والتهويش والتضليل ، واستمروا فى هذا الموقف الشديد العنيد ، واتخذوا نعته بالجنون والسحر والشعر والكذب والكهانة والاتصال بالشياطين والتعلم والاقتباس الخ ديدناً يكررونه فى كل مناسبة ، تدعيما لذلك الموقف ؛ وإن كان بعضهم فعل هذا مع الاعتدال وبدافع الشك والارتياب فحسب . ولم يسكت القرآن لهم على هذا الموقف بطبيعة الحال ؛ فرد

عليهم منذ البدء ، ثم استمر فى رده يندد بأقوالهم ويحمل عليهم حملات قارعة لاذعة ، ويكذبهم ، ويسفههم وينذرهم ويتوعدهم بمختلف الأساليب من جهة ، ويثبت النبي صلى الله عليه وسلم ويؤيده فى موقفه ودعوته ، ويؤكد صدق دعواه وأقواله من جهة أخرى ، بما هو منثر فى مختلف السور والفصول القرآنية فى مختلف أدوار التنزيل المكى ؛ وقد نقلنا منه أمثلة كثيرة فيها الكفاية .

ولقد كان من جملة ردود القرآن ، تقرير كون الأنبياء السابقين هم من البشر مثل النبي صلى الله عليه وسلم سواء بسواء ، وكون النبي ليس بدعاً فى رسالته ودعوته وبشريته ، كما ترى فى الآيات التالية :

١ — وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى الْأَسْوَاقِ ... الفرقان ٢٠

٢ — وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِى إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ... يوسف ١٠٩

٣ — قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ... الأحقاف ٩

٤ — وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِى إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ... الأنبياء ٧ - ٨

فوقف الزعماء إزاء هذا الموقف القرآنى من تحديهم ، وأخذوا يطالبون النبي صلى الله عليه وسلم بالمعجزات والآيات برهاناً على صدق دعواه أولا ، ثم أخذوا يدعمون مطالبهم بتحد آخر ، وهو سنة الأنبياء السابقين الذين جاءوا بالآيات والمعجزات كما ترى فى الأمثلة الآتية :

١ — وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا .

أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ... الإسراء ٩٠ - ٩٣

٢ - وَقَالُوا يَٰٓأَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ. لَّوْمَا تَأْتِينَا بِالْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ... الحجر ٦ - ٧

٣ - وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ... الفرقان ٧ - ٨

٤ - فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِىَ مِثْلَ مَا أُوتِىَ مُوسَىٰ ...
القصص ٤٨

٥ - بَلْ قَالُوا أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ افْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ... الأنبياء ٥

ولعل ما جاء فى آيتى القصص والأنبياء وأمثالها من أقوالهم المحكية قد كان معه ما يحتمل أن يكونوا عرفوه من أخبار الأنبياء عن طريق الكتابيين، بناء على ما كان يتلوه النبى صلى الله عليه وسلم من قصص الأنبياء التى أخذت تنزل فصولها منذ عهد مبكر واحتوت أخبار تحدى الأمم السابقة لأنبيائها وأخبار الخوارق والآيات التى حدثت على أيديهم

ولقد تكرر طلب الآيات من جانب الجاحدين، أو بالأحرى زعمائهم . كثيراً حتى حكى القرآن المكى ذلك عنهم نحو خمس وعشرين مرة صريحة، عدا ما حكى عنهم من التحدى الضمنى ومن التحدى بالإتيان بالعذاب واستعجاله والتساؤل عن موعده .

ولا نعدو الحق إذا قلنا إن المستفاد من الآيات القرآنية المكية أن الموقف تجاه

هذا التحدى المتكرر كان سلبيا ؛ إذا ما استثنينا الإشارة إلى القرآن كآية كافية ، أو الى احتوائه ما فى الكتب السماوية كآية على صحة وحى الله به ، ثم آيات انشقاق القمر التى سنعرض لها بعد ؛ كما ترى فى الأمثلة التالية :

١ — وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ... الأنعام ٣٧

٢ — وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ... يونس ٢٠

٣ — من هذا الباب آيات الإسراء ٩٣ والأنبياء ٦ والفرقان ٩ وقد نقلناها قبل .

٤ — وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ... الرعد ٧

٥ — وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ... طه ١٣٣

٦ — أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَـٰٓؤُا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ...

الشعراء ١٩٧

٧ — وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْءَايَـٰتُ عِندَ اللهِ وَإِنَّمَآ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ...

العنكبوت ٥٠ - ٥١

٨ — وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ

لَمحِيطَةٌ بالكٰفِرِينَ ... العنكبوت ٥٣ - ٥٤

٩ — ويَقولُونَ مَتَىٰ هٰذَا الوَعْدُ إن كُنتُمْ صٰدِقِينَ . قُلْ إنَّمَا العِلْمُ عِندَ اللهِ وإنَّمَا أنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ... الملك ٢٥ - ٢٦

— ٢ —

بل هناك ما هو أبعد مدى فى الدلالة على الموقف السلبي المذكور يتجلى فى بعض الفصول القرآنية ، منها آيات الأنعام ١٠٩ - ١١١ التى نقلناها فى المبحث السابق والتى استلهمنا منها أن المسلمين كانوا يتمنون استجابة الله لتحدى الكفار وإظهاره معجزة تبهتهم فيؤمنون برآ بأيمانهم ؛ إذ اقتضت الحكمة الإيحاء بالآيات استمراراً بالموقف السلبي ومعللا بما تأويله : « إن الله يعلم من الكفار نية العناد والمكابرة وأنه لو أنزل عليهم أعظم الآيات لما آمنوا إلا أن يشاء الله ، لأن الإيمان لا يتوقف على المعجزات وإنما هو منوط بحسن القصد وشرح الله صدر المرء به » .

ولعل آيات الحجر والأنعام التالية :

١ — ولَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إنَّمَا سُكِّرَتْ أبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ... الحجر ١٤ - ١٥

٢ — ولَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إنْ هٰذَا إلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ... الأنعام ٧

من هذا الباب من ناحية توكيد نية المكابرة والعناد فى الكفار ، والاستمرار فى الموقف السلبي من أجل ذلك .

وفى الأنعام آية وجه الخطاب فيها إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، تدل على أنه هو نفسه كان يتمنى أن يحدث الله على يده آية تبهت الكفار وتحملهم على الإذعان تأثراً بموقف الإعراض والصد والتحدى الذى يقفونه وهى :

« وإنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إعْرَاضُهُمْ فَإنِ اسْتَطَعْتَ أنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا

فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين . إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون ... ٣٥ - ٣٦

والموقف والتعليل متجليان فى الآيتين كما هو واضح .

وفى سورة هود آية عظيمة المغزى من ناحية شعور النبي صلى الله عليه وسلم هذا ، وهى هذه :

« فلعلك تارك بعض مايوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شىء وكيل ... ١٢

إذ تكشف عما كان يخالج نفس النبي صلى الله عليه وسلم من حيرة وضيق بسبب تحدى الكفار إياه بالمعجزات ، حتى لقد كان أحياناً يهم بتفادى تلاوة بعض مايوحى به إليه عليهم أو يكاد صدره يضيق به لتوقعه منهم التحدى .

وقد روى الرواة فى صدد الآية مافيه توضيح أكثر ، إذ قالوا إن الكفار كانوا يطالبون النبي صلى الله عليه وسلم بالمعجزات فلا يستجيب إليهم ، ثم توحى إليه الآيات القرآنية فيسخرون منه ويقولون هلا استنزلت ملكا أو كنزاً بدلا من هذه الآيات ؟ فكان يخجل ويتهرب منهم أحياناً !

ونعتقد أن من السائغ أن يقال إن هذا الموقف السلبى كان من عوامل تكرر التحدى من جانب الزعماء المكابرين المستكبرين وانقلاب أسلوبهم فيه إلى التعجيز حيناً كما هو ظاهر فى آيات الأسراء ٩٠ - ٩٣ وإلى السخرية حيناً كما هو ظاهر فى آيات الحجر ٦ - ٧ وفى آية الأنفال التالية التى وردت للتذكير :

« وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ... ٣٢

كما كان دعامة لصدهم وتعطيلهم وخبث دعايتهم ومكرهم ضد النبي صلى الله عليه

وسلم ودعوته أيضاً ؛ بل لعله كان من أسباب تمسك المعتدلين بجحودهم أولا ، وانجرافهم مع المعاندين أخيراً .

- ٣ -

ومن الجدير بالذكر والتنبيه فى صدد هذا الموقف ومشاهده أن حجة كفاية القرآن كآية كانت سبباً لتحديات أخرى متصلة بالقرآن نفسه حكيت عن الكفار بطلب الإتيان بقرآن غيره أو تبديله أو إنزال القرآن جملة واحدة، ثم بنعته أنه من أساطير الأولين وأنه قول بشر وأنه مفترى، وبقولهم إنهم لو شاءوا لقالوا مثله كما ترى فى الآيات التالية :

١ — وإذا تتلى عليهم ءايتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين ... [(١)] الأنفال ٣١

٢ — وإذا تتلى عليهم ءاياتنا بينت قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرءان غير هذا أو بدله قل مايكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا مايوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ... يونس ١٥

٣ — وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتره وأعانه عليه قوم ءاخرون فقد جاءو ظلما وزورا . وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ... الفرقان ٤ - ٥

٤ — وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرءان جملة وحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلنه ترتيلا ... الفرقان ٣٢

---

(١) هذه الآية وإن كانت مدنية قد جاءت فى جملة آيات تذكر بما كان من مواقف وأقوال الكفار فى مكة

فكان ذلك التحدى القرآنى لهم بالمقابلة بالإتيان بكتاب من عند الله أو بعشر سور مفتريات أو بسورة مثله أو بحديث منه كما ترى فى الآيات التالية :

١ — أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ... يونس ٣٨

٢ — أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ... هود ١٣

٣ — قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ... القصص ٤٩

٤ — أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ... الطور ٣٣ - ٣٤

ثم كان الإفحام القرآنى بتقرير عجزهم أفراداً وجماعات عن ذلك ؛ كما ترى فى الآيات التالية :

١ — وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ... (١)

البقرة ٢٢ - ٢٤

٢ — فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُم مُّسْلِمُونَ (٢) هود ١٤

٣ — قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ

(١) هذه الآيات مدنية وهى تسجل استمرار عجزهم عن الاستجابة للتحدى .

(٢) هذه الآية جاءت بعد التحدى الذى احتوته الآية التى قبلها .

لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ... الإسراء ٨٨

٤ - فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ... [1]

القصص ٥٠

وهكذا تكرر التحدى من الكفار وتكرر التحدى المقابل من القرآن بحيث يصح أن يقال إنهم كلما وصفوا القرآن بوصف من تلك الأوصاف الكاذبة تحداهم القرآن تحدياً قويا مفحماً ولاذعاً يتجلى فيه الاستعلاء وتلقين الثقة للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ؛ وأعلن عجزهم عن الإستجابة وكذبهم فيما يدعون ويتحدون .

ونلفت النظر خاصة إلى آيات البقرة التى هى مدنية ، إذ تسجل وقوف الكفار موقف العاجز طيلة العهد المكى بتمامه أمام التحدى القرآنى وتقرر أبدية استمرار العجز منهم بعد ذلك .

وواضح أن فى هذا التحدى المتقابل مشاهد من السيرة فى عهدها المكى بين النبي صلى الله عليه وسلم والمشركين ؛ وليس من شك فى أن الزعماء هم الذين كانوا الطرف الثانى لهذه المشاهد .

ومما يتصل بهذا الباب آيات فى سورة فصلت يستلهم منها صورة طريفة لموقف من مواقف المشركين الحجاجية إزاء القرآن وهى :

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ . مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ... ٤١ - ٤٤

(١) كذلك هذه الآية فانها جاءت بعد التحدى الذى احتوته الآية التى قبلها .

والظاهر أن المشركين قالوا فيما قالوه فى مواقف التكذيب والتحدى إن الكتب السماوية هى بغير اللغة العربية ، ورأوا فى عربية القرآن شذوذاً عن ذلك فاعتبروا هذا ثغرة يمكن مهاجمة النبي صلى الله عليه وسلم منها فنزلت الآيات تندد بهم لمكابرتهم وتمحلهم . وفى سورة الشعراء التى نزلت قبل سورة فصلت آيات فيها شيء من هذه الصور وهى :

« وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ . فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ... ١٩٨ - ١٩٩

مما يمكن أن يلهم أن هذا التمحل منهم وقع فى أكثر من موقف واحد وظرف واحد .

هذا ؛ ونعتقد أن مما يصح قوله مع هذا كله ومع الإيجابية القوية التى تنطوى فى تحدى القرآن للكفار ، أن المعجزة القرآنية إنما هى معجزة لذاتها وماهيتها وليست معجزة تحد ، أى أن القرآن لم ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم جواباً على تحدى الكفار ، بل ولم تنزل آيات منه بناء على طلب أو تحد ؛ وإن هذا كان وسيلة من وسائل المكابرة والجحود كما تلهمه آية سورة يونس ١٥ التى نقلناها وكما تلهمه هذه الآية من سورة الأعراف :

« وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا (١) قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ... ٢٠٣

وإنما نزل عليه لاصطفائه من قبل الله بالرسالة والتنزيل ، وكان وظل تنزيله وكنه الوحى به مما هو خاص الإدراك فيه وحده ؛ وأن هذا من هذه الناحية يؤيد القول الذى قلناه استنتاجاً من نصوص القرآن عن الموقف السلبى العام تجاه تحدى القرآن .

---

(١) يظهر أنهم كانوا يقترحون على النبي موضوعاً بعينه فاذا لم يجبهم سخروا منه قائلين هلا اخترعتها !

— ٤ —

وتنبه مع ذلك إلى أن الموقف السلبي الذى تمثله النصوص القرآنية لم يكن سلبيا بوجه عام إلا من ناحية الإجابة على التحدي بالإيجاب . أما من ناحية الحجاج والبرهنة والتدليل والتنبيه إلى أهداف الدعوة النبوية فإنها كانت إيجابية كل الإيجابية ؛ وهذه نقطة جديرة بالتنبيه فى صدد الرسالة المحمدية وخصائصها من دون ريب .

ففى سياق الرد على جحود الكفار لوحدة الله وإشراك غيره معه فى الاتجاه والعبادة، وفى سياق البرهنة على وحدة الله واستحقاقه وحده العبادة والخضوع ووجوب وجوده واتصافه بصفات الكمال ، وفى سياق الحملة على الكفار والتنديد بهم بسبب عقائدهم الشركية والوثنية الأخرى كعقيدة بنوة الملائكة لله ، وفى سياق إثبات حقيقة الحياة الأخرى وعذابها وثوابها وقدرة الله على إعادة الخلق الذى بدأه وما ينطوى فى هذه الحقيقة من حكمة العدل والحق والتنزه عن العبث ، وفى سياق الدعوة إلى الأعمال الصالحة وتقبيح الأعمال السيئة على أنواعها وإثبات أن هذا إنما هو لصالح الإنسانية وخيرها وسعادتها ، وبعبارة واحدة : فى سياق الدعوة إلى أهداف الرسالة المحمدية المتنوعة قد ورد فى القرآن المكى آيات وفصول كثيرة جدا فيها من قوة الحجة ونصاعة البيان ، واستحكام البرهان ، وأسلوب الخطاب الموجه إلى العقل والقلب معاً ما فيه كل الإيجابية وما لا يسع أي منصف حسن النية والرغبة غير متعمد للعناد والمكابرة إلا التسليم به ؛ ولم نر حاجة إلى إيراد الأمثلة لأن هذه الآيات والفصول منتثرة فى جميع السور المكية بل تكاد تكون نصوص القرآن المكى مقصورة عليها .

ويقال هذا كذلك فيما احتواه القرآن فى سياق رده على الكفار تهجمهم على النبي صلى الله عليه وسلم ونعتهم إياه بالساحر والشاعر والمجنون والمفترى والكاذب والمتعلم ، ونعتهم القرآن بالمفترى وأساطير الأولين الخ — من الردود القوية كل القوة ، واللاذعة أنكى اللذع ، والمفحمة أقوى الإفحام ، والدامغة أشد الدمغ ، وبأساليب تتجلى فيها صميمية النبي صلى الله عليه وسلم وصدقه واستغراقه فى مهمته تجلياً رائعاً مما هو منتثر فى سور القرآن وقد نقلنا منه أمثلة عدة فى الفصل الأول مما يصح أن يعد إيجابيافى بابه أيضاً ، كما يقال هذا بتمامه كذلك فى تحدى القرآن للكفار بالقرآن نفسه أيضاً .

وهذه النواحى الإيجابية فى النصوص القرآنية يصح أن تكون مفسرة لحكمة ذلك الموقف السلبى ، بحيث يصح أن يستلهم منها وأن يقال - وقد ألمع إلى ذلك غير واحد من الباحثين أيضاً - إن حكمة الله اقتضت أن لا تكون الخوارق دعامة لنبوة سيدنا محمد عليه السلام وبرهاناً على صحة رسالته وصدق دعوته التى جاءت بأسلوب جديد هو أسلوب لفت النظر إلى الكون وما فيه من آيات باهرة ، والبرهنة بها على وجود الله وقدرته الشاملة ووحدته واستحقاقه وحده للخضوع والعبادة والاتجاه ، وبطلان الشرك والوثنية وسائر العقائد والتقاليد المتناقضة مع هذا الأصل النقى البسيط ، ثم أسلوب مخاطبة العقل والقلب فى الحث على الفضائل والتنفير من الرذائل وإثبات قدرة الله على الحياة الأخرى وفكرة الحق والعدل فيها ، وعلى اعتبار أن الدعوة التى تقوم على تقرير وجود الله واستحقاقه وحده للعبودية واتصافه بجميع صفات الكمال ، وعلى التزام الفضائل واجتناب الفواحش هى فى غنى عن معجزات خارقة للعادة لا تتصل بها بالذات .

وفى هذا ما فيه من وضوح مزية الرسالة المحمدية وترشحها للخلود والتعميم . وآيات الأنبياء السابقين الخارقة حادثات وقعت وانقضت ، ولكن أسلوب الدعوة القرآنية هذا الذى اختلف كل الاختلاف عن أسلوب الكتب المنزلة على بعض أولئك الأنبياء هو أسلوب خالد حى قوى فى كل زمان ومكان ببراهينه ودلائله وحيويته ونفوذه وفصاحته ومعقوليته ومنطقه وسموه ؛ ولذلك كان وظل معجزة النبوة الخالدة الكبرى من هذه النواحى .

— ٥ —

نقول ماقلناه ونحن نعرف ...

(١) أن كثيراً من المفسرين قالوا إن آيات سورة القمر الأولى احتوت خبر معجزة انشقاق القمر فعلا فى مكة ، ورووا أحاديث عدة مؤيدة لقولهم ، وفى بعضها مايفيد أن هذه المعجزة قد وقعت جواباً على تحدى الكفار .

(٢) أن حادث الإسراء الذى ذكر بصراحة فى الآية الأولى من سورة الإسراء يسلك فى عداد المعجزات النبوية ومثله حادث المعراج الذى ذكر ضمناً على رأى بعض

العلماء فى بعض آيات سورة النجم .

(٣) أن فى القرآن تأييدات ربانية للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين فى بعض المواقف والأزمات وخاصة فى أثناء الجهاد، كما أن فيه ما يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد اطلع على بعض الأمور المغيبة مما عد فى عداد المعجزات النبوية .

(٤) أن فى كتب السيرة والحديث والشمائل روايات كثيرة عن معجزات نبوية منها ما روى أنه وقع فى مكة جواباً على تحدى الكفار .

غير أننا فى الحق نرى الموقف السلبي الذى تمثله آيات القرآن عاما قويا من الصعب أن ينقضه ذلك

ونقول قبل كل شىء إننا نقصد بالموقف السلبي عدم إجابة تحدى الكفار النبي صلى الله عليه وسلم بالإتيان بمعجزة ؛ وهذا المفهوم الذى هو طابع ذلك الموقف قد صار مصطلحاً عليه فى تعريف المعجزة النبوية . فإذا ما استعرضنا الآيات التى تحكى تحدى الكفار وترد عليه بصورة عامة - وهى كثيرة وواردة فى مختلف أدوار التنزيل المكى وقد استعرضنا جملة منها - وجدناها تمثل ذلك الموقف تمثيلا تاماً ؛ ثم وجدنا إلى جانبها آيات كثيرة واردة فى مختلف أدوار التنزيل المكى مما استعرضنا منه جملة أيضاً تؤكد أن الله لم ينزل آيات ولم يستجب إلى تحدى الكفار لأنه يعلم أن المتحدين إنما يتحدون عناداً ومكابرة وأنهم لن يؤمنوا ولو جاءتهم أقوى الآيات وأعظمها .

وإذا مادققنا فى مدى آية الإسراء :

« سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ...

١

وجدنا أن الإسراء النبوى الذى أشارت إليه الآية لم يكن جواباً على تحد ، وإنما كان حادثاً خاصا بالنبي صلى الله عليه وسلم ليريه ربه من آياته ، وأنه لم يدركه ويشعر به غيره ؛ واستطعنا بالتالى أن نقول إنه لا يدخل فى مدى اصطلاح المعجزة ، ولا يصح أن يعد والحالة هذه ناقضاً للموقف السلبي العام . ونصل إلى النتيجة نفسها إذا مادققنا فى مدى آيات النجم التى قال بعض المفسرين إنها تضمنت خبر المعراج النبوى وهى :

« ولقد رءاه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى .
إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من
ءايت ربه الكبرى ... ١٣ - ١٨

وهذا بغض النظر عما هناك من أقوال وروايات مختلفة في كيفية وظروف الحادثتين ؛ حيث هناك روايات بأن كليهما رؤيا منامية ، أو أنهما كانا في اليقظة والجسد والروح ، أو بالروح دون الجسد ، أو بأن الإسراء كان باليقظة والروح والجسد دون المعراج الذي كان مناماً أو كان بالروح ، أو بأن حادث المعراج النبوي لم يقع وإنما الواقع الثابت هو حادث الإسراء ، أو بأن الإسراء كان في وقت والمعراج في وقت آخر ، أو بأنهما كانا في ظرف واحد ، وبأنهما وقعا في أوائل البعثة ، وفي أواسطها ، بل هناك قول بأنهما وقعا قبل البعثة بسنة .

وانشقاق القمر الذي ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآيات تشير إليه :

« اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا ءاية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر . ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر . حكمة بلغة فما تغن النذر ... ١ - ٥

موضوع بحث ونظر ؛ فالسورة من المبكرات في النزول أولا ، ولم يحك في السور النازلة قبلها عن الكفار تحد وطلب بأتيان معجزة ثانياً . وقد حمل بعض المفسرين تعبير « اقتربت الساعة وانشق القمر » على معنى أنه مقترب وأنه منشق على نحو « أتى أمر الله » و « اقترب للناس حسابهم » إذ المجمع عليه أن المعنى هو أن أمر الله آت لاريب فيه وأن حساب الناس مقترب الأوان من دون شك ، وقالوا إن الآيات بسبيل ما كررت آيات كثيرة ذكره من تبدل نواميس الكون عند قيام الساعة، مثلا :

١ - إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت . وإذا الجبال سيرت .... التكوير ١ - ٣

٢ - فإذا برق البصر . وخسف القمر . وجمع الشمس والقمر . يقول

الإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ... القيامة ٧ - ١٠

ولم يأخذوا بالروايات المروية عن انشقاق القمر فعلا فى مكة والتى فيها بعض الاختلاف (١) .

ومن الجدير بالتنبيه أن الحادث لم يشر إليه ثانية فى السور والفصول القرآنية المكية التى نزلت بعد سورة القمر وهى أكثر مما نزل قبلها ، مع أنها حكت تحديات الكفار بطلب الإتيان بالآيات مرارا وتكرارا ، ومع أنها أشارت ثانية إلى أثر حادث الإسراء فى آية من آيات السورة نفسها على ماذهب إليه جمهور المفسرين وهى :

« ... وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ...

الإسراء ٦٠

فهذا السكوت عن الحادث على خطورته ، وخاصة إزاء تكرار تحدى الكفار قد يلهم وجاهة توجيه الذين لم يأخذوا بالروايات وصرفوا العبارة القرآنية إلى أشراط الساعة كما هو المتبادر ، وهذا منسجم كما هو ظاهر مع الموقف السلبى العام الذى نبهنا إليه .

أما التأييدات والإلهامات الربانية للنبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين التى تضمنت أخبارها آيات قرآنية عدة مثل آيات سورة الأنفال هذه :

« إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَـٰئِكَةِ

---

(١) - ١ فى البخارى ومسلم أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين . ونقل الترمذى الحديث بزيادة . فنزلت « اقتربت الساعة ... إلى قوله : سحر مستمر » .

٢ - فى البخارى ومسلم عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقتين فلقة فوق الجبل وفلقة دونه ، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشهدوا .

٣ - فى البخارى ومسلم عن ابن عباس أن القمر انشق فى زمن رسول الله .

٤ - فى مسلم عن ابن عمر قال : انشق القمر على عهد رسول الله فلقتين فستر الجبل فلقة وكانت فلقة فوق الجبال ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اشهدوا .

٥ - فى الترمذى عن جبير بن مطعم : انشق القمر على عهد رسول الله فصار فرقتين ، فقالت قريش : سحر محمد أعيننا ! فقال بعضهم : لئن سحرنا ما يستطيع أن يسحر الناس كلهم ! وزاد غيره : فكانوا يتلقون الركبان فيخبرونهم بأنهم رأوه فيكذبونهم .

مُرْدِفِينَ . وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَـٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ . إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَـٰئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ... ٩ - ١٣

ومثل الذى جاء فى سورة الأحزاب :

« يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ... ٩

ومثل الذى جاء فى سورة التحريم :

« وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَـٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ... ٣

فإنها كما هو ظاهر من نصوصها وروحها لا تدخل فى عداد معجزات التحدى ، وبالتالى فإنها ليس من شأنها نقض الموقف السلبي العام الذى تمثله الآيات القرآنية .

بقيت المعجزات المروية وخاصة التى يقال إنها وقعت فى مكة بناء على تحدى الكفار ، ونعتقد أننا على صواب إذا قلنا إن سكوت القرآن عنها مع كثرة تحدى الكفار ، واقتصار الأجوبة القرآنية على السلب ـ لا يمكن أن يشجعا على التسليم بصحتها . هذا إلى أن الروايات غير متواترة ولا وثيقة ، وكثير منها إن لم نقل أكثرها لم ترد فى المدونات القديمة . إلى ما فيها من تخالف كبير فى الوقت نفسه .

وواضح أن تقريراتنا ليست بسبيل إنكار المعجزة واستحالة خرق العادة على الله على يد نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وإنما هى بسبيل توكيد الموقف السلبي من التحدى بالمعجزة الذى تمثله الآيات القرآنية . أما مايخرج عن نطاق اصطلاح معجزة التحدى فإنه لايصح أن يكون ثمة أى ريب فى وقوع تأييدات ربانية للنبي يصح أن تسمى معجزات ولو لم تكن من معجزات التحدى ، ومنها ماأخبر به القرآن على ماذكرنا من أمثلته ، وفيه تأييد حاسم ؛ هذا إلى أن المعجزة الربانية على أيدى أنبياء الله مما أخبر بوقوعه القرآن بنصوص صريحة ، والإيمان به جزء لاينفصل عن الإيمان بالقرآن ورسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، مع اليقين بقدرة الله عليها وهو الذى بدأ الخلق وبيده ملكوت كل شيء فى كونه الأعظم ، مع التنبيه إلى أن كثيراً من الروايات المحتوية أخبار المعجزات النبوية مما يحتمل التوقف ويدعو إلى التحفظ ، وإلى أن أقوال بعض المؤلفين فيها تتضمن تكلفاً لاضرورة له ولا طائل من ورائه .

— ٦ —

هذا ؛ ولقد أشرنا إشارة خاطفة إلى آية فى سورة الإسراء قلنا إنها تتضمن خبر أثر حادث الإسراء النبوى ، وهى الآية التالية :

« ... وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ... » ٦٠

وقد رأينا أن نعود إليها لأنها تتضمن مشهداً من مشاهد العهد متصلا بالحادث المذكور الذى تناوله الكلام فى هذا المبحث .

ومع أن هناك من قال إن الرؤيا المذكورة فى الآية هى رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم المنامية التى رآها فى المدينة بدخوله الحرم والتى ذكرت فى سورة الفتح هكذا :

« لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ... » ٢٧

كما أن هناك من قال إنها رؤيا منامية رآها النبي صلى الله عليه وسلم عن الفتن التى

تقع بعده - مما فيه تكلف ظاهر - فإن الجمهور على أنها عنت حادث الإسراء . وهذا القول متسق مع مدى الحادث من جهة ومع الروايات الواردة عن ظروفه وأثره من جهة أخرى . ولقد قال الزمخشري إن تعبير « الرؤيا » هنا يعني رؤيا البصر والبصيرة وليس رؤيا النوم ؛ وهذا هو المعقول للحادث ومدى الآيات ؛ لأن رؤيا النوم ليس من شأنها أن تكون فتنة للناس أو أن تثير شكا وجدلا ، ولأن آية الإسراء الأولى لا تساعد على القول بأن حادث الإسراء كان مناما إذا ما أنعم النظر فيها بالرغم من ذكر بعض الروايات ذلك .

وعبارة الآية (٦٠) تلهم أن حكمة الله شاءت أن يكون هذا الحادث الروحاني النبوي اختباراً وفتنة للناس ، أو أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قص مشاهداته فيه على الناس فكان فتنة لهم . ولم يزدهم هو والإنذار بشجرة الزقوم الأخروية إلا طغيانا كبيرا .

ولقد وردت روايات في صدد هذا الموقف تتسق إجمالا مع ما تلهمه الآية ؛ وملخصها أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أصبح من ليلة الحادث جاء إلى فناء الكعبة وحدّث الناس بأنه أسرى به الليلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وكان من المستمعين أبو جهل ، فلم يفاجئه بالتكذيب والإنكار خشية إنكاره وتراجعه ، بل سارع إلى الناس يدعوهم إلى استماع القصة من النبي صلى الله عليه وسلم ، كما سارع إلى دعوة أبي بكر رضي الله عنه قائلا له : إن صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة من مكة إلى بيت المقدس ثم أصبح في مكة ، وأن أبا بكر سأل : أو قال ذلك ؟ فلما أكد له قال : إنه لصادق ، ولو أنه أخبر بأنه عرج به إلى السماء لكان صادقا ؛ وإنه ليخبرنا أن خبر السماء ليأتيه في لحظة فنصدقه ! ثم جاء إلى الكعبة واستمع إلى النبي ثانية فصدقه وأيده ؛ وأن أبا جهل ورفاقه اقترحوا على النبي أن يصف لهم بيت المقدس فكشف الله عن بصره ثانية وأخذ يصفه فأذهل الناس ، ولكن أبا جهل ورفاقه المعاندين المستكبرين كذبوا واستنكروا واستغلوا قصة الحادث في الصد والتكذيب أيضا حتى استطاعوا أن يؤثروا في بعض المسلمين فافتتنوا وارتدوا عن الإسلام .

المبحث الخامس

محنة الأذى والفتنة ونتائجها

مدى وأثر هذه المحنة - أولى الاشارات القرآنية إلى الفتنة ودلالة تبكيرها - الطبقة الفقيرة غرض المحنة الأولى وبواعث ذلك - الاشارة إلى الهجرة الأولى إلى الحبشة وسببها - التشجيع القرآني على الهجرة - هجرة أبناء بيوتات قرشية ومداها - تعليق على هجرة جعفر بن أبي طالب - تعليق على اختيار الحبشة دار هجرة - تعليق على عدم محاولة الزعماء منع المهاجرين - تعليق على غمز المستشرقين للمهاجرين - إشارة قرآنية ثانية إلى هجرة ثانية لبعض المفتونين ومداها - مشهد لارتداد بعض المسلمين وثباتهم على الكفر وملابساته - حادث تبديل آية قرآنية بأخرى واستغلال الزعماء له وأثره - إشارات قرآنية إلى تبرم المسلمين بالمحنة - محنة بعض المسلمين بآبائهم الكفار - أسلوب من أساليب الزعماء في الصد والفتنة - تشجيع قرآني على الهجرة إلى يثرب وأثرها العظيم - إشارة تنويهية إلى من قتل من المهاجرين ومداها وملابساتها - قرائن قرآنية عدة في صدد محنة الأذى - نصوص قرآنية مدنية في التعقيب والتذكير بالمحنة ودلالتها - نصوص خاصة بشخص النبي - تفكير النبي بالنزوح عن مكة في أواسط العهد المكي - مؤامرة الزعماء على شخص النبي وبواعثها - هجرته مع أبي بكر وأثرها الأعظم - ترجيح عدم وقوع أذى بدني على النبي في مكة - نصوص مدنية في استمرار المحنة على ضعفاء المسلمين في مكة بعد الهجرة فرار المؤمنات من مكة ومداه - بحث في موضوع مقابلة المسلمين الأذى بالمثل في مكة واستعراض آيات قرآنية في صدده .

- ١ -

لم يكتف الزعماء بمواقف الصد والمعارضة والتحدى النظرية ، بل إن بغاتهم تجاوزوا ذلك إلى إيقاع الأذى على المسلمين واضطهادهم وفتنتهم [1] عن الإسلام إلى الكفر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

(١) جاءت كلمة الفتنة ومشتقاتها في القرآن بمعنيين معنى الابتلاء والاختبار كما هو في الأمثلة التالية :

١ - وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا :

٢ - وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ، ومعنى رد المسلمين عن دينهم كما هو في الأمثلة التالية :

١ - إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا ...

٢ - والفتنة أكبر من القتل ... وواضح أن البحث هنا هو فيما تناوله المعنى الثاني .

وقد كان لهذا التصرف منهم أثر خطير فى سير الدعوة فى العهد المكى بطوله ، بل يصح أن يقال إنه من أهم أحداث هذا العهد وأبعدها أثراً إن لم نقل إنه أهمها. ولقد احتوى القرآن آيات وفصولا فيها مشاهد وصور متعددة لهذا الموقف ونتائجه ، كما أن آيات القرآن تدل على أن هذه المحنة قد بدأت منذ الأدوار الأولى للدعوة ثم استمرت طيلة العهد المكى ، وأن بعض مستضعفى المسلمين ظل يكتوى بنارها إلى السنة الثامنة من العهد المدنى . أما أهم نتائجها فهى الهجرات الأولى والثانية إلى الحبشة والثالثة إلى يثرب ، ولجوء النبي صلى الله عليه وسلم قبل هذا إلى الطائف .

— ٢ —

وسورة البروج هى أول سورة احتوت إشارة إلى فتنة المؤمنين والمؤمنات ؛ وقد جاءت آياتها الأولى كتمهيد احتوى إشارة إلى حادث فتنة وتحريق وقع على بعض المؤمنين فى تاريخ سابق وحملة على المعتدى كما ترى فيها :

« وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ . وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ . وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ . قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ . وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ...

١ - ٩

وقد روى المفسرون فى صدد هذه الآيات التمهيدية روايات منها أن تلميذاً لساحر أسلم على يد راهب نصرانى فى اليمن ، فعذب الملك الراهب والولد وقتلهما ، وقد ظهرت لهما بعض الكرامات بعد موتهما فأسلم الناس وتركوا دينهم القديم ، فأمر الملك بحفر أخدود وتأجيج النار فيه وإلقاء من لم يتب ويرجع عن دينه منهم فيه . ومنها أن بعض أحبار اليهود رحلوا من يثرب إلى اليمن وتمكنوا من تهويد ملكها المدعو بذى نواس ، وكان فى اليمن نصارى فحرض الأحبار الملك على اضطهادهم ليرجعوا عن النصرانية إلى اليهودية ولكنهم امتنعوا فأمر الملك بحفر الأخدود وتأجيج النار

فيه وإلقاء المعاندين منهم فى النار .

ومهما يكن من أمر فإن روح الآيات واكتفاءها بالإشارة الخاطفة إلى أصحاب الأخدود يلهم أن سامعى القرآن من العرب كانوا يعرفون حادث الأخدود وفتنة الناس به عن دينهم من دون ذنب إلا الإيمان بالله ، وأنه كان مما يثير فى نفوسهم الامتعاض والنقمة ، فأشير إليه فى مطلع السورة تمهيداً تنديدياً بالذين ارتكبوا مثله من زعماء مكة فى حق الذين آمنوا بالنبى فى مكة .

أما الآيات التالية لهذه الآيات فالإجماع منعقد على أنها بصدد حوادث اضطهاد المسلمين وفتنتهم عن دينهم ، وروح الآيات ومضمونها يؤيدان هذا الإجماع ، وهذه هى الآيات :

« إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ . إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ . إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ . إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ . وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ... ١٠ - ١٤

وقد احتوت الآيات إنذاراً شديداً للفاتنين إن لم يتوبوا ويرتدعوا عن إثمهم ، وتنويها بالمؤمنين وطمأنة لهم ، وسورة البروج من السور التى نزلت مبكرة جداً ، وهذا يدل على أن الزعماء قد أخذوا يؤذون المسلمين منذ عهد مبكر من الدعوة .

ويفهم من الروايات المروية عن هذه المحنة أنها أكثر ما وجهت إلى الأرقاء والمستضعفين من رجال المسلمين ونسائهم . ويبدو أن الزعماء لما رأوا النبى صلى الله عليه وسلم مستمراً فى دعوته رغم ما بدا منهم لها من معارضة ومناوأة وتكذيب وصد ، ورأوا أنها أخذت تستجاب من مختلف الطبقات ، وخاصة الطبقات الفقيرة والضعيفة التى رأت فيها ملاذاً وفرجاً وطمأنينة نفس ، ورأوا أن النبى يشجع هذه الطبقة بتلقين القرآن ويدعو إلى البر بها ويهتم لأمرها وتحريرها ورفع مستواها ، فى حين أن الجماهير إنما كانت تتألف منها وكانت تقاسى الاضطهاد منهم على ماذكرناه قبل ، خشوا أن يستشرى أمر الدعوة ويتسع فى هذه الطبقة فتكون الثغرة التى ينفذ

منها إليهم، وينهدم بها كيانهم، فجنحوا إلى سدّها منذ البدء باضطهاد من فى حوزتهم من أرقاء، ومن يقدرون عليه من مستضعفين، وإجبارهم على الرجوع عن الدين الجديد، كمناوأة عملية للدعوة، ووسيلة لتخويف من تحدثه نفسه من عامة الناس وضعفائهم وفقرائهم بالالتحاق بها.

ولقد رويت روايات عدة عن هذه المحنة يفهم منها أنها كانت من أشد ما أهم النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين هماً عظيماً، وأنه كان من صورها أن يعرّى المسلم ويطرح فوق الرمال والصخور المحرقة المتوهجة من شدة حرارة الشمس، ويوضع على أجسادهم الصخور الثقيلة، ويمنع عنهم الماء والطعام، وتقييد أيديهم وأرجلهم بقيود الحديد، ويجلدوا بالأسواط شديد الجلد، وأنه كان من نتائجها إزهاق أرواح بعضهم فضربوا مثلا خالدا على التمسك بالعقيدة وتحمل أنواع الأذى والتضحية بالنفس فى سبيلها، وأن بعضهم كان يضطر إلى إعلان براءته من الإسلام وعودته إلى الشرك، وأن بعض أغنياء المسلمين وخاصة أبا بكر رضى الله عنه كانوا يشترون الأرقاء المضطهدين من مالكيهم وينقذونهم من الاضطهاد. وهناك روايات يستفاد منها أن عدداً من الذين لهم عصبيات قرشية اضطهدوا أيضاً بأساليب مختلفة من قبل ذويهم، استياء من تبديلهم دينهم وتحولهم عن تقاليدهم، ومنعاً لاستشراء أمرهم وعدواهم أيضاً:

ويلتفت النظر خاصة إلى ذكر المؤمنات إلى جانب المؤمنين فى الآيات، وما فى ذلك من دلالة على أن من النساء من سارعن إلى الإيمان بالنبى صلى الله عليه وسلم منذ البدء وبالرغم عن ضعفه وما كان يلقاه المسلمون من أذى واضطهاد، وعلى أن منهن من تعرضن فعلا للأذى والفتنة. وفى الروايات أسماء نساء مسلمات زهقت أرواحهن فى سبيل التمسك بدينهن الجديد كالرجال.

- ٣ -

وسورة النحل التى يجىء ترتيب نزولها متأخراً بعض التأخر ويدل على أنها نزلت فى أواسط العهد المكى - قد احتوت إشارتين إلى هذه المحنة وإلى الهجرات كنتيجة لها: الأولى فى الآيتين التاليتين:

« وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى اللهِ مِنْ بَعْدِ مَاظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ... ٤١ - ٤٢

وفى الآيتين صراحة بأن الهجرة فى الله إنما كانت بعد الظلم الذى وقع على المهاجرين ، كما أنهما احتوتا بشرى بعناية الله بهم وبتبوئتهم فى هجرتهم مبوأً حسناً ، وتنويهاً بما كان من صبرهم واعتمادهم على الله . وكل هذا يدل على ما كان يلقاه المستضعفون من المسلمين من الأذى وعلى ما كان من صبرهم وقوة إيمانهم وروحهم إجمالا .

ومن الجدير بالذكر أن سورة الزمر التى يجىء ترتيبها قبل سورة النحل بقليل ، قد احتوت آية فيها حث على تقوى الله والتمسك بدينه وتشجيع على الهجرة كما يستلهم منها وهى :

« قُلْ يَـٰعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَـٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ... ١٠

فكأنما جاءت هذه الآية بالإذن للمظلومين بالهجرة ، ثم جاءت آيتا النحل تحتويان إشارة إلى إقدامهم عليها فعلا [1] .

وليس ثمة محل للشك فى أن آيتى النحل قد تضمنتا الإشارة إلى الهجرة الأولى التى كانت إلى الحبشة فى أواسط العهد المكى والتى تواترت الروايات فيها حتى بلغت مبلغ اليقين . ولقد ذكرت الروايات أن عدد المهاجرين فى الهجرة الأولى بلغ قرابة مائة نفس رجالا ونساء وأولادا ، وأنهم كانوا أصنافا منهم الأرقاء العتقاء ، ومنهم الذين لا عصبية لهم تحميهم من عرب وغرباء ، ومنهم الذين لهم عصبية قرشية ولكنها لم تحمهم لأن ذويهم أنكروا عليهم تبديلهم دينهم ، وكان الإرهاق

(١) مما يؤيد صحة استلهامنا بأن آية الزمر فى صدد تشجيع الهجرة ، آية فى سورة النساء ربطت الهجرة بأرض الله الواسعة وهى هذه : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ... ٩٧ »

والأذى والقطيعة عليهم من ناحيتهم ؛ وهجرة عثمان بن عفان الأموى وأبى سلمة المخزومى والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم وغيرهم رضوان الله عليهم من أبناء العائلات القرشية القوية ، هى من هذا القبيل ؛ بل إن عدد القرشيين كان يؤلف غالبية المهاجرين على ماذكره ابن هشام فى سيرته . ولقد رافق كثيراً منهم نساؤهم اللاتى آمنّ معهم . وممن هو جدير بالذكر منهن أم حبيب بنت أبى سفيان رئيس كفار قريش ، فقد آمنت وهاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش برغم أبيها ومركزه من المعارضة للدعوة .

وممن ذكرت الروايات أسماءهم فى المهاجرين الأولين ، جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم ؛ ولا ندرى أكان هو أيضا مضطهداً من ذويه أو غيرهم فاضطر إلى الهجرة ، أم أن النبى صلى الله عليه وسلم قد ندبه ليكون وكيله فى المهاجرين ورسوله إلى ملك الحبشة . ونحن نرجح هذا ، لأن بنى هاشم كانوا ينصرون النبى صلى الله عليه وسلم مع احتفاظ أكثرهم بدينه ، ومن الصعب التوفيق بين موقفهم هذا واحتمال اضطهاد جعفر ، لاسيما أنه ابن رئيسهم الذى تولى قيادة النصرة والتعصب للنبى صلى الله عليه وسلم ، كما لايحتمل أن يكون غيرهم قد اضطهده واضطره إلى الهجرة ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم ظل فى مكة ولم يضطر إلى الهجرة ، وبالتالى لم يكن ضعيف العصبية مضطهدا . .

أما اختيار بلاد الحبشة دار هجرة فمن الممكن أن يكون بسبب تيسر السفر إليها ومساعدة الرياح الموسمية لهذا السفر البحرى فى ظروفه ؛ على أننا نعتقد على كل حال أنه يمت بسبب إلى ما كان من ذهنية الحزبية الواحدة بين الدعوة الإسلامية ومعتنقيها وبين أهل الكتاب وخاصة النصارى ، وقد وطدتها فى المسلمين آيات مكية عدة احتوتها السور التى نزلت قبل سورة النحل ، سواء ما كان فى صدد استشهاد الكتابيين على صحة رسالة النبى ، أو ما تضمن صوراً لمواقفهم الإيجابية والإيمانية ، وقد نقلنا جملة من ذلك فى المباحث السابقة مثل آيات الأنعام (٢٠) والقصص (٥٢ - ٥٣) والإسراء (١٠٧ - ١٠٩) والشورى (١٢) والأعراف (١٥٧) ؛ بل إنه ليخطر بالبال أن يكون من أسباب اختيار الحبشة النصرانية أمل وجود مجال للدعوة فيها ، وأن يكون هدف انتداب جعفر متصلا بهذا الأمل ، ولعل فيما روى أكثر من مرة عن

إسلام النجاشى وغيره من الأحباش ووفادة بعضهم على النبى صلى الله عليه وسلم مسلمين مستطلعين مايستأنس به على صحة هذا الخاطر ؛ إذ يرى أثر نجاح لهذه الدعوة فى هاتيك الديار .

ولعل حادثة انتصار الأحباش لنصارى اليمن التى كانت حاضرة فى أذهان العرب ، كانت ذات تأثير أيضا فى توجيه هذه الهجرة إلى هذه البلاد ؛ فالمسلمون بهذا يكسبون حليفا قويا تجمع بينهم وبينه الحزبية الدينية ، والمشركون يقع فى نفوسهم شىء من الخوف والتوجس والجنوح إلى الارعواء بسبب توثق الصلة بين المسلمين وهذا الحليف القوى . وهذه الخواطر قد تفسر لنا آيات سورة الروم الأولى التى تضمنت الإشارة إلى ماكان من غم المسلمين لانكسار الروم وما احتوته من وعد الله بالنصر وفرح المؤمنين به إذ ذاك ، وما روى فى صددها من استبشار المشركين بانكسار الروم :

« الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فى أدْنَى الأَرْضِ وهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِم سَيَغْلِبُونَ . فى بِضْعِ سِنِينَ لِلهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ ويَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ . وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ... ١ - ٦

ومن الجدير بالذكر أن روايات السيرة القديمة لم تذكر أن زعماء قريش حاولوا منع المهاجرين من الهجرة حينما أزمعوها ، كما أنها لم تذكر أن المهاجرين أجبروا عليها إجبارا وطردوا عن مكة طردا ؛ وليس مما يرد أن يكون خروجهم خلسة لم يشعر به أحد إلا بعد أن ركبوا البحر لأنهم لم يكونوا قليلى العدد ، وكانوا من عائلات وطبقات وبيوت شتى . وقد يدل هذا على أن الهجرة إنما كانت تبرما من الإزعاج والمضايقة والقطيعة والاضطهاد ، ورغبة فى التخلص منه ومن نتائجه التى قد تكون أذى أشد وفتنة عن الدين ، إلى حيث الأمن والحرية والطمأنينة . ولعل تعبير آية النحل « هاجروا من بعد ماظلموا » يلهم هذا أيضا . ولعل زعماء قريش ارتاحوا إلى حركة الهجرة لأنها ستضعف

نشاط النبي صلى الله عليه وسلم وتهلل الناس الذين حوله من مختلف الطبقات، والذين يمكن أن يؤثروا في غيرهم. وإذا كان ماروى من خبر إرسال قريش وفداً إلى ملك الحبشة يقنعه بخطر المهاجرين ويغريه بطردهم، ويثيره مع رجال الدين عليهم بما احتواه القرآن من إنكار ألوهية عيسى - إذا كان هذا صحيحاً ونحن لا نرى مايمنع صحته جاز أن يكون هذا خاطراً عنّ على بالهم مؤخراً توجساً من النتائج التي ألمعنا إليها آنفاً. وقد ذكر الخبر أن الإخفاق كان نصيب الوفد، لأن ملك الحبشة رأى في المسلمين إخلاصاً ورأى في المبادئ الإسلامية اتساقاً مع المبادئ المسيحية الجوهرية، وأن المسلمين لقوا عناية وبراً منه؛ وهذا مصداق مااحتوته الآية «لنبوئنهم في الدنيا حسنة». وقد ذكر الخبر أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه هو الذي كان لسان المهاجرين الناطق والمدافع في مجلس ملك الحبشة، ويستأنس بهذا على ماقلناه في صدده قبل قليل.

ولقد حاول بعض المستشرقين [١] غمز المهاجرين في صبرهم وجلدهم ورسوخ عقيدتهم، وفي رغبتهم في النجاة بأنفسهم وتخليهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وليس في هذا شيء من الحق من جهة؛ وهو ملق جزافاً بعقل اليوم المجرّد وآت من عدم معرفة ظروف البيئة النبوية والمهاجرين وتقديرها من جهة أخرى. فالذين هاجروا كانوا بين أمرين: إما أن يظلوا يتعرّضون للأذى وقد تخون بعضهم أعصابهم فيضطرون إلى الارتداد، وإما أن يصبروا حتى يودى الصبر بحياتهم، وليس في هذا مصلحة للمسلمين: ولقد وقعت الحالتان في بعض الذين أسلموا فليس في تفادي مثل ذلك بالهجرة محل للغمز؛ بل هي دليل على تعلق المهاجرين بدينهم، وخوفهم من الافتتان عنه، وتضحيتهم بوطنهم وعائلاتهم وأموالهم - ومنهم من كان ذا مال كبير - في سبيله؛ وفي هذا ما يستوجب الإكبار والثناء. وقد أثنى القرآن فعلا على صبرهم واعتمادهم على الله بعملهم، وفيما قرره القول الفصل حتى من الناحية التاريخية، لأنه نزل في ظروف الواقعة وبعد وقوعها. والغريب أن الغامزين يتجاهلون حالة واقعية متكررة وسائغة في كل ظرف ومكان منذ الأجيال البشرية الأولى إلى الآن وإلى ما شاء الله، بسبيل شفاء النفس بالتعليق والغمز...

---

(١) كايتان في فصل الهجرة إلى الحبشة.

— ٤ —

أما إشارة سورة النحل الثانية فهى فى الآية التالية التى تضمنت إشارة إلى مشهد من مشاهد الفتنة ، ومشهد من مشاهد الهجرة معاً :

« ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَٰهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ » ... ١١٠

إذ يستدل منها على أن بعض المسلمين قد فتنوا عن دينهم وارتدوا ، ثم أنهم أو أن بعضهم سنحت لهم الفرصة للهجرة فهاجروا وعادوا إلى الإسلام والتحقوا بزمرة المجاهدين فى سبيله والصابرين الثابتين عليه .

والراجح أن كلمة « وجاهدوا » فى هذا المقام لاتعنى جهاد الحرب ، وإنما تعنى المجاهدة فى الصبر وتحمل المشاق فى سبيل الله ودينه ؛ لأن الآية مكية ، ولم يكن مجال للجهاد فى هذا العهد كما لايخفى . وقد استعمل التعبير نفسه فى آية مكية أخرى فى نفس المعنى الذى ذكرناه كما ترى فيما يلى :

« وَالَّذِينَ جَٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » ... العنكبوت ٦٩

ولقد ذكرت الروايات أن الهجرة إلى الحبشة لم تكن مرة واحدة ؛ بل تبع الأولى قافلة ثانية ، فلا يبعد أن تكون هذه الثانية هى التى تضمنت الآية الإشارة إليها ؛ لاسيما أن الإشارة قد جاءت فى آية من آيات النحل التى احتوت إحدى آياتها الإشارة إلى الهجرة الأولى ؛ وفصول السور المكية مما كان يتلاحق بالنزول بدون فاصل على ما هو الأرجح ، كما ذكرنا ذلك فى مقدمة تفسيرنا القويم .

وقبل آية النحل المذكورة آيات احتوت حملة على فئة من المسلمين ارتدت عن الإسلام واندمجت فى الكفر ثانية وشرحت صدراً به ، وهى :

« مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَٰنِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ

عَذابٌ عَظِيمٌ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَٰفِرِينَ . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَٰفِلُونَ . لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ...

١٠٦ - ١٠٩

وهذا مشهد جديد من مشاهد الفتنة كما هو ظاهر ، وقع بدون إكراه إلى جانب ما كان يقع من الفتنة بالإكراه . وتعبير « استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة » قد يدل على أن الإغراء بالمنافع الدنيوية قد لعب دوره فى هذا المشهد ؛ ولم يكن الافتتان لضمان الحياة فحسب ؛ لأن هذا ممكن بإظهار الكفر مع اطمئنان القلب بالإيمان ، وهو ما فعلته الفئة الثانية ؛ وإذا صح الاستدلال بدت لنا صورة أخرى لصور الفتنة ، إذ كان الزعماء يتوسلون بالإغراء أيضاً إلى جانب الأذى والتهديد فى صد الناس عن الإسلام وخاصة الفقراء والضعفاء ؛ وهذا معقول جدا ، وفى طبائع البشر متسع لأمثاله كما لا يخفى .

وقد جاءت الحملة على هؤلاء شديدة جداً ، وهى متناسبة من دون ريب مع بشاعة العمل وسوء أثره الشديد . ونعتقد أنه كان له وقع أليم جدا على النبي والمسلمين ؛ للحادث بالذات أولا ، ولما يمكن أن يحدثه أو أحدثه فعلا من أثر سلبي فى سير الدعوة ثانياً ؛ لاسيما أنه قد جاء على أثر هجرة عدد كبير من المسلمين فراراً من الظلم وتفادياً من الفتنة .

ولقد روى فى صدد هؤلاء المرتدين أن ارتدادهم قد وقع حينما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بخبر إسرائه من مكة إلى بيت المقدس ، وقد أشرنا إلى هذا من قبل ؛ ونحن لا نستبعد أن يكون خبر افتتان بعض المسلمين فى سياق خبر ذلك الحادث ، ونتيجة لتهويش الزعماء واستغلالهم على ما ذكرناه قبل - صحيحاً ؛ بل إن صحة هذا راجحة استلهاماً من نص آية الإسراء (٦٠) «وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس» . غير أننا نرجح أن حادث الارتداد الذى أشارت إليه الآيات قد كان بسبب آخر ، وهو سبب وظروف ما حكته الآيات التى سبقت هذه الآيات من تبديل آية بآية ، وما كان من استغلال زعماء الكفار المعاندين للحادث وتهجمهم على النبي صلى الله عليه وسلم

بمناسبته ينسبون إليه الافتراء والتعلم من الأعجمى . وترجيحنا قائم على أن الآيات جاءت عقب آيات الحادث أولا ، وقد سبق آيات الحادث آيات فيها تشديد على الوفاء بعهد الله وميثاقه ، وتنديد بالناقضين ، وتنويه بالموفين بعهد الله والمستمسكين به . وهكذا تكون سلسلة الآيات آخذاً بعضها برقاب بعض

والحادث على ما يبدو من آياته ومما سبقها ولحقها من آيات تتضمن آثاره ونتائجه من الأحداث الخطيرة فى العهد المكى ؛ سواء فى ذاته أو فيما كان من استغلال زعماء الكفار له فى سبيل الصد والفتنة ، أو فيما كان من آثاره ونتائجه التى ذكرناها قبل . وهذه هى الآيات التى تتضمن الإشارة إلى الحادث :

« فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَٰنِ الرَّجِيمِ . إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَٰنٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ . وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ . وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ . إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ اللهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ اللهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَٰذِبُونَ ...

النحل ٩٨ - ١٠٥

وروح الآيات ومضمونها فى الجملة يلهم أنها نزلت فى صدد حادث له صلة بالقرآن ، ويلهم أنه أوحى للنبى صلى الله عليه وسلم ببعض الآيات لتكون مكان بعض آيات أخرى ؛ فلما تلا الجديدة وأهمل الأولى استغل زعماء الكفار ذلك ، فأخذوا يشنعون عليه ويهاجون دعواه كون القرآن وحياً إلهياً ، وينسبون إليه الافتراء والتعلم من الشخص الأجنبى المعين ؛ ولعلهم قالوا إن الشيطان هو الذى

يوسوس له ويلق عليه لا الملك، وأن التبديل دليل على ذلك، فالشيطان محل خطأ والملك لا يصح أن يخطئ؛ واستغلوا الحادث فى الصد والتأثير فى بعض المسلمين، وتوسلوا بالإغراء إلى جانب الاستغلال والتهويش، وكان من نتيجة ذلك أن ارتد بعضهم استجابة لهذه الدعاية واستحباباً لمنافع الدنيا معاً؛ فجاءت الآيات تثبت النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين، وتهاجم الصادين والمرتدين وتحمل عليهم الحملة الشديدة التى تمثلها الآيات؛ فليس للشيطان سلطان على المؤمنين المتوكلين على الله؛ وإنما سلطانه على الذين يشركون به، وهم المشركون، وإن الله هو الأعلم بمقتضيات حكمة التنزيل، وكل تبديل وتنزيل إنما هو من وحى الله وتنزيل روح القدس ملك الله الأكبر، وليس للنبى إلا اتباع ما يوحى به إليه؛ وإن الذين لا يؤمنون بآيات الله كما تنزل وفق حكمة تنزيله هم الكاذبون المفترون، وهذا مما تنزه عنه النبى؛ والرجل الذى ينسبون إليه تعليم النبى هو أعجمى اللسان، فى حين أن القرآن عربى مبين؛ فحجتهم ساقطة بنفسها .. الخ. أما الآيات التى سبقت هذه الآيات فهى هذه:

« وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا. إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ. وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ. وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ

مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ... النحل ٩١ - ٩٧

ومع أن الآيات عامة التلقين الأخلاقى والاجتماعى، فإن روحها، وبعض عباراتها عند إنعام النظر فيها، ثم ورود آيات الحادث وتتائجه عقبها - كل ذلك يلهم أنها نزلت بمناسبته، وجاءت كحملة تمهيدية على الصادين عن سبيل الله والناقضين لعهده، واحتوت حثا على الصبر وعدم نقض عهد الله بالثمن الدنيوى، لأن ما عند الله خير مما عند الناس. والمتبادر لنا من روح الآيات ومضمونها أن نقض عهد الله فيها يعنى نقض عهد الإسلام.

وواضح أن نزول الآيات بمناسبة الحادث وما تضمنته من حملة وحث وتلقين فى صدده لا يتعارض مع عمومية تلقينها، بل إن هذا هو الذى جرى عليه القرآن عامة، فالآيات والفصول القرآنية كانت تنزل بمناسبات أحداث ومشاهد السيرة، مع تضمنها تلقينات وتشريعات وتعليمات عامة مستمرة المدى...

- ٥ -

فى سورة العنكبوت مقاطع عدة متصلة بمحنة الأذى والفتنة ومشاهدها:

(١) فقد جاء فى مطلعها الآيات التالية:

«الٓمٓ . أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَٰذِبِينَ . أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَٰلَمِينَ . وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ... ١ - ٧

وبعض الروايات يذكر أن الآيات مدنيات ؛ وطابع الآيات وأسلوبها ومضمونها يتسق مع رواية مكيتها كما هو المتبادر .

ويستلهم منها أن صبر بعض المسلمين على الإزعاج نفد أو كاد ، وأن الضيق عليهم بلغ مبلغاً شديداً حتى أخذوا يشكون ويتذمرون ؛ فقد احتوت عتاباً ممتزجاً بالتشجيع وحسن الوعد .

(٢) وقد تبع الآيات المذكورة الآيتان التاليتان :

« ووَصَّيْنَا الإِنْسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وإنْ جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . والَّذِينَ ءَامَنُوا وعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فى الصَّـٰلِحِينَ ... ٨ - ٩

وبعض الروايات تذكر كذلك أن الآيتين مدنيتان نزلتا فى مسلم اضطهده والداه فعصاهما وهاجر ، كما أن بعضها تذكر مكيتهما ونزولهما فى حق سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه وأمه التى غضبت من إسلام ابنها وأخذت تلح عليه بالارتداد ، ومكيتهما هى الراجحة استلهاماً من مضمونهما الذى يتسق مع كونهما بحق مسلم فى مكة متعرض لإلحاح والديه بالكفر أكثر منهما بحق مسلم عصا والديه وهاجر من مكة ؛ إذ تستهدفان تثبيت الابن المسلم فى إسلامه فتقرران أن ليس على المرء لوالديه إلا الرفق والحسنى ، وليس عليه لهما الطاعة إذا أراداه على الكفر والشرك بالله . ويبدو أن فى هذا استدراكا لوصايا الله التى وردت مطلقة بحق الوالدين فى سور متقدمة على هذه السورة ، مثل ما ورد فى سورة الإسراء :

« وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ... ٢٣

ومثل ما ورد فى سورة الأنعام :

« قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَاحَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ... ١٥١

إذ يحتمل أن تكون جعلت بعض المسلمين يغلون فى تقدير واجبهم نحو والديهم الكافرين ، فرأوا أنفسهم فى موقف حرج أزاء أمرهم إياهم بالارتداد ،

فأوحى الله بالآيات لوضع الأمر فى نصابه الحق . ولقد احتوت سورة لقمان آيتين مماثلتين وهما :

« ووَصَّيْنَا الإنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وفِصَـٰلُهُ فى عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِى ولِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ المَصِيرُ . وإنْ جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰ أنْ تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وصَاحِبْهُمَا فى الدُّنْيَا مَعْرُوفًا واتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ... ١٤ - ١٥

وهاتان الآيتان جاءتا استطراداً على الأرجح فى سلسلة مواعظ لقمان ، ويدل مضمونهما على أنهما استهدفتا نفس الهدف الذى استهدفته آيتا العنكبوت ، واحتوتا إيضاحاً أكثر ، بما هو الواجب على الولد نحو والديه الكافرين ، وهو الحسنى بما يتعلق بأمور الدنيا فحسب .

وهذا التكرار يدل على أن محنة غضب الوالدين واضطهادهما وإلحاحهما لم تكن قاصرة على حادث واحد ، بل تعرض لها أكثر من واحد من المسلمين فى مكة ممن كانوا يمتون إلى البيوت القرشية الوجيهة . وهذا مشهد جديد من مشاهد الأذى والفتنة كما هو المتبادر ، كما أن فيه مغزى عظيما وهو أن بعض فتيان هذه البيوت أقبلوا على الدعوة والاستجابة إليها والالتفاف حول صاحبها برغم مواقف آبائهم وذويهم من معارضتها والصد عنها ...

(٣) وقد تبع الآيتين الآيتان التاليتان أيضا :

« ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءامَنَّا باللهِ فإذَا أُوذِىَ فى اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ ولَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فى صُدُورِ العَـٰلَمِينَ . ولَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ ءامَنُوا ولَيَعْلَمَنَّ المُنَـٰفِقِينَ ... ١٠ - ١١

والروايات تذكر أن الآيتين مدنيتان ، وبعض عباراتهما مثل « ولئن جاء نصر

من ربك »، ومثل « والمنافقين » يمكن أن يقويا رواية مدنيتهما ، لأنها أشبه بصور المدينة وظروفها ؛ غير أن محتويات القسم الأول من الآية الأولى هي مشاهد وظروف مكية في الغالب ، كما أن محتويات الآيتين التاليتين لها والمعطوفتين عليهما وهما :

« وقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا ولْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُمْ بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّنْ شَيْءٍ إنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ . ولَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ ولَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ... ١٢ - ١٣

هي مشاهد وظروف مكية أيضاً ، ولذلك فإنا نرجح مكية الآيتين ١٠ - ١١ ولقد احتوتا مشهداً من مشاهد الأذى والفتنة ؛ إذ تلهمان أن بعض المسلمين قد تضعضعوا أمام الأذى والاضطهاد وعمدوا إلى النفاق للكفار ومسايرتهم .

(٤) أما الآيتان ١٢ - ١٣ ففيهما مشهد متمم لذلك المشهد ، وأسلوب جديد من أساليب صد الزعماء عن الإسلام وإغراء المسلمين وفتنتهم ؛ إذ تلهمان أنهم كانوا يعمدون أحياناً إلى طمأنة المسلمين الذين يستشعرون فيهم عدم العمق في الإيمان أو انهيار الأعصاب فيتعهدون لهم بحمل ذنوبهم وخطاياهم إذا هم رجعوا إلى دين آبائهم وتخلوا عن الدين الجديد . والراجح أن الزعماء كانوا يستعملون هذا الأسلوب مع الذين لا يقدرون على اضطهادهم من أهل العصبيه من المسلمين . على أنه لا يبعد أنهم كانوا يقولون هذا القول للمسلمين في معرض الحجاج والجدل حينما كان هؤلاء يذكرون لهم هول القيامة ومصير الكفار الآثمين فيها ، وإن كنا نرجح الأول بسبب مجيء الآيتين بعد آيتي الفتنة والأذى وما كان لهما من أثر في بعض الضعفاء في الأعصاب أو الإيمان .

— ٦ —

في سورة الحج الآيات التالية :

« ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فإنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ

وإن أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا والآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ . يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنْفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَٰلُ الْبَعِيدُ . يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ . إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَٰرُ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ . مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ... ١١ - ١٥

وأكثر الروايات على أن سورة الحج مدنية ، وبعضها يذكر أنها مكية . ولقد توصلنا فى درسنا لفصول هذه السورة إلى أن أكثرها مكى وأقلها مدنى ، والآيات التى نقلناها الآن من الآيات التى رجحنا مكيتها استناداً إلى أسلوبها ومضمونها .

ولقد احتوت على ما تبادر لنا مشهداً أو صورة تمت إلى مشاهد وصور محنة الأذى والفتنة التى تعرض لها المسلمون فى مكة ، وأن فيها بعض المماثلة للمشهد الذى تضمنته آيتا العنكبوت (١٠ - ١١) ؛ إذ يظهر أن بعض المسلمين قد تضعضعوا أمام المحنة ولم يطيقوا تحمل الأذى والاضطهاد أو المقاطعة والصبر عليها ، وأنهم أبدوا شكهم فى نصر الله الموعود للمسلمين ؛ فنزلت تحمل على هذا النوع من الناس بأسلوب عام حملة لاذعة ، فى سياق بيان مراتب الناس من عبادة الله والاعتراف به والإخلاص له ؛ فالمخلص يجب أن يؤمل فى رحمة الله ونصره وإن تأخرا ، وإذا لم ينلهما فى الدنيا فهو نائلهما فى الآخرة ، والإيمان المشروط بأن لا ينال صاحبه إلا النفع لا يليق بمؤمن صادق ، لأن الإيمان مسئلة مستقلة لا علاقة لها بأعراض الدنيا المتقلبة على الناس ؛ ومثل المغيظ المحنق من بطء نصر الله ، والذى يرتد ويجحد من أجل ذلك ، مثل الذى يغتاظ من أمر ما فيعمد إلى شنق نفسه بالحبل : فهو فى عمله غير مشتف من غيظه وغير ضار بأحد وغير مهلك إلا نفسه . وفى الآية الأخيرة خاصة معالجة روحية قوية نافذة من دون ريب فى مثل الحالات التى جاءت بصددها ، كما أن مجموع الآيات هى فى الوقت نفسه بسبيل طمأنة من تعرض للأذى والحرمان

بسبب إسلامه، والتنديد بالذين لم يصبروا عليهما فخاروا وارتدوا ...

- ٧ -

فى سورة العنكبوت الآيات التالية :

« يَـٰعِبَادِىَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَاعْبُدُونِ . كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ . وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَـٰمِلِينَ . الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ... ٥٦ - ٦٠

والآية الأولى متقاربة مع آية الزمر (١٠) التى أشرنا إليها فى فقرة سابقة من هذا المبحث وقلنا إنها جاءت بين يدى الهجرة إلى الحبشة مثبتة مشجعة آذنة بالهجرة. ولما كانت سورة العنكبوت من آخر ما نزل من القرآن فى مكة فإن من السائغ أن يقال إن هذه الآيات قد نزلت فى ظرف اشتدت فيه الأزمة على المسلمين من جهة، وتم فيه الاتصال الأول بين النبى صلى الله عليه وسلم وزعماء يثرب ورحب هؤلاء بمن يريد أن يهاجر من المسلمين المضطهدين إليهم من جهة أخرى؛ فاحتوت التثبيت والتشجيع والإذن ؛ ويحتمل بل يستلهم منها أن بعض المسلمين قد تهيبوا الهجرة وخافوا أن يلقوا حتفهم أو يلقوا العنت والحرمان وضنك العيش فى دار الغربة، فبثت الآيات فيهم الطمأنينة ونفت عنهم المخاوف ؛ فأرض الله واسعة وعلى عباده أن يعبدوه دون مبالاة بشىء، والموت على رقاب الناس جميعاً أينما كانوا فليس ثمة محل للتخوف منه، والله الذى يرزق كل دابة وفى الدواب كثير لا يكسب رزقه - حقيق بأن يتكفل برزقهم فليس ثمة مبرر للخوف من الجوع والحرمان..

ولا نشك فى أن الآيات قد بثت فى نفوس الخائف الطمأنينة، وأن حركة هجرة المسلمين من مكة إلى يثرب قد بدأت وتوالت بعدها ؛ وهى الحركة التى كان فيها للمسلمين الفرج الأعظم من شدتهم، والتى كان فيها بدء عظمة الإسلام وقوته وتعاليه

بعد أن ظل فى نطاق ضيق محفوف بالمحن والأخطار ؛ بل التى لو لم تكن لكان من المحتمل أن يتغير مجرى حدث من أعظم أحداث التاريخ ؛ إلى غير ذلك مما هو مندمج فى هذه الآية التذكيرية من آيات الأنفال :

« وَٱذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ... ٢٦

ولقد كان إقدام المهاجرين على الهجرة فى سبيل الله وقد تخلوا عن أموالهم ووطنهم واسترسلوا فى عداء وقطيعة شديدين مع قومهم عملا رائعاً عظيما عبر عنه الثناء القرآنى العظيم :

« لِلْفُقَرَاءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ... الحشر ٨

هذا ؛ ولقد جاء فى سورة آل عمران الآية التالية :

« فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ... ١٩٤

ويلاحظ أنه ورد فيها كلمات الهجرة والإخراج والأذى معاً ؛ ولا بد أن يكون قد قصد بجمع الكلمتين الأولين خاصة ، الدلالة على معنيين فى صدد الهجرة ، وهما فيما يتبادر لنا : الهجرة الحرة والهجرة الاضطرارية ؛ ونعتقد أنه من السائغ أن يقال إن من المهاجرين من هاجر استجابة لتشجيع النبى صلى الله عليه وسلم وإذنه وتبرماً بحالة المسلمين فى مكة بوجه عام دون أن يكون مطارداً أو مضطهداً بالذات ، ومنهم من هاجر نتيجة للأذى والخطر اللذين كانا يناله شرهما .

— ٨ —

فى سورة الحج الآيات التالية :

« والَّذِينَ هَاجَرُوا فى سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقًا حَسَنًا وإنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ . لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وإنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ... ٥٨ - ٥٩

وفيها النص الصريح على أن فريقاً من المسلمين هاجروا من مكة فلاقوا حتفهم موتاً وقتلا ، وإنهما بسبيل التنويه بهم والإخبار عنهم : ولقد سبق الآيتين آيات روى أنها نزلت فى طريق هجرة النبي صلى الله عليه وسلم نفسه من مكة إلى المدينة ،وهى :

« ومَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ ولا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَٰنُ فى أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ ءَايَٰتِهِ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى الشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ والقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم وإنَّ الظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ . ولِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وإنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ... ٥٢ - ٥٤

ولقد روى أن هذه الآيات نزلت فى شأن حكاية الغرانيق التى قيل فيها : إن النبى تلا أثناء تلاوته سورة النجم فى فناء الكعبة آيات ليست من القرآن وهى « تلك الغرانيق العلى . وإن شفاعتهن لترتجى » ، وإنها من إملاء الشيطان ، وإن معنى « تمنى » فى الآية الأولى « قرأ » ، ومعنى « أمنيته : قراءته » . غير أن فى هذا التفسير تكلفاً ظاهراً ، منه أنه يقتضى أن يكون كل رسول ونبى قبل النبي قد وقع له مثل ما وقع للنبى وجرى على لسانه أثناء قراءته كلام الله : آيات ليست منها . كما أن فى الرواية تهافتاً من وجوه عدة وغير متسقة مع مضمون ومدى الآيات على ما فصلناه فى تفسيرنا

وألمعنا إليه فى مناسبة سابقة . ولقد رجحنا أن يكون الوجه فى تأويلها هو «أن الله لم يرسل نبيا أو رسولا وتمنى أمراً ـ وما يتمنونه هو نجاحهم فى الدعوة ـ إلا وقف الشيطان فى طريق تحقيق هذه الأمنية ، ولكن الله يؤيد رسوله ويحكم آياته ويحبط وساوس الشيطان ومواقفه بحيث لا يغوى بها إلا مرضى القلوب وقساتها وخبثاء النية والسريرة ، أما الذين أوتوا العلم والإذعان فيدركون أن ما جاء من آيات الله هو الحق فيؤمنون به وتخشع له قلوبهم ، وهذا التأويل يتسق مع رواية نزول الآيات على النبي فى طريق هجرته ، ويتجلى به قصد الله فى بث السكينة والطمأنينة فى نفس نبيه مما ألم به من إخفاق الدعوة واضطراره أخيراً إلى هجرة وطنه خفية ، وفى بث السكينة والطمأنينة كذلك فى نفوس المسلمين الذين انضووا إلى الدعوة وثبتوا عليها . وإذا كان هذا التأويل صواباً وهو ما نرجوه فمن المحتمل كثيراً أن تكون الآيات التى بعدها بما فيها الآيات ٥٧ ـ ٥٩ قد نزلت معها فى الظرف نفسه وتكون هذه الآيات مما يتصل مباشرة بسلسلة الفتن والأذى والإزعاج التى ذاق المسلمون مرارتها فى مكة ، وخاتمة لها فى آخر العهد المكى وبدء العهد المدنى ؛ ولعل بينها وبين آيات العنكبوت ٥٦ ـ ٦٠ مناسبة موضوعية ؛ إذ احتوت هذه تشجيعاً ونفياً للمخاوف من الجوع والموت ، واحتوت تلك طمأنة وتثبيتاً بمناسبة لقاء بعض المهاجرين حتفهم ؛ وقد انطوت المجموعتان على كل حال على ما كان للهجرة إلى يثرب وظروفها وحركتها من آثار نفسانية متنوعة المدى.

— ٩ —

وتنبه إلى أن ما أوردناه فى الفقرات السابقة هو ما ذكر فيه الأذى والفتنة صراحة ، وانطوى فيه صور ومشاهد عنهما ؛ وأن هناك آيات مكية كثيرة احتوت تسلية وتصبيراً للنبي والمسلمين ، ووعداً بنصر الله وتهديداً وإنذاراً للكفار ، نزلت فى مختلف أدوار التنزيل المكى يصح أن تعد قرائن على ما كان يلقاه المسلمون من الكفار أو بالأحرى من زعمائهم من عنت وشدة ، وأن تلحق فى باب محنة الأذى والفتنة التى امتحن بها المسلمون ، وتتم بها حلقات السلسلة التى بدأت ـ كما قلنا ـ فى عهد مبكر واستمرت طيلة العهد المكى ، مما يمثله صراحة الآيات التى نقلناها ، ويمثله

ضمناً وبالقرينة الآيات الأخرى التي يمكن أن تمثل لها بما يلي :

١ — وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ . الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ... إبراهيم ٢ - ٣

٢ — ولا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَٰرُ ... إبراهيم ٤٢

٣ — وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ . فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ...

إبراهيم ٤٦ - ٤٧

٤ — إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْءَانَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ . وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ . وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ...

النمل ٩١ - ٩٣

٥ — وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ . وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَٰلِبُونَ . فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ . وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ . أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ . فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ . وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ . وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ...

الصافات ١٧١ - ١٧٩

٦ — إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ

الْأَشْهَٰدُ . يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ...

غافر ٥١ - ٥٢

٧ — فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ . أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ...

الزخرف ٤١ - ٤٢

٨ — وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ . وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ . إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ . إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا . وَأَكِيدُ كَيْدًا . فَمَهِّلِ الْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ...

الطارق ١١ - ١٧

— ١٠ —

وإتماماً للبحث نرى من المفيد أن نستعرض بعض الآيات المدنية المتصلة بمواقف الأذى والفتنة المكية ؛ منها ما هو بمثابة التعقيب والتذكير ، ومنها ما فيه مشاهد من المحنة استمرت تصيب المسلمين الذين عجزوا عن الهجرة إلى المدينة .

وإليك مما هو من النوع الأول :

١ - فى سورة الحج الآيات الآتية :

« إِنَّ اللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ . أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ الْأُمُورِ ...

٣٨ - ٤١

وطابع العهد المدنى واضح على هذه الآيات . وفيها مما له صلة بمحنة الأذى والفتنة ، تقرير كون المسلمين مبغيا عليهم ، وأنهم اضطروا إلى الخروج من ديارهم نتيجة للأذى والاضطهاد ، لا لذنب إلا أنهم آمنوا بالله واعترفوا بربوبيته وحده ، وفيها كذلك وعد من الله بالدفاع عنهم ونصرهم وتمكينهم فى الأرض وبأنه سوف يوفقهم إلى إقامة شعائر الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وقد قال المفسرون والرواة : إن هذه الآيات أولى آيات نزلت بالإذن للمسلمين بالقتال مقابلة لما يقع عليهم من ظلم وأذى ، بعد أن كانوا يؤمرون بالصبر وعدم المقابلة . وعلى هذا تكون قد نزلت قبل آيات القتال فى سورة البقرة ، وأول تعقيب على الهجرة إلى يثرب وأول آيات احتوت الطمأنة والتشجيع للمسلمين فى عهدهم الجديد .

٢ - فى سورة البقرة الآيات التالية :

« وَقَـٰتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَـٰفِرِينَ . فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى الظَّـٰلِمِينَ . الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ . وَأَنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . ١٩٠ - ١٩٥

ومما يتصل بمحنة الأذى والفتنة : الأمر بقتل الكفار وإزعاجهم ومطاردتهم مقابلة لما كان منهم من مثل ذلك ، وتقرير كون الفتنة أشد من القتل تبريرا لقتال

الكفار الذين كان منهم ذلك الاضطهاد الذى كان يؤدى إلى فتنة المسلمين عن دينهم ، ثم الأمر بالقتال إلى أن ينتهى كل اضطهاد وأذى وفتنة وتضمن حرية دين الله وعبادته . وهذه المضامين تدل على مقدار ما كان لأذى زعماء الكفار واضطهادهم وفتنتهم المسلمين ومطاردتهم إياهم واضطرارهم إلى الهجرة من وطنهم من مرارة وأثر بعيد المدى فى سير الدعوة فى مكة وفى نفوس المسلمين أيضاً . وقد تلهم هى ومضامين الآيات بمجموعها أن محنة اضطهاد الكفار وأذاهم وفتنتهم للمسلمين ما زالت قائمة ، إذ تأمر المسلمين بالجد فى قتالهم والاستعداد له ، لأن الخطر عليهم وعلى دينهم لم يزل وإن هاجروا . ومما يتضمنه معنى بقاء المحنة أن مستضعفى المسلمين فى مكة الذين لم يستطيعوا الإفلات لم يزالوا معرضين للأذى . وقد ذكر هذا فى آيات أخرى بصراحة .

وقد قال المفسرون والرواة إن هذه الآيات أول آيات نزلت فى الأمر بقتال الكفار ؛ وليس ثمة تناقض بين هذا وآيات الحج السابقة التى إنما احتوت تقرير كون المسلمين مبغياً عليهم ، وإذناً بالقتال والدفاع ، فى حين احتوت آيات البقرة أمراً بالمباشرة وتحديداً للحدود التى يحسن أن يسار فى نطاقها . . .

٣ — فى سورة البقرة الآيات التالية :

« كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . . . » ٢١٦ - ٢١٧

ويلفت النظر خاصة إلى اتصال الآية الثانية بمحنة الأذى والفتنة ، إذ تبرر قتال الكفار فى أى وقت ومكان بقطع النظر عن الحرمات التقليدية ، مقابل ما بدا منهم من كفر وصد واضطهاد وإخراج أهل الحرم من موطنهم ظلما وأذى ، وفتنة المسلمين عن دينهم وهى أكبر عند الله من القتل ومن تلك الحرمات ، وإذ تنذر المسلمين بشدة الكفار وتصميمهم على الاستمرار فى خطتهم الباغية فى قتالهم حتى يردوهم عن دينهم . وفى كل هذا ترديد فى الوقت نفسه لما كان لتلك المحنة من آثار بعيدة المدى فى سير الدعوة وفى نفوس المسلمين ، وإنذار لما يمكن أن يكون لها من مثل ذلك إذا تساهل المسلمون ولم يحزموا أمرهم ...

٤ - فى سورة الأنفال الآية التالية :

«وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ...» ٣٩

وقد ورد قريب من هذا فى آية البقرة (١٩٣) وتكرار الأمر والمدى بعد وقعة بدر - لأن سورة الأنفال نزلت عقبها - يدل على أن خطر فتنة الكفار ما زال مستمرا فاقتضت الحكمة التكرار حتى يظل المسلمون منتبهين حذرين مستمرين فى أسباب إزالة هذا الخطر ، وعدم الاكتفاء بما نزل عليهم من ضربة بدر القاصمة .

- ١١ -

ومما يتناسب مع البحث الإشارة إلى ما كان من صد مشركى مكة المسلمين عن زيارة الكعبة ، وواجبات الحج التى ثبت القرآن المكى جل تقاليدها تثبيتا تشريعيا ؛ إيغالا فى الأذى والنكاية والقطيعة والعداء ، ورغم ما فى ذلك من نقض لتقاليد مقدس راسخ يقوم عليه فى الوقت نفسه أود مكة المعاشى ومجدها ونفوذها الأديان .

١ - ففى سورة البقرة الآية التالية :

«وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ...
١٩٦

وتلهم أن من المسلمين من كان يمنع عن الحج والعمرة فاقتضت حكمة التشريع ذلك :

٢ - وفى سورة الأنفال الآية التالية :

«وما لهم ألَّا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون ...» ٣٤

٣ - وفى سورة الحج الآية التالية :

«إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ...» ٢٥

وهما تنصان نصا مطلقا على صد المشركين عن المسجد الحرام .

٤ - وفى سورة الفتح الآية التالية :

«هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا أن يبلغ محله ...» ٢٥

وتشير إلى حادثة معينة وهى صد مشركى مكة النبى والمسلمين عن المسجد الحرام حينما خرجوا فى أواخر السنة الهجرية السادسة للزيارة وانتهت بصلح الحديبية على ما سوف نبسطه .

٥ - وفى سورة التوبة الآيات التالية :

«ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين . قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين . ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم ...» ١٣ - ١٥

وسورة التوبة من آخر ما نزل من القرآن ، والآيات نزلت قبيل فتح مكة ، والتحريض الذى احتوته على قتال أهل مكة متلازم كما هو ظاهر مع التذكير بما كان

منهم فى العهد المكى من عدوان وبغى على المسلمين وتآمر على النبى . وهذا يدل على ما كان لبغيهم وعدوانهم وتآمرهم من أثر مستمر ، وما كان قائما من خطر لم يكن ليزول إلا إذا خضدت شوكتهم نهائيا .

٦ - وجاء فى مطلع سورة الممتحنة الآيتان التاليتان :

« يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَآءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَابْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ . إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوٓءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ... »

١ - ٢

والآيتان متصلتان بذكريات محنة الأذى والفتنة اتصالا وثيقا كما هو ظاهر ، إذ تذكران بما كان من معالنة زعماء مكة الرسول والمسلمين بالعداء ومبادأتهم بالبغى وإلجائهم إياهم إلى الخروج من وطنهم ، وتنبهانهم إلى الخطر المستمر عليهم منهم بحيث أنهم لن يترددوا فى بسط أيديهم وألسنتهم إليهم بالسوء وقتالهم وفتنتهم عن دينهم إذا ما أمكنتهم الفرصة ، ولقد نزلتا قبل الفتح المكى كآيات التوبة . وهكذا تكونان قد تضمنتا ما تضمنته تلك الآيات من تقرير استمرار أثر بغى أهل مكة وعدوانهم على المسلمين فى العهد المكى .

ولقد رددت الروايات فى سياق الآيتين أنهما نزلتا فى مهاجر اسمه حاطب أرسل إلى بعض زعماء مكة رسالة قبيل الفتح يخبره فيها بتأهب النبى لغزو مكة ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم حينما عاتب الرجل اعترف بالحقيقة ثم أكد له حسن إسلامه ، واعتذر بأن له أهلا ومالا فى مكة وليس له عصبية فأراد أن يتخذ يداً عند الزعيم الذى كتب له يقى بها أهله وماله . وليس فى الرواية ما لا يتسق مع الآيتين إلا ما تلهمه الآية التى تلت الآيتين وهى « لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة

يفصل بينكم ، من أن للأرحام والقربى أثراً ما فى هذا الموقف . وعلى كل حال فإن الآيات لاتخلو من صلة بالمحنة وأثرها .

- ١٢ -

وهناك بضع آيات خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم ومتصلة بهذا المبحث . منها آية فى سورة الإسراء وهى :

«وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ... ٧٦

ولقد جاء فى بعض الروايات أنها مدنية وأنها نزلت بمناسبة تحريضهم النبى على الخروج للشام وقولهم له : إن الأنبياء جميعهم إنما ظهروا فيها ، وإن عليه إن كان نبيا حقا أن يتأسى بهم ؛ فتأثر النبى بذلك حتى كاد يزمع الخروج . ونحن نشك فى مدنية الآية وفى هذه الرواية غير الموثقة ، لاسيما أن الآية متسقة مع السياق اتساقاً تاما نظماً ومضموناً إذا ماأنعم النظر ، وليس مما يعقل أن يستمع النبى صلى الله عليه وسلم لوساوس اليهود الذين جحدوا رسالته ونشب بينه وبينهم خلاف وجدل فى عهد مبكر من الهجرة ، ونزل فيهم قرآن كثير احتوى حملات شديدة عليهم ، وصار العداء بينه وبينهم قائماً مستحكماً . هذا إلى عدم معقولية وضع الآية فى سياقها إن كانت مدنية

والذى نرجحه إن لم نقل نجزم به أن الآية تنطوى على مشهد من مشاهد العهد المكى ، وأنها بسبيل وصف شدة عناد وصد طغاة الزعماء ومواقفهم من النبى صلى الله عليه وسلم التى أزعجته إزعاجاً شديداً حتى فكر فى النزوح عن مكة فى أواسط العهد المكى ، ولعل هذا كان إبان اشتداد الأزمة على المسلمين وتفكيرهم فى الهجرة إلى الحبشة ، فآية النحل (٤١) التى تضمنت الإشارة إلى هذه الهجرة إنما ذكرت حادثاً كان قد وقع قبل نزولها ، ولانستبعد استلهاماً من آية الإسراء أن يكون النبى قد فكر فى الخروج مع الخارجين ثم ألهمه الله البقاء وثبته مع الذين بقوا وثبتوا فى مكة ؛ كما لايستبعد أن يكون قد فكر فى الخروج بعدهم وقد قل أصحابه من حوله قلة كبيرة وكان هذا مما قوى ساعد المعارضين والصادين وأعلى صوتهم وزاد فى إزعاجهم .

ولقد ذكر ابن هشام أن أبا بكر رضى الله عنه خرج من مكة مهاجراً فى ظرف

من ظروف الإزعاج ، وذلك بعد هجرة المهاجرين إلى الحبشة ، فلقيه ابن الدغنة زعيم الأحابيش ، ولما عرف أنه خرج مهاجرا كبر عليه ذلك وقال له إن مثلك لايخرج وأقنعه بالرجوع فى جواره . . . ومهما يكن من أمر الرواية ففيها صورة لما كان بلغه إزعاج الزعماء وتظاهرهم وصدهم ، وفيها ما يستأنس به على ما قلناه آنفاً . .

وعلى كل حال فالآية صريحة بأنها انطوت على مشهد أو حادث خطير من مشاهد السيرة فى العهد المكى متصل بشخص النبى صلى الله عليه وسلم لم يرد عنه أى إشارة فى كتب السيرة فيما اطلعنا عليه . نقول هذا ونحن نعرف أنه ورد أن النبى خرج إلى الطائف قبل سنتين من الهجرة إلى يثرب ؛ ولكننا نعتقد أن الآية ليست بسبيل الإشارة إلى هذا لأنها لا تذكر خبر خروج فعلى فى حين أن الخروج المروى إلى الطائف كان فعليا .

٢ - ومنها آية فى سورة الروم وهى :

«فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ... ٦٠

والآية تلهم أنها نزلت فى ظرف اشتداد الأزمة والمناوأة حتى فكر النبى صلى الله عليه وسلم بالقيام بحركة ما فتضمنت تثبيتاً وتوكيداً بنصر الله وتحقيق وعده ، وأمراً بعدم التأثر من موقف الكفار تأثراً يحمله على ما فيه حركة غير مناسبة الأوان . وسورة الروم من آخر ما نزل من القرآن المكى ؛ ولا نستبعد أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم قد اتصل قبل نزول الآية بأهل يثرب ورأى منهم ترحيباً ، وأن يكون قد فكر فى الاستعجال بالخروج إليهم فثبته الله لأن الوقت المناسب لم يكن قد حلّ بعد .

٣ - ومنها آية فى سورة الأنفال المدنية جاءت للتذكير وهى :

«وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ... ٣٠

والآية صريحة بأن الحقد والعداء قد بلغا فى زعماء مكة نحو النبى صلى الله عليه وسلم مبلغا جعلهم يأتمرون فيما بينهم فى الوسائل التى يقضون بها عليه أو يحولون دون استمراره فى الدعوة بعد أن رأوا أن كل ما كان منهم من صد ومناوأة وأذى

لم يجد نفعاً : وبعد ما أملوا فى موته وانقضاء أمره كما حكته عنهم بعض آيات سورة الطور :

«أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ . قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ...» ٣٠ - ٣١

فلم يتحقق أملهم ؛ ولقد فكروا على ما ذكرته الآية فى ثلاث وسائل وهى حبسه أو اغتياله أو نفيه . وروايات السيرة تذكر أن قرارهم قر على الاغتيال على شريطة اشتراك شبان من مختلف بيوتات قريش فيه حتى يتوزع ثأره ولا يبق إمكان لآله أن يطالبوا به . والروايات تذكر كذلك أن هذا قد كان فى أخريات العهد المكى وأن هجرة النبى صلى الله عليه وسلم شخصيا قد وقعت على أثر وصول خبر قرار الاغتيال إليه . ولقد ذكرت الروايات أن النبى صلى الله عليه وسلم اتصل فى السنة الحادية عشرة من البعثة ببعض أهل يثرب فآمنوا به وأنه جاء فى السنة التالية وفد منهم وبايعوه ، وأن الإسلام بعد ذلك أخذ يفشو فى يثرب ، وأن وفداً كبيراً آخر جاء إلى يثرب لجددوا البيعة ورحبوا بهجرة النبى والمسلمين إليهم ، وعاهدوا النبى صلى الله عليه وسلم على نصرته والدفاع عنه ، وأن الهجرة إلى يثرب قد بدأت بعد ذلك . والروايات سائغة وليس فيها مايحمل على التوقف .

فن المحتمل كثيراً أن زعماء مكة قد أخذوا يتوقعون العواقب الوخيمة لنجاح هذه الحركة وانتشار الدعوة وفوزها ، وسقوط هيبة مكة وإمامتها ومنافعها ، ونشوب العداء بينهم وبين أهل يثرب وهى على طريق قوافلهم التجارية ، فرأوا أن الوسيلة الوحيدة لتدارك هذه العواقب هى القضاء على شخص السيد الرسول . وعدم تفكيرهم بمثل ذلك إلا بعد اتصال النبى بأهل يثرب وبدء حركة هجرة المسلمين إليها مما يدل على أنهم لم يكونوا يشعرون بخطر عظيم للدعوة ، وأنهم كانوا يرون أن ماكان منهم من مناوأة لها وصد عنها ، وموالاتهم لأذى من يقدرون عليه من المسلمين - كاف لإبقائها فى نطاق ضيق محفوف بالخطر من شأنه أن ينتهى بالمسلمين إلى التبرم بها والسأم منها وضيق الذرع بها وتفرقهم عنها ، كما أنهم كانوا يرون على كل حال أن هذه النتيجة حاصلة إذا مالقى النبى صلى الله عليه وسلم حتفه عاجلا أوآجلا

مادامت دعوته تظل فى هذا الحال من الضيق والحرج ، ففضلوا تربص ريب المنون به كما حكته آية الطور ؛ بل إنهم رأوا أمارات ذلك حينما مات أبو طالب أقوى حماته العصبيين والسيدة خديجة رضى الله عنها أقوى أعضاده الروحيين ، واشتد عليه الحرج حتى خرج إلى الطائف ولم يستطع أن يدخل مكة بعد عودته منها مخفقاً إلا بجوار أحد الزعماء على ما ذكرته روايات السيرة . فمن الطبيعى والحالة هذه أن يهمهم أمر اتصاله بأهل يثرب وتفاهمه معهم وهجرته إليهم ، وأن يحسبوا لذلك أعظم الحساب بعد أن رأوا أن الغلبة لهم قد تمت أو كادت ، وأن دعوته قد أخفقت أو كادت ، وأن أمره لن يلبث أن يذهب بدداً .

وما ذكرته الآية من التآمر على حبسه أو إخراجه بالإضافة إلى قتله يدل على أن السلطات الرسمية فى مكة قد اشتركت آخر الأمر فى هذا الموقف الخطر واندمجت فيه لأنها استشعرت الخطر العظيم الذى قد يحدق بمكة ويهدد مصالحها الكبرى من نجاح هجرة النبي إلى يثرب وعواقبها . ويتبادر لنا أن القصد من فكرة الإخراج هو نفى النبى بالقوة من مكة إلى مكان يضطر إلى البقاء فيه مشلول الحركة مأمون الخطر والعاقبة ؛ فليس ثمة معنى غير هذا للتآمر على إخراج النبى فى جملة ماخطر لبالهم من وسائل يتفادون بها خطره .

٤ - ومنها آية فى سورة التوبة وهى :

« إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... ٤٠

والآية تذكر بما كان من عناية الله ونصره لنبيه حينما اضطر إلى الخروج من مكة على أثر وصول الخبر إليه بقرار اغتياله على ماذكرناه سابقاً .

والمجمع عليه أن صاحبه هو أبو بكر رضى الله عنه الذى خرج وإياه من مكة مستخفيين . ولقد ذكرت الروايات أنه قد كبر على زعماء قريش إفلات النبي من

أيديهم ، وقد كانوا أدركوا الخطر العظيم الذى يحدق بهم فى حالة إفلاته ووصوله إلى يثرب ؛ فأرسلوا خلفه من يبحث عنه ويقبض عليه ، ويحول دون استمراره فى طريقه ؛ وشعر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فاختفى هو وصاحبه فى الغار الذى تذكر الروايات أنه فى جبل أبي ثور من الجبال المحيطة بمكة ريثما يخف الطلب ، وليس فى الروايات مالا يتسق مع الآيات .

والآية تتضمن التنويه بالعناية الربانية بالنبي أولا ، وبما كان من رباطة جأشه فى هذا الموقف العصيب ثانياً ، ثم بما كان من أثر إفلاته ونجاحه والتحاقه بالمدينة فى قوة الإسلام وانتشاره وكبت أعدائه مما هو مندمج فى الفقرة الأخيرة منها .

ومما لاريب فيه أن هذا الحادث العظيم من أعظم حوادث السيرة النبوية شأناً وأبعدها فيها مدى ، وأنه التاج الذى كلل حركة هجرة المسلمين إلى يثرب التى بدأت قبله ، والتى قلنا إنها كانت بدء تعالى الإسلام وعظمته ؛ بل من الحق أن يقال إن نجاح النبي فى الإفلات هو الأصل الأقوى فيما كان من آثار هذه الحركة .

ومهما كان من أمر زعماء مكة وتآمرهم ، وظروف هجرة النبي صلى الله عليه وسلم الشخصية ، فإن هناك نقطة جديرة بالذكر والتنويه فى صدد عظمة أخلاق السيد الرسول ورباطة جأشه وحرصه على المؤمنين ورأفته بهم ؛ وهى أنه لم يستعجل بالهجرة شخصيا عقب أخذه البيعة على النصر والدفاع من زعماء يثرب ، وظل فى مكة يدبر أمر هجرة أصحابه ويشجعهم عليها ويرعى سيرها ، ويخلفهم -على مايتبادر- فى قضاء ماكان حتما عليهم قضاؤه من أمور إلى أن تمت هجرة من اعتزم الهجرة أو غالبيتهم .

— ١٣ —

هذا ، وبمناسبة هذه الآيات الخاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم فى صدد محنة الأذى والفتنة ونتائجها رأينا أن نبحث عما إذا كان نال النبي شخصيا شىء من الأذى عدا ماكان من التآمر عليه ، واضطراره إلى الخروج خفية ومحاولة اللحاق به .

ولقد ذكرت الروايات بعض الحوادث مثل إلقاء روث أو تراب عليه أثناء سجوده فى فناء مكة أو شده من مخنقه ، غير أن اختلاف نصوص الروايات مع وحدة الشخص المعزو إليه ارتكاب الإثم فى بعضها ، وعدم ذكر القرآن شيئاً ما يدل على وقوع الأذى عليه فعلا ، مع ذكره محاولات الزعماء أو فريق منهم التقرب إليه

والتفاهم معه ؛ وعدم هجرته إلى الحبشة حينما اشتد الأذى على المسلمين ، وما يستفاد من الآيات القرآنية من وقوفه دائماً موقف القوى المستعلى فيما كان يتلوه من آيات فيها عنف وصفعات ، وبراهين دامغات ، وتنديدات لاذعات ، يجعلنا نميل إلى التوقف فيما روى عن إيقاع الأذى عليه شخصيا . وكل ما حواه القرآن هو حكاية بعض أقوال ومواقف استهزائية مثل الذى جاء فى سورتى الأنبياء والفرقان :

١ — وإذَا رَءاكَ الَّذِينَ كَفرُوا إنْ يَتَّخِذُونكَ إلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا الَّذِى يذْكُرُ ءالِهَتَكُمْ ... ٣٦

٢ — وإذَا رَأَوْكَ إنْ يَتَّخِذُونَكَ إلَّا هُزُوًا أَهٰذَا الَّذِى بَعَثَ اللهُ رَسُولًا ... ٤١

ثم تلك النعوت المتنوعة من كاذب وساحر ومجنون ومفتر الخ مما لا يعد أذى بدنيا ، ومما يمكن أن يدخل فى نطاق المشادات الجدلية .

ومما يلفت النظر آية فى سورة الحج هذا نصها :

«وإذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءايَٰتُنا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فى وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءايَٰتِنا قُل أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَها اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وبِئْسَ الْمَصِيرُ ... ٧٢

ومعنى هـذا أن كل ما كان من أمر الزعماء حينما كان السيد الرسول يتلو آيات القرآن وفيها ما فيها من تنديد بهم وتسفيه لأحلامهم ، ومهاجمة لعقائدهم وتقاليدهم - أن يبدو أحياناً على وجوههم الغضب حتى يكادوا يسطون به ، أى أنهم لم يكونوا يقدمون على ذلك فعلا .

ولقد بقى ذوو العصبيات من المسلمين فى نجوة من الأذى ، ولقـد كان للنبى صلى الله عليه وسلم عصبية قوية ؛ فمن المعقول أن يكون قد بقى هو كذلك فى نجوة من الأذى . ولقد روى أن الزعماء كانوا يتحاشونه ويخافونه ويناشدونه الرحم أحياناً حينما يبدو عليه الغضب من موقف ما حتى لا ينزل عليه قرآن فيهم يدمغهم ويسجل عليهم اللعنة الخالدة . ونعتقد أن هذا محتمل الصحة جدا حتى مع ذكر أنهم غير مؤمنين

بنبوته ؛ فقد كانوا ينعتونه بالشاعر، وكان العرب وزعماؤهم فى مقدمتهم يتحاشون الشعراء لئلا يهجوهم بهجو تسير به الركبان . كذلك كان بعضهم يعتقد أنه ساحر وبعضهم يعتقد أنه كاهن ، وكانت هذه الطبقة مما يبعث فى نفوس الناس الرهبة والهيبة ؛ هذا إلى ما نعتقده من أن كثيراً من الزعماء كانوا يعتقدون صدق نبوته ، وكان موقفهم منه موقف المعاند المكابر المغيظ استكباراً واندفاعاً بالأنانية والأغراض الذاتية كما ذكر القرآن ذلك فى آيات كثيرة نقلنا فى ما سبق جملة منها .

على أنه قد يجوز استثناء رواية ما كان من رجمه وجرحه من قبل بعض الرعاع فى الطائف ، حينما ذهب إليها بعد موت أبى طالب والسيدة خديجة واشتداد الكرب عليه فى مكة على ما أشرنا إليه فى مناسبة سابقة ، فنحن نميل إلى تصديق الرواية إجمالا ، لأن الظروف التى وقعت فيها الرحلة إلى الطائف وما وقع له فيها مما يدخل فى دائرة الاحتمال كثيراً .

— ١٤ —

وإليك الآن ما يتصل باستمرار المحنة على المسلمين الذين ظلوا فى مكة :

١ ـ فى سورة النساء الآية التالية :

«وما لَكُمْ لا تُقَـٰتِلُونَ فى سَبِيلِ اللهِ والمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ والنِّساء والوِلْدٰنِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هٰذِهِ القَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُها واجْعَل لَنا مِن لَدُنْكَ وَلِيًا واجْعَل لَنا مِن لَدُنْكَ نَصِيرًا... ٧٥

والآية صريحة بأنه كان فى مكة رجال ونساء وولدان مسلمون عجزوا عن الهجرة وبأنهم كانوا فى كرب عظيم من أهل مكة أو من ذويهم ، يدعون الله بالفرج من شدتهم . ولقد جاءت الآية فى سياق تحريض المسلمين على قتال أهل مكة ؛ وهذا متصل بالعداء الذى بدأ بعدوان هؤلاء على المسلمين فى مكة ؛ والآية صريحة بأن التحريض يستهدف إنقاذ المستضعفين أيضاً ؛ وهذا إنما يكون بسبب استمرار محنة الأذى والفتنة عليهم بطبيعة الحال .

٢ ـ وفى سورة النساء أيضاً الآيات التالية :

«إنَّ الَّذِينَ تَوَفَّـٰهُمُ المَلَـٰئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَـٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا. إِلَّا المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا. فَأُولَـٰئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا. وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ المَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا ...» ٩٧ - ١٠٠

والآيات صريحة بأنه كان هناك مسلمون لم يهاجروا، وبأن منهم من كان مستضعفاً عاجزاً حقا، كما أن منهم من ثقل عليه أمر الهجرة لسبب من الأسباب لا يبرره الإخلاص لدين الله، ففضل البقاء ولو تعرض لمحنة الأذى والفتنة. وقد حملت الآيات على هؤلاء وأنذرتهم، ثم حرضت على الهجرة مطلقاً وأوجبت على كل مسلم متخلف اغتنام الفرصة الممكنة لها، لأنها تنقذه من المحنة، وتيسر له الحرية والطمأنينة ووسائل إزعاج العدو معا. وكل هذا متصل بمحنة الأذى في مكة وآثارها كما هو المتبادر.

٣ - في سورة الفتح الآيات التالية:

«هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَالهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا. إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى المُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ...» ٢٥ - ٢٦

والآية الأولى صريحة بأنه كان فى مكة رجال ونساء مؤمنون ؛ وقد تلهم روحها بأنهم كانوا يكتمون إسلامهم خشية الأذى والفتنة ؛ كما تلهم أن بقاءهم فى مكة لعذر مقبول : هو العجز أو الضعف على ما هو المتبادر .

أما الآية الثانية فالمجمع عليه أنها فى صدد ما كان من مفاوضة بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش فى الحديبية ؛ والروايات تذكر أن النبي خرج مع المسلمين فى السنة السادسة للهجرة بقصد زيارة الكعبة ، فتصدى لهم أهل مكة ومنعوهم ، وكاد ينشب القتال بينهم ، ثم جنح إلى المفاوضة فى عقد صلح ؛ وقد تمسك المفاوضون القرشيون ببعض الشروط بسائق الحمية الجاهلية ، ورأى النبي صلى الله عليه وسلم مسايرتهم اجتهاداً منه بأن فى عقد الصلح فوائد عظيمة ، وكانت هذه المسايرة مما آلم المسلمين فى بادئ الأمر ؛ وقد كان من جملة هذه الشروط أن يرد النبي من يأتى إليه مسلماً من مكة إلى المدينة برغم أهله ، وعدم تقيد أهل مكة بمثل هذا الشرط فيمن يعود من المدينة إلى مكة من المهاجرين . والروايات متسقة إجمالا مع روح الآية كما هو المتبادر .

ومما روى أن ابن سهيل بن عمرو مندوب قريش فى المفاوضة وكان مسلماً قد فر يرسف فى أغلاله التى قيده بها أبوه وجاء إلى معسكر المسلمين فى الحديبية بعد أن تم الاتفاق على الشروط ، فلم يسع النبي صلى الله عليه وسلم إلا الوفاء بالشرط ورد الابن لأبيه .

وفى كل ما ذكر مما ألهمته الآيات وأوضحته الروايات المتسقة معها مشاهد متصلة بالمحنة كما هو ظاهر .

٤ - فى سورة الممتحنة الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ

وسْأَلُوا ما أَنفقتُمْ وَلْيَسْأَلُوا ما أَنفقوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وإنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الكُفَّارِ فَعاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِثْلَ ما أَنفقوا واتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ... ١٠ - ١١

والآية الأولى صريحة بأن بعض النساء المسلمات اللاتى عجزن فى أول الأمر عن اللحوق بالمهاجرين أمكنتهن الفرصة فسارعن إلى اغتنامها . ومضمون الآيات متسق مع الروايات التى تذكر أن هذا الحادث وقع بعد صلح الحديبية واغتناما لفرصته . وقد جاء ذوو النساء إلى المدينة يطالبون بإعادتهن وفقاً لشروط الصلح ، فنهت الآية عن إعادتهن وأمرت بالتعويض على ذويهن . وفرار النساء يدل بطبيعة الحال على أنهن كن يلقين الأذى ويتعرضن للفتنة فى مكة ، ويدل كذلك على قوة إيمانهن وشجاعتهن فى الوقت نفسه مما يحتوى فى حد ذاته مشهداً رائعاً من مشاهد السيرة ومواقف النساء فيها .

وفى الآيتين ما يدل على أن بعض زوجات المسلمين المهاجرين قد تمسكن بكفرهن طيلة العهد المكى ، ولما هاجر أزواجهن رفضن اللحوق بهم ، وفضلن البقاء ، مع أهلهن الكفار فى مكة ، كما فيها ما يدل على أن بعضهن تركن أزواجهن فى المدينة وعدن منها إلى مكة أيضا . وفى هذا وذاك مشاهد من العهد المكى كما هو واضح .

— ١٥ —

بقيت نقطة نريد أن نبحثها وهى ما إذا كان من المسلمين من كان يقابل الأذى والعدوان بمثله فى مكة أو همّ بذلك ، فنقول إن فى بعض الآيات ما يلهم الإيجاب الذي نعتقد أنه مما يتسق مع طبيعة الأمور ؛ إذ لا يصح أن يفترض خضوع المسلمين كافة للأذى وصبرهم عليه . وكان فيهم الأقوياء بأشخاصهم أمثال عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب رضى الله عنهما ، كما كان فيهم الأقوياء بعصبياتهم أيضاً ، وخاصة فى بيئة مثل بيئة النبى صلى الله عليه وسلم وعصره قويت فيهما العصبية الاجتماعية ،

وكانت ناظماً مهماً فى علاقات الناس بعضهم ببعض وحفظ حقوقهم وكراماتهم وأعراضهم .

١ - فى سورة النساء جاءت هذه الآية فى معرض التنديد بتقاعس بعض المسلمين عن الاستجابة إلى دعوة الجهاد :

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ... ٧٧

وهى صريحة بأن بعض المسلمين أمروا بالكف عن القتال والاكتفاء بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فى ظرف سابق، فلما فرض عليهم القتال احتج بعضهم وبدا عليه الخوف؛ وقد روى المفسرون والرواة فى سياقها أن فريقاً من ذوى العصبيات من المسلمين الأولين فى مكة مثل سعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف والمقداد بن الأسود رضى الله عنهم استأذنوا النبى فى مقابلة عدوان الكفار وأذاهم فى مكة بالمثل فلم يأذن لهم وأمرهم بالصبر ؛ والرواية متسقة إجمالا مع أول الآية ، إذ المتبادر أن يكون الأمر بالكف وعدم الإذن فى ظروف مكة ، لأن القتال قد فرض فى وقت مبكر من العهد المدنى ، ولم يكد يمر على هجرة النبى صلى الله عليه وسلم بضعة أشهر حتى أخذ يرسل سراياه . ولما لم يكن فى القرآن المكى صراحة بذلك فتكون الرغبة من جانب الراغبين ، وعدم الإذن من جانب النبى مما لم ينزل به قرآن ، وهذا مما وقع كثيراً فى أحداث السيرة ، أما ما يبدو من ثغرة فى الرواية فى كون الأسماء الثلاثة كانوا وظلوا فى الرعيل الأول من المخلصين المستغرقين فى الله المجاهدين فى سبيله ، وأنه ليس هنالك محل لاتهامهم بالنكول والاحتجاج على فرض القتال فليس شيئاً ، لأن الآية تذكر أن الناكل المحتج فريق من المستأذنين ، وقد يكون هذا الفريق غير هؤلاء الثلاثة وأمثالهم .

٢ - وفى سورة الأنعام الآية التالية :

«ولا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ... ١٠٨

وفى الآية نهى صريح للمسلمين عن شتم الكفار أو شتم آلهتهم حتى لا يقابلوا بشتم الله، وتقرير طبيعة بشرية بأن كل أمرئ يرى ماهو عليه هو الصواب فلا يتحمل تسفيهاً فيه، وفيها تلقين للمسلمين أن يتركوا أمرهم لله الذى سوف يعاملهم يوم القيامة بما يستحقون وبالتالى تلقينهم الأناة وعدم الغضب.

والآية تلهم بقوة أن بعض المسلمين كانوا أحياناً يوجهون الشتائم إلى الكفار بسبيل التنديد بهم وبعقائدهم مواجهة؛ وهذا لا يكون إلا من أناس أقوياء الشخصية، جرآء على الباطل مهما قوى أصحابه؛ وبالتالى تلهم بقوة أن من المسلمين من كانوا كذلك وكانوا لا يرون أن يسكت لبغاة الكفار وفجارهم.

٣ - فى سورة الجاثية الآية التالية:

«قل لِّلَّذِينَ ءامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ... ١٤

وقد نقل الرواة فى سياقها أن بعض المشركين شتم عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فشتمه وكاد الأمر يتفاقم، فنزلت الآية تلقن سعة الصدر والصبر وعدم المضى فى المقابلة إلى نهاية لاتحمد عاقبتها. والرواية لاتخلو من اتساق مع الآية وروحها فيما هو المتبادر؛ وإن كان المحتمل أيضاً أن يكون المؤمن الذى أمرت الآية بنصحه قد كان يبدى تذمره من موقف الكفار ضد المسلمين بصورة عامة ويقترح عدم السكوت لهم مما يخرج عن نطاق البحث وتأييده.

٤ - فى سورة النحل الآيات التالية:

«ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ.

وإنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ ماعُوقِبْتُم بِهِ ولَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّٰبِرِينَ . وَٱصْبِرْ وما صَبْرُكَ إلَّا بِاللهِ ولا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ولا تَكُ فى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ . إنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُم مُحْسِنُونَ ...

١٢٥ - ١٢٨

ولقد ذكرت الروايات أن الآيات ١٢٦ - ١٢٨ مدنيات ، وأنها نزلت على أثر وقعة أحد حينما اشتد الحزن بالنبي صلى الله عليه وسلم على استشهاد عمه حمزة رضى الله عنه وبقر بطنه ، فحلف بأن يمثل بسبعين من كفار قريش انتقاماً

ومضمون الآيات واتصالها بما سبقها يحمل على التوقف فى قبول هذه الرواية فى صدد الآيات ، ويساعد على تأويلها بأنها تحتوى خطة ربانية قرآنية للنبي والمسلمين فى الدعوة : فعليهم أن يدعوا بالحكمة والموعظة الحسنة وأن يجادلوا بالتى هى أحسن، فإذا قوبلوا مقابلة سيئة فلهم الخيار فى المقابلة بالمثل فحسب ، مع ترجيح الصبر والتسامح وترك الأمر لله . والمتبادر أن هذا التلقين إنما جاء بسبب ما كان من مواقف الكفار التى قد لاتطاق ، وما كان يعتلج فى نفوس الأقوياء من المسلمين من الرغبة فى الوقوف منها موقف المقابلة ، بل قد تلهم أن بعضهم قد وقف فعلا منها موقفا شديداً أو متطرفاً.

٥ - فى سورة الشورى الآيات التالية :

« فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وما عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . والَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ الإثْمِ والفَوَٰحِشَ وإذا مَاغَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ . والَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُم ومِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ . والَّذِينَ إذا أَصَابَهُمُ الْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ . وجَزَٰٓؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وأَصْلَحَ فأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّٰلِمِينَ . ولَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰٓئِكَ مَاعَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ . إنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ

وَيَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَمَنْ صَبَرَ
وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ... ٣٦ - ٤٣

وقد قال بعض المفسرين والرواة إن هذه الآيات أو بعضها نزلت فى الثناء على أخلاق الأنصار ، كما قال بعضهم إنها أو بعضها نزلت حينما أخذ المسلمون يجاهدون انتصاراً لأنفسهم من الأذى الذى لحق بهم فى مكة ، وهذا يعنى أنها مدنيات . والنفس لا تطمئن لهذه الأقوال ، لأن الآيات متصلة بما قبلها ومابعدها اتصالا وثيقاً أولا ، وطابع العهد المكى وأسلوبه غالبان عليها ثانيا . وهى سلسلة رائعة فى بيان خير الأخلاق التى يتحلى بها المسلم المخلص ، والحدود التى يجب أن يقف عندها المسلم فى مقابلة العدوان بالمثل ، والحث مع ذلك على الصبر والمغفرة والتسامح ، وقد تكررت السلاسل المماثلة فى القرآن المكى ، كسلاسل الأنعام ١٥٠ - ١٥٣ والأعراف ٣١ - ٣٣ والرعد ١٩ - ٢٦ والإسراء ٢٣ - ٤٠ الخ .

ولا نرى من التجوز أن نقول إن وصف المسلمين فى هذه الآيات بأنهم إذا وقع عليهم البغى انتصروا ، وإن تبرير انتصار المظلوم لنفسه من ظالمه يلهمان أنهما بسبيل الإشارة إلى بعض مواقف للمسلمين قابلوا فيها بعض الكفار على أذاهم ولم يخضعوا لظلمهم .

المبحث السادس

الأزمات النبوية النفسية

بواعث الأزمات النفسية ومداها في صفحات السيرة النبوية - أنواع الآيات الدالة عليها - الآيات الدالة على حدة الأزمات وتعليقات عليها - الآيات الدالة على حزن النبي وضيق صدره من مواقف الكفار وتعليقات عليها - الآيات المتضمنة تسلية النبي ودلالتها - الآيات المتضمنة تصبير النبي ودلالتها - تأثر النبي بطلب الكفار إقصاء المساكين عنه - خطور التساهل مع الكفار على باله إنما هو في ظروف أزمة نفسية - ما كان يثيره تمتع الكفار بالمال والقوة من أزمة في النبي ومدى ذلك - موقف أكثر أقارب النبي الجحودي في مكة وما كان يثيره في نفسه من أزمات حادة

— ١ —

في القرآن المكي آيات كثيرة تعبر عما كان يشعر به النبي صلى الله عليه وسلم من حزن وألم، وتدل على أنه كان يطرأ عليه من حين لآخر أزمات نفسية حادة بسبب موقف الأكثرية الساحقة من العرب عامة وأهل مكة خاصة السلبي من الدعوة، ثم بسبب موقف أكثر زعماء مكة السلبي والعدواني منها ومن المسلمين؛ ومما لاريب فيه أن هذا مما يتصل اتصالا وثيقاً بالسيرة النبوية في العهد المكي، ومما ينطوي فيه بعض صوره ومشاهده؛ وهو ماجعلنا نفرد لهذا الموضوع مبحثاً خاصا نلم به من مختلف نواحيه.

والآيات المتصلة بهذا الموضوع أنواع: منها الصريح القوي في تعبيره ودلالته، ومنها مايمكن أن يكون بمثابة قرائن وملهمات، كما أن منها مايتضمن صوراً من صور العهد ويلهم أنه إنما كان في ساعة أزمة نفسية، وسنستعرض الآيات على حسب هذا التصنيف، مع التنبيه أولا إلى أننا لم نحص كل مايمكن أن يدخل في هذا الباب، اكتفاء بما اخترنا إيراده وعرضه؛ وثانياً أننا رتبنا آيات سور كل صنف على حسب ترتيب نزولها، لنساعد القارئ على معرفة ظرف الأزمه التي تعبر عنها أو تشير إليها صراحة أو ضمنا.

- ٢ -

فأولا مايدل على حدة الأزمات :

١ - فى سورة فاطر الآية التالية :

« أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَءاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ...

٨

إذ احتوت نهياً للنبى عن إهلاك نفسه حسرة على عدم إيمان الجاحدين ، وتسلية له بتقرير أن الهداية والضلال من الله ، وإذ تلهم أنها نزلت فى وقت اشتد فيه الحزن والغم على النبى صلى الله عليه وسلم بسبب موقف الجحود الذى يقفه قومه من دعوته .

٢ - فى سورة طه الآيات التالية :

« طه . مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءانَ لِتَشْقَى . إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ...

١ - ٣

إذ احتوت تنبيهاً للنبى صلى الله عليه وسلم بأن الله لم ينزل عليه القرآن ويندبه لرسالته ليشقى ويحمل نفسه فوق طاقتها ، وإنما لتذكير من حسنت سريرته واستشعر خوف الله ؛ وفى هذا تسلية وتسكين للنبى صلى الله عليه وسلم فى ظرف من ظروف اشتداد حزنه وغمه على ماهو المتبادر .

٣ - فى سورة الشعراء الآيات التالية .

« طسم . تِلْكَ ءايَـٰتُ الْكِتَـٰبِ الْمُبِينِ . لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِنَ السَّمَاءِ ءايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ . وَمَا يَأْتِيهِم مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ . فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَـٰؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ...

١ - ٦

إذ احتوت عتاباً محبباً للنبي صلى الله عليه وسلم على مايبدو منه من حزن شديد يكاد يقتل به نفسه بسبب عدم إيمان الناس وإعراضهم ، وتسلية له وتثبيتاً ، فالله قادر على إهلاكهم ، وسوف يرون عاقبة استهزائهم بذكر الله وآياته . ومما لاريب فيه أنها نزلت فى ظرف اشتد فيه حزن النبي وهمه من مواقف التكذيب والإعراض وهذا مما احتوته الآيات صراحة أيضاً .

ومن الجدير بالتنبيه أنه أعقب هذه الآيات سلسلة من قصص الأنبياء تضمنت ماكان من مواقف الأمم السابقة عربية وغير عربية من أنبيائهم ؛ وفيها مماثلة لما كان يبدو من كفار مكة وزعمائها من مواقف ويصدر عنهم من أقوال العناد والمكابرة ، مما يصح معه أن يقال إنها جاءت بسبيل تسلية النبي صلى الله عليه وسلم مما ألم به ، وإعلامه أن الأنبياء من قبله قد لقوا ما لقيه ، وقد سمعوا ما سمعوه ؛ هذا إلى مافيها من إنذار الكفار بعاقبة مثل عاقبة الذين خلوا من قبلهم ، ووقفوا مثل مواقفهم أيضاً .

٤ - فى سورة هود الآية التالية .

« فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَايُوحَى إِلَيْكَ وضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ واللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ... ١٢

إذ احتوت تنبيها للنبي صلى الله عليه وسلم إلى مايمكن أن يجول فى خاطره من تبرم أو ضيق صدر ، فيتفادى تلاوة بعض مايوحى إليه على الكفار بسبب مواقفهم وخشيته تحديهم بالإتيان بملك يصدقه ، أو استنزال كنز يغنى به ويقوم دليلا على رعاية الله له ، وإذ احتوت تثبيتا له وطمأنة ، فليس هو إلا نذيراً ، وليس وكيلا على الناس مكلفا حملهم على الإيمان .

وقد روى الرواة أن الكفار كانوا يطالبون النبي صلى الله عليه وسلم بالمعجزات فلا يستجيب إليهم ، ثم توحى الآيات إليه فيسخرون منه ، ويقولون هلا استنزلت كنزاً أو ملكا بدلا من هذه الآيات إذا كانت من عند الله ؟ فكان يخجل ويتهرب منهم أحيانا . وليس فى الرواية مالا يتسق مع الآية إجمالا . وصورة الأزمة الشديدة النفسية فى الآية بارزة كل البروز .

٥ - فى سورة الكهف الآيتان التاليتان :

• فلعلك باخع نفسك على ءاثرهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا . إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ...

٦ - ٧

والآية الأولى مثل آية الشعراء الثالثة ، وفى الثانية تسلية بأن الدنيا إنما هى دار اختبار لمعرفة أعمال الناس . وتكرار الخطاب المماثل فى فترتين متباعدتين يدل من دون ريب على تكرار الظروف، وبالتالى على تكرار الأزمة من جراء موقف الجاحدين

- ٣ -

وثانيا الآيات التى تشير إلى حزن النبى وضيق صدره من موقف الكفار وأقوالهم.

١ — فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ...

يس ٧٦

٢ — ولا تحزن عليهم ولا تكن فى ضيق مما يمكرون ...

النمل ٧٠

٣ — ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ... الحجر ٩٧

٤ — قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظلمين بآيت الله يجحدون ... الأنعام ٣٣

٥ — ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعا هو السميع العليم ...

يونس ٦٥

٦ — واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ... النحل ١٢٧

وهذه الآيات متماثلة بعض التماثل ، وهى بسبيل الإشارة إلى ما كان يعتلج فى

نفس النبي من حزن وفى صدره من ضيق بسبب مواقف الكفار ، أو بالأحرى طغاتهم ، الجحودية والتكذيبية والتعطيلية والعدوانية ، وما كانوا يوجهون إليه من تهم وتحديات

ويبدو أن مواقف الجاحدين كانت أحيانا تشتد حتى تؤثر فى نفسه تأثيراً شديداً وتثير فيها الحزن ، فكانت الآيات توحى إليه فى هذه الظروف . وتكرار الآيات يدل كما هو المتبادر على تكرار المشاهد الباعثة من حين إلى آخر ...

— ٤ —

وثالثا الآيات التى تتضمن تسلية النبى لعدم اهتداء الناس :

١ — أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ . الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ . وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ . فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً . فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ... سورة الشرح

٢ — فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ . إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ . وَمَا أَنْتَ بِهَـٰدِى الْعُمْىِ عَنْ ضَلَـٰلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ...[1]

النمل ٧٩ - ٨١

٣ — إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ... القصص ٥٦

٤ — وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِى الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ... يونس ٩٩

٥ — وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَـٰهِلِينَ . إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ

---

(١) فى سورة الروم آيات مماثلة بالنص لهذه الآيات . وسورة الروم من أواخر ما نزل، والنمل مما نزل مبكراً

وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ...

الأنعام ٣٥ - ٣٦

٦ — إِنْ تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ...

النحل ٣٧

٧ — فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ...

الغاشية ٢١ - ٢٢

وهذه الآيات نزلت فى مختلف أدوار التنزيل المكى ، وفيها بعض التقارب فى المعنى والهدف والنص كما هو ظاهر . وتكرارها يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يشتد به الأمر من حين إلى حين ، لظروف أشد من ظروف ، ومواقف أنكى من مواقف ، بسبب عدم اهتداء الناس وموقفهم السلبي على شدة حرصه على اهتدائهم وخاصة من كان منهم محبباً إليه وكان يتوسم فيه الخير والارعواء ، فكانت الآيات تنزل فى هذه الظروف وبين حين وآخر مستهدفة فى جملة ما تستهدفه تسليته وتخفيف ما يجده من لوعة ومضاضة .

— ٥ —

ورابعاً آيات التصبير :

١ — فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ . لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ . فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ...(١)

القلم ٤٨ - ٥٠

٢ — فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ...

ق ٣٩

(١) صاحب الحوت هو يونس عليه السلام ، وقد أشارت آيات فى سورة الصافات إلى قصته إشارة أوضح يستفاد منها أنه لما واجهه قومه بموقف الجحود يئس منهم وهجرهم حنقاً مغيظاً .

٣ — قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ . وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَٰكِمِينَ ...

يونس ١٠٨ - ١٠٩

٤ — فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِىِّ وَالْإِبْكَٰرِ ... غافر ٥٥

٥ — فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَٰسِقُونَ ... الأحقاف ٣٥

٦ — وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ...

الطور ٤٨

٧ — فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ...

الروم ٦٠

وهذه الآيات كتلك نزلت فى مختلف أدوار التنزيل المكى ؛ وتكرارها يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يشتد به الأمر من جراء مواقف الكفار الجحودية ومكايدهم من حين إلى آخر ، بسبب ظروف أشد من ظروف ، ومواقف أنكى من مواقف ، فكانت الآيات تنزل بين حين وآخر لتثبيته ، وبث الطمأنينة والهدوء فى نفسه

ويلفت النظر خاصة إلى آيات القلم ، إذ تنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن أن يكون كصاحب الحوت الذى حدا به موقف قومه الجحودى إلى اليأس منهم وهجرهم ، مما يمكن أن يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تأثر من صدمة الجحود منذ العهد الباكر تأثراً غير يسير . كذلك يلفت النظر إلى آية الروم ، إذ توصيه بالصبر ، وألا يحمله استخفاف قومه له على الفتور أو تغيير موقفه ، أو النزوح : مما يدل على حادث شديد الأثر أثار فى نفسه شيئاً غير يسير من القلق .

- ٦ -

ونعتقد أن آيات سورة الأنعام ٥٢ - ٥٣ والكهف ٢٨ - ٣٠ والإسراء ٧٣ - ٧٥ والقصص ٨٥ - ٨٨ التى شرحناها فى إحدى فقرات مواقف الزعماء المعتدلين فى المبحث الثالث، تنطوى على مشاهد من أزمات النبي صلى الله عليه وسلم النفسية؛ إذ يصح أن يقال فى صدد آيات الأنعام والكهف إن النبي إذا كان خطر على باله أن يهمل الفقراء والمساكين من المسلمين أو يصرفهم عنه حينما احتج الزعماء وطلبوا إقصاءهم عنه ليجلسوا إليه ويتحدثوا معه، فأنما كان هذا فى ساعة من ساعات أزماته النفسية ومنبعثاً عن حزنه الشديد لتمسك الزعماء بجحودهم ومعارضتهم، ومتابعة الناس لهم، وعن أمله فى انحياز المعتدلين إلى صفه؛ وإذ يصح أن يقال هذا كذلك فى صدد آيات الإسراء والقصص، وما يمكن أن يكون قد خطر على باله من التساهل والاستجابة لبعض مقترحات هؤلاء الزعماء.

- ٧ -

ومما يصح إلحاقه بهذا الباب ما كان يثيره فى نفسه ونفس المسلمين تمتع الكفار أو بالأحرى زعماؤهم بزينة الحياة الدنيا من مال وبنين وجاه وقوة، من أزمات، إذ كان هذا فى وقت كان فيه أكثر المسلمين فى فقر وعوز شديدين، وكان الأغنياء القليلون فيهم قد أنفقوا أموالهم، وتعطلت مصالحهم بسبب مقاومة الزعماء الأقوياء لهم (١)

وقد انطوت آيات مكية على الإشارة إلى هذا، إذ جاء فى سورة طه الآيتان التاليتان.

« ولا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ورِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وأَبْقَىٰ . وأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ

(١) فى سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٩٠ أن أبا جهل كان إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف أنبه وقال له تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفهن حلمك ولنفيلن رأيك، ولنضعن شرفك! وإن كان تاجراً أوذا مال قال له والله لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك.

واصْطَبِرْ عَلَيْهَا لانَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ والعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ...

١٣١ - ١٢٢

إذ احتوتا نهياً للنبي عن التأثر بما يتمتع به بعض صنوف الزعماء ، وتذكيراً له على سبيل التسلية بأن هذا ليس إلا فتنة وابتلاء .

وإذ جاء في سورة الحجر أيضاً هاتان الآيتان المماثلتان بعض المماثلة للسابقتين « ولَقَدْ ءاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ المَثَانِي والقُرْءانَ العَظِيمَ . لاتَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلَىٰ مَامَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ولاتَحْزَنْ عَلَيْهِمْ واخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ... ٨٧ - ٨٨

وقد احتوتا تذكيراً للنبي صلى الله عليه وسلم بنعمة الله عليه واختصاصه بالقرآن ، ونهياً عن التأثر بما يتمتع به بعض صنوف الزعماء ، وعن الحزن على عدم ارعوائهم

والفقرة الأخيرة من الآية الثانية ذات مغزى خاص فيما هو المتبادر ، متصل بآيات الأنعام والكهف التي أشرنا إليهما في الفقرة السابقة ، إذ يستلهم منها أنها بسبيل إثارة عطف النبي على المؤمنين الذين كان أكثرهم فقراء ، واعتبارهم أفضل من الزعماء الكافرين . وننبه أولا إلى أن من المحتمل أن يكون مما أثار هذه الأزمة في نفس النبي صلى الله عليه وسلم ما كان من أثر تمسك الزعماء بالجحود والعناد وتأثيرهم بقوة جاههم ومالهم في سائر الناس ، وما كان من اعتدادهم بما كانوا يتمتعون به ، واعتبارهم ذلك دليل حظوة ربانية ، ومانعاً لهم من العذاب ، وسبباً من أسباب الترفع عن الانخراط في سلك واحد مع الفقراء والصعاليك ، ومؤهلا لهم لرسالة الله ، مما رددته عنهم الآيات التالية وأمثالها :

١ - وإذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءامَنُوا أَيُّ الفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وأَحْسَنُ نَدِيًّا ... مريم ٧٣

٢ - أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ... المؤمنون ٥٥ - ٥٦

٣ — وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ...

سبأ ٣٥

٤ — وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ...

الزخرف ٣١

وثانياً إلى أن القرآن قد حكى مثل هذا الخاطر أو الأزمة النفسية النبوية عن موسى صلى الله عليه وسلم فى إحدى آيات سورة يونس وهى :

« وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ... ٨٨

مما يمكن أن تكون مما أورد على النبى صلى الله عليه وسلم خاطره وبرره له ، وأثار فيه أزمته النفسية أسوة بموسى عليه السلام .

— ٨ —

وأخيراً نأتى إلى نقطة هامة نعتقد أنها كانت مما يثير فى نفس النبى صلى الله عليه وسلم أزمات نفسية حادة من آن لآخر ، ونظن أن بعض الآيات التى استعرضناها قد نزلت بسببها ، أو كانت فيما استهدفته فى سياق تهدئة روع النبى ؛ ونعنى بها تمسك أكثر أقارب النبى الأدنين بدين الجاهلية ، وعدم متابعتهم الدعوة مع أنهم كانوا يتعصبون لنصرته بقوة العصبية الاجتماعية ، وقد كان ذلك موضوع تنديد قرآنى فى آية من سورة الأنعام على ما قرره كثير من المفسرين وهى : « وهم ينهون عنه وينأون عنه ... ٢٦ » إذ قالوا فى تفسيرها مامفاده أن أقارب النبى الأدنين وخاصة عمه أبا طالب كانوا ينهون عن مس النبى صلى الله عليه وسلم بالأذى فى حين يبتعدون عن دعوته .

ومن مشاهد النقطة التى نتكلم عنها ما انطوى فى آيات من سورة الشعراء وهى :

« وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ . وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ

الْمُؤْمِنِينَ . فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ . وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ... ٢١٤ - ٢١٧

إذ تأمر النبي بانذار عشيرته الأقربين بصورة خاصة ، وباعلان البراءة مما هم عليه إذا عصوه ولم يستجيبوا إليه ، فإن من الطبيعي أن يكون هذا الأمر والاختصاص منبعثين عن وقوف أقاربه الأدنين أو أكثرهم موقف السلب والجحود من دعوته .

ولقد روى المفسرون والرواة أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول الآية دعى أقاربه بنى عبدالمطلب وكانوا نحو أربعين رجلا إلى وليمة أول مرة فتفرقوا فور انتهاء الطعام لأن أبا لهب قال لهم إن محمداً سحرهم أو سيسحرهم ، وأنه دعاهم إلى وليمة ثانية ، وقال لهم يا بنى عبد المطلب إنى قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرنى ربى أن أدعوكم إليه ، فأيكم يؤازرنى؟ فأحجم القوم ، فقال عليّ رضى الله عنه : أنا يارسول الله ، فأخذ برقبته وقال : هذا أخى ووصيي وخليفتى فيكم فاسمعوا له وأطيعوا ، فقام القوم يضحكون ويقولون لأبى طالب : قد أمرك أن تسمع لعلى وتطيعه ! ومما ذكروه كذلك أنه لما نزلت الآيات صعد النبى صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادى : يا بنى فهر ، يا بنى عدى ، لبطون قريش ، حتى اجتمعوا ، وجعل الذى لا يستطيع أن يخرج يرسل رسولا لينظر ، وأن النبى قال لهم : أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقىّ؟ قالوا : ماجربنا عليك كذبا . قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فقال أبولهب : تبا لك سائر اليوم ! ألهذا دعوتنا ؟ وهناك روايات أخرى تذكر أنه خاطب بنى عبدالمطلب والعباس عمه وصفية عمته وفاطمة ابنته وقال لهم : لا أغنى عنكم من الله شيئا .

ومهما يكن من أمر هذه الروايات فالآية صريحة بأن أقارب النبى صلى الله عليه وسلم أو أكثرهم كانوا إلى حين نزول الآيات على دين الجاهلية ، فأمر النبى بانذارهم ؛ كما أنه يستفاد من الروايات بصورة عامة أن أكثر أقاربه الأدنين قد ظلوا فى موقفهم السلبي بعد هذا الانذار ، إذ مات عمه وحاميه أبو طالب على دين الجاهلية ، وظل عمه العباس كذلك إلى مابعد الهجرة إلى المدينة بمدة طويلة ، حتى إنه كان فى صف الكفار مقاتلا فى غزوة بدر ومن أسراهم ، وقد ناوأ عمه

أبو لهب الدعوة أشد مناوأة إلى درجة أنه أخل بتقليد العصبية ومات على دين الجاهلية. وإذ ناوأه بعض أقاربه وإن كانوا دون أبي لهب شدة؛ وإذ كان الذين تابعوه فى العهد المكى من أقاربه الأدنين يكادون يعدون على الأصابع، بل إن عمه حمزة الذى أسلم فى مكة قد ظل بضع سنين متمسكا بدين الجاهلية، ولم يسلم إلا فى ظرف ثورة عصبية على ماذكرته روايات السيرة.

وإنه لمن الطبيعى أن يثير هذا الموقف السلبى فى نفس النبى صلى الله عليه وسلم أزمات حادة من حين لآخر؛ فقد عرفت بيئة النبى وعصره بالتضامن أو العصبية العائلية؛ ومن المعقول أن ينظر الناس فيما ينظرون إليه من أمر دعوة النبى وسيرها إلى موقف أقاربه الأدنين منها، وأن يكون لهذا الموقف أثر فيهم، وأن يتخذ الزعماء موقفهم إذا كان سلبيا — كما كان الأمر واقعاً — حجة للانصراف والمكابرة والتمسك بدين الآباء وتقليدهم، ووسيلة للدعاية بين عامة الناس ضدها. هذا إلى ما كان يعتلج فى نفس النبى صلى الله عليه وسلم من حزن على ضلال أقاربه وخاصة المحببين إليه منهم وما سوف يصيرون إليه من مصير رهيب، ومن حرص شديد على هدايتهم، مما انطوت على التعبير عنه الآيات التى استعرضناها من قبل.

المبحث السابع

صور متنوعة للمسلمين فى العهد المكى

صلة هذه الصور بالسيرة النبوية - فقراء المسلمين ومساكينهم - أغنياء المسلمين - أقوياء المسلمين - تفانى المسلمين فى تأييد النبي واتباع وصاياه - تفانيهم فى الله وعبادته - أخلاقهم الكريمة - التفاوت بينهم فى الطاعات - أبناء مسلمون وآباء كافرون - آباء مسلمون وأبناء كافرون - استمرار الصورتين المذكورتين إلى مابعد الهجرة إلى يثرب - صور لما كان يقع بين المسلمين والكفار من جدل وأخذ ورد - سخرية الكفار من المسلمين - ارتداد بعض المسلمين وثباتهم على الكفر - ارتداد بعض المسلمين وتوبتهم - صور لمواقف صنف من بعض المسلمين .

— ١ —

فى القرآن آيات عدة نزلت فى مناسبات متنوعة وفى مختلف أدوار التنزيل يمكن أن ترى فيها صور متنوعة للمسلمين فى العهد المكى . ولما كانت هذه الصور متصلة بالسيرة والدعوة النبويتين وأثراً من آثارهما فقد رأينا أن نستعرضها فى مبحث خاص تتم به الصورة العامة لهذا العهد ويختم به هذا الفصل .

وننبه إلى أن من هذه الصور مامر الكلام عنه فى المباحث السابقة ، ولما كان من المفيد أن يكون جميعها منتظما فى سلك واحد فإننا سنكتفى بإشارة خاطفة إلى مامر منها .

— ٢ —

وإليك سلسلة من هذه الصور :

(١) إنه كان بين المسلمين عدد غير يسير من الفقراء والمساكين ، وكانوا موضوع استهزاء واحتقار من جانب الكفار وخاصة الزعماء ، ووسيلة إلى تعييرهم النبي صلى الله عليه وسلم بهم ، وإلى الدعاية ضد الدعوة . وهذا منطو فى آيات الأنعام (٥٢) والكهف (٢٨) التى تكلمنا عنها فى مبحث سابق ، كما هو منطو فى الآيات التالية :

، وَقَالُوا مَالَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ . أَتَّخَذْنَٰهُم سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَٰرُ ... ص ٦٢ - ٦٣

(٢) إنه كان بينهم ذوو ثروة ومال أيضاً ، ويمكن الاستدلال على هذا بآيات عدة امتدح فيها المسلمون الذين يؤتون الزكاة والذين ينفقون مما رزقهم الله سرا وعلانية والذين يؤدون حق الفقراء المعلوم فى أموالهم مما لا يصح أن يكون إلا من مثل هذه الطبقة كما هو المتبادر . وإليك بعض هذه الآيات :

١ — إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ... فاطر ٢٩

٢ — هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ... النمل ٢ - ٣

٣ — إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ . ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ . كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . وَفِى أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ...

الذاريات ١٥ - ١٩

٤ — أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ... القصص ٥٤

٥ — قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ... المؤمنون ١ - ٨

٦ — إِلَّا الْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ . وَالَّذِينَ فِى أَمْوَٰلِهِمْ
حَقٌّ مَّعْلُومٌ . لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ . وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ .
وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ .
وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ
فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ . وَالَّذِينَ
هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَائِمُونَ . وَالَّذِينَ
هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ... المعارج ٢٢-٣٤

٧ — تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا
رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ... السجدة ١٦

٨ — وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا
رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ... الرعد ٢٢

ومما يلفت النظر أن الآيات التي تنوه بالمؤمنين الأغنياء وانفاقهم ، أكثر من التي تتضمن الإشارة إلى الفقراء منهم ؛ والراجح أن هذا يستهدف التنويه بالعمل الذى هو عادة مما يصعب على النفوس من جهة ، وتعظم قيمته فى ظروف مثل ظروف العهد المكى وما كان فيه من كثرة الفقراء والمحتاجين بين المسلمين الذين تقتضى تلك الظروف الاهتمام لأمرهم والبر بهم من جهة أخرى .

(٣) إنه كان بينهم الأقوياء بأشخاصهم أو عصبياتهم . وهو مضمون آيات الأنعام ١٠٨ والجاثية ١٤ والشورى ٣٦-٤١ والنحل ١٢٦ والنساء ٧٧ التى شرحناها فى مبحث سابق .

(٤) إنهم كانوا متفانين فى تصديق النبى صلى الله عليه وسلم وتأييده ، واتباع أفضل الطرق التي يؤمرون بالسير فيها كما يستلهم من الآيات التالية :

١ — فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنزِلَ

بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا . وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا . أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا . خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ...

الفرقان ٦٣ - ٧٦

٢ — وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ... النحل ٤١ - ٤٢

٣ — أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ . وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ . وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ... الرعد ١٩ - ٢٢

٤ — من هذا الباب آيات فصلت ٣٠ - ٣٣ والإنسان ٧ - ١٠ والشورى ٣٦ - ٤٣ والمعارج ٢٢ - ٣٤ والمؤمنون ١ - ١٠ وقد نقلناها سابقاً.

(٧) على أنه يستلهم من بعض الآيات أنه كان بينهم تفاوت فى الطاعة والتفانى بحيث وصف فريق بالسابقين وفريق بأصحاب اليمين وفريق بالمقتصد وفريق بالسابق بالخيرات، وبحيث نبه على ماهناك من تفاوت فى جزائهم كما ترى فى الآيات التالية :

١ — ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ...

فاطر ٣٢

٢ — وكُنتُم أزواجًا ثلـثة . فأصحـبُ الميمنة ما أصحـبُ الميمنة .
وأصحـبُ المشئمة ما أصحـبُ المشئمة . والسـبقون السـبقون . أولـئك
المقربون . فى جنـت النعيم . ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين ...
الواقعة ٧ - ١٤

٣ — فجعلنـهن أبكارًا . عُربًا أترابًا . لأصحـب اليمين . ثلة من
الأولين . وثلة من الآخرين ... الواقعة ٣٦ - ٤٠

٤ — فأما إن كان من المقربين . فروح وريحان وجنت نعيم . وأما
إن كان من أصحـب اليمين . فسلـم لك من أصحـب اليمين ...
الواقعة ٨٨ - ٩١

— ٤ —

(٨) إنه كان منهم من أسلم وظل أبواه كافرين وبقى متمسكا بدينه رغم إلحاحهما وأذاهما المادى والمعنوى . وهذا منطو فى آيات العنكبوت ٨ ولقمان ١٤ التى تكلمنا عنها فى مبحث سابق .

(٩) إنه كان منهم كذلك من أسلم وظل أبناؤهم كافرين عاقين آباءهم كما يستلهم من هذه الآية :

« والذى قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت
القرون من قبلى وهما يستغيثان الله ويلك ءامن إن وعد الله حق
فيقول ماهـذا إلا أسـطير الأولين ... الأحقاف ١٧

ولقد ظلت الصورتان المذكورتان إلى ما بعد الهجرة من مكة إلى يثرب ، وكان لها أحياناً أثر أليم فى بعض الظروف يصل إلى حد الحرج كما يستلهم من الآيات المدنية التالية :

بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا . وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا . أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا . خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ...

الفرقان ٦٣ - ٧٦

٢ — وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ...

النحل ٤١ - ٤٢

٣ — أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ . وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ . وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ...

الرعد ١٩ - ٢٢

٤ — من هذا الباب آيات فصلت ٣٠ - ٣٣ والإنسان ٧ - ١٠ والشورى ٣٦-٤٣ والمعارج ٢٢ - ٣٤ والمؤمنون ١ - ١٠ وقد نقلناها سابقاً .

(٧) على أنه يستلهم من بعض الآيات أنه كان بينهم تفاوت فى الطاعة والتفانى بحيث وصف فريق بالسابقين وفريق بأصحاب اليمين وفريق بالمقتصد وفريق بالسابق بالخيرات ، وبحيث نبه على ماهناك من تفاوت فى جزائهم كما ترى فى الآيات التالية :

١ — ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ...

فاطر ٣٢

٢ — وكُنتُمْ أزوٰجا ثلٰثةً . فأصحٰبُ الميمنةِ ما أصحٰبُ الميمنةِ . وأصحٰبُ المشئمةِ ما أصحٰبُ المشئمةِ . والسّٰبقون السّٰبقون . أولٰئك المقرّبون . فى جنّٰتِ النعيمِ . ثُلّةٌ من الأوّلين . وقليلٌ من الآخرين ...

الواقعة ٧ - ١٤

٣ — فجعلنٰهنّ أبكارًا . عُرُبًا أترابًا . لأصحٰبِ اليمين . ثُلّةٌ من الأوّلين . وثُلّةٌ من الآخرين ... الواقعة ٣٦ - ٤٠

٤ — فأمّا إنْ كانَ مِنَ المقرّبين . فروحٌ وريحانٌ وجنّتُ نعيمٍ . وأمّا إنْ كانَ مِنْ أصحٰبِ اليمين . فسلٰمٌ لكَ مِنْ أصحٰبِ اليمين ...

الواقعة ٨٨ - ٩١

— ٤ —

(٨) إنه كان منهم من أسلم وظل أبواه كافرين وبقى متمسكا بدينه رغم إلحاحهما وأذاهما المادى والمعنوى . وهذا منطو فى آيات العنكبوت ٨ ولقمان ١٤ التى تكلمنا عنها فى مبحث سابق .

(٩) إنه كان منهم كذلك من أسلم وظل أبناؤهم كافرين عاقين آباءهم كما يستلهم من هذه الآية :

« والّذِى قالَ لوٰلدَيهِ أُفٍّ لكُما أتعدانِنى أنْ أُخرجَ وقدْ خلَتِ القرونُ مِنْ قبلِى وهُما يستغيثانِ اللهَ ويلكَ ءامِنْ إنّ وعْدَ اللهِ حقٌّ فيقولُ ما هٰذا إلّا أسٰطيرُ الأوّلين ... الأحقاف ١٧

ولقد ظلت الصورتان المذكورتان إلى ما بعد الهجرة من مكة إلى يثرب ، وكان لهما أحياناً أثر أليم فى بعض الظروف يصل إلى حد الحرج كما يستلهم من الآيات المدنية التالية :

١ - لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ
كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ... المجادلة ٢٢

٢ - يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ
اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ ...
التوبة ٢٣

- ٥ -

(١٠) إنه كان ينشب أحياناً بين بعض المسلمين وبعض الكفار جدل وأخذ ورد في صدد التفاضل بين الفريقين وفي صدد الدعوة والدعاية والإغراء وفي صدد المكابرة والعناد كما يستلهم من الآيات التالية :

١ - وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا
أَىُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ... مريم ٧٣

٢ - وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ
وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ... الأحقاف ١١

٣ - فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ . قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى
قَرِينٌ . يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ . أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا
لَمَدِينُونَ . قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ . فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَاءِ الْجَحِيمِ .
قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ . وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ...
الصافات ٥٠ - ٥٧

٤ - وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ

آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاء اللهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ . ...
يس ٤٧

٥ — وقالَ الَّذينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءامَنوا اتَّبِعوا سَبِيلَنا ولْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ ...
العنكبوت ١٢

(١١) إن الكفار كانوا يتخذون المسلمين سخرية وهزواً ويعتبرونهم ضالين كما ترى فى الآيات التالية :

١ — قالَ اخْسَئُوا فِيها ولا تُكَلِّمُونِ . إِنَّهُ كانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبادِي يَقُولُونَ رَبَّنا ءامَنَّا فاغْفِرْ لَنا وارْحَمْنا وأَنْتَ خَيْرُ الرَّٰحِمِينَ . فاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ... المؤمنون ١٠٨-١١٠

٢ — إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كانُوا مِنَ الَّذِينَ ءامَنُوا يَضْحَكُونَ . وإِذا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغامَزُونَ . وإِذا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ . وإِذا رَأَوْهُمْ قالُوا إِنَّ هَٰؤُلاءِ لَضالُّونَ ... المطففون ٢٩ - ٣٢

(١٢) إن من المسلمين أناساً ارتدوا عن الإسلام وشرحوا بالكفر صدراً وظلوا فى صفوف الكفار ، كما أن منهم أناساً ارتدوا ثم ندموا واغتنموا فرصة ما فهاجروا وعادوا إلى حظيرة الإسلام مجاهدين صابرين ، وقد انطوت على ذلك آيات النحل ١٠٦-١٠٩ و ١١٠ التى شرحناها فى مبحث سابق .

(١٢) إنه كان يبدو من بعضهم تبرم من شدة الأذى والمحنة والخوف منهما ، حتى إن منهم من كان يصل به الأمر الى الختال والمراوغة والنفاق فى دينه أو اليأس من نصر الله وتأييده مما انطوت عليه آيات العنكبوت ١ - ٦ و ١٠ - ١١ والحج ١١-١٦ التى شرحناها فى مبحث سابق أيضاً .

فصل في الكتابيين في العهد المكي

صلة الكتابيين بالعرب الحجازيين والدعوة النبوية ـ تصنيف الآيات في أربعة مواضع ـ الأول : القرآن إزاء الكتابيين بوجه عام ـ أول ذكر الكتابيين في القرآن ومداه ـ أول أشارة إلى الكتب السماوية ومداها ـ صفات النبي ودعوته الشاملة ـ تأييد القرآن لما قبله من الكتب ومداه ـ استشهاد علماء بني إسرائيل على صحة الوحي والتنزيل القرآني ومداه ـ استشهاد الكتابيين مطلقاً ومداه ـ تقرير معرفة الكتابيين للنبي والوحي القرآني ومداه ـ تنويه القرآن بأنبياء الكتابيين ومداه ـ تقرير وحدة الأسس بين الاسلام والأديان السابقة ومداه ـ تحدي الكفار باستشهاد الكتابيين ومداه ـ التقارب بين القصص القرآنية وقصص الكتب السابقة ومداه ـ هدوء الأسلوب القرآني المكي نحو الكتابيين ومغزاه ـ موقف النبي المسالم نحوهم منذ البدء ـ ماباهم الأسلوب القرآني من موقف الكتابيين موقف العطف والتأييد ـ الموضوع الثاني : صورة من سورة القصص لإيمان الكتابيين ومداها ـ صورة أخرى من سورة الاسراء ـ شهادة أحد الاسرائيليين وإيمانه ـ صورة أخرى من سورة العنكبوت لإيمان الكتابيين ـ صورة من سورة الرعد بفرحهم ومداها ـ استدراك وتعليق في صدد آية في سورة العنكبوت ـ الموضوع الثالث : الآيات التي تشير إلى اختلافات الكتابيين ومداها وأثرها ـ الموضوع الرابع : عدم ورود تفصيل عن الخلافات والانحرافات اليهودية في القرآن المكي بالنسبة لليهود المعاصرين ومغزاه ـ ماجاء في سورة مريم عن ولادة يحيى وعيسى ومداه ـ ماجاء في سورة الزخرف عن عيسى ومداه ـ الفصول القرآنية عن المسيح احتوت حلا صادقاً للمشاكل والخلافات فيه ـ أثر التقريرات القرآنية في استجابة النصارى للدعوة الاسلامية

— ١ —

عرف العرب الحجازيون أهل الكتاب من يهود ونصارى في بلاد الحجاز والشام واحتكوا بهم ، وأخذوا عنهم كثيراً من الأفكار والمعارف ، ومنهم من دان باليهودية والنصرانية وتضلع باللغة العبرانية ، واطلع على ماعند اليهود والنصارى من كتب ؛ وقد عرفوا كذلك ما كان عليه أهل الكتاب من خلاف وشقاق في الأمور الدينية والمذهبية ، وكان لكل ذلك صدى وأثر في نفوسهم وأذهانهم على مابسطناه في كتابنا عصر النبي وبيئته قبل البعثة .

وقد كان في مكة خاصة بعض الجاليات الكتابية ، يرجع تاريخ سكناها إلى ماقبل

البعثة ، وشهدت أدوار الدعوة النبوية ولم تكن فى عزلة عنها بطبيعة الحال .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى إن بين الدعوة النبوية القرآنية والديانتين الكتابيتين جامعة تجمع بينها وهى وحدانية الله صريحة ومؤولة ، ووحدة المصدر الذى صدرت عنه الديانات الثلاث وكتبها ، وقد كان الكتابيون ممن وجهت إليهم الدعوة بصورة عامة وخاصة .

ولقد ردد القرآن المكى كل هذا فى فصول وآيات كثيرة احتوت صوراً متنوعة . ومن الممكن تصنيفها فى أربعة مواضع :

الأول : القرآن إزاء الكتابيين بوجه عام .

الثانى : الكتابيون إزاء القرآن والدعوة المحمدية .

الثالث : مدى وهدف الإشارات القرآنية إلى اختلاف الكتابيين .

الرابع : مدى وهدف الإشارات القرآنية إلى انحرافات الكتابيين العقائدية واستدراكاتها وتصوياتها .

— ٢ —

فأولا القرآن إزاء الكتابيين بوجه عام :

(١) فى سورة المدثر الآية التالية .

« وما جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ وَالْمُؤْمِنُونَ ... ٣١

ومضمونها يلهم تقرير وجود توافق بين ماجاء فى القرآن وما عند أهل الكتاب ، وهذا من أسباب استهداف استيقانهم بصحة الرسالة النبوية والتنزيل القرآنى ، وتقرير عدم وجود محل لارتيابهم فيه .

والآية من الآيات التى نزلت مبكرة جدا بحيث يسوغ أن يقال إنها أولى الآيات التى ذكر فيها الكتابيون .

وهكذا يبدو أن مايلهم مضمونها من التقريرات قد كان منذ أوائل التنزيل ، ثم

أخذ يزداد قوة ووضوحاً .

(١) فى سورة الأعلى الآيتان التاليتان :

« إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ...

١٨ - ١٩

وفيهما كما هو ظاهر توكيد بأن بعض ماتضمنه آيات السورة من مبادئ الإسلام والسعادة الأخروية للمؤمنين الصالحين والشقاء للكافرين الفاجرين ، هو مما تضمنته الصحف المنزلة على إبراهيم وموسى عليهما السلام ، وفيها بالتالى تقرير لوحدة الهدف والدعوة بين القرآن والكتب السماوية الأولى .

وقد ورد فى سورة النجم آيات تماثل فى نصها نص هذه الآيات ، وفى سياق تقرير المبادئ الإسلامية ، واتفاقها مع مافى صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام

وسورتا الأعلى والنجم، وخاصة الأعلى، مما نزل مبكراً جدا ؛ وفيها تقرير تصديق القرآن لما تقدمه من كتب سماوية مما ظل القرآن يردده فى مختلف أدوار التنزيل .

(٣) فى سورة الأعراف الآيتان ١٥٦ - ١٥٧ اللتان نقلناهما فى الفصل الأول ، ولقد جاءتا عقب انتهاء فصل من فصول قصة بنى إسرائيل وعطفاً عليها بأسلوب الاستطراد الذى جرى عليه القرآن كثيرا .

والأولى تضمنت تقريراً بأن الكتابيين يجدون صفات النبى الأمى - العربى - محمد عليه السلام فى التوراة والإنجيل ، وتنويها بالذين آمنوا به منهم وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه ؛ والثانية تضمنت دعوة عامة إلى الناس جميعاً للإيمان بالنبى الأمى - العربى الذى يؤمن بالله وكتبه السماوية - كلماته - فدخل الكتابيون فى شمول الدعوة أولا ، وأعلن أن النبى مؤيد ومصدق للكتب السماوية السابقة ثانياً .

وسورة الأعراف من السور المبكرة فى النزول ، ولقد كانت الآيات تتلى فى مكة ويسمعها الكتابيون الذى شملتهم الدعوة بطبيعة الحال ، ثم آمنوا بالنبى وصدقوا بما جاء به كما ذكرت ، وفيهم نصارى وفيهم يهود على ماسوف نذكره بعد . ولقد ذكرت آيات مدنية نقلناها فى مناسبة سابقة أن اليهود كانوا يستفتحون على العرب بالنبى العربى القادم ونددت بهم لكفرهم بما عرفوا حسداً وبغياً (البقرة ٨٩ - ٩٠) ، فلم يبق

مجال للشك فى أن الكتابيين كانوا يتحدثون عن صفات النبى الأمى ـ العربى ويبشرون به قبل بعثته ، استناداً إلى بشارات ونعوت كانت فى الأسفار التى بين أيديهم ، ولما بعث آمن به منهم من طابت نفسه وتجرد عن الحقد والهوى والحسد .

وهكذا تكون الآية الاولى قد تضمنت تقرير حقيقة كان يجهر بها الكتابيون قبل نزول القرآن ، وبالتالى تقرير التوافق والتساوق التامين بين التقريرات القرآنية وما عند الكتابيين وفى كتبهم من حقائق وبشارات ونعوت عرفوا أنها بشارات النبى العربى ونعوته .

- ٣ -

(٤) فى سورة فاطر الآيتان التاليتان .

« وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَٰبِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ . ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَٰبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ... ٣١ - ٣٢

والاولى تضمنت تقريرا بتأييد القرآن لما احتوته الكتب السماوية ، وتطابقه مع ماجاء فيها من مبادئ وأهداف ؛ وفى هذا توكيد للوحدة بين الدعوة النبوية القرآنية والكتب السماوية التى عند الكتابيين ؛ أما الثانية فيبدو أنها بسبيل تقرير أن القرآن قد جاء ليكون هو الكتاب المستقر بعد تلك الكتب ؛ وليكون شريعة الناس جميعاً ؛ وهذا من جوهر الدعوة النبوية المحمدية ، فهى مصدقة ووارثة لما قبلها وشريعة الناس جميعاً . وقد تكرر مضمون الآية الاولى فى كل من سور الانعام ويونس ويوسف والاحقاف كما ترى فيما يلى :

١ - وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنْزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ...

الانعام ٩٢

٢ - وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ... يونس ٣٧

٣ — وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ... يوسف ١١١

٤ — وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ... الأحقاف ١٢

(٥) فى سورة طه الآية التالية :

« وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ... ١٣٣

وقد تضمنت تقرير أن التساوق والتوافق بين القرآن والكتب السماوية الأولى حجة قائمة وكافية على صحة الرسالة المحمدية والتنزيل القرآنى ، إلى تقرير الوحدة بين القرآن وهذه الكتب بأسلوب آخر ؛ وفى الآية دلالة على أن العرب كانوا ملمين بما تناولته واحتوته الكتب السماوية الأولى ، كما كانوا ينظرون إلى أهلها نظر الاعتماد والثقة .

(٦) فى سورة الشعراء الآية التالية :

« أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَـٰٓؤُا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ... ١٩٧

ولقد قيل إن الآية مدنية ، ولكن الإنسجام التام فى السياق والنظم والمضمون وخطاب كفار مكة يحمل على ترجيح مكيتها ؛ وهى بسبيل الإحتجاج باعتراف علماء بنى إسرائيل بالقرآن على صحة وحى الله به ، كما أنها بسبيل تقرير التطابق والتساوق بينه وبين مايعرفه علماء بنى إسرائيل أولا ، وتقرير الاعتماد عليهم والثقة بشهادتهم شهادة إيجابية ثانية . وهى تلهم أن العرب كانوا كذلك يعتمدون عليهم ويثقون بهم ، إذ أريد إقامة الحجة عليهم باعتراف علمائهم بصحة التنزيل .

(٧) فى سورة يونس الآية التالية :

« فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ... ٩٤

والخطاب وإن يكن موجهاً للنبى صلى الله عليه وسلم فهو فى الحقيقة موجه للسامعين ،

وهذا مما جرى عليه الأسلوب القرآنى كثيراً ، وقد تضمنت الآية استشهاد أهل الكتاب به ، والمتبادر أنه ينطوى فى هذا تقرير استعداد أهل الكتاب للشهادة بصحة التنزيل القرآنى ؛ كما ينطوى فيه تقرير طبيعة الوحدة والتساوق بين القرآن والكتب السماوية أولا ، والاعتماد على أهل هذه الكتب بالشهادة الإيجابية ثانيا .

(٨) فى سورة الأنعام الآية التالية :

« الَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ الْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ... ٢٠

وهذه الآية تضمنت تقريراً قويا وواضحاً بمعرفة أهل الكتاب صحة التنزيل القرآنى معرفة لا يتطرق إليها أى شك كما يعرف الأب ابنه . وطبيعى أن ينطوى فى هذا تقرير الوحدة والتساوق من جهة ، والثقة والاعتماد من جهة أخرى .

وقد جاء فى السورة نفسها آية أخرى تضمنت تقرير نفس المعانى بقوة أيضاً وهى هذه :

« أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ الْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ... ١١٤

— ٤ —

(٩) وفى سورة الأنعام أيضاً الآيات التالية :

« وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ . وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّـٰلِحِينَ . وَإِسْمَـٰعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَـٰلَمِينَ . وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَاجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . ذَٰلِكَ هُدَى اللهِ

يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون . أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء[1] فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين ...

٨٤ - ٩٠

وقد جاءت هذه الآيات عقب آيات حكت موقفاً حجاجيا بين إبراهيم عليه السلام وأبيه وقومه . ومع أن التعقيب استهدف إقامة الحجة على المشركين العرب[1] فإن الآيات قد احتوت تنويهاً بأنبياء الكتابيين وما كانوا عليه من هدى وحق ، وأمراً للنبي صلى الله عليه وسلم بجعلهم له قدوة والاهتداء بهديهم . وواضح أن هذا ينطوي أولا على تقرير احترام أنبياء الكتابيين ، وثانياً على تقرير وحدة الطريق والهدى بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته .

(١٠) في سورة غافر الآيتان التاليتان :

« ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب . هدى وذكرى لأولي الألباب ...

٥٣ - ٥٤

والآيتان تضمنتا التنويه بموسى وبني إسرائيل والتوراة ، مما هو متصل بما نحن بسبيل تقريره .

(١١) في سورة الشورى الآية التالية .

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ...

١٣

---

(١) جملة «فإن يكفر بها هؤلاء» عنت الكفار العرب على الأرجح .

وفيها تقرير حاسم لوحدة الأسس فيما أوحى الله إلى الأنبياء ، وخاصة نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى وما أوحى إلى النبي محمد صلى الله عليه سلم ، وبالتالى تقرير لوحدة الأسس بين القرآن والكتب السماوية ، وبين المسلمين وأهل هذه الكتب وللتطابق والتساوق بين الفريقين .

(١٢) فى سورة الأنبياء الآية التالية :

« وما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِم فسألُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ... ٧

وقد احتوت تحدياً استشهادياً بالكتابيين أهل الذكر . والمتبادر أنه ينطوى فيها تقرير استعدادهم للشهادة وتقرير الثقة بهم والاعتماد عليهم فيها .

وفى سورة الأنبياء التى نزلت بعد النحل آية مماثلة لهذه الآية ، أوردت لنفس الغاية التى وردت لها آية النحل ، مما يؤكد المعنى الذى قررنا أنه ينطوى فى هذه الآية ويدل على تكرر الموقف الذى احتيج فيه إلى تقرير التحدى الاستشهادى .

(١٢) فى سورة الانبياء الآية التالية .

« إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ... ٩٢

وقد جاءت عقب سلسلة من قصص الأنبياء ، منها ماهو شخصى ، ومنها ماهو متصل بمواقف الكفار منهم وفيهم إبراهيم وموسى وهرون وإسحق ويعقوب ولوط ونوح وداود وسليمان وأيوب ويونس - ذوالنون - وإسماعيل وإدريس وذو الكفل وزكريا ويحيي وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، وقد نوهت الآيات بهم ، وجميعهم من أنبياء الكتابيين . أما الآية فقد احتوت تقرير وحدة طريق الأنبياء ، وأن هذه الطريق هى طريق المسلمين أيضاً ، واحتوت بالتالى تقرير الوحدة فى الأسس بين الإسلام وأهل الكتاب .

وقد تكرر هذا المعنى فى آية فى سورة « المؤمنون » التى نزلت بعد سورة الأنبياء مما يؤكد المعنى الذى استهدف تقريره كما هو واضح .

ويضاف إلى ماأوردناه من مفردات فى كل منها صورة غير الأخرى ، ماقى ماتوالى وروده فى القرآن المكى من قصص أنبياء أهل الكتاب ، وأحوالهم الخاصة ، وسيرة

أقوامهم معهم - فى سور الفجر والقمر وقٓ وصٓ والأعراف ويسٓ ومريم وطه والشعراء والنحل والقصص ويونس وهود ويوسف والحجر والأنعام والصافات وسبأ وغافر والزخرف والدخان والذاريات ونوح وإبراهيم والأنبياء والمؤمنون - مما يتطابق قليلا أوكثيراً مع ما ورد فى كتب أهل الكتاب ومافيها من ثناء على هؤلاء الأنبياء ودعوة للتأسى بهم واحترامهم ، مما يتضمن معنى التساوق والاتحاد والتطابق بين القرآن والكتب السماوية ، وبالتالى بين الإسلام وأهل الكتاب .

— ٥ —

وهكذا فإن القرآن منذ الوقت المبكر من العهد المكى أكد وظل يؤكد طيلة العهد وفى مختلف أدوار التنزيل وحدة المصدر الذى صدر عنه القرآن والكتب السماوية ، ووحدة الأهداف والمبادئ التى تضمنها القرآن وتلك الكتب ، وتأييد القرآن والنبى صلى الله عليه وسلم للأنبياء السابقين والكتب السابقة ، والتنويه بهم ، وأنه استشهد وظل يستشهد بأهل الكتاب على صحة الرسالة النبوية والتنزيل القرآنى بأسلوب يلهم استعدادهم للشهادة الإيجابية ، والثقة بهم والاعتماد عليهم فيها ، كما يلهم طبيعية وتوقع استجابتهم للدعوة المحمدية القرآنية واندماجهم فيها ونصرها وتأييدها .

وإذا استثنينا الإشارات القرآنية إلى اختلاف الكتابيين وانحرافهم عن أصل الدين الصافى ، وأهدافه العليا ، وما فيها من تنديد خاطف غير عنيف على ما سوف نذكره بعد ، فإن الأسلوب القرآنى المكى فى أهل الكتاب المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم من يهود ونصارى هو أسلوب هادئ محبب ليس فيه عنف ما .

ومن الطبيعى أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم الذى أوحى إليه منذ الوقت المبكر بما أوحى وظل يوحى إليه بمثله بأساليب متنوعة ، قد وقف منذ البدء موقف المسالم المتحبب من الكتابيين فى مكة المتحدمعهم فى الأهداف والمبادئ ، والمحترم لأنبيائهم وكتبهم والمعترف بها والمؤيد لها .

ونعتقد أن النبى صلى الله عليه وسلم قد ألهم هذا الموقف قبل نبوته أيضا ، إذ كان بينه وبين بعض الكتابيين فى مكة - على ما استلهمناه وشرحناه فى فصل شخصية النبى صلى الله عليه وسلم - صلة ود ومبادلة عطف وتصديق ، وأن هذا من أسباب هذا

الموقف الودى المتبادل ، هذا إلى ما احتواه القرآن من تصديق وتأييد وتنويه بكتبهم وأنبيائهم ، واستشهاد بهم واعتماد عليهم ، وتلقين بالوحدة التامة بينهم .

ومضامين المفردات القرآنية التى نقلناها أولا ، والأسلوب الهادئ الذى ظل متسقاً فى أدوار التنزيل واحتوى استشهاد أهل الكتاب وانطوى فيه معنى الثقة بشهادتهم الإيجابية ثانيا ، إلى ما احتواه القرآن المدنى من حملات عنيفة على اليهود بسبب مواقفهم الجاحدة الماكرة فى المدينة ثالثاً - كل ذلك يسوغ القول بجزم أن الكتابيين فى الإجمال قد وقفوا منذ البدء من الدعوة المحمدية القرآنية موقف العطف والتأييد وظلوا كذلك إلى آخر العهد المكى ، وأنه لم يقع بينهم وبين النبى صلى الله عليه وسلم احتكاك وعداء كما وقع بينه وبين اليهود فى المدينة .

على أنهم لم يقفوا عند هذا الحد ، بل حققوا ما كان متوقعاً من استجابتهم للدعوة واندماجهم فيها على ما سوف نذكره فيما يأتى .

- ٦ -

وثانيا : الكتابيون إزاء القرآن والدعوة المحمدية .

(١) فى سورة القصص الآيات التالية :

« الَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ الْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . أُولَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى الْجَـٰهِلِينَ ... ٥٢ - ٥٥

ومع أن بعض الروايات ذكرت أن الآيات مدنية فإنها غير موثقة ، والانسجام التام فى السياق والنظم والمضمون ، والصورة التى احتوتها الآية الأخيرة خاصة ، تسوغ الترجيح إن لم نقل الجزم بمكيتها ؛ وقد تضمنت خبر إيمان الكتابيين بالقرآن وحكاية أقوالهم عن إيمانهم به وتصديقهم بأنه الحق من ربهم ، كما تضمنت خبر تعرضهم

للؤم المشركين، وبالأحرى لزعمائهم، وتأنيبهم فلم يأبهوا لذلك وظلوا متمسكين بموقفهم الإيماني. وهذا موقف عظيم يدل على قوة نفس ورسوخ إيمان، بحيث لم يبالوا مايمكن أن ينالهم من أذى أولئك الزعماء الذين لابد من أنهم قدروا خطورة تصديق أهل الكتاب بالرسالة المحمدية والتنزيل القرآني، ولهم ما لهم من أثر فى أذهان العرب واعتماد عليهم وثقة بهم؛ ويزداد هذا الموقف عظمة إذا ما لوحظ أنهم فى محيط أكثريته الساحقة وزعماؤه الأقوياء أعداء ألداء للدعوة، يقدمون على كل شىء فى سبيل تعطيلها والصد عنها، وهم أقلية ضئيلة وأناس غرباء لاعصبية لهم، وقد أوذى بعض المسلمين من عهد مبكر أشد الأذى، وظل المسلمون عامة يتعرضون لمحنة الأذى والفتنة؛ وسورة القصص من السور المبكرة فى النزول نوعاً ما، والآيات تحكى أمراً واقعاً قبل نزولها؛ ومعنى هذا أن الكتابيين قد أخذوا يستجيبون للدعوة النبوية وينضمون إليها ويجهرون بتصديق النبوة والتنزيل القرآنى منذ عهد مبكر.

(٢) فى سورة الإسراء الآيات التالية:

« قُلْ ءامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا. وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا. وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ...

١٠٧ - ١٠٩

وفى هذه الآيات وصف آخر لموقف الكتابيين من القرآن فى خشوعهم وبكائهم من الخشية وسجودهم حينما كان يتلى عليهم إيماناً به وتصديقاً لما جاء فيه.

ولقد جاءت الآيات فى مقام التحدى للكفار والتقريع لهم؛ معلنة أن جحودهم ومواقفهم لاقيمة ولا اعتبار لها ما دام الذين أوتوا العلم يقفون هذا الموقف التصديق الخاشع، ولموقفهم الاعتبار الأكبر والقيمة العظيمة. وهذا يلهم أن هذه المواقف والمشاهد كانت مما يقع على مرأى أو علم من الكفار من جهة، وأنها كانت من عوامل طمأنينة المسلمين ووثوقهم، وقوة صمود الدعوة واستعلائها من جهة أخرى. وسورة الإسراء هى أيضا من السور التى نزلت مبكرة نوعاً ما، والآيات تحكى مشهداً

واقعاً قبل نزولها ، وفى هذا توكيد لما قلناه من استجابة الكتابيين للدعوة منذ العهد المبكر .

(٣) فى سورة الأحقاف الآية التالية :

« قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وكَفَرْتُم بِهِ وشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِى إِسْرَاءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ واسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى القَوْمَ الظَّالِمِينَ ... ١٠

وقد قيل إن الآية مدنية ، ولكن سياقها ومضمونها الذى يوجه فيه الخطاب والتحدى والإنذار إلى الكفار، يسوغ ترجيح مكيتها إن لم نقل الجزم بذلك .

وهى صريحة بأن بعض بنى إسرائيل شهد بصدق التنزيل القرآنى وبمماثلته لتنزيل التوراة وآمن به ، وفيها شيء من المعنى الذى احتوته الآيات السابقة : من حيث الاعتداد بإيمان الكتابى الإسرائيلى واعتباره حجة دامغة على المشركين .

(٤) فى سورة العنكبوت الآية التالية :

« وكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ فَالَّذِينَ ءاتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ومِنْ هَٰؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ومَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الكَافِرُونَ ... ٤٧

وفى الآية صراحة بأن الكتابيين يؤمنون بالتنزيل القرآنى . وطبيعى أن هذا لابد أن يكون تقريراً لواقع مشاهد . وفى الآية شيء من المعانى التى تلهمها الآيات السابقة كما يظهر من إنعام النظر فيها .

(٥) فى سورة الرعد الآية الآتية :

« والَّذِينَ ءاتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ومِنَ الأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ... ٣٦

وفيها صراحة بما كان يستشعره الكتابيون من فرح واستبشار بالتنزيل القرآنى لما يرونه فيه من مطابقة للأهداف العليا التى فى كتبهم ومن وحدة المصدر .

وطبيعى أن هذا لابد أن يكون مقترناً بتصديقه وتأييده من جهة ، ومستنداً إلى

واقع مشاهد من جهة أخرى .

وفى الآية شىء من المعانى التى تلهمها الآيات السابقة أيضاً .

- ٧ -

والآيات باستثناء آية الأحقاف لاتذكر هوية الكتابيين حيث تذكرهم مطلقين، أما الآية المذكورة فإنها تذكر صفة المؤمن الشاهد صراحة وهو إسرائيلى . وقد استدللنا بها وبقرائن قرآنية أخرى فى كتابنا عصر النبى وبيئته ، على احتمال وجود جالية يهودية فى مكة ، أو على الأقل على تردد يهود المدينة على مكة ، ووجود علاقات تجارية أو غير تجارية بينهم وبين أهلها ، والمعروف بإلهام القرآن على ماشرحناه فى كتابنا الآنف الذكر ، أنه كان عدد غير يسير من جوالى النصارى مستوطنين مكة ، ولقد ذكرت روايات السيرة وكتب التراجم أسماء كثير من الكتابيين الذين اندمجوا فى الدعوة فى مكة تحمل طابع الأسماء النصرانية ، كما أن بعض الروايات ذكرت قدوم وفد نصرانى إلى مكة بعد البعثة مستطلعاً نبأ النبى العربى ، وأعلن إيمانه به .

وهكذا يصح أن يقال إن أهل الديانتين الكتابيتين اليهود والنصارى قد قابلوا الدعوة النبوية فى مكة مقابلة إيجابية ، فشهدوا بصدقها وصدق التنزيل القرآنى وآمنوا بهما . وننبه إلى أن الصيغ القرآنية تلهم أن الكتابيين فى مكة إطلاقاً وقفوا هذا الموقف ، كما أن تكرار تقرير القرآن ذلك يلهم أن هذا الموقف وهذه المقابلة كانت من كافتهم . وروايات السيرة لم تذكر فيما اطلعنا عليه أنه ظل فى مكة كتابيون متمسكون بأديانهم ولم يندمجوا فى الدعوة الإسلامية .

على أنه قد ورد فى سورة العنكبوت هذه الآية .

« وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
مِنْهُمْ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ
وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ... ٤٦

والآية احتوت تعليماً قرآنياً للنبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين بالخطة التى يجب عليهم أن يسيروا عليها مع أهل الكتاب . وهى خطة متسقة مع المفردات والتقريرات

والأسلوب المكى القرآنى؛ ومع ذلك فإنها قد تلهم أنها تتضمن تقرير أمر واقعى، وهو أنه كان فى مكة كتابيون فى أواخر العهد المكى - لأن سورة العنكبوت من آخر ما نزل من القرآن المكى - وأنه كان يقع جدل دينى بينهم وبين النبى والمسلمين، وأن منهم من كان يسلك فى جدله سلوك المكابرة والتجنى والظلم؛ فإذا كان هذا الاستلهام صواباً فمن الراجح أن يكون هؤلاء ممن وقعوا تحت تأثير زعماء الكفار وصدهم وتهويشهم، أوكانت تربطهم بهم مصالح وروابط لا يسعهم أو لم يمكنهم التضحية بها أو التفلت منها؛ ومهما يكن من أمر فإن الآيات القرآنية تلهم أن موقف الكتابيين بالإجمال كان موقفاً إيجابيا كما قلنا، وأن شذوذ بعضهم عن طريق الأكثرية سواء كان السبب جدليا أو تعصبيا أو عقليا أو ماديا، من الأمور المتسقة مع طبائع الأشياء والأشخاص والبيئات، وليس من شأنه أن ينقض ما استلهمناه وقررناه

على أنه لما كانت هجرة المسلمين إلى يثرب بدأت فى ظروف نزول سورة العنكبوت على ما شرحناه قبل، فإن من الجائز أن تكون الآية قد تضمنت الخطة الواجب على المسلمين أن يسيروا عليها فى المدينة حيث يكثر اليهود، لاسيما وقد جاء بعدها الآية ٤٧ التى نقلناها قبل والتى تقرر أن الذين أوتوا الكتاب يؤمنون بالنبى والقرآن، وبالتالى تقرر موقف الكتابيين الإيجابى تقرير شىء واقعى؛ وبهذا التوجيه ينتفى ما يمكن أن يكون من وهم التناقض كما هو المتبادر، وتتسق التقريرات القرآنية وملهماتها.

- ٨ -

وثالثاً: مدى وهدف الإشارات القرآنية إلى اختلاف الكتابيين:

(١) فى سورة هود وفصلت آيتان متماثلتان نصاً وهو:

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَـٰبَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ...

هود ١١٠ وفصلت ٤٥

(٢) وفى سور الشورى والزخرف والجاثية والسجدة هذه الآيات:

١ - شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وما

وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ . وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَٰبَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ...

الشورى ١٢ - ١٤

٢ — وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ . فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ... الزخرف ٦٣ - ٦٥

٣ — وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَٰءِيلَ الْكِتَٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ . وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ... الجاثية ١٦ - ١٧

٤ — وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَٰءِيلَ . وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ... السجدة ٢٣ - ٢٥

وقد جاءت هذه الآيات فى سياق إنذار المشركين ، والتنديد بهم ، والحجاج معهم ؛ وبسبيل نفى الخلاف عن الأهداف والمبادئ السامية ، ونسبته إلى الكتابيين الذين إنما وقعوا فيه بغياً ، أى لأغراض باغية لاتمت إلى الحق والحقيقة فى تلك المبادئ

والأهداف ؛ ثم بسبيل دحض حجة المشركين العرب باختلاف الكتابيين ، واتخاذهم ذلك وسيلة للتمسك بما عندهم والتبجح به أولا ؛ وبسبيل تقرير كون القرآن قد جاء بالحق، ووضع الأمر فى نصابه الحق، وإنه لم يبق حجة لمحتج ثانياً.

غير أنه يمكن مع ذلك أن تلهم أنها استهدفت فى الوقت نفسه تقرير واقع الكتابيين من الاختلاف والنزاع والانشقاق مذاهب وشيعا فيما بينهم ، ودعوتهم إلى الانضواء إلى راية القرآن الذى يمت إلى المصدر الذى تمت إليه كتبهم ، والذى يعود بدين الله إلى صفائه ومبادئه السامية التى لا تتحمل فى أصلها خلافا ، واتباع النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، ونصره وتأييده ، والتسليم بما جاء به القرآن من حلول الحق لمشاكلهم وخلافاتهم المذهبية والنفسية ، لاسيما أن الآيات كانت تتلى فى مكة ويسمعها الكتابيون فيها .

على أن هذا المعنى منطو فى آيتى الأعراف ١٥٧ - ١٥٨ اللتين نقلناهما قبل، ومنطو فى بعض الآيات التى نقلناها آنفا ؛ وقد جاء قويا صريحاً فى بعض آيات سورة النمل كما ترى فيها :

« إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِى إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ... ٧٦ - ٧٨

ثم فى بعض آيات سورة مريم التى جاءت تعقيباً على قصة ولادة عيسى صلى الله عليه وسلم كما ترى فيها :

« ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ . مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَـٰنَهُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ . وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ... ٣٤ - ٣٦

ولعل من الحق أن يقال إنه كان لهذه التقريرات والدعوة القرآنية أثر فيما كان من تنبه الكتابيين فى مكة فى مبدإ الأمر إلى ماوصل إليه أمرهم من خلاف ونزاع وانقسام لايمت فى أصله إلى مبادئ الدين وأهدافه السامية . وفى إقبالهم على الإسلام ورؤيتهم فى التقريرات القرآنية علاجاً شافياً لما هم فيه وفى الإسلام عهداً جديداً يستقبلونه برضى وطمأنينة نفس ؛ هذا إلى ما كان من مطابقة بين التقريرات القرآنية وما كان عليه بعض الفرق النصرانية من عقائد ومذاهب أو من مقاربة ؛ إذ من المحتمل كثيراً أن تكون الجاليات النصرانية فى مكة من هذه الفرق ، فكان ذلك عاملا فى إقبال الذين أقبلوا منهم على الإسلام بيسر وارتياح وإخلاص (١)

— ٩ —

ورابعاً: مدى وهدف الإشارات القرآنية إلى انحرافات الكتابيين العقائدية واستدراكاتها وتصويبانها . ليس فى القرآن المكى من تفصيل عن الانحرافات والخلافات العقائدية التى كان عليها الكتابيون فى مكة إلا بشأن السيد المسيح والعقيدة النصرانية فيه . وكل ماورد بشأن اليهود ـ عدا الإشارات الخاطفة إلى خلافاتهم التى كانوا عليها فى عهد النبى ، وقد أوردناه آنفاً ـ هو مواقف اليهود السابقين فى عهد موسى وبعده ، وقصصهم وانحرافهم إلى عبادة العجل ، وتمردهم من حين إلى حين على أوامر الله والأنبياء ، وترديهم الأخلاقى والاجتماعى الذى حاق فيهم بسببه الكوارث والمصائب وأدى إلى تسلط الأقوياء عليهم كما يبدو من قصصهم فى سور الأعراف وطه والإسراء بصورة خاصة ؛ هذا فى حين أن القرآن المدنى احتوى إلى الحملات العنيفة على أخلاقهم ومواقفهم الماكرة الجاحدة ، إشارات إلى عقيدتهم ببنوة العزير لله ، وقذفهم مريم وابنها بأسلوب يفهم منه أن هذا من عقائد المعاصرين .

وقد يمكن أن يستلهم من هذا أن اليهود فى مكة كانوا أفراداً قلائل ، وأنهم لم يحتكوا بالنصارى أولا ثم بالنبى والمسلمين ثانيا احتكاكا عدائيا به هذا إلى أن التطابق بينهم وبين الدعوة الإسلامية الذى كان أشد مما هو بين النصارى وبينها لإيمانهم بالتوحيد الصريح غير المؤول ، لم يدع محلا للتشاد

(١) فى تاريخ انتشار الاسلام للمستشرق الانكليزى أرنولد تقريرات مستندة إلى وثائق ودراسات تدل على أنه كان بين الفرق النصرانية من يتطابق مذهبه مع التقريرات القرآنية فى شأن عيسى عليه السلام .

والجدل ، وأوجد بين الفريقين صلات تقاربية وحزبية وثيقة جعل النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين يتوقعون أن يستجيب إليهم اليهود بسرعة أكثر من كل ملة ، وهذا ماهو منطو فى الفصول القرآنية المدنية على ماسوف نذكره فى حينه .

- ١٠ -

أما بشأن السيد المسيح والعقيدة النصرانية فقد ورد أولا فصل طويل فى سورة مريم هذا هو :

« كهيعص . ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا . إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا . قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا . وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا . يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا . قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا . قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا . قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا . فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا . يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا . وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا . وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا . وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا . وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا . فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا . قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا . قَالَ إِنَّمَا

أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا . قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا . قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا . فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا . فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا . فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا . وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا . فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا . فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا . يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا . فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا . قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا . وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا . وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا . ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ . مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ . فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ... ١ - ٣٧

والقسم الأول خاص بقصة ولادة يحيى صلى الله عليه وسلم . والقسم الثاني الذي يلهم أن قصة ولادة عيسى صلى الله عليه وسلم ودحض عقيدة بنوته لله هما المقصودان الجوهريان ، يسوغ القول أن القسم الأول جاء مقدمة لقصة ولادة عيسى وتمهيداً ، فقد كانت قصة ولادة يحيى مما وردت الإشارة إليه في بعض الأناجيل ومما يؤمن به

المسيحيون ويعتبرونه معجزة ربانية ؛ فأريد بإيرادها إثبات أن ولادة المسيح هي أيضا معجزة ربانية لاتقتضي أن تكون سبباً للاعتقاد ببنوة عيسى لله . وقصة ولادة عيسى عليه السلام متماثلة في الخطوط مع ما ورد عنها في الأناجيل، وإن كان هناك بعض اختلافات في الجزئيات وخاصة في كلام عيسى في المهد مما لم يرد في الأناجيل ونعتقد مع ذلك أنه كان متداولا بين النصارى هو وغيره مما جاء في القرآن ولم يجئ في الأناجيل . وقد استهدفت آيات قصة عيسى عليه السلام - فوق تقرير حقيقة ولادة عيسى وأنها ليست إلا معجزة - تنزيه الله عن اتخاذه أبناء واستغناءه عن ذلك وعدم اتساقه مع المنطق الذي يفرض لله الكمال التام ، وأن الله هو وحده رب الناس جميعاً ، وله وحده تجب العبادة ، وأن ما وقع من انحراف عن هذه الحقيقة إنما نشأ عن اختلاف في الفهم ، وتشعب في الآراء بين الأحزاب من بعده .

والفصل يبدو لأول وهلة تقريراً قرآنياً مباشراً ؛ لاسيما وقد تبعه فصول عن أنبياء آخرين بنظم واحد . على أن هذا لايمنع أن يكون قد حدثت مناسبة قبل نزوله ، كبحث في ماهية المسيح ، أو جدل في عقيدة النصارى فيه بين العرب المسلمين والكافرين ، أو سؤال من هؤلاء أو هؤلاء ، أو موقف جدلي بين النبي صلى الله عليه وسلم والنصارى ، ونحن نرجح هذا . ولعل في الآية « ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون » قرينة على هذا الترجيح ، إذ تلهم أن الفصل جاء تعقيباً على موقف جدلي اختلف فيه في أمر عيسى فاحتوى القول الحق لوضع الأمر في نصابه الحق .

وقد ورد ثانياً في سورة الزخرف الفصل الآتي :

« وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوٓا ءَأٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ . إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ . وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ . وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ . وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ . وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم

بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ . إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ . فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ... ٥٧ - ٦٥

والآيات قد سيقت على سبيل الحجاج مع مشركى العرب والرد عليهم ، إذ احتجوا بإشراك النصارى المسيح عليه السلام فى العبادة مع الله ، ورأوا فى إشراكهم الملائكة منطقاً أكثر سلامة على ماشرحناه فى مكان آخر . غير أنها على كل حال متصلة بماهية عيسى وعقيدة النصارى فيه ، وتقرير أنه إنما هو عبد لله ، وأن دعوته إلى الله وحده ، وأن الانحراف عن هذا إنما كان بسبب اختلاف الأحزاب بعده وتشعب الآراء فيه ؛ كما تضمنت الإشارة إلى انحراف العقيدة فيه ، والتنديد بذلك وقررت وجه الصواب فى الأمر بأسلوب آخر انتهى إلى النهاية نفسها التى انتهى إليها فصل سورة مريم .

وفى سورتى الأنبياء والمؤمنون ثالثاً إشارتان خاطفتان إلى ولادة عيسى عليه السلام كما ترى فيما يلى :

١ — « وَالَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَـٰهَا وَابْنَهَا ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ... الأنبياء ٩١

٢ — وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً وَءَاوَيْنَـٰهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ... المؤمنون ٥٠

والقصد ظاهر فى الآيتين اللتين وردتا عقب فصول فى سيرة الأنبياء السابقين ، وهو الإشارة إلى أن ولادة عيسى عليه السلام أنما كانت معجزة وعناية ربانية خاصة ، وبالتالى تصويب العقيدة المنحرفة فيه .

- ١١ -

وفى الجملة فإن من الممكن أن يقال إن قصة ولادة عيسى وشخصيته كانتا موضع جدل ومناقشة وأخذ ورد وقيل وقال قبيل البعثة ، واستمر ذلك بعدها ؛ فالعرب من

جهة كانوا يرون فيما عليه أهل الملل الكتابية فى أمر عيسى عليه السلام مايدعو إلى العجب، حتى كانوا يرون أنفسهم على هدى أكثر من النصارى فى تأليه الملائكة ونسبتهم بالبنوة إلى الله، واليهود كانوا يرمون السيدة مريم بالبهتان بسبب حملها بعيسى بدون أب شرعي ظاهر، ويصفونه بالكذاب والدجال. والنصارى كانوا فى أمره أحزاباً وفرقاً، منهم من يرى أن ماهية الله هى نفسها ماهية عيسى، ومنهم من كان يعتقد أنه أقنوم من أقانيم الألوهية الثلاثة، ومنهم من كان يعتقد بألوهيته، ومنهم من كان يعتقد بأن له صفتين ناسوتية ولاهوتية، ومنهم من كان يعتقد بأن له صفة واحدة وهي اللاهوتية، ومنهم من كان يعتقد بأن صفته هى الناسوتية ويؤمن بالله ويعتقد بأن المسيح نبي رافقت ظروف ولادته معجزة ربانية، ومنهم من رفع السيدة مريم إلى درجة الألوهية أو اللاهوتية الخ مما حكته آيات قرآنية مدنية[1] ومانقلته الأخبار[2] فجاءت هذه الفصول والآيات القرآنية تضع الأمور فى نصابها الحق فتقرر أن فيما عليه هؤلاء وهؤلاء وأولئك تفريطا وإفراطاً وغلوّاً، وبعداً عن المنطق والحق وعقيدة التنزيه والتوحيد، وأن هذا إنما كان بعد عيسى وناشئا عن اختلاف الآراء والتأويلات والمذاهب فيه، فولادة عيسى تمت بمعجزة، وقد سبقت بمعجزة مقاربة من حيث النوع ومعترف بها، فلا يقتضى هذا أن ترمى مريم بالبهتان، وأن يوصف ابنها بغير الشرعية، وينعت بنعوت بذيئة كما فعل اليهود، ولا أن يحار فى التعليل ويذهب فيه مذاهب ويجعل عيسى إلهاً، أو جزءاً من الإله، ويرى فيه لاهوتية، أو لاهوتية وناسوتية معاً، وترفع مريم إلى الألوهية أو اللاهوتية كما فعل النصارى - وتقرر أن عيسى عبد من عباد الله ونبي من أنبيائه، أرسله ليدعو إليه وحده بالبينات والحكمة، وليحل ماصار إليه اليهود من خلافات، وتقرر له التكريم، ولأمه التنزيه فى نطاق عبوديتهما لله، وهكذا تضع حلا للخلافات القائمة حول ماهيته وشخصيته لدى اليهود والنصارى والعرب معاً، وتهيئ الطريق أمام غلاة النصارى للرجوع عن غلوائهم، وتفتح الباب لهم وللذين تتناسب عقائدهم فى المسيح مع هذه التقريرات خاصة ليدخلوا منه إلى الإسلام. ويخلصوا مما هم فيه من شكوك وخلاف وريب ونزاع، وتسد على العرب طريق

---

(١) اقرأ آيات النساء ١٥٦ و١٧١ والمائدة ١٧ و٧٣ و١١٦ والتوبة ٣٠ والصف ٧

(٢) اقرأ تاريخ انتشار الاسلام للمستشرق الانكليزى أرنولد .

الاحتجاج والمماحكة ، وتلزم اليهود حدهم فيما كانوا يرسلونه من أقوال بذيئة ضد المسيح وأمه فى المحيط العربى .

وطبيعى أن هذه التقريرات كانت تتلى جهرة ، وسمعها الكتابيون الذين آمنوا بنبوّة النبى والتنزيل القرآنى وشهدوا على صحتهما وأظهروا فرحهم بهما ، فمن الحق أن يقال إنهم قد وجدوا فى هذه التقريرات حقاً وصدقاً ، ومنطقاً سليما وحجة كافية ، وحلا لما هم عليه من خلاف وشقاق وتضاد فى أمر المسيح ، فكان مما حدا بهم إلى الاستجابة لداعى الإسلام ونبى القرآن ، بالاندفاع والفرح ، والخشوع ورضى النفس على ما وصفهم القرآن .

تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى

وأوله

عهد السيرة النبوية المدنى

استدراك

وردت الفقرة رقم ٣ فى السطر الأخير من ص ١٧١ فى غير موضعها : إذ كانت من شواهد « مواقف الاعتدال » لا « مواقف الشدة » فكان موضعها الحق فى القسم الثانى من ذلك الفصل : ص ١٩٠ وما بعدها ؛ وعليه فإن الفقرة رقم ٤ فى ص ١٧٢ يجب أن يكون رقمها ٣ فإلى هذا نلفت النظر معتذرين .

فهرس

الجزء الأول

الى مكتبة الجامعة الأمريكية في بيروت

« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ »
« بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هٰذَا الْقُرْآنَ »
[سورة يوسف ٣]

سيرة الرسول

صور مقتبسة من القرآن الكريم

وتحليلات ودراسات قرآنية

مؤلفها

محمد عزة دروزه

الجزء الثاني

مطبعة الاستقامة بالقاهرة

١٣٦٧ — ١٩٤٨

تطلب من

المكتبة التجارية الكبرى: شارع محمد علي بمصر

لصاحبها: مصطفى محمد

[الطبعة الأولى]

عهد السيرة النبوية المدنى

محتويات هذا القسم

تمهيـــــد

عهد الاسلام فى المدينة سابق للهجرة ـ ظروف نشأته ـ مواكب المهاجرين تسبق النبي ـ بدء العهد المدنى من السيرة النبوية ـ ماذا يعنى القرآن المدنى ـ حيزه بالنسبة لمجموع القرآن وميزاته البارزة ـ أسلوبه ومغزاه ـ القرآن المكي يحتوى مبادئ الاسلام والقرآن المدنى يثبتها ويوسعها ـ استعراض أحداث العهد المدنى حسب مواضيعه بسبب تداخل المواضيع القرآنية ـ بحث فى أسماء وترتيب نزول السور المدنية ـ تنبيه فى صدد ترتيب السور المدنية ـ فصول العهد المدنى .

— ١ —

إن عهد الإسلام فى المدينة قد بدأ فى الحقيقة قبل الهجرة النبوية ؛ إذ ثبت من الروايات التى لايكاد يكون خلاف فى جوهرها أن النبي صلى الله عليه وسلم اتصل قبل سنتين من هجرته بجماعة من الخزرج فدعاهم إلى الإسلام كما كان يفعل مع وفود العرب فى موسم الحج ، وكانوا يسمعون من اليهود فى المدينة بشارات عن النبي العربى الذى أظلّ وقت بعثته ، وزهواً بأنه سيكون معهم على غيرهم ؛ فقال بعضهم لبعض : تعلمون والله أنه للنبى الذى توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه ! فأجابوه إلى ما دعاهم ، وقبلوا الإسلام . وقالوا له إننا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى الله أن يجمعهم بك ؛ وإلى هذا انطوت الإشارة فى بعض آيات سورتى آل عمران والأنفال هذه :

١ — وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ...

آل عمران ١٠٣

٢ — وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ . وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ...

الأنفال ٦٢ - ٦٣

ثم انصرفوا إلى بلدهم، وعرضوا الأمر على قومهم فارتاحوا ووافقوا؛ فلما كان العام التالى وافى الموسم جماعة من الأوس والخزرج معاً، فاجتمعوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى مكان يعرف بالعقبة، وبايعوه على الإسلام ومبادئه؛ وقد أرسل معهم قارئاً يعلمهم القرآن وأركان الصلاة ويؤمهم فيها، فأخذ الإسلام يفشو فى المدينة؛ وفى الموسم التالى جاء وفد كبير من الأوس والخزرج فاجتمع النبى به وطلب منه البيعة على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم إذا هو خرج إليهم، فبايعوه، وتسمى هذه البيعة بالعقبة الثانية الكبرى، وطلب بعضهم منه عهداً بألا يدعهم إذا أظهره الله فيرجع إلى قومه بعد أن يكونوا قد قطعوا حبالهم مع حلفائهم؛ فهتف بهم قائلا: بل الدم الدم والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم. ثم اختار منهم اثنى عشر زعيما فسماهم بالنقباء على بطون قبائلهم، منهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، وقد أخذت مواكب المهاجرين من مكة تتحرك إلى المدينة بعد ذلك تاركين وطنهم وأموالهم فى سبيل الله — على ماذكرناه فى مبحث محنة الأذى والفتنة فى الجزء الأول — فاستقبلهم أهل المدينة بالرحاب العظيم. ولقد احتوت إحدى آيات سورة الحشر إشارة إلى ما كان من تقدم عهد الإسلام فى المدينة على الهجرة، وما كان من ترحاب أهلها بالمهاجرين السابقين كما ترى فيها:

« وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ... ٩ »

إذ احتوت صراحة خبر إيمان أهل المدينة وعدهم بلدهم دار هجرة للنبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين قبل أن يأتوا من مكة، مع احتوائها الثناء العظيم على ما كان من إقبالهم على الإسلام بالرضى والطمأنينة، ومن جعلهم مدينتهم التى نورها الله بالهجرة النبوية وجعلها مشرق شمس الدعوة الإسلامية — دار هجرة للنبى والمسلمين، ومن ترحيبهم بالمهاجرين هذا الترحيب المادى والمعنوى الرائع.

وقد سماهم الله فى القرآن بالاسم المحبب الكريم وهو «الأنصار» كما جاء فى الآية التالية.

« والسَّٰبِقُونَ الأوَّلونَ مِنَ المُهَٰجِرِينَ والأنصَارِ والَّذِينَ اتبَعُوهُم بِإحسَٰنٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ورَضُوا عَنْهُ ... التوبة ١٠٠

ويلفت النظر إلى جملة « والسابقون الأولون » إذ احتوت تنويهاً بالرعيل الأول منهم الذين أقبلوا على الإسلام واندمجوا فيه ، وبايعوا النبي على نصرته والدفاع عنه فى ظرف كان النبي والمسلمون فيه فى حالة ضعف وضيق ، وكان أعداؤهم أقوياء ألداء ، دون أن يبالوا ما يجره عليهم عملهم من مشاكل وإحن ؛ وهو عمل يستحق كل إكبار وإجلال .

أما عهد السيرة النبوية المدنى فقد بدأ بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد سنتين من اتصاله بأهلها ، وفشو الإسلام فيهم ، وهجرة من تمكن من الهجرة من أصحابه إليها ، بالظروف والكيفية التى شرحناها فى مبحث محنة الفتنة والأذى مما لا حاجة إلى إعادته .

— ٢ —

وكما يمثل القرآن المكى العهد المكى ؛ فإن القرآن المدنى يمثل العهد المدنى بطبيعة الحال . وننبه فى هذا الصدد إلى أن هذه الصفة تشمل كل ما جرى من أحداث نبوية بعد الهجرة ولو لم تقع فى نفس المدينة ، كما تشمل كل ما نزل من قرآن بعدها ، إذ نزلت آيات فى طريق الهجرة ، وفصول وآيات فى أثناء الغزوات خارج المدينة ، وفصول وآيات فى مكة أو فى جوارها حين خرج النبي إليها معتمراً مرة وفاتحاً مرة وحاجاً مرة .

والقرآن المدنى هو نحو ثلث القرآن عدد آيات ، وأكثر من ثلثه حيزاً وعدد أجزاء ، ونحو ربعه أو أكثر قليلا عدد سور ، على اختلاف فى مكية ومدنية بعض هذه السور .

وله هو أيضا مميزات بارزة تختلف فيها اختلافاً غير يسير عن القرآن المكى :

١ - فآيات القرآن المدنى فى الجملة أطول من آيات القرآن المكى ، كما أن السجع فيها يقل بل يندر .

٢ - وليس فيه ذلك الإسهاب فى القصص ، ووصف الجنة والنار ، ومشاهد القيامة ، إذ اقتصر الأمر فى هذا وذاك على الإشارة إليها والتذكير والوعد والوعيد بها .

٣ - وقد احتوى حملات شديدة على اليهود المعاصرين ، وأخلاقهم ومواقفهم الماكرة الجاحدة وحجاجهم ، كما احتوى شيئاً من الحملة على النصارى وانحرافاتهم .

٤ - وكذلك احتوى حملات شديدة على المنافقين الذين أظهروا الإسلام وأضمروا الكفر ، ووقفوا من النبي والحركة الإسلامية مواقف ماكرة مزعجة .

٥ - وفيه فصول عدة فى الدعوة إلى الجهاد ووقائعه .

٦ - وقد احتوى فصولا تشريعية وتقنينية وتعليمية وتأديبية فى مختلف النواحى . وتبدل أسلوب الحث والتشجيع فى الشؤون الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية الذى هو الغالب فى القرآن المكى ، إلى أسلوب الأمر والفرض فى الإجمال .

٧ - ومما احتواه القرآن المدنى فصول عدة عن حياة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية والبيتية ، مما لم يرد شىء عنه تقريباً فى القرآن المكى .

٨ - ومع أنه لم يخل من فصول جدلية ، أو حملات على الكفار فإن أسلوب هذه الفصول والحملات ، وكذلك أسلوب الفصول والحملات على اليهود والمنافقين ومرضى القلوب ، يصطبغ فى الإجمال بأسلوب القوى العزيز ، الذى أمكنته الفرصة من نفسها ليطهر البيئة من الأدران والانحرافات والمكر والدسائس ، وضمانة الحرية الدينية ، وإعلاء كلمة الله ، وتقرير ما ينبغى أن يكون عليه الكيان الإسلامى سياسيا واجتماعيا ، مما هو متسق مع تطور الدعوة وانتشارها ورسوخها ، وتطور مركز النبى والمسلمين بالتبعية من الضعف إلى القوة ، ومن القلة إلى الكثرة ، ومن القلق إلى الاستقرار ، ومن الخوف إلى الأمن ، مصداقا لوعد الله فى هذه الآية :

« وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ... النور ٥٥

وإلى هذا التطور يرجع كذلك ماذكرناه من تبدل الأسلوب فى البند السادس كما هو المتبادر .

وننبه إلى أمر مهم : وهو أن ما كان من تطوّر تشريعى وتعليمى وتأديبى فى مختلف النواحى ، وما كان من تطور فى موقف النبى والمسلمين ، وما كان لهـذا التطور من نتائج ، ثم ما كان من تطور أسلوبى فى القرآن ـ لم يكن ليخرج فى جوهره ومداه وخطوطه الأساسية عن مبادئ وأهداف الدعوة المتنوعة التى رسمت فى القرآن المكى ، مما سوف نعود إليه بشىء من الإسهاب فى فصل التشريع .

— ٣ —

والفصول القرآنية المدنية فى المواضيع المتنوعة متداخلة بحيث يوجد شىء من كل موضوع فى مختلف أدوار التنزيل المدنى ، شأنها فى ذلك شأن الفصول المكية ومواضيعها ؛ ولذلك جرينا فى استعراض صور العهد المدنى وأحداثه على الطريقة التى جرينا عليها فى عرض صور وأحداث العهد المكى ، أى على حسب المواضيع مع ملاحظة ظروف وأدوار صور المواضيع الزمنية بقدر مايمكن أن تلهم الآيات ويستأنس به من الروايات أولا ، ومن ترتيب نزول السور ثانياً ؛ كما فعلنا فى صور ومشاهد العهد المكى .

وقد رأينا أن نضع هنا أيضاً ثبتاً بأسماء السور المدنية على حسب ترتيب نزولها فى مختلف الروايات والتراتيب كما فعلنا فى السور المكية ، ليستعين به القارئ على ملاحظة أدوار الصور والمشاهد ، وهذا هو الثبت :

ترتيب النزول

أسماء السور	جابر بن زيد	ابن عباس	الحسن وعكرمة	السيوطي	مجمع البيان	الخازن	مصحف فؤاد	المصحف
البقرة	١	١	٢	١	١	١	١	٢
الأنفال	٣	٢	٤	٢	٢	٢	٢	٨
آل عمران	٢	٢	٣	٣	٣	٣	٣	٣
الأحزاب	٤	٤	٥	٤	٤	٤	٤	٣٣
الممتحنة	٦	٥	٧	٥	٥	٥	٥	٦٠
النساء	؟	٦	٨	٦	٦	٦	٦	٤
الزلزلة	؟	٧	٩	٧	٧	٧	٧	٩٩
الحديد	؟	٨	١٠	٨	٨	٨	٨	٥٧
محمد	؟	٩	١١	٩	١٠	٩	٩	٤٧
الرعد	؟	١٠	١٢	١١	١٠	١٠	١٠	١٣
الرحمن	؟	١١	١٣	١١	١٢	١١	١١	٥٥
الإنسان	؟	١١	١٤	١٢	؟	١٢	١١	٧٦
الطلاق	؟	١٣	١٥	١٣	١٣	١٣	١٣	٦٥
البينة	؟	١٤	١٦	١٤	١٤	١٤	١٤	٩٨

أسماء السور	جابر بن زيد	ابن عباس	الحسن وعكرمة	السيوطي	مجمع البيان	الخازن	مصحف فؤاد	المصحف
الحشر	؟	١٥	١٧	١٥	١٥	١٥	١٥	٥٩
النور	٨	١٧	١٩	١٧	١٧	١٩	١٦	٢٤
الحج	٩	١٨	٢٠	١٨	١٨	٢٠	١٧	٢٢
المنافقون	١٠	١٩	٢١	١٩	١٩	٢١	١٨	٦٣
المجادلة	١١	٢٠	٢٢	٢٠	٢٠	٢٢	١٩	٥٨
الحجرات	١٢	٢١	٢٣	٢١	٢١	٢٣	٢٠	٤٩
التحريم	١٣	٢٢	٢٤	٢٦	٢٦	٢٤	٢١	٦٦
التغابن	١٥	٢٤	٢٧	٢٤	٢٤	٢٧	٢٢	٦٤
الصف	١٦	٢٥	٢٠	٢٥	٩	٢٥	٢٣	٦١
الجمعة	١٤	٢٣	٢٦	٢٣	٢٣	٢٦	٢٤	٦٢
الفتح	١٥	٢٦	٢٨	٢٢	٢٢	٢٤	٢٥	٤٨
المائدة	٥	١٧	٦	٢٧	٢٥	٣٠	٢٦	٥
التوبة	٦	٢٨	٢٩	٢٨	٢٧	٢٩	٢٧	٩
النصر	٧	١٦	١٨	١٦	١٦	١٨	٢٨	١١٠

١ - الإشارة «؟» تعنى عدم ورد اسم السورة فى الترتيب.

٢ - سورة الإنسان فى مجمع البيان مكية ورقمها ٦٤.

٣ - سورة المطففين فى عكرمة والحسين مدنية ورقمها ١.

٤ - البينة والزلزلة والإنسان والتغابن والصف والرحمن والحج والرعد والحديد مما ورد روايات بمكيتها، والصف والحديد لا تتحملان هذا البتة، والزلزلة والإنسان والرحمن والحج تتحمله مع الرجحان، والبينة والتغابن يمكن أن تتحملاه ولكن مدنيتها تبدو هى الراجحة.

— ٥ —

ونلبه إلى نقطة مهمة ، وهى أن التجوز فى ترتيب نزول السور المدنية أكثر منه فى ترتيب نزول السور المكية ؛ والراجح أن روايات الترتيب مستمدة من روايات نزول الفصل الأول أو الفصول الأولى من السور ؛ وخاصة بالنسبة للطويلة منها . فوحدة الموضوع فى السور المكية ، وتناسب فصولها ، واتساق الأكثر فى النظم ـ يسوغ القول أن السور التى يحتمل أن لا تكون قد نزلت مرة واحدة قد تلاحقت فصولها بحيث يصح الترجيح بانه لم ينزل فصول من سورة أخرى قبل أن تكون فصول السورة السابقة قد تلاحقت وكملت ، فى حين أن هذا لايطرد بالنسبة لكثير من السور المدنية ، فالسور الطويلة منها قد تعددت فيها المواضيع وتنوعت ، وفى بعضها دلالات على أن بعض فصول وآيات سورة متقدمة فى ترتيب النزول قد نزلت بعد فصول وآيات سورة متأخرة ، وبالعكس ؛ ومع أن هذا يبرز فى السور الطويلة أكثر فإنه يلاحظ فى بعض السور المتوسطة ، بل القصيرة أيضاً .

ومع ذلك فإنه ليس من العسير تمييز ذلك ، كما أن هذا لايعطل إمكان الانتفاع من تراتيب نزول السور المدنية بالمرة ، ولا يجرحها بالمرة من حيث الإجمال .

— ٦ —

أما فصول العهد المدنى فهى هذه :

١ ـ سير وأدوار انتشار الدعوة الإسلامية .

٢ ـ اليهود فى العهد المدنى .

٣ ـ النصارى فى العهد المدنى .

٤ ـ المنافقون فى العهد المدنى .

٥ ـ الجهاد وسيره ونتائجه .

٦ ـ التشريع القرآنى المدنى ومداه .

وواضح من هذا أن هذه الفصول هى أبرز موضوعية من فصول العهد المكي ؛ مما هو متسق مع طبيعة هذا العهد التى أشرنا إليها قبل ، والتى سنزيدها إيضاحاً فى سياق كل فصل .

فصــــل

فى أدوار وسير انتشار الدعوة الإسلامية

فى العهد المــدنى

تمهيــد

قد لا يكون فى القرآن المدنى ـ باستثناء سورة النصر التى نزلت بعد الفتح ونصت بصراحة على دخول الناس فى دين الله أفواجا ـ ما فيه صراحة تساعد على تجلية سير وأدوار انتشار الدعوة الإسلامية فى العهد المدنى ، غير أن من الممكن تبين ذلك إلى درجة غير يسيرة من الآيات والفصول القرآنية التى نزلت فى مختلف أدوار التنزيل المدنى ، فى صدد أحداث ذلك العهد ووقائعه التى سوف نستعرضها فى فصولها الخاصة . أما حالة المسلمين الخاصة والعامة فى هذا العهد ، ففى القرآن المدنى من الآيات ما يمكن اقتباس جملة صالحة من الصور لها .

وستكون مباحث هذا الفصل قاصرة من ناحية على سير وأدوار انتشار الدعوة الإسلامية بين العرب دون الكتابيين ، ومن ناحية على صور المسلمين دون المنافقين أولا ، وعلى الصور التى لا تتصل بحركة الجهاد وسير التشريع ثانيا ؛ لأن كل هذا سيأتى فى فصوله الخاصة . وهكذا تكون مباحث الفصل كما يلى :

١ — سير وأدوار انتشار الدعوة فى منطقة مكة وماوراءها

٢ — « « « « « المدنية

٣ — صور متنوعة للمسلمين فى العهد المدنى .

المبحث الأول

سير انتشار الدعوة فى منطقة مكة وما وراءها

استمرار موقف الجحود فى منطقة مكة بوجه عام إلى صلح الحديبيه ـ احتمال انضمام بعض قبائل هذه المنطقة للاسلام نتيجة لهذا الصلح ـ حوادث التحاق وإسلام فردية قبل هذا الصلح ـ انضمام الأشعريين إلى الاسلام بعد هذا الصلح ومغزاه ـ فتح مكة وتدين أهلها بالاسلام ونتائجه الحاسمة فى انتشار الدعوة فى منطقتها وما وراءها .

— ١ —

يمكن أن يقال استدلالا من أحداث العهد المدنى وما كان من عداء ونضال مستمرين بين النبي والمسلمين من جهة وأهل مكة من جهة أخرى مما احتوى القرآن المدنى إشارات عدة إليه ، إن أهل مكة ومن ظل متأثراً بموقفهم الجحودى والعدائى ـ وخاصة من كان فى منطقتهم من قرى وقبائل ـ قد ظلت أكثريتهم الساحقة جاحدة منقبضة عن الاستجابة إلى الدعوة إلى أن فتحت مكة ودانت للإسلام ، أى إلى السنة الثامنة بعد الهجرة .

يدل على هذا ما كان من تجمع قريش وحلفائها من القبائل العربية ، وزحفهم على المدينة فى السنة الهجرية الخامسة، وهو الزحف العظيم الذى عرف بوقعة الخندق أو الأحزاب ، والذى كان امتداداً لحالة الحرب القائمة بين أهل مكة والنبي صلى الله عليه وسلم ، والتى وقع بسببها اشتباكات يسيرة وكبيرة أهمها وقعتا بدر وأحد ولقد كان المكيون فى الوقعة الأخيرة فى موقف المنتصر ، فرأوا على ما يبدو أن يدعوا إلى حركة زحف كبرى يشترك فيها معهم كل من والاهم وتآمر معهم من حلفاء وأحزاب ليضربوا الضربة القاضية ؛ ودخل فى المؤامرة يهود المدينة أيضاً ؛ وقد كان عدد الجيوش الزاحفة نحو عشرة آلاف ، فى حين كان عدد المدافعين عن المدينة نحو ثلاثة آلاف ، فيهم عدد غير قليل من المنافقين الذين اشتركوا فى الدفاع والتهيؤ له بسائق العصبية والمصلحة الوطنية والقبلية المشتركة .

ولم يتبدل الموقف إجمالا بعد ارتداد الأحزاب عن المدينة بغيظهم دون أن ينالوا خيراً كما ذكرت ذلك إحدى آيات الأحزاب ؛ لأن حالة الحرب والعداء ظلت قائمة إلى مابعد سنتين تقريبا ، أى إلى أن انعقد صلح الحديبية فى أواخر السنة السادسة ؛ وهو الصلح الذى نزلت فيه سورة الفتح .

ومما يجدر التنبيه إليه أنه لم يرد فى الروايات ما يفيد أن جماعة من الناس ممن كان وراء مكة من أهل المناطق الساحلية والجنوبية والشرقية فى الجزيرة قد التحقت بالإسلام وبدار الهجرة قبل هذا الصلح ، غير أن الروايات ذكرت أن هـذا الصلح انتهى - فوق وقف حالة الحرب - إلى تخيير بعض القبائل الساكنة فى منطقة مكة فى الانضمام إلى الفريق الذي يرغبون ، وقد انضمت خزاعة إلى النبي ودخلت فى عهده وصلحه ، فى حين انضم بنو بكر إلى أهل مكة لما كان بين القبيلتين من عداء . وليس من المستبعد إن لم نقل إنه من المرجح أن تكون قبيلة خزاعة قد انضمت إلى النبي عهداً وإسلاماً .

— ٢ —

وإذا كان هذا هو حال الغالبية إلى وقت ذلك الصلح ، والذى استمر على الأرجح إلى فتح مكة ، فإن هناك آيات تدل على أنه كان يلتحق بعض الأفراد بالمدينة ؛ وينضم إلى الإسلام ، ففى سورة الأنفال مثلا الآية التالية :

« وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ... ٧٥

إذ تضمنت صراحة أن بعض العرب - والفقرة الأخيرة تلهم أنهم مكيون يمتون بالقربى إلى المهاجرين السابقين - قد التحقوا بالنبي صلى الله عليه وسلم مهاجرين مؤمنين ، وأخذوا يشتركون فى الجهاد تحت لوائه . وسورة الأنفال قد نزلت عقب غزوة بدر التى وقعت فى أواخر النصف الأول من السنة الهجرية الثانية ، مما يسوغ القول إن هذه الحركة الفردية قد بدأت مبكرة من العهد المدنى .

وفى سورة الحشر التى نزلت عقب جلاء بنى النضير الذى كان فى أواخر السنة الثالثة

وبعد قليل من وقعة أحد ، الآية التالية

« والَّذينَ جاءو مِنْ بَعْدِهِمْ يقولونَ رَبَّنا اغفِرْ لنا ولإخوٰنِنا الذين
سَبقونا بالإيمٰنِ ولا تجعَلْ فى قلوبِنا غلاً للَّذينَ ءامَنوا رَبَّنا إنَّكَ
رَءوفٌ رَحيمٌ ... ١٠

وهذه الآية جاءت بعد آيتين ذكر فى أولاهما مهاجرو قريش السابقون ، وفى ثانيتهما مسلمو المدينة السابقون أيضاً ؛ وهى وإن كانت مطلقة فإنها تحتمل أن يكون المقصود فيها أناسا من أهل المدينة وأناسا من أهل مكة أيضاً .

— ٣ —

ولقد أعقب صلح الحديبية زحف النبى على خيبر ، وهو الزحف الذى أشير إليه إشارة غامضة فى سورة الفتح، أجمع المفسرون على أنه هو المقصود بها فى هذه الآيات :

١ — سَيقولُ المُخَلَّفونَ إذا انطَلَقتُمْ إلىٰ مَغانِمَ لِتأخُذوها ذَرونا
نَتَّبِعكُمْ ... ١٥

٢ — وَعَدَكُمُ اللهُ مَغانِمَ كَثيرَةً تَأخُذونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هٰذِهِ وكَفَّ
أيْدِىَ النّاسِ عَنكُمْ ولِتَكونَ ءايَةً لِلمُؤمِنينَ ويَهدِيَكُمْ صِرٰطاً مُستَقيماً .
وأُخرَىٰ لَمْ تَقدِروا عَلَيها قَدْ أحاطَ اللهُ بِها وكانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىءٍ
قَديراً ... ٢٠ - ٢١

وقد ذكرت روايات معتبرة أن وفداً من الأشعريين اليمانيين جاء إلى المدينة بطريق البحر وأسلم فى ظروف هذا الزحف ؛ وهذا يدل على أن صلح الحديبية قد يسر لهذه الجماعة من أبناء الأنحاء القاصية طريق السير والالتحاق بالإسلام ، وليس من المستبعد إذا لم نقل إنه من المرجح أن تكون جماعات أخرى من منطقة مكة وما وراءها قد اغتنمت الفرصة وحذت هذا الحذو . وفى الروايات أن خالد بن الوليد وعمرو بن العاص رضى الله عنهما قد التحقا بالمدينة وأسلما عقب هذا الصلح .

وبعد ، نحو سنتين من هذا الصلح غزا النبي صلى الله عليه وسلم مكة وفتحها ، ودان أهلها بالإسلام ؛ فكان هذا خاتمة سعيدة لموقف الجحود والعداء الشديد المديد الذى وقفه أهل مكة ، وانهدم بها السور الكثيف الذى كان يتمثل بذلك الموقف ويحول دون انضمام الناس من منطقة مكة وماوراءها إلى الراية الإسلامية ، فلم يلبث أهل هذه المنطقة من قرى وقبائل أن تابعوهم ودانوا بالإسلام ، ولم تلبث أن أخذت وفود مختلف قبائل الجزيرة العربية فى الشرق والجنوب والشمال تفد على رسول الله فى العام التاسع الذى عرف بعام الوفود ، والذى احتوت كتب السيرة أسماء العشرات منهم ، واحتوت أخبار بعثات النبي إلى مختلف منازل هذه الوفود لتعليم القرآن وأركان الإسلام ، وجباية الزكاة وتوزيعها على الفقراء ، مما عبرت عنه سورة النصر تعبيراً قويا يدل على سعة الدائرة والشمول :

« إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا . »

بحيث يمكن أن يقال إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمت إلا وقد وصل الاسلام إلى كل ناحية من أنحاء جزيرة العرب ، ووجد فيها جماعات دانت به ، ذلك إلى أن أخباره ودعوته قد تجاوزت الجزيرة شرقا وشمالا وبحراً ، وصار مما يشغل الأفكار ، ويلفت الأنظار ، ويسترعى الأسماع ، وإلى أن أفراداً وجماعات من سكان بلاد الشام ومشارفها ، بل من أهل الحبشة ، قد دانت به فعلا على ماذكرته الروايات المتعددة .

المبحث الثانى

انتشار الدعوة فى منطقة المدينة

مدى انتشار الاسلام فى المدينة قبل الهجرة النبوية ـ المنافقون منضمون إلى الاسلام من الوجهة النظرية والظاهرية ـ موقف قبائل منطقة المدينة الجحودى والعدائى إلى ما بعد وقعة الخندق ـ انضمام بعض القبائل بعدها إلى الاسلام ـ تكاثر المنضمين من القبائل قبل الفتح المكى ـ تزايد الانضمام بعد الفتح وشمول الاسلام

— ١ —

لقد ذكرت الروايات المعتبرة أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يهاجر إلى المدينة إلا والإسلام قد فشا فيها حتى ما يكاد يخلو بيت منه ، نتيجة لمبايعة فريق كبير من زعماء الأوس والخزرج معاً للنبى ، وإرسال النبى معلماً وقارئاً وداعياً قبله ، وهجرة أكثر المسلمين قبل كذلك .

ولعل آية الحشر (٩) التى نقلناها فى تمهيد القسم الثانى تدعم تلك الروايات بوجه الإجمال ؛ لأنها تنطوى على إلهام بكثرة المثنى عليهم من الأنصار ، بل على إلهام الشمول فى جملة « تبوءوا الدار والإيمان »

ومع أنه مما لا يمكن إغفاله أنه كان فى المدينة فئة من المنافقين ، وأنه كان مندمجاً فيها فريق غير قليل من أهلها ، بل زعمائها أيضاً ، وأن حركة النفاق كانت قوية مزعجة فى مبادئ العهد وظلت كذلك إلى أوائل النصف الثانى منه ، وأن القرآن كثيراً ما وصفهم بالكفر وحكى مواقفهم الكيدية والساخرة والكافرة الخ مما سوف نشرحه فى فصلهم الخاص ـ فإن هذه الفئة من الوجهة النظرية والمظهرية تعتبر منضوية إلى الإسلام أيضا ؛ لأنها كانت تعلن الإسلام ، وتؤكد إيمانها بالله والرسول ، وتنكر كفرها ، وتصلى وتصوم ، وتشترك فى الحركات الجهادية ، وتؤدى الزكاة الخ ما حكاه القرآن عنها أيضاً ولو فى معرض التنديد والتكذيب .

فهذا وذاك يسوغان القول إن عرب المدينة قد دانوا بالإسلام جميعهم على تفاوت السرائر منذ عهد مبكر من الهجرة النبوية .

— ٢ —

أما من حول المدينة من القبائل فإن عدم ذكر الروايات خبر اشتراك أحد منهم في الوقائع الحربية التي وقعت في السنوات الخمس الأولى من الهجرة النبوية إلى جانب المسلمين، يدل على أنه لم يكن قد انضوى إلى الإسلام منهم أحد إلى السنة المذكورة. وإذا لاحظنا أن وقعة الخندق خاصة كانت زحفاً عظيما متحالفاً، وأن خبره قد وصل قبل قدومه بمدة ما تمكن المسلمون فيها من حفر الخندق حول المدينة، لم يعد ثمة محل لورود أي احتمال آخر، لأنه لو كان هناك مسلمون بمقياس واسع في القبائل المجاورة لكان النبي صلى الله عليه وسلم استنفرهم إلى شد أزر المدينة في دفع الكارثة التي كادت تعصف بها وبالإسلام، والتي وصفتها ووصفت أثرها الشديد بعض آيات الأحزاب وصفاً قويا كما ترى فيما يلي :

« إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا. هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ... ١٠ - ١١

هذا إلى ما احتوته روايات السيرة المعتبرة من أخبار عدد غير يسير من غزوات النبي صلى الله عليه وسلم وسراياه ضد قبائل العرب النازلة حول المدينة أو في منطقة حدودها، مما يدل على وقوف هذه القبائل موقف البغي والعداء من المسلمين والحركة الإسلامية.

وكلامنا منصب على الالتحاق الجمعي بالإسلام، ولا ننفي الالتحاق الفردي به من القبائل والقرى المجاورة للمدينة، بل نحن نرجح أن مثل هذا الالتحاق قد أخذ يقع منذ الهجرة النبوية؛ أما بعد وقعة الخندق فالقرآن يلهمنا أن الحال قد تبدل؛ في سورة الفتح التي نزلت كما قلنا عقب صلح الحديبية واحتوت بعض وقائع الرحلة والصلح، وردت الآيات التالية :

١ — سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم

مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ... ١١ - ١٢

٢ - سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا . قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ... ١٥ - ١٦

فهذه الآيات تدل بصراحة على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد دعا أعراباً لمرافقته فى زيارة الكعبة التى اعتزمها والتى انتهت بعقد صلح الحديبية ، وأنهم تخوفوا أن تكون مشاكل واشتباكات بينه وبين أهل مكة ، وأن تدور الدائرة على المسلمين ، فتهربوا وتخلفوا ثم جاؤوا يعتذرون إلى النبى صلى الله عليه وسلم بعد عودته موفقاً وقد اعترف به أهل مكة وتفادوا الاشتباك معه .

وقد قال بعض كتاب السيرة الحديثين[1] إن هؤلاء الأعراب المتخلفين لم يكونوا مسلمين ، وإنما كانوا مسالمين أو موالين ، دعاهم النبي ليشهد على براءة قصده فى الزيارة ، وعدم تبييته أى نية للقتال ، وقدومه فى زيارة دينية موسمية عامة يشترك فيها عادة جميع العرب على اختلاف أديانهم ومنازلهم .. ولكن الكاتب لم ينتبه على ما يبدو إلى القرائن الحاسمة فى الآيات ؛ إذ تضمنت الآية (١١) طلب الأعراب استغفار النبى صلى الله عليه وسلم لهم ، مما لا يمكن أن يكون إلا من مسلمين ، وإذ تضمنت الآية (١٦) أن الله يريد أن يختبرهم فى موقف آخر يقاتلون فيه أعداء أقوياء حتى يدينوا بالإسلام ،

(١) الدكتور هيكل فى كتابه « حياة محمد » .

ولا يمكن أن يدعى إلى مثل هذا الموقف إلا مسلمون ، ولقد روى الرواة والمفسرون أن هؤلاء الأعراب قبائل عدة كانت حول المدينة ودانت بالإسلام ، وهي قبائل غفار ومزينة وجهينة وأشجع والنخع وأسلم .

وقد قلنا إن رحلة النبي صلى الله عليه وسلم إلى زيارة الكعبة قد كانت فى أواخر السنة الهجرية السادسة ، ومعنى هذا أن هؤلاء الأعراب الذين ذكرتهم آيات الفتح قد دانوا بالإسلام قبل هذه الرحلة حتما .

— ٣ —

والروايات المعتبرة تذكر أن جيش الفتح النبوى لمكة قد بلغ نحو عشرة آلاف ، وأنه كان فيه كثير من فصائل البدو المسلمين ، كأسلم ومزينة وغفار وتميم وقيس وأسد ، إلى جانب المهاجرين والأنصار سكان المدينة . والعدد معقول كما هو المتبادر ، فأهل مكة حينما زحفوا على المدينة فى وقعة الخندق كانوا مع حلفائهم وأحزابهم فى مثل هذا العدد ؛ وقد ظل أهل مكة والطائف وجل القبائل النازلة فى منطقتيهما فى موقف الجحود والعداء للنبي والإسلام ، كما أن الحلف ظل قائما بينهم ، بدليل تجمع ثقيف وهوازن فى ظروف الفتح لنصرة أهل مكة ، ولو أنهم تأخروا أو لم يتمكنوا على ما سوف نذكره فى فصل الجهاد ، فلا يعقل أن يزحف النبي صلى الله عليه وسلم على مكة أم القرى ومحور العرب إلا بعدد ضخم يضمن به النصر .

وهكذا يبدو أن أكثر القبائل التى كانت حول المدينة قد دانت بالإسلام قبل الفتح المكى . وقد احتطنا فى التعميم لأن هناك آيات تلهم أنه كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبعض القبائل مواثيق صلح مما لا يكون إلا مع غير المسلمين ، وأنه كان منهم أناس حياديون ، إلى آخرين كانوا أعداء محاربين ولأننا لم نستطع أن نجزم بوقت معين لهذا الموقف الذي ذكرته الآيات ؛ وهذه هى :

« إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ

فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا . سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ...

النساء ٩٠ - ٩١

وقد قال الرواة أن المعنيين فى الآية الأولى هم بنو أسلم وفريق من بنى مدلج ، وفى الآية الثانية هم أسد وغطفان أو فريق منهم ؛ كذلك ذكرت الروايات أن غطفان كانوا غير مسلمين ، وأنهم حاولوا أن ينصروا أهل خيبر حلفاءهم حينما زحف النبى صلى الله عليه وسلم على خيبر .

وفى سورة التوبة آيات قد تلهم ما تلهم آيات النساء هذه مع إيضاح للوقت أكثر ، وهذه هى :

« بَرَاءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ . فَسِيحُوا فِى الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِى الْكَٰفِرِينَ . وَأَذَٰنٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . إِلَّا الَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ...

١ - ٤

إذ تلهم بصراحة أنه كان هناك مشركون معاهدون إلى ما بعد الفتح المكى ، منهم من ظل وفيا لعهده ، ومنهم من بدا منه الغدر فاستحق إعلان البراءة منه مع إعطائه مهلة أربعة أشهر هى الأشهر الحرم ؛ لأن البراءة قد أعلنت من قبل أمير الحج أو رسول

النبي الخاص - على اختلاف الروايات - يوم الحج الأكبر، وهو ماتلهمه الآيات نفسها، والاستثناء تابع للكلام السابق كما هو ظاهر، وكل ما فى الأمر أنه ليس من الممكن بالإلهام القرآنى تعيين هوية هؤلاء المعاهدين الغادرين والموفين، وإن كنا نرجح أنهم من قبائل منطقة المدينة، لأن القبيلة المشركة التى دخلت فى عهد أهل مكة فى صلح الحديبية وهى بنو بكر قد نقضت العهد مع بنى خزاعة حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم مما كان سببا مباشرا لغزو مكة وفتحها؛ فلا يحتمل أن تدخل فى شمول الآيات، كما أنه لم يرو فيما نعرف أنه كان بين النبي ومشركى مكة ومنطقتها وقبائلها عهد غير عهد الحديبية.

— ٥ —

وفى سورة التوبة آيات مما نزل فى ظروف غزوة تبوك - التى كانت بعد الفتح المكى بنحو سنة - تذكر الأعراب المسلمين الذين هم فى منطقة المدينة فى صيغة التعميم كما ترى فيها:

١ — وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ... ٩٠

٢ — وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ... ٩٨ - ٩٩

٣ — وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ... ١٠١

٤ — مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ... ١٢٠

وأسلوب الآيات يلهم أن الإسلام قبيل هذه الغزوة كان قد عم جميع الأعراب فى منطقة المدينة، بغض النظر عن نفاق بعضهم فى إسلامه.

المبحث الثالث

صور متنوعة للمسلمين فى العهد المدنى

تفاوت صور المسلمين فى العهد المدنى وتعليله ـ تصنيف القرآن للمسلمين وطبقاتهم ـ تقسيمهم إلى صنفين ـ صور للصنف الأول : من سور البقرة وآل عمران والمائدة والتوبة والأحزاب والفتح والحديد والمزمل ـ صور للصنف الثانى : من سور البقرة وآل عمران والنساء والتوبة ومحمد والحجرات والحديد والمجادلة والممتحنة والجمعة والتغابن ـ غنى المسلمين وفقرهم فى العهد المدنى ـ إشارات تذكيرية إلى صور متنوعة أخرى فى المباحث الأخرى .

ـ ١ ـ

إن الصور التى يمكن اقتباسها من الآيات المدنية للمسلمين فى العهد المدنى متفاوتة أيضا كالصور المقتبسة لهم فى العهد المكى ، وهو تفاوت متسق مع طبائع البشر ، غير أن الصور المدنية أكثر عدداً وتفاوتاً وتنوعاً ، وهذا متصل بطبيعة العهد المدنى الذى اتسع فيه نطاق الإسلام مساحة وعدداً ، وتنوعت فيه الفئات والطبقات من جهة ، والأحداث والمشاكل والرغبات من جهة أخرى .

ولقد صنف القرآن المسلمين فى آيات من سورة التوبة نزلت فى سياق غزوة تبوك ، أى فى السنة الهجرية التاسعة ، تصنيفاً يعبر من دون ريب عن حالة المسلمين وتفاوتهم فى الإيمان والأخلاق فى أواخر العهد النبوى ؛ وهذه هى :

١ ـ وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم
بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا
الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ... ١٠٠

٢ ـ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا
عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ
عَذَابٍ عَظِيمٍ ... ١٠١

٣ — وءاخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صلحا وءاخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم ... ١٠٢

٤ — وءاخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم ... ١٠٦

إذ يستفاد منها أن المسلمين كانوا مؤلفين من هذه الطبقات :

١ — المهاجرين الأولين .

٢ — الأنصار الأولين .

وهاتان الطبقتان كانتا وظلتا مخلصتين كل الإخلاص لله والرسول والإسلام، وفانية فيهم كل الفناء، وقائمة بواجباتها كل القيام، فاستحقوا الوصف العظيم المندمج فى جملة « رضى الله عنهم ورضوا عنه » .

٣ - الذين أسلموا بعد الهجرة النبوية ، وحسن إسلامهم وساروا على قدم السابقين المهاجرين والأنصار فى الإخلاص والفناء والقيام بالواجب ، ودخلوا فى شمول ذلك الوصف العظيم أيضاً .

٤ - منافقين من أهل المدينة والأعراب متكتمين غير ظاهرى الأمر كما هو شأن المنافقين المشهور أمرهم . والآية تلهم أن النبى لم يكن يجهل سيرة هذا الفريق وسريرته ، ولعل آيات سورة محمد هذه :

« أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغنهم . ولو نشاء لأرينكهم فلعرفتهم بسيمهم ولتعرفنهم فى لحن القول والله يعلم أعملكم ... ٢٩ - ٣٠

مما يمكن أن يكون وصفاً لهذه الفئة وقرينة على أن النبى كان يعرفهم من أقوالهم وتصرفهم .

٥ - فريق كانوا يخلطون عملا صالحاً وآخر سيئاً مع إخلاصهم للإسلام .

٦ - فريق كان أمرهم غامضاً فى نظر الجمهور ، ولعل أعمالهم وأقوالهم ومظاهرهم كانت متناقضة تدعو إلى الحيرة والتساهل ، ويبدو أنهم كانوا يتظاهرون بالإخلاص ،

كما يبدو أن أمرهم لم يكن خافياً على النبي صلى الله عليه وسلم ولكنه كان يؤمل غلبة النية الحسنة على السيئة عندهم، أو كان لا يريد أن يجبههم لأنه لم يكن يرى فيهم ضرراً أو بأساً.

والصور التي احتوتها الآيات متصلة بهذا التفاوت والتصنيف، وسنحاول بقدر الإمكان عرضها مصنفة إلى صنفين: أحدهما خاص بالطبقات الثلاث الأولى، وثانيهما خاص بالطبقات الثلاث الأخرى.

- ٢ -

فأولا صور عن الصنف الأول.

١ - في سورة البقرة الآيات التالية:

« الٓمٓ . ذَٰلِكَ الْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ... ١ - ٥

فقد احتوت صورة مشرقة للمؤمنين المخلصين، وعمق إيمانهم، وشعورهم بواجباتهم؛ وهذه الصورة من الصور الواردة في القرآن المكي، ومع أنها وصف عام محبب لمن يتصف بهذه الصفات فإننا نعتقد أنها صورة واقعية للصنف الأول من المسلمين في العهد النبوي المدني.

٢ - وفي السورة نفسها الآيات التالية:

« وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَٰلِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ الصَّٰبِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ . أُولَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ... ١٥٥ - ١٥٧

وقد تضمنت وصفاً محبباً وثناء عظيماً على الفئة المؤمنة المخلصة التي تلقى ما يحل

ا في سبيل الله بالرضاء والصبر والتسليم ؛ ومع أنها وصف عام فإننا نعتقد كذلك أنها صورة واقعية للصنف الأول من المسلمين في ذلك العهد .

٣ - وفي السورة نفسها الآية التالية :

« ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ واللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ... ٢٠٧

وقد تضمنت صورة واقعية لفئة مخلصة تبيع نفسها في سبيل مرضاة الله ؛ وهي كذلك بطبيعة الحال من الصنف الأول للمسلمين في ذلك العهد .

٤ - وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ولا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ ... ٢٧٣ - ٢٧٤

وقد احتوت الآية الأولى صورة لفريق من المسلمين وهبوا كل أوقاتهم وأنفسهم لله : عبادة وجهاداً ومرابطة ، وشغلهم هذا عن طلب الرزق والسعي إليه ، ومع فقرهم وشدة حاجتهم لم يطلبوا من أحد معونة ، وتعففوا حتى ليظنهم الجاهل أغنياء ؛ واحتوت الآية الثانية صورة أخرى لفريق من المسلمين أغنياء ينفقون أموالهم في الليل والنهار ، في السر والعلانية .

وكلتا الصورتين مشرقتان باهرتا السناء ، تدلان على قوة إيمان وشدة رغبة فيما عندالله ؛ فهما من صور الصنف الأول في ذلك العهد .

٥ - وفي سورة آل عمران الآيات التالية :

« وسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَٰوَاتُ والأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ والكَٰظِمِينَ الغَيْظَ

والعَافِينَ عَنِ النَّاسِ واللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ . والَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَٰمِلِينَ ...

١٣٣ - ١٣٦

ومع أن الآيات بسبيل بيان أجر المتقين وصفاتهم وأخلاقهم فإن روحها تلهم أنها تنطوى على صورة واقعية للفئة المخلصة ؛ وقد احتوت وصفاً باهرا لأخلاقهم وصفاتهم وتفانيهم فى الله رغبة ورهبة .

٦ - وفى السورة نفسها الآيات التالية :

« إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِى الْأَلْبَٰبِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ . رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ . فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللهِ وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ...

١٩٠ - ١٩٥

والآية الأخيرة قرينة حاسمة على أن هذه المناجاة الخاشعة الدالة على عمق الإيمان والخشية من الله ، مما كان يصدر مثله من الفئة المخلصة التي تحملت عظيم التضحيات ، وصبرت أجمل الصبر على ما نالها من أذى ، وقاتلت في سبيل الله ؛ والصورة مشرقة كل الإشراق ، سفية كل السناء كما هو واضح .

٧ وفي سورة المائده الآيات التالية :

« إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ . وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَٰلِبُونَ ... ٥٥ - ٥٦

وقد احتوت دعوة لبعض المسلمين لتولي الله ورسوله والمخلصين من المؤمنين فإنهم حزب الله الغالب المنصور ، كما احتوت وصفاً لقيامهم بواجباتهم الإسلامية أحسن قيام . وهذه الآيات تدعم التقسيم الذي قسمناه ، وتدل على أنه كان هناك طبقتان ، إذ تدعو الطبقة الثانية إلى التأسي بالطبقة الأولى التي نوهت بإخلاصها وإيمانها

٨ - وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَٰتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ . لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ... ٨٧ - ٨٩

وقد جاءت هذه الآيات عقب الآيات ٨٢-٨٦ التي نقلناها في مناسبة سابقة والتي فيها وصف أخاذ لخشوع فريق من النصارى وإيمانهم وتصديقهم وثناء عليهم ومنهم القسيسون والرهبان .

وقد روى المفسرون والرواة أن الآيات نزلت بمناسبة اتفاق فريق من كبار الصحابة على الزهد والتنسك وتحريم الاستمتاع بطيب المآكل والمشارب واللذائذ الأخرى، والسياحة فى الأرض والانقطاع للعبادة، وأن النبي قد بلغه ذلك فكرهه ولم تلبث أن نزلت الآيات. وورود الآيات عقب الآيات التى فيها وصف مشهد القسيسين والرهبان والثناء عليهم يدعم صحة الرواية؛ إذ يتبادر أن الذين عزموا العزيمة التى ذكرتها الرواية قد تأثروا بذلك الثناء على تلك الطبقة التى كان أفرادها أو كثيرون منهم منقطعين للعبادة فى الصوامع والأديار المنعزلة، زاهدين فى لذائذ الحياة، وأطايب المتع؛ ولما لم يكن مما استهدفه الإسلام إيجاد طبقة مثلها فى مجتمعه الذى أحلت له الطيبات وحرمت عليه الخبائث ورفع عنه الإصر والتكاليف السابقة اتساقاً مع طبيعة الحياة ونواميسها - حظرت الآيات ذلك.

وعلى كل حال فالصورة التى تضمنتها الآيات والرواية الواردة فى سبب نزولها طريفة حقا، وتدل على ما كان من استعداد الفئة المخلصة للانصراف عن الطيبات واللذائذ ابتغاء مرضاة الله، وبالتالى تدل على تفانيها فى الله ومرضاته ودينه.

٩ - فى سورة التوبة الآية التالية:

« وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَـٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... ٧١

وقد جاءت مقابلة لوصف ما كان من تعاون المنافقين والمنافقات على الإثم والعدوان؛ وفيها على كل حال صورة قوية لما كان عليه المؤمنون المخلصون من أخلاق حميدة، وتضامن قوى، وقيام بالواجبات الإسلامية من تعبدية ومالية واجتماعية. ويلفت النظر خاصة إلى ذكر المؤمنات إلى جانب المؤمنين فى الآية، فإن ذلك يلهم قصد التنويه بالمؤمنات خاصة، وما كان لهن من أثر ودور إيجابيين فى الدعوة والسيرة النبويتين فى العهد المدنى كما كان الحال فى العهد المكى أيضاً.

١٠ - وفى السورة نفسها الآية التالية:

« لَـٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَـٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ

وأولٰئك لهم الخيرٰت وأولٰئك هم المفلحون ... ٨٨

وهذه الآية جاءت كتلك : مقابلة لوصف ما كان من تخلف المنافقين عن الجهاد وختالهم وتثبيطهم ؛ وفيها على كل حال صورة قوية لما كان من إقبال المؤمنين المخلصين على الجهاد بالمال والنفس .

١١ - وفى السورة نفسها الآية التالية :

« يٰأيها الذين ءامنوا اتقوا الله وكونوا مع الصٰدقين ... ١١٩ »

وقد وردت فى سلسلة تعقيبية على وقائع غزوة تبوك احتوت إشارات إلى ما كان من صعوبة الحال حيث كاد يزيغ قلوب فريق من المؤمنين ، وجاء بعدها آيات تنبه المسلمين من أهل المدينة والأعراب إلى أنه لا يصح أن يتخلف أحد منهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فهذا وذاك يلهمان أن الآية موجهة إلى عامة المسلمين ، وأن القصد من الصادقين هو السابقون الاولون من الانصار والمهاجرين والذين اتبعوهم بإحسان ؛ وهكذا تصف الآية الصنف الأول بهذا الوصف الذى يندمج فيه معان عدة كالصدق والإخلاص والتفانى فى الواجب من جهة ؛ وتدعو عامة المسلمين ، وبالأحرى الصنف الثانى ، إلى اتخاذهم أسوة وقدوة ؛ وفى ذلك إقرار لمكانتهم عند الله ورسوله ، وتوكيد لمعنى التصنيف الذى احتوته الآيات التى نقلناها فى مطلع المبحث . ولقد أثر عن النبى صلى الله عليه وسلم حديث مفاده : « لا تسبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ من أحدهم مده ولا نصيفه » والخطاب موجه إلى المسلمين السامعين ، وهذا يعنى أن المقصود من أصحابه فى الحديث هو المقصود من الصادقين فى الآية ، وهم الصنف الأول من المسلمين حسب تصنيفنا المستلهم من تصنيف القرآن على ما هو المتبادر .

١٢ - وفى سورة الأحزاب الآيات التالية :

« إن المسلمين والمسلمٰت والمؤمنين والمؤمنٰت والقٰنتين والقٰنتٰت والصٰدقين والصٰدقٰت والصٰبرين والصٰبرٰت والخٰشعين والخٰشعٰت والمتصدقين والمتصدقٰت والصٰئمين والصٰئمٰت والحٰفظين

فُرُوجَهُمْ وَالْحَـٰفِظَـٰتِ وَالذَّٰكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ...
٣٥

وقد احتوت تنويهاً عظيما بالمخلصين من المسلمين رجالا ونساء ؛ وهى وإن كانت تنويه بكل من يتصف بهذه الصفات فمالا شك فيه أنها تنطوى على تنويه بطبقة كانت متصفة بها من المسلمين فعلا حين نزولها، وهى الصنف الأول منهم على ماهو المتبادر.

ويلفت النظر خاصة إلى ذكر النساء إلى جانب الرجال فى جميع الصفات، وما فى ذلك من قصد تنويهى صريح بالمسلمات المخلصات، ثم مافى هذا من دلالة على أن من المسلمات من كن من الصنف الأول، وعلى ماكان للمرأة المسلمة المخلصة من دور إيجابى استحق هذا التنويه الصريح أيضاً.

١٣ – وفى السورة نفسها الآية التالية:

« مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَـٰهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ...
٢٣

وقد احتوت دلالة صريحة على أن المسلمين كانوا طبقات، وتنويهاً قويا بأخلاق وثبات الطبقة المخلصة الصادقة منهم، وصورة مشرقة من صورها.

١٤ – وفى سورة الفتح الآية التالية:

« مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ...
٢٩

وقوة الثناء والتنويه ملموسة فى الآية، كما أن الصفات التى وصف بها النبى والذين

معه قوية فى صدد تفانيهم فى الله ورضائه وطاعته ، وفى صدد رأفتهم ورحمتهم بالمؤمنين وشدتهم على الكفار ؛ ونعتقد أن المقصود منهم الصنف الأول من المسلمين ، وقد احتوت الآية صورة وضاءة لهم كما هو ظاهر .

١٥ - وفى سورة الحديد الآيات التالية :

« إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ... ١٨ - ١٩

والآيات وإن كانت بسبيل التنويه بالمتصفين بالصفات المذكورة فيها ، فإن روحها تلهم أن فيها صورة مشرقة لفئة كانت متصفة فعلا بها استحقت بسبب ذلك هذه المرتبة العالية ، وهى من الصنف الأول على ماهو المتبادر .

١٦ - فى سورة المزمل الآية التالية :

« إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ الَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ... ٢٠

والآية مدنية على ما عليه جمهور الرواة والمفسرين ، وطابعها المدنى بارز ؛ وقد احتوت صورة مشرقة لما كان من استغراق النبي صلى الله عليه وسلم والطبقة الملازمة له الفانية فيه - فى عبادتهم وتهجدهم مهما نالهم فى ذلك من المشقة ، حتى لقد شاءت حكمة الله أن يخفف عنهم بهذا الأسلوب المحبب الذى انطوى على تنويه عظيم أيضاً .

- ٣ -

وثانياً : صور للصنف الثانى .

١ - فى سورة البقرة الآيات التالية :

« أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ . وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ... ١٠٧ - ١٠٩

وتلهم أن بعض المسلمين كانوا يسألون النبى صلى الله عليه وسلم أحياناً أسئلة تعجيزية ، أو نامة على شىء من التشكيك فى بعض الأمور الغيبية ؛ والآيات من سلسلة فى حق اليهود ودسائسهم ، وفى هذا دلالة على أن هذه الدسائس كانت تجد أذناً فى بعض المسلمين فتدفعهم إلى بعض المواقف التى تستوجب العتاب ؛ وطبيعى أن هذا إنما يكون من الصنف الثانى من المسلمين ؛ لأن الصنف الأول قد وصف بصفات تدل على إيمانهم القوى التام بالغيب ، وخشيتهم الشديدة من الله ، وتوقيرهم العظيم للنبى ، ومعرفتهم حدودهم ..

٢ - وفى السورة نفسها الآيات التالية :

١ - يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَـٰتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَـٰفِرِينَ ... ٢٦٤

٢ - يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ . الشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ

ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله وٰسع عليم ...

٢٦٧ - ٢٦٨

فهذه الآيات وإن كانت فى معرض وعظ وتعليم عامين فإن روحها تلهم أن بعض المسلمين كانوا يمنون على الذين يتصدقون عليهم ويسمعونهم ما يؤذى ، كما أن بعضهم كان يتصدق بالردىء من الغلة الذى لا يكاد ينفع أحداً ؛ وقد ذكرت الروايات فى سياقها ما يدل على صحة هذا الاستلهام .

٣ - وفى السورة نفسها الآيات التالية :

« يٰأيها الذين ءامنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربوٰا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموٰلكم لا تظلمون ولا تظلمون ... ٢٧٨ - ٢٧٩

وهذه مثل تلك بسبيل الوعظ والتعليم ، وتلهم فى الوقت نفسه بقوة ووضوح أكثر ، أن بعض المسلمين كانوا يتعاطون الربا وكانوا متمسكين به إلى درجة أن اقتضت الحكمة إنذارهم هذا الإنذار القاصم .

وإذا لوحظ أنه قد تقدم هذه الآيات آيات حمل فيها على الربا حملة شديدة ، وسفه فيها قول القائلين إنه كالبيع ، وضحت الصورة أكثر ، ودلت على أن بعض المسلمين ظلوا مستمسكين بربام على رغم الحملة التى يرجح أنها جاءت متقدمة فترة ما على هذه الآيات :

ولقد جاء فى سورة آل عمران نهى مشدد آخر عن الربا كما ترى :

« يٰأيها الذين ءامنوا لا تأكلوا الربوٰا أضعٰفا مضٰعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون . واتقوا النار التى أعدت للكٰفرين . وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ... ١٣٠ - ١٣٢

وسواء أكانت هذه الآيات أسبق نزولا أو تلك - لأن الروايات فى ذلك مختلفة - فإن تكرار النهى يدل على ما كان من رسوخ العادة وشدة الاستمساك بها على رغم

النهى ؛ وهذا لا يمكن أن يكون من الصنف الأول كما هو المتبادر .

٤ ـ وفى سورة آل عمران الآيات التالية :

« لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فى شَىْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَـٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ . قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَافى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَافى السَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فى الْأَرْضِ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ . قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ... ٢٨ - ٣١

والآية الأولى أول مانزل فى النهى عن اتخاذ الكافرين أولياء على الأرجح ، وفيها إنذار لمن يفعل ذلك ؛ وقد احتوت تسويغا لمداراتهم ، مما يلهم أن النهى فى صدد اليهود من حيث الواقع المباشر ، ثم أعقبها تنبيه وإنذار يلهمان أن من المسلمين من كان يرى الاستمرار فى موالاتهم أو كان مستمراً فعلا فى ذلك .

٥ ـ وفى السورة نفسها الآيات التالية :

« يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَـٰتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ . هَـٰأَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَـٰبِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا

وإنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شيئًا إنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ..

١١٨ - ١٢٠

وفى الآيات نهى آخر عن اتخاذ اليهود أولياء وبطانة وإطلاعهم على أسرار المسلمين ، مما يلهم أن من المسلمين من كان شديد الصلة والاندماج فيهم ؛ وتفصيل ما عليه اليهود من عداء كامن للمسلمين وبغضاء شديدة وتربص سوء بهم ، يدل على تلك الشدة فى الصلة والاندماج ؛ إذ توخى به حملهم على الارعواء عما هم متورطون فيه من خطة ضارة كل الضرر ، مناقضة لواجب كرامة النفس وحفظ الكيان .

والراجح أن اليهود كانوا يستغلون هذا الاندماج والصلة فى الدس والتشكيك . وتكرار النهى بهذا الأسلوب يدل على عدم الارعواء والاستجابة للنهى الأول ؛ ولا يمكن أن يصدر كل هذا من الصنف الأول كما هو المتبادر .

٦ - وفى سورة النساء الآية التالية أيضا :

« يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ... ١٤٤

والآية من سلسلة فيها حملة على المنافقين باسمهم الصريح لاتخاذهم الكافرين أولياء ، وروح السلسلة تلهم أن المقصود مباشرة هم اليهود ؛ وروح الآية تلهم أنه كان من المسلمين غير المنافقين من ظل يتمسك بولائه لليهود مع ما كان من نهى متكرر ، وهذا مما يدعم ما قلناه آنفا :

٧ - وفى سورة النساء الآية التالية :

« إنَّ الَّذِينَ تَوَفَّـٰهُمُ الْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِى أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فى الأَرْضِ قالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فأُولَـٰئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وسَاءَتْ مَصِيرًا ... ٩٧

وتدل على أنه كان هناك فريق من المسلمين استكانوا وبقوا فى مكة ولم يهاجروا وانتحلوا الأعذار الواهية ؛ وننبه إلى أن الآية التى تلت هذه الآية أشارت إلى فريق آخر مستضعف حقا ، وعذرته ، وفى سورة الأنفال آية أخرى تذكر طبقة المتخلفين

عن الهجرة بأسلوب فيه شيء من الملامة ، وإن لم يبلغ من القوة فى ذلك مبلغ آية النساء ؛ وهى هذه :

« إنَّ الَّذِينَ ءامَنُوا وهَاجَرُوا وجَـٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ فى سَبِيلِ اللهِ والَّذِينَ ءاوَوْا وَّنَصَرُوا أُولَـٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ والَّذِينَ ءامَنُوا ولَمْ يُهَاجِرُوا مالَكُمْ مِّنْ وَلَـٰيَتِهِم مِّنْ شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وإنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فى الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ...

٧٢

وسورة الأنفال نزلت قبل النساء ؛ وعلى هذا تكون آية الأنفال إنذارا أوليا للمتخلفين ، فلما ظل بعضهم متخلفا استحق اللوم والإنذار العنيفين .

٨ - وفى سورة النساء الآيات التالية :

١ — إنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَـٰبَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَٰكَ اللهُ ولا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً . واسْتَغْفِرِ اللهَ إنَّ اللهَ كانَ غَفُورًا رَّحِيماً . ولا تُجَـٰدِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ خَوَّانًا أَثِيمًا . يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ ولا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وهُوَ مَعَهُمْ إذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وكانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا . هَـٰأَنْتُمْ هَـٰؤُلاءِ جَـٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا فَمَنْ يُجَـٰدِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ أَم مَّنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ...

١٠٥ - ١٠٩

٢ — ومَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وإِثْمًا مُّبِينًا . ولَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ ورَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ ومَا يُضِلُّونَ إلَّا أَنْفُسَهُمْ ومَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَىْءٍ وأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَـٰبَ والْحِكْمَةَ وعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وكانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ...

١١٢ - ١١٣

وهذه الآيات تضمنت إشارة إلى حادثة أكدت الروايات صورتها ؛ إذ روى أنها نزلت فى قصة درع لمسلم سرقها مسلم آخر اسمه طعمة وأودعها عند يهودى ، وأن أصحاب الدرع تعقبوا الأثر وسألوا طعمة فأنكرها ، ثم وجدوها عند اليهودى فأخبرهم أنها وديعة طعمة ، فرفعوا الأمر للنبى صلى الله عليه وسلم ، فجاء طعمه مع أهله يؤكدون بسائق العصبية العائلية عدم سرقة صاحبهم وأن اليهودى هو السارق حتى كادوا يقنعونه ويحكم بقطع يد اليهودى ، ثم لم تلبث أن ظهرت براءة اليهودى وذنب طعمة وتضليل أهله . وهكذا تكون الآيات مع الروايات قد انطوت على شىء مما كان يقع من بعض المسلمين الذين لاشك فى أنهم من الصنف الثانى .

٩ - وفى سورة النساء أيضا الآية التالية :

« وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى الْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَٰفِقِينَ وَالْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ...

١٤٠

والآية تلهم أن بعض المسلمين كانوا يترددون على مجالس وحلقات المنافقين ، ويغضون عما يسمعونه من هزء بآيات الله ونقد لها ؛ ويبدو أن صلة المسلمين غير المنافقين بالمنافقين كانت مما لامناص منه ، لأنها ناشئة عن أوشاج القربى وضرورات المصلحة ، بدليل أن الآية إنما نبهت على عدم الاندماج فى جلسة فيها هزؤ وكفر ، وطبيعى أن هذا الاتصال ظل مستمرا طيلة العهد المدنى ، وذلك ماتلهمه الآيات القرآنية العدة فى مختلف أدوار التنزيل ، وفى هذا وذاك صور لما كانت عليه الحال لبعض المسلمين كما هو واضح .

ومهما يكن من أمر فمما لاشك فيه أن التردد على حلقات ومجالس المنافقين والسكوت على هزؤهم بالله ورسوله لايمكن أن يصدر عن الصنف الأول .

١٠ - وفى سورة التوبة الآيات التالية .

« يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِن

اسْتَحَبُّوا الكُفْرَ عَلَى الإِيمَـٰنِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّـٰلِمُونَ . قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَ ٰنُكُمْ وَأَزْوَ ٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَ ٰلٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِىَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِى القَوْمَ الفَـٰسِقِينَ ... ٢٣ - ٢٤

وروح الآيات تلهم أن أثر العصبية العائلية ظل قويا فى نفوس بعض المسلمين إزاء ذوى قرباهم من الكفار حتى وقت متأخر من العهد المدنى ، لأن هذه الآيات نزلت على الراجح بين يدى الفتح المكى ، وأن هذا كان يؤثر أثراً سلبياً وضاراً فى مواقف المسلمين والحركة الإسلامية ؛ وفى هذا صورة لما كانت عليه حال بعض المسلمين . وهذا التحذير مسبوق بتحذير آخر بأسلوب آخر فى سورة المجادلة التى نزلت قبل هذه الآيات ، مما يدل على أن الأثر السلبي الضار المذكور كان محسوساً منذ العهد الباكر ؛ وهذه آية المجادلة :

« لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَ ٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَـٰئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَـٰئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ المُفْلِحُونَ ... ٢٢

والآية إلى ما قلناه تدل على أن النهى الوارد فى آيات التوبة موجه إلى الصنف الثانى من المسلمين كما هو واضح ، إذ تنكر أن يواد المخلصون الكفار بأى حال ؛ هذا إلى ما فيها من صورة مشرقة للصنف الأول فى موضوع كان راسخاً عميق الجذور فى نفسية المجتمع العربى وحياته ، إذ استطاعت هذه الفئة أن تتفلت من أثر ذلك وأن تفنى فى الله ورسوله ودينه فناء تاما .

ولقد كانت صلات القربى وعصبيتها القائمة بين المسلمين والكفار والمنافقين مما

يثير أزمات نفسية شديدة فى كثير من المسلمين الذين كان يتألف منهم الصنف الثانى ، وخاصة فى ظروف الحرب ، بما تلهمه آيات عدة سنشرحها فى فصل الجهاد .

١١ - وفى سورة التوبة الآيات التالية أيضاً :

« مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ . وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ... ١١٣ - ١١٤

والآيات تدعم ما استلهمناه آنفاً فى صدد أثر العصبية فى نفوس المسلمين ، غير أن الصورة فيها من نوع آخر ، إذ كان الإشفاق على الأعزاء من الموتى من ذوى القربى هو الباعث عليها ؛ والظاهر أن النبى صلى الله عليه وسلم وبعض المسلمين ترحموا واستغفروا لبعض أعزائهم من الموتى ، مجتهدين بالتأسى بابراهيم صلى الله عليه وسلم ، وليست الصورة خاصة بالصنف الثانى ، كما أنها اجتهاد خلاف الأولى حمل عليه الإشفاق الذى هو عاطفة إنسانية لا يخلو منها أحد ، وقد أوردناها كصورة مما كان يقع ليس غير .

١٢ - فى سورة محمد الآيات التالية :

« إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ . إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ . هَٰأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِىُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَٰلَكُمْ ... ٣٦ - ٣٨

وفى الآيات صورة لما كان عليه بعض المسلمين من شح حينما يدعون للإنفاق فى سبيل الله ، وقد احتوت حكمة سامية فى عدم تكليف المسلمين تكاليف مالية عظيمة لئلا يبدو منهم ما لا يتفق مع خلق الإسلام الصحيح من الطاعة والسخاء . والصورة لا تقع كما هو ظاهر إلا من الصنف الثانى .

١٣ - فى سورة الحجرات الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِٱلْأَلْقَـٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ . يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ... ١١ - ١٢

وهذه الآيات وإن كانت فى معرض التعليم والتأديب فالمتبادر أن ما نهت عنه مما كان يصدر من بعض فئات المسلمين تجاه بعض ، وفى الفقرة الأخيرة من الآية الأولى قرينة على ذلك ؛ ولقد روى أن الآية نزلت بسبب سخرية بعض الأغنياء من بعض الفقراء ، وبسبب غمز بعض زوجات النبى بعضا ، وبسبب نبز بعض المسلمين مسلمى اليهود والنصارى بالنصرانى واليهودى بعد إسلامهم ، وأن الآية الثانية نزلت بمناسبة إساءة الظن بخازن للنبى صلى الله عليه وسلم وتجسس بعض المسلمين عليه ، وواضح أن كل هذا إنما يحتمل صدوره من الصنف الثانى فى الأغلب .

١٤ - فى سورة الحجرات أيضاً الآيات التالية :

١ — قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوٓا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... ١٤

٢ — يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ... ١٧

وفى الآيات صورة لإيمان بعض الأعراب وزهوهم ، بل منّهم به ، مع أنه إسلام

ظاهرى أكثر مما هو إيمان قلبى ، ولعلهم كانوا يرمون بذلك إلى الحصول على مساعدات ومنافع ؛ ويبدو من روح الآيات أن قبول إسلام الأعراب على هذا الوجه أيضاً مما كانت تسوغه الظروف مع شرط الانقياد والطاعة للرسول ، على اعتبار أن الأعراب لا يستطيعون أن يبلغوا أكثر من ذلك فى بادئ الأمر ، وأن الاستمرار كفيل ببلوغه إلى مداه . على أن فى سورة التوبة بعد آيات فيها حملة على الأعراب المنافقين والمتخلفين عن الجهاد جاءت هذه الآية .

« وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ
قُرُبَٰتٍ عِندَ اللهِ وَصَلَوَٰتِ الرَّسُولِ ... ٩٩

وقد احتوت مصداق الحكمة التى ألمعنا إليها ، وصورة مشرقة لبعض الأعراب الذين نفذ الإسلام إلى أعماقهم واستشعروا واجبهم ، وإذا لاحظنا أن آية التوبة من أواخر ما نزل بدت لنا الحكمة السامية لذلك ، كما بدت لنا صورة تطورية لإسلام الأعراب فى مدى العهد المدنى أيضاً .

١٥ - فى سورة الحديد الآيات التالية :

« وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ [١] وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ . وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُولَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَٰتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَىٰ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ... ٨ - ١٠

والآيات موجهة للمسلمين ، وروحها تلهم أن بعضهم لم يكن عميق الإيمان والتصديق والطاعة لله ورسوله ، كما أن بعضهم لم يكن يقابل الدعوة إلى الإنفاق فى

---

(١) الراجح المستلهم من روح الآية أن القصد من «تؤمنون» و«لتؤمنوا» التصديق بما يوصون به والانقياد له .

سبيل الله مقابلة حسنة : فهل كان يظن أن قليل الإنفاق يجزى كما كان الأمر قبل الفتح وفى أيام الشدة ؟

١٦ - وفى السورة نفسها الآية التالية :

« أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَٰسِقُونَ ... ١٦

الآية احتوت كما تلهمه روحها تنديداً بأولئك الذين لم يكونوا مندمجين كل الاندماج فى الإسلام وواجباته - وخاصة الإنفاق فى سبيل الله - من المسلمين ، والذين كانوا موضوع الآيتين السابقتين . وقد حذرتهم من أن تقسو قلوبهم كما قست قلوب الكتابيين .

ومن الجدير بالتنبيه أن الآيات التالية ١٨ - ١٩ وقد نقلناها فى القسم الأول من هذا المبحث - قد احتوت تنويهاً بالمتصدقين والمتصدقات والمخلصين فى الإيمان ، كما أن الآيات التالية لهذه أيضاً احتوت تهويناً لشأن الحياة والاستغراق فيها ، ودعوة إلى التسابق إلى ما عند الله من عظيم الأجر والمغفرة ، وتنديداً بالبخلاء الذين يأمرون الناس بالبخل كما ترى :

« اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى الْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ . سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ . مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ . لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا

تفرحوا بِمَا ءاتكم والله لا يحب كل مختال فخور . الذين يبخلون
ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد ...
٢٠ - ٢٤

مما يدل على أن موقف بعض المسلمين السلبي من الإنفاق في سبيل الله كان موقفاً استحق ذلك .

١٧ - في سورة المجادلة الآية التالية .

« يأيها الذين ءامنوا إذا تنجيتم فلا تتنجوا بالإثم والعدون
ومعصيت الرسول وتنجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذى إليه
تحشرون ...
٩

وقد سبقها آية فيها تنديد بالمنافقين الذين كانوا يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ولم ينتهوا عن ذلك على رغم نهيهم عنه ؛ غير أنها تلهم أن من المسلمين من كان يعقد أيضاً مجالس خاصة يتسارون فيها في الأمور العامة ، وكانت أخبارها تصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ويبدو أنه كان يجرى فيها من الأحاديث مايضر الخوض فيه ، فجاءت الآية محذرة منبهة . وقد روى أن هذه المجالس كانت تعقد على الأكثر في أزمات الحروب ؛ فلعله كان يجرى فيها من الحديث مايفت في أعضاد المسلمين ويثير هواجسهم

١٨ - في سورة الممتحنة الآيات ١ - ٢ التي نقلناهما في مبحث محنة الأذى والفتنة ، وذكرنا ماروى في صددهما من حادث . وفيهما صورة لما كان من حرص بعض المسلمين على اصطناع اليد واستبقاء الروابط بينهم وبين الكفار على رغم الأحداث العدائية الكبرى ، بسائق المحافظة على مصالح مادية لهم في مكة . على أن مما يلفت النظر نص الآية التالية لهما وهي :

« لن تنفعكم أرحامكم ولا أولدكم يوم القيمة يفصل بينكم
والله بما تعملون بصير ...
٣

إذ يلهم أن روابط الأرحام والقربى هي التي كانت تسوق بعض المسلمين إلى موادة

الكفار فى مكة ، وتذهلهم عما يكون لها من ضرر بليغ ؛ وهذه الصورة متصلة بالفقرة التى شرحنا فيها آيات سورة التوبة ٢٣ - ٢٤

١٩ — وفى السورة نفسها الآيات التالية :

« عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ... ٧ - ٩

وروح الآية الاولى تلهم صورة لما كان يعتلج فى نفوس بعض المسلمين ، وبتعبير أدق: المهاجرين، من أمنية ملحة أن تنتهى حالة العداء والتشاد القائمة بين المسلمين ومشركى مكة ، كما أن الآية الثانية تبيح لهم أن يبروا ويقسطوا إلى ذوى النيات الحسنة والمواقف السلمية من غير المسلمين ، والآية الثالثة تشدد الحظر على الولاء لذوى النيات السيئة والمواقف العدوانية ، وتصف من يخالف ذلك بالظلم ، مما يمكن أن يستلهم منه ومما قبله أن ذلك الحكم كان الصورة السابقة أن هذه الفتوى كانت نتيجة لاستفتاء واقعى ، وأمنية ملحة أيضاً ؛ ولقد روى فى صدد الآيات أن إحدى قريبات زوجة من زوجات النبى جاءت لزيارتها فلم تشأ البر بها قبل استئذان النبى وإذنه ؛ غير أننا نرى الآيات أبعد مدى من هذه الحادثة الفردية فى روحها ومضمونها ، وخاصة بسبب مجيئها بعد آيات السورة الأولى التى احتوت الصورة التى ذكرناها . وعلى كل حال ففى الآيات صور لما كان يشعر به بعض المهاجرين نحو أقاربهم وأصدقائهم فى مكة من شعور أليم بسبب حالة العداء ، وما كانت تدفعهم رابطتهم وعاطفتهم إليه من مواقف محرجة تستوجب العتاب والتحذير .

٢٠ — فى سورة الممتحنة أيضاً الآيات ١٠ - ١١ التى نقلناها فى مبحث محنة الأذى ؛ وهى فوق ما احتوته من الصورة التى شرحناها فى ذلك المبحث تلهم

صوراً أخرى متصلة بالمبحث الذى نحن بصدده، إذ تلهم أن بعض المسلمين المهاجرين ظلوا متمسكين بعصم زوجات كافرات أبين أن يلتحقن بهم إسلاماً وهجرة، وأن زوجات بعض المسلمين قد فررن بعد الهجرة وعدن إلى مكة أيضا.

٢١ — فى سورة الجمعة الآيات التالية:

« يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. وَإِذَا رَأَوْا تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوٓا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَـٰرَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ ...

٩ - ١١

وفى هذه الآيات صورة لفريق من المسلمين كانوا لايبالون أن يتركوا المسجد وقت صلاة الجمعة والنبى قائم فيهم، ليسارعوا إلى تجارة وصل إليهم خبرها، أو لهو بدت لهم أسبابه؛ وقد روى أنهم كانوا يفعلون ذلك حينما ترد قوافل التجارة من الخارج، أوحينما تسير مواكب الغناء والزمر؛ وظاهر أن هذا إنما يكون من الصنف الثانى.

٢٢ — فى سورة التغابن الآيات التالية:

« يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. إِنَّمَا أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ. فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ...

١٤ - ١٦

وقد روى أن الآيات نزلت فى مسلم كان أولاده وزوجته يثبطونه عن الغزو

والإنفاق خشية الموت والفقر، كما روى أنها نزلت فى جماعة أخرتهم أموالهم وعيالهم عن الهجرة، فلما وجدوا إخواتهم السابقين قد سبقوهم فقهاً فى الدين وبلاء فى الجهاد هموا بمعاقبة أولادهم وأزواجهم ؛ ومما يلاحظ أن الآية الأخيرة تحث على الإنفاق، ويستلهم من ذلك أن للإمساك عن الإنفاق دخلا فى هذا الموقف متصلا بتثبيط الأولاد والزوجات، وعلى كل حال ففى الآيات صورة لما كان يقع أحياناً من تقاعس بعض المسلمين وتقصيرهم فى واجباتهم بسبب الأزواج والأولاد وحب المال.

ولقد ورد فى سورة الأنفال آية تنبيهية فى هذا المعنى وهى :

« وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ...

٢٨

وقد جاءت بعد آية فيها نهى للمسلمين عن خيانة الله ورسوله والأمانات، مما يدل على حدوث واقعة اقترف فيها بعض المسلمين خيانة ما بسبب الأموال والأولاد. ولقد كانت الأموال والأولاد مدار اعتذار حتى عن الجهاد فى بعض الأحيان كما جاء فى آية سورة الفتح (١١) التى شرحناها فى المبحث الأول.

— ٤ —

ولقد كان بين المسلمين أغنياء كما كان فيهم فقراء ؛ كما أن طبيعة العهد قد عادت على كثير من المسلمين بالخير فبدلت فقر كثير منهم غنى على ما يستلهم من آيات عدة من جملة صالحة منها فى صدد التنديد بالشح والبخل والبخلاء والربا والمرابين، والحث على الإنفاق، والتنويه بالمنفقين بالليل والنهار والسر والعلن، والتحذير من فتنة المال. وإليك جملة أخرى :

١ — وَلَا تَتَمَنَّوْا مَافَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ... النساء ٣٢

٢ — وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَٰتِ الْمُؤْمِنَٰتِ

فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ الْمُؤْمِنَٰتِ ... النساء ٢٥

٣ - يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَىٰهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ...(١) التوبة ٧٤

٤ - وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّٰلِحِينَ . فَلَمَّا ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ...(١) التوبة ٧٥ - ٧٦

٥ - وَأَنكِحُوا الْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَالصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ... النور ٣٢

٦ - وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ...

النور ٣٣

٧ - وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ...

الأحزاب ٢٦ - ٢٧

٨ - مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ... الحشر ٧

---

(١) فالآيات تنديد بالمنافقين ولكن فيها كذلك صورة لما كان من فضل الله على الناس بسبب طيمة العهد .

- ٥ -

هذا : ويصح أن يشار هنا إلى ما ذكرناه فى أحد مباحث فصل شخصية النبي صلى الله عليه وسلم من صور سلوكية للمسلمين نحوه مما احتوته آيات مدنية ، لأن لها صلة بهذا المبحث من حيث هى صور عنهم فى العهد المدنى ؛ كما يصح أن يشار إلى الأسئلة والاستفتاءات التى كثر صدورها من المسلمين فى هذا العهد ، وكان كثير من التشريعات القرآنية بمناسباتها على ما سوف نذكره فى فصل التشريع ؛ فإن فى هذه الأسئلة والاستفتاءات صوراً متنوعة للمسلمين وشؤونهم ومشاكلهم فى هذا العهد ، ودليلا على شعورهم بالطمأنينة والاستقرار ، ثم بالحاجة إلى التفقه فى الدين ، وإقامة مصالحهم وحل مشاكلهم على أسس مستلهمة من أوامر الله وإرشاد النبي وتعليمه ؛ ومثل هذا ما ورد من آيات تأديبية وتعليمية وتشريعية تبدو أنها وردت مباشرة ، ولكن الروايات تذكر وروحها تلهم أنها نزلت بمناسبات ، مما سوف نلم به فى فصل التشريع أيضا ؛ إذ ينطوى فيها صور متنوعة للمسلمين وشؤونهم ومشاكلهم فى هذا العهد كذلك ؛ ويضاف إلى هذا صور عدة أخرى منطوية فى آيات الجهاد وظروفه ووقائعه مما سنلم به فى فصل الجهاد .

فصــــل

في اليهود في العهد المدني

تمهيــــد

— ١ —

لليهود في العهد المدني شأن كبير متعدد النواحي ، يجعل لهذا الفصل قيمة خاصة ، هذا إلى أنهم من أول من اصطدم مع النبي صلى الله عليه وسلم إن لم نقل أولهم ، ولقد شغلوا في القرآن المدني حيزاً واسعاً منذ بدء تنزيله ، وفي سور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة بنوع خاص ، عدا غيرها من السور الثانوية . ولعل من الدلائل على أنهم أول من اصطدموا مع النبي ماجاء في الآيات الأولى من سورة البقرة التي هي أولى السور المدنية في ترتيب النزول ، والتي يحتمل جدا أن تكون هذه الأولية لها بسبب فصلها الأول الذي منه آيات المنافقين والتي جاء فيها :

« وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ... ١٤

فقد قال جمهور المفسرين إن شياطينهم هم اليهود ، ويدل هذا على أن اليهود هم الذين أغروا المنافقين بالنفاق أو شجعوهم في مواقف الخداع ، وعلى أن النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين لم يغب عنهم ذلك .

كما جاء في فصول السورة المذكورة الأولى ، وفي مطلع الفصول الطويلة في مواقف اليهود وأخلاقهم خطاب موجه إليهم في هذه الآيات :

« يَـٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰيَ فَارْهَبُونِ . وَءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُوا بِـَٔايَـٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰيَ

فاتقون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ...
٤٠ - ٤٢

وقد أنذرت اليهود وحذرتهم من أن يكونوا أول الكافرين بالقرآن الذى هو مصدق لما معهم ، ومن أن يلبسوا الحق الذى يعرفونه بالباطل ويكتموه ويصدوا عنه ، ويدل هذا الخطاب صراحة على الأولية التى ذكرناها .

— ٢ —

ولقد اتخذ اليهود يثرب والمناطق الواقعة على طريق الشام دار هجرة ومقام منذ أمد بعيد ، وكان لهم كيان بارز ومؤثر بسبب ماكانوا عليه من كثرة العدد ، وسعة الثروة ، والمهارة الزراعية والصناعية والتجارية ؛ ثم بسبب ماكان لهم من مكانة دينية وعلمية مستمدة من أنهم أصحاب كتاب سماوى ، وذوو صلة بالأنبياء والأمم الغابرة وأخبارها على مافصلناه فى كتابنا عصر النبى وبيئته .

وكان السبب الأخير قد جعلهم فى مركز المعلم والمرشد والمرجع ، بل القاضى لسكان يثرب ، على ماتلهمه آيات قرآنية عدة شرحناها فى كتابنا المذكور ، فكان لليهود من ذلك الحرمة والحصانة ، والقوة النافذة والأثر فى حل المشكلات ، وتعليل الحوادث والقضاء فى الخصومات ، والاستمتاع بالكيان والمركز الممتاز ، وقد اندمجوا فى الحياة العربيـة ، وارتبطوا بمواثيق الحلف مع جيرانهم العرب ، فكان هذا مما زاد مركزهم ورسوخ قدمهم قوة وشدة ، حتى لقد احتاج الأمر إلى تكرار النهى عن موالاتهم مراراً على رغم مابدا منهم من المواقف الجحودية والمريبة والعدائية الضارة .

ومع أنهم - على ماأشرنا إليه فى فصل سابق استدلالا من بعض الآيات - كانوا يبشرون ببعث النبى العربى ويستفتحون به على العرب ، ومع أن النبى صلى الله عليه وسلم منذ حل فى المدينة كتب بينه وبينهم عهداً على ماذكرته الروايات المعتبرة وماتدعمه الآيات ، أمنهم فيه على حريتهم الدينيـة وطقوسهم ومعابدهم وأموالهم وحقوقهم ، وأبقاهم على محالفاتهم مع بطون الأوس والخزرج ، وأوجب لهم النصرة والحماية مشترطاً عليهم ألا يغدروا ولا يفجروا ولايتجسسوا ولايعينوا عدواً ولايمدوا يداً

بأذى[1] — مع هذا فإنهم مالبثوا أن تطيروا من قدومه إلى المدينة ، وأخذوا ينظرون بعين التوجس والخوف إلى احتمال رسوخ قدمه وانتشار دعوته ، واجتماع شمل الأوس والخزرج تحت لوائه بعد ذلك العداء الدموى الطويل الذى كانوا من دون ريب يستغلونه فى تقوية مركزهم ، وخشوا على المركز الذى هم فيه ، والامتيازات الكبيرة التى كانوا يتمتعون بها ويجنون منها أعظم الثمرات .

— ٣ —

ولقد كان ظنهم على مايبدو أن يجعلهم النبي صلى الله عليه وسلم خارج نطاق دعوته ، معتبرين أنفسهم أهدى من أن تشملهم ، وأمنع من أن يأمل النبي دخولهم فى دينه ، وانضوائهم إلى رايته ؛ بل لقد كانوا يرون أن من حقهم أن ينتظروا انضمامه إليهم كما يمكن أن تلهمه هذه الآيات :

١ — وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ...[2]

البقرة ١١١

٢ — وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ..

البقرة ١٢٠

٣ — وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ... البقرة ١٣٥

لا سيما حينما رأوه يصلى إلى قبلتهم ، ويعلن إيمانه بأنبيائهم وكتبهم بلسان القرآن ، ويجعل ذلك جزءاً لايتجزأ من دعوته ، ويتلو فيما يتلوه :

١ — أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ...[3] الأنعام ٩٠

٢ — وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ . وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا

(١) ابن هشام . ج٢ ص ٩٦ - ٩٨

(٢) هذه الآية والآيتان الأخريان هى من سلسلة فى اليهود وذكر النصارى استطرادى على مايتبادر

(٣) هذه الفقرة من سلسلة ذكر فيها عدد كبير من أنبياء بنى إسرائيل ونوهبهم .

وكانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ... السجدة ٢٣ - ٢٤

٣ — شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحًا والَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وما وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ ومُوسَى وعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ...

الشورى ١٣

٤ — ولَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الكِتَابَ والحُكْمَ والنُّبُوَّةَ ورَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى العَالَمِينَ ... الجاثية ١٦

٥ — آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ والمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ ومَلَائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ... البقرة ٢٨٥

لخاب ظنهم ورأوه يدعوهم في جملة الناس ، بل يختصهم بلسان القرآن أحياناً بالدعوة ويندد بهم لعدم إسراعهم إلى استجابتها ، ولموقفهم منها موقف الانقباض ثم موقف التعطيل والتناقض ، كما جاء في آيات البقرة ٤٠ - ٤٢ التي نقلناها وكثيراً غيرها مما سوف نورده وخاصة هذه الآية التي تندد بتناقضهم .

« أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وأَنتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ... البقرة ٤٤

فكان هذا على ما هو المتبادر باعثا على تنكرهم للدعوة وحقدهم على صاحبها منذ الخطوات الأولى من العهد المدني ؛ ثم رأوا الناس قد أخذوا ينصرفون عنهم ، ويتخذون النبي مرجعهم الأعلى ، ومرشدهم الأعظم ، وقائدهم المطاع ، فاستشعروا حقا أو باطلا الخطر العظيم يحدق بمركزهم وامتيازاتهم ومصالحهم إذا هم أرادوا أن يستمسكوا بكيانهم الخاص ، ويظلوا على يهوديتهم ، ولا يندمجوا في الدعوة الإسلامية ؛ فكان هذا عاملا على اندفاعهم في خطة التنكر والحقد والتآمر والصد والتعطيل إلى نهايتها .

— ٤ —

ولقد كان من المتوقع على ما تلهمه الآيات المكية والمدنية أن يجد النبي صلى الله عليه وسلم في اليهود سنداً وعضداً ، وأن يكونوا أول من يؤمن به ويصدقه ويلتف حوله ، لما كان بين دعوته وأسس دينهم من وحدة ، ولما احتواه القرآن من تقريرات متنوعة وكثيرة بأنه مصدق لما بين يديه ، وبأنه يحتو حل المشاكل والخلافات التي يتعثر فيها اليهود ، وباستشهادهم خاصة والكتابيين عامة على صحة رسالته استشهاداً ينطوي على الثقة فيهم والتنويه بهم ، وتقرير وحدة الحزبية بينهم؛ ولما رآه من حسن استجابة الكتابيين وفيهم أناس من بني إسرائيل إلى دعوته ، واندماجهم فيها ووقوفهم منها موقف المصدق المؤيد على ماذكرناه وأوردنا آياته الملهمة في فصل الكتابيين من العهد المكي ؛ فلما رأى منهم ما رآه من الانقباض أولا والتنكر والصد وكتم الحق وإلباسه بالباطل عن علم ثانياً ، تأثر تأثراً عميقاً من خيبة أمله فيهم ردّدته آيات القرآن على ما سوف نورده بعد .

— ٥ —

وقوة الدور الذي قام به اليهود ، وشدة نكايته وبعد أثره ، تبدو من خلال الفصول والحلات القرآنية المدنية ؛ سواء أكان ذلك في مؤامراتهم مع المنافقين وتشجيعهم — حتى ليمكن أن يقال إنهم هم الذين أوجدوهم بما بثوا ونموا فيهم من الريب والشكوك ، وبما أيقظوا فيهم من روح التمرد والكيد وغذوها ؛ وإن المنافقين لولاهم لما نموا وقووا وثبتوا وكان منهم ذلك الأذى البالغ والكيد الشديد — أو في تحالفهم مع القرشيين أعداء النبي والمسلمين الأشداء الأصليين ، وتألبهم معهم ومظاهرتهم لهم حربيا ، وتثبيتهم إياهم في كفرهم ؛ أو في اضطلاعهم بأذى النبي والمسلمين مباشرة ، وإقامة العثرات في طريقهم ، والكيد والمكر والدس لهم ، والجحود والحجاج والسخرية بهم ؛ فلم يكن ثمة بد للنبي صلى الله عليه وسلم من التنكيل بهم ذلك التنكيل الحازم الذي كان فيه نهايتهم والذي نستعرض صوره القرآنية بعد .

ومما يجدر أن ننوه به للدلالة على ما كان لموقف اليهود وعدائهم من تأثير سلبي في

سير الدعوة وانتشارها ، وفى مركز النبي والمسلمين ؛ ومن تأثير إيجابى فى قوة أعداء النبي والإسلام ـ أنهم لم يكادوا يتوارون عن مسرح المدينة نتيجة لذلك التشكيل حتى ضعف أولا أمر المنافقين وصار أمرهم إلى ماوصفتهم بعض آيات التوبة : « وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ . لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ » بعد أن بلغ من شعورهم بعزتهم وقوتهم وكثرتهم أن حرضوا الناس على النبي وصحبه وقالوا كما حكته آية فى سورة المنافقون : « لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا » وإن أقسموا ليخرجن الأعز الأذل من المدينة ، مستشعرين أنهم هم الأعز كما حكته آية أخرى فى السورة المذكورة : « يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ »

وخفت ثانياً غلواء زعماء قريش ولم يعودوا يفكرون فى قتال المسلمين وغزوهم وتزايد ثالثاً عدد المستجيبين للدعوة والمنضوين إلى لواء النبي صلى الله عليه وسلم تزايداً عظيماً

وبلغ الأمر رابعاً إلى أن يرى النبي أن لا بأس فى الرحلة إلى مكة للزيارة ومعه جمع كبير من المسلمين ، وإلى أن يجنح زعماء قريش إلى مهادنته والسماح له بالزيارة فى العام القابل ، وإلى أن يصبح النبي من القوة بحيث يغزو مكة بعشرة آلاف مقاتل ويفتحها ويوطد بذلك الوحدة الإسلامية العربية . كل هذا لأن العدو الذى كان بين ظهرانى المسلمين ، وكان شديد المكر والكيد قد زال من الطريق ، ولم يعد المنافقون يجدون من يشجعهم أو يزيد لهيبهم إذا خبا ، كما لم يعد العرب يجدون من يشككهم فى الحق ويصدهم عن الهدى ، ولم يعد أهل مكة يجدون فى يثرب الأعوان والعيون والطاعنين من الوراء طعن الغدر والخيانة .

- ٦ -

ومن العجيب المعجز أن يقرأ المرء اليوم آيات القرآن المدنية فى أخلاق اليهود بوجه عام ، وعاداتهم ومكايدهم ودسائسهم وأنانيتهم ، وزهوهم وتبجحهم ، واستحلالهم

لكل ما فى أيدى الغير ، وضنهم بأى شىء مفيد للغير ، وعدم إخلاصهم فى محبة أو موقف ولاء للغير ، وحسدهم لأى نعمة ينالها الغير ، وتدبيرهم لكل وسيلة مهما دنأت وجرت وكان فيها كفر وفسق ، ونقضهم لمبادئ الدين والعهد فى سبيل مكايدة الغير وتهديمه وسلب ماناله من نعمة وخير ، وتشجيعهم لكل حائد وحاسد ومنافق ودساس ومتآمر ... الخ ماسنورده فى مباحث هذا الفصل مما قرر القرآن أنه جبلة فيهم يتوارثه الأبناء عن الآباء فاستحقوا عليه يمين الله :

« وإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ الْعَذَابِ ... »(١) الأعراف ١٦٧

وجازاهم عليه بتشريدهم فى مشارق الأرض ومغاربها :

« وقَطَّعْنَٰهُمْ فى الْأَرْضِ أُمَمًا ... » الأعراف ١٦٨

وتحقق ذلك القسم البار بما وصفه القرآن من واقع حالهم فى عهد النبي وقبله :

« ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ...

آل عمران ١١٢

... ثم ينظر المرء إليهم اليوم فيكاد يرى إجمالا صورة طبق الأصل : جبلة خاصة ، وترفع عن الاندماج الصادق مع من يعيشون معهم من الأمم وأهل الأوطان ، ودس ومكر وكيد ، وجحود وحجاج ولجاج ، وندب وعويل بدون مبرر ، وشره شديد إلى ما فى أيدى الغير ، ومحاولة للاستيلاء على الكل ، والتأثير فى الكل ، واللعب فى وقت واحد على كل حبل وفوق كل مسرح ، والتوسل بكل وسيلة إلى الغاية التى يريدون ، وعداء لكل الناس وخداع لهم وسخرية منهم ، وتهديم لكل بنيان وكيان ونظام فى كل مكان وزمان ، وتسخير لكل قوة فى سبيل مآربهم وأنانيتهم وكيدهم وعدائهم ، وقسوة متناهية فى أعدائهم حين يتمكنون منهم ؛ هذا إلى استمرار مصداق آيتى الأعراف والنساء فى كافة أنحاء الأرض التى تقطعوا فيها ، فلا تجدهم فى أرض

(١) هذه الآية من سلسلة آيات مدنية .

إلا والعين مزورة منهم ، والسخط فائر عليهم ، والنفوس متبرمة بهم ، والناس مستثقلون ظلهم، راغبون فى التخلص بأية وسيلة منهم ، وجاعلون الحذر منهم أساس صلاتهم بهم ، بسبب تلك الأخلاق المتوارثة فيهم جيلا عن جيل ، والتى يلمسها الناس فيهم بكل شناعتها وسوآتها ؛ وليس هذا اليوم فحسب ، فإنه لكذلك منذ عهد النبي وعلى امتداد القرون المتطاولة ومن قبل الناس جميعاً ، بل من قبل عهد النبي على ما دمغتهم به أسفار العهد القديم وحوادث التاريخ ، مما لا يمكن تعليله إلا بتلك الجبلة الخاصة التى جلبت عليهم ما جلبت منذ أقدم الأزمنة إلى الآن ...

- ٧ -

هذا ؛ والفصول القرآنية المدنية فى اليهود كثيرة ومتنوعة كما قلنا ؛ وقد رأينا أن نستعرضها فى مجموعات موضوعية أو مباحث مستقلة كما يلى :

١ - موقفهم إزاء الدعوة بالذات .

٢ - مواقفهم الحجاجية .

٣ - دسائسهم بين المسلمين وتآمرهم مع المنافقين والمشركين .

٤ - وقائع التنكيل بهم وبواعثها ونتائجها .

٥ - الاستثناءات القرآنية بشأن المؤمنين المعتدلين منهم ومغزاها .

المبحث الأول

مواقف اليهود إزاء الدعوة

صراحة الآيات من عدم مقابلة اليهود الدعوة مقابلة حسنة ـ فصول سورة البقرة في تذكيرهم والتنديد بهم بسبب ذلك ـ دلالات أسلوب هذه الفصول ومضامينها ـ أسلوب آخر هادئ في القرآن المدني في دعوة أهل الكتاب إطلاقا .

— ١ —

١ ـ إن آيات البقرة ٤٠ ـ ٤٤ التي نقلناها من قبل، والتي هي أول ما نزل بشأن اليهود ومن أوائل ما نزل من القرآن المدني على الأرجح ـ صريحة الدلالة على أن اليهود لم يقابلوا الدعوة الإسلامية مقابلة حسنة . ويلفت النظر خاصة إلى ما فيها من نهي لهم عن أن يكونوا أول كافر بالقرآن ، وعن إلباس الحق بالباطل وكتم الحق وهم يعرفونه ، ثم إلى السؤال الاستنكاري عن أمرهم الناس بالبر وعدم سيرهم فيه ؛ ففي كل هذا دلالات على تلك المقابلة أولا ، ثم على بدو أمارات وقوفهم منها موقف الجحود والتعطيل ثانياً .

٢ ـ ولقد تبع هذه الآيات سلسلة طويلة تضمنت تذكيرهم بما كان من نعمة الله السابقة على آبائهم ، ثم بما كان من عناد هؤلاء الآباء ومواقفهم المتمردة والحجاجية والتعجيزية من أنبياء الله وأوامره ووصاياه ، وما كان من نكال الله بهم الخ ؛ ثم تضمنت تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عن عدم ارعواء الأبناء وصلاحهم وتبديل الجبلة الخلقية التي ورثوها من أولئك الآباء الذين كانو يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ، والذين ما لبثوا أن كفروا وارتدوا إلى عبادة العجل ، ثم انتقلت إلى اليهود المعاصرين ثانية تندد بهم لما بدا منهم من نفاق وتحريف ، وكيد ودس ، وغرور وحسد وجحود وتناقض الخ ... نقتطف منها الآيات التالية :

١ ـ يَـٰبَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَـٰلَمِينَ . وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا

شفعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون . وإذ نجينكم من
ءال فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون
نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم . وإذ فرقنا بكم البحر
فأنجينكم وأغرقنا ءال فرعون وأنتم تنظرون . وإذ وعدنا موسى
أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظلمون . ثم عفونا
عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون . وإذ ءاتينا موسى الكتب
والفرقان لعلكم تهتدون ... ٤٧ - ٥٣

٢ — وإذ قلتم يموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم
الصعقة وأنتم تنظرون ... ٥٥

٣ — وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا
وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطيكم وسنزيد
المحسنين . فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فأنزلنا على
الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ... ٥٨ - ٥٩

٤ — وإذ قلتم يموسى لن نصبر على طعام وحد فادع لنا ربك
يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها
قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم
ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءو بغضب من الله ذلك
بأنهم كانوا يكفرون بآيت الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك
بما عصوا وكانوا يعتدون ... ٦١

٥ — وإذ أخذنا ميثقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما ءاتينكم

بِقُوَّةٍ واذكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَٰسِرِينَ . وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِئِينَ . فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وما خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ... ٦٣ - ٦٦

٦ - وإذ قالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قالَ أَعُوذُ باللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَٰهِلِينَ . قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَاهِىَ قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ ولا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ . قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَالَوْنُهَا قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّٰظِرِينَ . قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَاهِىَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وإِنَّا إِن شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ . قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ ولا تَسْقِى الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْـَٰٔنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وما كَادُوا يَفْعَلُونَ . وإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّٰرَءْتُمْ فِيهَا واللهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ . فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْىِ اللهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَٰرُ وإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ... ٦٧ - ٧٤

٧ - أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وقد كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . وإِذَا لَقُوا الَّذِينَ

ءامنوا قالوا ءامنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما
فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون . أو لا يعلمون
أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون . ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب
إلا أماني وإن هم إلا يظنون . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم
ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما
كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون . وقالوا لن تمسنا النار إلا
أياما معدودة قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم
تقولون على الله ما لا تعلمون ...

٧٥ - ٨٠

٨ — وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين
إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا
الصلاة وءاتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون .
وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من
دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون . ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم
وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان
وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون
ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم
إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب
وما الله بغافل عما تعملون ...

٨٣ - ٨٥

٩ — ولقد ءاتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وءاتينا
عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول

بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ . وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ . وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَٰفِرِينَ . بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ . وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ... ٨٧ - ٩٣

١٠ — وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَٰسِقُونَ . أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ كِتَٰبَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ... ٩٩ - ١٠١

ونكتفي بهذه المقتطفات من فصول سورة البقرة في صدد موقف اليهود إزاء الدعوة بذاتها ، لأن فيها الدلالة الكافية على الموقف الجحودي الذي وقفوه من جهة ، ولأن مواقفهم الأخرى متفرعة عن هذا الموقف واستمرار له من جهة أخرى

مع التنبيه إلى أن فى غير هذه السورة آيات فى صدد هذا الموقف فيها تنديد و تقريع لليهود أيضاً .

— ٣ —

ويلفت النظر فى صدد هذه المقتطفات :

أولا : إلى أسلوبها ؛ فقد يكون فيها كثير مما جاء فى القرآن المكى من قصص بنى إسرائيل ، غير أنه جاء بأسلوب حملات تنديدية على اليهود ، فى حين جاء هناك بأسلوب قصصي وحسب . ولا ريب فى أن هذا متصل بالموقف الذى وقفه اليهود المعاصرون فى العهد المدنى .

ثانياً : إلى شدة اللحمة التى تبدو فى الآيات ، إذ تستهدف تقرير وحدة الجبلة والأخلاق والأساليب بين اليهود على اختلاف أجيالهم ، وأن الأبناء قد توارثوها عن الآباء جيلا بعد جيل ؛ وإذ يشعر القارئ أن الحديث يدور عن جماعة واحدة متصلة العهد والسبب اتصالا وثيقا . وهذا واضح فى كثرة الانتقال والالتفات فى الآيات وتبادل الضمائر بين الغائب والمخاطب . ويتضح ذلك خاصة فى الآيات ٦٧-٧٤ و ٧٥ - ٨٠ و ٨٣ - ٨٥ .

ثالثاً : إلى وصف موقف الجحود الذى تضمنته الآيات ٨٧ - ٩٣ خاصة ، إذ تقرر صراحة السبب الذي جعلهم يقفون موقفاً جحوديا مناقضاً لمواقفهم السابقة للبعثة التى كانوا يستفتحون بها على العرب ، فيجحدون شيئاً عرفوه حق المعرفة وبشروا به ؛ فاستحقوا من أجله هذه الحملات الشديدة ، واللعنات القاسية ؛ وهو البغى والحقد والحسد .

رابعاً : إلى ماتدل عليه الآيات دلالة كافية وخاصة الآيات ٧٥ - ٨٠ من أن موقفهم الجحودى من الدعوة منذ أوائل العهد المدنى كان حاسماً ، بحيث لم يبق أى أمل فى ارعوائهم فيه وتراجعهم عنه . ولقد كان هذا هو الواقع ، إذ ظلت كثرتهم الساحقة عليه ، وماكان من أحداث ومواقف متنوعة بينهم وبين النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين إنما تفرع عنه .

خامساً : إلى صيغة الآيات ، سواء فى إطلاقها الكلام عن اليهود عامة أو فى حكايتها لأقوالهم ومواقفهم ومكايداتهم وتاريخ آبائهم ؛ أو فى ربطها بين الآباء والأبناء فى ذلك ، إذ تلهم أن موقف الجحود كان موقف جميعهم بوجه الإجمال ، وهذا بارز كذلك فى كل أو جل الفصول القرآنية المدنيـة التى تحكى مواقفهم المتنوعة الأخرى ؛ مع التنبيه إلى أن هناك آيات فى مناسبات أخرى تضمنت استثناء لفئة قليلة منهم ، وسوف نعرض لها فى مبحث خاص .

— ٤ —

هذا ؛ ونريد أن ننبه إلى نقطة مهمة ، وهى أن أسلوب الآيات التى نقلناها ، والذى هو أسلوب تنديدى ، ليس هو كل شىء فى صدد دعوة اليهود إلى الدين الإسلامى ، فقد احتوى القرآن المدنى كما احتوى المكى آيات تضمنت دعوتهم بأسلوب هادئ لا تنديد فيه ، وأن ذلك الأسلوب إنما كان كذلك لما كان من مقابلة اليهود السريعة للهجرة النبوية وانتشار الدعوة ، ودعوتهم إلى الانضواء إليها مقابلة غير حسنة .

وإليك بعض الآيات المدنية التى تضمنت دعوة أهل الكتاب ـ الذين يدخل اليهود فيهم بطبيعة الحال ـ دعوة هادئة على سبيل المثال :

١ — فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ... آل عمران ٢٠

٢ — قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ... آل عمران ٦٤

٣ — يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ

تخفون من الكتٰب ويعفوا عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتٰب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوٰنه سبل السلٰم ويخرجهم من الظلمٰت إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صرٰط مستقيم ... المائدة ١٥ - ١٦

٤ — يٰأهل الكتٰب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شىء قدير ... المائدة ١٩

وتلفت النظر خاصة إلى آيات المائدة ١٥ - ١٦ وبنوع خاص إلى الأولى منها ، إذ تضمنت إيذاناً بأن من الخطة التى سوف يسير عليها الرسول العفو عن كثير مما يمكن أن يكون صدر أو يصدر من المدعوين ؛ والتجاوز عن هفواتهم ، وتوسعة الصدر لهم ؛ وفى هذه الخطة ترغيب محبب لأهل الكتاب متسق مع الخطة القرآنية بصورة عامة ، ومع الخطة القرآنية المكية نحوهم بصورة خاصة ، كما أنها تتضمن نفى كل ما يمكن أن يرد من قول مغرض عن نية مبيتة من النبى صلى الله عليه وسلم نحو أهل الكتاب أو فريق منهم ،

المبحث الثانى

مواقف اليهود الحجاجية

حجاج اليهود حول إبراهيم وملته وزعمهم بأنهم على الهدى - الحجاج حول نبوة النبي بسبب عروبته - مواقف حجاج وتحد وسخرية من النبي - حجاجهم حول جبريل - حجاجهم حول القبلة والكعبة - استطراد إلى بحث تبديل سمت الكعبة وظروفه وخطورته في الشخصية الاسلامية - غرور اليهود وتبجحاتهم المتصلة بمواقفهم الحجاجية

— ١ —

(١) من هذه المواقف ما كان حول إبراهيم صلى الله عليه وسلم وملته، وفى صدد تبجحهم بأنهم على الهدى وأن ملتهم هى خير الملل؛ ففى سورة البقرة الفصول التالية:

١ — وقالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلا مَنْ كانَ هُودًا أوْ نَصَـٰرَىٰ تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَـٰنَكُمْ إنْ كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ . بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وهُوَ مُحْسِنٌ فلهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ ولا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ . وقالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وقالَتِ النَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَـٰبَ كَذَٰلِكَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ... ١١١ - ١١٣

٢ — ولَنْ تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ ولا النَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَىٰ ولَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِى جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ ولا نَصِيرٍ . الَّذِينَ ءاتَيْنَـٰهُمُ الْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَـٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ومَنْ يَكْفُرْ بِهِ فأُولَـٰئِكَ هُمُ الْخَـٰسِرُونَ . يَـٰبَنِي إسْرَٰءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ

عَلَى العَـٰلَمِينَ ... ١٢٠ - ١٢٢

٣ – وَمَنْ يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَـٰهُ
فِى الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِى الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّـٰلِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ
أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَـٰلَمِينَ . وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِيَّ إِنَّ اللهَ
اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ . أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ
إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ المَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى قَالُوا
نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَائِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُ
مُسْلِمُونَ . تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا
تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا
قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ . قُولُوا ءَامَنَّا بِاللهِ
وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ
وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِىَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ
بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنتُم بِهِ فَقَدِ
اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ .
صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَـٰبِدُونَ . قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا
فِى اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ .
أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا
هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُ
مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ... ١٣٠ - ١٤٠

- ٢ -

والآيات قد جاءت - على ما يدل عليه سياقها وبعض مضامينها - فى معرض مواقف اليهود وحجاجهم ، وهذا ما يجعلنا نرجح أن إدماج النصارى فى الآيتين (١١٠و١٣٥) منها إنما كان من قبيل التعميم أو الاستطراد ؛ ومهما يكن من أمر هذه النقطة فالآيات على كل حال تتضمن حكاية أقوال اليهود ومواقفهم والحجاج معهم .

ويبدو من روحها ومضامينها أن اليهود قابلوا الدعوة الإسلامية بقولهم إن الهدى إنما هو فى اليهودية ، واحتجوا على دعوى النبي صلى الله عليه وسلم بأنه على ملة إبراهيم صلى الله عليه وسلم وإن دعوته إليها ، فقالوا إن إبراهيم صلى الله عليه وسلم هو أبوهم وأبو الأنبياء ، وإن أبناءه قد ساروا على ملته ، وإن اليهودية التى هى دين هؤلاء الأنبياء والأبناء هى ملته . فردت عليهم الآيات قائلة إن إبراهيم كان حنيفا مسلماً وما كان من المشركين ، وهذه هى ملته التى يدعو إليها النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قررت العقيدة الإسلامية الواجبة على الجميع ومنهم اليهود ، وهى الإيمان بالله وبما أنزل إلى محمد وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى والنبيين صلوات الله عليهم جميعا بدون تفريق بين أحد منهم ، وإسلام النفس لله وحده ، ودعتهم إلى هذه العقيدة ، وطمأنت النبى صلى الله عليه وسلم فى حال عدم استجابتهم - وهو المتوقع - مقررة أنهم فى شقاق وخلاف ، وأن الله كافيه شرهم ومكرهم .

وقد نصت الآية (١١٣) خاصة من قبيل الإلحام ودحض الحجة التى يحتجون بها ، على أن شقاقهم ليس فيما بينهم فقط بل بين الكتابيين عامة ، إذ يقرر اليهود أنهم وحدهم على الحق وأن النصارى ليسوا على شىء منه ، ويقرر النصارى هذا عن اليهود ، فى حين أن الفريقين يتلون الكتاب (التوراة على الغالب لأنها مشتركة بينهما) ويؤمنون به ؛ وهكذا يشهد كل فريق على ضلال الفريق الثانى ؛ فتصدق الشهادة على الفريقين وتدمغهم حجة القرآن ودعوته ، ويصبح لزاماً عليهم اتباع العقيدة التى قررها والتى بها وحدها يتحد الجميع فى الطريق القويم ويتخلص اليهود والنصارى من شقاقهم ومشاكلهم .

- ٣ -

هذا ؛ ولعله أريد بتقرير أن إبراهيم كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين جواباً على قولهم « كونوا هودا أو نصارى تهتدوا » الإشارة إلى عقيدة النصارى ببنوة عيسى وألوهيته ، وإشراكهم إياه مع الله فى الربوبية والعبادة ، وإلى ما كان من عبادة اليهود العجل، ثم إلى عقيدتهم فى بنوة العزير لله التى أشارت إليها إحدي آيات التوبة هذه .

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَٰرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ اللهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ...

٣٠

وهى عقيدة لابد أن يكون اليهود المعاصرون فى المدينة أو فريق منهم على الأقل يدينون بها ؛ ولعله أريد بها كذلك الإشارة إلى اتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله كما نددت بذلك آية التوبة التالية لهذه الآية وهى :

« اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ...

٣١

والإشارة إلى ما تلهمه بعض آيات سورة آل عمران وهى هذه :

« مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّى مِن دُونِ اللهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ . وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَٰٓئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ... (١)

٧٩ - ٨٠

---

(١) قال بعض المفسرين والرواة إن الآيات نزلت بمناسبة سؤال اليهود للنبى صلى الله عليه وسلم إذا كان يريد منهم أن يسجدوا له . والآيات وسياقها تحمل ما استلهمناه أوجه وتلهم أن الآيات بسبيل التنديد باليهود

فثمة دلالة على أن الكتابيين أو بعضهم كان يتخذ الملائكة والأنبياء أرباباً ، أو يستشفع بهم مع الاعتقاد بتأثيرهم ، مما هو من جملة الشرك .

- ٤ -

(٢) وقد جاء فى سورة آل عمران فى صدد الحجاج حول إبراهيم وملته الفصل التالى :

« يَٰأَهْلَ الكِتَٰبِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِى إِبْرَٰهِيمَ وما أُنزِلَتِ التَّوْرَٰةُ والإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . هَٰأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ واللهُ يَعْلَمُ وأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ . مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا ولا نَصْرَانِيًّا ولَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وهَٰذَا النَّبِىُّ والَّذِينَ ءَامَنُوا واللهُ وَلِىُّ المُؤْمِنِينَ ... ٦٥ - ٦٨

وفى الآيات شىء مما تضمنته آيات البقرة ، وتلهم وقوع حجاج مماثل لما استلهمناه من تلك الآيات مرة أخرى بين النبى صلى الله عليه وسلم واليهود ، فنزلت معقبة منددة وموضحة دامغة الحجة ؛ وقد جاءت عقب سلسلة أشير فيها إلى مشهد حجاجى بين النبى وبعض النصارى حول ماهية المسيح ، غير أن الآيات التى تلتها احتوت حكاية موقف كيد ودس لليهود ، مما يسوغ أن القول بأن الخطاب الموجه فيها إلى « أهل الكتاب » قد قصد به اليهود . ومهما يكن من أمر هذه النقطة فإن اليهود داخلون فى هذا التعبير على كل حال .

وفى الآيات حجة جديدة ، وهى أن إبراهيم صلى الله عليه وسلم إنما عاش قبل التوراة ، واليهودية إنما بدأ عهدها بعد التوراة ، وأن ملة إبراهيم والحالة هذه لا يمكن أن تكون اليهودية ، وأن دعوى اليهود ذلك باطلة من أساسها ؛ وأن أبوة إبراهيم لليهود ليس من شأنها أن تجعلهم على ملته ، وأن تدعم أولويتهم به ؛ فأولى الناس به هم الذين اتبعوا ملته حقا ، والنبى صلى الله عليه وسلم الذى اتبعها ، ويدعو إليها

بصراحة لا التواء فيها، والذين تابعوه فى دعوته من المؤمنين . وهكذا يكون القرآن قد دمغ اليهود فى موقفهم الحجاجى الثانى أيضا، وزيف دعوى أولويتهم به بسبب أبوته لهم وحسب، وجعل هذه الأولوية للنبي صلى الله عليه وسلم ومن تابعه من المسلمين. ومما لاشك فيه أن الحجاج استؤنف وأن النبي صلى الله عليه وسلم واجههم بهذه الحجة القرآنية فى مشهد مواجه .

- ٥ -

(٣) ومن هذه المواقف ما كان حول نبوة النبي صلى الله عليه وسلم بسبب عروبته ؛ فقد جاء فى سورة الجمعة الآيات ٢ - ٦ التى نقلناها فى مبحث عروبة النبي صلى الله عليه وسلم من فصل شخصيته ؛ ويستلهم من روحها أن اليهود ادعوا أن الله قد اختص بالنبوة بنى إسرائيل دون سائر الأجناس، وأنكروا نبوة النبي لأنه ليس من بنى إسرائيل ؛ فردت الآيات عليهم مثبتة أولا نبوة النبي الأمى العربى، مقررة ثانيا أنه لا حرج على فضل الله، وأنه مطلق الإرادة يختص بفضله من يشاء ؛ وهاجمت ثالثاً اليهود لأنهم مكابرون فى موقفهم، يعرفون الحق ويكتمونه، وأن مثلهم فى موقفهم كمثل الحمار الذى لا ينتفع بما يحمله من أسفار العلم ؛ ومما لاشك فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم واجه اليهود بهذه الآيات فى مشهد استؤنف فيه الحجاج مواجهة .

- ٦ -

(٤) ومنها مواقف حجاج وتحد وسخرية نحو شخص النبي ونبوته :

١ - فقد جاء فى سورة آل عمران الآيات التالية :

« ولا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا ءاتَـٰهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَابَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . لَّقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَاقَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاء

بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد . الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين ...

١٨٠ - ١٨٣

والآيات لاتحتوى دلالة صريحة على أنها فى حق اليهود ؛ ولكن فى الفقرة الأخيرة من الآية الأخيرة قرينة حاسمة على أنها فى حقهم .

وقد ذكر المفسرون والرواة فى صدد القسم الأول من الآيات أن النبى صلى الله عليه وسلم قد استعان باليهود ماليا فى ظرف من الظروف - تمشياً مع عادة الحلف العربى وتبعاته - بواسطة أبى بكر رضى الله عنه ، فذهب إلى محلتهم فردوه رداً قبيحاً ، كما رووا أن أبا بكر ذهب ليدعوهم إلى الإسلام وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإقراض الله قرضاً حسناً ، فقابلوا الدعوة بالجحود ، والجملة الأخيرة بالسخرية ، وقالوا إذا كان الله يستقرضنا فهو إذن فقير ونحن أغنياء ؛ ولم يرو فى صدد القسم الثانى مناسبة خاصة فيما اطلعنا عليه . ولعل ماحكى عنهم فيه قد صدر منهم فى الظرف نفسه الذى صدر عنهم فيه ما حكاه القسم الأول ، جواباً على دعوتهم إلى الإسلام . والآية الأخيرة تلهم أن هذا الموقف قد كان بينهم وبين النبى صلى الله عليه وسلم مواجهة فيما يتبادر لنا .

ومهما يكن من أمر فالآيات صريحة بأنها قد تضمنت حكاية موقف يهودى بذىء ساخر فى حق الله ، وموقف تحد وتعجيز وحجاج من النبى صلى الله عليه وسلم .

٢ - وقد جاء فى سورة النساء الآيات التالية :

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل . والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا . من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا

فى الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ... ٤٤ - ٤٦

وقد تضمنت صورة موقف ساخر لليهود من النبى ، فكانوا يلوون ألسنتهم بكلمة « راعنا » حتى تؤدى إلى نعت النبى بالرعونة ، ويجهرون بعصيانه فيما يأمر ويدعو ، فيستعملون كلمة «عصينا» بعد «سمعنا» استخفافاً به بدلا من الجملة العربية المعتادة « سمعنا وأطعنا » أو « سمعاً وطاعة » ، ويدعون عليه بالسوء فيقولون اسمع لاسمعت ، أو اسمع غير مستجاب ؛ ويقصدون فى كل ذلك الانتقاص من الدعوة النبوية والشخصية النبوية والطعن فيهما . ومما يروى أن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه انتبه إلى خبثهم فى ليهم كلمة « راعنا » فقال لهم : يا أعداء الله عليكم لعنة الله ، والذى نفسى بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله لأضربن عنقه ...

وقد يبدو من هذا أن اليهود بعد أن كانوا يحاجون النبى صلى الله عليه وسلم ويقفون موقف الجحود دون أن يخرجوا - ولو فى مواجهته على الأقل - عن حدود الأدب ، رأوا فى أنفسهم القوة فتجاوزوا هذا النطاق إلى الهجوم وبدءوه بالسخرية والبذاءة ؛ ولعل هذا كان منهم فى ظرف أزمة من الأزمات مرت بالنبى والمسلمين كواقعة « أحد » فاغتنمها اليهود فرصة لإظهار ما امتلأت به قلوبهم من غل وحقد .

٣ — وقد جاء فى سورة النساء أيضاً الآيات التالية :

« يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰناً مُّبِيناً وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِى السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقاً غَلِيظاً . فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً .

وبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا . وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وما قَتَلُوهُ ومَا صَلَبُوهُ ولَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ومَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . وإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ويَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا . فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللهِ كَثِيراً . وأَخْذِهِمُ الرِّبَوٰا وقَدْ نُهُوا عَنْهُ وأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ النَّاسِ بِالْبَـٰطِلِ وأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . لَّـٰكِنِ الرَّٰسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ والْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ومَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ والْمُقِيمِينَ الصَّلَوٰةَ والْمُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ والْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ والْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَـٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا . إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ والنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ وإِسْمَـٰعِيلَ وإِسْحَـٰقَ ويَعْقُوبَ والْأَسْبَاطِ وعِيسَىٰ وأَيُّوبَ ويُونُسَ وهَـٰرُونَ وسُلَيْمَـٰنَ وءَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا . ورُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ورُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وكَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا . رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ ومُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . لَّـٰكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ والْمَلَـٰئِكَةُ يَشْهَدُونَ وكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَـٰلًا بَعِيدًا ...

١٥٣ - ١٦٧

والآية الأولى تضمنت حكاية موقف تحد يهودي للنبي إزاء دعوتهم إلى التصديق

بنبوته ؛ ومن المتبادر أن هذا التحدى قد كان فى مشهد دعوة وحجاج مواجه ؛ أما الآيات الأخرى فقد جاءت تعقيباً على هذا الموقف ، واحتوت ربط موقفهم هذا بموقف آبائهم ، وحملت عليهم حملة شديدة بسبب تحديهم لموسى عليه السلام وانحرافاتهم عن مبادئ دينهم وعقيدة التوحيد ، وافتراءاتهم على مريم والمسيح ؛ وقد استهدفت الآية التى ذكرت إيمان الراسخين فى العلم منهم، دمغهم بحجة قاطعة كما هو المتبادر ، كما استهدفت الآيتان التى تلتها بتقرير أن وحى الله بالقرآن لنبيه كوحيه للأنبياء الذين يؤمن بهم اليهود - بيان تناقضهم فى تحديهم وتعجيزاتهم ؛ ومما لاريب فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قد أسمعهم هذا الفصل التعقيبى القوى فى مشهد مواجه وأفحمهم بالحجة القرآنية الدامغة ، والتقريع القرآنى اللاذع .

٤ - وقد جاء فى سورة المائدة الآيات التالية :

« يَٰأَيُّهَا الرَّسُولُ لايَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فى الكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَٰضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فى الدُّنيا خِزْىٌ وَلَهُمْ فى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ . وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَٰةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالمُؤْمِنِينَ .. ٤١ - ٤٣

وقد روى جمهور المفسرين والرواة أنها نزلت فى حادث زنا اقترفه يهودى فطلب

اليهود قضاء النبي فيها آملين أن يقضي بغير الرجم الذي هو قصاص ذلك في شريعتهم؛ كما أن بعضهم روى أنها نزلت في حادث دم؛ وهذه الرواية أكثر اتساقا مع سياق الآيات التي أتت بعدها، لأنها ذكرت أحكام التوراة في حوادث الدماء.

ومهما يكن من أمر ففي الآيات صورة صريحة لموقف حجاج وتعجيز وتهويش وقفه اليهود من النبي يطلبون التقاضي عنده؛ ويبدو منها أن المنافقين اندمجوا في هذا الموقف وأنه كان له أثر أليم في نفس النبي صلى الله عليه وسلم لما بدا منهم من تمحل وتضليل وكذب وتحريف.

ومن قبيل الاستطراد نلفت النظر إلى ما احتوته الآيات من جعل الخيرة لليهود في التقاضي لدى النبي وعدمه، وفي إيجاب القضاء بالقسط إذا ما تقاضوا لديه، إذ حفظت لهم حريتهم القضائية وأقرت لهم القضاء بأحكام التوراة؛ ولقد نوهت الآيات التالية لها بما في التوراة من نور وهدى توكيداً لهذا الإقرار؛ ففي هذا شاهد على ما جنح إليه الإسلام من احترام حرية اليهود القضائية واحترام أحكام التوراة القضائية وإقرارهم عليها مع التوصية بالقسط إذا ما أرادوا التقاضي لديه ورأى أن يقضي بينهم دون أن يكون لمواقفهم الجحودية أي تأثير في ذلك.

٥ — وقد جاء في سورة المائدة الآية الآتية:

« وقالَتِ اليَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُم مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وكُفْرًا وأَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا واللهُ لا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ ... ٦٤

وقد روى في نزولها أن النبي صلى الله عليه وسلم استعان بعض اليهود على بعض الديات تمشياً مع عصبية الحلف فشكوا له ضيق الرزق، وقالوا إن يد الله مغلولة عنهم فيه.

وعلى كل حال ففي الآية صورة لموقف محاجة يهودي أساء اليهود فيه أدبهم في

حق الله ؛ وقد سبق منهم موقف مماثل حكته آيات آل عمران ١٨٠ – ١٨٤ على ماشرحناه قبل ؛ مع فارق واحد هو أنهم فى ذلك الموقف كانوا يزهون بغناهم ، فى حين أنهم فى هذا الموقف كانوا يشكون إذ بدل الله حالهم بالعسر بعد اليسر وبالضيق والفقر بعد السعة والغنى !

ويبدو من مضمون الآية أن هذا الموقف الذى وقفوه كان منبعثاً عما كان يملأ صدورهم من الغيظ والسخط من رسوخ فى قدم النبي وانتشار دعوته ؛ ولعل مما يصح أن يضاف إلى هذا احتمال كون المسلمين قد انصرفوا عنهم أو قاطعوهم بسبب مواقف الكيد والجحود التى مافتئوا يقفونها ، واستجابة لأمر القرآن ونهيه وتحذيره ، فأثر ذلك فى حالتهم الاقتصادية تأثيراً سيئاً زاد غيظهم وسخطهم وتبرمهم ، ودفعهم إلى ما كان منهم من سوء الأدب فى حق الله ومن رد غير جميل لرسوله . ولقد جاء بعد هذه الآية آيتان فى ثانيتهما قرينة على صحة ماخمناه وهما هاتان :

« ولَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَٰبِ ءامَنُوا واتقوا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ النَّعِيمِ . ولَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَٰةَ والإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ... ٦٥ - ٦٦

إذ يلمح فيهما أنهم فى حالة ضيق ، وأن سبب هذا هو ما كان من موقفهم الجحودى . وواضح أن فى هذا فوق الصورة التى نبهنا عليها مشهداً من مشاهد الحال التى صار إليها اليهود ؛ وننبه إلى أن الآيات وسياقها فى حق اليهود ، وأنها تحتوى مشاهد وأقوالا واقعية لهم ، ولو أن الآيتين الأخيرتين جاءتا مطلقتين وشملتا أصحاب الإنجيل أيضاً ، ونرجح أن ذلك من قبيل التعميم والاستطراد :

٦ - وقد جاء فى سورة البقرة الآيتان التاليتان :

« قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وهُدًى وبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ . مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰئِكَتِهِ ورُسُلِهِ وجِبْرِيلَ ومِيكَٰلَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ... ٩٧ - ٩٨

وليس لليهود ذكر فى الآيتين ؛ غير أنهما جاءتا فى سلسلة فى حق اليهود متصلة بهما من قبل ومن بعد ، كما أن روايات الرواة والمفسرين تذكر أنهما نزلتا بمناسبة حوار وقع بين النبى صلى الله عليه وسلم وبعض اليهود حول جبريل عليه السلام ، إذ سألوه عمن ينزل عليه بالوحى ، فلما قال لهم إنه جبريل قالوا هذا عدونا ، وذكرت كذلك أنهما نزلتا بمناسبة حوار وقع بين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وبعض اليهود قالوا فيه إن جبريل وميكال عدوان لليهود .

ومهما يكن من أمر فنى الآيتين موقف من مواقف اليهود التمحلية والجحودية متصل بوحى الله وملائكته ، وصلتهم بالنبى صلى الله عليه وسلم كما هو المتبادر .

— ٧ —

(٥) ومنها مواقفهم الحجاجية حول القبلة والكعبة والحج . فقد جاء فى سورة البقرة الآيات التالية :

« سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّـٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ . قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ . وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن

بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّٰلِمِينَ . الَّذِينَ ءاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ . وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ . فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ... ١٤٢ - ١٥٢

ولقد قال جمهور المفسرين والرواة إن المقصود من السفهاء هم اليهود ؛ وفى الآيات قرينة على ذلك فى ذكر أهل الكتاب وكتمانهم الحق مع علمهم به ، مما وصف به اليهود أكثر من مرة فى القرآن ، هذا إلى أن الآيات مسبوقة بسلسلة طويلة فى حق اليهود . وهكذا تكون الآيات قد تضمنت فيما تضمنته صورة لموقف من مواقف اليهود الحجاجية والكيدية فى ظروف تبديل سمت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة الحرام .

وروح الآيات تلهم أنه كان لهذا التبديل وقع شديد على اليهود ؛ فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم فى مكة يتجه فى صلاته - على ما جاء فى الروايات - إلى الكعبة ، ثم اتجه إلى المسجد الأقصى عزوفاً عما كان فيها من أصنام ، وتفادياً من اشتراكه فى الاتجاه إليها مع المشركين ، أو لعله فعل هذا عند هجرته من مكة من أجل هذين السببين من

جهة ، وتأثراً من موقف أهل مكة الجحودى والمؤذى الذى اضطره إلى مفارقة مكة من جهة ، وتألفاً لليهود وتسهيلا لإجابتهم لدعوته من جهة ثالثة ؛ وقد عددنا العلل لأننا لم نطلع على تعليل قديم وثيق ، ولا على توقيت وثيق لاتجاهه إلى المسجد الأقصى ؛ ولكن اليهود وقفوا منه موقف الإنكار والجحود والدس من جهة ، وأخذوا يزهون عليه وعلى المسلمين بأن اتجاههم إلى قبلتهم هو اعتراف بأنهم على الهدى ، وبأن النبي والمسلمين إنما يقتبسون الهدى منهم ، وبأنهم أولى أن يتبعوهم ويندمجوا فيهم لا العكس ؛ فحزّ هذا فى نفس النبي صلى الله عليه وسلم وانبثقت فيها أمنية التحول عن سمت المسجد الأقصى ، لا سيما وقد ظهر من اليهود ما أيأسه منهم .

ونص مطلع الآية (١٤٤) بنوع خاص « قد نرى تقلب وجهك فى السماء » قرينة قوية على ما اعتلج فى نفس النبي من أزمة بسبب الاتجاه نحو المسجد الأقصى وزهو اليهود وموقفهم من ذلك ، وعلى ما قام فيها من رغبة فى التحول عنها ؛ وجملة « فلنولينك قبلة ترضاها » فى الآية المذكورة يمكن أن تلهم أن النبي صلى الله عليه وسلم حين صار يائساً أو كاليائس من اليهود وثارت فى نفسه تلك الأزمة وقامت فيها هذه الرغبة ، تراءى له أن اتجاهه إلى قبلتهم مما يضعف قوة دعوته ، وأن عودته إلى قبلته الأولى مما يؤلف قلوب العرب ، كما أن ذلك هو الأولى ، لأنها بيت الله العربى القديم الذى يعرفه العرب ويرتبطون به ، والذى هو من عوامل وحدتهم الروحية بسبب اشتراكهم جميعاً فى حجه ، فكان يتمنى أن يتحول إليها فى صلاته وتكون قبلته ثانية ؛ ولعله كان يسمع تألما أو انتقاداً أو يرى حيرة من العرب مسلمين وغير مسلمين من الاتجاه إلى المسجد الأقصى وإهمال الكعبة وهى بيت الله العربى المقدس منذ قديم الأحقاب ، فكان هذا مما قوى ما فى نفسه من الرغبة والأمنية .

ولعل جملة « لئلا يكون للناس عليكم حجة » تتضمن قرينة على هذا .

ولقد رأى اليهود فى هذا التحول ضربة شديدة توجه إلى مكانتهم الدينية ووسيلتهم إلى الزهو على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، فنشطوا على ما تلهمه الآيات إلى الدس والحجاج وتشكيك المسلمين ، فقالوا إذا كان سمت المسجد الأقصى غير حق فقد أضاع النبي عبادة الذين صلوا إليه ، وإذا كان حقا فلا معنى للتحول عنه وتكون الصلاة إلى الكعبة ضائعة ؛ وقالوا إن أفعال النبي لو كانت مستندة إلى وحى ربانى

لما نسخ اليوم مافعله بالأمس ، ولما قال اليوم قولا ثم نقضه فى الغد ، لا سيما فى الأمور التعبدية [١] .

ويبدو من روح الآيات ومضامينها أن هذه الدسائس الدعايات والمواقف الحجاجية قد أثرت بعض الأثر فى بعض المسلمين ، فاحتوت الآيات أسباب طمأنينة متنوعة لهم ، وحملة على اليهود ، وتثبيتاً للنبى صلى الله عليه وسلم فيما أوحى إليه به ، مثل تقرير أن المسئلة ليست فى الشرق والغرب [٢] ، وإنما هى فى الاتجاه الخالص إلى الله ، وأن تبديل القبلة الأولى بالثانية هو اختبار ربانى لقوة إيمان المسلمين واتباعهم الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وأن من نعمة الله عليهم أن بعث فيهم رسولا منهم ، يعلمهم ويزكيهم ، لحق عليهم شكره وذكره ، والثبات على ما فرضه ، وعدم جحود نعمته والتردد فى اتباع مايأمر به ، وكون الله لايمكن أن يضيع إيمانهم وصلاتهم فعليهم أن يطمئنوا ، ولايستمعوا لدسائس اليهود الذين يعلمون أن ماوقع حق وإن كتموه وأن يستيقنوا أن انتقادهم سفه فلا يعبأ به ، وأنه لا أمل فى اتباعهم دعوة النبى وقبلته ، فلم يبق محل لاتباعه قبلتهم وأهواءهم .

وهذه السلسلة مسبوقة بسلسلة أخرى نعتقد أن لها صلة بالموقف وأنها نزلت هى أيضاً فى مناسبة نقتطف منها مايلى :

١ — مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ . مَا نَنْسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ . وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ

---

(١) هذا الدس اليهودى تتضمنه آيات سابقة لهذه السلسلة سنعرضها بعد .

(٢) هذا التقرير فى آيات أخرى سابقة سنعرضها بعد .

بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ...

١٠٥ - ١٠٩

٢ — وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَـٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ...

١١٤ - ١١٥

٣ — وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّـٰلِمِينَ. وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَـٰكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ. وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ. وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَـٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَـٰهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّـٰلِحِينَ. إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ

لِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ ... ١٢٤ - ١٣١

ولقد روى فى صدد الآية ١٠٦ أن اليهود كانوا يغمزون النبي ويثيرون الشك فى المسلمين بقولهم إنه يأمر بالشيء ثم ينهى عنه ، وإن هذا ليس شأن الأنبياء ، ويلقنونهم طلب البراهين منه على نبوته بسبيل ذلك ؛ فاحتوت الآيات طمأنة للمسلمين ، فالله إذا نسخ أمراً فلحكمة رآها ، ولعل الناسخ يأتى خيراً من المنسوخ ، وأن الكتابيين - والمقصود هنا اليهود للقرينة القائمة - لايريدون لهم أى خير كالمشركين ، وأن كثيراً منهم يودون أن يرتدوا كفاراً حسدا وحقدا ، وأنه لاينبغى للمسلمين أن يقفوا من النبي موقف اليهود من موسى : يحاجونه ويراد ونه ويسألونه البراهين ، فإن مغبة هذا تبدل إيمانهم بالكفر . والذى يتبادر لنا أن اليهود قد غمزوا النبي صلى الله عليه وسلم بما غمزوه من النسخ بمناسبة تبديل القبلة قصد الدس والتشكيك ، فاحتوت الآيات ما احتوته من الطمأنة والتحذير .

وفى الآيتين ١١٤ - ١١٥ ما يمكن أن يكون قرينة على هذا التوجيه ، إذ احتوت الأولى تنديدا بمن يعطل مساجد الله ويسعى فى خرابها ، والثانية إعلاناً بأن المشرق لله والمغرب لله ، وأن الله موجود أينما يولى المسلمون وجوههم ؛ والأولى تلهم أنها تنديد باليهود ، لأنهم دسوا وشككوا فى ظروف تبديل القبلة ، وفى هذا سعى لخراب بيت الله وإهماله ، وينطوى فى الثانية معنى سعة أفق الدعوة الإسلامية ، واهتمامها بالجوهر دون العرض ، تلقينا للمسلمين حتى لا يعبأوا بما يبثه اليهود فيهم [1] .

أما السلسلة الثالثة (١٢٤ - ١٣٠) ففيها توكيد .

(١) لقدسية الكعبة ، وتقرير أنها بيت الله ومعبده المطهر ، ومثابة للناس منذ طويل الأحقاب . و (٢) لصلة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بها وبأمن منطقتها ومناسك حجها . و (٣) لصلة العرب بإبراهيم وإسماعيل بالبنوة ، وتوكيد أن بعثة نبي منهم فيهم هى أمنية من أمانيهما ، ودعوة من دعواتهما لإنقاذ العرب وتطهيرهم وإرشادهم . و (٤) لأساس ومفهوم ملة إبراهيم عليه السلام وهى إسلام النفس لله وحده ، وأن المنحرف عن ذلك ضال خاسر نفسه .

---

(١) هناك روايات فى صدد الآيتين لاتتسق مع روحهما ومضامينهما ولا تستند إلى إسناد وثيقة ، وفى بعضها إغراب بل تهافت أشرنا إليه فى تفسيرنا « القويم » .

والذى يستلهم من روحها ومضامينها ومن ورود الآيات المنددة باليهود بسبب موقف الدس الذى وقفوه فى ظرف تبديل القبلة بعدها بقليل، وهى الآيات ١٤٢ - ١٥٣ - أن هذه الآيات هى من جهة مقدمة للآيات التى تليها مباشرة والتى احتوت الرد على اليهود فى أمر ملة إبراهيم ومجادلاتهم وهى ١٣١ - ١٣٤ التى نقلناها فى فقرة سابقة، ومن جهة ثانية مقدمة أيضا للآيات ١٤٢-١٥٣ التى احتوت الرد عليهم فى نقدهم تبديل القبلة؛ فوق ما احتوته من تدعيم لصحة النبوة المحمدية وأهدافها إزاء العرب وإزاء أهل الكتاب معاً. ولعل مما يتصل بالموضوع الذى نحن فى صدده استهدافها فى تقرير صلة إبراهيم وإسماعيل بالكعبة واتصال فضلها وطهارتها - تقرير سبقها فى القدم والوجود للمسجد الأقصى، وأولويتها عليه فى الاتجاه والتعظيم، وبالتالى تقرير أن الناسخ وهو الكعبة جاء خيراً من المنسوخ وهو المسجد الأقصى.

وننبه إلى ما يمكن أن تلهمه فقرة «وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم» فى الآية ١١٤ من اعتراف اليهود فى موقف ما قبل البعثة أو بعدها بفضل الكعبة وصلتها بإبراهيم عليه السلام وسبقها المسجد الأقصى، إذ جبهتهم الحجة القرآنية بما كان من اعترافهم بذلك ثم إنكارهم له وسعيهم ضده بالدس والتشكيك؛ وإذ أريد فى آيات من السلسلة تقوية للحجة الدامغة عليهم، تقرير واقع موقفهم وبواعثه، وهو الغرض والهوى والحقد والمماراة. ولقد كانت هذه الفصول القرآنية تتلى جهرة، ولا بد أن يكون اليهود قد سمعوها أو وجهت إليهم فى مشهد من المشاهد، كما سمعها العرب على اختلاف سرائرهم وقد احتوت هذه التقريرات القوية الصريحة عن فضل الكعبة وقدمها وصلتها بإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وصلة العرب بهما، ومعرفة اليهود أن هذا حق، والتنديد بهم لكتمهم إياه وعماراتهم فيه؛ وكل هذا لا يبقى أىّ محل للمماراة فيما استلهمنا من أن اليهود كانوا اعترفوا للعرب فى موقف من المواقف بذلك كله.

ومع كل ذلك يظهر أن اليهود لم يقبلوا الهزيمة؛ فقد جاء فى سورة آل عمران الآيات التالية:

«كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلاً لِبَني إِسْرٰءيلَ إلا ما حَرَّمَ إِسْرٰءيلُ عَلَىٰ نَفسه

مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ . قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ . قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ...

٩٣ - ١٠٠

وقد روى الرواة والمفسرون فى صدد القسم الأول من الآيات أنه نزل فى سياق موقف حجاجي بين النبي واليهود حول تحليل النبي صلى الله عليه وسلم لحوم الإبل وألبانها ؛ إذ انتقدوا ذلك لمخالفته للتوراة وملة إبراهيم ؛ ورووا فى صدد القسم الثانى أنه نزل فى سياق موقف حجاجي آخر بينه وبينهم أيضاً ادعى اليهود فيه أفضلية معبدهم وأفضلية الاتجاه إليه على الكعبة ؛ وكل رواية متسقة مع مضمون القسم الخاص بها من الآيات ؛ غير أنه يتبادر لنا أن الآيات نزلت دفعة واحدة فى سياق موقف حجاجي واحد اتصل الموضوعان فيه بعضهما ببعض ، إذ أنكر اليهود ماقررته آيات البقرة من صلة الكعبة وحجها بإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وقالوا إن التوراة لاتذكر شيئاً من ذلك ، فردت عليهم الآيات بأن التوراة لاتذكر أشياء كثيرة مما كان قبلها ، وضربت مثلا لهم بالمحرمات من الأطعمة التى ذكرتها التوراة مع أن كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل قبلها ، وتحدتهم بتلاوة التوراة وإثبات عكس ذلك .

ومهما يكن من أمر هذا التوجيه فإن القسم الثانى متصل بموقف حجاجي لليهود

فى شأن الكعبة وفضلها ؛ وقد احتوى تثبيتاً لما قررته آيات البقرة من صلة إبراهيم عليه السلام بها ، وقدمها على كل بيت عبادة آخر ، وبالتالى على المسجد الأقصى ، وإن من علائم فضلها أن كل من دخلها أمن ، وأن الله قد فرض حجها على كل من استطاع إلى ذلك سبيلا من الناس ، وأن فيها مقام إبراهيم ذا العلامات الواضحة المعروفة ؛ ثم حمل على اليهود حملة قوية ، وحذر المسلمين منهم ؛ فالله غنى عن الكافرين وإن اليهود ليكفرون بآيات الله ويصدون من آمن عنها ، وعلى المسلمين أن يحذروهم فإنهم إذا أصغوا إليهم ارتدوا إلى الكفر بعد الإيمان . وفى الفترة الأخيرة من الآية (١٠٩) نقطة خطيرة المغزى نريد أن ننبه إليها ؛ فقد أمرت المسلمين بالعفو والصفح إزاء مايبدو من اليهود من مواقف الدس والكيد والأذى والتشكيك والحسد ومحاولة رد المسلمين إلى الكفر ... إلخ ، إلى أن يأتى الله بأمره ؛ مما يلهم أن الغضب استفز فريقاً من المسلمين عليهم فاقترح التنكيل بهم ، فاقتضت الحكمة تهدئته وتسكينه إلى وقت تكون الحجة عليهم أشد قوة وتبديل الموقف معهم أكثر تبريراً .

— ٨ —

هـــذا ؛ وقد رأينا المناسبة سانحة للتنبيه إلى بعض الأمور فى صدد تبديل سمت القبلة بالذات كحادث من حوادث السيرة فى العهد المدنى ؛ فقد أكسب الدعوة الإسلامية شخصية مستقلة بعد أن كان فى شخصيتها شىء من التموج أو التمازج فى أفق ومدار شخصية أهل الكتاب وقبلتهم ، وقد خلد قدسية الكعبة ومركزيتها ، إذ لم تلبث أن صارت متجه العرب فى حياتهم الدينية الجديدة فى جميع أنحاء الجزيرة ، أشد وأقوى وألزم مما كانت لهم قبل هـذه الحياة أولا ، ومتجه المسلمين فى جميع أنحاء العالم ، وناظماً لوحدتهم الروحية ثانياً ؛ وقد كان كذلك عنوانا على الإبقاء على مناسك الحج والكعبة ، إذ صارت ركنا مفروضا من أركان الإسلام بعد تصفيتها من شوائب الوثنية ومشاهدها .

وهناك نقطة تستحق التوقف من ناحية ظروف حادث تبديل القبلة : فالآيتان ١٤٢ — ١٤٣ تقدمتا على الآيات التالية لها فى السلسلة ١٤٢ — ١٥٣ والتى

فيها صراحة تبديل القبلة . والسؤال الذى يخطر بالبال هو هل نزلت هذه السلسلة جميعها معا ، أو أن الآيات ١٤٤ وما بعدها نزلت على حدة ونزلت الآيتان الأوليان على حدة ، وأى المجموعتين نزلت قبل الأخرى ؟ فإذا كانت السلسلة نزلت جميعها معا فمعناه أن حادث التبديل كان بدءا بإلهام ربانى غير قرآنى ، وأن السلسلة وما قبلها إنما نزلت للرد على انتقاد اليهود ، وتثبيت النبى صلى الله عليه وسلم على ما ألهمه من التحول ، وتبريره وطمأنة قلوب المسلمين . ولعل حكاية تساؤل اليهود بصيغة « ماولاهم » قرينة على هذا . وفى القرآن شواهد عدة على أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يلهم العمل ثم ينزل القرآن بتثبيته وتبريره ، ومن الأمثلة على ذلك غزوة بدر ، وعزيمة زيارة الكعبة التى انتهت بصلح الحديبية ، فقد نزلت سورتا الأنفال والفتح فيهما بعد وقوعهما ، وفيهما تثبيت لما فعل النبى، كما فى الأنفال وعتاب بشأن الأسرى لأن مافعله كان خلاف الأولى الذى فى علم الله . أما إذا كان التبديل قدوقع بأمر قرآنى ، وبعبارة أخرى بالآية ١٤٥ وما بعدها فالمتبادر أن تكون هذه الآية هى التى نزلت أولا ثم وقف اليهود موقفهم فنزلت الآيتان ١٤٢ - ١٤٤ ثم بقية السلسلة وما قبلها من فصول متصلة بالموقف على ما ذكرناه قبل ؛ ونحن نميل إلى ترجيح الفرض الأول، لأن الآية ١٤٥ نفسها قد احتوت ردا على أهل الكتاب ، وبيانا لواقع موقفهم وباعثه .

أما تاريخ الحادث فقد كان - فيما يروى - بعد ستة عشر شهرا من الهجرة النبوية ، فى أثناء صلاة ظهر يوم الاثنين للنصف من رجب على رأس سبعة عشر شهرا حيث صلى النبي صلى الله عليه وسلم ركعتين إلى المسجد الأقصى ثم تحول إلى الكعبة، وبقطع النظر عن التعيين الحاسم فى الرواية فإن من المحتمل جدا أن تكون آيات القبلة من الفصول المبكرة فى النزول تبعا لتبكير اليهود فى موقفهم الجحودى ؛ وقد يكون فى هذا مايدعم صحة التاريخ المروى أو مقاربته للصحة .

— ٩ —

ومما يصح أن يلحق بهذا المبحث ماحكته آيات عدة عن غرور اليهود وتبجحهم اللذين كانا يبدوان منهم حينما كانت توجه إليهم الدعوة أو يحدث بينهم وبين النبي

والمسلمين حجاج وجدل ؛ إذ ورد فى القرآن غير ما مر نقله مما اتصل بالأبحاث السابقة آيات عدة أخرى .

١ - ففى سورة البقرة الآيات التالية :

« فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ . وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ...

٧٩ - ٨٠

وقد تضمنت (١) حكاية موقف تدليس لهم على العرب بما كانوا يظهرونه من تعالم ، وينسبون ما يقولونه ويكتبونه إلى الله افتراء عليه ، لاستبقاء مالهم عندهم من ثقة ومكانة . و (٢) حكاية موقف تبجح إزاء ما كانوا يسمعونه من الإنذار القرآنى فيقولون إن المذنب منهم لن تمسه النار إلا أياماً معدودة ثم يناله عفو الله لما لهم من حظوة خاصة عنده . والمتبادر أن هذا الموقف خاصة هو من باب المواقف الحجاجية فوق ما فيه من تبجح زائف .

٢ - وفى السورة نفسها الآية التالية :

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ... ٩١

وقد تضمنت حكاية موقف غرور واستخفاف لهم إذ كانوا يقولون إن ما عندهم كاف لهم ولا حاجة لهم بغيره حينما كانوا يدعون إلى الإيمان بالقرآن والنبوة المحمدية ، والفقرة الثانية من الآية تلهم أن هذا القول منهم كان فى مشهد حجاج ودعوة مواجه كما هو المتبادر .

٣ - وفى السورة نفسها أيضا الآيات التالية :

« قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ... ٩٤ - ٩٥

والمتبادر أن تحدى اليهود فى الآية الأولى قد كان جواباً على موقف حجاج وتبجح قالوا فيه إنهم وحدهم على الهدى ، وإنهم من أجل ذلك هم وحدهم أصحاب الحظوة عند الله فى الآخرة . ولقد جاء فى سورة الجمعة تحد مقارب لهذا التحدى ردا على تبجحهم بأنهم أولياء لله من دون الناس ، كما ترى فيما يلى :

« قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ... ٦ - ٧

مما يدل على أن هذا التبجح منهم فى المشاهد الحجاجية كان يتكرر آنا بعد آخر .

٤ - وفى سورة البقرة كذلك الآية التالية :

« وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ... ١١١

وهذه الآية متصلة فيما هو المتبادر بالموقف التبجحى الذى ذكرناه فى الفقرة السابقة ، لأنها من سلسلة واحدة مع الآيات السابقة لها ؛ وقد لاحظنا فى مكان سابق أن ذكر النصارى هو من قبيل التعميم لكل من يتمسك بما هو عليه ويزعم أنه على حق . ومع ذلك فاليهود على كل حال ممن حكى القول عنهم .

٥ - وفى السورة نفسها الآية التالية :

« وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ... ١٣٥

وهذه أيضا متصلة بالموضوع نفسه ، وهى من سلسلة واحدة ، إذ قالوا متبجحين إن الهدى إنما هو فى اليهودية ؛ وما قلناه آنفا فى صدد ذكر النصارى يصح هنا بطبيعة الحال ،

٦ - وفى سورة آل عمران الآية التالية :

«ومِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ...

٧٥

وجمهور المفسرين والرواة على أن قائلى «ليس علينا فى الأميين سبيل» هم اليهود، وهذا متصل بفكرة أنهم شعب الله المختار، وأنهم ليس عليهم تبعة أى عمل يصدر منهم ضد أى شخص من الأميين، أى غير الكتابيين، وبكلمة ثانية من غيرهم[1] لأنهم لا يعترفون بالنصرانية وإنجيلها. وواضح أن قولهم هذا من باب الزهو والغرور والترفع عن الغير، كما أن فيه فتوى لأنفسهم باستحلال ما فى أيدى الغير دون ما حرج.

ولقد جاء فى سورة النساء آيات تمت إلى هذا الخلق الذى لا يتورعون عن التبجح به وهى :

«أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا . أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَىٰهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ... ٥٣ - ٥٤

إذ وصفتهم بأنهم إذا صار لهم ملك شىء أو سلطان ما فإنهم يحتكرون كل منفعة لأنفسهم، ولا يدعون للغير أى مجال للانتفاع بأى شىء مهما كان تافهاً؛ كما أن من خلقهم حسد غيرهم على أى نعمة تصيبهم أو فضل ينالهم من الله، مع أن الله قد آتاهم نعماً عظيمة تمتعوا بها من فضله.

٧ - وفى سورة آل عمران أيضاً الآية التالية :

(١) صار المقصود من الأميين فى القرآن «العرب» أيضا، لأن اليهود حينما كانوا يقولون الأميين لم يكن أمامهم غير عرب الحجاز تقريبا. وقد وصف النبى بالأمى فى آيات سورة الأعراف ١٥٧ - ١٥٨ بمعنى العربى، كما وصف العرب بالأميين فى آيات سورة الجمعة الأولى وغيرها.

«لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ العَذابِ ... ١٨٨

وجمهور المفسرين والرواة على أن المقصود فى الآية علماء اليهود. ومما روى فى صددها أن النبي صلى الله عليه وسلم سألهم عن أمر فأجابوه إجابة غير صحيحة ثم أخذوا يزهون بعلمهم، مع أن كذبهم لم يلبث أن انفضح؛ فنزلت الآية تندد بهم وتتوعدهم؛ ومهما يكن من أمر فالموقف التبجحى واضح فى الآية.

٨ - وفى سورة النساء الآيات التالية:

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّى مَنْ يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا. انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ... ٤٩ - ٥٠

وقد روى أن الآيتين نزلتا بمناسبة تبجح صدر من اليهود بأن الله يكفر عنهم فى النهار مايقترفونه من ذنوب فى الليل، ويكفر عنهم فى الليل مايقترفونه فى النهار؛ وعلى كل حال فالتبجح واضح فى الآية، وهو متصل بدعوى الحظوة عند الله.

٩ - وفى سورة المائدة الآية التالية:

«وَقَالَتِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ المَصِيرُ ... ١٨

وقد تضمنت حكاية تبجح صريح وعجيب ورداً عليه، والقسم الثانى من الآية يدل على أنه صادر فى موقف حجاجى. وقد استهدفت الآية دحض دعوى الحظوة والشعب المختار؛ كما استهدفت الآيات الأخرى ذلك أيضاً. ومما يجدر التنبيه إليه أن القرآن المكى والمدنى قد احتوى تقرير تفضيل الله اليهود على العالمين [1] مما يمكن أن يوهم تناقضاً فى التقريرات القرآنية؛ ولسنا نرى ذلك؛ إذ الأولى صرف التفضيل إلى

(١) الجاثية ١٦ والبقرة ٤٧ مثلا.

بعثة موسى عليه السلام ، وعدم ضرورة أن يكون ذلك مستمراً كما هو المتبادر ؛ لا سيما أن القرآن مكيه ومدنيه قد ذكر ما كان من انحراف اليهود واستحقاقهم لغضب الله ونكاله فى السابق واللاحق ، وفسق كثير منهم ، وجواب الله لإبراهيم عليه السلام بأن عهده لا ينال الظالمين من ذريته [٢] .

هذا بقطع النظر عما إذا كان القول المحكى فى الآية قد صدر عن اليهود والنصارى فى مجلس أو مجالس ، أو أنه تعبير عن لسان حالهم ؛ فإنها تحتوى صراحة أن اليهود ممن صدر عنهم القول كما هو ظاهر .

---

(٢) الأعراف ١٢٨ - ١٥٦ و ١٦١ - ١٦٩ والبقرة ١٢٤ والحديد ٢٦ وكثير من الآيات التى نقلناها فى هذا المبحث وخاصة آيات البقرة وآل عمران والنساء .

المبحث الثالث

دسائس اليهود بين المسلمين وتآمرهم عليهم

مع المنافقين والمشركين

مدى دسائس اليهود ومؤامراتهم ـ أولا دسائسهم : تظاهر اليهود بالايمان وتواصيهم بعكسه ـ تدليسهم باسم التوراة ـ محاولتهم تشكيك المسلمين فى صحة أعمال النبى وخاصة فى أمر تحويل القبلة ـ كتمهم ما فى التوراة من المحرمات بقصد التشكيك. تآمرهم على التظاهر بالايمان ثم الرجوع عنه لتشكيك المسلمين ـ تدليسهم بمخالف الايمان ـ دسهم بقصد إثارة الفتن والشكوك ـ صورة بليغه عن بغض اليهود للمسلمين وتربصهم بهم ـ محاولات علماء اليهود فى التدليس والاضلال ـ سخرية اليهود بالاسلام والصلاة والأذان ـ دور أحبار اليهود فى الموقف الجحودى اليهودى العام . ثانيا تآمرهم مع المنافقين : تمازج المنافقين واليهود وأثر هؤلاء فى نمو أولئك ـ مدى وصف اليهود بشياطين المنافقين ـ موالاة المنافقين اليهود ـ وعدهم لهم بالطاعة ـ موقف تآمر صريح بين المنافقين واليهود فى ظروف إجلاء بنى النضير ـ موقف إعلان صريح من المنافقين بتمسكهم بولائهم اليهود ـ تعليق فى صدد تولى المنافقين اليهود . ثالثا تآمرهم مع المشركين : خطورة الصور القرآنية لهذا التآمر على قلتها ـ تشجيع المشركين على الثبات على الشرك وإيهامهم بآلهتهم بسبيل التحالف معهم للقضاء على الكيان الاسلامى ـ بعد مدى ما ساقهم إليه الحقد من بشاعة الموقف. مظاهرة اليهود لجيوش الأحزاب التى غزت المدينة كنتيجة للتحالف ـ موالاة اليهود للكفار بالرغم من تظاهرهم بالايمان ـ صورة بليغة من عدائهم للمسلمين .

— ١ —

فى القرآن صور عدة لدسائس اليهود بين المسلمين وكيدهم لهم وللدعوة الإسلامية ، وتآمرهم عليهم مع المنافقين من جهة والمشركين من جهه أخرى ، تدل على بعد مدى ما كان من سوء نيات اليهود ضد المسلمين وشدة نكايتهم فيهم ، وتوسلهم بكل وسيلة إلى محاربة الإسلام وتقويض أركانه كما ترى فيما يلى :

— ٢ —

أولا : دسائس بين المسلمين :

١ — فى سورة البقرة الآيات التالية :

« وءامِنُوا بِما أنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لما معكمْ ولا تكونُوا أوّلَ كافِرٍ بِهِ ولا تَشْتَرُوا بِأَيْتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وإيّىَ فاتقونِ . ولا تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالْبَٰطِلِ وتَكْتُمُوا الحَقَّ وأنتم تعلَمُونَ ... ٤١ - ٤٢

وقد تضمنت نهى اليهود عن كتم الحق وإلباسه بالباطل عن قصد ؛ والمتبادر أن هذا إنما كان منهم تجاه الغير ، وبقصد الدس والتشكيك والصد ، والراجح إن لم نقل المحقق أن هذا كان منهم إزاء المسلمين ، لاسيما أن آيات أخرى كثيرة قد أكدته بصراحة . ويلاحظ أن الآيات من أبكر ما نزل فى المدينة ، ومعنى هذا أن الدس بين المسلمين قد أخذ يقع من اليهود مبكراً جدا ...

٢ — وفى السورة نفسها الآيات التالية :

« أفَتَطْمَعُونَ أن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وقدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ اللهِ ثُمّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وهُمْ يَعْلَمُونَ . وإذا لَقُوا الَّذِينَ ءامَنُوا قالُوا ءامَنَّا وإذَا خَلا بَعْضُهُمْ إلَىٰ بَعْضٍ قالُوا أتُحَدِّثُونَهُم بِما فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أفَلا تَعْقِلُونَ ... ٧٥ - ٧٦

والآيات تقرر من جهة فقدان الأمل بارعواء اليهود وإيمانهم بالنبي ، وتتضمن من جهة أخرى صورة من صور تدليسهم على المسلمين ونفاقهم ، وصورة أخرى لتآمرهم عليهم بالتواصى بأن لايصدر منهم أى اعتراف بحقيقة قد يكون فيها متمسك أو حجة عليهم ...

٣ — وفى السورة نفسها الآية الآتية :

« يَٰأيُّها الَّذِينَ ءامَنُوا لا تَقُولُوا رَٰعِنا وقُولُوا انْظُرْنا واسْمَعُوا ولِلْكَٰفِرِينَ عَذابٌ ألِيمٌ ... ١٤٠

يضاف إليها الآيات ١٠٥ - ١٠٩ التى نقلناها فى بحث تبديل القبلة . ولهذه الآيات مع الآية ١٠٤ صلة بالمبحث الذى نحن فى صدده ، إذ احتوت تحذيرات متنوعة

للمسلمين من حسد اليهود ودسائسهم والجرى على أساليبهم ؛ فاليهود كانوا يتخذون خطاب المسلمين للنبي صلى الله عليه وسلم بكلمة « راعنا » وسيلة لأذاه ، فيلوون ألسنتهم بالكلمة ليكون معناها وصف النبي بالرعونة سخرية به ، فنهوا عن ذلك ؛ وقد حذروا من تعجيز النبي صلى الله عليه وسلم بالأسئلة والمطالب تمليداً لأسلافهم الذين عجزوا موسى بمثل ذلك . مما يلهم أن اليهود قد نجحوا فى دسهم وتشكيكهم بين المسلمين حتى صار بعضهم يجادل ويسأل ويبدو منه بعض الشك ، وقد رجحنا أن هذا قد كان فى ظروف تبديل القبلة . وقد حذروا تحذيرين آخرين : فاليهود لا يريدون أن ينالهم خير من ربهم ، ويودون أن يرتدوا عن دينهم كفاراً ، حسدا للمسلمين وغيظاً من إسلامهم والتفافهم حول النبي صلى الله عليه وسلم . وخلال كل هذا تبدو أصابع اليهود الدساسة بين المسلمين واضحة كما ترى .

٤ - ويسلك فى هذه السلسلة آيات القبلة ١٤٢ - ١٥٢ التى نقلناها سابقاً ، إذ احتوت الإشارة إلى مواقف الدس والتشكيك اليهودية ، مما شرحناه فى مناسبته .

٥ - وفى السورة نفسها الآيات التالية :

« يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ . إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَـٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَـٰلَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ . ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَـٰبَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِى الْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ...

١٧٢ - ١٧٦

والمقصود من الجملة فى الآيات ١٧٤ - ١٧٦ هم علماء اليهود على ما قاله جمهور

المفسرين. وورود آية المحرمات مع الحملة عليهم أن هؤلاء العلماء قد وقفوا موقف دس وتشكيك من المسلمين بشأنها، كاتمين أنها مما حرمته التوراة، فاستحقوا هذا التقريع والإنذار، وتنبيه المسلمين إلى الحق في الأمر، وإلى أن علماء اليهود إنما يكتمون ما في كتابهم من الحق المتسق مع التقرير القرآني بقصد بث الشك فيهم وإضلالهم عن الهدى.

— ٢ —

٦ — وفي سورة آل عمران الآيات التالية:

« وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ. يَـٰأَهْلَ الْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَـٰتِ اللهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ. يَـٰأَهْلَ الْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ. وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ. وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ... ٦٩ - ٧٣

والجمهور على أن أهل الكتاب هنا أيضاً هم اليهود؛ وفي الآيات قرائن عدة على ذلك؛ فالصفات والأفعال المنسوبة إليهم مما نسب في غيرها لليهود صراحة كما مر في آيات البقرة. ويبدو أن الآيتين الأوليين تضمنتا تمهيداً تنديدياً لما حكته الآيات التالية لهما؛ أما الآيات التالية فقد تضمنت صورة دس وتشكيك بشعة جداً، إذ حكت تآمر اليهود فيما بينهم على التظاهر بتصديق القرآن والإيمان به، حتى إذا اطمأن المسلمون لهم أعلنوا شكوكهم وارتيابهم في بعض المسائل؛ فأحدثوا بلبالا وريباً في المسلمين وثغرة في صفوفهم؛ وقد حكت كذلك تواصيهم فيما بينهم بعدم الاعتراف بحقيقة مواقفهم ومقاصدهم ومعارفهم إلا بعضهم لبعض، وبعدم الاطمئنان

إلا لمن دان بدينهم ؛ لئلا ينتفع بذلك غيرهم ويكون لهم عليهم الحجة ، أو ينفذون إليهم من ثغرة ما .

٧ - وبعد قليل من هذه الآيات جاءت الآيات التالية :

« إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَـٰئِكَ لَاخَلَـٰقَ لَهُمْ فِى الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَإِنَّ مِنْهُم لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَـٰبِ وَمَاهُوَ مِنَ الْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَمَاهُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ...

٧٧ - ٧٨

والآيتان من سلسلة وسياق واحد ، والجمهور على أن المقصود فى الآية الثانية هم علماء اليهود : وقد تضمنت صورة من صور التدليس على المسلمين بقصد التعالم وكسب الثقة وضمانة المنفعة الخاصة ؛ ويبدو من فحوى الآية الاولى أنهم كانوا يحلفون الايمان على صحة ما يقولون من الأكاذيب والافتراءات على الله ليضمنوا الأهداف الدنيوية التى يهدفون إليها ...

ومن المحتمل أن تكون الجملة المنطوية فى الآية الأولى ، والتقرير الذى احتوته الآية الثانية ، متصلين بالمؤامرة التى حكتها الآية ٦٩ - ٧٤ ، وأن يكون فريق من علماء اليهود قد نفذوها ، وأنهم أخذوا يقسمون الأيمان على صدق ما قرروه من مناقضات النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن لما عندهم ، تحقيقاً لهدفهم وهو تشكيك المسلمين ، وردهم إلى الكفر ، وتفريقهم عن النبى أو إيجاد ثغرة فى صفوفهم .

ولقد جاء بعد قليل الآيات التالية :

« أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ . قُلْ ءَامَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ

والنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ونَحْنُ لَه مُسْلِمُونَ . ومَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وهُوَ فى الآخِرَةِ مِنَ الخَـٰسِرِينَ . كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وجَاءَهُمُ البَيِّنَـٰتُ واللهُ لا يَهْدِى القَوْمَ الظَّـٰلِمِينَ . أُولَـٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ والمَلَـٰئِكَةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ . خَـٰلِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ ولا هُمْ يُنْظَرُونَ . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... ٨٣ - ٨٩

ومن المحتمل أن تكون الآيات الأولى قد استهدفت رد دعوى المناقضة التى ادعاها اليهود تحقيقاً لمؤامرتهم ، وتوكيد إيمان النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين بكل ما جاء به الأنبياء السابقون بالإضافة إلى ما أنزل عليهم ، دون تفريق بين أحد ، ودون تردد ما ، وبكل إسلام وانقياد ؛ مما هو متصل بالرد عليهم أيضا على ما هو المتبادر. والآية ٨٦ تلهم أكثر من الآيات السابقة أن فريقا من اليهود قد نفذ المؤامرة ، فأعلن إيمانه بالرسالة النبوية والتنزيل القرآنى ، وشهد أنهما حق ؛ ثم مالبث أن أعلن ارتداده لإثارة الشك فى المسلمين ، فاستحق هذه الحملة الشديد المتناسبة مع بشاعة المؤامرة ، واحتمالات آثارها الوخيمة .

ونحب أن نلفت النظر إلى مدى الآية الأخيرة ، إذ يتسق مع مبادىء القرآن العامة من إبقاء الباب مفتوحاً لكل إنسان جاحداً كان أم مذنبا ليصلح أمره ، ويتوب عن موقف الإثم والجحود فيقبل منه ذلك ؛ وإذ يدل على أن هذا لليهود كما هو لغيرهم على السواء ، وعلى أن فكرة التعصب ضد اليهود دينا وعنصراً لم يكن لها أساس أو محل فى الدعوة النبوية والسيرة النبوية خلافاً لما يزعمه المغرضون .

- ٣ -

٨ - وفى سورة آل عمران أيضا الآيات التالية :

« قُلْ يَـٰأَهْلَ الكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَـٰتِ اللهِ واللهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ

ما تَعْمَلُونَ . قُلْ يَٰأَهْلَ الكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ ءامنَ
تَبْغُونَهَا عِوَجًا وأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وما اللهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ
ءامَنُوا إنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَٰبَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ
إيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ...

٩٨ - ١٠٠

والفريق المقصود هنا هو اليهود أيضا على ما قاله الجمهور ، والاستنكارات التى احتوتها الآيتان الأوليان مماثلة لاستنكارات آيات البقرة الموجهة لليهود بصراحة ، مما يقوم قرينة على ذلك . ولقد روى أنها نزلت بسبب محاولة بعض اليهود إثارة الفتنة بين الأوس والخزرج مدفوعين بالغيظ من اجتماع شملهم والتفافهم حول النبى ، وعدم نجاحهم فيما حاولوه من دس وتشكيك . ولقد جاء بعد هذه الآيات آيات فيها أمر للمسلمين بالاعتصام بحبل الله وعدم التفرق ، وتذكير لهم بما كان بينهم من عداء انقلب بنعمة الله إلى أخوة ، وبما كانوا عليه من ضلال تبدل إلى هداية ، مما يمكن أن يدعم تلك الرواية كما ترى فيها :

« وكَيْفَ تَكْفُرُونَ وأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءايَٰتُ اللهِ وفِيكُمْ رَسُولُهُ
ومَنْ يَعْتَصِمْ باللهِ فقَدْ هُدِىَ إلَىٰ صِرَٰطٍ مُسْتَقِيمٍ . يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا
اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ إلَّا وأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ
اللهِ جَمِيعًا ولا تَفَرَّقُوا واذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فأَلَّفَ
بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إخْوَٰنًا وكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ
فأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ ءايَٰتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ...

١٠١ - ١٠٣

على أنه مما يحتمل أن تكون الآيات ٩٨ - ١٠٠ قد نزلت لمناسبة موقف دس وتضليل دينى أيضا ، لأنها تندد باليهود لمحاولتهم صد المؤمنين عن سبيل الله وإقامة العثرات فى طريقهم ، مع يقينهم صدق النبوة والتنزيل ؛ كما أن من المحتمل أن يكون هذا الموقف قد أثر فى بعض المسلمين أيضا .

ومهما يكن من أمر فالآيات تضمنت صورا لمواقف دس وتضليل وإفساد وفتنة وقفها اليهود من المسلمين والدعوة الإسلامية ، واستهدفوا بها إيجاد ثغرة فى صفوف المسلمين ؛ ويبدو من صيغة الآيات وقوة تحذيرها للمسلمين وتنديدها باليهود أنه كاد يكون لهذه المواقف أثر غير محمود لولا أن تدارك الله المسلمين بتثبيته وهدايته .

- ٤ -

٩ - وبعد هذه الآيات جاءت الآيات التالية :

١ - وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ...

١٠٤ - ١٠٥

٢ - كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ . لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ . ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ... ١١٠ - ١١٢

والمتبادر أن الآيات استمرار لسابقاتها فى تحذير المسلمين وتنبيههم إلى ما هو الاولى بهم ؛ وقد احتوت الآيات الأخيرة تهوينا لشأن اليهود وقوتهم ومدى أذاهم ، وإشارة إلى الطابع العام الدائم الذى دمغوا به من الذلة والمسكنة وغضب الله ، بسبب كفرهم وتمردهم وبغيهم وسوء نياتهم . والتقريرات التى احتوتها متصلة بما

كان من الدسائس اليهودية بين المسلمين ، ومنبهة المسلمين إلى واجبهم من التضامن والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأنهم بذلك خير أمة أخرجت للناس ، وقد ربطت بين مواقفهم ومواقف آبائهم ، وحالتهم وحالة آبائهم ، فقررت أن هذا الواقع الذى فيه اليهود المعاصرون هو متصل بما كان عليه أسلافهم جيلا بعد جيل .

ويبدو من الآية (١١١) أن بعض المسلمين كانوا يخشون ما لليهود من قوة مال وعدد وحصون وسلاح ، وأن هذه الخشية كانت منفذا ينفذ اليهود منهم إليهم فى الدس والكيد مطمئنين إلى عدم جرأة المسلمين على التنكيل بهم التنكيل الذى يستحقونه ، فقد استهدفت هى والآية التالية لها تهوين قوتهم وشأنهم ، ولفت نظر المسلمين إلى واقع أمرهم من الذلة والمسكنة والجبن ؛ ويلمح من هذا بدء تطور إزاء بغاة اليهود الذين لم يتورعوا عن أى موقف من مواقف الأذى والكيد والدس وإثارة الفتنة ؛ ولقد أشرنا فى فقرة سابقة إلى ما تضمنته الفقرة الأخيرة من آية البقرة ١٠٩ من معنى خطير ؛ ويبدو من الآية ١١١ هذه أن الوقت الذى هدئ فيه المسلمون الساخطون على اليهود إلى أن يحين ، قد أخذ يحين بما ازداد اليهود فيه من بغى وكيد وأذى وإثارة فتنة ؛ فاحتوت الآية هذا التهوين الذى احتوته ، تسكينا لروع الخائفين ؛ ولعل التنكيلات باليهود قد أخذت طريقها التنفيذى بعد ذلك .

١٠ - وفى سورة آل عمران أيضاً الآيات التالية :

« يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ [١] قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْـَٔايَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ . هَـٰٓأَنتُمْ أُولَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ . إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا

---

(١) خبالا : فسادا وضعفا وتفويشا . عنتم : ان تصيبكم الشدائد والمشاق .

وإنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إنّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ...
١١٨ - ١٢٠

والجمهور على أن الآيات تعنى اليهود ، ومضامينها تدعم هذا إذا ما أنعم النظر فيها ، وفيها الصفات نفسها التى وصف بها اليهود بصراحة فى آيات أخرى

ولقد تضمنت صورة قوية وبليغة لعداء اليهود الشديد ومكرهم ، ونية الشر والكيد والبغض فيهم ضد المسلمين ، والغيظ مما بلغ أمر هؤلاء إليه من القوة والتعالى ، وقد حذرت المسلمين من أجل ذلك من موالاتهم واختلاطهم بهم ، وإطلاعهم على أمورهم وأسرارهم مما تتضمنه كلمة « بطانة » ، وليس من شك فى أن هذا قد كان مستندا إلى المواقف المتنوعة والكثيرة ، العلنية والسرية ، القولية والفعلية ، التى وقفها اليهود من النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين والدعوة الإسلامية . والآيات تلهم ما كان من قوة الروابط التى كانت تربط بعض العرب باليهود ، وقوة أثر هؤلاء فيهم ؛ مما يفسر حكمة تفصيل نيات اليهود وحقيقة أمرهم ومواقفهم تجاه المسلمين للتأثير فى الذين يميلون إلى التمسك بولائهم لليهود وحملهم على الانسحاب منه .

ولقد جاء فى سورة النساء نهى آخر فيه شىء من العتاب كما ترى فى الآية التالية :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ ... ١٤٤

وهذه الآية من سلسلة فيها حملة على المنافقين تلهم أن الكافرين المعنيين مباشرة فيها هم اليهود ؛ وقد استهدفت الآية ما استهدفته الآيات السابقة ، كما أن فيها نفس الدلالة التى ذكرناها آنفا كما هو المتبادر .

ولعل مما يصح أن يقال إن هذه الآيات تمت إلى ذلك التطور الذى أشرنا إليه فى الفقرة السابقة ، وتمهد له السبيل فى نفوس بعض المسلمين الذين غفلوا عما يبيته اليهود لهم .

- ٥ -

١١ - وفى سورة النساء الآيات ٤٤ - ٤٦ التى نقلناها فى مبحث مواقف اليهود الحجاجية ، فإن لها صلة بهذا المبحث أيضا ؛ إذ تضمنت صورة للعداء والدسائس اليهودية ، من عدم تورع اليهود عن المكابرة والارتكاس فى الضلال ومناقضة وصايا كتابهم وتعاليمه ، وتحريفهم له ، وتأويلهم إياه تأويلا باطلا بقصد

إضلال المسلمين وتشكيكهم فى دينهم وشق صفوفهم . والصورة هنا أقوى منها فى الآيات السابقة التى تضمنت صوراً مماثلة كما يبدو منها ؛ وتكرار التنديد بهذه الصورة يدل على توالى صدورها منهم بطبيعة الحال . ويلاحظ هنا أن اليهود قد وصفوا بأنهم أعداء للمسلمين ؛ ولعل هذا الوصف يأتى فى القرآن لأول مرة . ومما لاريب فيه أن هذا إنما كان بسبب استمرارهم فى المواقف الكيدية والمؤذية السرية والعلنية، والقولية والفعلية التى وقفوها .

١٢ - وفى سورة المائدة الآيات التالية :

« يَٰأَيُّها الَّذِينَ ءامَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ والكُفَّارَ أَوْلِياءَ واتَّقُوا اللهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . وإذا نادَيْتُمْ إلَى الصَّلوٰةِ اتَّخَذُوها هُزُوًا ولَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ . قُلْ يَٰأَهْلَ الكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءامَنَّا بِاللهِ وما أُنزِلَ إلَيْنا وما أُنزِلَ مِن قَبْلُ وأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ . قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللهِ مَن لَّعَنَهُ اللهُ وغَضِبَ عَلَيْهِ وجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ والخَنازِيرَ وعَبَدَ الطَّٰغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكانًا وأَضَلُّ عَن سَواءِ السَّبِيلِ . وإذا جاءُوكُمْ قالُوا ءامَنَّا وقَد دَّخَلُوا بِالكُفْرِ وهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ واللهُ أَعْلَمُ بِما كانُوا يَكْتُمُونَ . وتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فى الإثْمِ والعُدْوَٰنِ وأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ لَوْلا يَنْهَىٰهُمُ الرَّبَّٰنِيُّونَ والأَحْبارُ عَن قَوْلِهِمُ الإثْمَ وأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَصْنَعُونَ ... ٥٧ - ٦٣

ومضامين الآيات وخاصة الآية ٦٠ تدل على أن المقصود من أهل الكتاب فيها هم اليهود ، إذ وصفوا بالصفات التى تضمنتها أكثر من مرة : والربانيون والأحبار هم علماء اليهود خاصة أيضاً .

وفى الآيات تحذير للمسلمين من موالاة اليهود ، وتعليل بأنهم اتخذوا دينهم ونداءهم إلى الصلاة ، أى أذانهم ، هزواً ولعباً . وفى هذا صورة لمواقف المكر والاستخفاف اليهودية من المسلمين ودينهم وصلاتهم ، وقد يكونون استهدفوا بها - فوق دلالتها على غيظهم وجبلتهم الخلقية - إلقاء الريب فى قلوب المسلمين فيما هم عليه .

وفى الآيات صورة أخرى لمكرهم ، إذ كانوا يأتون إلى المسلمين فيعلنون إيمانهم وهم كاذبون ، وإنما يفعلون ذلك من قبيل التدليس والمكر والتضليل ؛ ولعلهم كانوا يستهدفون بذلك كسب ثقة المسلمين وطمأنينتهم حتى يكون مكرهم ودسهم وتضليلهم أنفذ .

وفيها إلى ذلك استطراد لذكر ما كانت عليه أخلاقهم من قول الإثم وأكل السحت ، ومن سكوت ربانييهم وأحبارهم عن ذلك ، مما يرجح أن يكون لهذا الاستطراد صلة بمواقف المكر والأذى ، وقصد لتقرير اندماج الربانيين والأحبار فى تلك المواقف وهذه الأخلاق .

ولقد جاء فى سورة التوبة : بضع آيات فى حق أهل الكتاب وقتالهم ومنها هذه الآيات :

« يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَٰفِرُونَ . هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ . يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ النَّاسِ بِالْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ... ٣٢ - ٣٤

والآيات صريحة الدلالة على ما كان للأحبار اليهود من موقف الصد والتعطيل ، وما كان لهذا الموقف من أثر فى جحود جمهور اليهود للنبوة المحمدية ، وعدم استجابتهم للدعوة الإسلامية ؛ ويبدو منها أن هؤلاء الأحبار كانوا شديدى التعلق بأعراض الدنيا ، وكانوا يصدون عن سبيل الله قصد إطفاء نوره وتعطيل دعوة نبيه لتبقى لهم

الرياسة والمكانة والطاعة ، مهما كانت الوسيلة مناقضة للحق . ولعل من الصواب أن يقال استلهاماً من هذه الآيات وغيرها إن أحبار اليهود وربانيهم بالتضامن مع زعماء اليهود قد تولوا كبر المعارضة والمحاجة ، والمشاقة والدسائس والتآمر والكيد والتشويش .

- ٦ -

ثانياً تآمر اليهود مع المنافقين .

١ - لعل أول آية ذكرت فيها صلات اليهود بالمنافقين هي آية البقرة هذه :

« وإذا لَقُوا الَّذِينَ ءامَنُوا قالُوا ءامَنَّا وإذا خَلَوْا إلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قالُوا إنا مَعَكُمْ إنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ... ١٤

وقد قلنا فى مناسبة سابقة إن الجمهور على أن « شياطينهم » تعنى اليهود ؛ والكلام فى الآية حكاية قول المنافقين ، وهى من سلسلة وصفية لهؤلاء حمل عليهم فيها حملة شديدة ؛ ووصف اليهود بأنهم شياطين المنافقين أى الذين يوسوسون إليهم ويغوونهم من جهة ، وذكر اختلاء المنافقين بهم من جهة أخرى ، يدلان بصراحة على الأثر الكبير لليهود فى حركة النفاق والمنافقين ، كما يدلان على التضامن الوثيق الموطد بين الفريقين تجاه الدعوة الإسلامية .

والآية من أبكر ما نزل من القرآن المدنى على الأرجح ، وهذا التبكير يدل على ما كان من جد اليهود فى تغذية وتقوية جبهة النفاق ، وعلى نجاحهم فى سعيهم وقيام حالة تواثق وتآمر بينهم وبين المنافقين منذ وقت مبكر من العهد المدنى .

وإذا لاحظنا الدور الباغى الذى قام به المنافقون على ما سوف نشرحه بعد ، وما كان له من آثار ضارة ، ثم لاحظنا ما كان يربط بين المنافقين والمخلصين من الأوس والخزرج من أوشاج القربى ، وما كان لعصبية القربى من قوة فى المجتمع العربى ، وما كان ينتج عن وقوف بعض ذوى القربى ضد بعضهم من مشاكل ومواقف محرجة ومؤذية فى الوقت نفسه للكيان الإسلامى وحركة الدعوة الإسلامية ؛ بدت لنا شدة النكاية وبعد مدى الأذى فيما كان من جد اليهود فى تغذية وتقوية جبهة

النفاق، ونجاحهم فى سعيهم ، وقيام حالة التضامن والتآمر بينهم وبين المنافقين منذ الوقت المبكر على ما تلهمه الآية .

٢ - فى سورة النساء الآيات التالية :

« بَشِّرِ الْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ...
١٣٨ - ١٣٩

وجمهور المفسرين على أن الكافرين هنا هم اليهود؛ وفى الآية قرينة على صحة ذلك ، كما أن فيما بعدها قرينة ثانية أيضاً . وواضح أن اتخاذ المنافقين اليهود أولياء ، وتواثقهم معهم ، إنما هما أثر من آثار التآمر الموطد بين اليهود والمنافقين تجاه الدعوة والقوة الإسلامية .

٣ - فى سورة محمد الآيات التالية :

« إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَٰرِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ...
٢٥ - ٢٦

والجمهور على أن الآية الأولى عنت المنافقين ، وأن الذين كرهوا ما نزل الله هم اليهود ؛ وهكذا تبدو فى الآية الثانية صورة من صور التآمر بين الفريقين ضد الإسلام والمسلمين . ونلفت النظر إلى ما حكته الآية الثانية من وعد المنافقين لليهود بطاعتهم والسير على الخطة التى يضعونها ، فنى هذا كما هو ظاهر صورة لبعض ما كان لليهود من التوجيه والتأثير والنفوذ فى المنافقين وحركتهم وأعمالهم .

٤ - فى سورة المجادلة الآية التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ...
١٤

والجمهور كذلك على أن الآية فى صدد تولى المنافقين لليهود ؛ وفيها والحالة هذه صورة من صور ذلك التآمر .

٥ - فى سورة الحشر الآية التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ... ١١

والذين كفروا من أهل الكتاب هم اليهود ، لأن الآيات السابقة هى فى صدد حادث تنكيل بهم ؛ وفى الآية صورة قوية للتضامن والتحالف الوثيقين بين اليهود والمنافقين ؛ كأثر من آثار التآمر الموطد بينهما .

٦ - فى سورة المائدة الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ... ٥١ - ٥٢

والآية الأولى وإن كانت شملت اليهود والنصارى فإن الموضوع المباشر للنهى على ما تلهمه الآية الثانية ورواية نزولها ، هو اليهود ؛ لاسيما أن المدينة لم يكن فيها من يسارع المنافقون إلى توليهم خشية الدوائر إلا اليهود ، إذ لم يكن فيها كتلة نصرانية عدو .

وقد روى المفسرون والرواة أن الآية الثانية نزلت بمناسبة مشادة بين كبير المنافقين عبد الله بن أبىّ وأحد زعماء المسلمين ، إذ قال هذا إنى برىء من اليهود ؛ فقال الأول أما أنا فلا أتبرأ منهم لأنى أخشى الدوائر ؛ وعلى كل حال فى الآية الثانية صورة للتواثق الشديد بين المنافقين واليهود وأثر من آثار التآمر بينهما

— ٧ —

ولقد يرد - فى صدد الحملة على المنافقين لتوليهم اليهود فى آيات هذه الفقرة وغيرها

مما نقلناه قبل - أنه كان بين الأوس والخزرج وبين اليهود عهود ومواثيق ، وأن النبي قد أبقى عليها وجددها ، وأن تمسك فريق من العرب بها أو اعتبار أنفسهم مقيدين بها مما لاغبار عليه ، لأنه مما توجبه واجبات الوفاء .

وجواباً على هذا نقول أولا : إن المنعى عليهم هم فريق المنافقين فقط الذين وقفوا منذ بدء الهجرة النبوية من النبي ودعوته موقف الكيد والمكر والتآمر ، فى حين أن تلك العهود والمواثيق قد كانت بين اليهود وسائر بطون الأوس والخزرج ؛ ومعنى هذا أن المسلمين المخلصين استجابوا لتحذير القرآن والنبي الذى كان معللا بمواقف كيد اليهود ومكرهم ودسهم وتآمرهم ؛ وإذا كان بعض المسلمين تردد أو تأخر فى نفض يده من الولاء للحلف بينه وبين اليهود ، فإن الذين جاهروا بالتمسك به ولم يعبأوا بالتحذير والنهى بوقاحة وإصرار وتمرد هم المنافقون فقط ، وهذا يدل بصراحة وقوة على أن الباعث لهم على هذا الموقف ليس الإخلاص للحلف ، وإنما ماجمع بين اليهود وبينهم من وحدة البغض والكيد للإسلام ونبيه ، وما توطد بين الفريقين من تواثق وتضامن وتآمر على النكاية بهما ، ولا يصح أن يعد من قبيل الوفاء بالعهود ، ولو أن المنافقين كانوا يعتذرون بذلك .

ونقول ثانياً : إن تلك المواقف التى حكاها القرآن عن اليهود من شأنها أن تكون نقضاً من جانبهم لتلك العهود والمواثيق ؛ ولقد اعتبرت كذلك بنص القرآن كما تلهمه الآيات التالية :

١ — أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ …

البقرة ١٠٠

٢ — إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ …

الأنفال ٥٥ - ٥٦

والآيات مما نزل مبكراً ، وهو أمر يدل على أن تلك المواقف قد اعتبرت نقضا منذ وقت مبكر ؛ فدعوة القرآن إلى عدم موالاتهم واتخاذهم بطانة وإطاعتهم وتحذيره ، هى شيء طبيعى لايتمحل فيه إلا مكابر أو مغرض .

وثالثا : تآمر اليهود مع المشركين :

إن الآيات الواردة عن تآمر اليهود مع الكفار والمشركين أقل مما ورد عن تآمرهم مع المنافقين ؛ وهذا طبيعي فيما يبدو ، لأن اليهود فى المدينة ، والصلات بينهم وبين أهلها أوثق ، والشقة بعيدة عن مكة التى كان زعماؤها قادة حركة العداء للنبى صلى الله عليه وسلم ودعوته ؛ ومع ذلك ففى الآيات القليلة الواردة صور ذات خطورة كبيرة المغزى والأثر .

١ - فمنها الآيات التالية من سورة النساء :

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ...

٥١ - ٥٢

ولقد روى فى صدد الآيتين روايات مفادها أن وفداً من زعماء اليهود ذهب إلى مكة بعد واقعة أحد ليبحث فى أمر النبى والمسلمين مع زعمائها ، ويعرض عليهم حلفاً يهدف إلى القضاء عليهم بعد الضربة التى نزلت بهم نتيجة لتلك الواقعة ، وأنه لما تم الاتفاق على الحلف ذهب الوفد والزعماء إلى فناء الكعبة وألصقوا أكبادهم بها ، وأقسموا عند الأصنام التى حولها على البر فى الحلف ، والجهد فى تنفيذه ؛ ومما روى أن زعماء مكة استشهدوهم على من هو الأفضل دينا وسبيلا فشهدوا لهم أنهم هم الأهدى والأفضل . وليس فى الروايات مالا يتسق مع الآيات إلا كون الآيات أكثر صراحة إذ تذكر إيمانهم بآلهة الكفار .

ولعل أبشع ما فى الصورة ، بل أشنع ما كان من اليهود ، أن يدفعهم الحقد والحسد والعداء للنبي ودعوته إلى عدم التورع فى الشهادة الفاجرة بأن الشرك خير ، من التوحيد ، وأن آلهة المشركين وأصنامهم خير من إله محمد رب العالمين ، وأن ما عليه المشركون من عادات وتقاليد أهدى مما يدعو إليه محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ثم إلى عدم التورع فى إعلانهم وإيمانهم بآلهة المشركين وتكريمهم لأصنامهم ؛ وهكذا ينكرون أساس دينهم الذى هو الإيمان بالله وحده ، فى سبيل محاربة النبى الداعى إلى ذلك ،

والناهي عن الشرك والاثم والفواحش ؛ وليس من ريب فى أن موقف هذا الفريق يدمغه بطابع من العار لا يمكن أن ينسى .

ولقد كان من نتيجة رحلة الوفد اليهودي وعقده الحلف مع زعماء مكة أن استنفر هؤلاء أهل مكة وأحزابهم وحلفاءهم ، وأن زحفوا بجيوش جرارة على المدينة ـ وهو ما عرف بواقعة الخندق ـ وأن زلزل هذا الزحف أعصاب المسلمين وأدخل فى قلوبهم الرعب ، وأن كاد يعصف فعلا بالإسلام والمسلمين لولا أن تداركهم الله بنعمته على ماسوف نذكره فى فصل الجهاد ؛ وقد وفى اليهود بالحلف ، فظاهروا الجيوش الزاحفة على المسلمين ، مما زاد فى حرج الموقف وشدة خطورته ؛ وهذا وذاك مما أشارت إليه الآيات فى سورة الأحزاب ؛

١ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَـٰفِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ... ٩ - ١٢

٢ — وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا . وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ... ٢٥ - ٢٧

٢ ـ ومنها الآيات التالية فى سورة المائدة :

« لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ابْنِ

مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ . وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ . لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ... ٧٨ - ٨٢

وقد ذكرت صراحة أن كثيراً من اليهود كانوا يتولون الكافرين ويتواثقون معهم ، ومما لاريب فيه أن هذا قد كان بسائق البغضاء التى كانت تجمع بين الفريقين للإسلام والمسلمين ، وبقصد التآمر على تقويض أركانهم وهدم بنيانهم ، وإذا لوحظ أن الكفار كانوا فى حالة حرب مستمرة مع اليهود ، بدا لنا أن ذلك التولى قد كان نوعا من المظاهرة الحربية وكان بالنتيجة شديد الخطورة بعيد المدى والأثر . ويبدو من الآية الأخيرة أن هذه المواقف منهم كانت مكشوفة ، وكانت آثارها ملموسة ، إذ وصفت اليهود بأنهم أشد الناس عداوة للمسلمين ، وقرنتهم فى هذه العداوة الشديدة بالمشركين الذين كان منهم ما كان من شديد الصد والأذى وكانوا فى حالة حرب مستمرة مع المسلمين .

ويستلهم من الآية ٨١ أن من اليهود من كان يتظاهر كذبا بالإيمان وتصديق النبي ؛ ففضحتهم وأقامت عليهم الحجة فى موقفهم الذى لا يمكن أن يحدث لو كانوا صادقين فى إيمانهم ؛ وهذه الصورة من الدس والمكر مما تكرر وروده فى آيات أخرى شرحناها سابقا ؛ غير أنها هنا مقترنة بما كان من تناقضهم واتخاذهم الكفار أولياء.

ولقد ربطت الآيات بين اليهود المعاصرين والسالفين فى الأخلاق والمكر وعدم التناهى عن الإثم والمنكر ، واستحقاقهم لعنة الله على ذلك جريا على الأسلوب القرآنى الذى يستهدف تقرير أن ما عليه المعاصرون من أخلاق وما يقفونه من مواقف هو جبلة متوارثة عن الآباء ...

المبحث الرابع

وقائع التنكيل باليهود وبواعثها ونتائجها

عداء اليهود وغدرهم منذ وقت مبكر ، تعدد فصول التنكيل - لكل فصل سببه - التنكيل جرى بمقدار الضرورة ، عدم خروج اليهود جميعهم من نطاق الكلام إلى الغدر والأذى في وقت واحد - أثر عدم تكتلهم سياسيا وحربيا في ذلك - إشارة إلى ماغمز به المغرضون النبي بسبب التنكيل وتفنيده - إجلاء بني قينقاع وظروفه وتحليل الاشارات القرآنية إليه - تكملة الصورة بالروايات - إجلاء بني النضير وتحليل ما في القرآن عنه - تكملة الصورة القرآنية بالروايات - التنكيل ببني قريظة وتحليل مافي القرآن عنه - تكملة الصورة بالروايات - الاشارات القرآنية إلى فتح خيبر والقرى اليهودية الأخرى وظروفه - تكملة الصورة بالروايات - الأسباب المحتملة لحملة - دلالة تساهل النبي مع أهل القرى .

— ١ —

إن اليهود لم يبقوا في نطاق جحود نبوة النبي وتنزيل القرآن ، وفي نطاق المكايدات والمكابرات والمماحكات الكلامية طويلا ، بل تجاوزوه إلى الغدر ونقض العهد والعداء الفعلي الصريح منذ عهد مبكر على ما استدللنا عليه في المبحث السابق من آيات البقرة ١٠٠ والأنفال ٥٥ - ٥٦ المبكرة في النزول ؛ فكانت مواقفهم هذه سبباً مباشراً لدور التنكيل الذي بدأت فصوله في الربع الأول من العهد المدني، ثم استمرت إلى أن تم إجلاؤهم عن المدينة وخضد شوكتهم وإجلاء بعضهم عن أرباضها في ظرف الربع الثاني والثالث منه .

ولقد تعددت فصول هذا الدور ، وكان لكل فصل أسبابه الخاصة ، كما كان موضوع كل فصل فريقا دون آخر من اليهود ؛ وهذا يدل على أن التنكيل إنما كان يجري بمقدار الضرورة وبقصد إزالة الضرر والخطر المتحقق من الفريق الذي حق عليه التنكيل فحسب ؛ كما يدل على أن اليهود لم يقدموا جميعهم على الخروج من نطاق الكلام إلى الغدر والعداء العملي في وقت واحد ، ولعل من أسباب ذلك أنهم لم يكونوا بمجموعي الشمل في سلك كيان سياسي وحربي واحد ومتواثق ؛ بل كانوا

- والكلام فى صدد يهود المدينة خاصة لأنهم كانوا الأكثر والأقوى والأغنى ، والمحتكين بالنبي والمسلمين والمنافقين والمصطدمين بالنبي والمسلمين - كتلا مستقلة ، كل كتلة أو قبيلة لحدتها وتسكن فى محلة خاصة بها ؛ ولعله كان بينهم خصومات أيضاً ، بدليل أن كتلهم كانت متوزعة فى التحالف والولاء بين قبيلتى الأوس والخزرج اللتين كانتا فى خصومة قديمة على ماذ كرناه فى مناسبات سابقة . وفى آيات البقرة ٨٤ - ٨٥ التى نقلناها من قبل دليل على ذلك ، إذ يستفاد منها أن كتل اليهود كانت تدخل فى الحرب بعضها ضد بعض . كل واحدة متضامنة مع فريق عربي يخاصم آخر ، وأن اليهودى كان يقتل اليهودى ويأسره ويجليه عن أرضه فيما كان ينشب بين الكتلتين المزدوجتين

ونحن نعرف أن بعض الكتاب من يهود ومبشرين ومستشرقين رأوا فى توالى فصول التنكيل باليهود ماجعلهم يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بيت نية التنكيل بهم ، وإثارة حرب عنصرية دينية ضدهم من البدء ، وأنه إذا لم ينفذ نيته فيهم مرة واحدة فلأنه لم يكن له قبل بهم جميعاً ؛ وقد غمزوه بالنكث بما عاهدهم عليه من الحرية الدينية والاقتصادية والاجتماعية ، وبالميل إلى سفك الدم ، وبالطمع فى أموالهم وإغداقها على المسلمين إلخ ، مما صدر منهم بسائق الغرض والتعصب وعدم التروى فى فهم آيات القرآن التى احتوت مافيه الحجة القاطعة والبينة الحاسمة على زيف مازعموا وسفه ماغمزوا .

فالقرآن قد ذكر (آيات البقرة ٨٤ - ٨٥) عدم تكتلهم وما كانوا يقعون فيه من جراء ذلك من مخالفات دينية فى قتل بعضهم بعضا وأسر وإخراج بعضهم بعضا فى معرض الذم والتنديد ؛ فلم يبق أى محل للارتياب فى أن ظروفهم الاجتماعية المتقدمة على البعثة - فضلا عن الهجرة - هى العامل فى عدم تكتلهم ، مما يسوغ الترجيح إن لم نقل الجزم بصحة ماقلناه من أنهم لم يخرجوا جميعهم فى وقت واحد من نطاق الكلام إلى الغدر والعداء العملى ، ومن أن التنكيل إنما كان يقع فى نطاق إزالة الضرر المتحقق من الفريق المبادر إلى الخروج من ذلك النطاق . ولقد احتوت الآيات القرآنية فى مختلف أدوار التنزيل المدنى - وقد أوردنا منها جملة صالحة فيما سبق - حكاية مواقف متنوعة وكثيرة لليهود فيها تعجيز وتحد ومكابرة ومجادلة وسخرية ، بل دسائس ومؤامرات فى صدد الجحود بالنبوة ، وتعطيل الدعوة ، وتشكيك المسلمين

فيهما ، كما احتوت مساجلات متنوعة معهم فى الجدل حينا ، والتنديد حينا ، والإفحام حينا ، والوعظ والتذكير والإنذار والتبشير حينا ، والدعوة إلى تخفيف الغلواء والانسجام والتوبة حينا ؛ وبكلمة أخرى لقد اتسع صدر النبي صلى الله عليه وسلم لهم سعة كبيرة ، وتمتعوا بحريتهم فى التمسك بدينهم ، ومباشرة شؤونهم الاقتصادية ، والاستمرار فى محالفتهم واتصالاتهم الاجتماعية والسياسية والشخصية ، دون انتقال من طور المساجلة إلى طور التنكيل ، ولم ينتقل إلى هذا الطور مع أى فريق منهم إلا بعد أن يطفح الكيل من دسائسه ومكائده وأذاه ، وبعد أن يكون قد انتقل هذا الفريق إلى موقف النكث بالعهد والأذى والغدر والتآمر والإضرار بكيان المسلمين ، مما تلهم أو تدل عليه الآيات والفصول العدة التى مرت ، والتى سترد بعد عند الكلام على كل واقعة من وقائع التنكيل أيضا .

وإليك الآن تفصيل الوقائع .

- ٢ -

أولا : إجلاء بنى قينقاع :

ليس فى القرآن ذكر صريح لهؤلاء ولا لواقعة إجلائهم ، وكل ما هناك إشارات فسرتها الروايات ؛ ولقد ذكرت الروايات التى ليس بينها خلاف جوهرى أن هذه الواقعة كانت أولى وقائع التنكيل باليهود ، وأنها كانت بين واقعتى بدر وأحد . ومما ذكره ابن هشام أن يهود بنى قينقاع كانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ، وحاربوا فيما بين بدر وأحد ؛ وأن بدء واقعتهم كان أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته فى سوقهم ، وجلست إلى صائغ منهم ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده بظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا منها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين فقتل الصائغ ، فشد اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهله المسلمين ، فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع ، وانتهى الأمر إلى أن حاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه ، ومما جاء فى طبقات ابن سعد أن النبي أجلاهم عن المدينة إلى أذرعات ، وسمح لهم بأخذ أموالهم وأثقالهم وسلاحهم الخفيف ؛ ومما ورد فى ابن سعد وابن هشام معا أن النبي صلى الله

عليه وسلم استشعر من بنى قينقاع الغيظ بما كان من نصر المسلمين فى بدر ، ولعلهم أخذوا يكشفون عن غيظهم ويغمزون المسلمين، فجمعهم وحذرهم، فكان جوابهم وقحا، إذ قالوا له: لا يغرنك ما نلت ، فإنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ؛ وإنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس ، وأن آيات آل عمران هذه :

« قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ . قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِى الْأَبْصَٰرِ ... ١٢ - ١٣

إنما نزلت فيهم . وظروف نزول الآيات تجعل القول إن الآيات فيهم سائغاً ، لأنها نزلت بعد وقعة بدر ، واحتوت إشارة إليها على سبيل الإنذار ، ولا سبيل للتوهم بأن ذلك كان لكفار مكة الذين كانوا فى حالة حرب مع المسلمين ؛ والتحذير إنما يكون لأناس ما يزال بينهم وبين النبى والمسلمين صلات سلم .

وإذا كان ثمة شىء يلاحظ على ما قاله ابن سعد وابن هشام فى صدد نزول الآيتين ، فهو أنهما أبعد مدى مما قالاه ، وإنهما لتلهمان أنه قد بدا من اليهود ما يصح أن يعد نقضاً أو تحرشاً بحرب وقتال ، فأمر النبى فيهما بإنذارهم ، ودعوتهم إلى الاعتبار بما حل بكفار مكة فى بدر ، وهم أكثر عدداً من المسلمين . وعلى هذا فإنه يصح أن يضاف إلى ما ذكره المؤلفان أن تكون حادثة المرأة أو حادثة مماثلة لها قد وقعت ، وأن الإنذار وجه إليهم بعدها فلم يعبأوا فكان الحصار والجلاء .

ولقد احتوت آية من آيات البقرة إشارة صريحة إلى نبذ فريق من اليهود العهد كما ترى فيها :

« أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ... ١٠٠

وهذه الآية من السلسلة الطويلة فى حق اليهود التى نقلناها فى المبحث الأول ، وهى مما نزل مبكراً كما قلنا قبل ، فيسوغ القول إن الإشارة التى تضمنتها هى إلى

أول نقض بدا من فريق من اليهود ، وهو على الأرجح نقض بنى قينقاع الذين كانوا أول من وقع عليهم التنكيل بسببه .

وفى سورة الأنفال آيات فيها إشارة أخرى إلى نقض يهودى ، وهى هذه :

« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ . فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ... (١)

٥٥ - ٥٨

وسورة الأنفال نزلت عقب وقعة بدر ، ولقد روى المفسرون أن الآيات نزلت فى بنى قريظة ، مع أن التنكيل بهؤلاء قد كان من أواخر الفصول التنكيلية ، ونزل به قرآن خاص فى سورة الأحزاب ؛ والمتسق مع ظروف وتاريخ واقعة بنى قينقاع التى لا يختلف فى أنها الأولى ، وفى وقوعها بعد بدر وقبل أحد ، أن تكون نزلت فيهم . ولقد جاء فى طبقات ابن سعد أنه لما كانت وقعة بدر ، أظهر بنو قينقاع البغى والحسد ونبذوا العهد ، وكانوا أشجع اليهود ؛ فأنزل الله « وإما تخافن من قوم خيانة .. إلى آخر الآية » فقال رسول الله أنا أخاف بنى قينقاع ، فسار إليهم بهذه الآية . والآية إنما نزلت مع ما سبقها ولحقها من آيات ، فيكون سير النبى إليهم بسبب نقضهم العهد المرة بعد المرة ، وتكون الرواية متسقة مع ظروف واقعتهم ومؤيدة لرجحان أن الآيات فيهم ، مع التنبيه إلى أن الآية أبعد مدى من الرواية أيضاً فى ذكرها نقض اليهود العهد مرة بعد مرة .

ونلفت النظر إلى ما ينطوى فى الآيات التى نقلناها والروايات التى استأنسنا بها والتى تتسق إجمالا مع الآيات ، مع ما فى الآيات من بعد مدى وقوة أكثر من معنى كون التنكيل الذى وقع على بنى قينقاع ، بل الحروب النبوية كلها إنما كانت

---

(١) أعلمهم أنك تقف منهم نفس الموقف الذى وقفوه ، وهو حل العهد القائم ، وفى الآية مغزى رائع ، وهو تلقين عدم المبادرة إلى القتال بدون إعلان مادام هناك عهد قائم .

ردا على عدوان أو غدر أو خيانة ، ودفاعاً عن الكيان ؛ ومما لا يصح أن يمارى فيه أحد مهما كانت نحلته أن النبي قد اتبع بدقة لا مزيد عليها ما تضمنته هذه الآيات وغيرها من تعليم فى هذا الصدد .

ولقد جاء بعد آيات الأنفال هذه الآيات التالية :

« وأَعِدُّوا لَهُم مَّا استَطَعْتُم مِّنْ قُوَّةٍ ومِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وعَدُوَّكُمْ وءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمِ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وما تُنْفِقُوا مِن شَىْءٍ فى سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إلَيْكُمْ وأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ . وإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ . وإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وبِالمُؤْمِنِينَ . وأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مافى الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ولَـٰكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... ٦٠ - ٦٣

وقد تضمنت حثا للمسلمين على الاستعداد بجميع الوسائل لإرهاب عدوهم حتى يكفوا شره ؛ كما تضمنت تعليما بالجنوح إلى السلم إذا ما جنح الخصم إليها ؛ وهذا متصل ومؤيد لما قررناه ، وداحض للأقوال والمزاعم المغرضة كما هو واضح .

كذلك نلفت النظر إلى الإنذار الذى احتوته آيات آل عمران ١٢ - ١٣ إذ ينطوى فيه كما تلهم صيغة الآيات معنى التنبيه والنصح حتى للذين بادءوا بالشر والنقض ، كما يعنى هذا الرغبة فى تفادى القتال والتنكيل بقدر ما يمكن . وآيات الأنفال ٥٧ - ٥٨ جديرة بالتفات النظر أيضا ، إذ انطوى فى الأولى معنى التنبيه والعظة لليهود الآخرين والأمل فى أن يكون التنكيل بمن نكل بهم رادعا لهم ، وفى هذا ينطوى رغبة تفادى القتال والتنكيل بقدر ما يمكن ؛ وانطوى فى الثانية مغزى رائع جليل وهو تلقين عدم المبادرة إلى قتال من يبيتون الغدر والخيانة بدون إعلان مادام هناك عهد قائم ، ووجوب إنذارهم بالوقوف منهم نفس الموقف الذى يقفونه وهو حل العهد القائم . وهذا وذاك متصلان بما قررناه ومؤيدان له بما لا يدع محلا للمماراة كما هو واضح أيضا .

- ٣ -

وثانياً : إجلاء بنى النضير :

وهذه الواقعة كذلك ليس لها ذكر صريح فى القرآن ؛ إلا أن فيه بياناً أوفى عنها اتفق جمهور المفسرين والرواة على أنهم هم المقصودون به . أما البيان فهو فى سورة الحشر التى كان ابن عباس عليه السلام يسميها سورة بنى النضير على ما ورد فى كتب التفسير وفى كتاب تفسير منسوب إليه ؛ وهذه آيات السورة فى صدد هذه الواقعة :

« هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مِنْ دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَاظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَٰهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَٰأُولِى الْأَبْصَٰرِ . وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِىَ الْفَٰسِقِينَ . وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . مَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا ءَاتَٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَٰكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ... ٢ - ٧

٢ — أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا

وإنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ واللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ . لَئِنْ أُخرِجُوا لايَخرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لايُنصَرُونَ . لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فى صُدُورِهِم مِّنَ اللهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ . لا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ . كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . كَمَثَلِ الشَّيْطَـٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَـٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَـٰلَمِينَ فَكَانَ عَـٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فى النَّارِ خَـٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا الظَّـٰلِمِينَ ... ١١ - ١٧

والمجموعة الأولى جاءت فى صدد تذكير المسلمين بنعمة الله عليهم ونصره رسوله فى هذه الواقعة دون اشتراك عملى وحربى منهم ، وجعل هذا مبرراً لتشريع أيلولة ما عاد منها من الغنائم فيئا لرسول الله يقسمه على المصارف المذكورة دون الأغنياء، لا على أساس قسمة غنائم الحرب التى يشترك فيها المسلمون أغنياء وفقراء ، والتى يوزع عليهم منها الأخماس الأربعة وينال كل فرد منها نصيبا متساويا . ومع ذلك ففيها بعض الصور عن الواقعة ، إذ يستفاد منها :

١ - إنه كان لبنى النضير حصون قوية لم يكن المسلمون يأملون التغلب عليها، كما كان اليهود يحسبون أنها مانعتهم .

٢ - إن اليهود قد وقع فى قلوبهم خوف شديد ويأس بحيث استسلموا من جهة وخربوا بيوتهم بأيديهم من جهة أخرى .

٣ - إن النبى صلى الله عليه وسلم قد أجلاهم ووضع يده على مزارعهم وأملاكهم.

٤ - إنه لم يقع اشتباك حربى بينهم وبين المسلمين ؛ وهذا يعنى أن الحصار وحده كان كافيا للنصر الذى تم .

٥ - إنه كان منهم مواقف كيد ومشاقة مزعجة ، وإنها هى السبب فى التنكيل بهم .

٦ - إن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقطع بعض نخيلهم ، فبررت إحدى الآيات العمل ، وقررت أنه بإلهام ربانى لإرغام العدد الفاسق وخزيه ؛ مما يلهم أنه جرى - قيل وقال - حول تقطيع النخل.

أما المجموعة الثانية فقد تضمنت صورا لما كان من المنافقين فى هذا الموقف ، إذ وعدوا اليهود بالتضامن معهم تضامناً وثيقا حتى أكدوا لهم أنهم سيحاربون معهم إذا حوربوا ، وسيخرجون معهم إذا غلبوا وأخرجوا ، ولكنهم كذبوا بما وعدوا ؛ وقد وصفت الآيات مبلغ خوف اليهود أو المنافقين أو كليهما من المسلمين ، وعدم جرأتهم على مواجهتهم فى الميدان ، وقررت أن كل أمرهم القتال من وراء الحصون والجدران ، كما قررت واقع حالتهم الداخلية والنفسية ، من عدم التضامن وشدة التنازع والتشاد فيما بينهم ، وتفرقهم شيعاً على رغم ما يبدو من اتحادهم ؛ وشبهت المنافقين بالشيطان الذى يغوى المرء بالكفر ثم لا يلبث أن يتبرأ منه بعده.

ويرجح أن الآية ١٥ تضمنت الإشارة إلى ما كان من التنكيل ببنى قينقاع ، والتنديد ببنى النضير الذين لم يعتبروا بهم حتى ذاقوا وبال أمرهم مثلهم.

والروايات الواردة فى كتب السيرة والتفسير تكمل هذه الصور ، إذ يستفاد منها أن الواقعة كانت بعد واقعة أحد وقبل واقعة الخندق ، وأن سببها المباشر هو أن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب مع بعض أصحابه إلى محلة بنى النضير يستعينهم على دية بعض القتلى فتآمروا على اغتياله ، وشعر هو بذلك فنجا بنفسه ، ثم أرسل إليهم فى اليوم التالى إنذارا بالجلاء على أن يأخذوا أموالهم ويقيموا وكلاء على بساتينهم ومزارعهم ، وأن المنافقين أرسلوا إليهم يحرضونهم على الرفض ، ويعدونهم بالنصر ، فتشجعوا وعصوا ، فحاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم وضيق عليهم الحصار ، وأمر بقطع بعض نخيلهم إرغاما وإرهاباً ، ولم يف المنافقون بما وعدوا ، فاستولى عليهم الرعب واليأس ، ورضوا بالجلاء بشروط أشد من الأولى بسبب تمردهم ، وهى تسليم سلاحهم ، وتنازلهم عن بساتينهم وقراهم الزراعية ، وأخذ منقولاتهم فحسب ، وأنهم أجلوا إلى بلاد الشام.

والروايات منسجمة مع ما احتوته الآيات من صور ؛ وإن كان ثمة شىء يزاد فهو المدى الواسع الذى ينطوى فى الآية ٤ إذ يصح أن يقال إن محاولة بنى النضير

اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم إنما كانت سببا مباشرا، وإنه كان منهم قبل ذلك مواقف مشاقة مؤذية ومزعجة كثيرة طفح بها الكيل وحق عليهم من أجلها التنكيل.

ولقد كان قبل هذا الحادث أن أمر النبي بقتل أحد شعرائهم وزعمائهم وطواغيتهم : كعب بن الأشرف ، لما كان منه من هجو فاحش وكيد شديد للنبي والمسلمين كما جاء في كتب السيرة ؛ ولقد روى فيما روي أن كعبا ورهطا من بني النضير اتصلوا بكفار قريش اتصال تآمر وتحالف وكيد ضد النبي والمسلمين على رغم ماكان بينهم وبين بني النضير من عهد وسلام . وهذا وذاك مما يتسق مع مدى الآية ، ويدعم ماقلناه من أن محاولة الاغتيال إنما كانت النقطة التي ملأت الكأس .

وهكذا يبدو أن هذا التنكيل أيضاً إنما كان رداً على غدر وخيانة ومشاقة تجاوز فيها اليهود نطاق الكلام إلى التآمر على المسلمين وكيانهم ، ثم على حياة النبي صلى الله عليه وسلم وهو في محلتهم ..

— ٤ —

وثالثاً: القضاء على بني قريظة :

واسم هؤلاء أيضاً لم يرد في القرآن بصراحة ، وإنما أشير إلى موقفهم والتنكيل بهم إشارة اتفق جمهور المفسرين والرواة على أنهم المقصودون بهما وذلك في آيات الأحزاب ٢٦ - ٢٧ التي نقلناها في مناسبة سابقة من هذا الفصل ؛ والتي هي من سلسلة احتوت بعض مشاهد وأحداث وقعة الخندق . وهي صريحة الدلالة بأن اليهود قد ظاهروا الكفار الغزاة جهرة على المسلمين ، فاستحقوا التنكيل الشديد الذي نالهم .

ولقد نقلنا في مناسبة قريبة آيات الأحزاب ١٠ - ١٢ التي احتوت وصفاً للحالة الخطيرة التي واجهها المسلمون من زحف جيش أحزاب الكفار الجرار على المدينة وإحداقه بها ، وماكان من جرأة المنافقين على المجاهرة بتكذيب وعد الله ورسوله بهذه الوسيلة ، وفيما يلي تتمة لهذه الآيات فيها تتمة لموقف المنافقين الجريء المثبط الذي يكاد ينم عن مؤامرة خفية محبوكة الأطراف بين اليهود وأحزاب الكفار والمنافقين للقضاء على الكيان الإسلامي قضاء ساحقاً كما ترى فيها :

« وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا . ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا . قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا . قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا . قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا . أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا . يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا ...

١٣ - ٢٠

مما يجعل التنكيل عملا لا معدى عنه ، على أن يكون متناسبا مع شدة الخطورة التي أحدقت بالمسلمين ؛ وإذا لاحظنا أن مظاهرة اليهود للغزاة كانت نتيجة للحلف الذي ذهب وفد اليهود إلى مكة لعقده بقصد القضاء المبرم على النبي والمسلمين ، واغتناماً لفرصة ما حل بهم من ضعف بعد وقعة أحد على ما ذكرناه في المبحث السابق - بدا بعد مدى الموقف اليهودي وخطورته ، وشدة نكاية نيتهم المبيتة ، ووضح الحق في صحة تبرير التنكيل الواقع ، وسفه المغرضين في غمز النبي به لأنه جاء قاسياً لا هوادة فيه .

هذا ؛ وفي الروايات الواردة فى كتب السيرة والتفسير ما يكمل الصورة ويتسق مع مدى الآيات اتساقا غير يسير ، إذ يستفاد منها :

(١) أن وفداً من زعماء اليهود ذهب إلى مكة بعد وقعة بنى النضير فحرضوا زعماءها على غزو المدينة واستئصال شأفة النبي والمسلمين قبل أن يتفاقم أمرهم ، وأعلنوا تضامنهم معهم ، وأقسموا على ذلك عند أصنام المشركين فى فناء الكعبة ، وهو ما تضمنت الإشارة إليه آية النساء ٥١ التى نقلناها قبل .

و (٢) أن الوفد ذهب كذلك إلى قبائل غطفان وقيس وغيلان وحرضها على مثل ذلك ، ومناها بخيرات المدينة ، وأعلن تضامن اليهود معها ، وأخبرها بما تم الاتفاق عليه مع زعماء مكة ؛ فأجابوهم كذلك وتحالفوا معهم .

(٣) أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بلغه تغير نية بنى قريظة وتبييتهم الغدر حال وصول جيش الأحزاب . فأرسل زعيمى الأوس والخزرج إلى محلتهم - وكانت وراء بيوت عرب المدينة - لينظر : أحق ما بلغهم عنهم ، وطلب منهما أن لا يجهرا به إن كان حقا ، وإن يلمحا إليه لئلا يفتا فى أعضاد الناس ، وأنهما أتياهم فوجداهم على أخبث ما بلغهم ، ونالوا من رسول الله ، وقالوا من هو رسول الله ، وإنه لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد ، وأن سعد بن معاذ شاتمهم - وكان حليفهم - فشاتموه ، وأن سعد بن عبادة قال له : دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة .

(٤) أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر مؤذنا فأذن فى الناس فى صبيحة اليوم الذى ارتد الأحزاب فى ليله عن المدينة بناء على وحى من الله : أن من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة ! وأن النبي حاصرهم خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار ، وقذف الله الرعب فى قلوبهم ، فنزلوا على حكم النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وأن جماعة من الأوس تشفعوا فيهم عند النبي لأنهم حلفاؤهم وطلبوا الاكتفاء بإجلائهم كما فعل بمن سبقهم ، فجعل الحكم فى أمرهم لزعيم الأوس سعد بن معاذ ، وأن هذا حكم بقتل الرجال وسبي النساء والأطفال وتقسيم الأموال ، قائلا لمن طلب الرفق بهم من جماعته : آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم ! فأمر النبي بتنفيذ الحكم .

وننبه إلى أن عبارة « ظاهروهم » تلهم أنه بدا من اليهود فى أثناء حصار الأحزاب المدينة أعمال مؤذية للمسلمين ، أو بالأحرى أعمال تمت إلى الحرب ، تضرر المسلمون منها

وأثارت فى نفوسهم السخط فوق ما أثاره موقف الغدر والخيانة فيهم من خوف وزاد من شدة الخطر على ما أشرنا إليه قبل قليل ؛ وليس من ريب فى أن التنكيل الشديد يمتّ بسبب وثيق إلى هذه الظروف كلها ؛ لا سيما أن هذا قد كان منهم دون أن يعتبروا بما كان من إجلاء بنى قينقاع وبنى النضير أولا ، وبسعى وجد فى إيقاد نار الحرب بغية القضاء المبرم على المسلمين ثانياً ؛ فلا غرو أن كان عقابهم أشد صرامة من عقاب من سبقهم ، لأن جريمتهم أشد أثراً ، وأبعد مدى .

أما عبارة «وأرضاً لم تطؤوها» الواردة فى الآية ٢٧ فقد قال المفسرون إنها أرض خيبر ، وإن الجملة بشرى سابقة لفتحها ؛ غير أن الذى تلهم روح الآية ومضمونها على ما يتبادر لنا أنها أرض لبنى قريظة بعيدة عن مساكنهم ، آلت إلى المسلمين دون حرب أوحصار ، ونتيجة للمصير الذى صار إليه أصحابها .

— ٥ —

ورابعا : فتح خيبر والقرى اليهودية الأخرى :

وهذه الوقائع أيضا لم تذكر فى القرآن بصراحة ، بل لم يرد عنها بيان شاف ، وإنما أشير إليها إشارات خاطفة فسرتها الروايات ؛ فمن هذه الإشارات آية فى سورة الفتح وهى هذه :

« سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ... ١٥

إذ قال جمهور المفسرين والرواة إن هذه المغانم هى مغانم خيبر ؛ وقد ذكرت الروايات أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يستصحب أحداً معه إلى خيبر ممن تخلف عن صحبته فى رحلة زيارة الكعبة التى انتهت إلى صلح الحديبية ، بناء على هذه الآية التى نزلت قبيل الوقعة التى كانت بعد قليل من رجوع النبى صلى الله عليه وسلم من الحديبية وصيغة حكاية حال المتخلفين وأقوالهم تدل على أن النصر فى رحلة خيبر مما لم يكن يتحمل ريبا ، كما أن الآية تلهم أن النبى صلى الله عليه وسلم قد بيت القيام بهذه

الرحلة عقب إبرام صلح الحديبية ، وبشر المسلمين الذين معه بها ؛ ومن هذه الإشارات آيات أخرى فى سورة الفتح أيضا ، وهى هذه :

« لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا . وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا . وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ... ١٨ - ٢١

وقد فسر جمهور المفسرين « الفتح القريب » بفتح خيبر والمغانم الكثيرة بمغانمها ؛ وهذا متسق مع ماقالوه أيضا فى الآية السابقة ، كما أن الصيغة تؤكد ما استلهمناه منها ؛ وتعبير « وعجل لكم هذه وكف أيدى الناس عنكم » مقصود به على الأرجح ماتم فى الحديبية من صلح ، وعدم وقوع قتال بين المسلمين وأهل مكة .

ولعله يتضمن إشارة إلى أن فتح خيبر قد تيسر أكثر بعد هذا الصلح .

ومع أن من المفسرين من فسر جملة « وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها » بفتح مكة أو فتح الأقطار التى فتحها المسلمون بعد ، فإن صيغة الآية تلهم أنها فى صدد وقائع حاضرة مؤكد تمامها ، وتسوغ الترجيح بأنها تعنى ماتم فتحه بسهولة ويسر من قرى اليهود بعد فتح خيبر ، مثل وادي القرى وتيماء وفدك .

ويستفاد من الروايات أن النبى صلى الله عليه وسلم سار بالمسلمين إلى خيبر بعد صلح الحديبية بنحو شهرين ، وأنه كان فى خيبر حصون كثيرة وقوية استغرق فتحها نحو شهر ونيف ، وأن اليهود قاوموا مقاومة عنيفة ، وكان بعض الجهد والمشقة على المسلمين فى الرحلة ، وأنه لما تم الفتح صارت جميع المزارع والأموال إلى المسلمين غنيمة ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم أبقى من أراد من اليهود ليتولى رعاية البساتين مقابل نصف الغلة بعد تجريدهم من السلاح ، وأجلى الخطرين منهم ، وأنه انصرف عن خيبر إلى وادى القرى ، وكان فيها كتلك حصون عدة ، وقاوم اليهود فيها بعض المقاومة ،

غير أن أمرهم صار إلى ماصار إليه أمر أهل خيبر ، وقد دب الرعب فى يهود فدك وتيماء فأرسلوا رسلهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم يصالحونه على نصف أملاكهم ، ويعاهدونه على المسالمة والصداقة .

وليس فى القرآن إشارة إلى سبب مباشر أو غير مباشر لغزوة خيبر ، كما أنه لم يرد فى الروايات ذكر صريح لمثل هذا السبب ؛ وهذا ما جعل بعض المستشرقين يقول إنها لم تكن إلا رغبة من النبي صلى الله عليه وسلم فى مكافأة أهل الحديبية وتطييب نفوسهم ، وبرر قوله بما احتوته الآيات من بشرى المغانم لهم .

على أن الروايات قد ذكرت أن قبائل غطفان - التى لم تكن أسلمت بعد ، ولم تكن مسالمة للمسلمين ، والتى ظاهرت قريشاً فى زحف الأحزاب - كانت حليفة ليهود خيبر ، كما ذكرت أنه كان بين يهود خيبر وبين من بقى من يهود مخضودى الشوكة فى المدينة صلات ، وأن هؤلاء كانوا عيوناً لأولئك ، وأنهم حاولوا تعطيل غزوة خيبر بالإشاعات المتنوعة من جهة وبمطالبة مدينى المسلمين بالديون التى لهم عليهم من جهة أخرى ، وأن يهود خيبر كانو يترصدون حركات النبي والمسلمين ترصد الخائف القلق ؛ ومما ذكرته أيضا وفيه شىء من الخطورة ، أن حيي بن أخطب زعيم اليهود ، بل ملكهم على ما نعتته روايات العرب ، وهو أبو صفية إحدى زوجات النبي التى كانت من سبي خيبر - كان على رأس الوفد الذى ذهب إلى مكة لعقد الحلف مع زعمائها ، وأنه هو الذى أغرى كعب ابن أسد زعيم بنى قريظة على نقض العهد ، وقلب ظهر المجن للمسلمين حينما جاءت الأحزاب تغزو المدينة ؛ ففى كل هذا ما يمكن أن يستأنس به على أنه كان هناك أسباب مبررة لهذه الغزوة ، لاسيما أن كل وقعة من وقائع التنكيل - كما رأينا - كان لها أسباب مباشرة وغير مباشرة ، وأن تلقينات القرآن التى لا يمكن أن يمارى أحد فيه إنصاف ومنطق سليم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسير وفقها بكل دقة ، لم تكن لتسمح بالمبادرة إلى قتال إلا للمقابلة أو الدفاع أو بسبب الغدر والخيانة ؛ والدعوى بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقم بحملته إلا بقصد الغنائم ومكافأة أصحاب الحديبية لا تستقيم قط كما هو المتبادر ؛ وعدم ورود بيان شاف فى الروايات لا يمكن أن يكون برهانا على عدم وجود أسباب موجبة ومبررة فعلا ؛ ونحن نميل إلى أن هذه الأسباب كانت قائمة قبل الرحلة إلى زيارة الكعبة التى انتهت بصلح الحديبية ، وأن النبي صلى

الله عليه وسلم رأى أنه ليس هناك خطر عاجل من التأخر بعد أن نكل بيهود المدينة، فأجل حملته على خيبر والقرى الأخرى إلى فرصة أكثر ملاءمة، ولما أبرم الصلح مع أهل مكة، وأمن به الوقوع بين نارين، رأى أن الفرصة المنشودة قد سنحت، فقام بالغزوة لإتمام خضد شوكة اليهود فى الحجاز، وتصفية الموقف معهم، وأمن جانبهم نهائيا؛ ولقد تساهل فى معاملة يهود هذه القرى كما جاء فى الروايات التى استأنسنا بها، وهذا يدل على أن الهدف الذى رمى إليه هو خضد شوكتهم، وأمن جانبهم فحسب؛ وواضح أن هذا يظل فى نطاق الضرورة وإزالة الضرر كما قررناه فى مطلع الفصل.

المبحث الخامس

الاستثناءات القرآنية بشأن المؤمنين والمعتدلين من اليهود

مدى الاستثناءات القرآنية ودلالتها ـ قلة مستثناة بسبب التزامها وصايا الله وميثاقه ـ حملة القرآن على الأكثر والكثير ودلالتها ـ صور من سور البقرة والمائدة لاخلاص فريق من اليهود وعلمهم الصالح بصورة عامة ـ صور من سور آل عمران والنساء لايمان فريق منهم بنبوة النبي والتنزيل القرآني وإخلاصهم ـ دلالات هذه الصور ـ العبرة البالغة في تسجيل القرآن المحسن إحسانه .

إلى جانب ما أو ردناه من آيات تتعلق بمواقف اليهود وجحودهم و دسائسهم ومؤامراتهم وعدائهم والتنكيل بهم ، والتى تلهم أنها شاملة لأكثريتهم الساحقة فى الحجاز وخاصة فى المدينة ، نجد آيات أو فقرات من آيات تضمنت استثناء لبعضهم من تلك المواقف ، وتنويهاً بسلامة مواقفهم واعتدالهم واقتصادهم ، ومنها ما تضمن إشارة إلى إيمانهم وإخلاصهم ؛ مما يدل من جهة على أن فئة من اليهود ـ وفيها فريق من العلماء ـ قد استطاعوا أن يفلتوا من المؤثرات المتنوعة العنصرية والاقتصادية والنفسية والأنانية التى خضع لها اليهود ، فلم يسعهم إلا أن يروا أعلام النبوة واضحة جلية ، فصدقوا وآمنوا بالنبي والتنزيل القرآنى ، ولم يشتروا الضلال بالهدى ويبيعوا دينهم وعلمهم بالعرض الدنيوى البخس ، دون مبالاة بما عليه قومهم ، وبما يمكن أن يلقوه منهم من جفاء وسخط ، واضطهاد وتكذيب ؛ وعلى أن فئة أخرى لم تندفع ولم تتورط فى العداء والكيد ؛ ومن جهة أخرى على أن الدعوة النبوية قد قوبلت باستجابة حرة لا إكراه فيها من بعض اليهود فى العهد المدنى ، بل بحسن إقبال قد يؤدى إلى أذى المقبلين كما كان فى العهد المكى مما شرحناه فى مبحث سابق ؛ وعلى أن مواقف الكيد والدس والجحود والتآمر إنما كانت لأسباب لا تمت إلى الحق والإنصاف والرغبة فى الهدى ، بل إلى هوى الأحبار والربانيين والزعماء ، وأغراضهم ، وتأثرهم بالمؤثرات الدنيوية ، والجبلة الخلقية ، وتأثيرهم فى العامة ، وسوقهم وراءهم فى الطريق التى ساروا فيها كما كان شأن أكثر أهل مكة زعماء وعامة أيضا ؛ وهذا وذاك يدعم ما قلناه غير مرة من أنه لم تكن هناك أى فكرة مضادة لليهود منذ البدء كعنصر

ولليهودية كدين، وأن كل ماهناك هو دعوة الناس جميعا إلى الله وإلى مكارم الأخلاق، بالحكمة والموعظة الحسنة، من دون ما إكراه ولا سيطرة؛ مما اتسق القرآن المكى والقرآن المدنى فيه، وقد أوردنا فى المباحث السابقة آيات عدة مكية ومدنية فيها التأييد الوافى لذلك؛ وإليك الآن الآيات الاستثنائية الواردة :

- ١ -

١ - فى سورة البقرة الآية التالية :

« وإذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِى إِسْرَٰءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ...

٨٣

ومع أن الكلام قد ربط الآباء بالأبناء فإن الفقرة الاستثنائية جاءت بضمير المخاطب القريب ولا تتضمن دلالة على أن الفريق المستثنى قد آمن بالنبي؛ غير أنها تتضمن على أى حال دلالة على أنه كان فى عهد النبي فريق قليل منهم يتق الله ويخلص لوصاياه ويقف عند حدودها، وبالتالى لاينحرف عن الحق ولا ينساق مع الهوى.

٢ - ومن هذا الباب الآيات التالية فى سورة المائدة :

١ — قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ... ٥٩

٢ — وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ... ٦٢

٣ — وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ... ٦٦

٤ - تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وفى العَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ... ٨٠

وقد جاءت هذه الآيات فى سياق يدل على أنها فى حق اليهود[١]، وعبارات «أكثركم» و «كثيراً منهم» و «كثير منهم» تدل - على الأقل - على أن هناك فريقا قليلا لم يتورط فيما تورطت فيه الكثرة من الدس والكيد وعمل السوء والفساد. وهذا المعنى بارز بروزاً أكثر فى جملة «منهم أمة مقتصدة»، كما هو ظاهر.

٣ - وفى سورة آل عمران الآيات التالية:

«لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ اللهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى الْخَيْرَٰتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّٰلِحِينَ. وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ... ١١٢ - ١١٤

وقد جاءت الآيات عقب آيات تضمنت حملة على اليهود، لأنها ذكرت أوصافهم[٢]؛ ولذلك نرجح أن الاستثناء لفريق منهم؛ وروح الآيات تلهم أنهم ممن آمنوا بالنبوة المحمدية، كما أن أقوال المفسرين والرواة تؤيد ذلك؛ وعلى كل حال فإن التنويه القوى الذى تضمنته، والوصف الرائع الذى وصفتهم به، يسوغ القول أنهم كانوا على درجة عالية من الإخلاص لله، والاستغراق فى عبادته، والسير فى طريق الخير والعمل الصالح، وبالتالى وقفوا من مواقف قومهم الجحودية والمؤذية موقف المنقبض، بل المنكر، وحاولوا جهدهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والدعوة إلى الخير والإصلاح.

٤ - وفى السورة نفسها أيضا الآية التالية:

«وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَٰتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ

---

(١) اقرأ آيات المائدة ٦٠ - ٦٦ و ٧٨ - (٢) اقرأ الآيات ١١٠ - ١١١

لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ... ١٩٩

والآية قد جاءت بعد فصل سابق تناول اليهود بحملة شديدة (١) مما يجعل من المحتمل كثيرا أن يكون موضوع الآيه فريقا من اليهود ؛ وهى صريحة الدلالة على إيمانه بالنبوة المحمدية والتنزيل القرآنى ؛ ويستلهم من روحها ومما سبقها فى السياق أنها بسبيل طمأنة المسلمين : فإذا كان أكثر اليهود قد وقف موقف الجحود والتعجيز والأذى والتآمر، وكتمان العلم ، فإن هذا منهم منبعث عن الهوى والنية الخبيثة ؛ لأن من حسنت نيته منهم قد آمن بالحق ، وتمسك به ، ولم يبع دينه وعلمه بالثمن البخس .

٥ ـ ومن هذا الباب آية جاءت فى سورة النساء وهى هذه :

« لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَوٰةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ... ١٦٢

وقد جاءت الآية عقب حملة شديدة وصريحة على اليهود ؛ ولذلك فإن الاستثناء الذى احتوته هو لفريق منهم حتما . ويلفت النظر إلى وصفها إياهم بالراسخين فى العلم ، وصراحتها بأنهم آمنوا بالنبوة المحمدية والتنزيل القرآنى . ولما كانت آيات عدة حملت على الأحبار والربانيين وأولى العلم من اليهود لكتمهم الحق، وتدليسهم بالتوراة وحاف الأيمان ، وإلباسهم الحق بالباطل ، وبيعهم دينهم وعلمهم وعهدهم بأعراض الدنيا ، فإن فى الآية دليلا واضحا على أن فريقا من علماء اليهود قد أبى عليه علمه ودينه أن يندمج فيما تورط به سائرهم فينكر أعلام النبوة ، ويكابر فى صدق الدعوة النبوية والتنزيل القرآنى ، فآمن بهما ، ولم يعبأ بموقف قومه وزملائه .

هذا ؛ ومن الحق أن ننبه فى ختام المبحث على ما فى هذه الاستثناءات القرآنية من عبرة بالغة ، ومثل رائع لتسجيل الحسنة لصاحبها ، والتنويه بالمحسن لإحسانه ، وذكر الفضل لذويه ، مما يظل مصدر تلقين قرآنى جليل الشأن ويدحض حجة المغرضين .

---

(١) اقرأ الآيات ١٨١ - ١٨٨

فصل فى النصارى فى العهد المدنى

تمهيـــد

فى السور المدنية آيات كثيرة فى النصارى وعقائدهم ، وما كان بينهم من خلاف ونزاع ، وفى عيسى عليه السلام وأمه والحواريين ؛ وقد جاء بعضها بأسلوب محبب وثناء جميل ، وفى بعضها تحذير وتنبيه وتنديد ، وفى بعضها جدل ومناظرة ، وحكاية صدّ وكيد ، وفى بعضها شيء من العنف وأمر بالقتال ، واستنفار إليه ، ومشاهد رحلة بسبيله .

ومعنى هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد لقى فى العهد المدنى نصارى ودعاهم واحتك بهم ، وأن بعضهم أظهر روحاً طيبة وتلقى الدعوة بالإقبال ، وأن بعضهم تردد أو نأى أو جادل وكابر ، وأن بعضهم قد صدر منه ما تجاوز حد الجدل والمكابرة إلى البغى والعدوان .

والآيات فى النصارى وعقائدهم ومواقفهم فى القرآن المدنى أكثر وأصرح منها فى القرآن المكى ؛ بل إن هذا القرآن - إذا استثنينا آيات سورة مريم والزخرف التى هى تقريرية والتى كانت الإشارة فيها إلى انحراف النصارى فى عقيدة المسيح والتنديد به بأسلوب عام وغير عنيف - لم يذكر أهل الكتاب المعاصرين بصورة عامة ، ومنهم النصارى ، إلا بالخير ، على ما ذكرناه فى فصل أهل الكتاب فى العهد المكى .

وهذا الفرق يلهم أن دائرة الاتصال بين النبي صلى الله عليه وسلم والنصارى فى العهد المدنى كانت أوسع منها فى ذلك العهد ، كما يلهم أن المؤثرات التى كان يخضع لها النصارى الذين لقيهم النبي صلى الله عليه وسلم واحتك بهم أكثر تنوعاً ، وأن الذين لقيهم فى العهد المكى كانوا أكثر تجرداً عن الهوى والرغبات المادية ، وأكثر استعداداً بالتبعية للاستجابة إلى الدعوة والاندماج فيها .

وننبه إلى أن الروايات لم تذكر فيما اطلعنا عليه شيئاً ما عن وجود نصارى مستقرين فى المدينة ظلوا متمسكين بنصرانيتهم إلى النهاية ، وليس فى القرآن عن ذلك شيء صريح إيجابى . ولقد ذكرت الروايات خبر وفود بعض النصارى إلى المدينة

من اليمن والحبشة ، ومنهم من جادل وتمسك بنصرانيته ، ومنهم من أذعن وصدق بالقرآن والنبي ، مما يمكن أن يكون نتيجة لانتشار صيت النبي وأخباره في العهد المدني أكثر منه في العهد المكي ؛ كما ذكرت أخبار اتصالات كانت بين النبي صلى الله عليه وسلم وسكان مشارف الشام الذين كان أكثرهم أو كثير منهم من نصارى العرب الحضر منهم والبدو ، وأخبار سرايا جهادية إليهم ؛ وفي سورة التوبة فصل طويل في ظروف غزوة تبوك التي سميت في القرآن بيوم العسرة ، والتي كانت ضد أولئك السكان ، بسبب ما بدا منهم من عدوان ؛ وفي هذا مصداق التنوع الذي ذكرناه آنفاً .

وسنعرض صور النصارى في هذا العهد على حسب مايلهم تصنيف الآيات فيهم كما يلي :

١ - مدى ما ورد في القرآن عن حالتهم والتنديد بهم .

٢ - مواقفهم من الدعوة النبوية .

٣ - مواقفهم الحجاجية .

٤ - الصدام بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين .

وسيكون كل موضوع من هذه المواضيع في مبحث خاص كما فعلنا في الفصول السابقة .

المبحث الأول

الأول حالة النصارى فى العهد النبوى

والتنديد بهم فى القرآن

مدى الآيات الواردة وملهماتها بصورة عامة ـ صورة من سورة البقرة عن نزاعهم وخلافاتهم ـ صورة أخرى من سورة المائدة ـ إنذارهم فى سورة المائدة بوجوب تطبيق أحكامهم على التوراة ودلالته ـ صورة من سورة الحديد عن صفاتهم بصورة عامة مع استدراك انحراف كثير منهم ـ مدى دعوة المسلمين فى سورة الصف بالتأسى فى الحواريين . التنديد بعقيدتهم فى بنوة المسيح فى سورة المائدة ومداه ـ التنديد بعقيدتهم فى سورة التوبة ومداه

— ١ —

إن الآيات الواردة فى حالتهم مطلقة من جهة ، وتمزج بين حاضرهم وماضيهم من جهة أخرى ؛ وفيها بعض الصور الأخلاقية كما فيها إشارة إلى ماقام بينهم من خلاف ونزاع ؛ أما الآيات التنديدية فهى مصبوبة فى الدرجة الأولى على عقيدتهم فى المسيح وأمه ، ومذكرة لما كان من دعوة المسيح الصادقة إلى الله وانحرافهم عنها ، وهى تمزج كذلك بين حاضرهم وماضيهم .

وننبه إلى أمر مهم فى هذا الصدد ؛ وهو أن الآيات الواردة فى حالة النصارى والتنديد بهم مع ما فى بعضها من عنف فإنه لا يمكن أن تنعقد أية نسبة بينها وبين ما جاء فى حق اليهود ؛ هذا إلى أن هناك آيات تحتوى ثناء محببا عليهم وعلى أخلاقهم ومواقفهم تلهم صيغتها أن ما احتوته هو الحالة العامة التى كانوا عليها ، فى حين أن عكس هذا ينطبق على اليهود ؛ أى أن الآيات التى تضمنت حملات شديدة عليهم ، ووصفت سوء أخلاقهم ومواقفهم وصفا قارعا ، تمثل الحالة العامة التى كانوا عليها ، وكل ما فى الأمر أن القرآن استثنى فريقا قليلا من ذلك .

والمبحث يتناول موضوعين يتميز بعضهما عن بعض تميزاً ما : الأول فيما ورد من الآيات عن حالتهم ، والثانى فيما ورد فى التنديد بهم ؛ وسنورد كلا منهما لحدته .

- ٢ -

فأولا ما ورد عن حالتهم ومداه :

١ - فى سورة البقرة الآية التالية :

« تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ... ٢٥٣

فى هذه الآية وصف لواقع حال أهل الكتاب من لدن رسالة عيسى عليه السلام خاصة ، وما آل إليه أمرهم من خلاف ونزاع ؛ وهذا الوصف يشمل اليهود والنصارى ؛ ومما لا يكاد يحتمل ترددآ أنه وصف لحالة كل من الفريقين فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم التى كان يشاهدها الناس ومنهم العرب غير الكتابيين . ولقد كان يقع فى ظروف البعثة النبوية وقبلها بقليل قتال ، وثورات بين النصارى والإسرائيليين فى بلاد الشام نتيجة لما كان من نزاع وعداء بينهم ، ولما كانت فيه البلاد من اضطراب سياسى ، إذ كان يتداول الحكم فيها الروم والفرس ، فيتقوى النصارى بالأولين كما يتقوى الإسرائيليون بالآخرين ، وهلم جرا ؛ كما أنه كان كل من اليهود والنصارى مختلفين فيما بينهم ، ومنقسمين فرقآ ومذاهب ، وقد كان يصل الأمر بين النصارى خاصة قبيل البعثة النبوية وفى ظروفها إلى الثورات والاضطهادات الدامية ، مما ذكرته الآثار التاريخية المعتبرة والمستندة إلى الوثائق القديمة ؛ ومما لاريب فيه أن هذه الحالة مما كان له أثر إيجابى فى استعلاء الموقف النبوى والدعوة النبوية فى الكتابيين وغير الكتابيين على السواء ، كما أن هذه الحالة تفسر بعض حكم الله فى البعثة المحمدية التى استهدفت فيما استهدفته إنهاء النزاع والخلاف بين الكتابيين ، وحل مشاكلهم المذهبية والذهنية ، وجمعهم تحت راية القرآن مع غيرهم ؛ مما احتوته آيات

عدة منها هذه الآيات :

« يَـٰأَهْلَ الْكِتَـٰبِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَـٰتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ... ١٥ - ١٦ المائدة

٢ - وفى سورة المائدة الآية التالية :

« وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَـٰرَىٰ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ... ١٤

وقد احتوت تقريراً مطلقاً عن انحراف النصارى عن بعض عهود الله ووصاياه ، فأدى بهم الانحراف إلى الشقاق والتنازع ، والعداء والبغضاء ؛ وروح الآية وظروف نزولها لا تدع مجالا للتردد فى أن هذا التقرير يتضمن وصف حالتهم حينما كان ينزل القرآن . ولقد جاءت الآيات ١٥ - ١٦ التى أثبتناها آنفاً بعد هذه الآية مباشرة متضمنة إيذان أهل الكتاب ببعثة النبى محمد صلى الله عليه وسلم بكتاب من الله يهدى إلى الحق وسبيل السلام ، ويخرج من اتبعه من الظلمات إلى النور ؛ فورود الآيتين المذكورتين عقب هذه الآية يؤيد أن التقرير الذى تضمنته يشمل حالة النصارى حينما كان ينزل القرآن من جهة ، ويؤكد ما قلناه قبل قليل من حكمة ربانية فى البعثة المحمدية إذ استهدفت دعوة النصارى واليهود إلى الانضواء إلى الحق والنور اللذين جاء بهما النبى ، والخلاص مما هم فيه من خلاف وانحراف .

٣ - وفى سورة المائدة أيضاً الآيات التالية :

« وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَـٰهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ . وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللهُ

فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ ... ٤٦ - ٤٧

ولقد جاءت الآيات استطراداً فى سلسلة تضمنت خبر موقف لليهود فى التقاضى عند النبي صلى الله عليه وسلم ، ومع أنها تنطوى على تقرير عام فإن الأخيرة خاصة تلهم أنها احتوت إنذاراً ربانيا للنصارى المعاصرين بالسير وفق الإنجيل فى أحكامهم ، وتلميحاً إلى أن بعضهم لا يفعل ذلك ؛ ثم إن الآيتين مما تحتويان تقريراً تشريعيا لما يجب على المسلمين أن يحترموه إزاء النصارى ، وهو إقرارهم فى القضاء على أحكام الإنجيل دون حرج ، على شرط أن لا ينحرفوا عنها ؛ وهذا التقرير مطلق بحيث يشمل النصارى الذين كانوا يعاصرون النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً بطبيعة الحال .

٤ - وفى سورة الحديد الآية التالية :

« ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ... ٢٧

وقد تضمنت تنويها محببا وشاملا بما جعله الله فى قلوب أتباع عيسى عليه السلام من رأفة ورحمة ، وبما كان منهم من جنوح إلى الرهبانية ابتغاء رضوان الله أقرهم الله عليها ، كما تضمنت استدراكا لذلك التنويه العام وهو عدم رعايتهم لأحكام الرهبانية حق الرعاية ، وانحراف كثير منهم عن جادة الحق والهدى ؛ ومع إطلاق الكلام فى الآية فإن روحها تلهم أن ما فيها من وصف كله أو بعضه يشمل حالة النصارى المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم .

٥ - وفى سورة الصف الآية التالية :

« يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوٓا أَنصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ فَآمَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ

فَأَصْبَحُوا ظَٰهِرِينَ ... ١٤

والآية بسبيل دعوة المسلمين إلى الاقتداء بالحواريين فى تأييدهم عيسى ونصرهم له، وقد احتوى مطلع السورة حملة على بعض المسلمين لأنهم يقولون مالا يفعلون فى صدد الجهاد فى سبيل الله ونصر نبيه؛ وبذلك اتسقت المناسبة بين هذه الآية وذلك المطلع؛ على أن هذه الدعوة من جهة ما، والقصة التى سيقت بسبيلها، تنطويان على ثناء الله على الحواريين، وإيجاب احترام ذكراهم ومواقفهم على المسلمين أيضا. وفى هذا تدعيم للمودة وحسن الصلات بين المسلمين والنصارى فى عهد النبى على مانبهنا إليه فى مناسبة قريبة.

وهذا المعنى مندمج فى آيات من سلسلة طويلة فى آل عمران ذكر فيها الحواريون كما ترى:

« فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ ءَامَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ. رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّٰهِدِينَ ... ٥٢ - ٥٣

وهو مندمج كذلك فى آية أخرى فى سورة المائدة كما ترى:

« وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ... ١١١

- ٣ -

وثانيا: مما ورد فى التنديد بهم ومداه:

١ - فى سورة المائدة هذه الآيات:

« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ... ١٧

والآية تحتوى تقريراً تنديديا ومطلقا بكفر القائلين بألوهية المسيح ، وطبيعى أن هذا التقرير التنديدى يشمل النصارى المعاصرين للنبى والقائلين بهذه الألوهية ؛ ولقد جاءت هذه الآية عقب الآيات ١٥ - ١٦ التى نقلناها قبل قليل ، والتى وجهت إلى أهل الكتاب تهيب بهم إلى اتباع الحق والنور والكتاب المبين الذى جاء به النبى ؛ وهكذا تكون هذه الآية متصلة بهاتين الآيتين ؛ وكأنما تقول للنصارى - والنصارى المعاصرون للنبى هم المخاطبون الأولون بطبيعة الحال - إن القائلين بألوهية المسيح قد كفروا بالله وإن عليهم أن يرعووا وينضووا إلى ماجاء به النبى من الهدى والنور وما قرره القرآن المنزل عليه من الحق .

٢ - وفى السورة نفسها الآيات التالية :

« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وقالَ المَسِيحُ يَٰبَنِي إِسْرَٰءِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي ورَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ومَأْوَٰهُ النَّارُ وما لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ . لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللهَ ثالِثُ ثَلَٰثَةٍ وما مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وٰحِدٌ وإن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ . أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ ويَسْتَغْفِرُونَهُ واللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . مَّا المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كانَا يَأْكُلانِ الطَّعامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْأَيَٰتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا ولا نَفْعًا واللهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ .. ٧٢ - ٧٦

والتنديد فى هذه الآيات أقوى ، كما أن شموله للنصارى المعاصرين للنبى صلى الله عليه وسلم أصرح ، كما هو واضح من صيغتها ومضمونها : والآية الأخيرة تلهم أنها نزلت معقبة على مشهد حجاج مواجه بين النبى صلى الله عليه وسلم وفريق من النصارى ؛ مما سنعود إلى الكلام عنه فى مبحث آخر من هذا الفصل .

٣ - وفى السورة نفسها الآيات التالية أيضا :

« وإذ قالَ اللهُ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وأُمِّى إلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قالَ سُبْحَـٰنَكَ ما يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إن كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فى نَفْسِى ولا أَعْلَمُ ما فى نَفْسِكَ إنَّكَ أَنْتَ عَلَّـٰمُ الغُيُوبِ . ما قُلْتُ لَهُمْ إلا ما أَمَرْتَنِى بِهِ أنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّى ورَبَّكُمْ وكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَهِيدٌ ... ١٦ - ١٧

والآيات حكاية حال لمشهد أخروى ؛ غير أن احتواءها سؤالا استنكاريا لعيسى عليه السلام عما يعتقده النصارى بألوهيته وألوهية أمه، وحكاية تنصله من ذلك، ينطويان على تنديد بعقائد النصارى يدخل فى شموله المعاصرون للنبى صلى الله عليه وسلم ، وعلى إلخام وإنذار لهم ورد عليهم أيضا .

٤ – وفى سورة التوبة الآيات التالية :

« وقالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وقالَتِ النَّصَـٰرَى المَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ اللهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ . اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ورُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللهِ والمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وما أُمِرُوا إلَّا لِيَعْبُدُوا إلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّا إلَـٰهَ إلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ... ٣٠ - ٣١

وواضح أن الآيات تنطوى على التنديد بعقيدة بنوة المسيح وألوهيته ؛ وقد احتوت تنديداً فيه صورة من الصور التى كان عليها عامة النصارى ، وذلك فى طاعتهم لرهبانهم طاعة عمياء ، واتخاذهم إياهم أرباباً أيضا ؛ وصيغة الآيات ومضمونها يلهمان أن ما احتوته من تنديد وصورة يشمل النصارى المعاصرين للنبى صلى الله عليه وسلم .

المبحث الثانى

دعوة النصارى ومواقفهم إزاءها

دعوة النصارى فى القرآن المدنى - تنوع مواقفهم من الدعوى وتعليله - صورة رائعة لايمان بعضهم وفيهم القسيسون والرهبان - ترجيح كون الصورة لبعض وفودهم ومداها ودلالتها - إشارات قليلة أخرى إلى إيمان بعضهم - التعليل القرآنى لمواقف الذين جحدوا منهم - تعليل تلك الآيات المدنية التى تشير إلى إيمانهم .

— ١ —

إن آيات المائدة ١٥ - ١٦ التى نقلناها فى المبحث السابق قد احتوت دعوة إلى أهل الكتاب ، وبطبيعة الحال قد شملت اليهود والنصارى ؛ ثم جاء بعدها الآية ١٧ التى نقلناها كذلك ؛ قد وصفت الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم بالكفر ، ووجهت إليهم سؤالا استنكاريا ؛ وورود هذه الآية عقب تلك الآيتين يلهم بقوة أن النصارى قد اختصوا نوعاً ما بالدعوة فى هذا المقام ؛ ثم جاءت بعدها الآية ١٩ التالية :

« يَٰأَهْلَ الْكِتَٰبِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ... ١٩

وفيها عود على مابدأته الآيتان ١٥ - ١٦ بأسلوب آخر ، إذ احتوت تقرير أن رسالة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم قد شملت أهل الكتاب الذين منهم النصارى كما هو واضح ؛ وفيها فى الوقت نفسه الهدف الذى نبهنا إليه فى المبحث السابق وحكمة من حكم بعثة النبى صلى الله عليه وسلم وشمولها لأهل الكتاب ، ليكون لهم فيه بشير ونذير بعد ما مر عليهم فترة انحرفوا فيها عن الأسس التى احتوتها كتبهم وأوغلوا فى الخلاف والشقاق ؛ على أن فى سورة النساء آيات فيها دعوة مماثلة ، واختصاص النصارى فيها واضح ، وهى :

« يٰأَهْلَ الكِتٰبِ لا تَغْلُوا فى دِينِكُمْ ولا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إلا الحَقَّ إنَّما المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وكَلِمَتُهُ أَلْقٰهَا إلَى مَرْيَمَ ورُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا باللهِ ورُسُلِهِ ولا تَقُولُوا ثَلٰثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إنَّما اللهُ إلٰهٌ واحِدٌ سُبْحٰنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مافى السَّمٰوٰتِ ومافى الأَرْضِ وكَفَى باللهِ وكِيلًا . لَنْ يَسْتَنْكِفَ المَسِيحُ أن يَكُونَ عَبْدًا للهِ ولا المَلٰئِكَةُ المُقَرَّبُونَ ومَن يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ ويَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إلَيهِ جَمِيعًا . فَأمَّا الَّذِينَ ءامَنُوا وعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ فَيُوَفِّيهِم أُجُورَهُمْ ويَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وأَمّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا واسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذابًا أَلِيمًا ولا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّن دُونِ اللهِ وَلِيًّا ولا نَصِيرًا ... ١٧١ - ١٧٣

إذ تهيب بالنصارى المعاصرين إلى الارعواء والانتهاء عما هم فيه من باطل لايتسق مع عظمة الله وصفاته الكاملة ، وتقرر أن عيسى عليه السلام والملائكة المقربين لايمكن أن يستنكفوا عن عبادة الله ، وأن ماينسبونه إلى المسيح إنما هو افتراء عليه ؛ وقد تضمنت الآية الأولى دعوتهم بصراحة إلى الإيمان بالله ورسوله ؛ هذا إلى أن هناك آيات عدة وردت فى المحاجة معهم سنوردها فى مبحثها الخاص ، وقد احتوت دعوتهم إلى الإيمان بالنبى والتنزيل القرآنى ، إلى الآيات التنديدية التى أوردناها فى المبحث السابق واحتوت دعوتهم ضمناً وصراحة أيضا .

- ٢ -

أما مواقفهم إزاء الدعوة فهى متفاوتة ؛ إذ كان منهم المستجيب المقبل أحسن إقبال ، ومنهم المنقبض المتمسك بما هو عليه ، بل المجادل المشاقّ الصادّ عن سبيل الله ، وهو تفاوت طبيعى ، لأن الذين لقيهم النبى صلى الله عليه وسلم من النصارى فى العهد المدنى فئات متنوعة متباينة ، فيهم البدو والحضر ، والفساك والزهاد المتجردون عن أعراض الدنيا الراغبون فى الله وحقائقه ، وفيهم الأمراء وأصحاب

المركز والجاه والمطامع، ممن يخضعون على الأكثر لمؤثرات الدنيا وأعراضها، كما أن فيهم عوام سذجا يتبعون رؤساءهم ويطيعونهم طاعة عمياء.

ولقد احتوت آيات من سورة المائدة وصفاً محبباً للنصارى بصورة عامة، ومشهداً رائعاً واقعيا من مشاهد استجابة فريق منهم إلى الدعوة والإيمان بالنبي والتنزيل القرآني كما ترى فيما يلي:

« لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ. وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّٰهِدِينَ. وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّٰلِحِينَ. فَأَثَٰبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ... ٨١ - ٨٦

ولقد تعددت الروايات في المشهد الذي وصفته الآيات؛ فنها ما ذكر أنه مشهد نجاشي الحبشة ورجال الدين النصارى الأحباش حينما تلا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه سورة مريم في مجلسه إبان الهجرة؛ ومنها ما ذكر أنه مشهد وفد حبشي أرسله النجاشي أو جاء مع المهاجرين العائدين، ومنها ماذكر أنه مشهد لبعض وفود نصرانية جاءت من الشام أو نجران اليمن.

ومن الصعب الجزم بإحدى هذه الروايات؛ غير أن الوصف كما قلنا وصف مشهد واقعي، وروحه تلهم أنه في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم، والفقرة الأولى من الآية الأولى تلهم أن الآيات نزلت في وقت كان العداء فيه مشتدا بين المسلمين واليهود، وبالتالي في وقت كان اليهود فيه مايزالون في المدينة على شيء من القوة؛ وهذا

لا يمكن أن يكون إلا قبل أواسط العهد المدنى التى تم فيها إقصاؤهم عن المدينة ، وبالتالى قبل رجوع المهاجرين من الحبشة الذى لم تختلف الروايات فى أنه كان بعد صلح الحديبية . والروايات ، وروح آيات آل عمران التى احتوت تعقيباً على مجلس المناظرة الذى انعقد بين النبى صلى الله عليه وسلم ووفد نصارى نجران ، بل نصها ، يسوغ الجزم بأن الوفد رجع دون أن يؤمن ؛ وعلى هذا فالوفد الذى كان منه ذلك المشهد إمّا أن يكون حبشياً أرسله النجاشى للقاء النبى صلى الله عليه وسلم والسماع منه بعد أن عرف عنه ما عرف من المهاجرين ، وإمّا أن يكون قد جاء من أطراف الجزيرة الشمالية حيث كانت الديانة النصرانية هى السائدة ؛ وكلا الاحتمالين ممكن ومعقول ، وإن كنا نرجح الثانى ، ونرجح أن يكون الوافدون ممن يفهمون العربية ؛ فهذا التأثر الشديد يرجح أن يكون من أسلوب القرآن وروحانيته وصدق لهجته ، مما يدركه العارف بالعربية ويتأثر به أكثر .

وهكذا يمكن أن يقال إن أخبار النبى صلى الله عليه وسلم قد انتشرت إلى خارج الجزيرة ، فأثارت الأفكار ، واسترعت الأسماع ، وجعلت بعض رهبان النصارى وقسيسيهم ، وبتعبير آخر، علماءهم الذين يستطيعون الحجاج والجدل ووزن الأقوال ويرغبون فى معرفة وقائع الأمور وحقائقها ، والوقوف عليها بأنفسهم - يشدّون الرحال إلى المدينة ، كما فعل بعضهم فى العهد المكى على ما ذكرناه فى حينه ، ليروا هذا النبي ويسمعوا منه ، وليحاجوه ويجادلوه ؛ وإن منهم من أخذ بما رأى وسمع ، ولمس القوة والحق والروحانية ، والتطابق مع جوهر ما جاء به الرسل ، فصدق وآمن ، وكان منه هذا المشهد الرائع . وخطورة هذا المشهد - وما كان من أمثال فى العهد المكى مما انطوت إليه الإشارة فى عدة آيات مكية وخاصة آيات الإسراء ١٠٧ - ١٠٩ - عظيمة جدا من جهة سير الدعوة وأثرها كما هو واضح ؛ إذ جاء شهادة عيان قوية صادقة على ما كان لروحانية القرآن والنبى صلى الله عليه وسلم والدعوة من أثر نافذ فيمن كان يسمعها بقلبه وعقله ، وكان رائده الحق والهدى من النصارى ، وفى مقدمتهم رؤساء دينهم .

والآية الأخيرة من آيات المائدة تتضمن إنذارا للذين كفروا وكذبوا بآيات الله، فمن المحتمل أن تكون الآية مطلقة عامة وبسبيل التنديد بهؤلاء مع ما ظهر من أعلام النبوة وروحانية القرآن وأثرها فى رؤساء الدين النصرانى ، كما أن من المحتمل أن

تكون قد قصدت الذين كفروا وكذبوا من النصارى خاصة ، لهذا القصد نفسه ؛ وقد يكون هذا أوجه بمناسبة موضوع الآيات نفسها .

- ٣ -

وليس فى القرآن المدنى آيات أخرى فيها مثل الصراحة التى احتوتها آيات المائدة عن إيمان النصارى وتصديقهم ، غير أن ثمة إشارتين فى بعض الآيات يحتمل أن تكونا قد عنتا ذلك : منها ما احتوته الفقرة الأخيرة من آية سورة الحديد التى نقلناها فى المبحث السابق ، إذ تشير على ما نرجحه إلى الذين آمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم من أتباع عيسى عليه السلام ، وإلى الذين لم يؤمنوا منهم وظلوا فاسقين ، أى منحرفين عن جادة الحق والصواب ؛ لأن أول الآية قد احتوى أشارة إلى الذين اتبعوا عيسى عليه السلام ؛ ويلاحظ فى وصف الفاسقين تعبير « كثير منهم » ؛ ولا ندرى أيعنى هذا أن كثيرا من الذين لقوا النبى ظلوا فاسقين ، أو أنه يعنى وصف النصارى عامة ؟ ونميل إلى هذا أكثر ، لأن كل ما يمكن أن يستفاد من الروايات أن النصارى الذين لقيهم النبى فى المدينه قليلون جدا ، قد لا يتجاوز عددهم مئات قليلة ؛ وسورة الحديد نزلت بعد الفتح المكى على ما يستفاد من بعض نصوصها ؛ وهذا الظرف قد كان ظرف استنفار المسلمين إلى غزوة تبوك ، وبعبارة أخرى إلى قتال أهل منطقة كثير منهم نصارى ، بسبب ما كان منهم من بغى وعدوان ؛ فليس من المستبعد أن يكون ذلك الوصف قد عنى هؤلاء بصورة خاصة .

ومنها ما احتوته آية فى سورة البقرة ننقلها مع آية قبلها للاتصال الوثيق بينهما :

« وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ...

١٢٠ - ١٢١

والآيتان وإن جاءتا في سلسلة طويلة في حق اليهود جاء ذكر النصارى فيهما استطرادا على الأرجح كما قلنا في مناسبة سابقة ، فإن ما حكى عن النصارى في الآية الأولى لابد أن يكون حكاية لموقف جحودى وحجاجى وقفه بعضهم ، وهذا يجعل الاحتمال واردا بأن تعبير « الذين آتيناهم الكتاب » في الآية الثانية قد عنى النصارى كما عنى اليهود ؛ وقد احتوت هذه الآية استدراكا لما جاء في الآية الأولى بشأن موقف المكابرين من الفريقين، وتقريرا بأن منهم من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فالذين فتح الله بصائرهم ، وآتاهم فهم الكتاب منهم ، يتلونه حق التلاوة ، ويفهمونه حق الفهم ، فيؤمنون بالنبي والقرآن لما يجدونه من التطابق بين ماجاء به وما عندهم ؛ أما الذين كفروا منهم فهم الذين عميت بصائرهم فلا يتدبرون آياته ، ولا يفهمونها حق الفهم ، وهكذا تكون الآية قد أشارت كما قلنا إلى الذين آمنوا بالنبي من النصارى ، إلى ما فيها من تعليل قوى بليغ لموقف الكافرين به . ولقد احتوت آيات في سورة التوبة تعليلا لموقفهم أقوى وأصرح كما ترى فيها .

« اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَٰفِرُونَ . هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ . يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ النَّاسِ بِالْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ... ٣١ - ٣٤

وقلة الآيات المدنية التي تشير إلى إيمان النصارى بالنبي والقرآن ، يمكن أن تعلل بأن الذين لقوا النبي في المدينة كانوا قليلين ، فلم تتكرر مشاهد إيمانهم بحيث تذكر في

القرآن كثيراً . ولقد قلنا فى مناسبة قريبة إن ما جاء فيهم فى القرآن المدنى وخاصة فى آيات المائدة ٨٢ - ٨٥ والحديد ٢٧ من الثناء المحبب ، قد جاء بأسلوب مطلق وتعميمى ، ويكاد يوحى بأنه يشملهم كافة ؛ وقد ينطوى هذا على الإشارة إلى أن أكثر الذين لقوا النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة قد آمنوا به وصدقوا التنزيل القرآنى ؛ كما يحمل على القول إن الحملة عليهم التى وردت فى آيات التوبة التى نقلناها آنفاً وفى غيرها مما نقلناه قبل ومما سننقله بعد ، قد عنت بعض الوفود التى ظلت على جحودها ومكابرتها ، وعنت كذلك أولئك الذين وقفوا موقف البغى وأمر النبى والمسلمون بقتالهم من سكان مشارف الشام على ما سوف نشرحه فى مبحثه الخاص .

المبحث الثالث

مواقف النصارى الحجاجية

المواقف الحجاجية مع النصارى فى القرآن ومداها ـ مقايسة بينها وبين مواقف اليهود ـ أهم المواقف الحجاجية مناظرة وفد نجران ـ تعليق وبيان وخلاصة ماذكرته الروايات فى صددها ـ ترجيح انعقاد جلسات متعددة لها ـ الفصول الواردة فى صددها فى سورة آل عمران ـ تعليقات وتحليلات فى صدد الصور والمشاهد التى جرت فى هذه الجلسات مستلهمة من الفصول القرآنية ـ تعليق على بعض الروايات فى صدد حادث المباهلة بالذات ـ دلالة وفادة وفد نجران ـ صور حجاجية محتملة من سورة البقرة وتحليلات للآيات التى تلهمها ـ صورة حجاجية محتملة من سورة النساء ـ صورة حجاجية محتملة من سورة المائدة ـ دس اليهود للنصارى فى الموقف الحجاجى الذى تلهمه آيات هذه السورة .

— ١ —

فى القرآن المدنى بعض الفصول والمقاطع القرآنية التى تدل على أنه كان ينعقد بين النبى صلى الله عليه وسلم وبعض النصارى مجالس مناظرة وحجاج حول الدعوة الإسلامية وأسسها ، والعقيدة النصرانية فى السيد المسيح عليه السلام وغلو النصارى فيها ؛ غير أنها قليلة إذا ماقيست بما احتواه هذا القرآن من الفصول الكثيرة الطويلة فى مواقف اليهود الحجاجية ؛ مما يتسق مع ظروف الفريقين فى العهد المدنى ، من قلة النصارى الذين لقيهم النبى ، وقلة المستقرين منهم فى المدينة ، وما كان يتحلى به النصارى بصورة عامة من دماثة وبعد عن العنف واللجاج ، كما تلهمه الآيات القرآنية التى أوردنا بعضها ؛ فى حين كان اليهود جالية كبيرة مستقرة ، لها مصالح متنوعة ، ولها كيان قوى متشعب الجذور والتوغل فى حياة المجتمع العربى ، ولها طابع خاص وجبلة متوارثة فى التفكير والحياة والمعيشة والأخلاق ، على ما فصلناه فى فصلهم الخاص استلهاماً من القرآن .

— ٢ —

وأهم هذه المواقف أو المجالس ما كان بين النبى صلى الله عليه وسلم ووفد من

نصارى نجران اليمن ؛ والاسم لم يرد فى القرآن صراحة ، ولكن الروايات التى لا اختلاف فى جوهرها مجمعة على ذلك ، وعلى أن الفصل الطويل الذى شغل حيزاً كبيراً من القسم الأول من سورة آل عمران هو فى صدد ذلك .

ويستفاد من الروايات أن هذا الوفد قد قدم إلى المدينة فى الربع الأول من الهجرة ، وكان مؤلفاً من ستين شخصاً ، منهم أربعة عشر من أشرافهم ، وثلاثة من كبار رجال دينهم ؛ فاجتمعوا بالنبى صلى الله عليه وسلم فى مسجده وعليهم الحبرات ، وجرت بينهم مناظرة كان أهم مواضيعها ولادة عيسى عليه السلام وصلته بالله ورسالته ، وقد جادلوه مستشهدين بما قرره من أن عيسى عليه السلام كلمة الله وروحه ، ورد عليهم منددا بتأويلاتهم التى لا تتسق مع جوهر الأمر ومبدإ التوحيد المطلق الذى قرره القرآن ودعا إليه ؛ ولكنهم لم يقتنعوا ، وظلوا يدعون أنهم على الحق ؛ فطلبهم إلى المباهلة ، أى أن يدعو ويدعون هم بأن تكون لعنة الله على الكاذبين ؛ فلم يجيبوا الطلب ووادعوه وانصرفوا .

وليس من السهل بطبيعة الحال الجزم بأن هذا الفصل الطويل القرآنى قد نزل قبل المناظرة أو بعدها ، ولكن روح آياته قد تلهم أن المناظرة لم تكن فى جلسة واحدة ، وأن بعض أقسام الفصل نزل عقب الجلسة الأولى، كما أن بعضها نزل عقب الجلسة الأخيرة وقبل انصراف الوفد إلى أهله ؛ ومما لا يحتمل شكا أن أقوال النبى صلى الله عليه وسلم وحججه كانت فى نطاق ما احتواه الفصل على كل حال ؛ ولهذا فإن الفصل قد انطوى على مشاهد جلسات المناظرة ومادار فيها ، وخاصة حجج النبى صلى الله عليه وسلم وأقواله .

ومما نكاد نجزم به أن جلسات المناظرة كانت حاشدة ، إذ شهدها أعضاء الوفد ، وشهدها فريق كبير من المسلمين أو كبارهم ؛ ولعل بعض اليهود كانوا من شهودها ؛ وفى بعض الآيات ماقد يلهم أنهم حاولوا أن يتدخلوا أو يدسوا ؛ وإليك الآن مقتطفات من الفصل القرآنى الذى استلهمنا أنه فى صدد هذه المناظرة :

١ — الٓمٓ . اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ . نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَٰةَ وَالْإِنجِيلَ . مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ

وأنزل الفرقان إنّ الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام . إنّ الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء . هو الذى يصوّركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم . هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب وأخر متشابهات فأمّا الذين فى قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والرّاسخون فى العلم يقولون آمنّا به كلّ من عند ربّنا وما يذّكّر إلا أولوا الألباب . ربّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنّك أنت الوهّاب ...

١ - ٨

٢ - زيّن للنّاس حبّ الشّهوات من النّساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذّهب والفضّة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحيوة الدّنيا والله عنده حسن المآب . قل أؤنبّئكم بخير من ذلكم للذين اتّقوا عند ربّهم جنّات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهّرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد . الذين يقولون ربّنا إنّنا آمنّا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النّار . الصّابرين والصّادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار . شهد الله أنّه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم . إنّ الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإنّ الله سريع الحساب . فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتّبعن وقل للذين

أُوتُوا الْكِتَـٰبَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَـٰغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ . إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَـٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ . أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ... ١٤ - ٢٤

٣ — إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى الْعَـٰلَمِينَ . ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّى إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَـٰنِ الرَّجِيمِ . فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ . فَنَادَتْهُ الْمَلَـٰئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّى فِى الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّـٰلِحِينَ . قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ

يَفْعَلُ ما يَشاءُ . قالَ رَبِّ اجْعَل لِّى ءايَةً قالَ ءايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا واذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وسَبِّحْ بِالْعَشِىِّ والْإِبْكَٰرِ . وإِذْ قالَتِ المَلَٰئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَٰكِ وطَهَّرَكِ واصْطَفَٰكِ عَلَىٰ نِساءِ العَٰلَمِينَ . يَٰمَرْيَمُ اقْنُتِى لِرَبِّكِ واسْجُدِى وارْكَعِى مَعَ الرَّٰكِعِينَ . ذَٰلِكَ مِنْ أَنْباءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ . إِذْ قالَتِ المَلَٰئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فى الدُّنْيا والْآخِرَةِ ومِنَ المُقَرَّبِينَ . ويُكَلِّمُ النَّاسَ فى المَهْدِ وكَهْلًا ومِنَ الصَّٰلِحِينَ . قالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ ولَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قالَ كَذَٰلِكِ اللهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ إِذا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ . ويُعَلِّمُهُ الكِتَٰبَ والحِكْمَةَ والتَّوْرَىٰةَ والْإِنجِيلَ . ورَسُولًا إِلَىٰ بَنِى إِسْرَٰءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْـَٔةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ والْأَبْرَصَ وأُحْيِ المَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللهِ وأُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وما تَدَّخِرُونَ فى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فى ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . ومُصَدِّقًا لِّما بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَىٰةِ ولِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فاتَّقُوا اللهَ وأَطِيعُونِ . إِنَّ اللهَ رَبِّى ورَبُّكُمْ فاعْبُدُوهُ هَٰذا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ . فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الكُفْرَ قالَ مَنْ أَنصارِى إِلَى اللهِ قالَ الحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنصارُ اللهِ ءامَنَّا بِاللهِ واشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . رَبَّنا ءامَنَّا بِما أَنزَلْتَ واتَّبَعْنا الرَّسُولَ فاكْتُبْنا مَعَ الشَّٰهِدِينَ . ومَكَرُوا ومَكَرَ اللهُ واللهُ خَيْرُ المَٰكِرِينَ . إِذْ قالَ

اللهُ يَـٰعِيسَىٰ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا
وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ
فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّـٰلِمِينَ ...

٣٤ - ٥٧

٤ — ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَـٰتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ . إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ
عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ . الْحَقُّ
مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ . فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ
مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا
وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَـٰذِبِينَ . إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ
الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . فَإِن
تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ . قُلْ يَـٰأَهْلَ الْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ
سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ
بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا
مُسْلِمُونَ ....

٥٨ - ٦٤

٥ — يَـٰأَهْلَ الْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِى إِبْرَٰهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَىٰةُ
وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . هَـٰأَنتُمْ هَـٰؤُلَاءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا
لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ . مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا

وما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وهَـٰذا النَّبِيُّ والَّذِينَ ءامَنُوا واللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ... ٦٥ - ٦٨

— ٤ —

فالآية ١٥ من المجموعة الثانية فيها خطاب لمخاطبين قريبين ، ثم يعقبها تقرير عن حقيقة الإسلام ومعناه ، والآية ٢٥ تخاطب النبي صلى الله عليه وسلم فى صدد محاجة الذين يحاجونه فى الله والإسلام ، والآية ٢٣ منها تندد بفريق من الكتابيين دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى تحكيم كتاب الله فأبوا ، والآيات ٦٠ و٦٤ من المجموعة الرابعة ، وآيات المجموعة الخامسة ، موجهة إلى كتابيين مواجهة وعلى سبيل المجادلة والتحدى ؛ فكل هذا يلهم بقوة صحة وقوع المناظرة التى أجمعت الروايات على ذكرها .

ومما ذكرته الروايات أن الوفد أراد أن يتخلص بأسلوب جدلى ، فقال للنبى : ألست تقول بأن عيسى روح الله وكلمته ؟ قال بلى ؛ فقال الوفد: هذا حسبنا . والمجموعة الأولى احتوت ـ على ما يتبادر لنا ـ ردا وتفنيداً لما عمدوا إليه من حجة ، وبالتالى تؤيد صحة الرواية ؛ فقد احتوت الآية ٧ منها تقرير أن الله هو الذى يصور الناس فى الأرحام كيف يشاء ، واعتبرت الآية ٨ سؤالهم مغالطة ، فردت عليهم مفندة إذ قررت أن هناك آيات محكمات هن أم الكتاب وفيها جوهر الدعوة وأسسها التى لا تتحمل تأويلا ، وهناك آيات متشابهة للتمثيل والتقريب ، فلا يتمسك بهذه ويتجاهل تلك ، أو يريد أن ينقض تلك بهذه على تأويل خاطئ إلا من فى قلبه زيغ ولم يكن رائده الحق وإنما يقصد المكابرة والتمحك ؛ أما المؤمنون الراسخون فى العلم فلا يمكن أن يتورطوا فى ذلك ، وإنما قولهم فى صدد الآيات المتشابهة : آمنا به كل من عند ربنا . ولا بد أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد شرح ذلك بالآيات والأمثال ، وأورد الآيات القرآنية المحكمة التى تقرر وحدة الله وحدة لا شائبة فيها بحيث لا يجوز فى حقه أبوة ولا بنوة ولا تعدد ولا تجزؤ ولا انفصال ، وقال إنه إذا جاء فى القرآن أن عيسى كلمة الله ومن روحه فإنما أريد بذلك التقريب والتمثيل والتنويه بالمعجزة الربانية التى تمت بولادته بلا أب ، فلا يصح أن يحاول

بهذا نقض تلك الآيات المحكمة . ومن الجدير بالتنبيه أن المجموعة الرابعة احتوت تمثيلا لخلقة عيسى عليه السلام بآدم ، وفى الآيات المكية ذكر أن الله نفخ فى آدم وفى الإنسان من روحه فصار حيا [1] فيحتمل أن تكون هذه الآيات قد أوردت فى معرض المجادلة ؛ ويبدو أن المناظرين جادلوا فى القرآن وأنكروا نزوله من عند الله وقالوا إنهم لا يتقيدون به ، فجاءت الآيات الأولى من المجموعة الأولى تنوه بكتب الله ثم تقرر أن الله قد أنزل القرآن مثلها ، فليس هو بدعا ، وإن فيه لفرقانا بين الحق والباطل فيجب أن يؤمن به من آمن بكتب الله السابقة ، وإن الذين لا يؤمنون به سيكونون موضع انتقام الله وعذابه .

وعلى هذا فن السائغ أن يقال إن المجموعة الأولى قد نزلت بعد جلسة ما ، أو بعد الجلسة الأولى ، ردا على ما كان منهم من إنكار للقرآن ، ثم تفنيداً المخالطة التى عمدوا إليها ؛ كما أن من السائغ أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم قد رد عليهم فى نطاق هذه الحجج ثم نزلت الآيات مرددة أو مؤيدة له ؛ ولهذا نظائر عدة فى القرآن نبهنا إليها فى مناسبات سابقة .

ويلمح خلال آيات المجموعة الأولى وملهماتها - إذا صح شرحنا وتوجيهنا - تناقض للمناظرين ، أو أسلوب من أساليب المناظرة والجدل ، فقد أنكروا القرآن ثم أخذوا يحاجون النبى صلى الله عليه وسلم فيما قرره بشأن عيسى عليه السلام وأنه كلمته أو روحه أو من روحه ؛ ولعلهم قالوا كما يقول المناطقة أو المتناظرون : لنسلم جدلا بالقرآن ، فالقرآن يقول كذا وكذا ، وفى هذا صورة بارزة وطريفة من صور المشهد على ما هو المتبادر .

وفى المجموعة الثانية خطاب موجه إلى مخاطبين حاضرين ، وخطاب آخر موجه إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى صدد المحاجين ، وهذا ما جعلنا نستلهم أنها هى أيضاً فى صدد المناظرة ؛ وقد احتوت تدعيما للنقطة التى جرى الحجاج فيها ، والتى انطوت على الإشارة إليها المجموعة الأولى ؛ فوحدانية الله أمر محكم لا يتحمل أى كلام ، والله وملائكته وأولو العلم يشهدون على هذا ويشهدون بما اتصف به من القيومية الدائمة بالحق والقسط ؛ والطاعة والانقياد والإسلام لله هو الدين الحق الواجب على الناس .

---

(١) اقرأ آيات الحجر ٢٩ والسجده ٧ - ٨ مثلا .

وحجاج الكتابيين ولجاجهم فى الأمور المحكمة ليس من الدين ، وإنما هو مظهر من مظاهر اختلافهم فى التأويل وتجاوزهم فيه حدود العقل إلى البغى والغلو ، ومن لم يطع وينفذ ويرعو عن البغى فعند الله حسابه ؛ ثم نقل الكلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم : فإذا ظل المناظرون فى لجاجهم بعد سطوع الحجة البالغة فليعلن عن نفسه وعمن تابعه، إسلامهم لله؛ وليكتف بدعوة الناس كتابيين وأميين إلى مثل ذلك ، وليكل إلى الله أمر من يتولى ويعرض منهم .

ولقد تكون بعض آيات المجموعة محل تساؤل عما إذا كانت ذات صلة بالمناظرة، وذلك بسبب أن ما احتوته مما وصف به اليهود فى آيات أخرى ، ونعنى الآيات الأربع الأخيرة ٢١ - ٢٤ ؛ غير أن انسجامها مع السياق من جهة ، وبعض مضامينها وخاصة الآية ٢٣ من جهة أخرى ، جعلانا نميل إلى القول بصلتها بالمناظرة ؛ وورود الصفات التى فيها فى حق اليهود لا يمنع - فيما يتبادر لنا - أن يوصف بها فريق من النصارى وقفوا موقف اللدد والمكابرة ؛ على أن مما يرد على البال أيضاً أن يكون النبي قد دعا المناظرين إلى تحكيم كتاب الله وآياته فتدخل اليهود ودسوا حتى جعلوهم يأبون .

وقد يكون فى الآية الأولى من المجموعة تأييد لما ذكرته الروايات من أن الوفد جاء وعليه الحبرات الديباجية الموشاة، وعلى هيئة أثارت دهشة المسلمين ؛ إذ أشارت إلى طبيعة البشر فى إنهماكهم فى حب الدنيا وزينتها مع أن ما عند الله أعظم وأبقى للمؤمنين المستغفرين الصابرين الصادقين القانتين الخ .

وعلى كل حال فإنه يتبادر لنا أن كل الآيات أو جلها متصلة بالمناظرة، وأنها نزلت بعد جلسة ما من جلساتها وقبل انتهائها ؛ ومما لا ريب فيه أن النبي قد تلاها فى الجلسة التالية ، أو أدار حديثه فى نطاقها مقررا ومنددا وداعيا إلى تحكيم كتاب الله ثم داعيا إلى الإسلام والانقياد لله .

أما المجموعة الثالثة فهى - على ما هو المتبادر الواضح - فى صدد موضوع المناظرة بالذات ، أو أهم مواضيعها ، وهو خلقة عيسى عليه السلام ورسالته ، وتقرير قرآنى لما هو الحق فيه ؛ وقد احتوى تمهيدات مثل تقرير نذر أم مريم ما فى بطنها لخدمة الله ، وتقبل الله لها في خدمته بقبول حسن ، ورعايته لها رعاية عظيمة ، وذلك بسبيل تقرير

طهارتها وانقطاعها لله وتأهلها للمعجزة الربانية ؛ ومن هذه التمهيدات قصة ولادة يحيى عليه وسلم وما فيها من إعجاز ، وذلك بسبيل تقرير أن ذلك لم يقتض أن يكون يحيى إلها أو جزءا من إله .

وقد احتوى الفصل تقرير أمر واقع هو أن خلقة عيسى معجزة ربانية ليس غير ، وتقرير أمر رسالته وحكاية ما كان من دعوته الناس إلى عبادة الله وحده ، وما كان من نسبته ما ظهر على يده من خوارق إلى الله ، وتقرير استجابة الحواريين لدعوته فى حياته على وجهها الصحيح المحكى ، وأن الاختلاف فيه وفيها إنما كان بعد توفيه .

ولقد علقنا فى فصل الكتابيين من قسم العهد المكى تعليقات كافية فى سياق فصل سورة مريم تغنينا عن الزيادة هنا ، وفى هذه المجموعة عود على بدء اقتضته حكمة التنزيل توكيداً وتأييداً ؛ ويلاحظ بعض الفروق بين ماجاء فى فصل سورة مريم وماجاء فى هذه المجموعة ؛ مما يحمل على القول أن هناك من أدار الحديث على بعض جزئيات من سيرة السيد المسيح وأمه ورسالته وخوارقه وموقف الحواريين منه ، أو سأل عن ذلك ، فاحتوت الآيات ما فيه البيان مما لم يرد فى فصل سورة مريم .

وليس من الممكن الجزم بأن آيات هذه المجموعة نزلت قبل المناظرة ، أو بعدها ، أو خلالها ؛ والحالات الثلاث واردة الاحتمال على تفاوت فى قوته ؛ ولعل أوجه الاحتمالات أن تكون نزلت بعد جلسة من جلسات المناظرة دار الحديث فيها حول الموضوع مبدئيا ، فتليت فى الجلسة التالية كتقرير قرآنى ربانى فيه ، ونرجح أنها نزلت بعد نزول المجموعتين الأوليين ، إذ يتبادر لنا أنه دار فى الجلسة الأولى بحث حول ولادة عيسى عليه السلام ، فتلا النبى صلى الله عليه وسلم الآيات المكية فيها ، فجادلوه على ماذكرناه قبل قليل ، ففند أقوالهم فى نطاق ماجاء فى المجموعتين ؛ ثم نزلتا بعد الجلسة فتلاهما ، ثم نزلت المجموعة الثالثة بعد هذه أيضا فتلاها فى الجلسة التى تلتها .

ونرجح أن المجموعة الرابعة نزلت هى والمجموعة الثالثة فى آن واحد ؛ وتلهم أن المناظرة قد انتهت بها ؛ إذ احتوت تقريراً وتعقيباً وتحدياً ودعوة ختامية ؛ فخلقة عيسى ليست أعظم من خلقة آدم ، وهى مما يعترف به المناظرون ؛ ولم يعد ثمة إمكان للمراء

لمن يريد الحق : فإذا أصر المناظرون فى لجاجهم بعد هذا فلم يبق ما يقال لهم إلا تحديهم بأن يجتمع الطرفان ومعهم من يعزون من أبنائهم ونسائهم ، فيطلب الجميع من الله أن يجعل لعنته وسخطه وغضبه على الكاذبين منهم ، وإلا أن يدعو النبى الكتابيين - المناظرين - إلى كلمة سواء بينهم وبينه ، فيعلنوا معا أنهم لا يعبدون إلا الله ، ولا يشركون به شيئاً ، ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دونه ؛ فإن لم يعلنوها معه فليعلنها هو باسمه واسم أتباعه ، وليشهدهم على أنهم مسلمون لله وحده لا شريك له ، ولارب غيره .

ومما لاريب فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قد تلا عليهم هذه الآيات القوية النافذة أو خاطبهم بما فى نطاقها ، وأنه دعاهم إلى ما أمر بأن يدعوهم إليه ، وأعلن ما أمر أن يعلنه فى المشهد الحافل ؛ ومضمون الآيات وروحها يلهمان أن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى موقف القوى المطمئن بقوة موقفه وصحة دعواه ، والمستعلى على مناظره بالحجة الدامغة ، والصميمية العميقة ، والتحدى المفحم ، والدعوة التى لا يردها إلا الممترى .

وقد عرفت الدعوة إلى الابتهال إلى الله بالمباهلة فى تاريخ السيرة النبوية ؛ وقد قال الرواة إن الوفد لم يستجب إليها ، وقال للنبى ليكن كل منا على ماهو عليه ؛ ثم وادعوه وانصرفوا .

ولقد ورد فى صدد المباهلة وآيتها رواية متصلة بالمشهد ، وهى أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا عليا وفاطمة والحسن والحسين رضى الله عنهم وغدا بهم ليباهل القوم ، ولم يكن معه أحد من نسائه ؛ ونحن مضطرون إلى التوقف فى قبول هذه الرواية ، فالروايات تذكر أن عليا وفاطمة رضى الله عنهما لم يقترنا إلا بعد الهجرة ، وأن الحسن والحسين رضى الله عنهما لم يولدا إلا فى أواسطها ، والروايات تذكر أن وفد نجران قد جاء فى أوائل الهجرة ، والقرآن قد سمى زوجات النبى بنساء النبى ، وقد كان له زوجات حين وفد هذا الوفد ، وليس من المعقول أن يخالف صريح الأمر القرآنى ؛ على أننا من ناحية ثانية نتوقف فى رواية أن النبى استعد أو خرج للمباهلة فعلا ؛ ولا نرى الآية تقتضى ذلك ، وإنما جاءت بأسلوب التحدى والإفحام .

وقد ألحقنا المجموعة الخامسة بمجموعات المناظرة بسبب احتوائها لفظى « الإنجيل » و « نصرانيا » ، إذ رأينا من المحتمل أن يكون موضوع ملة إبراهيم قد أثير فى

جلسات المناظرة، وأن المناظرين النصارى ادعوا أن ملتهم وملة إبراهيم سواء، فنزلت الآيات تردد ذلك وترد عليه؛ على أننا لا نتشدد فى الاحتمال لأن ذكر النصارى فى موضوع ملة إبراهيم قد ورد أيضاً فى سلسلة حجاجية مع اليهود خاصة؛ مما جعلنا نقول إن ذكرهم قد جاء من قبيل الاستطراد.

وعلى كل حال فالمجموعات القرآنية التى نقلناها مع الروايات الواردة فى صددها والتى استأنسنا بها، سمحت لنا باقتباس صور عدة لمشاهد حادث يمكن أن يعد من أعظم أحداث السيرة والدعوة فى العهد المدنى. ومن أشدها إثارة للدهشة، وبعثاً للاهتمام، بما كان من وفرة عدد الوفد، وهيئته، ومجالس المناظرة الحاشدة التى انعقدت بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم كما هو المتبادر، مما يدل على أن شأن النبي واسمه ظلا يتجاوزان أفق الحجاز ويلفتان أنظار الملل الأخرى، ويسترعيان أسماعها، ويبعثان فى نفوس رجالتها رغبة إلى الاستطلاع والاستماع والاستيثاق؛ وعلى أن دار الهجرة النبوية صارت مما يشد إليه الرحال بقصد العلم والمعرفة والمناظرة والمحاجة.

— ٥ —

وهناك آيات فى سور البقرة والنساء والمائدة من المحتمل كثيرا أن تكون نزلت فى صدد مواقف حجاجية مواجهة بين النبي صلى الله عليه وسلم وفريق من النصارى أيضاً:

١ - فقد جاء فى سورة البقرة الآيات التالية:

« وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ... ١١١ - ١١٣

وهى تحكى أقوالا لليهود والنصارى فى آن واحد. والآيات من سلسلة طويلة فى حق اليهود، ومن المحتمل أن يكون ذكر النصارى جاء فيها من قبيل التعميم والاستطراد، غير أن مما لا يحتمل أن يكون اليهود قالوا (كونوا نصارى تهتدوا)، وأنه لابد أن يكون هذا القول قد صدر من نصارى فى موقف ما؛ وفى القول رد حجاجى على دعوة موجهة إلى القائلين كما هو واضح، فيه تبجح وفيه استكبار.

والآية الثالثة جديرة بالتعليق؛ إذ تحكى حكاية قول كل فريق ورأيه فى الآخر؛ وصدور هذا القول من كل منهما فى حق الآخر مما لا يحتمل شكاً؛ فهو متردد على ألسنتهم أبداً: أمس واليوم وغداً؛ والراجح أنه صدر من كل فريق فى غياب الآخر بسبيل دعواه أنه هو وحده على الحق وأنه لن يدخل الجنة إلا من هو على ملته! والآية قرينة قوية على صدور القول الأول أيضا فعلا أمام النبى صلى الله عليه وسلم فى موقف مواجه. ولاريب فى أنه كان لموقف ورأى كل فريق فى الآخر أثر إيجابى فيما كان من استعلاء الموقف النبوى والدعوة النبوية، فى نفوس العرب والكتابيين على السواء؛ وأن يكون من أسباب تبرم بعض علماء الكتابيين من نصارى ويهود، وإقدامهم على التفلت من المؤثرات المتنوعة، واستجابتهم إلى الدعوة النبوية دون مبالاة ببنى قومهم وملتهم؛ لاسيما أن الخلاف بين الكتابيين مما كان موضوع بحث وعجب وسخرية عند العرب على ما ذكرناه فى مناسبات سابقة.

(٢) وقد جاء فى سورة البقرة أيضاً الآيات التالية.

« وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ. الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ...

١٢٠ - ١٢١

والآيات تحكى موقف كل من النصارى واليهود من النبى صلى الله عليه وسلم؛ وهى من سلسلة طويلة فى حق اليهود فى الوقت نفسه، مما يجعل من المحتمل كثيراً أن

يكون ذكر النصارى فيها قد ورد من قبيل التعميم والاستطراد ، غير أن مما لا يحتمل شكا أنها حكاية واقع حال كل منهما فعلا ؛ ولا بد أن تكون قد تكشفت للنبي صلى الله عليه وسلم بالاحتكاك والمواقف الحجاجية المواجهة ؛ وفي الآية الثانية تدعيم لذلك إذ تأمر النبي بأن يقول لهم إن هدى الله هو الهدى الحق .

٣ - وقد جاء في سورة النساء الآيات التالية :

« يَٰأَهْلَ الْكِتَٰبِ لا تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ ولا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَٰهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ولا تَقُولُوا ثَلَٰثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلًا . لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ولا الْمَلَٰٓئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا . فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ولا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيًّا ولا نَصِيرًا ...

والآيات موجهة إلى النصارى كما هو واضح ، وبأسلوب مزج فيه الحجاج والنهي والدعوة والتنديد والإنذار معاً ، والصيغة تلهم أنها تخاطب فريقاً يسمع أو من الممكن أن يسمع مواجهة ، ومما لا يحتمل شكا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تلا عليه الآيات في موقف حجاجي مواجه .

٤ - وقد جاء في سورة المائدة الآيات التالية :

« قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَٰبِ لا تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ولا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ . لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِى إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ

ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ...

٧٧ - ٨٠

وهذه الآيات قد جاءت عقب الآيات (٧٢ - ٧٦) التى قررت كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وإنه ثالث ثلاثة ، ونددت بهم ودعتهم إلى التوبة والاستغفار ، وقررت حقيقة ما دعا إليه المسيح صلى الله عليه وسلم وأنه ليس إلا رسولا قد خلت من قبله الرسل ، وقرعتهم على عبادتهم ما لا يملك لهم ضرا ولا نفعاً من دون الله ، والتى نقلناها فى مبحث سابق من الفصل ، والتى يجب أن تعد جزءا من هذه الآيات وما احتوته من موقف حجاجى وتنديدى ، ومضمونها يدل بجزم على أن النصارى هم موضوع الخطاب ؛ ومما لا ريب فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قد وجه الآيات إلى فريق نصرانى لقيه فى موقف مواجه .

ويلفت النظر خاصة إلى الآية ٧٧ التى تأمر النبي صلى الله عليه وسلم بنهى هذا الفريق عن اتباع أهواء القوم الذين ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً من غيرهم وما زالوا ضالين عن سواء السبيل ؛ إذهى تسوغ لنا القول بجزم إن المقصود هم اليهود ؛ وقد أكدت هذه الآية التالية لها إذ ذكرت بنى إسرائيل بصراحة وما كان من لعنة داود وعيسى لهم بسبب ما ارتكسوا فيه من المنكرات وعدم نهى أحد منهم أحداً عنها ؛ وقد أشارت الآية الأخيرة إلى واقع حالهم الحاضر ، إذ لا يتورعون عن تولى الكافرين المشركين مع مايدعونه من التوحيد وما ينتسبون إليه من كتاب الله وأنبيائه كحجة منضمة أريد بها التدليل على ارتكاسهم فى الضلالة وتضامنهم مع المشركين بقصد الدس على دعوة الله ، والصد عن سبيلها ، وإضلال الناس عنها . ويبدو أن فريقاً من اليهود حاولوا صد الفريق النصرانى عن الإسلام ، وتثبيته على ما هو عليه من كفر صريح : فكان هذا النهى وهذا التقريع ، وكانت هذه الإشارة إلى توليهم المشركين ليكون فيها عبرة للفريق النصرانى ، ورادع عن الاستماع إليهم .

وفى كل هذا صور من المشهد الحجاجى الذى انطوت عليه السلسلة كما هو المتبادر ؛ والآية ٧٩ قصدت تقوية العظة وداعى العبرة والروع الموجه للفريق النصرانى ؛ فعيسى عليه السلام قد لعن اليهود لما ارتكسوا فيه من المنكرات ، وداود عليه السلام - جده لأمه - قد لعنهم من قبله ؛ وفى هذا ما يجب أن يكون رادعاً وعبرة للفريق النصرانى ، وصارفاً عن الاستماع إلى دسهم ووساوسهم .

وفى هذا أسلوب بديع من الجدل المحكم والحجة البالغة بالنسبة للموقف الذى طرفه نصارى كما هو واضح أيضا .

المبحث الرابع

الصدام مع النصارى

حالة النصارى فى المدينة وأخلاقهم لم تكن تتحمل صداماً - مدى النهى القرآنى عن اتخاذهم أولياء - اختلاف الحالة بالنسبة لنصارى مشارف الشام - ماذكرته الروايات من أخبار عدوان قبائل هذه المشارف وسرايا النبى إليها - آيات التوبة بقتال الكتابيين وترجيح نزولها بين يدى غزوة تبوك - آيات التوبة بالاستنفار إلى غزوة تبوك - مدى الآيات - تعليقات وتحليلات حولها - ماللهم من سبق بنى سكان المشارف وسبق الصدام الذى وردته الروايات - خلاصة الروايات عن ظروف وأحداث غزوة تبوك - مقاطع من سورة التوبة تحتوى صوراً ومشاهد من حركة الاستعداد للغزوة وتأليفها - إشارة إلى مايتبعها من جيش أسامة ثم جيوش الفتح وصلتها بها - مغزى هذه الغزوة ومداها - تفنيد لمزاعم بعض المستشرقين فيها .

— ١ —

لم يكن فى المدينة جالية ذات شأن وكيان يمكن أن يقع بينها وبين النبى والمسلمين صدام ، وأن يصدر منها مواقف عملية مؤذية وخطرة كما كان شأن اليهود ، هذا إلى أن الآيات القرآنية المدنية لم تحتو حملات عنيفة قاسية عليهم ، بل وصفتهم بأوصاف محببة إطلاقاً ، مما يلهم أن الذين لقيهم النبى منهم فى المدينة كانوا دمثى الأخلاق لينى الجانب ، غير جانحين إلى عنف وكيد ؛ وهذا ماجعلنا نرجح فى مناسبة سابقة أن موضوع آيات المائدة ٥١ - ٥٢ و ٥٧ - ٥٨ التى نهى فيها المسلمون عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ، هم اليهود مباشرة ، وأن ذكر النصارى فى الآية ٥١ قد جاء استطراديا ومعللا بالتعليل الذى احتوته الآيات ٥٧ - ٥٨ ليكون تلقيناً قرآنيا مستمر المدى ؛ وترجيحنا مستلهم مما احتوته الآية ٥٢ من نعى على المنافقين أن يتمسكوا بأوليائهم خشية الدوائر ؛ واليهود هم الذين كان بينهم وبين المنافقين ولاء متصل بما قبل الهجرة ، ومحتج به .

- ٢ -

أما بالنسبة إلى خارج المدينة فالأمر مختلف ؛ حيث كان غالب سكان مشارف الشام نصارى تابعين لنفوذ دولة نصرانية كبرى ؛ وقد ذكرت الروايات أخبار اعتداء بعض قبائل هذه المشارف كقضاعة وبنى كلب على قوافل التجار ، وخبر قتل أحد رسل رسول الله فى هذه المنطقة ، وأخبار سرايا جهادية مثل سرية ذات الاطلاح التى قتل أكثر رجالها بيد قبائل العرب ، ومثل سرية دومة الجندل ؛ ومثل سرية مؤتة المشهورة التى وصلت إلى أبواب البلقاء ودارت الدائرة فيها على المسلمين إذ قتل ثلاثة من قوادهم وعدد من رجالهم ونجت بعد ذلك برجعة ماهرة تولاها خالد بن الوليد رضى الله عنه ؛ وقد بدأت هذه السرايا منذ السنة الهجرية السادسة على مايستفاد من تلك الروايات التى ليس بينها خلاف جوهرى ، والتى يصح أن يكون ماذكرته معتبراً من حيث الأساس بقطع النظر عن التفصيل ، وهكذا يكون الصدام المسلح بين النبى والمسلمين من جهة، وسكان تلك المشارف من جهة أخرى ؛ قد بدأ منذ أوائل النصف الثانى من العهد المدنى واستمر .

وليس فى القرآن إشارة صريحة إلى ذلك ؛ غير أن فى سورة التوبة آيات تأمر بقتال الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، وتذكر أنهم يريدون أن يطفئوا نور الله ، وأن كثيراً من أحبارهم ورهبانهم يصدون عن سبيل الله، وهى هذه :

« قَٰتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ . وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَٰرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ . اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

سُبْحَـٰنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَـٰفِرُونَ . هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ . يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ النَّاسِ بِالْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ... ٢٩ - ٣٤

والآية الأولى تشريعية ، والأخرى تنطوى على حكمة التشريع بالإضافة إلى ما فى الأولى من هذه الحكمة . وقد يدخل فى الآيات اليهود والنصارى معاً ؛ غير أن الآيات قد نزلت بعد الفتح المكى على ما تلهمه ظروفها ، ولم يكن قد بقى يهود فى الحجاز ، كما أنها نزلت بين يدى غزوة تبوك التى هى من مشارف الشام والتى غالب سكان مناطقها نصارى ، وبين يدى آيات أجمعت الروايات على أنها فى صدد الاستنفار إلى هذه الغزوة ، وقد احتوت وصفاً يلهم بقوة أنه وصف لها كما ترى فيما يلى :

« يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَـٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فِى الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ . إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِىَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللهِ هِىَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . لَوْ كَانَ

عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ...[١] ٣٨ - ٤٢

فهذه الآيات وتلك والحالة هذه تنطوى على إشارات قرآنية إلى الصدام بين النبي والمسلمين من جهة ، والنصارى من جهة أخرى .

— ٣ —

ومع أن كثيراً من المفسرين قد صرفوا الأوصاف الثلاثة المذكورة فى الآية الأولى إلى أن كفر الكتابيين برسالة النبي والدين الذى أتى به سبب مطلق ، وقالوا إنه موجب التشريع ، فإن هناك ما يحمل على التوقف فى التسليم بذلك ؛ لأنه يقتضى أن يكون المسلمون مأمورين بمقاتلة كل كتابى إطلاقا إذا جحد رسالة النبي ، مع أن الآية قد احتوت حرف التبعيض « من » الذى لاشك فى أنه يعترض ذلك القول الإطلاق ، ويسوغ صرف الأوصاف المذكورة إلى حالات أوسع تناولا ، ويجعل أمر القتال منوطاً بأسباب أخرى ؛ فعدم تحريم ما حرم الله ورسوله ، وعدم الدينونة بدين الحق ، يتسعان لمعان كثيرة أخرى مثل العدوان على القوافل وإخافتها وسلب أموالها ، مما هو مناقض لكل حق ودين ، ومما كان حالة واقعة عند نزول الآيات والاستنفار إلى غزوة تبوك ، ومثل عدم تقيدهم بقيود الحق والعدل فى معاملة الناس وفى أموالهم ودمائهم وحرياتهم المتنوعة مما يأمر به دين الله وأنبيائه ، ويزجر عنه خوف الله واليوم الآخر ، ومما يصح أن يكون تعليلا مستمراً لحكمة التشريع التى انطوت فى الآية الأولى ؛ وقد يدعم هذا ما ورد فى الآيات التى تلت هذه الآية من إرادتهم إطفاء نور الله ، وصد كثير من رهبانهم الناس عن سبيل الله ، مما يعنى وقوفهم فى وجه الدعوة وحريتها ونشرها والاستجابة لها ، ومما كان فى الغالب حالة واقعة ، ويصح أن يكون كذلك تعليلا مستمراً لحكمة التشريع أيضا ؛ ومعلوم أن هذا كان من الأسباب التشريعية لقتال المشركين ؛ هذا إلى أن قولهم ذاك ينقض المبدأ

---

(١) الآية الأخيرة هى التى احتوت وصف الرحلة بأنها بعيدة الشقة غير يسيرة المنال .

القرآني المحكم في آية الممتحنة ٨ خاصة وفي البقرة ٢٩ - ٤١ و ١٩٠ - ٢٩٤ والنساء ٩٠ - ٩١ وغيرها، من أن الجهاد الإسلامي دفاعي ورد لبغي وعدوان سابقين يشملان الطعن في الدين والفتنة عنه والوقوف في وجه حرية الدعوة إليه وممارسة شعائره؛ إلى مناقضته كذلك لما هو ثابت من النهي النبوي عن قتال غير المحاربين من الكتابيين كالرهبان والشيوخ والنساء والأطفال؛ إذ ينطوي فيه أن لا يكون عدم إسلام إنسان ما سببا لقتاله؛ وعلى هذا كله فإننا نقرر بشيء من الجزم أن الآيات قد نزلت في قتال الكتابيين الذين يبدو منهم بغي وعدوان، حتى تخضد شوكتهم ويؤمن بغيهم وعدوانهم بالخضوع التام، ودفع الجزية للسلطان الإسلامي؛ وهو ما يتسق مع المبادئ والتقريرات القرآنية بوجه عام. وما دام الأمر كذلك فإن من الممكن القول بجزم أيضا إن غزوة تبوك التي استنفر إليها بالآيات التي أوردناها آنفا والتي نزلت تلك الآيات بين يديها قد كانت غزوة مقابلة على عدوان وبغي سابقين؛ وهذا يؤيد ما ذكرته الروايات بوجه عام من قيام حالة الحرب بين المسلمين وسكان مشارف الشام نتيجة لعدوان وبغي كان هؤلاء السكان بادئين بهما مما ذكرته الروايات أيضا كالاعتداء على القوافل، وقتل رسول رسول الله، ورد بعض المسلمين منهم إلى الكفر أو ما شاكل ذلك.

ونقول بالمناسبة وبسبب ما ردده بعض المغرضين عن سير وأغراض الجهاد في الإسلام: إن تقرير مبدأ الصلح مع المحاربين الكتابيين [1] على الجزية قد انطوى على تبرير غاية الحرب الإسلامية الدفاعية، وأن نشر الإسلام لم يكن هدفا رئيسيا للقتال أو من أهدافه أو نتائجه، وإنما هو لخضد شوكة العدو الباغي بشكل من أشكال البغي على ما ذكرناه قبل قليل؛ ومما لاريب فيه أن قادة الفتح الإسلامي الأول والخلفاء الراشدين بنوع خاص قد التزموا هذا بكل دقة وإخلاص.

— ٤ —

وغزوة تبوك هذه كانت في السنة الهجرية التاسعة على ما ذكرته الروايات التي

---

(١) من السنة النبوية والراشدية الثابتة أن الجزية أخذت من غير الكتابيين أيضا مثل المجوس وعبدة الكواكب وعلى هذا تكون السنة قد فسرت الآية بحيث يفهم منها أن ذكر أهل الكتاب لا يعني اقتصار الجزية عليهم وإنما خصوا بالذكر لأنهم موضوع مباشر حاضر.

لا خلاف فى جوهرها ، أى بعد فتح مكة بسنة ، وهى آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم ومن أهمها مدى ومعنى وكثرة عدد وبعد شقة ، إن لم نقل أهمها . ومما ورد عن أسبابها المباشرة أن النبي قد بلغه تجمع جموع كثيرة على حدود الشام تريد غزو الحجاز ردا على حملة مؤتة ، كما ورد أن قبائل العرب فى هذه الحدود تجرأت أكثر من ذى قبل على القوافل بعد ما كان من عاقبة حملة مؤتة المحزنة ما كان ؛ فرأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يجمع أكبر عدد ممكن من المسلمين ويخرج بهم إلى هذه الحدود إرهابا للعدو ؛ فاستنفر الناس واستعانهم بالمال ، ولم يزل بهم محرضا مرغبا ومنذراً منددا حتى تمكن من جمع جيش عظيم بلغ ثلاثين ألفا ونيفا بين مشاة وركبان ، وحتى تمكن من جمع عدة وافرة من السلاح والخيل والإبل والماشية والطعام والثياب ، بالرغم مما كان من شدة الحر من جهة وعسر الوقت من جهة أخرى ، حتى سمى الجيش بجيش العسرة .

وخرج النبي صلى الله عليه وسلم بجيشه العظيم فى شهر رجب ، فوصل تبوك بعد عشرين يوما ، وعسكر فيها ولم يتعدها ، وقد أرسل منها رسله وسراياه مستطلعة ومنذرة ، وجاءه إليها أمراء ووفود الأيلة ودومة الجندل وأذرح والجرباء ومنقبا ، وعقدوا معه عقودا على جزية ورسوم سنوية يؤدونها إليه ، وعلى المسالمة والمناصحة من ناحيتهم ، وتعهد من ناحيته بحمايتهم وذمته وذمة المسلمين لهم ، ثم قفل راجعا إلى المدينة وقد تأخر وفود قرى يهودية فى هذه المنطقة فلحقوا بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وهم بنو عاديا وبنو غريض ، وتعاقدوا معه على المسالمة والجزية .

— ٥ —

ولقد جاء فى سورة التوبة مقاطع عدة حول هذه الغزوة دون ذكر اسمها ، عدا المقطعين الذين نقلناهما سابقا ونوردهما فيما يلى لأن فيهما بعض الصور والمشاهد فى صدد تأليف الحملة :

١ — عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَـٰذِبِينَ . لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَـٰهِدُوا

بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين . إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون . ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم (١) يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين . لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون . ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ... (٢) ٤٣ - ٤٩

٢ — قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون . قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين . وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون ...

٥١ - ٥٤

٣ — فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون . فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون . فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك

(١) لسعوا سعياً خبيثاً بينكم بالافساد والفتنة .

(٢) تقرأ مع هذه الآيات الآيات السابقة لها ، والتي نقلناها قبل ، وهي الآيات ٣٨ - ٤٢ لأنها سلسلة واحدة .

لِلْخُرُوجِ فَقُل لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ … ٨١ - ٨٣

٤ — وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ (١) مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ. إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ …

٩٠ - ٩٤

٥ — لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ. وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ …

١١٧ - ١١٨

---

(٣) أي المعتذرون .

٦ — ماكانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ... ١٢٠

وبعض مضامين المقاطع تلهم بقوة أن بعضها نزل فى أثناء الرحلة ، بقصد تسلية النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، ويستلهم منها أن الاستنفار إلى الغزوة كان فى موسم الصيف واشتداد الحر ، كما كان فى وقت ضيق وشدة ؛ وأن السفرة قد صعبت على فريق من المسلمين المخلصين فضلا عن المنافقين ، وقوبلت بشىء من الفتور والتثاقل حتى اقتضت الحكمة التشديد فى الحث والإنذار ، وقد استجاب المخلصون وفيهم من صعبت عليه السفرة ، بادئ ذى بدء ، ولم يتخلف من سكان المدينة إلا ثلاثة ؛ أما المنافقون ، لاسيما أغنياؤهم ورؤساؤهم ، فقد اعتذروا للنبى بأعذار كاذبة ، وواهية ، واستأذنوه بالتخلف بعد أن حاولوا تثبيط عزائم الناس بحجة الحر وأخفقوا ، فأذن لهم ؛ ومع العتاب المحبب الذى عوتب به فى الآيات على الإذن لهم ، والذى إنما كان بقصد فضح كذبهم ، يبدو من الآيات أنه كان هناك مبررات لهذا الإذن ، إذ أريد منه تفادى دسهم وكيدهم بين المسلمين ، فى أثناء الرحلة ، لا سيما وبينهم وبين كثير من المسلمين روابط القربى والمصلحة والألفة ؛ وقد أراد بعضهم أن يساعد بماله دون نفسه فلم يقبل منهم ذلك زيادة فى النبذ والإهمال ؛ وقد استنفر النبي صلى الله عليه وسلم البدو المسلمين أيضاً ، فسارع فريق منهم إلى الاعتذار ؛ والاستئذان فى التخلف ، كما تخلف آخرون بدون اعتذار ولا استئذان ، مع قدرة هؤلاء وأولئك ؛ وقد كان لبعضهم مع ذلك موقف رائع جدا ، وكانوا فقراء ، فجاءوا إلى النبي يعرضون أنفسهم ، ويطلبون معونته على الرحلة ، فلما قال لهم إنه ليس فى إمكانه معونتهم تولوا باكين حزنا على حرمانهم من الاشتراك فى الجهاد النبوى ؛ ومشهد المتخلفين الثلاثة رائع حقا هو أيضا ، إذ يستفاد من الآية ١١٨ وما ورد

فى صددها من روايات أنهم من المخلصين ، وأن تخلفهم كان كسلا ، وأنه لما عادت الحملة قوبلوا من النبى صلى الله عليه وسلم والمجاهدين بالإهمال والمقاطعة حتى قاطعهم نساؤهم ، وظلوا مقاطعين نحو أربعين يوما لا يكلمهم أحد ، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، فلجأوا إلى الله يستغفرون ويعلنون توبتهم فتاب عليهم .

وعلى ضوء الآيات الأخرى يتبادر أن الآية ١٢٠ هى عتاب وحث بالنسبة للمستقبل ، وأن المعقول أن يكون فيها كلمة مقدرة ، لتكون الجملة الأولى هكذا « ما كان لأحد من أهل المدينة ... » وبذلك يزول ما توهمه من تخلف أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب إطلاقاً ، مع تقرير الآيات بصراحة اشتراك جميع المخلصين القادرين من أهل المدينة عدا الثلاثة ، ومع ورود حرف التبعيض فى الآية ٩٠ التى تحكى اعتذار الأعراب ، وما فى ذلك من دلالة على أن منهم من اشترك ولم يتخلف .

وهذا التخلف من البدو والمنافقين والحملة الشديدة عليهم من أجله ، قد يوهم أن العدد المروى للجيش مبالغ فيه ، لا سيما أن هناك رواية غريبة تمسك بها بعض المستشرقين تذكر أن معسكر المنافقين قد بلغ فى عدده مقدار معسكر المخلصين وقد تخلفوا فى النهاية ؛ ومع أننا لسنا فى موقف يساعدنا على الجزم بصحة العدد المروى ، بل نرى من المحتمل أن يكون فيه شىء من التزيد - نعتقد أنه كان وافر العدد ، بحيث يصح أن يقال إنه جيش عظيم بالنسبة لظروف ذلك الزمن ، كما أننا نقول بجزم إن الرواية عن عدد معسكر المنافقين لا يمكن أن تكون صحيحة ، وفى سورة التوبة آيات فى صدد تقريع المنافقين تؤيد ذلك ، إذ تحكى خوفهم وتزلفهم ، مما لا يمكن أن يكون إلا من فئة قليلة مستضعفة كما ترى :

١ — وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ . لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ...

٥٦ - ٥٧

٢ — يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ . أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ

خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْىُ الْعَظِيمُ . يَحْذَرُ الْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ . وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ . لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ... ٦٢ - ٦٦

٣ — يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَٰهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى الدُّنْيَا وَالْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى الْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ... ٧٤

وذكر تخلف الثلاثة من المخلصين دليل على أنه لم يتخلف من مسلمي المدينة المخلصين القادرين غيرهم ؛ وإذا لوحظ أن المدينة قد اكتظت بالنازحين من مكة وغيرها بعد الفتح ، بدا احتمال وفرة المشتركين من سكانها وفرة كبيرة ، قويا جداً كما هو المتبادر.

وقد نبهنا إلى أن الأعراب المعتذرين والمتخلفين ليسوا هم جميع الأعراب ، بدليل حرف التبعيض ؛ ونضيف إلى هذا أنه ورد فى سلسلة الحملة على هؤلاء آية تثنى على المخلصين منهم كما ترى :

• وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَٰتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِى رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... ٩٩

مما يصح أن يكون قرينة أخرى على اشتراك هذا الفريق المخلص الذى نرجح أنه كان وافر العدد ، إذا ما ذكرنا أنه اشترك منهم عدد كبير فى الفتح المكى ، وأنهم أو أن غالبيتهم العظمى لم تندمج فى فتنة الردة ، بل كانوا فى فصائل قمعها على ما ذكرته الروايات :

- ٦ -

هذا ؛ ومما تجدر الإشارة إليه أن الروايات قد ذكرت دون خلاف - حتى ليكاد يصح أن يقال إن ما ذكرته يقيني - أن النبي صلى الله عليه وسلم جهز قبيل وفاته جيشا بقيادة أسامة رضي الله عنه بقصد تسييره إلى مشارف الشام ، وبتعبير أدق ، إلى البلقاء ، وأنه كان في هذا الجيش كثير من كبار الصحابة وفي مقدمتهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم مات قبل سيره فسيره خليفته الأول رغم ما كان يحيط به وبالإسلام من مشاكل وأخطار ، حرصاً على تنفيذ خطة رسول الله ، مما يمكن أن يلهم أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد الانتفاع بما تم له من توطيد هيبة الإسلام في مشارف الشام ، وتمهيد السبيل لحرية الدعوة بإخضاع أمراء تلك المشارف في غزوة تبوك ، فجهز هذا الجيش ليصل إلى أبواب الشام - البلقاء - ويوطد هذه الهيبة ويمهد هذه السبيل أيضاً ، وانتداب كبار الصحابة في الجيش ذو مغزى عظيم في هذا الصدد كما هو المتبادر . ولقد ذهب هذا الجيش بدون أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لمشاغلهما الجديدة العظمى بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم عاد ؛ ولم يكد ينتهي أبو بكر رضي الله عنه من إخماد فتنة الردة حتى جهز الجيوش وعهد بقيادتها إلى قواد معروفين ، وسيرها في الوجهة التي سير فيها النبي صلى الله عليه وسلم حملة مؤتة أولا ، ثم سير حملة أسامة ، فكان لها ما كان من الفتوحات الباهرة وتوطيد سلطان الإسلام ونشر رايته في بلاد الشام نتيجة لذلك .

فغزوة تبوك والحالة هذه - وإن كانت إمتداداً لحالة الحرب التي بدأت منذ السنة الهجرية السادسة - لا نعدو الحق إذا قلنا إنها كانت تهدف فوق ذلك - وقد حشد لها ذلك الحشد العظيم وتبعها جيش أسامة رضي الله عنه ثم جيوش الفتح - إلى أن تكون عنواناً لما بلغه الإسلام في الجزيرة تحت راية النبي صلى الله عليه وسلم من قوة وسعة وانتشار يراه سكان مشارف الشام فيرهبون ويقفون عند حدهم ، وقارعاً لأسماع من وراءها بالنبي ودعوته العظمى ؛ بل لعلنا لا نعدو الحق إذا قلنا إنها كانت تدعيما للخطوات التاريخية الخالدة التي خطاها خلفاء النبي صلى الله عليه وسلم وتم بها ما تم من فتح باهر ، وسلطان عزيز ، وأعلام منشورة في ربوع الأرض ؛ بالرغم

مما يحلو لبعض المستشرقين (١) من تقليل شأنها وأغراضها ونتائجها ، ومن زعمهم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يخطر بباله أن يمد دعوته إلى أفق خارج جزيرة العرب ، وإنكارهم رسالات النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الأرض ، وقولهم إن الروايات والأخبار والأقوال مما حمل على السيرة النبوية حملا .

فالأوامر القرآنية بتبليغ الرسالة للناس والكتابيين متكررة ، والآية ٦٧ من المائدة خاصة ، وقد نقلناها فى مناسبة سابقة ، قوية جدا فى حث النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك ؛ وقد دان الحجاز كله تقريباً بدوه وحضره بالإسلام ، بل أخذت وفود الأنحاء القاصية من الجزيرة تفد إلى المدينة وتدين به قبيل السفر إلى تبوك ، وسرايا النبي صلى الله عليه وسلم قد تكررت ، وقرعت إحداها أبواب الشام قبل ذلك ، فليس هناك ما لا يتسق مع منطق الحوادث والظروف والتوجيهات القرآنية ويبرر مزاعم المستشرقين .

---

(١) المستشرق كايتانى فى كتابه تاريخ الاسلام .

فصل فى المنافقين فى العهد المدنى

تمهيـــد

ـ حركة النفاق فى المدينة ومقابلتها مع ما جاء فى الآيات المكية من صفات نفاق بعض المسلمين ـ علة ظهور الحركة فى المدينة دون مكة ـ مدى نفاق المنافقين فى العهد المدنى ـ أثر مواقفهم وخطورتها ـ أثر اليهود فى حركتهم ـ مباحث الفصل على حسب تصنيف الآيات ـ مدى ما فى القرآن من ملهمات بأن المنافقين طبقات ـ عدم اعتبار النبى المنافقين اعداء محاربين وقتلهم أو قتالهم ومدى ذلك ـ ملهمات القرآن بأن معظم المنافقين أفراد بارزون .

— ١ —

مع أن آيات العنكبوت ١٠ - ١١ قد احتوت كلمة « المنافقين » وحملت على الموصوفين بها لنفاقهم وذبذبتهم وهلعهم ، ومع أن آيات مكية أخرى قد احتوت وصفاً لبعض المسلمين بمثل ذلك كآيات الحج ١١ - ١٣ - وقد نقلنا هذه وتلك فى مناسبات سابقة - فإن حركة النفاق التى نجمت لمناوأة النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين والإسلام هى فى الحقيقة من حركات العهد المدنى وأحداثه ؛ لأن أولئك الأشخاص الذين كانوا موضوع تنديد الآيات المكية القليلة لم يكونوا مناوئين للنبى والمسلمين والإسلام ، وإنما كانوا ضعفاء قلب وشخصية ، فلم يستطيعوا أن يصمدوا كما صمد أكثر المسلمين أمام إزعاج المشركين واضطهادهم ، صموداً قويا ومستمرا ، فكان يظهر عليهم الهلع والجزع والتبرم بحالتهم الصعبة التى كانوا عليها .

— ٢ —

وعلة ظهور تلك الحركة فى المدينة واضحة ؛ فالنبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون الأولون فى مكة لم يكونوا من القوة والنفوذ فى حالة تستدعى وجود ثمة من الناس ترهبهم أو ترجو خيرهم ، فتتملقهم وتتزلف إليهم فى الظاهر ، وتتآمر عليهم وتكيد لهم وتمكر بهم فى الخفاء ، كما كان شأن المنافقين بوجه عام ؛ ولقد كان أهل مكة وزعماؤها خاصة يناوئون النبى جهاراً ، ويتناولون من استطاعوا من المسلمين بالأذى الشديد ،

ويقاومون الدعوة بكل وسيلة دون ماتحرز أو تحفظ ، وكانت القوة لهم حتى اضطر المسلمون إلى الهجرة فراراً بدينهم ودمهم إلى الحبشة، أولا ثم إلى يثرب ؛ وحتى فتن بعضهم عن دينه بالعنف والإكراه ، أو بالإغراء والتهويش ، وحتى تزلزل بعضهم وتبرم ونافق المشركين ، وحتى مات بعض من ناله الأذى ممن ثبت على دينه نتيجة للتعذيب ، كما مر تفصيله فى مباحث العهد المكى .

أما فى المدينة فقد كان الأمر مختلفاً جدا . فالنبي صلى الله عليه وسلم استطاع قبل أن يهاجر إليها أن يكسب أنصاراً أقوياء من الأوس والخزرج ، ولم يهاجر إلا بعد أن استوثق من موقفه ، ولم يبق تقريبا بيت عربى فيها لم يدخله الإسلام [١] فى هذه الحالة لم يكن من الهين أن يقف الذين لم يؤمنوا به – إما عن جهالة وغباء ، وإما عن غيظ وحقد وعناد لأنهم رأوا فى قدوم النبي حدا لنفوذهم وسلطانهم – [٢] موقف الجحود والعداء العلنى للنبي والمسلمين من المهاجرين والأنصار ؛ وكان للعصبية فى الوقت نفسه أثر غير قليل فى عدم الوقوف هذا الموقف ، لأن سواد الأوس والخزرج أصبحوا أنصار النبي ، ومرتبطين به بمواثيق الدفاع والنصر ، إلى أن جلهم قد حسن إسلامهم ، وغدوا يرون فى النبى رسول الله وقائدهم الأعلى الواجب الطاعة ، ومرشدهم الأعظم الواجب الاتباع ؛ فلم يكن يسع الذين ظلت تغلبهم نزعة الشرك ، ويتحكم فيهم مرض القلب والمكابرة والحقد ويحملهم ذلك على مناوأة النبى صلى الله عليه وسلم ودعوته ونفوذه – أن يظهروا علنا فى نزعتهم وعدائهم ، ولم يكن أمامهم إلا التظاهر بالإسلام والقيام بأركانه ، والتضامن مع قبائلهم ، وجعل مكرهم وكيدهم ودسهم ومؤامراتهم بأسلوب المراوغة والمواربة والخداع والتمويه ؛ وإذا كانوا وقفوا أحياناً مواقف علنية فيها كيد ودس وعليها طابع من النفاق بارز ؛ فإنما كان هذا منهم فى بعض الظروف والأزمات الحادة التى كانت تحدق بالنبى والمسلمين ، والتى كانوا يتخذونها حجة لتلك المواقف بداعى المصلحة والمنطق والاحتياط ، ولم يكونوا على كل حال يعترفون بالكفر أو بالنفاق ، غير أن نفاقهم وكفرهم ومواقفهم فى الكيد

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٣١ .

(٢) فى سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٣٥ أن الخزرج كانوا مزمعين المناداة بعبد الله بن أبى زعيم المنافقين ملكا عليهم قبيل الهجرة ، وأنه حقد على النبى لأن قدومه حال دون ذلك .

والدس والتآمر لم تكن لتخفى على النبى صلى الله عليه وسلم والمخلصين من أصحابه من المهاجرين والأنصار ، كما أن تلك المواقف العلنية التى كانوا يقفونها فى فرص الأزمات كانت مما تزيد كفرهم ونفاقهم فضيحة ومقتاً ؛ وقد كانت الآيات القرآنية توجه إليهم كذلك الفضائح المرة بعد المرة ، وتدل عليهم بما يفعلون أو يمكرون ، وتدمغهم بشرورهم وخبثهم ومكايدهم ، وتحذر النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين منهم فى كل ظرف ومناسبة .

— ٣ —

ولقد كانت مواقف المنافقين ومكايدهم بعيدة المدى والأثر على ما تلهم الآيات المدنية ، حتى لكأنه نضال قوى يذكر بما كان من نضال بين النبى صلى الله عليه وسلم وزعماء مكة وإن اختلفت الأدوار والنتائج ؛ إذ أن النبى لم يلبث أن أخذ مركزه يتوطد ، وقوته تزداد ، ودائرة الإسلام تتسع ، وصار صاحب سلطان وأمر نافذ وجانب عزيز ؛ وإذ لم يكن المنافقون كتلة متضامنة ذات شخصية خاصة بارزة ؛ وكان ضعفهم وضآلة عددهم وشأنهم يسيران سيراً متناسباً عكسيا مع ما كان من تزايد قوة النبى صلى الله عليه وسلم واتساع دائرة الإسلام ، وتوطد عزته وسلطانه .

ويكفيك لأجل أن تشعر بخطورة الدور الذى قام به المنافقون، وخاصة فى أوائل العهد ، أن تلاحظ أن المنافقين كانوا أقوياء نسبيا بعصبياتهم التى كانت ما تزال قوية الأثر فى نفوس سواد قبائلهم ، كما أنهم لم يكونوا مفضوحين فضيحة تامة ، ولم يكن الإسلام قد رسخ فى هذا السواد رسوخاً كافيا ؛ وأن النبى صلى الله عليه وسلم كان محوطا بالمشركين الجاحدين من كل جانب ؛ وأهل مكة خصومه الألداء ، وهم قبلة الجزيرة ، يتربصون به الدوائر ، ويتحينون كل فرصة ووسيلة للقضاء عليه ؛ واليهود فى المدينة وحولها قد تنكروا له منذ عهد مبكر وتطيروا به ، ثم جاهروه بالكفر والعداء والمكر والكيد ؛ ولم يلبث أن انعقد بينهم وبين المنافقين حلف طبيعى على توحيد المسعى ، والتضامن فى موقف المعارضة والكيد ، حتى ليمكن القول إن المنافقين لم يقووا ويثبتوا ويكن منهم ذلك الأذى الشديد والاستمرار

فى الكيد والدس إلا بسبب ما لقوه من اليهود من تعضيد ، وما انعقد بينهم من تضامن وتوائق ، ولم يضعف شأنهم ويخف خطرهم إلا بعد أن مكن الله للنبي من هؤلاء وأظهره عليهم وكفاه شرهم .

— ٤ —

والآيات التى تتضمن أوصاف وأخبار ومواقف المنافقين والحملات عليهم كثيرة جدا ، حتى لا تكاد تخلو سورة مدنية منها ، وخاصة الطويلة والمتوسطة ؛ وهذا يعنى أن هذه الحركة ظلت طيلة العهد المدنى تقريباً ، وإن كانت أخذت تضعف من بعد نصفه الأول ، وهى متنوعة المدى والدلالات ، ويمكن تصنيفها كما يلى :

١ - ما جاء فى صفاتهم وأحوالهم .

٢ - « « « مواقفهم الكيدية والساخرة وتآمرهم ضد المسلمين والإسلام .

٣ - « « « مواقفهم من الجهاد ووقائعه .

— ٥ —

هذا ؛ ونريد أن ننبه إلى ثلاث فى صدد هذا الفصل :

أولاها ما جاء فى الآيات التى سنوردها من وصف « الذين فى قلوبهم مرض » بدل وصف « المنافقين » ، ومن اجتماع الوصفين معاً فى آية واحدة ، ومن تفاوت الشدة فى الحملات وتنوع الصور ؛ مما يسوغ القول إن هذه الفئة كانت فريقين أو طبقتين ، واحدة كافرة كل الكفر ، عدوة كل العداوة ، ماكرة كل المكر ؛ وأخري ضعيفة النفس ، مريضة القلب ، تميل مع المنفعة ، وترغب بنفسها عن ما تسميه مخاطر ومجازفات ومشاكل ، ويأخذها شىء من الشك والتردد فى طاعة الله ورسوله طاعة تامة ، وتنجر أحياناً إلى الفئة الأولى فتحذو حذوها ، أو تقع فى شباكها وتندمج معها .

ومما يجدر التنبيه إليه مع ذلك أن الحملات القرآنية العنيفة ، ووصف الكفر والنفاق ، والأمر بالمجاهدة والشدة ، قد تناول هذه الطبقة فى آيات عدة كما تناول تلك ، مما يمكن الاستدلال به على ، أن القرآن وإن تضمن إلهام كونهم طبقتين

أو طبقات - إذا أردنا أن نصنفهم على حسب تنوع مواقفهم - فإنه تضمن إلهام أنهم فئة واحدة، وتضمن بالتالى إلهام أن أى ختل أو شك أو تردد أو تهرب أو سخرية أو تقصير فى الواجبات العظمى كالإيمان التام بما يبلغ النبي صلى الله عليه وسلم من قرآن أو يأمر به من أوامر أو يحكم به من أحكام، وكالطاعة التامة له، وكاحترامه كل الاحترام، وكالقيام بواجب الجهاد بالنفس والمال لتوطيد حرية الإسلام، ودفع الخطر والبغى والكيد عن الإسلام والمسلمين ومصالحهم، والتضامن القوى التام فى كل هذا مع سائر المسلمين باطناً وظاهراً؛ أو الاندماج مع أعداء الإسلام والمسلمين فى مؤامرة أو مكايدة، أو مسايرتهم فى أى موقف أو قول مهما كان نوعه ومهما كان ناتجاً عن أوشاج الرحم والقربى والعصبية والمصلحة نفاقاً - يعتبر داخلا فى شمول صفات النفاق التى وردت فى الآيات القرآنية، وفى شمول ما ورد بحق المتصفين بها من تنديد قارع، وإنذار قاصم، وإن كان فريق أقل شدة أو أكثر تحفظا من فريق آخر، وننبه إلى ما فى هذا من تلقين قرآنى جليل مستمر المدى.

والثانية ولها أهمية عظمى فيما نعتقد من ناحية السيرة النبوية: هى عدم ورود روايات موثقة تتضمن أن النبي صلى الله عليه وسلم قد اعتبر المنافقين أعداء محاربين أو عاملهم كذلك، أو أمر بقتلهم، أو قتل بارزيهم، بسبب صفة النفاق، أو بسبب موقف منبعث عنه من تلك المواقف الكثيرة المتنوعة التى حكتها الآيات التى نزلت فى مختلف أدوار التنزيل عنهم، والتى احتوت صوراً كثيرة من الأذى والكيد والسخرية بالله ورسوله وآياته، والتناجى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، والتثبيط عن الجهاد والختل فيه، ودس الدسائس وإثارة الفتن والأحقاد، وإشاعة الفاحشة والإرجاف بين المسلمين بما يثير قلقهم وفزعهم، والتعرض لنساء المسلمين، بل لنساء النبي بالأذى والكيد، والتضامن مع أعداء الإسلام وموالاتهم، وتقرير كونهم قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إيمانهم الخ، وفى حين أن القرآن أمر بمجاهدتهم مع الكافرين، والإغلاظ لهم واعتبارهم أعداء، وأمر بقتل من لم ينته منهم عن مواقف الأذى والإرجاف، وبنفيه، وبتقتيله أينما ثقف، فضلا عما أنذروا به من عذاب دنيوى وأخروى شديدين، وفى حين أن القرآن حكى مواقف لهم مثل هذه المواقف، وبعد هذه الأوامر والإنذارات والتقريرات

الحاسمة ؛ كما أن القرآن لم يتضمن إشارة ما إلى ذلك .

فإزاء هذا لا نعدو الصواب إذا قلنا (١) إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعتبر المنافقين أعداء محاربين ، فلم يقاتلهم فعلا كما كان شأنه مع الكفار ، لا سيما أن حرب النبي لهؤلاء إنما كان لبدئهم بالعدوان واستمرارهم فيه ، وحربه لليهود إنما كان لمثل ذلك ، وغزوته لتبوك بسبيل التنكيل بسكان المشارف الذين كان غالبهم نصارى ، وتسييره السرايا على هذه المشارف واشتباكها بحرب مع النصارى فيها إنما كان كذلك لعدوان سابق ؛ ولم يكن حال المنافقين على كل حال يشبه حال كفار العرب أو اليهود أو النصارى المحاربين . (٢) إن النبي صلى الله عليه وسلم قد اعتبر ما جاء فى الآيات القرآنية بمثابة توجيهات متروك إليه أمر تقدير ظروف تنفيذها والسير فيها بما يوافق مصلحة الإسلام والمسلمين ؛ لا سيما أن بعض الآيات الواردة فى هذا الصدد قد تخللتها جمل تلهم معنى التعليق على شرط مثل جمل « فإن يتوبوا يك خيراً لهم » و « لئن لم ينته المنافقون » و « فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم » و « إن نعف عن طائفة منهم نعذب طائفة » الخ كما تخلل الآيات الواردة فى شأنهم إشارات إلى أنهم كانوا يصلون مع الجماعة وكان يؤدون الزكاة ، - مع وصف ذلك بأنه وقع كرها ورياء - وكانوا يحلفون الأيمان على حسن نيتهم وصدق إسلامهم ؛ قد رأى أن يعاملهم بسعة صدر وحلم وصبر إلى النهاية ، لما كان بينهم وبين كثير من المخلصين من روابط القربى والرحم ، وقد رأى أن خلاف هذه الخطة قد يفتح فى صفوف الإسلام ثغرات واسعة ، ويثير أزمات داخلية حادة [١] ؛ لا سيما أنه كان مطمئن القلب بوعد الله بالنصر النهائى ، وإظهار دينه على الدين كله ؛ وقد أخذ يرى منذ أوائل النصف الثانى من العهد المدنى وبعد ما خضدت شوكة اليهود - وهو الوقت الذى صار فى إمكانه من جهة مادية شن حرب عملية عليهم مأمونة عواقبها بعض

---

(١) فى روايات السيرة أن عبد الله بن أبى هو الذى قال « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » و « لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا » ، وأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه استأذن النبى صلى الله عليه وسلم بقتله فأبى قائلا ما مفاده : لا أريد أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ، وأن كعب بن عبد الله رضى الله عنه ، وكان مخلصا ، جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له يارسول الله إن كنت قاتل أبى فأمرنى أنا أقتله ولا تأمر غيرى لأنى لا أطيق أن أرى قاتلا لأبى ، فأقتله فأكفر ! فأجابه النبى صلى الله عليه وسلم قائلا بل نعفو ونصبر عنه . وفى هذا مصداق ما قررناه آنفاً .

الأمان - أن صوتهم بدأ يخفت ، ونشاطهم يخمد ، وعددهم يقل ، وتزلفهم يشتد ، ومداراتهم تزداد ، وخوفهم يبدو واضحاً ؛ وربما ندم منهم كثيرون فعادوا إلى حظيرة الحق والإسلام الصحيح ، فكانت هذه الظواهر مما ثبته فى خطته ورأى فيها الصواب والمصلحة .

أما الثالثة فهى أن الآيات الواردة فى حق المنافقين ومرضى القلوب ، تلهم روحاً أو مضمونا ، أو روحا ومضمونا فى آن واحد ، أن حركة النفاق إنما قام بها وتولى كبرها أفراد من البارزين فى قومهم وعشائرهم قليلا أو كثيرا ، بل إننا لنكاد نقول استلهاما من روح الآيات ومضمونها إن معظم أفراد هذه الفئة من تلك الطبقة ، وإنه إذا كان اندمج فيها أناس من طبقة السواد أو العامة فإنهم لم يكونوا كثيرين وإنما انساقوا فيها بتأثير أولئك ، من ناحية زعامتهم وعصبية الأرحام التى تربط بينهم ، أو من ناحية الإغراء والمنفعة .

وهذا طبيعى كما هو المتبادر ؛ لأنه ليس لأفراد من السواد مصلحة فى مناوأة حركة اندمج فيها غالب قومهم ، إيمانا وتصديقا وإخلاصا وجهادا ثم مصلحة وكيانا ، كما أنه قلما يكون فى هؤلاء من يظن أنه أعقل من أن يندمج فى حركة اندمجت فيها الكثرة الكبرى ؛ وإن الذين اندفعوا فى مناوأتها واغتاظوا منها وحقدوا عليها لا يمكن أن يكونوا إلا أفرادا من البارزين الذين يمكن أن يتوهموا فيها ضررا وخطرا على مركزهم ومصلحتهم ، وأن يأنفوا لكرامتهم ولما يتوهمونه فى أنفسهم من عقل من الاندماج فيها ؛ ولقد كان لليهود يد قوية فى هذه الحركة كما ذكرنا ؛ فالذين أخذوا على عاتقهم مهمة تغذية هذه الحركة وتنميتها لا يمكن أن يتصلوا بشأنها إلا مع أمثال هؤلاء كما لا يخفى .

- ٦ -

كذلك نريد أن نشير إلى ما كان من انقسام المسلمين فى الرأى فيهم ؛ فقد جاء فى سورة النساء الآيات التالية :

« فَمَا لَكُمْ فِى الْمُنَـٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ

أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا . وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ... ٨٨ - ٨٩

إذ تلهم الآية الأولى أن المسلمين كانوا منقسمين فى الرأى فى المنافقين ، منهم من يحسن الظن بهم ويعتذر عنهم ويأمل فى ارعوائهم ، ومنهم من لا يرى ذلك . ولقد ذكرت الروايات أنها بحق منافقى المدينة الذين خذلوا المسلمين فى وقعة أحد ؛ كما ذكرت أنها بحق فريق من البدو أعلنوا إسلامهم ولكنهم لم يتضامنوا مع المسلمين فى الجهاد والهجرة ؛ وبعض الروايات قال إنها بحق الفريق الذى تخلف فى مكة ولم يهاجر ؛ والرواية الأولى قد تصح إذا دلت كلمة « يهاجروا » بمعنى يجاهدوا أو يخلصوا ، وقد أولها غير واحد من المفسرين هذا التأويل .

ومع احتمال وجاهة الروايتين الأخريين فإننا نرى الرواية الأولى - بقطع النظر عن ظرف وقعة أحد - بهذا التأويل أوجه ، لأن اختلاف المسلمين فى الرأى فى المنافقين أكثر احتمالا بالنسبة لمنافقى المدينة ؛ وقد يكون فى الآية الثانية تدعيم لهذا أيضاً ، إذ تذكر كفرهم ، وتذكر تمنيهم أن يكفر المسلمون مثلهم ؛ وهذه صفات وصف بها منافقو المدينة على ما ورد فى آيات التوبة وغيرها مما سنورده فى هذا الفصل ؛ لاسيما أن الروايتين الأخريين لا تذكران بصراحة اتصاف البدو أو المتخلفين عن الهجرة فى مكة بصفة النفاق والكفر ، ولا تحتمل حالتهم المروية هذه الصفة .

والأمر بقتلهم حيث وجدوا إذا تولوا ولم يخلصوا ليس من شأنه أن يضعف توجيهنا بأن المقصودين هم منافقو المدينة ، فقد ورد فى آيتى الأحزاب ٦٠ - ٦١ اللتين سنوردهما فى أحد مباحث هذا الفصل صراحة أن المقصودين هم منافقو المدينة إذا لم ينتهوا .

وقد احتوت الآية الثانية حكم الله فى هذا الخلاف ، وفيه تأييد للمتشددين فى أمرهم وبيان لمواقع حالهم من الارتكاس فى الفتنة والكفر والضلال .

والذى نرجحه أنه كان للعصبية الاجتماعية والمصالح المشتركة الوثيقة أثر فيما كان

من رأى التسامح الذى أبداه الفريق الأول ، كما نرجح أن المنافقين كانوا يستغلون هذه الروابط القوية المؤثرة فيما كان منهم من مواقف دس وكيد وتشكيك وسخرية وعدم تضامن الخ مما احتوت صوره آيات كثيرة سنوردها فى مباحث الفصل، ثم فى الاطمئنان من عدم الوقوف منهم موقف الشدة والغلظة رغم ما كان منهم من مواقف شديدة الأذى والكيد ، فاقتضت الحكمة نزول الآيات بالحكم الحاسم والأمر الشديد حتى يسد الباب أمام هذا الاستغلال ويقف المسلمون موقفاً واحداً ورأيا واحداً منهم ، وهو موقف الشدة والتكفير إذا لم يتوبوا ويخلصوا .

ولقد احتوت إحدى آيات سورة النساء وهى هذه :

« وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى الْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَٰفِقِينَ وَالْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ... ١٤٠

شيئاً من التدعيم لما قررناه من هذا الأثر ، إذ تلهم أن بعض المسلمين لم يستطيعوا أن يمنعوا أنفسهم من التردد على مجالس الزعماء المنافقين ، والإغضاء عما يدور فيها من كفر وهزء بآيات الله ونبيه ، فأمروا بعدم مجالستهم أثناء الخوض فى مثل ذلك على الأقل ؛ كأنما رأت الحكمة حرجاً فى منعهم بالمرة .

ومن هنا تبدو لنا ناحية من حكمة الخطة النبوية فى المنافقين التى شرحناها فى الفقرة السابقة . ولما كانت الخطة المذكورة قد استمرت إلى آخر العهد النبوى أو أواخره ، فإن هذا يسوغ القول إن فريقاً من المسلمين ظل على رأيه فى العطف على ذوى قرباه منهم ، والاعتذار عنهم وأمله فى ارعوائهم ، وظل متأثراً بالعصبية والقرابة والمصلحة ، وإن النبي صلى الله عليه وسلم رأى من الحكمة أن يستمر فى خطته تلك .

ولقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم فى آية التوبة هذه :

« وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا وَهُمْ فَٰسِقُونَ ... ٨٤

التى نزلت فى أواخر العهد المدنى، أى فى ظروف غزوة تبوك ، بعدم الصلاة على من يموت منهم وهو ثابت على نفاقه وكفره ، مما يلهم أن النبى كان يستجيب إلى طلب ذوى قربى المنافق فيصلى عليهم إذا ماتوا ويدعو لهم ، وأن هذا قد استمر إلى أواخر العهد المدنى؛ (وفى هذا تدعيم لما نحن بسبيل تقريره).

المبحث الأول

فى صفات المنافقين وأحوالهم

وصف شامل للمنافقين فى سورة البقرة ومداه - وصف آخر لهم فى نفس السورة - صور وأوصاف وحالات متنوعة لهم من سورة النساء - من سورة التوبة - ما تلهم آيات التوبة من تبدل حالهم إلى القلة والضعف - النفاق فى الأعراب - منافقون متكتمون - صور وحالات من سورة الحديد - من سورة محمد - من سورة « المنافقون » .

— ١ —

(١) فى سورة البقرة الآيات التالية :

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ . اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ... ٨ - ١٦

وقد احتوت الآيات وصفا قويا شاملا للمنافقين ، فهم يدعون الإسلام كذبا ، ويدسون ويفسدون ثم يزعمون أن فيما يبدو منهم إصلاحا ومصلحة ، ويأنفون أن

يكونوا كالمخلصين فناء فى الإسلام وواجباته وطاعة النبى صلى الله عليه وسلم ، ويعتبرون ذلك سفها ، وقد عقدوا الصلات الوثيقة باليهود فكلما خلوا إليهم أكدوا لهم أنهم معهم ، وأنهم إذا تظاهروا بالإسلام فليس إلا خداعا واستهزاء ؛ وكل هذا منبعث عن مرض قلبى ونية خبيثة فيهم .

والآيات لا تحتوى كلمة « المنافقين » ولكنها لا تدع أى شك فى أنها تعنيهم . والآية (١٣) التى تحكى وصفهم المؤمنين المخلصين بالسفهاء ، تلهم أن القائلين من الزعماء البارزين الذين تدفعهم عنجهيتهم إلى الترفع ، والذين كانوا يرون فى التفانى فى النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته غلوا لا محل له ؛ والراجح مع هذا أن ما حكى عنهم إنما كان يصدر منهم حينما يكون مخاطبهم أو معاتبهم من طبقتهم ، أو من ذوى رحمهم ، بحيث يأمنون النميمة والعصبية ؛ ومثل هذا ما حكته عنهم الآية (١٢) أيضا إذ نرجح أن الذين كانوا يعاتبونهم على دسهم وإفسادهم هم من طبقتهم أو ذوى رحمهم ؛ ولعل فى جملة « وإذا قيل لهم » فى كلتا الآيتين قرينة ما على ذلك . ويبدو أن تفانى المخلصين فى النبي والإسلام مما كان يزيد فى لهيب حقد هذه الفئة ، لأن ذلك كان مما يحبط مكايدهم ، ويبعد عنهم ذوى أرحامهم ؛ ولعل فيما حكى عنهم فى الآيتين من الاعتذار الواهى المكابر قرينة ما على ذلك أيضا .

ومهما كان احتمال أن لا تكون هذه الآيات من أول ما نزل من القرآن المدنى . فإننا لا نشك فى أنها مما نزل فى عهد مبكر ، ويستلهم هذا من أنها إنما تحتوى وصفا عاما . وتبكير نزولها يلهم أن هذه الحركة قد ظهرت مبكرة جدا ،[١] وأن التواثق بين القائمين بها واليهود قد توطد كذلك فى عهد مبكر جدا .

٢ - وفى سورة البقرة الآيات التالية أيضاً :

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فى الْحَيٰوةِ الدُّنيا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَىٰ مافى قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ . وإذا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فى الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها

(١) ورد فى روايات السيرة أن فيظ بعض زعماء المدينة الذين صاروا زعماء المنافقين قد بدأ قبل الهجرة النبوية ، وفى عهد القارىء أو الامام الذى أرسله النبى صلى الله عليه وسلم مع وفود المدينة ليعلمهم القرآن ويؤمهم فى الصلاة .

وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لاَيُحِبُّ الْفَسَادَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ... ٢٠٤ - ٢٠٦

وفى هذه الآيات صورة أخرى للمنافقين ، وإن لم يرد فيها كذلك كلمة « المنافقين » وهى صورة قوية الملامح للناس الذين يستثيرون الإعجاب بأقوالهم المنمقة ، وأيمانهم المغلظة ، ولكنهم لايتورعون عن أفظع الآثام ؛ ثم يغضبون إذا ماعوتبوا وطولبوا بتقوى الله وخوفه مما يقترفونه ، ويعتبرون ذلك إهانة لكرامتهم ، ووسيلة للإيغال فى الشر والفساد والفتنة . والصورة وإن كانت مطلقة تعبر عن فئة من الناس قد توجد فى كل زمن ومكان لأنها متصلة بطبائع البشر المختلفة ، فلا شك فى أن الآيات قد نزلت فى صدد أناس من المتظاهرين بالإسلام كانوا يبطنون الكفر ، ويوغلون فى الإثم والعداء والفتنة ؛ ولقد ذكرت الروايات أنها نزلت فى زعيم بدوى اسمه شريق ابن الأخنس ، غدر وأثم بعد توكيده الأيمان ، وعهده على عدم الخيانة والغدر .

- ٢ -

٣ - فى سورة النساء الآيات التالية :

١ - إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً . بَشِّرِ الْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ... ١٣٧ - ١٣٨

٢ - إِنَّ الْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَوٰةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً . مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لاَإِلَىٰ هَـٰؤُلاَءِ وَلاَ إِلَىٰ هَـٰؤُلاَءِ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ... ١٤٢ - ١٤٣

وقد ذكر المنافقون فى الآيات بصراحة ، وفى الآيات الأولى صورة نفاق وتذبذب عجيبة لهم ، إذ كانوا يعلنون إيمانهم ثم يكفرون ثم يعلنون إيمانهم ثانية ثم

يكفرون ، على حسب ماتوحيه إليهم ظروف الأمن والخوف والمصلحة ؛ وفى الآيات الأخرى صورة ثانية ، فقد كانوا يظنون أنهم ناجحون فى دور خداعهم مع أنهم مفضوحون فيه ، وقد كانوا إذا حضرت الصلاة قاموا إليها كسالى مراءاة للناس فحسب، وقلما ذكروا الله ذكر المؤمل فى رحمته الخائف من نقمته ؛ وهكذا كانوا مذبذبين فى حالتهم ، تبعاً للظروف ، غير صادرين على أى حال عن نية حسنة ، ورغبة صالحة ؛ وروح الآيات تلهم أن موضوع الكلام أفراد معدودون وغير مجهولين كما هو واضح فيها ؛ ولقد تكرر التنديد بهم لقيامهم إلى الصلاة كسالى فى الآية ٥٤ مما يلهم :

(١) أنهم كانوا يمارسون الصلاة مع الجماعة و (٢) أن حالتهم هذه كانت من الأمارات العامة على نفاقهم وعدم إخلاصهم فى إسلامهم .

٤ - وفى السورة نفسها هذه الآيات أيضاً :

« إِنَّ الْمُنَـٰفِقِينَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَـٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ... ١٤٥ - ١٤٦

فالمنزلة التى يتوعد الله بها المنافقين فى النار تلهم كما هو المتبادر شدة نكايتهم ، وسوء أثر مواقفهم ، حتى لكأنهم من شر الكفار الصريحين . أما الآية الثانية فإنها بسبيل بث الأمل فيهم بعد بيان تلك المنزلة الرهيبة ؛ ودعوة لهم إلى الكف والارعواء حتى لا يتحقق وعيد الله فيهم . ومع أن فتح باب الإنابة والتوبة للجاحدين والآثمين هو مما تكرر فى القرآن تقريره من المبادئ العامة ، فإن الآية مما يمكن أن تلهم أن المنافقين أو أن فريقاً منهم ، وخاصة المخدوعين بزعمائهم ، لم ينقطع الرجاء من ارعوائهم وإخلاصهم ؛ ولقد احتوت سورة التوبة آيات فيها ما يدل على تناقص عددهم وضعف شأنهم سوف نوردها بعد ؛ فلعل فى هذا التطور ما يدعم ما يمكن أن تلهمه الآية . وننبه إلى أن فى الآية وما تلهمه تأييداً لما استنتجناه من حكمة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فيهم على ما قررناه فى الفقرة الأخيرة من التمهيد .

— ٣ —

٥ - فى سورة التوبة الآيات التالية :

١ - ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون. لو يجدون ملجأ أو مغرات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون ...

٥٦ - ٥٧

٢ - يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين. ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزى العظيم ... ٦٢ - ٦٣

٣ - المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون. وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هى حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم ... ٦٧ - ٦٨

٤ - يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير. يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يك خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير. ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين. فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون. فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه

وسورة التوبة من أواخر ما نزل من القرآن ، وهذه المقاطع قد نزلت - على ما يستلهم من سياقها ومضامين المقاطع الأخرى المتصلة بها - فى ظروف الاستنفار إلى غزوة تبوك ، وبسبب ما كان من مواقف المنافقين يومئذ ؛ مع التنبيه إلى أنها قد جاءت بقصد التنديد والتذكير بمواقفهم وأخلاقهم وحالتهم بصورة عامة .

والمقطع الأول احتوى صورة لما وصل إليه شأنهم من خوف وضعف وقلة وتزلف ؛ وهذه الصورة تمثلهم فى أواخر العهد المدنى ، لأنهم كانوا يستشعرون القوة والعزة شيئاً ما قبل ذلك ، كما تلهمه آيات أخرى سوف نوردها بعد .

والمقطع الثانى احتوى صورة من صور تزلفهم للمخلصين وحلفهم الأيمان على إخلاصهم بقصد إرضائهم ؛ وينطوى فى هذا صورة الضعف والخوف والتزلف أيضا كما هو واضح ؛ وبهذا يمكن أن ينسحب عليها ما قلناه آنفا من تمثيلها لهم فى أواخر العهد المدنى .

والمقطع الثالث يحتوى وصفا لسوء أخلاقهم وتضامنهم فى النهى عن المعروف والخير ، والأمر بالمنكر والشر ؛ ويسوى فى ذلك بين الرجال والنساء منهم ، والراجح أن هذا التضامن إنما كان منهم فى صدد الدعوة الإسلامية ، وتعليمات النبي صلى الله عليه وسلم وتبليغاته ؛ إذ كانوا يأمرون بمخالفة أوامر النبي ومبادئ الإسلام ، وينهون عن الانقياد للنبي والتزام تلك المبادئ التى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر

أما المقطع الرابع فقد احتوى أمراً بمجاهدتهم هم والكفار سواء وبالإغلاظ عليهم ، وتتبع الأمر ببيان عن بعض حالاتهم وأخلاقهم ، فهم ينكرون أنهم كفروا بعد إيمانهم ويحلفون على ذلك مع أنهم كاذبون ، لأن الكفر صدر منهم قولا وعملا ، وحاولوا تقويض الإسلام جهدهم فخابوا وفشلوا ؛ ولم يكن لموقفهم هذا من سبب إلا الحقد والغيظ من النبي واشتداد أمره ، مع أنه قد عاد عليهم من ذلك بسطة العيش والغنى ؛ ولقد كان منهم من ينذر بأن يتصدق فى سبيل الله ويخلص له إذا أنعم عليه ، فلما آتاه الله من فضله بخل وتولى ، فنم عن خبث نيته وسوء طويته ، ودمغ إلى الأبد دمغة النفاق .

وفى المقطع ما يدل على ما عاد على أهل المدينة ، من الهجرة النبوية والحركة الإسلامية، من الخيرات والبركات ، وفى هذا مشهد من مشاهد هذا العهد كما هو واضح .

ويلفت النظر خاصة إلى الآية (٧٣) التى تأمر النبي صلى الله عليه وسلم بمجاهدة المنافقين والكفار ، وما يتضمنه هذا من اعتبار الفريقين فى موقف واحد من العداء للإسلام والكيد له ؛ ومما لا ريب فيه أن هذا قد كان بسبب ما بدا منهم من بغى ودس وكيد ، وينطوى فيه الإشارة إلى خطورة مواقفهم وشدة نكاية حركتهم ، كذلك يلفت النظر إلى الفقرة الأخيرة من الآية (٧٤) ففيها إنذار لهم بالتوبة ، وتنبيه إلى أن فى ذلك خيرهم ، وبالتالى إبقاء باب التوبة مفتوحا أمامهم ، مما هو متسق مع التقريرات القرآنية ، وما علمنا به صبر النبي صلى الله عليه وسلم عليهم وعدم معاملتهم معاملة الأعداء المحاربين ؛ ومما ينطوى فيه أمل ارعوائهم . على أن فيها صورة أخرى لما وصلوا إليه من ضعف وازورار عن المسلمين وفيهم ذوو رحمهم ، وذلك فى جملة « وما لهم فى الأرض من ولىّ ولا نصير » ، كما يتبادر لنا .

والمقاطع الأول والثانى والرابع تلهم أن موضوع الكلام أفراد بارزون كما هو واضح ، وفى ذلك مصداق لما ذكرناه فى التمهيد .

(٦) وفى سورة التوبة كذلك الآيات التالية :

« ولا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ولا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وماتوا وهُمْ فَـٰسِقُونَ . ولا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وأَوْلَـٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فى الدُّنْيا وتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وهُمْ كَـٰفِرُونَ ... ٨٤ - ٨٥

وهى من سلسلة تضمنت حملة على المنافقين لتخلفهم عن غزوة تبوك بأنفسهم وتثبيطهم غيرهم مما سوف نورده فى مبحث آخر ؛ والمتصل بهذا المبحث منها هو ما تدل عليه (١) من افتضاح أمرهم أو أمر بعضهم بأعيانهم ، وتقرير كفرهم ونفاقهم بأسلوب حاسم ؛ بحيث نهت النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة على من يموت منهم والدعاء له والقيام على قبره . (٢) من غناهم أو غنى بعضهم وكثرة أولادهم ، واعتدادهم

بذلك ؛ وقد تلهم الآية الثانية إلى هذا ما كان لهم من تأثير بسبب ذلك ، وما كان يعتلج فى نفس النبي والمسلمين من رغبة فى ارعوائهم ، وغيظ مما حازوه من ذلك لما كان لهم بسببه من قوة التأثير فى غيرهم ؛ وواضح من هذا أن موضوع الكلام أفراد بارزون أيضا . ولقد ورد فى السورة نفسها آية مقاربة النص لهذه الآية وهى الآية ٥٥ ؛ وتكرار ذلك فى سلسلة واحدة تقريباً ، قد يدل على صحة ما استلهمناه ، واستهداف القرآن إضعاف ما قام فى نفوس المسلمين من رغبة أو ثار من عاطفة .

— ٤ —

(٧) وفى سورة التوبة كذلك الآيات التالية :

« الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ...

٩٧ - ٩٨

وقد جاءت هذه الآيات فى سياق التنديد بالمتخلفين من الأعراب عن غزوة تبوك ، وهى صريحة الدلالة على أن النفاق لم ينحصر فى منافقى المدينة ، بل كان فى الأعراب منافقون أيضا يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ، ويتملقون المسلمين حينا مع تربصهم الدوائر بهم ، ولا يرون فيما يدفعون من زكاة ونفقات جهاد إلا مغرما ، لأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ولا يرجون وجه الله وثوابه فيما يفعلون .

ولعل من الجائز أن يقال إن منافقى الأعراب لم يكن منهم ذلك الدور الخطير المؤذى الذى كان من منافقى المدينة ، وإن مواقفهم النفاقية إنما كانت تظهر فى المناسبات وعند الاختبار ، وخاصة فى ظروف الاستنفار إلى الجهاد ، واستيفاء زكاة الأموال ، كما كان أحيانا يظهر من أعراب لم ينعتوا بنعت النفاق كما جرى فى الاستنفار إلى زيارة الكعبة التى انتهت بصلح الحديبية على ما جاء فى آيات سورة الفتح ١١ - ١٢ التى نقلناها فى مناسبة سابقة . ولعل عدم الإشارة إليهم إلا فى هذه السورة وبمناسبة غزوة تبوك قرينة ما على ذلك ؛ وقد يكون هذا طبيعيا ، لأن منافقى المدينة فى حالة

مواجهة واتصال واحتكاك دائمة مع النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين وذوى قرباهم واليهود ؛ هذا إلى مافى الآية الأولى من تعليل متصل بطبيعة البدو والبادية وما يلهم هذا التعليل من الفرق بين منافق الأعراب ومنافق المدينة .

(٨) وفى السورة نفسها الآية التالية :

« وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ... ١٠١

وهى تقرر أنه كان هناك طبقة من المنافقين من أهل المدينة ومن الأعراب استطاعت أن تتقن كتم نفاقها عن المسلمين أو جلهم ؛ ويبدو أنه كان لهؤلاء أذى بليغ ، لأن الآية توعدتهم بالعذاب مرتين فى الدنيا فوق ماينتظرهم من عذاب الآخرة ، وفى هذا صورة جديدة من صور حركة النفاق فى العهد المدنى كما هو واضح .

٩ — وفى سورة محمد الآيات التالية :

« أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ . وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ... ٢٩ — ٣٠

تابع ١٩٤

— ٥ —

١٠ — وفى سورة الحديد الآيات التالية :

« يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَٰفِقُونَ وَالْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ . يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ... ١٣ — ١٤

وهى وإن كانت وصف حال مشهد أخروى ، فإن الآية الثانية قد احتوت بيان ما كان من واقع حالهم الدنيوى من انحراف وريبة وغرور وتربص ، إلى سائر صفات النفاق التى كانوا متصفين بها . وقد ذكر المنافقات إلى جانب المنافقين كما ورد أكثر من مرة واستدللنا به على أنه كان للمرأة دور فى حركة النفاق كما كان لها دور فى الحركة الإسلامية والحركة الجحودية معاً .

وفى الآيات إنذار لمرضى القلوب بالفضيحة ، وبأن الله لا يخفى عليه أمرهم ولو شاء لدل النبى عليهم فرداً فرداً ؛ ومع ذلك فقد أكدت أن النبى صلى الله عليه وسلم يستطيع أن يعرفهم من أسلوب أقوالهم . ويبدو أن الآيات قد عنت الفريق الذى أتقن كتم نفاقه عن سواد المسلمين والذى أشارت إليه آيات التوبة الآنفة ، غير أن أحواله وأقواله ومواقفه كانت تفضحه أحياناً ، أو على الأقل كانت تكشف للنبى صلى الله عليه وسلم عما فى قلبه من مرض ؛ وهذا الإنذار بهذا الأسلوب قد يلهم أن من هذا الفريق من كان يرجى ارعواؤه وعودته إلى حظيرة الإخلاص خشية الفضيحة التامة على الأقل ؛ وروح الآيات تلهم أن موضوع الكلام أفراد بارزون أيضاً .

١١ - وفى سورة المنافقون الآيات التالية :

« إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ . اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ . وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ . سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ

لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَٰسِقِينَ . هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَٰفِقِينَ لا يَفْقَهُونَ . يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَٰفِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ... ١ - ٨

وفى الآيات صورة قوية وصريحة للمنافقين ؛ فهم يظهرون الإسلام ويحلفون كذباً أنهم مصدقون برسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، وفى حين أنهم لا يتورعون عن الكفر ، ويعطلون الناس عن تأييد النبي ، ويصدون عن سبيل الله ، ويأنفون أن يطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يستغفر الله لهم على ما اقترفوه من آثام ؛ وإن مظاهرهم لتعجب الرائى ، وأقوالهم لتحمل المخاطب على الاستماع ، لما فيها من تمبيق وتزويق ، فى حين أنها عاطلة من الإخلاص ، وصادرة عن نية خبيثة ، وطوية مريبة ؛ وهم إلى هذا كله دائمو الخوف والقلق النفسى ، كلما هتف امرؤ ظنوا أنه يهتف ضدهم ، وكلما أشار امرؤ إلى أحد توهموا أنه يشير إليهم ويحاول أن يفضحهم ؛ فهم العدو الذى يجب الحذر منه وعدم الركون إليه فى حال . والآيتان الأخيرتان فى صدد مواقف كيدية للنبي والمسلمين دعا إليها بعض زعماء المنافقين فى بعض المناسبات ، وسنشرحها فى مبحث آخر ؛ غير أنهما تحتويان بالنسبة لحالتهم مايلهم أنهم كانوا على شيء من القوة ونفوذ الكلمة حينما نزلت الآيات ، أو أنهم كانوا يشعرون بذلك فى أنفسهم ؛ إذ جهروا بالدعوة إلى مقاطعة المهاجرين وعدم مساعدتهم ، وإلى نذر إخراجهم مع النبي من المدينة .

وروح الآيات تلهم أن الصورة هى بنوع خاص لزعماء المنافقين وبارزيهم ؛ وهذا ينسحب فيما نعتقد على ما جاء فى الآيات الأخرى من صورة ووصف حال .

المبحث الثانى

فى مواقفهم الكيدية والساخرة والتآمرية

صور لمواقفهم الكيدية من سور النساء والتوبة والأحزاب والمجادلة والمنافقون - إشارة تذكيرية إلى صور كيدية سابقة - صور لمواقفهم الساخرة من سور النساء والتوبة ومحمد . صور لمواقفهم التآمرية من سور النساء والتوبة ومحمد والمجادلة تذكير بصور تآمرية سابقة إتماماً للسلسلة .

— ١ —

إن هذا المبحث يتناول كما هو واضح من عنوانه ثلاثة أنواع من المواقف ؛ ولهذا رأينا أن نقتبس صور كل منها لحدتها .

أولا مواقفهم الكيدية .

١ - فى سورة النساء الآيات التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وما أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّٰغُوتِ وقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَٰنُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا . وإذا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى ما أَنزَلَ اللهُ وإلى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ...

٦٠ - ٦١

وقد احتوت صورة لما كان من تعطيل المنافقين وصدهم عن التقاضى لدى رسول الله ، وتفضيلهم التقاضى لدى زعيم من زعماء اليهود عرف بشدة حقده وعدائه للنبي والإسلام ؛ والصورة من صور الكيد الواضحة كما هو المتبادر .

٢ - وفى سورة التوبة الآية التالية :

« ومِنْهُم مَّنْ يَلْمِزُكَ فى الصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وإن لم يُعطَوْا مِنْهَا إذا هُمْ يَسْخَطُونَ ...

وقد احتوت صورة كيدية للنبي صلى الله عليه وسلم باتهامهم إياه بالمحاباة فى توزيع أموال الزكاة ، وتقريراً لواقع حالهم فى هذا الاتهام ، فهم يتوسلون بالافتراء والكيد للحصول على نصيب منها قد لايرى النبي لهم حقا فيه .

٣ - وفى سورة الأحزاب الآيات التالية :

« إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فى الدُّنيا والآخِرَةِ وأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا . والَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ والْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ ما اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَـٰنًا وإِثْمًا مُّبِينًا . يَـٰأَيُّها النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا . لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَـٰفِقُونَ والَّذِينَ فى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ والْمُرْجِفُونَ فى الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا . مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ...

٥٧ - ٦١

وقد تضمنت إشارات إلى مواقف كيدية للمنافقين فيها أذى وسوء أدب إزاء النبي والمؤمنين والمؤمنات ، وإلى ما كانوا يسعون فيه من نشر إشاعات السوء عنهم والإرجاف فى حقهم بما هم براء منه ؛ والآية ٥٩ قد تلهم أنه كان من جملة مواقف هذه الفئة مايتنافى مع الرجولة والمروءة من التعرض للحرائر من نساء المسلمين أثناء خروجهن إلى حاجاتهن ، وأذيتهن بفاحش القول وبذيئه . والإنذار الذى احتوته الآيتان الأخريان قاصم وحاسم ومتناسب مع ما أشارت إليه الآيات من مواقف الأذى والكيد والإرجاف . وعدم ورود مايدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد طردهم أو طرد بعضهم عن المدينة ، أو أمر بقتلهم أو قتل بعضهم بعد هذا التوجيه القرآنى الحاسم ، قد يلهم أن الذين كانوا يقفون هذه المواقف الكيدية والمؤذية قد ارتدعوا عنها .

ولقد نقلنا فى بحث حياة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية آيات عدة من سورة النور احتوت إشارات إلى ماكان من بعض زعماء المنافقين من موقف شديد الأذى

للنبي صلى الله عليه وسلم وآله فى ظروف ما عرف فى تاريخ السيرة بحديث الإفك؛ وهذا الموقف من حيث الشكل والأسلوب يتصل بما أشارت إليه آيات الأحزاب من مواقف، كما أن آيات النور قد احتوت إنذاراً شديداً لهم وقررت أنهم يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا، وحذرت من خطتهم القائمة على اتباع الشيطان الذى يأمرهم بالفحشاء والمنكر؛ وهذا مقارب لما احتوته آيات الأحزاب من إنذار، ومن بابه أيضاً.

— ٢ —

(٤) وفى سورة المجادلة الآية التالية:

• أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ وَيَقُولُونَ فِى أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ... ٨

وقد احتوت صورة لموقف شديد الأذى والكيد مما كان يقفه المنافقون؛ فقد كانوا يعقدون المجالس والحلقات الخفية ليضعوا خطط الكيد والعصيان والتمرد على النبي؛ فعاتبهم النبي صلى الله عليه وسلم ونهاهم عن ذلك فلم يأبهوا للعتاب وظلوا فى خطتهم الآثمة؛ ومما روى أن هذه الحلقات كانت تعقد أكثر ما تعقد فى ظروف الأزمات الحادة التى كان يضطرب لها النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون، وهذه الرواية متسقة مع منطق الأمور، حيث تكون الفرصة سانحة لهم لوضع خطط الدس والتثبيط والكيد، استغلالا للظروف الحرجة؛ وفى هذا ما هو ظاهر من شدة الكيد والأذى؛ وقد يدعم هذه الرواية آية جاءت بعد قليل وهى:

• إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَـٰنِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ... ١٠

إذ احتوت طمأنة المسلمين بأن هذه الحلقات السرية هى من وساوس الشياطين

بقصد إدخال الحزن على نفوسهم مع أنها ليست بضارتهم شيئاً لأن الضرر والنفع إنما هو من الله ، وعليهم أن يتوكلوا عليه .

وفى الآيات إلى صور مواقف الأذى والكيد صور تصف سخرية المنافقين من النبي صلى الله عليه وسلم ؛ إذ تضمنت الإشارة إلى أنهم كانوا حينما يأتون إليه لا يسلمون عليه بالسلام المعتاد ؛ وإنما بسلام فيه غمز أو سخرية ثم يتساءلون ساخرين جاحدين متى يقع عليهم عذاب الله الذى أنذرهم به النبي صلى الله عليه وسلم جزاء ما يصدر منهم من أقوال وأفعال ! ؟

ولما كان من المرجح أن هذا التساؤل إنما كان يقع فيما بينهم ، كما أنهم كانوا يعقدون تلك الحلقات متكتمين ، فإن من المحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد جعل عليهم عيوناً يأتونه بأخبارهم وما يبيتونه من خطط الكيد والأذى ، كما تلهمه روح الآيات ، لاسيما أنه ليس فيها ما يفيد أن الله هو الذى أطلع النبي بالوحى على ما يعقدونه من حلقات وما يصدر منهم من أقوال جحودية ساخرة ، وهذا مما قد ينسحب على كثير من خطط المنافقين الكيدية على ما هو المتبادر ، وفيه إن صح مشهد من مشاهد السيرة النبوية .

(٥) وفى سورة المنافقين آية نقلناها فى المبحث السابق وهى الآية ٧ ؛ وقد تضمنت حكاية توصية كيدية من زعماء المنافقين للناس بعدم الإنفاق على المحتاجين ممن هم حول النبي حتى تضيق بهم الحال وينفضوا عنه وتضعف حركته وشأنه ، والراجح أن المقصودين هم المهاجرين من قريش الذين أصبح كثيرون منهم أو بالأحرى أكثرهم فقراء محتاجين بتركهم أموالهم فى مكة على ما أشارت إليه إحدى آيات الحشر هذه :

« لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ...

٨

وفى السورة نفسها آية أخرى نقلناها كذلك فى المبحث السابق وهى الآية ٨ ؛ وقد تضمنت حكاية نذر شديد الخطورة والكيد من زعماء المنافقين بأنهم سيخرجون النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه القرشيين من المدينة ؛ وهذا النذر يدل على ما كان

يستشعره هؤلاء الزعماء من الثورة والعزة والقدرة على النكاية والكيد ، على ماذكرناه في المبحث السابق .

— ٣ —

وثانيا مواقفهم الساخرة .

(١) في سورة النساء الآية التالية :

« وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى الْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَٰفِقِينَ وَالْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ... ١٤٠

وقد جاءت الآية في معرض التنديد بالمنافقين ؛ واحتوت صورة لما كان يعقده المنافقون من مجالس يستهزءون فيها بالنبي والقرآن ، وينكرون أن يكون متصلا بالله . وفي الآية صورة لبعض المسلمين هم المقصودون بالنهي في الآية ، إذ تلهم أن فريقا منهم لم يكن يرى بأساً في التردد على مجلس المنافقين والسمر معهم ، والإغضاء عما يدور فيها من استهزاء وكفر ؛ وكما كان للعصبية والقرابة والمصالح المشتركة أثر فيما كان من مواقف دس المنافقين ، فإن لهما أيضا أثراً في هذا الموقف كما هو المتبادر ، ويبدو أن هذا الأثر كان قويا بحيث أن الآية اكتفت بالنهي عن الاشتراك في مجالس فيها كفر وهزء بآيات الله فقط ، إلى أن ينتقل الكلام إلى مالا حرج فيه .

(٢) وفي سورة التوبة الآية التالية :

« وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ... ٦١

وقد احتوت حكاية قول ساخر لهم إزاء النبي في نقدهم له ، وقولهم عنه إنه سماع لكل ما ينقل له ، كما أن فيها تنبيها إلى أن هذا القول كان مما يؤذى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وقد روي في صدرها أن بعضهم كان يقدح في النبي فإذا حذر بعضهم بعضا من وصول

الخبر إليه قالوا إنه أذن سهل الاقتناع فنحلف له فيصدق ؛ والتنبيه على أن قولهم كان مما يؤذى النبي صلى الله عليه وسلم مما يجعل الرواية سائغة كما هو المتبادر .

(٣) وفى السورة نفسها الآيات التالية :

« يَحْذَرُ الْمُنَـٰفِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ . وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَءَايَـٰتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ...

٦٤ - ٦٥

ولقد روى أن الآيات نزلت فى فريق من المنافقين كنوا للنبى صلى الله عليه وسلم فى طريق عودته من تبوك ليوقعوه عن دابته، فعلم بالمؤامرة وعاتبهم فأنكروا واعتذروا؛ كما روى أن بعضهم كان يقدح أثناء الغزوة فيه ويستهزئ بما يقول ويعد من نصر الله على الروم ، فعلم بأقوالهم فأوقف الركب وعاتبهم فأنكروا واعتذروا ، ومنهم من تاب وحسن إسلامه .

والروايتان لا تتسقان مع روح الآيات ومضمونها وسياقها إذا ما أنعم النظر فيها ، ولعلها متصلة بموقفهم الذى حكته عنهم الآية السابقة مباشرة لها من أنهم كانوا يغتابون النبي صلى الله عليه وسلم ويقولون إنه أذن ، ثم يقولون على سبيل الهزؤ أيضاً إنه سينزل فيهم سورة تفضحهم ؛ بل إن مضمون الآيات وروحها تدعم هذا أكثر كما هو المتبادر منها . وعلى كل حال فإن فيها صورة واقعية لموقف كيد وسخرية وسوء أدب وقفه فريق من المنافقين .

- ٤ -

(٤) وفى السورة نفسها الآية التالية أيضا :

« الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِى الصَّدَقَـٰتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ...

وقد روى أنها نزلت فى مناسبة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى التصدق ، فأقبل أغنياؤهم وفقراؤهم على السواء ، كل يتصدق بحسب قدرته ، فأخذ المنافقون يلمزون الفريقين ، فيقولون عن الأغنياء إنهم إنما يعطون رياء ، وعن الفقراء إن ما أتوا به تافه لاقيمة له ، وإنهم إنما أعطوه ليذكروا بأنفسهم به ، وليكون لهم وسيلة إلى نيلهم نصيبا من مال الصدقة ؛ وقد عينت الرواية عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه من الأغنياء حين تصدق بنصف ماله ، وأباعقيل من الفقراء حين جاء بصاع من تمر ؛ ومع احتمال صحة الرواية واتساقها مع الآية فإنه يتبادر لنا أنها أوسع شمولا ؛ والراجح أن الدعوة النبوية كانت بسبيل تجهيز حملة تبوك ، لأن الآية قد نزلت فى ظروفها ، وموقف السخرية والكيد بارز فى الآية كما هو واضح ؛ ولقد جاء عقبها آية شديدة حاسمة فى دمغ المنافقين بالكفر وعدم إمكان غفران الله لهم كما ترى فيها :

« ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ... ٨٠

ومع أن المروى أن هذه الآية نزلت فى صدد مراجعة أحد أقرباء زعيم من زعماء المنافقين كان فى حالة الاحتضار وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن الله خيرنى واستغفر له تطييبا لقلب المؤمن المخلص الذى طلب منه ذلك ، فإننا نرجح أنها أسلوبية استهدفت كما قلنا دمغ المنافقين بالكفر والفسق ، وعدم احتمال غفران الله لهم ، بسبب ما حكته هذه الآيات وما قبلها من مواقفهم الكيدية والساخرة ؛ ولا نعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم خالف روح الآية واستغفر لأحد ممن كان مصراً على نفاقه وكفره ومواقفه الكيدية والساخرة .

(٥) وفى السورة نفسها الآيات التالية :

« وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَٰفِرُونَ . أَوَ لَا يَرَوْنَ

أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون.
وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم
انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون ... ١٢٤ - ١٢٧

وقد احتوت صوراً عن سخرية المنافقين واستخفافهم بما كان النبى صلى الله عليه وسلم يبلغه من آيات القرآن وسوره حينما تنزل عليه، واستخفافهم كذلك بمجالسه، وانصرافهم عنها خلسة.

(٦) وفى سورة محمد الآية التالية:

« ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ... ١٦

وقد احتوت صورة مقاربة للصورة التى احتوتها آية التوبة (١٢٤)؛ إذ تلهم أنهم كانوا يتلهون عن سماع الآيات القرآنية والمواعظ النبوية، وحينما ينصرفون يتساءلون تساؤل المستخف عما تلاه وقاله.

— ٥ —

وثالثاً مواقفهم التآمرية.

(١) فى سورة النساء الآيات التالية:

١ — بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما. الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا...
١٣٨ - ١٣٩

٢ — الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ... ١٤١

وقد احتوت الآية (١٣٩) تقريراً بأن المنافقين كانوا يتمسكون بولائهم للكفار دون المؤمنين ابتغاء الاعتزاز بذلك ، واحتوت الآية (١٤١) صورة أخرى عن نفاقهم وذبذبتهم ، إذ كانوا يقفون موقف المتربص المنتهز للفرصة متى جاءت وكانت ؛ وقد قال المفسرون إن المقصود من الكافرين هم اليهود ، وقد جاء بعد الآيات بقليل سلسلة فيها حملة شديدة على اليهود مما يمكن أن يوجه ذلك القول ؛ وعلى هذا فالآيات بسبيل الإشارة إلى موقف تآمرى بين المنافقين واليهود ؛ والأرجح إن هذا الموقف كان قبل التنكيل باليهود جميعهم ، وبالتالى فى وقت كان اليهود فيه أقوياء بعض القوة ، وكان المنافقون فيه كذلك أقوياء بعض القوة ؛ والآيات تلهم هذا وتلهم أنها فى صدد اليهود ؛ فاحتمال اعتزاز المنافقين بالولاء للكفار ، واحتمال قولهم لهم إنهم نصروهم بموقفهم السلبي فتم لهم النصر على المسلمين ، لا يمكن أن يكون إلا مع المنافقين واليهود ، وفى وقت كان الفريقان فيه على شىء من القوة .

(٢) وفى سورة التوبة الآيات التالية :

« وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ . أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ... ١٠٧ - ١١٠

والجمهور على أن الذين بنوا هذا المسجد الذى عرف فى تاريخ السيرة بمسجد الضرار ، اتساقا مع الوصف القرآنى ، فريق من المنافقين كانوا يقطنون محلة قباء ، وكان

فى المحلة مخلصون أيضا استأذنوا النبى صلى الله عليه وسلم فى بناء مسجد حيث كانت صلاته حينما جاء مهاجراً من مكة ، وحيث أقام بعض الوقت ، ليصلوا فيه فى أيام الشتاء والبرد والليل بسبب بعد المحلة عن مسجده ، فأذن لهم ؛ وكان راهب عربى اسمه أبو عامر قد تلاحى مع النبى صلى الله عليه وسلم وأقسم أن يحاربه أينما وجد محاربا له ، فلما انتصر المسلمون فى فتح مكة ويوم حنين ، تآمر مع المنافقين على أن يبنوا مسجداً فى قباء ليكون مركز اجتماعاتهم ، وينتظروا عودته من بلاد الروم حيث أزمع أن يذهب ليدبر المكايد للنبى والمسلمين ؛ فاستأذنوا النبى صلى الله عليه وسلم ببناء مسجد مثل رفاقهم ، فأذن لهم ، ورجوه أن يصلى لهم فيه فوعدهم بذلك بعد عودته من غزوة تبوك .

والصورة التآمرية واضحة فى الآيات وليس فيها ما لا يتسق مع الرواية ؛ والمروى أيضا أن الآيات قد نزلت أثناء غزوة تبوك ، وأن النبى علم وهو فى الرحلة بخبث نية بناة المسجد ؛ وقد أرسل فور عودته إلى المدينة من هدمه وحرقه . ومضمون الآيات يلهم أنها نزلت فى وقت كان المنافقون فيه فى ضعف وضآلة شأن ، إذ جاؤوا للنبى صلى الله عليه وسلم يؤكدون له حسن نياتهم .

— ٦ —

(٣) وفى سورة محمد الآيات التالية :

« إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ... ٢٥ - ٢٦

وقد احتوت الآية الثانية منها إشارة إلى ما كان من وعد المنافقين ، للذين كرهوا ما نزل الله ـ وهم اليهود على الأرجح ـ بطاعتهم والاندماج فى مكايدهم ؛ وفى هذا صورة تآمرية واضحة كما هو المتبادر ؛ وتعبير « إسرارهم » قد يلهم أن المنافقين واليهود كانوا يعقدون جلسات خفية يتآمرون فيها على النبى والإسلام .

(٤) وفى سورة المجادلة الآيات التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ

وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ... ١٤ - ١٦

ومع أن ذكر المنافقين لم يرد فى الآيات إلا أن صفاتهم التى جاءت فى آيات أخرى قد وردت فيها ، كما أن الجمهور على أنهم هم موضوع التنديد وما تبع الآيات من حملة شديدة ؛ وتعبير « ماهم منكم ولا منهم » يدل بقوة على أن المقصود من القوم الذين غضب الله عليهم وليسوا من العرب ، هم اليهود على الغالب ؛ وفى الآيات صورة لما كان بين اليهود والمنافقين من تواثق وتآمر كما هو ظاهر .

ويظهر أن المنافقين كانوا يعاتبون على مواقفهم التآمرية فينكرونها ، ويحلفون على ذلك الأيمان الكاذبة ، شأنهم فى كل موقف من مواقفهم الأخرى على ما احتوته الآيات التى نقلناها .

هذا ؛ وإتماماً للسلسلة نذكر هنا بالصور التآمرية التى احتوتها آيات الحشر (١١ - ١٤) والبقرة (١٤) والمائدة (٥١ - ٥٣) التى أوردناها فى فصل اليهود ، لاتصالها بهذا المبحث أيضاً بقدر اتصالها بالفصل المذكور .

المبحث الثالث

مواقفهم من الجهاد ووقائعه

هذه المواقف نوعان - الأول إزاء الدعوة - صور له من سور آل عمران والنساء والتوبة ومحمد - الثاني إزاء الوقائع الجهادية - صور له من سور آل عمران والأنفال والأحزاب - إشارة تذكيرية بما كان من موقفهم إزاء وقعتي بني النضير وغزوة تبوك - صور أخرى للنوع الثاني من سورتي التوبة والمنافقون - تعليق على شدة نكاية مواقف النوع الثاني - إشارة إلى ما كانوا عليه من قوة في ظروفها .

— ١ —

إن هذه المواقف على ما يستفاد من الآيات نوعان ، نوع إزاء الدعوة إلى الجهاد والاستنفار إليه ، وآخر إزاء الوقائع الجهادية .

(١) في سورة آل عمران الآية التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ... ١٥٦

وقد جاءت الآية في سياق الإشارة إلى مشاهد وقعة أحد ، وما كان للمنافقين وبعض فئات المسلمين المخلصين من مواقف فيها ؛ والآية مطلقة تلهم أنها بسبيل تقرير موقف متكرر منهم ؛ وهو أنهم كانوا يعمدون إلى إثارة شجون أهل الشهداء والموتى من المسلمين الذين يستشهدون في الجهاد أو يموتون في السفر فيقولون إنهم لو لم يخرجوا إلى ما خرجوا إليه لما ماتوا وما قتلوا ؛ وواضح أن في هذا دسا خبيثا وتثبيطا عن الاستجابة إلى الجهاد ؛ وقد تلهم الآية أن المقصودين بالذين يضربون في الأرض هم الذين كان النبي صلى الله عليه وسلم يندبهم لمهمة ما فيلقون حتفهم ؛ لأن الدس والتثبيط إنما يجدان سبيلهما في ذلك دون الأسفار المطلقة

الخاصة التي لا غنى للناس عنها ولا سبيل إلى إثارة الشجون والدس فيها .

(٢) وفي سورة النساء الآيات التالية .

١ - يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا جَمِيعًا . وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا . وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ...

٧١ - ٧٣

٢ - وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ...

٨١

وقد احتوت الآيات الأولى إشارة إلى ما كان من تثبيط المنافقين الناس عن الاستجابة إلى دعوة الجهاد ، فضلا عن تربصهم وانكماشهم ؛ واحتوت الآية (٨١) صورة من صور مواقفهم من الدعوة أيضا ؛ فقد كانوا يعلنون في مواجهة النبي صلى الله عليه وسلم السمع والطاعة ويخرجون للاستعداد، ولكنهم لا يلبثون أن ينقضوا ما أبرموا ويجنحوا إلى الخلاف والتخلف .

وفي الآيات الأولى صورة تأكيدية لنفاقهم وأن مايصدر عنهم لا يصدر عن إيمان وإخلاص، في صورة تقرير لما يكون منهم في حالتي انتصار المسلمين وانكسارهم.

(٣) وفي سورة التوبة مقاطع عدة في صدد مواقف المنافقين إزاء الدعوة إلى الجهاد ؛ وقد نقلنا أكثرها في مبحث الصدام مع النصارى لأنها نزلت في ظروف الدعوة إلى غزوة تبوك ؛ فنكتفي بالإشارة هنا إلى أرقامها وهي (٤١ - ٤٩) و (٨٠ - ٨٣) و (٩٠ - ٩٤) . وفيما يلي آيتان لم ننقلهما ثمة وهما متصلان بنفس الموضوع ، وقد نزلتا في نفس الظروف :

« وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ

أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَٰعِدِينَ . رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ... ٨٦ - ٨٧

ففي هذه الآيات التي نزلت في معرض التنديد بالمنافقين والحملة عليهم وذكر مواقفهم المنكرة، صور عدة ولكنها متقاربة لتلك المواقف ؛ فهم إذا اتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فإنما يتبعونه حينما يكون السفر سهلا والخطر مأمونا ؛ فإذا ما انعكس الحال اعتذروا بعدم الاستطاعة وأقسموا الأيمان وهم كاذبون، فيستأذنون النبي صلى الله عليه وسلم بالتخلف من جهة، ويثبطون الناس عن النفرة من جهة أخرى ؛ وكلما دعا الله ورسوله إلى الجهاد سارع أولو الطول والقدرة إلى النبي يطلبون منه أن يتركهم في المدينة. ويبدو من روح بعض الآيات أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأذن لهم تفادياً لما يعلمه من دسهم وشغبهم وتثبيطهم وأثر ذلك في المخلصين الذين كان منهم من تربطه بهم الروابط الوثيقة المتنوعة.

(٤) وفي سورة محمد الآيات التالية :

« وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ . طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ . فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَٰرَهُمْ ... ٢٠ - ٢٣

وقد احتوت الآية الأولى وصفاً بديعاً وقويا لجبن المنافقين حينما كانت تنزل سورة فيها أمر حازم بالجهاد توافق رغبة المخلصين من المسلمين. وفي الآيات الأخرى حملة عليهم لجبنهم، وتنبيه إلى ما في ذلك من تقطيع الأرحام، وتدمير البلاد، لأن فيه تشجيعاً للعدو وإغراء له.

- ٢ -

وثانيا : مواقفهم فى وقائع الجهاد .

(١) وفى سورة آل عمران الآيات التالية :

« وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين . وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون . الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ... ١٦٦ - ١٦٨

والآيات مما نزل عقب وقعة أحد التى دارت الدائرة فيها على المسلمين ، والتى أثارت فيهم آلاما مرة ؛ وقد احتوت الأولى صورة لموقف المنافقين فى هذه الوقعة ، إذ يستفاد منها أنهم دعوا إلى الاشتراك فى الجهاد فى سبيل الله ، أو التضامن على الأقل فى الدفاع عن وطنهم وقومهم ، فأبوا وتخلفوا قائلين إنهم لا يظنون أن يقع اشتباك ، ولو تيقنوا من ذلك لخرجوا معهم ؛ وكان قولهم كذبا لأنهم تخلفوا بقصد الخذلان ، واجتناب الحرب ، وتربص السوء بالمسلمين ؛ وقد احتوت الثانية صورة لموقف آخر لهم بعد المعركة ، فإنهم عمدوا إلى الدس الخبيث ، وإثارة شجون أهل الشهداء ، فقالوا إنهم لو أطاعونا وتخلفوا كما تخلفنا لما قتلوا ؛ وفى جملة « لو أطاعونا » صورة لموقف ثالث قبل المعركة ، إذ تلهم أنهم لم يكتفوا بالتخلف بل حاولوا حمل غيرهم من المخلصين الذين تربطهم بهم روابط القربى والعصبية على التخلف أيضا ولكن هؤلاء لم يسمعوا لهم .

(٢) فى سورة الأنفال الآية التالية :

« إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم

وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... ٤٩

وسورة الأنفال نزلت عقب وقعة بدر الكبرى على ما أجمع عليه المفسرون والرواة؛ وقد احتوت حكاية صور ومشاهد وظروف الوقعة فى معرض العظة والطمأنة والتشريع؛ ومما ذكره الرواة أن فريق المنافقين خرجوا مع النبي والمخلصين حينما كان هدفهم من الخروج كسب القافلة التجارية القرشية الواردة من الشام بقيادة أبى سفيان، والتى لم يكن معها حامية كافية؛ فلما نجت القافلة، ووجد النبي والمسلمون أنفسهم أمام الجيش القادم من مكة لإمداد القافلة وإنقاذها استشار النبي الناس، فأعلن المهاجرون والمدنيون استعدادهم للاشتباك، فما كان من الفريق المنافق إلا المخالفة والرجوع؛ فالذى نرجحه أن الآية تحكى قولهم فى هذا الظرف؛ إذ رأوا فى قرار الاشتباك مع المكيين الذين يبلغون ضعف المسلمين تورطا وغرورا فقالوا إنما غرهم وورطهم دينهم.

- ٣ -

(٣) وفى سورة الأحزاب الآيات التالية:

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا. إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا. هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا. وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا. وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا. وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا. وَلَقَدْ

كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا . قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا . قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا . قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا . أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا . يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسئلون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا ... ٩ - ٢٠

وهذه الآيات مما نزل عقب وقعة الخندق أو الأحزاب ، وفي صدد وقائعها ومشاهدها ؛ وقد احتوت صوراً لمواقف المنافقين ودسائسهم في ظروف الوقعة ؛ وإذا لاحظنا أن هذه الآيات هي معظم ما نزل في صدد الوقعة بدا لنا أنها إنما نزلت للتنديد بهم وفضيحتهم خاصة .

والآيات الثلاث الأولى تصور مقدار ما كان من شدة اضطراب المسلمين لقدوم جيوش الأحزاب ووفرتها ؛ ودسائس المنافقين وتثبيطهم في هذه الحالة يكون بطبيعة الحال شديد الأذى بعيد المدى بحيث يتناسب مع تلك الشدة ؛ يضاف إلى هذا أن هذه الغزوة كانت أشد ما تعرضت له المدينة والمسلمون من خطر ، بل كان من شأنها أن تعصف بالإسلام لولا تأييد الله وثبات رسوله ، لاسيما أنها جاءت بعد وقعة أحد التي كانت الدائرة فيها على المسلمين وكاد النبي يقتل فيها ؛ وهذا مما يجعل مواقف الدس والتثبيط التي وقفها المنافقون أشد خطرا وأبعد نكاية وأذى .

وفي الآية الرابعة تبدو صورة للمنافقين في جرأتهم على الله ورسوله جهرة وقولهم

إن ما وعدوا به من نصر ليس إلا غرورا أو تغريرا بالناس ؛ ومما لا ريب فيه أن خطورة الظرف هى التى جرأتهم على هذا القول .

وفى الآية الخامسة تبدو صورة أخرى لهم فى تثبيطهم أهل المدينة وتخويفهم إياهم ودعوتهم إلى الرجوع إلى المدينة ، وصورة ثانية أيضاً فى استئذانهم النبى صلى الله عليه وسلم بالعودة إلى بيوتهم لحمايتها وزعمهم كذبا أنها مكشوفة للعدو ، وقد قررت الآية والآية التالية لها واقع أمرهم فى الحقيقة ، فهم لا يبغون إلا الفرار ، وإذا قدر للعدو أن يدخل إلى المدينة منصوراً وطلب منهم أن يجهروا بالكفر وأن يثيروا الفتنة لما توقفوا فى الإجابة إلى ذلك ؛ ويبدو من الآية السابعة أن المنافقين عاهدوا النبى صلى الله عليه وسلم وأشهدوا الله عليهم على عدم الفرار بعد ما كان منهم ما كان فى وقعة أحد فذكرتهم الآية بهذا العهد تذكير تأنيب وتنديد .

وفى الآية التاسعة صورة أخرى لهم فى ظروف الوقعة إذ تلهم أنه كان منهم من يثبون فكرة الالتحاق بمعسكر النبى لتحويق الناس عنه ، ويدعون بنى قومهم وذوى قرباهم إلى الانضمام إليهم بحجة الرغبة فى القتال فريقاً خاصاً ، فى حين أنهم كانوا لا يقصدون إلا التفريق ، ولم يبيتوا النية على الاشتباك فى الحرب إذا نشبت بصورة فعالة .

وفى الآية العاشرة تقرير آخر لواقع حالهم ؛ فهم بخلاء ، وحينما يحدق الخطر بهم يظهرون جبنا شديدا صورته الآية أبلغ تصوير ، وحينما يذهب الخوف يطلقون ألسنتهم بالنقد الشديد والتبجح العريض ، وهم بعيدون عن كل خير . وفى الآية الحادية عشرة وهى الأخيرة صورة أخرى لهم ، إذ يبدو أنهم حينما قيل لهم إن الأحزاب قد ارتدوا خائبين عن المدينة لم يكادوا يصدقون . وقد احتوت تقريرا لحالة فرضية لهم متصلة بموقف الجبن وعدم التورط الذى وقفوه ، فقررت عنهم أنه لو عاد الأحزاب ثانية لتمنوا أن يكونوا فى البادية بعيدين عن المدينة ، فلا يشهدوا الوقعة ، ولا يتورطوا فيها ، ويكتفوا بالسؤال عن الأخبار ؛ وقد استدركت الآية فقررت أنهم لو كانوا مع المسلمين لما قاتلوا قتال جد فيه غناء .

والصور القرآنية واضحة كل الوضوح ؛ وهى تؤيد ما قلناه من شدة نكاية مواقف

المنافقين وبعد مداها فى ظروف هذه الوقعة التى هى أشد ما تعرض له الإسلام من خطر .

- ٤ -

(٤) ولقد نقلنا فى مبحث سابق آيات سورة الحشر ١١ - ١٤ ونبهنا إلى ما فيها من تضامن المنافقين مع اليهود ؛ وفى الآيات صور تتصل بهذا المبحث أيضا ، لأن الموقف الذى وقفه المنافقون وحكته الآيات إنما كان فى ظروف وقعة يهود بنى النضير ، ويستفاد من الآيات والروايات التى وردت فى صددها والمتسقة معها أن المنافقين تدخلوا وأوعزوا لليهود بعدم التسليم ، ووعدوهم بالتضامن معهم فى القتال وفى الجلاء ، فتمرد هؤلاء نتيجة لهذا الوعد والإيعاز ، ورفضوا شروط النبى صلى الله عليه وسلم المتسامحة ، فشدد الحصار عليهم واضطرهم إلى قبول شروط أشد ، على ما ذكرناه فى فصل اليهود ؛ وعلى كل حال ففى الآيات صورة لموقف من مواقف المنافقين فى ظروف الوقائع الجهادية ، فيه تقوية للعدو كما هو واضح .

(٥) وفى القسم الأول من هذا المبحث أشرنا إلى آيات التوبة وما فيها من صور لمواقف المنافقين من الدعوة إلى الجهاد عامة وغزوة تبوك خاصة ؛ وفى بعض هذه الآيات صور لمواقفهم من وقائع الجهاد نفسها مما يدخل فى باب هذا القسم أيضاً وتحسن الإشارة إليه لتتم السلسلة ، فالآية (٤٢) تذكر أن المنافقين كانوا أحياناً يستجيبون للدعوة ويشتركون فى حملات الجهاد حينما تكون الرحلة قريبة والغزوة سهلة مأمونة . والآية (٨٣) احتوت أمراً للنبى بإعلانهم أنه لن يسمح لهم بالخروج معه إلى غزوة ما أو بمقاتلة عدو ، بسبب ما كان من تخلفهم وتهربهم وتثبيطهم ؛ والآيتان ٤٧ - ٤٨ تصفان واقع حال المنافقين فى الوقائع الجهادية . فهم لا يألون جهدهم فى بث الفتنة وإثارة القلق وتثبيط الهمم ودس الدسائس إذا ما خرجوا مع الحملات الجهادية ؛ ولمساعيهم هذه أثر فى بعض المسلمين الذين يستمعون إليهم بسبب الروابط التى تربط بينهم ؛ وفى الآية الثانية إشارة إلى موقف واقعى منطبق على ما ذكرته الآية الأولى من واقع حالهم ، إذ لم يألوا جهدهم فى فتح الثغرات ، وخلق المشاكل ، وظلوا

كذلك إلى أن صارت كلمة الله هي العليا ، وتوطدت قوة الإسلام رغم أنوفهم وعلى كره منهم .

— ٥ —

(٦) وفي سورة التوبة آيات لم ننقلها قبل وهي متصلة بمواقف المنافقين في ظروف الوقائع الجهادية ، منها الآيات التالية :

« إنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وإنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ ويَتَوَلَّوْا وهُمْ فَرِحُونَ . قُل لَنْ يُصِيبَنَا إلَّا ما كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ . قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إلَّا إحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ونَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ . قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ... ٥٠ - ٥٣

وهي صور متصلة بوقائع الجهاد من بعض النواحي أيضاً ، إذ حكت الأولى تربص المنافقين الدوائر بالمسلمين حتى إنهم ليستاءون من فتح يفتح عليهم ، وليتمنون أن تدور الدائرة عليهم . وهذه المساجلة التي تأمر بها الآيات تدل على ما كان من شدة أثر مواقف المنافقين في نفوس المسلمين في ظروف الوقائع الجهادية كما هو المتبادر .

والآية (٥٣) مع ما ورد في صددها من روايات ، تلهم أن المنافقين حاولوا أن يفتدوا أنفسهم بالاشتراك ماليا في غزوة تبوك ، فألهم الله نبيه رفض ذلك مع تعليل الرفض في الآية ، وهو تعليل بليغ يلهم أن قبول المال منهم قد يتخذ دليلا على تصديقهم فيما يدعونه من نيات حسنة ويقدمونه من أعذار كاذبة .

ومنها الآية التالية :

« ومِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَمًا ويَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ...

وقد تضمنت صورة لمنافقي الأعراب ؛ فقد كانوا يعتبرون ما يؤخذ منهم من مساعدات وصدقات ، تكاليف إجبارية ، وكانوا يدفعونها تفادياً لا إيماناً واحتساباً ، وكانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر حتى يخلصوا من هذه التكاليف .

(٧) ولقد نقلنا سابقاً الآية (٨) من سورة « المنافقون » ، ولها اتصال وثيق بموقف للمنافقين أثناء إحدى الغزوات النبوية ؛ إذ روى فى صددها أن أنصاريا خزرجيا تلاحى مع قرشى فاستغاث كل منهما بقومه على عادة العصبية القبلية الجاهلية ، وكادت تكون فتنة هوجاء ، فأخذ عبد الله بن أبيّ كبير المنافقين الغضب والحمية وأقسم : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، كأنما كان واثقا من أنه هو الأعزّ ؛ ففى الآية من جهة صراحة بأن المنافقين كانوا أحيانا يخرجون فى غزوات النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيها من جهة أخرى صورة لما كان من استعدادهم لإثارة الفتنة بين صفوف المسلمين أثناءها .

ومما لا ريب فيه أنهم إنما كانوا يخرجون فى الغزوات الهينة المضمونة العاقبة على ما وصفت إحدى آيات التوبة وهى (٤٢) من واقع حالهم فى ذلك .

- ٦ -

ولا بد أن القارئ قد لاحظ أن المنافقين قد وقفوا من الوقائع الجهادية الخطيرة فى تاريخ السيرة مثل بدر وأحد وبنى النضير والخندق وتبوك موقف الخذلان والتثبيط ، وأن موقفهم خاصة من وقعتى أحد والخندق اللتين دارت فى أولاهما الدائرة على المسلمين وكادت ثانيتهما تعصف بالإسلام والمسلمين أشد العصف - من أشد مواقفهم نكاية وخبثا وأبعدها مدى .

وهذا يفسر الحكمة التى اقتضت إنزال الحملات القرآنية العنيفة فى حقهم كما هو المتبادر .

ويلاحظ من ناحية أخرى أنهم كانوا فى ظروف الوقائع الأربع الأولى على شىء من القوة ، فلم يعبأوا بما يمكن أن يكون لمواقفهم منها من رد فعل فى نفس النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين .

فصل فى الجهاد ووقائعه

تمهيـــد

آيات الجهاد مدنية ـ ليس فى القرآن المكى إلا نواة ـ تعليل ذلك ـ حدود التشريع الجهادى فى القرآن ـ كثرة آيات الجهاد ودلالتها ـ الآيات الجهادية نوعان : دعوة ووقائع ـ أسلوب ومدى كل منها ـ روعة الأسلوب وأثره ـ الوقائع الجهادية وطبيعتها ـ شمول الدعوة للجهاد بالمال ـ الجهاد الاسلامى قائم على التطوع ـ الجهاد الاسلامى استهدف الدفاع ورد العدوان وضمانة حرية الدعوة واستجابتها فقط قطعية التزام النبى هذا الهدف فى التطبيق ـ مباحث الفصل .

ـ ١ ـ

إذا استثنينا آيات الشورى ٣٩ ـ ٤٣ التى نقلناها فى مبحث الأذى والفتنة ، لانجد فى القرآن المكى شيئاً عن الجهاد والدعوة إليه وواجب الدفاع عن الإسلام والمسلمين بالقوة ؛ على أن هذه الآيات ليست فى الحقيقة دعوة ، وإنما هى فى معرض وصف أخلاق المسلمين التى منها الانتصار من البغى ، وعدم الحرج عليهم فى دفع العدوان بمثله ؛ وعلى هذا فكل مايمكن أن يقال فيها إنها نواة لمبدإ الجهاد الإسلامى الذى هو دفاع ورد بغى وعدوان فحسب ، جاءت بأسلوب الوصف والحث والتنويه والوعظ ، كما هو شأن أسلوب القرآن المكى فى صدد المبادئ الإسلامية .

وبناء على هذا فإنه يصح أن يقرر أن جميع الآيات القرآنية الواردة فى الجهاد تشريعاً ودعوة ووقائع هى مدنية ، وهذا طبيعى ؛ فإن المسلمين قبل الهجرة لم يكونوا من حيث العدد والقوة فى الموقف الذى يساعدهم على قتال حتى لدفع الظلم والأذى ، فقد كانوا فى مكة يتحملون الأذى صابرين محتسبين ، ومافتئت الآيات المكية تحثهم على الصبر والدفع بالتى هى أحسن مع الوعد بالنصر فى النهاية ، واضطر كثير منهم إلى الهجرة إتقاء للفتنة عن دينهم ، وفراراً بدمهم ، على ما مر تفصيله فى بحوث سابقة .

وإذا كان بعض الأقوياء من المسلمين حاولوا أحياناً مقابلة العدوان والإساءة بمثلهما

مما استلهمناه من بعض الآيات فى مبحث محنة الأذى والفتنة ، فإنما كان ذلك محاولات شخصية وفردية .

فلما بايع الأوس والخزرج النبى صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، ثم على الدفاع ، وتمت الهجرة النبوية ، تبدل الموقف ، وأصبح النبى صلى الله عليه وسلم فى عاصمة مستقلة ومحيط قائم بذاته مستغن عن غيره ، للإسلام فيه صوت قوى ، وشيوع غير ضيق ؛ وحينئذ كانت الخطوة الجدية إلى مقابلة مشركى مكة على ما كان منهم من ظلم وبغى ظلا مستمرين فى الصد عن سبيل الله والمسجد الحرام ، وأذى وفتنة لمن لم يستطع الإفلات من المستضعفين المسلمين على ماذكرناه كذلك فى المبحث المذكور آنفاً .

— ٢ —

وتتمثل هذه الخطوة بثلاثة حدود : الأول فى آيات الحج ٣٨ - ٤١ التى نقلناها فى المبحث الآنف الذكر ، والتى تقرر أن المسلمين قد ظلموا ، وتأذن لهم بالانتصار والدفاع ، وتعدهم بنصر الله ؛ والثانى فى آيتى البقرة والأنفال المتقاربتين نصا واللتين تأمران بقتال المشركين البادئين بالعدوان والظلم إلى أن ينهوا عن عدوانهم وتصبح حرية الدعوة مضمونة ويكون الدين كله لله ، كما ترى فى إحداهما هذه :

« وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ [1] وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى الظَّٰلِمِينَ ... البقرة ١٩٣

والثالث فى آيات النساء والتوبة والممتحنة التى تأمر بعدم قتال المسالمين والحياديين والمعاهدين ، وباحترام عهد المعاهدين ما احترموه ، وبقتال الناكثين والغادرين والطاعنين بالدين والذين لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وتشجع على البر بالمسالمين ، كما ترى فيما يلى :

١ — إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ

(١) إن بعض المفسرين قال إن كلمة « فتنة » بمعنى شرك ، وإن الأمر فى الآيتين بقتال المشركين إلى أن لا يبقى شرك . وفى القرآن نصوص تخالف هذا من الجهة اللغوية ومن الجهة التشريعية ، كما أن فى السيرة النبوية ما يخالفه مما سيرد فى هذا الفصل بعد .

حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ... النساء ٩٠

٢ — إِلَّا الَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ... التوبة ٤

٣ — كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ . كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ . ٱشْتَرَوْا بِـَٔايَٰتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ . فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ . أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ... التوبة ٧ - ١٣

٤ — الآية ٢٩ من التوبة التى نقلناها فى مبحث الصدام مع النصارى .

٥ — لَا يَنْهَىٰكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا

يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ...

الممتحنة ٨ – ٩

ويلفت النظر إلى أن هذه الآيات مما نزل فى مختلف أدوار التنزيل ، أى فى أوائل وأواسط وأواخر العهد المدنى وأن بعضها متسق مع بعض فى الروح والحكم والمدى ، مما يصح أن يقال معه إنها مبادئ أو حدود محكمة .

— ٣ —

والآيات القرآنية فى موضوع الجهاد قد شغلت من حيث كثرتها حيزاً كبيراً يكاد يبلغ نصف القرآن المدنى ؛ وفى هذا دلالة على أن هذا الموضوع كان من أهم أدوار السيرة النبوية فى العهد المدنى ، أو أهمها .

فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم محوطا من جهة باليهود ، ولهم الحصون والقرى والمزارع والمال والعدة ، والمركز القوى المتغلغل فى حياة العرب ؛ وكان من جهة ثانية على عداء شديد مع أهل مكة بقيادة زعمائها الأقوياء ؛ وكان العرب الآخرون من جهة ثالثة ينظرون إلى هؤلاء وأولئك فيرون أن النبى مايزال ضعيفا منعزلا مع مسلمى الأوس والخزرج ومهاجرى مكة القليلين ، فكان منهم من يقف موقف المتربص ، ومنهم من يقف موقف المناوئ ، ومنهم من يجرؤ على الغدر والخيانة ليتقرب بإثمه إلى مشركى مكة أو يهود المدينة ؛ وكل هذا كان يستدعى الحرب والدفاع والتأديب والتنكيل والبعوث والسرايا والغزوات بصورة مستمرة ؛ ويكفيك أن تعلم مثلا أن عدد الغزوات والسرايا والبعوث قد بلغ خمساً وستين ، قاد النبى صلى الله عليه وسلم منها بنفسه سبعاً وعشرين ، وكل ذلك فى نحو عشر سنين – لتقدر خطورة الدور الذى كان للجهاد فى هذا العهد ، وتفهم حكمة شغل موضوعه ذلك الحيز الكبير من القرآن .

— ٤ —

والآيات فى هذا الموضوع على نوعين : نوع تضمن دعوة عامة إلى الجهاد

بالنفس والمال ، وحث عليه وتثبيت وترغيب فيه ، وتنويه بالمستجيبين ، وتنديد بالمنكمشين والقاعدين ؛ وقد تضمنت آيات هذا النوع مبادئ عامة فى الجهاد وأهدافه والاستعداد له ، جليلة الشأن مستمرة التلقين والمدى والإلهام فى كل نزاع بين المبادئ القويمة والفاسدة ، وفى كل صراع بين الحق والباطل ، والضعيف والقوى ، والحرية والاستعباد ؛ وتضمنت كذلك صورا لمواقف المسلمين من الدعوة إلى الجهاد ، وما كان من أزمات حادة فى سبيل ذلك ؛ ونوع ثان أشير فيه إلى وقائع الجهاد النبوى البارزة وما كان فيها ؛ ومن الجدير بالتنبيه أن آيات النوع الثانى قد نزلت بعد الوقائع ؛ مما يسوغ القول إن الوقائع قد كانت بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ورأيه ، وبدون وحى قرآنى كما هو شأن أكثر أحداث السيرة النبوية ، وإنها جاءت مؤيدة لكل ماصدر من النبي تقريبا ، وفيها مايلهم أن ما كان إنما كان بإلهام ربانى ، كما أنها لم تكن قصصا عن الوقائع وسيرها ونتائجها ، بل كانت بمثابة تعقيبات عليها قصد بها التشريع أو التنبيه أو التنويه أو التنديد أو الطمأنة أو التسكين أو الوعظ الخ مما اقتضته ظروف كل واقعة وسيرها ؛ بل إن هذه النواحى هى البارزة فيها أكثر من مشاهد الوقائع وسيرها ؛ وقد تضمنت مثل النوع الأول مبادئ عامة فى الجهاد أيضا ؛ وإنه ليصح أن يقال إن ماجاء فى القرآن من الإشارات إلى وقائع لم يقصد به غير هذه النواحى ، ولعل هذا مما يفسر السكوت عن وقائع جهادية مهمة روتها الروايات حتى كانت يقينا مثل غزوات مؤته واليمن وفتح الطائف ، ويفسر الاكتفاء كذلك بالإشارات الخاطفة الغامضة إلى وقائع مهمة أخرى مثل فتح مكة وخيبر والقرى اليهودية الأخرى ، وماتم فى أثناء غزوة تبوك من شؤون .

- ٥ -

وكل من يتمعن فى الآيات القرآنية من كلا النوعين يقف حالا على المعجزة القرآنية الخالدة فيما يجده ، أولا : من تلك المبادئ العامة التى تركزت فيها كل مبادئ الحق والعدل والرأفة والتسامح مع القدرة ؛ وثانيا : من الإسلوب الأخاذ ، والحيوية الرائعة ، والإشراق الباهر وبما يمكن أن يوجبه من الإيمان النافذ المستولى ، والذى من شأنه أن يأخذ بالمرء صاعدا به إلى ما فوق مستوى المادة ، وأن يشعره بقوة

الإيمان العميق الفياض الذى تمتلئ به النفس وتسعد فيه ، وهى بسبيل نصرة الحق والحرية والمبادئ السامية ، مهما أحاط بصاحبها من شظف وحرمان وتعب وبؤس واستهدف له من مخاطر ومصاعب وموارد هلاك وفناء .

وليس من ريب فى أن هذا هو ما حصل فى نفوس السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، وسجل الله رضاءه عنهم ورضاءهم عنه فى القرآن ، لجعلهم وهم الفئة القليلة المحوطة بالخصوم الأقوياء بالعدة والعدد ، والمكر والدسائس والتى فى صفوفها أناس ضعفاء أو منافقون ومرضى قلوب ، ينتصرون فى جزيرة العرب أولا ، ثم يخرجون بعد ذلك إلى الدنيا لا يملكون إلا هذا الإيمان ، وما يوحيه من طمأنينة بنيل إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة ، وما يبثه من قوة زاخرة فى النفس ، واستهانة بالموت فى سبيل المثل الأعلى الذى تشبعت به قلوبهم ، فيضربون ضرباتهم الجبارة ، ويأتون بالمعجز الخارق ، ويسيطرون على الكون ، فتبقى آثار ذلك كله على مدى الدهر قوية وهاجة النور ، داوية الصوت ساطعة النور .

- ٦ -

وفى النوع الأول فرض الجهاد على المسلمين فرضا ، وعبر عن ذلك بأنه كتب عليهم «كتب عليكم القتال» كما استعمل نفس التعبير فى فرض الصيام ؛ وبذلك توطد الجهاد فى الإسلام كركن من أركانه إذا لم يقم به المسلمون حينما تدعو الحاجة إليه وقعوا فى الإثم ضمن المبادئ العامة التى وضعت له ، وفى نطاق الحدود التى رسمت له فى الآيات القرآنية .

- ٧ -

ووقائع الجهاد التى أشير إليها فى القرآن قد انحصرت فى وقائع كبرى وقعت بين جهرة من المسلمين وجهرة من المشركين أو اليهود ؛ منها ما أشير إليه باسمه وهو وقعتان : بدر وحنين ، ومنها ما أشير إليه بدون تسمية وأجمعت الروايات على توضيحها وهو وقائع أحد والخندق ويهود بنى قينقاع والنضير وقريظة وخيبر والحديبية وفتح مكة وتبوك ؛ منها ما بسطت مشاهده بسطا ماء ، ومنها ما أشير إليه إشارات خاطفة

على حسب ما اقتضته حكمة التنزيل وأهدافها .

وهذه الوقائع وما تخللها من غزوات وسرايا وبعوث صغيرة وكبيرة لم تكن أهميتها على حسب خطورة سير الحرب فيها وعدد المقاتلين والقتلى والجرحى والأسرى والغنائم ، إذ كان جلها فى الحقيقة موضعيا قليل الخطورة من هذه الناحية ؛ وإنما كانت أهميتها من حيث أنها مظهر عملى للصراع الهائل الذى كان بين التوحيد والشرك ، والإيمان بالرسالة النبوية وجحودها ، والحرية والصد والعدوان ، وهو الصراع الذى انتهى بانتصار حرية الدعوة ودخول الناس فى دين الله أفواجا .

- ٨ -

ولم تقتصر الدعوة القرآنية إلى الجهاد على الناحية البدنية والحربية ، بل تناولت الناحية المالية أيضا ، فالمال عصب الحرب ، وليس من الميسور الاضطلاع بأعبائها المتنوعة إلا بالمال ؛ بل إن الأرواح التى توهب للجهاد وتقدم ضحية فيه أيسر وجودا وأسرع استجابة إليه ؛ وقد كان من هذا مثل رائع حكته إحدى آيات سورة التوبة :

« ولا عَلَى الَّذِينَ إِذَا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ ... ٩٢

فكان من الطبيعى والحالة هذه أن تتضمن الآيات دعوة إلى الانفاق فى سبيل الله وحضا عليه ؛ ولقد تخلل آيات الجهاد نفسها كثير من مثل تلك الآيات للمناسبة والملازمة التامتين ، وأطلق تعبير الجهاد على الجهاد البدنى والمالى معا ، بل قدم الثانى بالذكر فى كل موضع ذكر فيه الاثنان تنويها بخطورته ؛ ولا تكاد تقرأ مجموعة من الآيات فى صدد الجهاد والاستعداد له إلا وجدتها فى سياق واحد مع آيات الحث على الإنفاق فى سبيل الله ، بأسلوب قوى نافذ ومستول من شأنه أن يملأ النفس الطيبة الحسنة إيمانا ورضاء وإقداما ، ويجعلها تخرج عن ما لها طائعة مختارة . ولقد تخللت الآيات حملات لاذعة ، ووعيد قاصم بأسلوب قوى رهيب على البخلاء الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، والأغنياء الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ؛ وقد كادت هذه الحملات أحيانا تكون رعدا وبرقا ومطرا من نار

محرقة وعذاب شديد تقشعر الجلود لسماعها ، كما أن أكثر آيات النفاق والمنافقين الواردة فى صدد الجهاد والتى نقلناها سابقا وردت متخللة فى أثناء الإشارات إلى الجهاد ؛ فإن جبن المنافقين وقبض أيديهم ، وتهربهم وتثبيطهم ، وتخلفهم واعتذارهم إنما كان بسبب هذه المناسبة ، وقد رأيت ما كانوا هدفا له من حملات لاذعة .

- ٩ -

هذا ؛ ونريد أن ننبه إلى نقطتين :

الأولى : إن الحث على الجهاد بالمال والنفس ، وعذر الذين لا يجدون ماينفقون من الفقراء ، والحملة على القادرين إذا ما تهربوا وشحوا ، يسوغ القول إن السلطان الإسلامى فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن قد وصل إلى درجة تجهيز الحملات ، وتموين المجاهدين بالسلاح والمال والمعدات الأخرى ، وإن الجهاد كان يقوم على التطوع والتبرع بدافع الإيمان والرغبة فى التقرب إلى الله وطاعة الرسول ، وكان المجاهدون هم الذين يجهزون أنفسهم بالسلاح والركائب والزاد ؛ وكل ما فى الأمر أن النبى صلى الله عليه وسلم كان ينفق من الفىء والغنائم والصدقات - الزكاة - فى هذا السبيل ، ويساعد الفقراء على التجهز بقدر ما كان نصيب بيت المال يتسع له ، على كثرة ما كان يطلب منه من ناحية ، وقلة الوارد من ناحية أخرى .

وهذا يفسر لنا حكمة تقسيم غنائم الحرب على خمسة أقسام ؛ قسم يخصص لبيت المال وينفق منه على الطبقات المحتاجة وفى سبيل الله ، والأقسام أو الأخماس الأربعة توزع على المجاهدين ، كما تفسر لنا حكمة حصر الفىء ، أى ما يدخل فى حوزة النبى دون قتال ، فى الطبقات المحتاجة وسبيل الله كذلك .

أما النقطة الثانية فهى أن الجهاد لم يستهدف بصورة رئيسية إجبار الناس على الإسلام ؛ فمن ناحية التعاليم القرآنية قامت الدعوة على مبدأين (١) الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال فيها بالتى هى أحسن (٢) عدم الإكراه فى الدين ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها .

والآيات التى تضمنت تقرير هذين المبدأين كثيرة جدا ، أوردنا وشرحنا كثيراً منها فيما سبق ، وسنورد جملة منها فى مباحث هذا الفصل ؛ ونكتفى بإيراد ما يلى هنا :

١ — لا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ... البقرة ٢٥٦

٢ — قُلْ يَٰأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ...

يونس ١٠٨

٣ — ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ...

النحل ١٢٥

وأما من ناحية سير الجهاد ووقائعه فقد كانت ضمن المبادئ القرآنية ؛ فكل سرية أو بعث أو غزوة وقعت فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم إنما كانت ردا على عدوان وانتقاما منه ، أو دفعاً لأذى ، أو تنكيلا بناكث أو غادر ، أو تأديباً لبغاة أشرار ، أو ثأرا لدم إسلامى أهدر ، أو ضمانة لحرية الدعوة والاستجابة المهددتين أو المعطلتين بغياً وعدواناً .

ولا يمكن أن يكون قد وقع من النبي صلى الله عليه وسلم نقض للمبادئ التى قررها القرآن وبلغها النبي بطبيعة الحال ، والتى استمرت ترى فى الآيات القرآنية فى مختلف أدوار السيرة النبوية فى عهديها إلى آخرها ؛ ولقد وقع مرة أن حصل سوء تفاهم بين قائد إحدى السرايا وبعض العرب الذين أظهروا الإسلام أو المسالمة ، فظن القائد أنما كان ذلك خدعة فلم يقبل منهم وقتل بعضهم وغنم ماشيتهم ، فغضب النبي أشد الغضب ، ولم يلبث أن أوحى بآية قوية رائعة فيها عتاب على عدم قبول ظواهر الناس كما ترى فيها :

« يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا

فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ... النساء ٩٤

والمشركون كانوا يدخلون فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، فشددت الآيات بالوفاء لهم ماداموا محافظين على عهدهم غير غادرين به ، كما أنه كان هناك مشركون يلتزمون الحياد والمسالمة فى حرب بين المسلمين وبنى قومهم، فنبه القرآن إلى أنه لاسبيل عليهم ، على ماتدل عليه آيات عدة أوردنا بعضها قبل قليل . ولم يرد فى الروايات خبر وثيق بأن النبى صلى الله عليه وسلم رفض طلب صلح أو عهد أمان من أعداء محاربين ، كما أنه لم يرد خبر بأنه قاتل أناساً مسالمين وحياديين دون سبب مبرر بدا منهم ، مما هو متسق مع المبادئ والتلقينات القرآنية التى لاشك فى أنه أشد المسلمين وأصدقهم تمسكا بها ، والتزاماً لها .

— ١٠ —

وعلى ماتقدم سنصنف الآيات على حسب النوعين اللذين أشرنا إليهما ، وسيكون الفصل والحالة هذه مؤلفا من مبحثين :

الأول : الدعوة إلى الجهاد بالمال والنفس ، ومواقف المسلمين منها

الثانى : الوقائع الجهادية وسيرها ونتائجها .

المبحث الأول

الدعوة إلى الجهاد ومواقف المسلمين منها

الطريقة فى استعراض الآيات - آيات سورة الحج . مداها - مبادىء وأوامر وصور جهادية من سورة البقرة - سلسلة فى الحث على الانفاق فى سبيل الله ومبادئه وما فيها من صور - مبادىء وصور من سورة النساء - من سورة المائدة - من سورة الأنفال - من سورة براءة - من سورة محمد - مبادىء فيما يقع من قتال بين المسلمين من سورة الحجرات - مبادىء وصور من سورة الحديد فى موضوع الانفاق فى سبيل الله - مبادىء وصور من سورة الممتحنة - من سورة الصف -

— ١ —

إن آيات الدعوة إلى الجهاد بالمال والنفس متصلة بسياق واحد على الأكثر، ولذلك فإننا سنورد الآيات متسلسلة على حسب ترتيب السور المدنية فى المصحف، ونشرح مداها وما تنطوى عليه من مبادئ بدون تفريق ؛ ونريد أن نستثنى من هذا الترتيب آيات سورة الحج ٣٨ - ٤١ التى أشرنا إليها قبل قليل ؛ فإن هذه الآيات هى أولى الآيات التى نزلت فى مبادئ الجهاد على ماذهب إليه الجمهور وما يلهمه مضمونها وصيغتها ، وقد تضمنت مبدأ أساسيا من مبادئ الجهاد ، كما أن السورة مما اختلف فى مكيته ومدنيته وإن كان المتفق عليه أن الآيات مدنية .

والآيات صريحة الدلالة على اعتبار المسلمين فى موقف المظلوم المبغى عليه ، وتقرير حقهم على الانتصار والدفاع ؛ وهذا هو أحد الحدود الأساسية للجهاد فى الإسلام كما أشرنا إلى ذلك فى التمهيد ؛ وجميع الآيات الجهادية ظلت فى نطاق هذا الحد كما أنه لا ريب فى أن النبى صلى الله عليه وسلم التزمه بدقة تامة .

ويلفت النظر فى الآيات إلى نقطتين جليلتى الشأن والتلقين المستمر ، أولاهما تعليل المبدأ وهو حق المبغى عليه بالدفاع ، وأن دفاع الناس عن أنفسهم وحريتهم ونضالهم فى سبيل دفع الأذى عنهم هو من السنن القويمة التى لابد منها فى حياة البشر والاجتماع ، وضمانة الحريات الدينية وغير الدينية ؛ وثانيتهما تقرير أن تمكين المسلمين المبغى عليهم فى الأرض ، ونصرهم على ظالميهم والمعتدين عليهم ، من شأنهما تيسير إقامة حكمهم

الصالح على أساس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مما ينطوى فيه جماع صفات هذا الحكم وضروراته.

وإليك الآن الآيات الأخرى المتصلة بهذا المبحث متسلسلة كما قلنا على حسب ترتيب سورها :

- ٢ -

(١) فى سورة البقرة الآيات التالية :

« ولا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ ولَكِن لَا تَشْعُرُونَ . ولَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ والْجُوعِ ونَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ والْأَنفُسِ والثَّمَرَاتِ وبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ ورَحْمَةٌ وأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ... ١٥٤ - ١٥٧

وقد احتوت إعدادا للمسلمين لما يمكن أن يصابوا به من خسائر وآلام ، وحثهم على الصبر والتحمل وتبشيرهم بالعاقبة ، وطمأنتهم بأن الذين يقتلون فى سبيل الله أحياء مكرمون عند الله.

والآيات تلهم أنها نزلت عقب حادث صدام بين فريق من المسلمين وآخر من الكفار ، وأن بعض المسلمين قد استشهد فيه ، وأنه كان لذلك أثر مرير إلى حد ما فى نفوس بعضهم أو ذويهم ، فاقتضت الحكمة نزول الآيات تستهدف ما قررناه من أهداف متصلة بمعنى الدعوة للجهاد والإعداد له ، بهذا الأسلوب القوى النافذ إلى أعماق النفس.

(٢) وفى السورة نفسها الآيات التالية :

« وقَاتِلُوا فى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ولا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . واقْتُلُوهُمْ [١] حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ

---

(١) الضمير راجع إلى « الذين يقاتلونكم ».

أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَـٰفِرِينَ . فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى الظَّـٰلِمِينَ . الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ[١] فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ . وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ...

١٩٠ – ١٩٥

وقد احتوت أمراً للمسلمين بقتال الذين يقاتلونهم من الكفار ، وباعتبار ما كان من هؤلاء من فتنة المسلمين وأذيتهم واضطرارهم إلى الخروج من وطنهم بدءاً بالعداء يبرر للمسلمين قتالهم ، وقد نهت عن قتالهم عند المسجد الحرام أو فى الشهر الحرام إلا إذا بدأوهم بذلك ، إذ يصبح من حقهم المقابلة بالمثل ، كذلك احتوت حثا على الإنفاق فى سبيل الله ، وتحذيراً من البخل الذى يؤدي حتما إلى الخطر والتهلكة بإهمال الاستعداد لمقابلة البغى والعدوان .

وهذه المجموعة وإن كانت تحمل من حيث سبب نزولها المباشر طابعا محليا لأن المقصود فيها قتال مشركى مكة ، فإنها يصح أن تعتبر ثانى مجموعة احتوت مبادئ عامة فى الجهاد الإسلامى جليلة الشأن مستمرة التلقين . وما نزل من الآيات بعدها ظل ينزل فى نطاقها باستثناء تطور قليل فى مبدإ القتال فى الشهر الحرام والمسجد الحرام على ما سوف نشرحه بعد قليل . كما لا يمكن أن يكون محل شك ومماراة أن النبى التزمه بكل دقة أيضا .

ويلفت النظر خاصة إلى نقطتين مهمتين فى الآيات : أولاهما اقتصار أمر القتال على الذين يقاتلون المسلمين وعدم العدوان ، ومعنى هذا أن المسالم والحيادى والذين

(١) القصاص بمعنى الانتقام أو المقابلة بالمثل ، والآية تعنى أن للمسلمين أن يقابلوا العدوان بمثله ، وفى الشهر الحرام إذا وقع عليهم فى الشهر الحرام .

لا يبدو منهم أى موقف مؤذ لا يصح قتالهم، كما لا يصح للمسلمين أن يبدأوا أحداً بعداء أو عدوان؛ وثانيتهما الحث على الإنفاق وعدم التعرض للخطر بالبخل، وينطوى فى هذا احتمال امتناع العدو عن العداء والقتال فى حال ما إذا كان المسلمون يقظين مستعدين لكل طارئ، وتقرير أن القتال ليس أصلا وإنما هو ضرورة يحسن أن تدفع بأيسر الأسباب وهو الاستعداد.

(٣) وفى السورة نفسها الآيات التالية:

« كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ. يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... ٢١٦ - ٢١٨

وهذه المجموعة مثل سابقتها تحمل طابعا محليا من حيث سبب نزولها المباشر، غير أنها تتضمن مبادئ عظيمة دائمة الإلهام والتلقين فى الجهاد الإسلامى، فالقتال غير محبب للنفس ولكنه ضرورة لا مندوحة عنها للدفاع، ومن أجل هذا كتب على المسلمين، أى فرض عليهم كركن من أركان الإسلام مع علم الله بكرههم له؛ والحرية الدينية فوق كل شىء، والاضطهاد الدينى أشد من القتال، وهو سبب شرعى لإقدام المسلمين على الجهاد، وكل ما قد يكون مقدسا من التقاليد هين فى سبيل ضمان تلك الحرية وقمع هذا الاضطهاد؛ والذين يستهينون بحرمة المقدسات فيضطهدون غيرهم. ويحولون بينه وبين حريته الدينية، ويفتنونه عن دينه فى ظل هذه المقدسات، يقابلون

على عدوانهم وبغيهم دون أن يسمح لهم بالاحتماء بهذه المقدسات، ولقد كان هذا مما بدا من مشركى مكة فى الشهر الحرام والمسجد الحرام، فلا ضير على المسلمين فى مقابلتهم على بغيهم فيهما أيضا.

وهذه الفقرة الأخيرة هى التى عنيناها بالتطور القليل الذى نبهنا إليه فى الفقرة السابقة؛ إذ نهت آيات المجموعة السابقة عن قتال المشركين عند المسجد الحرام وفى الشهر الحرام إلا إذا بدأوهم بذلك، ومع ذلك فضمون الآيات يلهم أن المشركين بما كان منهم من بغى وأذى ضد المسلمين فى العهد المكى دون أن يرعوا حرمة البيت الحرام والشهر الحرام، قد اعتبروا بادئين بذلك.

ومما هو جدير بالتنبيه فى صدد هذه المجموعة وسابقتها، ومجموعة سورة الحج، أن كلا منهما قد احتوى تعليلا قويا ورائعا لما تضمنه من حث ودعوة وإذن، شأنها فى هذا شأن كثير من المجموعات القرآنية التى احتوت أمرا ونهيا وتشريعا، بل ترغيبا وترهيبا.

كذلك ننبه إلى أن المجموعات الثلاث تلهم أنها نزلت بمناسبة اشتباكات بين المشركين والمهاجرين المسلمين، وأثير حول بعضها ضجة، مما سوف نعود إليه فى مبحث الوقائع.

(٤) وفى السورة نفسها الآيات التالية:

« وَقَـٰتِلُوا فى سَبِيلِ اللهِ وَٱعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. مَّن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ... ٢٤٤ - ٢٤٥

وقد احتوت حثا على القتال والإنفاق فى سبيل الله؛ ولقد أعقبها سلسلة من الآيات ٢٤٦ - ٢٥١ فيها قصة ما كان من بنى إسرائيل من بعد موسى، ورغبتهم فى قيام ملك يقاتلون تحت لوائه انتصارا مما يقع عليهم من عدوان، ثم ما كان من تردد أكثرهم وجبنهم، وثبات فئة قليلة منهم وانتصارها على جالوت وجنوده تحت لواء طالوت [١]، وانتهت بتبرير الحرب الدفاعية وأنها مانعة لاستشراء البغى والفساد فى الأرض؛ وكل هذا قد يلهم أن الدعوة إلى الجهاد بالنفس والمال كانت تقضى ضرب الأمثال وإيراد القصص، ليكون من ذلك حافز للمسلمين عامة والمخلصين

---

(١) جالوت تعريب جليات وطالوت تعريب شاؤول.

خاصة ، وزاجر للترددين والمقترين ، ويتبادر لنا أنه ينطوى فى هذا صورة لموقف بدا من بعض المسلمين إزاء الدعوة إلى الجهاد مما تكررت الإشارة إليه بصراحة أكثر فى آيات أخرى .

— ٣ —

(٥) وفى السورة نفسها سلسلة رائعة فى الحث على الإنفاق فى سبيل الله وهى هذه :

« مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ . يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَٰتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَٰفِرِينَ . وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ . يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّا أَن

تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد. الشيطن يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله وٰسع عليم. يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألبٰب. وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظٰلمين من أنصار. إن تبدوا الصدقٰت فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير. ليس عليك هدٰهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون. للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيمٰهم لا يسألون الناس إلحافا وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم. الذين ينفقون أموٰلهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ... ٢٦١ - ٢٧٤

وفي هذه السلسلة كذلك تلقينات ومبادئ عامة مستمرة المدى ، إلى ما فيها من إلهام لسبب نزولها المباشر الذي ينطوي فيه صور عدة للمسلمين إزاء الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله ؛ إذ تدعم ماقلناه من أن الجهاد إنما كان يقوم على التطوع والتبرع ، كما تلهم أنه كان فريق من المسلمين ينفق بالليل والنهار سرا وعلانية استجابة للدعوة وابتغاء لمرضاة الله على حين كان فريق منهم يتثاقل في الاستجابة ، ويرفق ماينفقه بالمن وسوء الأدب في القول ، وفريق آخر يضن بأجود غلته ولا يتصدق إلا بالردىء منها ؛ وكذلك تلهم أنه كان هناك فريق فرغ نفسه للجهاد في سبيل الله وانقطع عن الضرب في الأرض واكتساب الرزق فمسته الحاجة والفقر ولكنه مع ذلك تعفف عن سؤال الناس ؛ أما المبادئ والتلقينات العامة التي احتوتها

فهى إيجاب الإنفاق فى سبيل الله دون من ولا أذى فى القول ولا مراءاة للناس ، والإنفاق من الغلات الجيدة دون الرديئة ، وتفضيل إخفاء الصدقات التى تعطى للفقراء على إعلانها ، وإيجاب القيام بأود الفقراء الذين يتفرغون للخدمة فى سبيل الله ويمنعهم ذلك عن التكسب ولو تعففوا عن السؤال والكشف عن عوزهم .

والآية ٢٧٢ خاصة تلفت النظر فى المبدأ الذى احتوته تلقينا والصورة التى تلهم أنها منطوية فيها واقعيا ؛ فمساعدة الفقراء واجبة لذاتها دون أى اعتبار ، ولا يصح لامرئ أن يمسك يده عنها ولو كان المحتاج على غير رأيه وملته وطريقته أو كان بينه وبينه ضغينة أو شنآن ؛ وهذا مبدأ رائع من حيث المعنى الإنسانى المجرد عن أى ملابسة ؛ ويبدو أن بعض المسلمين كانوا يمسكون أيديهم عن مثل هؤلاء فوردت الآية فى السلسلة لتكون مرشدة إلى أفضل الطرق وأكرم الخلال [١] ، ولتقرر أن المسلم إنما يفعل الخير لنفسه وابتغاء وجه الله ، والله يعلم نيته ويجزيه عليه .

— ٤ —

٦ - وفى سورة النساء الآيات التالية :

« يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا . وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا . وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا . فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا . وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَٰنِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا

(١) مما ذكره المفسرون والرواة أن الآية نزلت بمناسبة تردد بعض المسلمين فى التصدق على الفقراء من ذوى قرباهم من المشركين أو الكتابيين بقصد إرغامهم على الاسلام

مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا . الَّذِينَ ءامَنُوا يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ والَّذِينَ كَفَرُوا يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ الطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَـٰنِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ...

٧١ - ٧٦

وفى الآيات صورة لموقف فريق من المسلمين - نرجح أنه ليس من المنافقين - كان يجنح إلى التثبيط والتثاقل والتربص ، وصورة أخرى أشرنا إليها من قبل وهى صورة المستضعفين من المسلمين الذين لم يتمكنوا من الهجرة من مكة وظلوا تحت يد ذويهم الأقوياء واضطهادهم ، وكانوا شاعرين بشدة وطأة الاضطهاد ، ويدعون الله أن يخلصهم ؛ وقد احتوت الآيات حثا للمسلمين على النفرة إلى القتال فى سبيل الله ثم فى سبيل إنقاذ هؤلاء المستضعفين الذين ينتظرون فرج الله ، وتنديدا بالذين يستثقلون الدعوة إلى هذا وذاك ، وتهويناً لأمر المشركين الذين إنما يقاتلون فى سبيل الباطل والشيطان على حين يدعى المسلمون إلى القتال فى سبيل الله ، والله قوى عزيز والشيطان ذليل ضعيف ؛ وروح الآيات تلهم أن الاستنفار إنما هو لقتال أعداء محاربين من جهة وصادين عن سبيل الله ومضطهدين للمستضعفين من جهة أخرى ؛ والأرجح أن هؤلاء المستضعفين كانوا يرسلون بأخبارهم إلى النبي وإخوانهم فى المدينة ويستغيثون ، فيزيد هذا فى اهتمام النبي والمخلصين فى اتخاذ الوسائل التى من شأنها إرغام مشركى مكة على الارعواء وعدم الاسترسال فى البغى والأذى .

والآيات إلى هذه الأسباب المتصلة بالواقع من عهد السيرة النبوية احتوت مبادئ مستمرة الإلهام والتلقين ؛ سواء فى إيجاب الاستجابة إلى دعوة قتال الأعداء دون توان أو تثاقل ، أو فى إيجاب العمل على تخليص المضطهدين من المسلمين وإنقاذهم ودفع الأذى والاضطهاد عنهم ؛ وفى الآيات تشجيع نافذ على الإقدام على الجهاد ، من شأنه أن يدفع بالمؤمن إلى تقبل كل تضحية فيه راضياً مطمئناً ، وأن يبعث الطمأنينة فى قلبه بنصر الله وتأييده .

(٧) وفى سورة النساء الآيات التالية أيضاً :

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وءاتُوا

الزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا القِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَـٰعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا . أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ المَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَـٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَـٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللهِ فَمَالِ هَـٰؤُلَاءِ القَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ... ٧٧ - ٧٨

وقد احتوت إشارة إلى حادث شرحناه فى مبحث محنة الأذى فى العهد المكى ، وتنديداً بالذين استثقلوا تعجيل صدور الأمر الربانى بالقتال خائفين من العواقب الدنيوية ؛ وفيها صورة غير مستحبة لموقف بعض مسلمين - يرجح أنهم من غير المنافقين - من الدعوة إلى الجهاد ، ولعلها تلهم أن بعض المهاجرين اندمجوا فيه أيضا ؛ لأنها تحكى ما كان من استئذان فريق من المسلمين فى مكة بالمقابلة على الأذى وتصبيرهم ، وتقول إن فريقا منهم من الذين استثقلوا تعجيل الأمر بالقتال ؛ ولعل الذين اندمجوا فى هذا الموقف من المخلصين كانوا يرون أن قوة المسلمين ما تزال ضعيفة لا تقوى على فتح باب لا يغلق إذا فتح ، فعد هذا منه مما يستحق التنديد ، لأن المسلم المخلص يبيع نفسه فى سبيل الله ولا يبالى شيئاً آخر ؛ وعلى هذا يصح أن يقال بشىء من الجزم إن هذا الفصل القرآنى قد نزل فى أوائل الهجرة النبوية ، وعلى أثر تسيير النبى للسرايا ونزول آيات الإذن بالقتال والأمر به .

وفى الآيات تلقين مستمر المدى فى الحث على الجهاد وعدم التردد فيه ، وعدم الخشية من الموت والعواقب مادام فى سبيل الله .

(٨) وفى السورة نفسها الآيات التالية :

« فَمَا لَكُمْ فِي المُنَـٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا . وَدُّوا

لوْ تكفرُونَ كما كفروا فتكونونَ سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجرُوا في سبيل الله فإنْ تولوْا فخذوهمْ واقتلوهم حيثُ وجدتموهمْ ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا . إلا الذين يصلون إلى قوم بينكمْ وبينهم ميثاقٌ أو جاءوكمْ حصرت صدورهم أنْ يقاتلوكمْ أوْ يقاتلوا قومهمْ ولوْ شاء الله لسلطهمْ عليكمْ فلقاتلوكمْ فإن اعتزلوكمْ فلمْ يقاتلوكمْ وألقوْا إليكمُ السلمَ فما جعلَ الله لكمْ عليهمْ سبيلا . ستجدُونَ آخرينَ يُريدُونَ أنْ يأمنوكمْ ويأمنوا قومهمْ كلّ ما ردّوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لمْ يعتزلوكمْ ويلقوا إليكمُ السلمَ ويكفّوا أيديهمْ فخذوهمْ واقتلوهمْ حيثُ ثقفتموهمْ وأولئكمْ جعلنا لكمْ عليهمْ سلطانا مبينا ...

٨٨ - ٩١

وقد احتوت الآيتان الأوليان ما كان من انقسام رأى المسلمين فى أمر المنافقين والموقف الذى يجب أن يقفوه منهم إذا لم يخلصوا ويتضامنوا مع المسلمين قلبا وقالبا ، على ما شرحناه فى فصل المنافقين مما لا حاجة إلى إعادته ؛ أما الآيتان الأخريان فقد احتوتا صوراً لمواقف غير المسلمين من النبي والمسلمين، إذ تلهمان أنه كان هناك أربع حالات لغير المسلمين إزاء المسلمين : حالة حرب وعداء ، وحالة ميثاق صلح وسلام ، وحالة رغبة اعتزال فريق منهم حرب المسلمين مع قومهم ووقوفهم موقف الحياد والمسالمة ، وحالة فريق مخادع يريد أن لا يغضب قومه المحاربين ولا المسلمين حتى يأمن الفريقين معاً ؛ وقد احتوتا تقرير ما يجب على المسلمين إزاء كل حالة من الحالات : فالحرب للمحارب ، والوفاء للمعاهد ، والسلم للمسالم ، وعدم الطمأنينة للمخادع إلا إذا اعتزل القتال وجنح إلى السلم على وجه يدعو إلى الطمأنينة ، وقتاله إذا لم يفعل واعتباره عدوا محارباً ؛ والروعة والحق وبعد المدى فى هذا التقرير قوية مشرقة ؛ وفى الآيات مبادئ جليلة محكمة ظلت هى الناظم فى العهد النبوى لحركة الجهاد وأهدافه .

(٩) وفى الآية (٩٤) التى نقلناها فى التمهيد من سورة النساء مبدأ جليل من مبادئ

الجهاد الإسلامى فيه رد مفحم على من يزعم أن هذا الجهاد إنما كان وسيلة للغنائم ؛ وفيه أمر بقبول الظواهر من الناس دون تشدد ، بحيث يقبل السلام والإسلام من كل من يعلنه ، ويكف عنه : وهو من المبادئ المحكمة المستمرة التلقين ؛ وهذا بالإضافة إلى ما فيها من صورة واقعية من صور الجهاد ، وتصرف بعض المسلمين فيها تصرفا اقتضت الحكمة التشديد فى النهى عنه وحظره ، حتى لا يشوب الجهاد الإسلامى شائبة لا تلائم أهدافه ودواعيه .

١٠ - وفى السورة نفسها هذه الآية :

« لَا يَسْتَوِى الْقَٰعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَٰهِدِينَ عَلَى الْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ...

٩٥

وقد احتوت تمييزاً للمجاهدين على القاعدين بسبيل الحث على الجهاد ، واحتوت صورة لما كان عليه الأمر عند نزولها ، وهو اعتبار الجهاد فضيلة أو فرض كفاية لا يجب على جميع المسلمين ، والتساهل فى قبول أعذار المعتذرين عنه ، ثم كون الجهاد قائماً على التطوع والترغيب والترهيب ؛ ولما كان هناك آيات كثيرة فيها حملات شديدة على المتخلفين والقاعدين والمبطئين والمتثاقلين والمعتذرين ، وفيها أوامر حاسمة بالقتال والجهاد ، فإنه يصح أن يقال إن هذه الآية من أول ما نزل من آيات الجهاد ، وإن الآيات التى أشرنا إليها قد كانت بمثابة نسخ أو تعديل لها .

١١ - وفى السورة نفسها الآية التالية أيضاً :

« وَلَا تَهِنُوا فِى ٱبْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ...

١٠٤

وقد احتوت حثا على الاستمرار فى مجاهدة العدو ، بأسلوب قوى التلقين دائم

المدى ؛ فإذا كانت الحرب مريرة فهى كذلك على المسلمين كما هى على أعدائهم ، مع الفارق العظيم بالنسبة للمسلمين الذين يقاتلون فى سبيل الحق والحرية وإعلاء كلمة الله ، ونفوسهم مطمئنة بحسن العاقبة مهما كانت ؛ والآية تلهم أن فريقا من المسلمين كان يشعر عند نزولها بمرارة الحرب وآلامها ، فاقتضت الحكمة الإيحاء بها لتكون معالجة نفسية لهذا الشعور .

- ٦ -

١٢ - وفى سورة المائدة الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ...

٥٤ - ٥٦

وقد جاءت هذه الآيات عقب آيات شرحناها فى فصل المنافقين ووصف ما كان من استمساكهم بولائهم لليهود خشية الدوائر فيما يزعمون؛ وهى بمثابة تعقيب على موقف المنافقين ، كما احتوت تصويراً قويا لعلاقة الجهاد بالإيمان ، وحثا بليغا عليه ، وتقريراً بأن المتأخرين عنه ، الذين يخافون الناس والعواقب ، يوشك أن يكونوا فى عداد المرتدين ؛ ويبدو من خلالها صورتان واقعيتان : أولاهما تضامن المخلصين مع النبى فى الجهاد إذ عدوا حزب الله ، وطلب من عامة المسلمين التأسى بهم ، وتوليهم دون غيرهم ؛ وتلهم ثانيتهما وجود فريق من المسلمين لا يستجيب إلى دعوة الجهاد استجابة حسنة ، محتجا بأعذار لا تتفق مع الإيمان والإسلام الصحيح .

١٣ - وفى سورة الأنفال الآيات التالية :

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا

ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ . لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ . وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ... ٣٦ - ٤٠

ولقد نزلت سورة الأنفال عقب انتصار المسلمين فى بدر الكبرى ، فتكون هذه الآيات تعقيبا على ذلك الانتصار ؛ وقد انطوى فيها صورة ما لاستعلاء المسلمين وشعورهم بالعزة بعد ذلك الانتصار ، كما احتوت عرض الصلح والتوبة على الكفار ، والانتهاء من موقفهم العدائى والجحودى ؛ ولهذا العرض بعد ذلك الانتصار معناه الرائع القوىّ كما هو واضح ؛ سواء من ناحية الشعور بالعزة أو من ناحية الرغبة فى الحلم عند القدرة ، أو من ناحية الاستفادة من فرصة انكسار الكفار ؛ وقد احتوت الآية (٣٩) تقريراً لحدّ رئيسى من حدود الجهاد فى الإسلام ، وهو قتال الأعداء المحاربين إلى أن تزول قدرتهم على الفتنة والصدّ عن سبيل الله ، أو ينتهوا عن موقفهم العدائى الباغى .

ومع خصوصية نزول الآيات المباشرة فإن ما احتوته من تقريرات مما يدخل فى سلك المبادئ الجهادية المستمرة التلقين ، وخاصة هدف الجهاد الذى هو ردّ البغى ووقفه عند حدّ تضمن به حرية الدعوة ، والتساهل مع من يجنح إلى الارعواء والانتهاء من موقف العداء والبغى .

- ٧ -

١٤ - وفى سورة الأنفال الآيات التالية أيضا :

« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ

عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ . فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ . وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ . وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ . وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ . وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ... ٥٥ - ٦١

إذ احتوت تعليما لما يجب أن يكون مع الناكثين للعهد ومع من يخشى غدره وخيانته من المعاهدين ؛ فالناكثون يجب أن يحاربوا ، ومن يخشى غدره وخيانته يجب أن يحذر ويقابل بالمثل ، ومع ذلك فإن جنح أولئك أو هؤلاء إلى السلم فيجب أن يجنح إليها معهم أيضا ، ومما يجب على كل حال أن يستعد للعدو بكل وسائل الاستعداد دونما تهاون أو بخل ، فني هذا إرهاب للعدو المعروف والعدو الماكر الذى لا تعرف حقيقة أمره قد يغنى عن الاشتباك .

وفى كل هذا مبادئ جليلة للجهاد الإسلامى وأهدافه متسقة مع ما نبهنا إليه من أن هذا الجهاد هو دفاع ومقابلة ، وتنكيل بغادر أو ناكث أو خائن ، وإرهاب للعدو ، وأن الأصل فيه أن يكون بقدرما تدعو الضرورة وحسب .

والآيات فى أصلها وسبب نزولها المباشر تتضمن - كما هو المستلهم من مضمونها وروحها - صوراً لواقع الحال فى العهد النبوى المدنى فوق ما تتضمنه من مبادئ وتلقينات جليلة مستمرة المدى ؛ إذ تلهم أنه كان ثمة كفار معاهدون لم يتورعوا عن نقض عهدهم مرة بعد مرة ، معاهدون تخشى خيانتهم ، وكما كان هناك أعداء متكتمون يتربصون الدوائر بالمسلمين زيادة على الأعداء العلنيين ؛ وهكذا تبدو صورة لما كان يحدق بالنبي والدعوة والمسلمين من أخطار ومكايد ، وما كانت

الحاجة والحكمة تقضيان به من اتخاذ الوسائل والاستعداد والحذر والإقدام فى سبيل دفع تلك الأخطار وإحباط هذه المكايد. ولقد ذكرنا فى فصل اليهود أن بعض هذه الصور متصلة بمواقف اليهود فى المدينة، فنكتفى هنا بالإشارة إلى ذلك.

١٥ - وفى سورة الأنفال أيضا الآيات التالية:

١ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ. وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ... ١٥ - ١٦

٢ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ... ٤٥ - ٤٦

وقد احتوت الأولى تشديداً بعدم التولى والفرار من المعركة حينما يتلاقى المسلمون مع الكفار الأعداء، إلا إذا كان هذا بسبب تدبير حربى، كما احتوت الأخرى حثا للمسلمين على الثبات أمام الأعداء وذكر الله إذ تمتلئ به نفوسهم قوة وطمأنينة، وأمراً بالطاعة لله ورسوله، وعدم التنازع لأن فيه الفشل والهزيمة. ومضمون الآيات وروحها يلهمان - على ما يتبادر - أنها نزلت أو نزل بعضها بمناسبة أخطاء أو مواقف خطرة أو غير مستحبة بدت من بعض المسلمين فى ظروف الوقعة، ولكن الله سلم فلم تكن ذات تأثير كبير فى المعركة ونتيجتها، فاقتضت حكمة التنزيل إنزالها لتكون معقبة ومنبهة للمسلمين السامعين من جهة، وتلقينا مستمر المدى للمسلمين فى كل آن ومكان من جهة أخرى.

١٦ - وفى سورة الأنفال أيضاً الآيات التالية:

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ

لا يَفْقَهُونَ . الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ واللهُ مَعَ الصَّٰبِرِينَ ... ٦٤ - ٦٦

وقد احتوت الآيتان الأولى والثانية أمراً للنبي بحث المسلمين على القتال، وطمأنة لقلبه بكفاية من معه من المسلمين المخلصين؛ وبشرى لهم باستطاعتهم أن يغلبوا عشرة أمثالهم من الكفار لأنهم يستمدون درنهم من إيمانهم واطمئنانهم بحسن العاقبة على كل حال، القوة والصبر والإقدام؛ أما الآية الثالثة فيبدو أنها نزلت بعد الثانية بمدة ما، وقد روى أن المسلمين خشوا أن تكون الآية الثانية تفرض عليهم مقابلة عشرة أمثال عددهم وعدم التولى والفرار من أمامهم، فنزلت بالتخفيف.

والآيات مما نزل عقب وقعة بدر، مثل معظم آيات السورة، وقد تلهم أن ما احتوته إنما هو ترديد لما كان من سير وقعة بدر ونتيجتها الباهرة، إذ ثبت مع النبى المسلمون المخلصون من المهاجرين والأنصار وانسحب المنافقون، وإذ قابلوا ثلاثة أمثالهم عدداً من كفار قريش ونصروا عليهم.

(١٧) وفى السورة نفسها الآية التالية أيضاً:

« إِنَّ الَّذِينَ ءامَنُوا وهَاجَرُوا وجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وأَنفُسِهِمْ فى سَبِيلِ اللهِ والَّذِينَ ءاوَوْا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ والَّذِينَ ءامَنُوا ولَمْ يُهَاجِرُوا ما لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فى الدِينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ... ٧٢

وهى تؤكد واقع الأمر من تبادل الولاء والنصر وإيجابهما بين الأنصار والمهاجرين دون الذين لم يهاجروا من المسلمين، وتحتوى صورة أخرى من صور واقع الحال، وهى وجود مسلمين متخلفين فى دار الكفر عن الهجرة واللحاق بدار الإسلام فى المدينة، وكان تخلفهم بإرادتهم. وقد احتوت الآية تعليماً للنبى والمسلمين من المهاجرين والأنصار للموقف الذى يجب أن يقفوه منهم؛ فليس عليهم أى واجب من ولاء أو تضامن مع المتخلفين فى الشؤون العادية، مادام تخلفهم قد كان بإرادتهم وارتضوا

لأنفسهم الانفراد فى دار الكفر ، لأن هذا الواجب إنما هو بين المسلمين الذين جمعت بينهم وحدة الدار والجهاد ، وحفزهم إخلاصهم لدينهم إلى ترك دار الكفر ولو خسروا أموالهم ونأوا عن وطنهم وذوى أرحامهم ؛ أما إذا وقع على المتخلفين اضطهاد بسبب دينهم ، واستغاثوا بهم ؛ فعليهم أن يسرعوا إلى نجدتهم إذا لم يكن بينهم وبين المستنصر عليهم ميثاق وعهد ؛ أى أنه لاينبغى للمسلمين أن ينقضوا ميثاق عهد بينهم وبين الكفار حتى ولو اضطهد هؤلاء إخواناً لهم اضطهاداً دينيا فضلا عن الاضطهاد غير الدينى ! ومع أن من المحتمل أن يكون هذا التعليم قد استهدف حمل المتخلفين على الإسراع فى الهجرة ، فإن ما فيه تشديداً على احترام العهود والمواثيق بالغ الروعة ، يدل على ما كان يستهدفه التنزيل القرآنى من ذلك الاحترام وترسيخه فى نفوس المسلمين ؛ ولا يمارى إلا مكابر فى أن النبى والمسلمين قد التزموا ذلك بكل دقة . وإطلاق الآية يجعل ما تضمنته من التعليم مستمر التلقين ببالغ روعته وعظيم مداه وهدفه كما هو واضح .

— ٩ —

(١٨) فى سورة التوبة الآيات التالية .

« بَرَاءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ . فَسِيحُوا فِى الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِى الْكَـٰفِرِينَ . وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . إِلَّا الَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ . فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ

وَٱقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا
سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... ١ - ٥

ومعظم فصول سورة التوبة مما نزل فى أواخر العهد المدنى ؛ وهذه الآيات تلهم أنها مما نزل بعد الفتح المكى بمدة ما ؛ واستثناء المشركين المعاهدين الذين يظلون أوفياء لعهدهم دون ما كيد ولا نقض من البراءة ، والأمر بالوفاء معهم إلى مدتهم ، قرينة حاسمة على أن المقصود من البراءة المشركون المعاهدون الذين لم يفوا بعهودهم ، ونكثوا أو ظهر منهم ختل وتلاعب فيها ؛ كما أنه قرينة حاسمة على أن الآية الأخيرة هى بصدد هؤلاء فحسب ؛ وليس معنى هذا أن مدى الأمر الذى احتوته لا يتناول المشركين المحاربين ، فإن الاستمرار فى قتال هؤلاء غرض أصيل لا يحتاج إلى أمر جديد بطبيعة الحال ؛ وهكذا يبدو من خلال الآيات أنه كان بعد الفتح المكى مشركون معاهدون موفون بعهدهم ، ومشركون معاهدون ناكثون فيها ، زيادة على المشركين المحاربين.

والآيات قد احتوت مبادئ بالنسبة للمشركين المعاهدين الموفين والغادرين ؛ فالغادرون يقاتلون باستمرار إلى أن يتوبوا ويرعووا ويسلموا ، والموفون يوفى معهم إلى مدتهم ؛ وحينئذ إما أن يتجدد العهد معهم أو يعودوا إلى الموقف الذى كانوا عليه قبل العهد وهو موقف المحارب المعتدى ؛ ومما لا ريب فيه أن هؤلاء هم على بينة من هذا الأمر ، وأنهم يعرفون أن الميثاق القائم بينهم وبين المسلمين إنما هو ميثاق هدنة سلم وصلح موقوتة الأجل ؛ ومما لا ريب فيه أن هذه المبادئ هى التى كانت ناظماً للموقف بين المسلمين والمعاهدين ، كما أنها غدت تشريعاً مستمر المدى .

ولقد يرد سؤال عما إذا كان مبدأ قتال المشركين المحاربين أو المعاهدين الناكثين منهم إلى أن يسلموا لم يأت ناسخاً أو معدلا للمبادئ والتقريرات القرآنيـة السابقة من أنه لا إكراه فى الدين ، ومن أن غاية الجهاد هى رد بغى المشركين وعدوانهم إلى أن ينتهوا عن موقفهم وتتوطد حرية الدعوة والمسلمين ؟

ومع أن عبارة الآية الرابعة قد تتحمل هذا المدى فإن المتبادر من روح ومضمون الآيات جميعها أنها لم تلغ مبدأ التعاهد ، فضلا عن أنها لم تلغ مبدأ عدم قتال المسالمين والحياديين وغير المحاربين ؛ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فما دامت الحرب مع

المشركين قد كانت فى أصلها ردا على عدوان ، ومقابلة على بغى وصد وأذى ، وما دام استئنافها مع المعاهدين الناكثين إنما كان بسبب هذا النكث الذى يتضمن معنى العدوان والبغى أيضاً - فليس بما يتحمل نقداً أو مماراة أن يكون المسلمون فى الخيار بحيث لايقبلون منهم عهدا ، أو بالأحرى بحيث لايطمئنون إلى عهد جديد منهم ، ولا يرون ضمانة إلا إسلامهم وانتهاءهم من موقف المحارب المناوئ والخائن المتربص . وفى آيات أخرى قريبة من هذه الآيات سنوردها بعد تدعيم قوى لما نقول .

ولقد قلنا إن الآيات تلهم أنها نزلت بعد الفتح المكى ، استلهاماً من الآية الثالثة التى تلهم أن البراءة أو الأذان قد أذيع يوم الحج الأكبر ، وطبعاً لا يمكن أن يكون هذا إلا إذا كان المسلمون هم أصحاب الأمر فى الحج . وقد أيدت الروايات هذا ، وذكرت أن البراءة أذيعت فى السنة التاسعة التى تولى فيها إمارة الحج أبو بكر الصديق رضى الله عنه بأمر النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وفى هذا وتؤيده الآيات صورة من العهد ، إذ يبين منها ما صار إليه الإسلام من قوة ونفوذ بعد الفتح . وفيها إلى ذلك صورة لقوة وصدق المبادئ القرآنية إذ استمر القرآن يحث على الوفاء من ناحية ، ويشجع على التوبة ويعد بالعفو عما سلف من ناحية مع ما صار للمسلمين من قوة بأس ، وعزة جانب ، وشيوع سلطان وكلمة ؛ وفيها أيضاً صورة ثالثة وهى أن المعاهدين الذين ظلوا أوفياء والمعاهدين الناكثين من المشركين هم غير أهل مكة الذين خضعوا لسلطان الإسلام ودانوا به عقب الفتح ؛ وقد روت الروايات أسماء قبائل من العرب فى منطقة مكة ، ونرجح أن فيهم أهل الطائف التى لم يتمكن النبى من فتحها حينما حاصرها عقب الفتح والتى لم تكن فتحت حينما نزلت الآيات بالبراءة على الأرجح .

ولما كانت الآيات قد نزلت كما قلنا فى أواخر العهد المدنى أو قبل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بنحو عام فقد صح أن يقال إن حرمة الأشهر الحرم وتحريم القتال فيها قد ظلا من المبادئ القرآنية المكررة : وكل ما صار من أمر هو تحليل القتال فيها ضمن الرخصة والضرورة اللتين ذكرتا فى آيات البقرة ١٩٤ و ٢١٧ على ما شرحناه فى مطلع هذا المبحث .

١٩ - وفى سورة التوبة الآية التالية أيضاً :

« وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ... ٦

وهى تأمر النبى صلى الله عليه وسلم بإجارة من يريد أن يأتى إليه ويسمع منه ، وبإعادته إلى مأمنه سالما ؛ وقد روى أن بعض المشركين الذين كانوا يودون الوفادة على النبى صلى الله عليه وسلم تخوفوا من البراءة التى أذيعت يوم الحج الأكبر وذكروا ذلك لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، فنقله إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فنزلت الآية ؛ وليس فى الرواية مالا يتسق مع مدى الآية ؛ وهكذا يكون قد انطوى فى الآية صورة لما صار إليه أمر المسلمين من قوة وعزة وهيبة ، ولما صار ينبثق فى نفوس العرب من رغبة فى الوفادة على النبى صلى الله عليه وسلم والاستماع إليه بعد أن انهدم الستار الكثيف بينهم وبينه بالفتح المكى .

٢٠ - وفى سورة التوبة كذلك الآيات التالية :

« كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ . كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ . اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ . فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ . أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ

أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ...

٧ - ١٦

وفى هذه الآيات تدعيم لما قررناه قبل قليل ، وتنظيم للموقف الذى وجب على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين أن يقفوه من المشركين المعاهدين ؛ فالذين لا يبدو منهم للعهد إخلاص خالص من كل شائبة كيد وغدر ، هم فى الحقيقة أعداء للمسلمين ، يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم خداعاً ، وهم المعتدون والصادون فى الأصل عن سبيل الله ، ولا يمكن أن يكونوا موضع ثقة واطمئنان إلا إذا تابوا عن شركهم وغدرهم وأسلموا وقامت أخوة الدين بينهم وبين المسلمين . وفى الآيات صور لواقع الحال إذ تلهم أنه كان هناك معاهدون مريبون فى تصرفاتهم ، ومعاهدون من منطقة المسجد الحرام لم يبد منهم أمارات نكث صريحة فأوجبت الآيات الوفاء لهم ماداموا موفين بالعهد للمسلمين ، أما إذا نكثوا وعادوا إلى بغيهم وصدهم فقد وجب عدم التوانى فى قتالهم لاسيما أنهم كانوا أعداء محاربين للمسلمين قبل العهد ، وهم الذين بدا منهم مابدا من بغى وصد واضطرار النبي إلى الخروج ...

ولقد تلهم الآيات أنها نزلت قبل الفتح المكى ، وأن المقصود بالمعاهدين عند المسجد الحرام أهل مكة ومن دخل فى صلحهم فى عهد الحديبية ، كما تلهم أنهم وإن لم تبد منهم أمارات نكث صريحة فإن هذا مما كان متوقعاً منهم : واحتمال نزول الآيات قبل الفتح وبالتالى قبل الآيات التى سبقتها من السورة ، يجعل التدعيم الذى أشرنا إليه للآيات التى نزلت بعد طبعاً ، والحالتان سواء ، لأن كلتا المجموعتين تدعم الأخرى كما هو المتبادر ؛ كما أن ذلك الاحتمال يجعل الصور التى تحتويها كل من المجموعتين مستقلة عن الأخرى ، وإن كانت متشابهة ؛ بحيث يصح أن يقال إنه كان

قبل الفتح معاهدون من المشركين مريبون ، ومعاهدون متظاهرون بالوفاء ؛ وإنه كان بعد الفتح أيضاً مثل ذلك ؛ وقد جاء التنظيم القرآني واحداً لكلا العهدين ، وهو الوفاء للموفين ، والتنكيل بالناكثين والمريبين ؛ والحض على قتال الناكثين قوي ، وفيه معالجة روحية امتزجت بشيء من العتاب والإنذار ، وينطوي في هذا صورة من صور موقف المسلمين من الدعوة إلى القتال ، إذ تلهم صيغة الآيات ١٣ - ١٦ أن بعض المسلمين كانوا يترددون في الاستجابة إلى داعي الجهاد ويتخوفون عواقبه ، ولعل هذا مما يقوي ما أشرنا إليه من أن أهل مكة هم المقصودون ، وأنه كان يتوقع منهم نكث صريح للعهد القائم بينهم وبين المسلمين . وسنورد بعد هذا آيات تقوي هذا الاستنتاج أيضاً .

٢١ - وفي سورة التوبة كذلك الآيات التالية :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ . قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ... ٢٣ - ٢٤

والمتبادر أن النهي الشديد الوارد في الآيات موجه إلى المهاجرين ، وأن الآيات نزلت قبيل الفتح المكي ؛ ويمكن أن تلهم أنها نزلت في ظروف أخذت تبدو فيها أمارات النكث بصلح الحديبية صريحة من أهل مكة ومن دخل في صلحهم ، وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يتهيأ لغزو مكة ويدعو إليه ؛ وفي هذا تدعيم للاستنتاج الذي استنتجناه في آخر الفقرة السابقة .

والآيات تدلنا من جهة أخرى على أن بعض المسلمين المهاجرين كانوا يقاسون أزمات نفسية في اضطرارهم إلى الوقوف من ذوي قرباهم موقف العداء ، وأن بعضهم كان رغم إخلاصه لا يستطيع أن يمنع نفسه من الاستشعار لصلة الرحم ما في ذلك من ضرر للمصلحة العامة ، وأن بعضهم كان يفعل ذلك محافظة على مع

ماله من مصالح مادية فى مكة ؛ ولعل هذا مما يفسر لنا سبب شدة الآيات ، ليكون الأمر محسوماً ومأمون الخطر ، لا سيما أن النبى صلى الله عليه وسلم كان على أهبة غزو مكة . وفى الآيات صورة لواقع الحال قبل الفتح ؛ إذ كان لبعض المهاجرين المسلمين آباء أو أبناء ما يزالون كفاراً فى مكة مندمجين مع أهلها فى موقف العداء من النبى والمسلمين وآبائهم وأبنائهم المهاجرين معه .

ولقد يتوهم البعض أن فى نهى الأبناء المسلمين عن اتخاذ آبائهم أولياء شيئاً من التطور أو التناقض ؛ إذ حثت الآيات المكية الأبناء المسلمين على حسن معاشرة آبائهم الكفار وعلى صحبتهم مع عدم طاعتهم فى أمر الكفر والشرك ، كما جاء فى آيات لقمان ١٤ - ١٥ والعنكبوت ٨ التى نقلناها فى مناسبة سابقة ؛ غير أننا لا نرى محلا للتوهم ، لحسن المعاشرة أو الصحبة شىء ، والتولى والتناصر شىء آخر ، لا سيما أن الحالة حالة حرب وعداء .

٢٢ - وفى سورة التوبة أيضاً الآية التالية :

« إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ... ١١١

وقد احتوت تقرير مبدأ إسلامى جهادى رائع وعام من الناحية الإيمانية ، وهو أنه حينما يؤمن المسلم يكون كأنه باع نفسه وماله لله ، وأن الله يكون اشترى ذلك منه بالجنة ؛ وبمعنى آخر : إن المؤمن لا يكون مؤمناً حقا إلا إذا أقدم بنفس طيبة على الجهاد بماله ونفسه حينما تدعو مصلحة الإسلام والمسلمين . وقد احتوت الآية طمأنة عظيمة للمسلمين ليقدموا على إجابة داعى الجهاد بكليتهم .

ولقد نزلت الآية فى ظروف غزوة تبوك وحين أوبة الحملة من الرحلة إلى المدينة كما يستلهم من سياقها ، وقد يكون فى هذه الظروف ما اقتضت الحكمة معها نزولها للتنويه بجيش المؤمنين الجرار الذى اشترك فى الحملة وإقدامهم وحسن استجابتهم ،

ولهذا صلة بمشاهد السيرة النبوية الجهادية كما هو واضح .

٢٣ - وفى السورة نفسها كذلك الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ . مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ... ١١٩ - ١٢١

وهذه الآيات مثل الآية السابقة نزلت فى ظروف غزوة تبوك وحين أوبة الحملة من الرحلة إلى المدينة ؛ وقد احتوت عتاباً ما للذين تخلفوا أو حدثتهم أنفسهم بالتخلف عن الحملة من مخلصى المسلمين من سكان المدينة والأعراب ، لما فى ذلك من دلالة عدم التضامن والوهن لقوة الإسلام ؛ كما احتوت حثا لعامة المسلمين على تقوى الله والتضامن مع الطبقة الأولى من المؤمنين الصادقين الذين تضامنوا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الحملة وتجهيزها بكليتهم ؛ وفى هذا وذاك صلة بمشاهد السيرة النبوية الجهادية كما هو واضح ، فوق ما فى الآيتين من تلقين مستمر المدى بعدم تخلف المسلمين فى أى وقت عن الاستجابة إلى داعى الجهاد ضد أعدائهم ، وبوجوب تضامنهم مع دعاة الجهاد منهم ، وببث الطمأنينة فيهم .

٢٤ - وفى السورة نفسها الآية التالية :

« وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ... ١٢٢

وقد احتوت الآية مبدأ من مبادئ الجهاد الإسلامى وصورة لواقع الحال فى العهد النبوى ؛ والمبدأ هو أن نطاق النفرة إلى الجهاد ينبغى أن يكون على حسب الضرورة ، وأنه ليس من الضرورى أن ينفر إليه جميع المسلمين بل يكفى أن يشترك فيه جميع فئاتهم ومناطقهم بفصائل أو فرق بقدر ما تقتضيه تلك الضرورة ؛ أما الصورة فهى بسبيل توكيد أن الجهاد فى العهد النبوى كان تطوعيا وليس إلزاميا . ولعل المبدأ مما سوغ للعلماء أن يقولوا إن الجهاد فرض كفاية ، إذا اشترك فيه فريق سقط عن الباقى ، وإن لم يقم به أحد أثم الكل ؛ غير أننا نرى أن يزاد إلى هذا وجوب الاشتراك بقدر ما تقتضيه المصلحة والضرورة ، لا بمجرد الاشتراك ؛ إذ يكون هذا غير مجز وإذن لا يرتفع الإثم عن القاعدين .

والآية مما نزل عقب الأوبة من غزوة تبوك على ما يلهمه سياقها السابق . ولقد روى فى صددها أن المسلمين بعد أن سمعوا التقريع القرآنى الشديد فى حق المتخلفين والمعتذرين القاعدين اعتزموا تجنب ذلك ، وأخذوا يسارعون إلى استجابة الدعوة بغض النظر عما كان لهم من أعذار وأسباب مانعة مشروعة ، فكان فى ذلك مشقة كبرى خففتها عنهم الآية . ومضمون الآية مما يلهم صحة الرواية ، ولعل هذا كان منهم حينما استنفر النبى صلى الله عليه وسلم إلى غزو البلقاء وأخذ يجهز من أجل ذلك جيش أسامة بعد عودته بقليل من تبوك ؛ وهكذا تكون الآية قد احتوت أيضا صورة لرد فعل التقريع القرآنى فى عامة المسلمين .

(٢٥) وفى السورة نفسها الآية التالية أيضا :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ... ١٢٣

وقد قيل فى صددها إنها نزلت مبكرة ثم نسخت بفقرة «وقاتلوا المشركين كافة» الواردة فى الآية ٣٦ من سورة التوبة : ويبدو هذا القول غريباً ؛ ولعل الأمثل أن تكون فدجاءت عقب الآية السابقة لتقرير مبدأ آخر من مبادئ الجهاد الإسلامى من الناحية التنظيمية ، وهو عدم توزيع المسلمين قواهم ، ومقاتلة الأقرب فالأقرب إليهم من الكفار وعدم الهوادة معهم ، أو مقاتلة كل صقع إسلامى من فى منطقته منهم ؛ وإن

كنا نرجح الأول. ونعتقد أن الآية إنما تدعو إلى قتال الكفار الأعداء فى نطاق الأصل والمبادئ القرآنية، وليست هى بسبيل تعميم القتال لكل كافر حياديا كان أو معاهداً أو مسالماً أو عاجزاً ...

وعلى كل حال فإن الوقائع الجهادية النبوية قد سارت على الأسلوب الأول الذى استلهمنا أن الآية قد أشارت إليه، إذ كان يقاتل الأقرب فالأقرب من أعداء الإسلام البغاة والمعتدين، فلا يشتغل بأناس حتى يكون آمناً أو فارغاً من غيرهم، وهذا ما كان فى غزوتى خيبر وتبوك، ووقائع بنى قينقاع والنضير وبنى قريظة، مما مر تفصيله، وما كان فى غيرهما مما سوف نلم به بعد، وحكمة هذه الخطة فى غنى عن التعليق، ولعل فى هذا ما يقوى استلهامنا من الآية.

- ١٠ -

(٢٤) وفى سورة محمد التى تسمى أيضا سورة القتال الآيات التالية:

« الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ. وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ. ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ. فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ. سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ. وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ. يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ... ١ - ٧

وقد احتوت الآيات حثا قوى الأسلوب على الجهاد، والشدة فى القتال مع الكفار

إذا ما صار اللقاء بينهم فى المعركة والإثخان فيهم ؛ وتعبير « وصدوا عن سبيل الله » و « إذا لقيتم » قرينتان حاسمتان على أن الحث ليس على قتال الكفار إطلاقاً ، بل على قتال الذين صدوا عن سبيل الله واضطهدوا الناس ومنعوهم عن الإسلام منهم ، والذين كانت حالة الحرب قائمة بينهم وبين المسلمين . وقد احتوت تقريراً لمبدإ تشريعي للأسرى كان من دون ريب ناظماً لتصرف النبي فيهم ، فضلا عن أنه ناظم تشريعي عام ؛ إذ جعل أمر الأسرى للنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن تنتهى المعركة ، فإما أن يسرحهم عفواً ومنا بدون فداء ، وإما أن يستوفى منهم الفدية ويسرحهم ؛ ومما يلفت النظر أنه ليس فى هذا المبدإ استرقاق للأسرى مع أن بعض الروايات ذكرت أن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب إلى استرقاق سبي هوازن ، وأنه استرق سبي بني قريظة وباعه ؛ وعدم احتواء المبدإ القرآنى تشريع الاسترقاق يجعلنا نتوقف فى التسليم بالروايات ، إلا أن يكون ماذكرته ـ إذا صحت ـ كان قبل نزول الآية ومن قبيل الاجتهاد المستمد من العرف العام السائد فى عصر النبي وفى مختلف البيئات ، أو من قبيل التفسير النبوى لما سكتت عنه الآية ، وهو مصير الذين لا يطاق سراحهم منا ولا يفتدون أنفسهم .

وفقرة « ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض » تلهم أنه كان يحيك فى نفوس بعض المسلمين أمنية ، وهى أن يسحق الله الكفار البغاة دون ماحاجة إلى اشتباك المسلمين معهم فى حرب يتحملون آلامها وشدائدها ؛ فردت الآية معللة بأن الاشتباك إنما هو اختبار لهم ؛ وفى هذا على كل حال صورة طريفة لحالة واقعية إزاء الجهاد والدعوة إليه .

٢٥ ـ وفى السورة نفسها الآيات التالية :

١ ـ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ... ٣١

٢ ـ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ٣٥

وقد احتوت الأولى تقرير أن الحرب مع الكفار هى ابتلاء للمسلمين ليتميز منهم المجاهدون والصابرون من غيرهم ؛ وهذا التقرير مشابه لما قررته الفقرة التى نوهنا بها آنفاً ، ودال على أن التردد الذى كان يحيك فى نفوس بعض المسلمين ظل يبدو أثره ، فاقتضت الحكمة توكيد التعليل للطمأنينة .

وقد احتوت الآية الثانية نهياً للمسلمين عن الضعف والتوانى فى الجهاد والجنوح إلى السلم إيثاراً للعافية ، وقد يلهم هذا أنه كان يبدو على فريق من المسلمين - ولعله الفريق الذى تضمنت الآية الأولى والفقرة التى نبهنا إليها الإشارة إليه - توان فى الاستجابة إلى داعى الجهاد ، ورغبة فى مسالمة الكفار ؛ وأسلوب الآيات يدل على أن هذا الفريق ليس من المنافقين ، فاحتوت تحذيراً ونهياً رقيقين ، وحفزاً وتثبيتاً نافذين ، وهما فى الوقت نفسه مستمرا التلقين والإلهام فى الظروف والمواقف المماثلة .

٢٦ - وفى السورة نفسها الآيات التالية :

« إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ . إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ[1] تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ . هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِىُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَـٰلَكُمْ ... ٣٦-٣٨

والآيات تستهدف تهوينا للمادة وتنديداً بالبخل والبخلاء ، وتقرير أن البخل إنما يضر صاحبه ، وحثا ضمنيا على الإنفاق فى سبيل الله ؛ وهى إلى مافيها من تلقين قوى مستمر المدى تتضمن كما يتبادر مايلهم أنه كان يبدو من فريق من المسلمين شح وقبض يد ، وتردد فى الاستجابة السريعة السمحة إلى دعوة الجهاد بالمال ؛ ويبدو أن هذا مما كان متمكنا وكثير الشيوع بحيث اقتضت الحكمة أن تكون الآيات بالأسلوب الذى جاءت به .

---

(١) فيشدد عليكم فى التكليف .

- ١١ -

٢٧ - وفى سورة الحجرات الآيات التالية :

« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ...

٩ — ١٠

والآيات ليست فى صدد الجهاد الإسلامى ضد الأعداء ، غير أنها احتوت مبدأ جليلا فى تنظيم الموقف بين المسلمين فى حالة اقتتال فريق مع آخر منهم ، مما يلهم أنها نزلت فى ظرف حادثة واقعية من مثل ذلك ؛ وهذا ما يجعل المناسبة قائمة لإيرادها فى هذا المبحث .

ولقد احتوت الآيتان تعليما تام الأركان رائع المدى بشأن مايقوم من نزاع وقتال بين فريقين مسلمين ، موجهاً إلى فريق ثالث ليس طرفا فى النزاع ، وموجبا عليه ألا يقف منه موقف الساكت المتفرج ؛ بل يسارع إلى فضه وإقامة الصلح والسلام بين المسلمين ، وإحقاق الحق لأهله بدون محاباة ، ونصرة المظلوم المبغى عليه بالسلاح إذا لم يرتدع الظالم ويقف عند الحق والعدل وحدود الله .

ومما روى أن الآيتين نزلتا بمناسبة نزاع بين عائلتين متصاهرتين انتهى إلى الاقتتال ، وهو ماتلهمه الآيتان ، وفيه صورة متصلة بمشاهد وقائع المسلمين فى أثناء السيرة النبوية ، غير أن أسلوبهما المطلق التشريعى يجعل ما احتوتاه مما يتسع لأمور أعظم وأعم ؛ ولقد يكون من ملهمات تطبيقهما احتمال قيام حكومات إسلامية عدة ، ووجوب قيام الأخوة والتضامن والاتحاد بينها ، وإقامة العلاقات بينها على أساس العدل والحق والأخوة ، فإذا ما نشب خلاف وقتال بين حكومتين منها وجب على سائرها التدخل لحل المشكل على ذلك الأساس ، والتضامن فى فرض قبول المحق على المبطل

ولو أدى ذلك إلى قتاله . وإذا لاحظنا أن مثل هذا النظام هو أسمى الأماني التي يتوق إلى تحقيقها العالم ويرى أن السلام والحق لا يتوطدان إلا بها ؛ بدا لنا ما فيه من جلالة وروعة وخطورة .

— ١٢ —

٢٨ - وفى سورة الحديد الآيات التالية :

« وما لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فى سَبِيلِ اللهِ وللهِ مِيرَاثُ السَّمٰوٰتِ والأَرْضِ لا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الفَتْحِ وقَٰتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وقَٰتَلُوا وكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَىٰ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . مَّن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُ لَهُ ولَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ... ١٠ - ١١

ويبدو من خلال الآيات أنها نزلت بعد الفتح المكى ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد وسّع دعوته إلى الإنفاق والجهاد حتى يتمكن من التنكيل بأعداء المسلمين وتوطيد السبيل إلى نشر كلمة الله على أوسع ما يكون بعد أن زال العائق المهم وهو مكة ، كما يبدو أيضاً صورة واقعية لفريق من المسلمين لم يستجيبوا استجابة سمحة وكافية للدعوة ، ولم يعطوا إلا القليل محتجين بالزهيد الذى كان ينفقه المسلمون قبل الفتح ؛ فاقتضت الحكمة الإيحاء بها منددة معاتبة ، ومبينة للفرق العظيم بين ما قبل الفتح وبعده ، منوهة بفضل الذين استجابوا إلى دعوة الجهاد بالنفس والمال قبله مهما كان نطاق ذلك ، وحافزة لهمم اللاحقين . وهكذا تكون الآيات قد احتوت - بالإضافة إلى ما احتوته مما ذكرناه - مبدأ مستمر التلقين بتفضيله المقدمين فى الأزمات واشتداد الأخطار .

٢٩ - وفى السورة نفسها الآيات التالية :

١ — إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ والْمُصَّدِّقَٰتِ وأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ ولَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ . والَّذِينَ ءامَنُوا بِاللهِ ورُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ

والآية (٧) خاصة تلهم صحة ماذكرناه مما كان يعتلج فى نفوس بعض المهاجرين من أزمات ، وتستهدف ـ فيما هو المتبادر ـ تهدئتها ، إذتطمئنهم باحتمال انقلاب أولئك الأعداء أصدقاء وتبدل العداء بالمودة ؛ والآية (٨) قد استهدفت حل المشكلة حلا ما زيادة فى التوسعة والتهدئة وذلك بإباحة البر والقسط للمسالم الحسن النية ، وتقوية الحجة على الضارين المؤذين . وهكذا يبدو واضحاً أن الآيات متصلة بمشاهد السيرة النبوية ، ومعالجة الحالات النفسية وغير النفسية التى كانت تبدو فى ظروفها ، ومع خصوصية الآيات ففيها من دون ريب تلقين مستمر المدى ، ومبدأ محكم جليل من المبادئ التنظيمية للعلاقات بين المسلمين وغير المسلمين ، يظل خالد الروعة على مر الدهر .

— ١٤ —

(٣١) وفى سورة الصف الآيات التالية :

١ — يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مالا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ
أَن تَقُولُوا مالا تَفْعَلُونَ . إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فى سَبِيلِهِ صَفًّا
كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ . ٢ - ٤

٢ — يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَٰهِدُونَ فى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ . يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِى إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ فَـَٔامَنَت طَّائِفَةٌ مِّنْ بَنِى إِسْرَٰءِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءامَنُوا

عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَٰهِرِينَ ... ١٠ - ١٤

فالآيات الأولى تتضمن صورة لموقف بعض المسلمين فى عدم تأييدهم قولهم بالفعل فى الجهاد ، وعدم استجابتهم للدعوة إليه والتضامن فيه استجابة شافية ، كما أنها تلهم أن هذا الموقف قد أثار أزمة شديدة فى نفس النبى والمخلصين ؛ بل إن الإطلاق فيها ليلهم أن هذا الموقف لم يكن حادثا فرديا بل كان مما يتكرر حدوثه ، الأمر الذى يلهم ما تكرر من الآيات المنددة حينا والحاثة حينا ، مما أوردناه فى بعض فقرات هذا المبحث .

والآيات الأخرى احتوت عودا على بدء فى الحث على الجهاد بأسلوب آخر فيه قوة وفيه بشرى وليس فيه ذلك العتاب المرير ، وفيه كذلك تمثيل بموقف الحواريين من عيسى عليه السلام ، حفزاً لهمم المسلمين ودعوة للتأسى بهم ، وقد يبدو أن ما انطوى فى الآيات الأولى من صورة قد كانت شديدة الأثر بحيث اقتضت الحكمة العودة إلى الموضوع بهذا الأسلوب فى السورة نفسها .

والآية (١٣) وإن تكن تعد بالنصر والفتح ، مما اتخذه بعض المغرضين وسيلة إلى القول بأن الغنيمة كانت هدفاً من أهداف الجهاد النبوى والإسلامى ، فإن مما يجدر التنبيه إليه أن هذا الوعد لم يكن هو الرئيسى فى الآيات ، وإنما جاء تالياً ؛ على أن النصر والفتح لا يعنيان الغنائم أو الغنائم فحسب كما هو واضح فوق أن هذا مما يتسق مع طبائع الأمور وحقائق الأشياء ، وليس فيه ما يتحمل غمزاً ولا نقداً مادام داعى الجهاد هو رد البغى والدفاع ، وتوطيد حرية الدعوة والدين .

المبحث الثانى
فى الوقائع الجهادية

طريقة استعراض الآيات والصور - صور من سورة البقرة للاشتباكات الجهادية الأولى بين المشركين والمهاجرين - صورة قرآنية لوقعة بدر وظروفها ونتائجها - خلاصة الروايات عنها - تعليقات متنوعة - صورة قرآنية لوقعة أحد وظروفها ونتائجها - خلاصة الروايات عنها - تعليقات متنوعة - تعليق على ترتيب سورتى الحشر والأحزاب - صورة قرآنية لوقعة الخندق وأثرها ونتائجها - خلاصة الروايات عنها - تعليقات متنوعة - صورة قرآنية لوقعة الحديبية وظروفها ونتائجها - خلاصة الروايات عنها - تعليقات متنوعة - صور قرآنية لأحداث متصلة بصلح الحديبية - الاشارات القرآنية الغامضة فى القرآن إلى فتح مكة - خلاصة الروايات عنه - تعليقات متنوعة - صورة قرآنية ليوم حنين - خلاصة الروايات عنه - مدى حظر دخول المسجد الحرام على المشركين الوارد فى القرآن وصلته باسلام أهل الطائف - صورة قرآنية لسلاح الشعر فى الجهاد .

— ١ —

سنستعرض فى هذا المبحث الفصول القرآنية التى تنطوى - على حسب ما تبادر لنا وذكره الرواة والمفسرون - على وقائع جهادية، سواء منها المهم والثانوى، على حسب ترتيب وقوع هذه الوقائع الذى تواترت الروايات عنه وأيدته روايات ترتيب النزول أيضا . وقد رأينا أن نكمل الصور القرآنية لكل وقعة ذكرت فى القرآن بإسهاب أو اقتضاب أو إشارة بالروايات الواردة عنها فى كتب السيرة و التفسير، مع إبداء ما يعن من ملاحظات فى صدد ذلك .

— ٢ —

(١) إن أولى الإشارات القرآنية إلى وقائع الجهاد هى ما انطوى فى آيات سورة البقرة (١٥٤ - ١٥٧) و (١٩٠ - ١٩٤) و (٢١٦ - ٢١٨) التى نقلناها فى المبحث السابق ؛ فالآيات ١٥٤ - ١٥٧ تلهم أن بعض أفراد من المسلمين قد استشهد فى اشتباك، والآيات ١٩٠ - ١٩٤ و٢١٦ - ٢١٨ تلهم أن اشتباكا وقع فى الشهر الحرام ، وأن المشركين أثاروا ضجة تهويشية حول ذلك وزعموا أنه كان خرقا لتقليد مقدس وهو

هدنة الأشهر الحرم ، ويبدو أن الضجة أثرت فى بعض المسلمين وجعلتهم يتساءلون هذه الأسئلة التى رددتها الآيات والتى ردت على هذه الضجة ردا مفحما فيه تبرير لما وقع فى حال وقوعه على ماشرحناه فى مناسبة سابقة .

ولقد قال المفسرون إن الآيات ١٩٠ - ١٩٤ أولى الآيات التى نزلت بالقتال بعد الإذن به ، وطابع التبكير عليها بل على المجموعات الثلاث بارز ، ومن السائغ أن يقال إنها نزلت فى أواسط السنة الأولى من الهجرة النبوية ، وأن هذه الوقائع الصغيرة التى انطوت الإشارات إليها فيها قد بدأت تقع فى السنة المذكورة نفسها .

والآية ٢١٨ تلهم أن المجاهدين المسلمين فى هذه الوقائع أو السرايا كانوا من المهاجرين فقط ، ولم يشترك فيها الأنصار . ويبدو أن الأمر كان كذلك ، لأنه أريد من السرايا مقابلة عدوان مشركى مكة على ماسلف منهم وإزعاجهم من قبل أصحاب الشأن أو الثأر لأنفسهم ؛ لاسيما أن عهد الأنصار للنبي لم يكن إلا الدفاع والحماية فى دارهم وروايات الرواة والمفسرين متسقة إجمالا مع هذه المستلهمات ، كما أن الروايات قد عينت أن سرية بطن نخلة قرب مكة التى كان يقودها عبد الله بن جحش رضى الله عنه هى التى ثارت الضجة بسببها ، كما قالت إنها أولى سرايا النبي صلى الله عليه وسلم بعد الإذن بالقتال . هذا مع التنبيه إلى أن الفصول القرآنية تلهم أنها فى صدد أكثر من سرية واحدة .

- ٣ -

(٢) وسورة الأنفال - التى يجىء ترتيبها فى النزول بعد سورة البقرة - احتوت فصولا أجمع المفسرون والرواة على أنها فى صدد وقعة بدر الكبرى ، واسم هذه الوقعة قد ورد فى الآية التالية من سورة آل عمران - التى يجىء ترتيب نزولها بعد الأنفال - على سبيل التذكير بنصر الله فيها ، والتسلية عما كان من آلام وقعة أحد على المسلمين :

« وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ... ١٢٣

أما فصول سورة الأنفال فهى هذه :

١ - يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ

وأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ إِنَّمَا
الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُ
زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ
يُنفِقُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ ... ١ - ٤

٢ — كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ
لَكَٰرِهُونَ يُجَٰدِلُونَكَ فِى الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ
وَهُمْ يَنظُرُونَ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ
غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِ
وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَٰفِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ
إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَٰٓئِكَةِ
مُرْدِفِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا
مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ
عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ
عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ
فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا
فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ
وَمَن يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ
لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ... ٥ - ١٤

٣ — فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللهَ

رمى ولِيُبْلِىَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاَءً حَسَنًا إنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . ذَٰلِكُمْ
وأنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَٰفِرِينَ . إن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وإن
تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وإن تَعُودُوا نَعُدْ ولَنْ تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا
ولَوْ كَثُرَتْ وأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ... ١٧ - ١٩

٤ — يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا أَطِيعُوا اللهَ ورَسُولَهُ ولا تَوَلَّوْا عَنْهُ وأَنتُمْ
تَسْمَعُونَ . ولا تَكُونُوا كالَّذِينَ قالوا سَمِعْنَا وهُمْ لايَسْمَعُونَ . إنَّ شَرَّ
الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لايَعْقِلُونَ . ولَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ
خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ولَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ . يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا
اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ ولِلرَّسُولِ إذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ
بَيْنَ الْمَرْءِ وقَلْبِهِ وأَنَّهُ إلَيْهِ تُحْشَرُونَ . واتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ
ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . واذْكُرُوا إذْ أَنتُمْ
قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فى الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَـَٔاوَٰكُمْ وأَيَّدَكُم
بِنَصْرِهِ ورَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا
لاتَخُونُوا اللهَ والرَّسُولَ وتَخُونُوا أَمَٰنَٰتِكُمْ وأَنتُمْ تَعْلَمُونَ . واعْلَمُوا
أَنَّمَا أَمْوَٰلُكُمْ وأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وأَنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ...

٢٠ - ٢٨

٥ — إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ
فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ والَّذِينَ كَفَرُوا إلَى
جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ويَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ
عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فى جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ

قُل لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَـٰكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَـٰمَىٰ وَالْمَسَـٰكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَـٰدِ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ... ٣٦ - ٤٤

« يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَـٰزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّـٰبِرِينَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ . وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

إِذْ يَقُولُ الْمُنَـٰفِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... ٤٥ - ٤٩

٧ — مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ قُل لِّمَن فِى أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ اللهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَـٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوا أُولَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِى الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ...

٦٧ — ٧٢

وهذه الفصول قد نزلت بعد الوقعة ، والمتبادر المستلهم من أسلوبها ومضامينها أنها نزلت بقصد تنبيه المسلمين إلى ما كان من تأييد الله لهم وعدم إمكان انتصارهم لولا ذلك ، وإيجاب الرضاء عليهم بقسمة الغنائم ، أو بتعبير أدق بفرز الخمس منها ، وإطاعة الله ورسوله وعدم التنازع والشقاق ، والتذكير بموقف المنافقين ، وتأييد مافعله النبي صلى الله عليه وسلم فى الأسرى ، مع العتاب عليه لأنه خلاف الأولى ؛ ومع ذلك فإن من الممكن أن تقتبس منها صورة كاملة إلى حدما لأسباب الوقعة وسيرها ونتائجها ، نرسمها كما يلى :

١ - إن الله قد ألهم نبيه الخروج إلى العدو فندب المسلمين إلى ذلك ، ممنيا إياهم

بأن تكون لهم الغلبة على الطائفة غير ذات القوة التى أجمع المفسرون والرواة على أنها قافلة تجارية لقريش قادمة من الشام .

٢ - لقد لبى الدعوة المهاجرون والأنصار معا ، وكان مع الأنصار فريق المنافقين من بنى قومهم .

٣ - لم يتحقق الأمل بلقاء القافلة ، ووجد المسلمون أنفسهم أمام الحملة المستعدة للحرب والتى جاءت لإنقاذ القافلة بناء على استصراخ قائدها ، والمجهزة بالعدة والعدد ، والتى تفوقهم كثيرا فى هذا وذاك .

٤ - لقد كان رأى النبي صلى الله عليه وسلم وقد خرج ملهما إلى العدو أن يناجز الحملة ، فكان هذا موضع أخذ ورد ؛ وقد جادل بعض المسلمين النبي فى هذا الرأى معتبرين أنفسهم كأنما يساقون إلى الموت من جراء لقاء عدو أكثر عددا وأقوى عدة ؛ غير أنه لم يكن للجدل محل لأن الحرب أصبحت واجبا لا محيص عنه بعد أن علم كل فريق بالآخر .

٥ - إن كلا من الفريقين نزل فى منطقة واحدة على غير ميعاد ، إذ كان المسلمون فى طرف الوادى الأدنى والمشركون فى طرفه الأبعد ، حتى أصبح تجنب الحرب غير ممكن بحال .

٦ - إن المنافقين ومرضى القلوب لما رأوا أن الرأى الغالب هو مناجزة العدو القوى أخذوا يقولون إن المؤمنين قد اغتروا بدينهم الذى يدفعهم إلى الموت الحتم .

٧ - إن الآية (٧٢) تلهم أن المسلمين الذين اشتبكوا فى المعركة هم المهاجرون والأنصار ؛ وعلى هذا يسوغ القول إن الفريق المنافق انسحب من القتال بعد أن قال ما قال .

٨ - إن المشركين قبل أن يلقوا المسلمين كانوا يستشعرون القوة والبطر ، وقد أنفقوا لتجهيز الحملة طائل الأموال ، وذهبوا قبل السفر إلى آلهتهم واستفتحوها ، أى طلبوا منها النصر والفتح على النبي وصحبه .

٩ - إن المسلمين والمشركين معا قد قدر كل منهم خصمه أقل عددا مما هو ، كما أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى المشركين فى منامه كذلك أقل مما هم ، فكان هذا من أسباب إقدام كل من الفريقين على المناجزة .

١٠ - إن النبي صلى الله عليه وسلم حينما احتدمت المعركة أخذ يستغيث الله فألهم أنه يمده بألف من الملائكة بقصد البشرى والتثبيت.

١١ - لقد كان فى ظروف المعركة بعض مظاهر تأييدية للمسلمين طمأنتهم بأن الله معهم؛ فقد كانوا تعبين قلقين فلم يقدروا أن يناموا مع شدة حاجتهم إلى النوم، فألقى الله فى قلوبهم الطمأنينة وغشاهم النعاس فناموا واستراحوا؛ وكانت حاجتهم ماسة إلى المطر فأمطروا وقضوا بذلك حاجاتهم.

١٢ - إنه كان ثمة خلاف ونزاع بين المسلمين فى صدد قسمة غنائم الوقعة، وإنه لوحظ شىء من الخيانة فى بعض ما وقع فى يده من الغنائم، وإنه بدا من بعضهم شىء من التردد فى قبول وتنفيذ واستماع أقوال ومقترحات النبي صلى الله عليه وسلم، وإن هذا أوشك إن يجر إلى الفتنة.

١٣ - إن النبي صلى الله عليه وسلم أوعز بعدم الإثخان الشديد فى العدو وأسر من يمكن أسره دون قتله منهم، وإنه رأى بعد المعركة أن يطلق سراح الأسرى مقابل الفدية على أن يأخذ منهم عهداً بعدم خيانته أو حربه أو الكيد له مرة أخرى، وإن الآيات بحق الأسرى قد نزلت قبل إطلاق سراحهم معاتبة على هذا الرأى الذى هو خلاف الأولى، ومجيزة له مع ذلك، وآمرة النبي بوعظ الأسرى وترغيبهم وإنذارهم. وطبيعى أنه نفذ أمر الله ووحيه.

— ٤ —

والروايات المعتبرة تتسق إجمالا مع الصورة التى أمكن اقتباسها من الآيات مع بعض تفصيل نلخصه كما يلى:

علم النبي صلى الله عليه وسلم أن قافلة تجارية لقريش آتية من الشام، وليس معها حامية كافية؛ فندب المسلمين للخروج لعل الله يهبها لهم؛ فخرجوا أخلاطاً مهاجرين وأنصاراً وفيهم منافقون؛ وفى الطريق عرفوا أن القافلة نجت، وأن حملة قوية آتية من مكة، فاقترح بعضهم العودة وعدم الاشتباك لأنهم إنما خرجوا للقافلة، وكان المنافقون على هذا الرأى، غير أن فريقاً آخر من المسلمين أبدوا استعدادهم للاشتباك؛ وبعد التشاور تم الرأى على ذلك فانسحب المنافقون وعادوا؛ ومما ذكرته الروايات

أن النبي لم يعزم على الدخول فى المعركة إلا بعد أن أعلن زعماء الأنصار رضاهم واستعدادهم للدخول فيها ، إذ طلب أن يشير عليه الناس حتى فهم الأنصار أنه يعنيهم ، فقال له زعماؤهم : امض يا رسول الله لما أمرك الله ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت البحر بنا لخضناه . وذلك لأنه لم ير له حقا عليهم فى الحرب خارج المدينة، لأنهم إنما وعدوه بالحماية والدفاع عنه فى دارهم ، وقد اطمأن بعض المشركين بنجاة القافلة فاقترحوا العودة ، فأبى بعض صناديدهم إلا البقاء على ماء بدر يشربون ويطربون ، ابتهاجاً من جهة وإظهاراً لقوتهم من جهة أخرى ؛ وقد اشتبك المسلمون مع المشركين وكانوا يبلغون ثلاثة أمثالهم ، فثبت الله المسلمين وشملتهم عنايته وروحانيته ، واستغرقوا حتى رأوا الملائكة تقاتل معهم ، وأخذوا يتحدثون بذلك ، وصبروا واستماتوا حتى تم لهم النصر ، وقتل فى المعركة نحو سبعين من المشركين فيهم عدد غير يسير من الصناديد الذين قادوا حملة المشاقة والمعارضة فى مكة ، كما أسر نحو هذا العدد : فيهم عم النبي العباس وبعض أقاربه ، وقد نصب للنبي عريش لمشاهدة سير المعركة ، فكان يضرع فيه إلى الله ليؤتيه النصر بشدة واهتياج ، هاتفاً لربه بقوله : « اللهم إذا غلبت هذه الفئة فلن تعبد فى هذه الأرض » ؛ وقد اختلف المسلمون بعد المعركة فى شأن توزيع الغنائم ، فمنهم من رأى أن توزع على الذين حاربوا ، ومنهم من رأى أن توزع على من حضر المعركة حارب أو لم يحارب ، كما كان اختلاف بشأن أسلاب القتلى ونسبة التوزيع بين الركبان والمشاة . ومما ذكرته الروايات أيضاً أن زعماء مكة تخوفوا من بنى كنانة أن يأتوهم من خلفهم إذا هم خرجوا ، فتمثل إبليس لهم بصورة زعيم بنى كنانة وقال لهم إنى جار لكم فلا تخشوا من قومى بأساً ؛ وأن النبي شاور أصحابه فى شأن الأسرى فمنهم من ارتأى قتلهم لإرهاب أهل مكة - وكان عمر ابن الخطاب رضى الله عنه من هؤلاء - ومنهم من جنح إلى الرفق وأخذ الفداء - وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه من هؤلاء - فأخذ النبي برأيه ؛ ثم نزل القرآن بالعتاب حتى بدا الخوف على النبي وصاحبه وبكوا لما كان منهم من خلاف الأولى ؛ وأن بعض الأسرى لم يقدروا ماليا على الفداء فجعل فداؤهم تعليم عدد من أطفال المسلمين القراءة والكتابة .

وإذا كان ثمة شىء من التعليق على الروايات التى قلنا أنها تتسق إجمالا مع الآيات فهو

أن الصورة القرآنية أقوى وضوحاً وحيوية من الروايات ؛ وأن الآيات تلهم أن الخلاف فى صدد الغنائم إنما كان على فرز الخمس أكثر منه على طريقة التوزيع ومقداره ، لأن الكلام فيها مصبوب على ذلك ، وأكثر ما جاء فى صدد نصر الله وتأييده قد استهدف تشريع الخمس ، وإيجاب قبوله والرضاء به ؛ ويبدو أن شيئاً من التلفيق قد وقع فى بعض الروايات بقصد التطبيق كقصة تمثل إبليس بصورة زعيم بنى كنانة : لأن القرآن صريح بأن إبليس وقبيله يرون الناس من حيث لا يرونهم (١) ولأن الأوجه أن تكون الآية فى هذا إنما جاءت بقصد التنديد بالكفار والسخرية والشماتة بهم بسبب ما نالهم من خسران وهزيمة بعد ما كان من زهوهم وبطرهم ، وتقرير أنهم إنما خرجوا بتسويل الشيطان ووعده ، ولكن الشيطان لم يسعه إلا النكوص على عقبيه والتخلى عنهم أمام نصر الله وتأييده .

ويلمح من الفصول ومن الآيات ٥٥ - ٦٣ التى نقلناها فى مبحث التنكيل باليهود ، والآيات ٦٥ - ٦٩ التى نقلناها فى المبحث السابق ، ما كان للانتصار من أثر فى استعلاء الإسلام ، وشعور المسلمين بالعزة والقوة والتأييد الربانى الذى غلبت به فئة قليلة فئة كبيرة ، والرغبة فى اعتبار الفرصة سانحة لدعوة الكفار الذين كانت الضربة عليهم قاصمة إلى الانتهاء من موقفهم الجحودى والعدائى ، وللتنكيل بالناكثين والخائنين ، وهم يهود بنى قينقاع ، على ما ذكرناه فى مبحث التنكيل .

— ٥ —

ونريد أن ننبه إلى بعض نقاط تلهمها الآيات والروايات التى تتسق معها ؛ فالذى يتبادر لنا أن تردد بعض المسلمين فى الاشتباك مع القرشيين ، وانسحاب المنافقين ، ورغبة النبى صلى الله عليه وسلم فى الاستماع إلى رأى الأنصار فى ذلك - ينطوى على ما كان مقدراً للنضال بين مشركى مكة والمسلمين فى المدينة - وخاصة أهلها الذين لم يكن قد قام بينهم وبين أهل مكة عداء صريح - أن ينتهى إليه من مظهر عنيف بهذا الاشتباك أخذت تبدو آثاره الخطيرة فيما كان من اشتداد أحقاد المكيين وتحفزهم للانتقام لدمهم وهيبتهم ، وفيما كان بعد ذلك من غزوهم المدينة أولا وثانياً بحشود عظيمة أزعجت

(١) اقرأ آية الأعراف ٢٧ .

المسلمين أيما إزعاج وأوشكت أن تكون كارثة على الإسلام .

ومما لا نرتاب فيه من الناحية الثانية أن النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه المخلصين وخاصة كبار المهاجرين منهم قد رأوا فى احتمال انتصارهم على المكيين فوائد عظيمة بعيدة المدى ، سواء فيما يكون من إزعاجهم بتهديد طريق تجارتهم وهى من دعائم كيانهم القوية ؛ أو فيما يكون لهزيمتهم من أثر عظيم من ناحية إضعاف هيبة مكة ونفوذها على العرب ، ومن ناحية تعالى قوة الإسلام ، وانفساح المجال لانتشار الدعوة الإسلامية بالتبعية ، فكان هذا مما جعلهم يقدمون ، لا سيما أن وعد الله قد تكرر لهم بلسان القرآن بالنصر والتأييد ، وكانوا يؤمنون أعمق الإيمان بتحقيق الله وعده لهم ، ولعل فى الآيات ٧ - ٨ و ١٣ - ١٦ ما يقوى هذا التقرير .

ولقد أحدث اشتراك أهل المدينة فى المعركة تطوراً عظيما وحاسما فى موقف كل من المدينتين الكبيرتين تجاه الأخرى ، وبدء العهد عداء صريح وقوى بين الأوس والخزرج من ناحية ، والمكيين من ناحية أخرى لم يكن له سابقة ؛ وهو ما حسب هؤلاء حسابه وعواقبه حينما أزمعوا اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم وعدم تمكينه من الإفلات من أيديهم والهجرة إلى يثرب على ما نبهنا إليه فى مناسبة سابقة ؛ كما أنه أحدث تطوراً بارزاً فى التضامن القوى الدموى - بعد الدينى - بين المهاجرين والأنصار ؛ وهو ما استهدفت الآية (٧٢) تقريره على ما هو المتبادر ، بحيث اعتبرت الولاء بينهم أمراً راهناً وموطداً دون المؤمنين الذين لم يهاجروا .

وكذلك كان تشريع خمس الغنائم ذا خطورة عظيمة ، من ناحية أنه أول تشريع قرآنى مالى رسمى محدد ؛ توطد به بيت المال فى الإسلام ؛ وتيسر به تحقيق ما دعا إليه القرآن من مساعدة الطبقات المحتاجة والإنفاق فى سبيل مصالح المسلمين العامة بأسلوب رسمى غير قائم على التبرع . ووصفناه بالأول لأن مقادير الزكاة لم تحدد فى القرآن ، كما أن مصارفها إنما حددت فى القرآن فى آية من آيات سورة التوبة من الأرجح أنها نزلت بعد هذه الآيات بمدة ما ، ولا ريب فى أن توطيد بيت المال فى العهد المدنى ، وتعيين حق ثابت له يتسلمه وينفق منه أمر عظيم المدى .

- ٦ -

ولأجل الترتيب التاريخى فى ذكر الوقائع الجهادية نذكر بما مر فى فصل

اليهود مما استدللنا عليه من بعض آيات سورة الأنفال وغيرها من ظروف ونتائج وقعة بنى قينقاع ، ومن أنها قد وقعت بعد مدة قليلة من وقعة بدر ، وكان لهذه الوقعة أثر ما فى ظروف وقوعها أيضا .

- ٦ -

وسورة آل عمران التى يجىء ترتيبها فى النزول بعد سورة الأنفال احتوت فصولا عدة أشير فيها إلى حوادث وقعة حربية بين المسلمين والمشركين دارت فيها الدائرة إلى حد ما على الأولين ؛ وهذه الوقعة لم يرد اسمها فى القرآن ، ولكن الروايات أجمعت على أنها وقعة أحد ، حتى ليعد هذا يقينا . وأحد : جبل مشرف على المدينة ؛ وقد كان المشركون أهل مكة قد جاؤوا ينتقمون لهزيمتهم ودمهم وكرامتهم .

وإليك أولا الفصول القرآنية :

١ - وإذ غدوتَ من أهلِكَ تبوِّئُ المؤمنينَ مقاعِدَ للقِتالِ واللهُ سميعٌ عليمٌ . إذ همَّت طائفتانِ منكم أن تفشلا واللهُ وليُّهما وعلى اللهِ فليتوكَّلِ المؤمنونَ . ولقد نصرَكُمُ اللهُ ببدرٍ وأنتم أذلَّةٌ فاتَّقوا اللهَ لعلَّكم تشكرونَ . إذ تقولُ للمؤمنينَ ألن يكفيَكم أن يُمِدَّكم ربُّكم بثلاثةِ آلافٍ منَ الملائكةِ مُنزَلينَ . وما جعلَهُ اللهُ إلا بُشرى لكم ولتطمئنَّ قلوبُكم بهِ وما النَّصرُ إلا من عندِ اللهِ العزيزِ الحكيمِ . ليقطعَ طرفاً منَ الذينَ كفروا أو يكبِتَهم فينقلبوا خائبينَ . ليسَ لكَ منَ الأمرِ شيءٌ أو يتوبَ عليهم أو يعذِّبَهم فإنَّهم ظالمونَ ... ١٢١ - ١٢٨

٢ - قد خلت من قبلِكم سُنَنٌ فسيروا فى الأرضِ فانظروا كيفَ كانَ عاقبةُ المكذِّبينَ . هذا بيانٌ للنَّاسِ وهدًى وموعظةٌ للمتَّقينَ . ولا تهِنوا ولا تحزنوا وأنتمُ الأعلونَ إن كنتم مؤمنينَ . إن يمسَسْكم

قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ
وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّٰلِمِينَ .
وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَٰفِرِينَ . أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا
الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَٰهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّٰبِرِينَ . وَلَقَدْ
كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ .
وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ
انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا
وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّٰكِرِينَ . وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ
كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ
نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِى الشَّٰكِرِينَ . وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ
كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا
وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّٰبِرِينَ . وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا
ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
الْكَٰفِرِينَ . فَـَٔاتَىٰهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ
يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ
عَلَىٰ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ . بَلِ اللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّٰصِرِينَ .
سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ
بِهِ سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّٰلِمِينَ . وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ
وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم
مِّن بَعْدِ مَا أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ

الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل
على المؤمنين . إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم
فى أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم
والله خبير بما تعملون . ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا
يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق
ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شىء قل إن الأمر كله لله
يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر
شىء ما قتلنا ههنا قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم
القتل إلى مضاجعهم وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم
والله عليم بذات الصدور . إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان
إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله
غفور حليم . يأيها الذين ءامنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا
لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا
وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحى ويميت والله
بما تعملون بصير . ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله
ورحمة خير مما يجمعون . ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون .
فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من
حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت
فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين . إن ينصركم الله فلا غالب
لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل

المؤمنون . وما كان لنبي أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم
القيمة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ... ١٣٧ - ١٦١

٣ — لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا
عليهم ءايته ويزكيهم ويعلمهم الكتب والحكمة وإن كانوا من قبل
لفي ضلل مبين . أو لما أصبتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى
هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير . وما أصبكم
يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين . وليعلم الذين نافقوا
وقيل لهم تعالوا قتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا
لاتبعنكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمن يقولون بأفوههم
ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون . الذين قالوا لإخونهم
وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم
صدقين . ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أموتا بل أحياء عند
ربهم يرزقون . فرحين بما ءاتهم الله من فضله ويستبشرون بالذين
لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون
بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين . الذين استجابوا
لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا
أجر عظيم . الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم
فزادهم إيمنا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله
وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضون الله والله ذو فضل عظيم .
إنما ذلكم الشيطن يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم

مُؤْمِنِينَ . ولا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَٰرِعونَ فى الْكفرِ إنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللهُ ألَا يَجْعَلَ لَهُم حَظًّا فى الآخِرَةِ ولَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إنَّ الَّذِينَ آشْتَرَوُا الْكفرَ بالإيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا ولَهُمْ عَذَابٌ ألِيمٌ . ولا يَحْسَبَنَّ الَّذِين كَفَرُوا أنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأنفُسِهِمْ إنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إثْمًا ولَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . مَّا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ومَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ ورُسُلِهِ وإنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فلَكُمْ أجْرٌ عَظِيمٌ ... ١٦٤ - ١٧٩

- ٧ -

ويصدق ما قلناه فى صدد فصول سورة الأنفال على هذه الفصول من حيث أنها نزلت بعد انتهاء المعركة ، وقد استهدفت فى الدرجة الأولى طمأنة المسلمين وتسليتهم عما حل بهم من أثرها ، وعتابا على ما كان من بعضهم فى ظروفها ، وتقريع المنافقين على مواقفهم فيها ، والتنويه بالمخلصين لما بدا منهم من حسن الاستجابة ، وتوجيهات للنبي صلى الله عليه وسلم فى مداراة المسلمين الخ ... ومع ذلك فإن من الممكن أن يقتبس منها كذلك صورة كاملة إلى حد ما لسير المعركة ونتائجها نرسمها كما يلى :

١ - إن المعركة وقعت قرب المدينة ، إذ غدا النبي صلى الله عليه وسلم من أهله لاختيار مكان صالح للقتال ؛ وقد كانت فى طرف الجبل الثانى ، إذ أن المسلمين حينما انهزموا أخذوا يصعدون حتى يبلغوا الذروة لينحدروا منها إلى المدينة .

٢ - إن المهاجرين والأنصار قد اشتركوا فى المعركة .

٣ - إن فريقا من المنافقين أيضا قد خرج مع من خرج من المؤمنين ، كما أن فريقا آخر ظل قاعداً ولم يخرج وحاول تثبيط من يتصل به من المسلمين .

٤ - لقد دار جدل ووقع خلاف على الخطة التى يجب السير عليها . وكان زعماء

من أخبارها ما ألهب حماستهم لنيل نصر مماثل ينالون به ثناء الله ورضاءه، والفخر والاستعلاء - أخذوا يتحمسون ويبدون استعدادهم للموت، واستعظامهم وقوف المسلمين هذا الموقف الدفاعى البحت الذى يكشف عن خوف ووهن، ويلحون بالخروج ومقابلة العدو خارج الجدران، إلى أن مال النبى إلى ذلك، فدخل بيته ولبس عدة قتاله وندب الناس إلى الخروج وفى وجهه شيء من الاستكراه؛ وقد ندم الملحون على إلحاحهم وأعادوا الأمر إلى النبى فآذنهم أنه لا يصح لنبى لبس عدة حربه أن يخلعها قبل أن يقاتل، وأكد نداءه للخروج، فخرجوا فى نحو ألف، وكان عدد الغزاة نحو ثلاث آلاف؛ وقد أعلن عبد الله بن أبى أنه قرر الانسحاب فانسحب معه نحو الثلث؛ وقد أثر هذا ببطنين من بطون الخزرج حتى هما أن ينسحبا ثم عادا وثبتا؛ وقد أمر النبى فريق الرماة باحتلال مكان عال من وراء الميدان، ورشق العدو بالنبل وحماية ظهر إخوانهم، وشدد عليهم بعدم مزايلة مكانهم فى أى حال، ثم دارت رحى القتال فوقع الرعب فى قلوب المشركين، ولاحت أمارات الهزيمة عليهم، ورأى الرماة ذلك فوسوس الشيطان لهم بالنزول للغنيمة، والخوف من احتجازها دونهم ففعلوا؛ ولما رأى قائد فرسان المشركين خلو مكان الرماة اغتنم الفرصة فدار بخيله من وراء المسلمين وفاجأهم فاضطربوا وذعروا ثم انهزموا لا يلوون على شيء ونال النبى عدة جروح وسقط فى حفرة وظن الناس أنه قتل فازداد المسلمون ذعرا وبلبلة وذهب عدد غير يسير من المسلمين شهداء؛ وقد ثبت النبى صلى الله عليه وسلم فى الميدان وحوله بعض المخلصين، وأرسل يهتف بالمنهزمين ليطمئنوا ويعودوا، وأخذ بعض الثابتين والعائدين يستميتون فى الدفاع عنه، وألقى الله الأمن فى قلوبهم والخوف فى قلوب أعدائهم الذين اكتفوا بما كان وقفلوا راجعين دون التحام آخر، هاتفين: إن هذا اليوم بيوم بدر، متواعدين بالهتاف المتبادل على موعد آخر. ومما روى أن المكيين ندموا على ترك المسلمين وقد أثخنوا فيهم، وهموا بالكرة، ودرى بذلك النبى فندب الناس إلى الخروج ثانية، فاستجاب المخلصون مع ما هم فيه من جراح وبلاء ومع ما نقل إليهم من قبل بعض القادمين المتواطئين مع العدو من أخبار التجمع؛ وقد وصل المسلمون إلى مكان يقال له حمراء الأسد فلم يجدوا عدوا لأن المكيين لم ينفذوا عزيمتهم وظلوا فى طريقهم إلى مكة؛ ومما روى أن بعض المنافقين

طلبوا من عبد الله بن أبيّ زعيمهم أن يتصل بأبي سفيان ويأخذ للمدينة منه أمانا ، وأن الذين تذمروا التذمر الذى حكته الآية ١٥٤ كانوا من المنافقين فقط ؛ ولقد عاتب النبي النبالة على مزايلتهم مكانهم وقال لهم بل ظننتم أننا نستأثر بالغنائم فلا نقسم لكم فيها .

٨

وإذا كان لنا تعليق على الروايات فهو أن الصورة القرآنية أقوى حيوية ووضوحاً منها ، وأن الآيات ٥٤ - ١٦١ تلهم أن الذين حكى تذمرهم فى الآية ١٥٤ ليسوا منافقين أو على الأقل ليسوا منافقين فقط ، وأن بعض المسلمين من الطبقة الثانية قد اشتركوا فى هذا التذمر متأثرين بشدة الضربة النازلة ؛ وأن هذا التذمر من فريق قليل يلهم أن الخروج إلى مقابلة العدو لم يكن من رأى أقلية وبتأثير حماسة الشبان ، والذى نرجحه إن لم نقل نجزم به أن النبي استشار مختلف الزعماء من الأنصار والمهاجرين والمنافقين ، وأن الخروج قد تم بموافقة أكثر المخلصين من الأنصار والمهاجرين ؛ ولا يمنع هذا أن يكون فريق من الشبان بل وغير الشبان قد تحمسوا وتحدوا الموت حينما دروا بقدوم المكيين لغزو المدينة ، لا سيما أن نصر بدر وتأييدات الله التى شهدوها ماتزال ماثلة لأعينهم ومالئة لقلوبهم وأسماعهم ، فكان هذا مما جعل النبي صلى الله عليه وسلم يعتزم الخروج ؛ وليس من الممتنع أن يكون بعض الزعماء من الطبقة الثانية قد ارتأوا مع المنافقين البقاء وراء الجدران فلم ير النبى أن يأخذ برأيهم ؛ فكان هذا مما غاظهم وغاظ المنافقين خاصة فجعل بعضهم لاينضم إلى الحملة ، وبعضهم ينسحب منها ، ثم جعلهم يثيرون وساوس المسلمين الذين آلمتهم عواقب المعركة شديد الألم .

وأسلوب الآيات المطمئنة المبشرة واللائمة والمسكنة والواعظة رائع قوى ، من شأنه أن يكون معالجة شافية لكل الحالات التى نشأت من ظروف الوقعة وسيرها ونتائجها ، كما أنه يدل على شدة ما كان من وقع النتائج على مختلف فئات المسلمين أيضا . وفى استنكار ما كان من هزيمة أو زيادة فوضى بسبب شائعة قتل النبى ، مدى باهر جدا فى بث القوة والعزيمة والإقدام فى نفوس المسلمين ، وفى تلقينهم أن واجب الاستمرار فى الدفاع عن الإسلام ونشره ورفع شأنه واجب عام لا يجوز أن يقعدهم عنه أو يجعلهم يقصرون فيه أى حادث حتى قتل النبي صلى الله عليه وسلم أو موته

فهما أمران طبيعيان ومنتظران ، لأن النبي ليس إلا رسولا قد خلت من قبله الرسل .

وفكرة غزو المكيين للمدينة تدل على أن المسلمين كانوا مايزالون فى حالة ضعف وقلة ، وعلى أن هذا مما كان يعرفه المكيون حق المعرفة ، فضلا عن دلالتها على تفوق مكة على المدينة فى القوة والبأس بصورة عامة . وإذا صحت رواية أن عدد الغزاة كان ثلاثة آلاف ظهر هذا الضعف واضحا أكثر ، كما أن تفكير بعض الزعماء بعدم الخروج للقاء الغزاة ، والدفاع من وراء الجدر والبيوت يؤيد هذا على ما هو المتبادر .

وموقف المنافقين فى ظروف الوقعة تمرداً وتخلفاً وانسحاباً وتأثيراً وتهويشاً وتظاهراً على غير ما يليق ، يدل على أنهم كانوا أقوياء إلى حد ما ، وكانوا مستشعرين بقوتهم كما كان المسلمون مستشعرين بذلك أيضاً . والآيات ١٥٤ - ١٦١ على ترجيح أن المتذمرين مزيج من مخلصين ومنافقين تلهم أن الحكمة اقتضت مسايرة الموقف ومداراة المنافقين ، ولا ريب فى أنه ينطوى فى هذا ما يدعم ما قررناه آنفا .

— ٩ —

وفى ترتيب النزول تأتى سورة الأحزاب بعد آل عمران ، وفيها إشارات إلى وقعة الخندق ، مشاهدها ونتائجها . غير أن المجمع عليه أن وقعة بنى النضير التى أشير إليها فى سورة الحشر قد وقعت قبل وقعة الخندق ووقعة بنى قريظة التى كانت عقبها ، فى حين أن هذه السورة تتأخر فى ترتيب النزول المروى كثيراً عن الأحزاب ؛ وعلى هذا فإما أن يكون مطلع سورة الأحزاب وبعض فصولها قد نزل بعد سورة آل عمران فجعل ترتيبها بعدها من أجل ذلك ، وإما أن لا يكون ترتيبها المروى صحيحاً ؛ ولما كان التنكيل ببنى قريظة الذى أشير إليه فى سورة الأحزاب شديدا ، ويلهم أنه كان كذلك لأسباب ، منها عدم اتعاظ اليهود بما كان من عاقبة جماعتهم الأولى ؛ ولما كان هذا التنكيل قد وقع متأخراً ، وكان المجمع عليه أن إجلاء بنى النضير قد وقع قبله ، وأن اليهود ذهبوا بعده إلى مكة ليعقدوا حلفاً مع زعمائها ضد النبى والمسلمين ، وظاهروا جيوش الأحزاب حينما زحفت على المدينة بقضها وقضيضها - فإن من المعقول أن تكون آيات الحشر التى أشارت إلى وقعة بنى النضير قد نزلت قبل سورة الأحزاب ،

أو على الأقل قبل آيات وقعتى الخندق وبنى قريظة .

ولقد بسطنا أسباب وقعة بنى النضير وظروفها ونتائجها فى فصل اليهود فلا نعود إليها ثانية ، ونكتفى بالإشارة إليها ليتم التسلسل فى حلقات الوقائع الجهادية القرآنية على حسب وقوعها .

ــ ١٠ ــ

وآيات سورة الأحزاب التى احتوت مشاهد وقعة الخندق هى الآيات ٩ - ٢٠ التى أوردناها فى مبحث مواقف المنافقين من الجهاد ووقائعه ، ثم الآيات التالية لها هذه :

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا . وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا . مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَٰهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا لِيَجْزِىَ اللهُ الصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَٰفِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا . وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا . وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ... ٢١ - ٢٧

وليس فى الآيات ذكر للخندق الذى أجمعت الروايات على أن النبى والمسلمين قد حفروه حول المدينة ، والذى سميت الوقعة به أيضاً وقد سميت كذلك بوقعة الأحزاب بسبب ذكر القرآن هذه الكلمة ، ولأن الغزاة مجموعة قبائل متحالفة متحزبة ؛ والآيات بسبيل ذكر ما كان من حالة الجزع التى استولت على عامة المسلمين ، ومواقف

الدس والتثبيط التي بدت من المنافقين، والخيانة التي كانت من اليهود، والتنويه بموقف النبي صلى الله عليه وسلم والمخلصين، والتنبيه على ما كان من تثبيت الله ونصره ورد الغزاة بغيظهم خائبين، وتمكين المسلمين من اليهود الخائنين لهم - بسبيل سرد مشاهد الوقعة؛ ومع ذلك فإن من الممكن اقتباس صورة لهذه المشاهد كما يلي:

١ - إن المشركين قد تجمعوا بجموع كثيرة، مؤلفة من مختلف القبائل المتحالفة وزحفوا على المدينة حتى أحدقوا بها من فوقها ومن أسفل منها.

٢ - إن اليهود في المدينة قد ظاهروا الغزاة على المسلمين.

٣ - إن جمهور المسلمين قد كربوا كرباً عظيما حتى زاغت أبصارهم، وبلغت قلوبهم الحناجر وزلزلوا زلزالا شديداً من الجزع والخوف، حتى لقد داخل بعضهم الريب في تأييد الله ونصره.

٤ - إن المؤمنين المخلصين قد سلموا أمرهم لله وازدادوا إيماناً به واعتماداً عليه، وقالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصبروا وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، ولم يبدلوا موقفهم من الايمان بالنصر والتأييد، والتضامن مع النبي والالتفاف حوله.

٥ - إن المنافقين ومرضى القلوب أظهروا جزعاً شديداً، واستغلوا الفرصة لإطالة ألسنتهم بالدس والتثبيط وسوء الأدب، فقالوا إن الله ورسوله لم يعداهم إلا غروراً، وهتف بعضهم بأهل المدينة ليرجعوا إلى بيوتهم بحجة أنها مكشوفة للعدو مع كذب ذلك، وكان قصدهم الفرار في حين أنهم عاهدوا الله ورسوله على عدم الفرار، وأخذوا يترقبون الحالة، ويتوقعون الشر بالمسلمين، حتى إنهم لم يصدقوا حينما قيل لهم إن الغزاة قد ارتدوا عن المدينة خائبين.

٦ - إن إهابة المنافقين بأهل المدينة للرجوع إلى بيوتهم وعدم البقاء في المقام الذي اتخذوه تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد عسكر بالمسلمين بعيداً بعداً ما عن البيوت.

٧ - إن النبي صلى الله عليه وسلم قد أظهر في هذه الوقعة ما أظهره في غيرها من رباطة الجأش وقوة الأعصاب والنشاط مما كان العامل الأكبر في العاقبة المحمودة التي تمثلت في ارتداد الغزاة دون أن ينالوا خيراً، ومما كان أسوة للمؤمنين المخلصين، وباعث طمأنينة لعامة المسلمين.

٨ - إن الله قد أرسل عاصفة من الريح أزعجت الغزاة أشد إزعاج ، وأوقع فى قلوبهم الرعب فيئسوا من نيل وطرهم ، وارتدوا خائبين ، ولم يقع اشتباك بينهم وبين المسلمين .

- ١١ -

وفى الروايات المروية عن هذه الوقعة بعض تفصيل نلخصه كما يلى :

كان زحف الأحزاب نتيجة لتحريض وفد يهودى لزعماء مكة وقبائل غطفان وقيس وغيلان ، وتحالفهم معهم ، وكان عدد الغزاة نحو عشرة آلاف ، وكان زحفهم فى السنة الهجرية الخامسة . ولما علم النبي صلى الله عليه وسلم بخبر استعداد الأحزاب للغزو تشاور مع المسلمين ، فاتفق الرأى على المرابطة حول المدينة وعدم الابتعاد عنها كما كان فى وقعة أحد ، وتقرر بإشارة من سلمان الفارسى رضى الله عنه حفر خندق حول القسم المكشوف من المدينة ، وتم حفره قبل وصول الغزاة ، وعسكر المسلمون من ورائه ، وكان عددهم ثلاثة آلاف ؛ وقد كان الخندق حائلا دون التشابك ؛ وظل الغزاة عشرين يوماً يحاصرون المدينة ، ولم يقع إلا حوادث قتال وبراز فردية ، وإلا تراشق بالنبال حينا بعد آخر ، ولم يصب إلا أفراد ومن الطرفين ؛ ثم أتى شخص من غطفان اسمه نعيم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأعلمه أنه مسلم يكتم إيمانه واستأمره فيما يقوم به من خدمة ، فأمره بالتخذيل والتثبيط ، فسعى بين اليهود وقريش حتى أوجد الشك والفتور فى كل فريق نحو الآخر ، ففترت العزيمة عن المناجزة والاستمرار ، وثارت فى هذه الأثناء زوبعة شديدة أزعجت الغزاة أيما إزعاج فاشتد فيهم السأم والفتور ، ولم يلبث أبو سفيان قائد قريش أن أعلن أنه مرتحل فتبعه الناس وارتحلوا .

والروايات غير متناقضة مع الآيات إجمالا ، والمتبادر أن ماجرى فى وقعة أحد هو الذى حمل النبى والمسلمين على البقاء قرب المدينة ، ويبدو أن الحملة على المنافقين عقب وقعة أحد جعلتهم يعتذرون ويعاهدون النبي صلى الله عليه وسلم على التضامن معه ومع المسلمين فى موقف آخر، فخرجوا وعسكروا معهم ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتفلتوا من نحيزتهم وخبثهم ، ومع أن من المحتمل جداً أن يكون لتحريض الوفد اليهودى أثر فى حركة الأحزاب، فالذى يتبادر لنا أن المكيين اعتقدوا أن ضربة أحد

أثرت فى المسلمين تأثيراً كبيراً ، ورأوا أن فى الإمكان استئصال شأفة النبي وحركته بزحف كبير يتضامنون فيه مع أحزابهم ومع من بقى من اليهود فى المدينة ، فأقدموا على تدبير الأمر حتى جاء على هذا الشكل الرهيب .

ووصف الآيات ما كان من اضطراب المسلمين الشديد يدل على أن اعتقاد المكيين بتحقيق هدفهم المذكور لم يكن واهيا ؛ لاسيما أن المسلمين كانوا ما يزالون قليلين وضعفاء ، وقوة أعدائهم المحيطين بهم تفوقهم كثيراً ، وبينهم مخامرون ، وبين ظهرانيهم خائنون . ولعل الحملة الشديدة اللاذعة التى حملتها الآيات على المنافقين ، وما كان من عدم الهوادة فى التنكيل ببنى قريظة ، متصلان بهذا الموقف العصيب الذى واجهه المسلمون وواجهته الحركة الإسلامية ؛ ولذلك نرى من الحق أن يعتبر ارتداد الأحزاب عن المدينة نصراً ربانيا عظيما ، بل من أعظم ما تم للنبي ودعوته من نصر وتوفيق ؛ ومما لا ارتياب فيه أنه كان ذا أثر كبير فيما تم من تعالى الإسلام ، وانتشار قوته ودعوته فيما بعد ، وأنه كان لهذا الارتداد أثر سلبي وإيجابى فى آن واحد ؛ إذ جعل العرب المتربصين والأعداء والمنافقين فى المدينة يرون فى هذه النتيجة دلالة النصر الربانى والقوة المعنوية العظيمة ؛ فيقف الأعداء عند حدهم ، ويكف المنافقون عن مواقفهم أو غلوائهم ، ويبدل المتربصون موقفهم من التربص إلى الإقبال ، ومن حقائق وقائع السيرة النبوية أن الدعوة الإسلامية والقوة الإسلامية قد أخذتا بعد هذه الوقعة وبعد التنكيل ببنى قريظة ، وخضد شوكة اليهود فى المدينة نهائياً بالازدياد ، وأن قوة المنافقين قد أخذت بالضعف والتضاؤل ، وأن المكيين لم يفكروا فى متابعة عدوانهم وزحفهم ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد رأى فى نفسه القوة وفى الميدان مجالا فى السنة التالية من هذه الوقعة على اعتزام زيارة الكعبة ، وأن المكيين قد رأوا فى هذه القوة ، فجنحوا إلى مسالمته وعقدوا معه صلح الحديبية على ما سوف نذكره بعد ؛ وكل هذا مما يدعم ما قلناه من أثر هذا النصر العظيم السلبي والإيجابى .

ولقد بسطنا الكلام على وقعة بنى قريظة وتنكيلهم فى فصل اليهود ، وهى الوقعة التى أشير إليها فى آيات الأحزاب ٢٥ - ٢٧ ، والتى تأتى فى حلقة الوقائع الجهادية القرآنية بعد وقعة الخندق ، فنكتفى بالإشارة إلى ذلك .

— ١٢ —

وفى سورة الفتح آيات احتوت إشارات إلى حدث عظيم من أحداث العهد المدنى يسلكه كتاب السيرة فى سلك الأحداث الجهادية بسبب ما كان فيه من مشاهد تمت إلى هذه الأحداث ، وهو صلح الحديبية .

وهذه هى آيات سورة الفتح :

١ — إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا . لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا . وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا . هُوَ الَّذِى أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا . وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ... ١ - ٦

٢ — إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا . سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ

الْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ
وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا . وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ
سَعِيرًا ... ١٠ — ١٣

٣ — لَقَدْ رَضِىَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ
مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا . وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً
يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا
فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِىَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ
وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ... ١٨ - ٢٠

٤ — وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ
بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . هُمُ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ
وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم
مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِى رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ
الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ
وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا .
لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ
اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا
فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا . هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ
الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ... ٢٤ - ٢٨

وسورة الفتح أو معظم آياتها على الأقل نزل بعد الصلح، كما هو شأن الفصول القرآنية فى الوقائع الجهادية، واستهدفت على ما تلهم مضامينها وأسلوبها التسكين والتنويه، والتنديد والتذكير برحمة الله وعنايته بالمسلمين، تعقيبا على ما كان من توتر بين المسلمين بسبب نتائجها؛ ومن الممكن اقتباس الصورة الآتية عنها:

— ١٣ —

١ - إن النبي صلى الله عليه وسلم رأى فى منامه أنه دخل مع المسلمين المسجد الحرام آمنين، وأدوا الزيارة، وتحللوا من الإحرام بحلق الشعر أو تقصيره على حسب تقاليد الزيارة والحج؛ فاعتبرها إلهاما من الله، وأعلن للمسلمين عزمه على الخروج إلى الزيارة، وندب المسلمين من أهل المدينة والأعراب للخروج معه.

٢ - وقد استجاب كثيرون إلى الدعوة، وتخلف فريق من الأعراب عنها ظنا أن النبي صلى الله عليه وسلم سيلقى مقاومة وحربا وأنه لا قبل له بأهل مكة وقد لا يرجع هو ومن معه إلى أهلهم أبداً.

٣ - ولما وصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى قرب مكة (بطن مكة) تصدى له المكيون، وأنذروه بالتوقف، وصدوه عن الزيارة، وصدوا الهدى الذى ساقه المسلمون ليقربوه إلى الله عن الوصول إلى المكان الذى تقرب فيه الأضاحى.

٤ - ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ما كان من المكيين اعتزم هو أيضا أن يقف موقفاً، قويا فدعا من معه من المسلمين إلى مبايعته على الثبات والتضامن، فأقبلوا على البيعة تحت شجرة كان يأوى إلى ظلها، وبدت أمارات ما فى قلوبهم من الإيمان والعزيمة على نصرة النبي على وجوههم.

٥ - ولقد كانت جولة حربية ما ظفر فيها المسلمون، ثم شاءت حكمة الله أن يكف أيدى الفريقين بعضهما عن بعض.

٦ - وقد تمسك المكيون ببعض الأمور التى رأوها من مقتضيات الكرامة والحمية، فقابل النبي ذلك - بإلهام الله - بالتساهل والسكينة لما رآه فى الموقف

من الفتح العظيم .

٧ - إن روح الآيات وبعض نصوصها تلهم أن بعض المسلمين قد استعظموا ما كان من تساهل النبي مع الكفار ورضائه بعدم الزيارة التي ألهمها في منامه فورا ؛ إذ احتوت كما أشرنا طمأنة وتسكينا ؛ فكررت وصف ما تم بالفتح العظيم والفتح المبين والفتح القريب ، وكررت ذكر ما كان من إنزال الله السكينة على رسوله والمؤمنين للفوز بهذا الفتح ، وأكدت أن الله مصدق الرؤيا التي رآها النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن المسلمين سيدخلون المسجد الحرام آمنين محلقين رؤسهم ومقصرين ، وأنه أعلم منهم بما يكون ، وأن الذي كان إنما كان بأمره وتدبيره وحكمته ، ولصالح المسلمين العاجل والآجل ؛ وأنه قد كبت به المنافقين والمشركين الذين ظنوا بالله ظن السوء ، وأن المؤمنين المصدقين بالله ورسوله سيكون لهم من عفو الله ونعيمه ما فيه الفوز العظيم .

٨ - وسين الاستقبال فيما كان متوقعا من اعتذار المتخلفين يدل على أن هذه الآيات - أو بالأحرى جل آيات السورة إن لم يكن كلها - قد نزلت عقب الوقعة ، وفي طريق العودة إلى المدينة ، بقصد الطمأنة والتسكين ، كما هو المتبادر .

— ١٤ —

ولقد احتوت الروايات بعض تفصيل نلخصه فيما يلي :

إن خروج النبي والمسلمين إلى هذه الزيارة كان في أواخر السنة السادسة من الهجرة وفي أشهر حجها ، وإن عدد الذين خرجوا كان نحو ألف وأربعمائة ، وإن النبي حينما وصل إلى مكان اسمه « ذو الحليفة » أحرم وأمر المسلمين بالإحرام ، وأشعر الهدى وقلده [١] ؛ وقد كانت أخبار سيره وصلت إلى مكة ، فهاج زعماؤها وتعاهدوا على منعه على أي حال ؛ وجاء الخبر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاستشار أصحابه فأشاروا بالمضي فيما ألهم الله ، فإذا صدتهم قريش قاتلوهم ؛ وتقدم الركب حتى إذا وصل الحديبية -

---

(١) أشعره : جرحه وأسال دمه . وقلده : وضع في عنقه القلادة ، وهذا وذاك تعظيم لقربان الله .

وهى قرية أو بئر على نحو مرحلة من مكة ـ بركت ناقة النبي صلى الله عليه وسلم ، فاستلهم من هذا وجوب التوقف وقال: والذى نفسى بيده لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة فيها تعظيم حرمات الله وفيها صلة رحم إلا أعطيتهم إياها ؛ وجاءه رئيس بنى خزاعة وكان مناصحاً للنبي مع قومه ، فأخبره أن قريشاً وأحلافهم قد اعتزموا صده على كل حال ، فأرسله يخبرهم أنه إنما جاء للزيارة ولم يجئ للقتال ، وأنه يدعوهم إلى التهادن والسماح له بالزيارة ، والتخلية بينه وبين العرب ، فإن هلك كفوا مؤونته ، وإن أظهره الله كانوا فى الخيار ، وينذرهم إذا هم أمعنوا فى العناد وإرادة البغى بالقتال حتى تنفرد سالفته (٢) ولينفذن الله أمره ؛ فذهب الرجل وأبلغ الرسالة ، وكان زعيم ثقفى حاضراً ، فنصحهم بقبول ما يقترحه النبي صلى الله عليه وسلم ، وتكرر النصح من زعماء آخرين تحققوا أن النبي إنما جاء زائراً ومعه هديه ، ورأوا فى صده وقتاله بغياً ، وخاصة فى الأشهر الحرم ومنطقة المسجد الحرام ؛ وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم من جانبه عثمان بن عفان رضى الله عنه ليخبر الناس برغبته عن القتال ، ورغبته فى الزيارة وحسب ؛ فأبطأ فى العودة وشاع أن قريشا حبسته أو قتلته ؛ فدعا المسلمين إلى البيعة على الثبات والاستماتة إذا ما أصرت قريش على موقفها الباغى ، وتمت البيعة تحت شجرة ، وسميت بيعة الشجرة ، ولم يلبث عثمان أن رجع ؛ ورأت قريش أن ترسل سهيل بن عمرو إلى النبي صلى الله عليه وسلم للتفاوض على عقد هدنة ، مزوداً بشروط عسيرة ، مثل تأجيل الزيارة إلى العام القابل ، وإعادة من يأتى النبي صلى الله عليه وسلم مسلما من مكة على رغم أهله ، وعدم إعادة من يلتحق بمكة من المسلمين مرتدا . وقبل النبي صلى الله عليه وسلم الشروط بعد مفاوضات وجذب ودفع ، واتفق على أن تكون مدة الهدنة عشر سنين ؛ وكتب بذلك عهد ختمه النبي بخاتمه ووقعه سهيل عن قريش ؛ وحينئذ أمر النبي صلى الله عليه وسلم بذبح الهدي وحلق الشعر أو تقصيره والتحلل من الإحرام ، ثم نادى بالعودة . وقد روى فيما روى أن بعض فرسان قريش حاولوا أخذ المسلمين على غرة قبل التراضى على الهدنة ، فدرى النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل من كمن فى طريقهم ، وأمكن أسر بعضهم ثم منّ عليهم وأطلقهم . كذلك روى أن أبا جندل بن سهيل بن عمرو ـ وكان مسلماً وكان أبوه يعذبه ليفتنه ويمنعه عن الهجرة ـ جاء فاراً يرسف بأغلاله حينما درى

---

(٢) حتى يقتل .

أن النبي والمسلمين في الحديبية ، وكان التراضي قد تم على الشروط ، فاحترم النبي صلى الله عليه وسلم عهده ، ورد أباجندل إلى أبيه حينما أصر هذا على استرداده ولقد ثقلت شروط الهدنة على فريق من المسلمين ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وصعب عليهم خاصة الرجوع بدون زيارة ، حتى إن منهم من كاد يزيغ ، لأن رؤيا النبي حق ، وقد دعوا إلى الخروج بإلهامها الذي اعتبره النبي إلهاماً من الله ، وراجعوه وحاوروه ، ومنهم من تباطأ في تنفيذ أمره في نحر الهدى والتحلل من الإحرام ؛ ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أعلمهم أنه إنما يسير بإلهام الله ، وثبت قلوبهم حتى عاودتهم الطمأنينة ؛ ولم تلبث أن نزلت سورة الفتح مؤيدة لما فعل النبي صلى الله عليه وسلم ، ومسكنة لنفوس المسلمين ؛ ومما رواه البخاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد ما كان منه من تألم وتحمس سار إلى جانب النبي صلى الله عليه وسلم فكلمه فلم يجبه ، ثم كلمه فلم يجبه ، فقال لنفسه : ثكلت أم عمر ! نزرت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات فلا يجيبك ؛ ثم تقدم أمام الناس وخشى أن ينزل فيه قرآن ، وأنه ما لبث أن سمع منادياً يدعوه ، فقال في نفسه : لقد وقع ما خشيت ، فلما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال له : لقد أنزلت على الليلة سورة هي أحب إلى مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ سورة الفتح . وكذلك مما روى أن بعض المسلمين قال : ما هذا بفتح ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : بئس الكلام هذا ؛ بل إنه أعظم الفتوح ، رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح ، ويسألوكم القضية [1] ، ويرغبون إليكم بالأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا .

وليس في هذا الملخص ما لا يتسق مع الآيات كما هو المتبادر . ولا ريب في أن هذا الصلح الذي سماه القرآن بالفتح العظيم يستحق هذا الوصف كل الاستحقاق ؛ بل إنه ليصح أن يعد من الأحداث الحاسمة العظمى في السيرة النبوية وفي تاريخ الإسلام وقوته وتوطده أو بالأحرى من أعظمها : فقد اعترفت قريش بالنبي والإسلام وقوتهما وكيانهما ، واعتبرت النبي والمسلمين أنداداً لها ، بل دفعتهم عنها بالتي هي أحسن في حين أنها غزت المدينة في سنتين مرتين وكانت الغزوة الأخيرة قبل سنة من هذه الزيارة وبحشد عظيم مؤلف منها ومن أحزابها لتستأصل شأفتهم وبعثت هذه الغزوة في نفوس المسلمين أشد الاضطراب والهلع لضعفهم وقلتهم إزاء الغزاة ؛

---

(١) التقاضي والتفاوض بدلا من الصد والبغي السابقين .

ولهذا شأن عظيم فى نفوس العرب الذين كانوا يرون فى قريش الإمام والقدوة ، والذين كانوا متأثرين بموقفهم الجحودى كل التأثر . وإذا لوحظ أن الأعراب كانوا يقدرون أن النبى والمسلمين لن يعودوا سالمين من هذه الرحلة ، وأن المنافقين كانوا يظنون أسوأ الظنون ، بدت لنا ناحية من نواحى خطورة هذا الفتح وبعد مداه .

ولقد أثبتت الأحداث صدق إلهام النبى صلى الله عليه وسلم فيما فعل ، وأيده فيه القرآن ، وأظهرت عظم الفوائد المادية والمعنوية والسياسية والحربية والدينية التى عادت على المسلمين منه : إذ قووا فى عيون القبائل ، وبادر المتخلفون من الأعراب إلى الاعتذار ، وازداد صوت المنافقين فى المدينة خفوتاً وشأنهم ضآلة ، وإذ صار العرب يفدون على النبى صلى الله عليه وسلم من أنحاء قاصية ، وإذ تمكن من خضد شوكة اليهود فى خيبر وغيرها من قراهم المنتشرة على طريق الشام ، وإذ صار يستطيع أن يبعث بسراياه إلى أنحاء قاصية أيضاً كنجد واليمن والبلقاء [1] ؛ وإذ استطاع بعد سنتين أن يغزو مكة ويفتحها ، وكان فى ذلك النهاية الحاسمة ؛ إذ جاء نصر الله وفتحه ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً .

وهذا التطور فى حالة مكة والمكيين من القوة والهجوم والتفوق والإيغال فى البغى والرغبة فى الاستئصال تجاه النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين والمدينة ، إلى شىء من الضعف ، وجنوح إلى المسالمة معه ، والاعتراف به نداً - لافت للنظر من دون ريب ؛ ومما يخطر على البال أنه قد طرأ طارئ ما مادى أو معنوى ، سياسى أو حربى ، أو شقاق فيما بينهم لسبب من الأسباب أوهن من تضامنهم وصلابتهم فكان هذا الموقف الذى عاد منه على الإسلام فتح عظيم كان له تلك الآثار الخطيرة المتنوعة .

ولقد روى أن أحد بنى بكر الذين دخلوا فى عهد مكة حينما عقد صلح الحديبية وخير أعراب مكة فى الالتحاق بعهد أحد الفريقين ، اعتدى على أحد بنى خزاعة الذين دخلوا فى عهد المسلمين فقتله ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم اعتبر هذا نقضاً للصلح ، وأن قريشاً أوفدت أبا سفيان إلى المدينة لتوثيق عقد الصلح القائم فأبى النبى صلى الله عليه وسلم عليه ذلك ؛ فهذه الرواية إذا صحت - ونحن نميل إلى صحتها لأن غزو مكة الذى

---

(١) هذه السرايا قد وقعت بعد صلح الحديبية ، وسرية البلقاء هى التى اشتهرت بوقعة مؤتة .

وقع بعد سنتين من الصلح من جانب النبي صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يكون وقع إلا بسبب نقض من الجانب الآخر - تدعم ما قررناه من أسباب تبدل حال مكة والمكيين المحتملة كما هو ظاهر[1] .

على أن هذا لايعني فيما يتبادر لنا أن لايكون لارتداد الأحزاب عن المدينة - ذلك الارتداد الخاسر الذي زلزل ثقتهم في قدرتهم على النبي صلى الله عليه وسلم ، ولخضد شوكة يهود المدينة نهائيا ، ولضآلة شأن منافقيها ، ولازدياد إقبال الناس على الإسلام وتعاليه بعد هذا وذاك - آثار إيجابية في هذا التطور أيضا .

- ١٥ -

هذا ؛ ولقد جاء في سورتي الممتحنة والمائدة بعض آيات لها صلة بصلح الحديبية رأينا إيرادها والتعليق عليها لأن فيها بعض مشاهد من السيرة متصلة بهذا الحادث العظيم . وإليك أولا آية الممتحنة :

« يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَ ٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَاهُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا مَا أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ... ١٠

والآية تلهم مع الاستئناس بالروايات المنسقة إجمالا معها أن بعض المؤمنات اللاتي لم يستطعن أن يهاجرن إلى المدينة قبل الصلح اغتنمن فرصته فهاجرن خلسة ، وأن ذويهن جاؤوا يطالبون بإعادتهن وفقاً لشروط الصلح ، فنزلت الآية تنهى عن إعادتهن ، وتأمر بالتعويض على أزواجهن ؛ ولقد تعددت الأقوال في حقيقة نص وثيقة الصلح ، ومنها أنه كان مطلقا وبصيغة التذكير ،

---

(١) للمستشرق الطلياني كايتاني توجيه في هذا الصدد .

فرأى المكيون أنه شامل للرجال والنساء معا فجاؤوا يطالبون بالإعادة ، ورأى النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يشمل النساء فنزلت الآية حاسمة للأمر ؛ وهذا هو المعقول ، لأنه لو كان هناك مفهوم صريح لكان للأمر حكم أو موقف آخر ، إذ يكون في عدم الإعادة نقض للعهد ، وهذا غير ممكن الصدور من النبي صلى الله عليه وسلم وغير متسق مع المبادئ القرآنية ؛ بل لقد حض القرآن على احترام عقد الحديبية بالذات في آيات المائدة التي سنوردها بعد ؛ وآيات سورة التوبة ١ - ١٦ التي منها ما نزل قبل فتح مكة ومنها ما نزل بعد قد شددت على الوفاء بالعهد ما دام المعاهدون أوفياء له ، كما أن منها ما يلهم أن النقض إنما وقع من الجانب الآخر فكان ما كان من اعتزام النبي غزو مكة ؛ هذا من جهة ؛ ومن جهة أخرى إن المشركين ما كانوا يقبلون ذلك ، ولو كان لاعتبروا الهدنة منقوضة ، وحملوا تبعة النقض على النبي ، والمعروف أن نقض الهدنة كان من الجانب الآخر ، وأن النبي هو الذي اعتبرها منقوضة من جانبهم ؛ ولعل حكم الآية بالتعويض على أزواج المسلمات المهاجرات مما اقتضته الحكمة لإرضاء معاهد يرى له شبهة من الحق ، وللتدليل على حسن النية في احترام الصلح من جانب النبي أيضا ؛ ولم يرد في الروايات أن أزواج المهاجرات وذويهن قد رفضوا هذا الحل ؛ ولعل من السائغ أن يقال بالإضافة إلى ما قلناه أن التطور الذي نبهنا عليه في حالة مكة والمكيين قد جعل المكيين لا يتشددون في أمر ليس فيه مخالفة لنص صريح أيضا .

ومما يلفت النظر أن الآية جعلت الحقوق متبادلة بين المسلمين والمشركين في مطالبة الأزواج المسلمين تعويضا عن نسائهم اللاتي تخلفن عنهم ولو كن كوافر ، وفي مطالبة الأزواج المشركين تعويضا عن نسائهم اللاتي أسلمن والتحقن بالمسلمين ؛ ففي هذا صور عما صار بين المسلمين والمشركين من ظروف عهدية وسلمية مستمرة ومحترمة من الطرفين .

أما آيات المائدة فهي هذه :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ :

يٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَٰئِرَ اللهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْىَ وَلَا الْقَلَٰئِدَ وَلَا ءَامِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَٰنِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ... ١ - ٢

وقد روى المفسرون فى صدد الآية الثانية أن زعيما من بنى بكر جاء مستطلعا فلقى النبى صلى الله عليه وسلم وسمع منه ، ثم قفل لاستثارة قوم ، وصادف خارج المدينة مواشى فنهبها ، وأنه خرج بعد مدة ما مع بعض قوم إلى الحج وكانت طريقهم قريبة من المدينة ، فأراد بعض المسلمين أن يثأروا منهم فنزلت الآية بالنهى ؛ كذلك رووا أن بعض المسلمين ظلوا ناقمين على المكيين صدهم إياهم عن زيارة الكعبة حينما خرجوا إليها ، وكانوا يهمون باغتنام ما يسنح لهم من الفرص لإلحاق الأذى بهم ، ومن جملة ذلك صد الحجاج عن مكة .

ومهما يكن من أمر الروايات فإن مضمون الآية الثانية يلهم حدوث بعض تصرفات أو هم ببعض تصرفات من جانب بعض المسلمين فيها إخلال بحرمة الحج وتقاليده ، ومنع للحجاج بقصد إلحاق الضرر بأناس بينهم وبينهم عداء أو بغضاء ، حتى إن الآية عدت ذلك تعاونا على الإثم والعدوان ، وأنذرت الذين يتضامنون فيه بعقاب الله الشديد ؛ وجملة « يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا » تلهم أن الحجاج الذين نهى المسلمون عن التعرض لهم مسلمون أيضا ، وفى ذلك نقض للرواية التى أوردها المفسرون ؛ وهذا يسوغ القول إن بعض المسلمين عطلوا آخرين منهم عن الحج بقصد إلحاق الأذى بأهل مكة الذين كان الحج والحجاج من أعظم مواردهم ودعامات حياتهم الاقتصادية .

ولما كانت سورة المائدة تأتى فى ترتيب النزول بعد سورة الفتح ، ولما كان الراجح أن هذا الترتيب بسبب مطلع السورة فى الدرجة الأولى ، لأن فى السورة مجموعات يرجح أنها نزلت قبل سورة الفتح - فإن من غير المستبعد أن تكون كلمة

«العقود» الواردة فى الآية الأولى قد عنت عقد صلح الحديبية ، إذ اعتبرت تعرض المسلمين لصد الحجاج عن الحج وإخلال حرمة الأشهر الحرم وتقاليد الحج الأخرى نقضاً له ، لأن فيه أذى بالمعاهدين فوق ما فيه من إخلال بحرمات وتقاليد مقدسة أقرها القرآن من حيث المبدأ ؛ وكأن الآية أرادت أن تقول إن سفك دم الصيد فى الأشهر الحرم هو محرم فكيف بغيره ؟وكيف بنقض العقود ؟

نقول هـذا مع علمنا أن بعض المفسرين قالوا إن كلمة «العقود» قد عنت ما دخل المسلمون فيه من عهود مع الله فى احترام حرماته وتعظيم شعائره باعتناقهم الإسلام ديناً ؛ وقد رأينا فى هذا القول شيئاً من التكلف يظهر حينما نمعن النظر فى الآيتين معاً وهما مرتبطتان ،وضوعا ونزولا أيضاً ؛ على أننا لو سلمنا بما قالوه فالآية الثانية على الأقل صريحة الدلالة على همّ بعض المسلمين بالتعاون على الإخلال بتلك الحرمات والشعائر اندفاعا بفكرة إلحاق الأذى بمن يحقدون عليهم ويضمرون لهم العداء ، وهم أهل مكة على الأغلب ، لأن الحجاج إنما يؤمون البيت الذى فيها ؛ وفى هذا صورة من صور العهد المدنى تدل على تأصل العداء ، وعلى ما حفز هذا العداء المسلمين إليه من الوقوف هذا الموقف الذى اقتضت الحكمة النهى عنه بهذا الأسلوب الزجرى الشديد توطيداً لحرمات الله وشعائره ، وللحرية الدينية مهما كان الباعث والحافز ؛ وفى هذا من الروعة وبعد المدى ما هو ظاهر ؛ وقد كان من دون ريب ناظماً لتصرفات المسلمين فى العهد النبوى ، كما أنه مستمر التلقين والإيحاء فيما بعده من عهود

— ١٦ —

وللتسلسل التاريخى نذكر أن من الأحداث الجهادية المهمة التى ورد ذكرها فى القرآن فتح خيبر وغيرها من القرى اليهودية ، إذ احتوت آيات من سورة الفتح إشارات إلى ذلك ، وقد وقع هذا بعد صلح الحديبية بمدة قصيرة . ولقد بسطنا الكلام عن هذه الوقعة وظروفها ونتائجها فى فصل اليهود ، فنكتفى بالإشارة إليها .

— ١٧ —

وبعد صلح الحديبية بسنتين تم الفتح المكى . وعلى خطورة هذا الفتح وجلالة

شأنه فإنه لم يرد عنه فى القرآن إلا إشارات خاطفة وغامضة أوضحتها الروايات إيضاحا ما ، ففى سورة التوبة الآيات ٧ - ١٦ التى أوردناها فى مكان سابق من هذا الفصل ؛ ومضمون الآيات يلهم أنها نزلت قبيل فتح مكة ، وفى صدد الحث والاستنفار إلى غزوها ، كما يلهم أن ذلك قد كان بسبب نكث بدأ من جانب أهل مكة المعاهدين ؛ وفى السورة نفسها الآيات ٢٣ - ٢٤ التى أوردناها سابقاً أيضاً ، ومضمونها يلهم أنها نزلت كذلك قبيل الفتح وفى الصدد نفسه ، حتى لا يتأثر المهاجرون بروابط الرحم والقربى والمصلحة المادية التى كانت تربط كثيراً منهم بأهلها ؛ وفى سورة الممتحنة الآيات ١ - ٣ التى نقلناها فى الفصل الأول من العهد المدنى ، وقد أجمع المفسرون والرواة على أنها نزلت بين يدى الفتح المكى ، وبمناسبة إرسال أحد المسلمين لبعض زعماء مكة تحذيراً باستعداد النبى لغزو مكة ؛ وقد احتوت حثا وتحريضاً ، ونهياً عن موالاة أعداء الله ورسوله والمؤمنين ، وتنبيها على أن الأرحام والأولاد لن تغنى عن المسلمين شيئا ، مما ينطوى فيه التحريض والإعداد ؛ ولقد جاء بعدها آيات تذكر ما كان من براءة إبراهيم عليه السلام والمؤمنين معه من قومهم لكفرهم ، وتدعو المسلمين للتأسى بهم ، مما هو متصل بالهدف الذى ذكرناه ؛ وقد رجحنا فى مناسبة سابقة أن الآيات تلهم أنها أوسع شمولا وتناولا من حادث فردى ، وآيات براءة إبراهيم عليه السلام مما يقوى هذا الترجيح ؛ وفى سورة النصر جاءت كلمة الفتح التى يذهب جمهور المفسرين إلى أنها كناية عن فتح مكة والتى جاءت بسبيل بيان ما كان من أثر هذا الفتح فى قوة الإسلام ونصره وانتشاره ، ولو أنها نزلت كما يرجح بعد الفتح بمدة غير يسيرة ، لتذكر النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين بما أتمه الله لهم من فتح ونصر ، وبما صار للإسلام من قوة وشيوع .

أما ملخص ما ذكرته الروايات عن هذا الفتح فهو أنه قد تم فى الثلث الأخير من شهر رمضان من السنة الهجرية الثامنة ، وأن السبب المباشر له نقض قبيلة بنى بكر التى كانت داخلة فى عهد قريش وقتل أحد أفرادها شخصا من بنى خزاعة التى كانت داخلة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وتشجيع بعض القرشيين البكريين فى موقفهم ، وقد ذهب الخزاعيون إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبروه بما وقع عليهم من بغى واستنصروه ؛ وقد شعر أبو سفيان بخطورة الحادث فسارع إلى المدينة للاعتذار منه ،

وتوثيق العهد القائم بين المسلمين والمكيين ؛ ولقد أخفق أبوسفيان فى مهمته ، وأخذ النبى صلى الله عليه وسلم يستفز المسلمين ، وتم له حشد عظيم بلغ عدده عشرة آلاف من مهاجرين وأنصار وأعراب ، وسار به نحو مكة ؛ ودرى المكيون فاستنفروا حلفاءهم ؛ ولكن معظم هؤلاء الحلفاء وخاصة هوازن وثقيف، تأخر فى مسيره ، ولم ينضم إلى القرشيين إلا بنو بكر من الأعراب وأحابيش مكة ، وهم الغرباء النازلون فى ضواحى مكة والمختلطون من شتى القبائل والأجناس ؛ وقد رأى القرشيون أن لاطاقة لهم بالمقاومة ، فاستسلموا للنبى صلى الله عليه وسلم وحكمه ، ولم يقع إلا اشتباك جزئى فى ناحية من أنحاء مكة ، ومع فريق من الجيش دخل منها وفقا لخطة سير الجيش ، وأسفر عنه بعض القتلى ، فأرسل النبى صلى الله عليه وسلم أمراً بالكف عن القتال حالما بلغه الخبر . وقد خطب النبى صلى الله عليه وسلم عقب دخول مكة فأعلن العفو عن أهلها ؛ وقد طهر ساحة الكعبة وداخلها من الأصنام ، وأقبل الناس على مبايعته على الإسلام حتى عم وظهر فيها دين الله وكلمته ، ثم ولى فتى من أحد بيوتات مكة غير البارزة واليا عليها وقفل راجعا . ومما جاء فى خطبته .

« لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج . يامعشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب . يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عندالله أتقاكم . يامعشر قريش، ماترون أنى فاعل بكم ؟ فأجابوا : خيراً ؛ أخ كريم وابن أخ كريم ! فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء . إن الله حبس عن مكة الفيل ، وسلط عليها رسوله والمؤمنين . ألا وإنها لم تحل لأحد قبلى ولاتحل لأحد من بعدى ، وإنما حلت لى ساعة من نهار هى ساعتى هذه » .

ومما روى أن العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم أخذ أباسفيان إليه وهو معسكر على مرحلة من مكة يتهيأ للدخول مع جيشه فأسلم على يديه ، وكرمه النبى فآذن أن من دخل بيت أبى سفيان فهو آمن ، كما أنه أذن أن من دخل المسجد الحرام فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .

كذلك مما روي أن الأنصار أخذوا يتساءلون عما إذا كان النبى وقد نصره الله

على قريش ، ويسر له فتح مكة ، يعود ثانية إلى المدينة أو يبقى فى مكة ويتخذها مقره ؟ فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فجمع زعماءهم وقال لهم : « معاذ الله ! المحيا محياكم والممات مماتكم » .

- ١٨ -

ونص سورة النصر الرائع يغنى عن التعليق على ما كان من آثار الفتح الباهرة ، إذ انهدم السد الذى كان بين الإسلام وسائر العرب فتدفق سيل وفودهم - بعد انهدامه - على النبي صلى الله عليه وسلم من كل صوب، حتى ليقال إن النبي لم يمت حتى دانت الجزيرة إجمالا للإسلام ، وكان فى ذلك تحقيق البشرى القرآنية بإظهار الإسلام على الدين كله التى احتوتها آية سورة الفتح ٢٧ ولم يمض على نزولها إلا سنتان . ولقد كان من آثار الفتح العظيم ، تلك الغزوة الكبرى التى سار النبي صلى الله عليه وسلم على رأسها إلى تبوك بنحو ثلاثين ألفاً ، والتى تكشفت عن رؤيته إمكانا لدفع الإسلام إلى الآفاق البعيدة وتوطيد حرية الدعوة إليه على ما ذكرناه فى فصل النصارى .

وغزو النبي صلى الله عليه وسلم لمكة بعشرة آلاف مقاتل هو فى ذاته دليل على ما وصل إليه أمر الإسلام والمسلمين من قوة وتعال وشيوع ، كما أن نزول المكيين على حكم النبي صلى الله عليه وسلم دون محاولة دفاعية دليل على ما امتلأت نفوسهم به من هيبة المسلمين والرهبة منهم ، هذا إلى ما نبهنا إليه قبل قليل من احتمال طروء ما بدل حالهم من قوة إلى ضعف ، ومن تضامن إلى تخاذل ، ومن صلابة إلى جنوح للمسالمة والمسايرة . وقدوم أبي سفيان لتوثيق العهد إذا صح - وهو ما لا نستبعده بعد ما ارتضت قريش الاعتراف بالنبي ندأ وعقد صلح معه - دليل على هذا وذاك . ومما لا ريب فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أدرك الموقف فاستغله أحسن استغلال .

- ١٩ -

وفى سورة التوبة آيات تشير إلى يوم حنين ، وهو أحد وقائع الجهاد النبوى . ومن الجدير بالذكر أنها الوقعة الوحيدة التى ذكر اسمها فى الآيات الواردة عنها . وقد جعلنا الكلام عنها عقب الكلام على فتح مكة لأنها وقعت عقب الفتح . وهذه

الآيات أولا :

« لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَـٰفِرِينَ . ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... ٢٥ - ٢٧

والآيات وردت فى معرض تذكير المسلمين بتأييد الله لهم ، وحثهم على الاعتماد عليه ، والاستجابة للنبي فى دعوته إلى الجهاد . والصورة التى يمكن اقتباسها منها هى هذه :

١ - إن عدد المسلمين فى هذا اليوم الجهادى كان كثيراً حتى أنهم ازدهوا به .

٢ - إن المسلمين مع ذلك اضطربوا حين اشتباكهم بالعدو ولم تغن عنهم كثرتهم شيئاً ، ولم يلبثوا أن انهزموا .

٣ - إن الله ثبت النبي صلى الله عليه وسلم والمخلصين من المؤمنين فى الميدان وأيدهم بروحه ونصره ، فلم يلبث الموقف أن انقلب إلى مصلحة المسلمين وتمت الهزيمة على الكفار .

٤ - إن فريقا من المحاربين قد ترشح لعفو الله وتوبته أو قد نالهما فعلا فاندمج فى الإسلام والمسلمين .

أما ما جاء فى الروايات عن هذه الوقعة فيمكن تلخيصه كما يلى :

بلغ النبي صلى الله عليه وسلم وهو فى مكة أن قبائل هوازن قد احتشدت بوادى حنين ، فاعتزم أن يسير إليها ، فسار بجمع كبير يتراوح على حسب الروايات بين عشرة وستة عشر ألفاً فيهم كثير من قريش الذين أسلموا ؛ وكان عدد المحتشدين من هوازن أربعة آلاف ؛ ولما اشتبك الفريقان بدا من المسلمين شىء من الاستهتار بالعدو لقلته وكثرتهم ، غير أن نبالة هوازن المهرة رشقوهم بمدرار من السهام فلم يلبثو أن اضطربوا واختل توازنهم وولى أكثرهم الادبار خلا النبي صلى الله عليه وسلم وبضع مئات من المخلصين ، وقد أخذ منادى النبي يهتف بالناس ويدعوهم إليه ، فلم يلبث المسلمون أن عادوا إلى

رشدهم وكروا ثانية فانهزم مقاتلو هوازن تاركين نساءهم وذراريهم ومواشيهم غنيمة للمسلمين؛ ثم أرسلوا وفداً يعرض على النبي صلى الله عليه وسلم إسلامهم ويطلب رد سبيهم وماشيتهم، فاستشار النبي المسلمين من جهة، وخير رجال هوازن بين السبي والماشية من جهة؛ وقد تم الأمر على رد السبي وتوزيع الماشية، ودينونة هوازن بالإسلام. وقد وزع النبي أكثر الماشية على المسلمين المستجدين من زعماء مكة والقبائل قبل أن يعود، تألفاً لقلوبهم. وقد ذكرت الروايات فيما ذكرت موقفاً رائعاً بين النبي والأنصار في صدد هذا التوزيع؛ فقد وجد بعض هؤلاء في أنفسهم حينما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم قد وزع الغنائم على المستجدين ولم يعط الأنصار منها شيئاً، وبلغ ذلك النبي فجمعهم وخطبهم قائلا: يامعشر الأنصار! ماقالة بلغتني عنكم وجدة وجدتموها على في أنفسكم! ألم آتكم ضلالا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ فقالوا: بل الله ورسوله أمن وأفضل. فقال لهم: أما والله لو شئتم لقلتم ولصدقتم: أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلا فآسيناك؛ يامعشر الأنصار! أوجدتم في نفوسكم بلعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم لإسلامكم؟ ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار! اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار. فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم وهتفوا قائلين: رضينا برسول الله قسما وحظا.

والمتبادر أن سير النبي صلى الله عليه وسلم إلى هوزان إنما كان بسبب احتشادها في وادي حنين في طريقها إلى مكة انتصارا لها على المسلمين؛ وبكلمة أخرى: إن موقف العداء المباشر قد بدأ منها فضلا عن موقفها العدائي السابق للمسلمين فيما كان من تضامنها مع قريش في حملة الأحزاب. ومن روح الآيات وفحوى الروايات يبدو أنه كان لهذه القبائل حيز عظيم من حيث القوة والعدد، وطبيعي أن يكون لانتصار المسلمين عليهم، ودينونتهم بالإسلام بعد ذلك أثر في ازدياد قوة الإسلام وشيوعه وتعاليه في منطقة مكة.

وليس فى القرآن ما يشير إلى فتح الطائف وإسلام ثقيف على خطورة الحادث؛ أما الروايات فقد ذكرت أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن انتهى من هوازن ذهب لحاصر الطائف ، لأن أهلها ثقيفاً كانوا حلفاء قريش وسارعوا إلى نصرتهم حينما جاء يغزو مكة ولكنهم لم يتمكنوا من اللحاق فقفلوا راجعين ، وقد كان لها سور منيع حال دون فتحها فى هذه المرحلة ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بفك الحصار بعد عشرين يوما والعودة إلى المدينة . ولقد كانت رحلة تبوك الكبرى بعد ذلك بقليل ، مما يسوغ القول إن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير خطراً من ترك الطائف إلى فرصة أخرى ، ورأى العودة والتعجيل برحلة تبوك ففعل ذلك ، لاسيما أن الطائف وسكانها قد غدوا شبه منعزلين فى وسط دان أكثره بالإسلام بدينونة مكة وهوازن والقبائل الأخرى المحيطة بمكة بالإسلام ، وكان بين بعض الذين لم يدينوا به وبين النبي صلى الله عليه وسلم مواثيق صلح وسلام على ما ألهمته آيات سورة التوبة الأولى .

ولقد جاء فى سورة التوبة الآية التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ... ٢٨

والآية فى صدد تحديد علاقة المشركين التقليدية بالمسجد الحرام ومنطقته المحرمة فى ظل الإسلام ، لأنها نزلت بعد فتح مكة كما يلهمه مضمونها ؛ وقد احتوت دلالة على توطد سلطان الإسلام وشموله فى مكة ، وما صار إليه من قوة وعزة جانب ، غير أنها إلى هذا انطوت على معنى من معانى إعلان المقاطعة وسد الأبواب فى وجه من بقى على شركه بعد الفتح ؛ ولعل أهل الطائف هم المقصودون فى الدرجة الأولى بهذا ، لأنهم أهم من بقى على شركه من سكان الحجاز . ولقد ذكرت الروايات أنهم بعد بضعة أشهر من فك الحصار عنهم أخذوا يفكرون فى طريقة التفاهم مع النبي ، وجاء منهم من فاوضه فعلا ، ثم انتهى الأمر إلى دينونتهم بالإسلام على يد وفد منهم جاء

إلى المدينة مبايعاً النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك ؛ وهذا مما قد يدعم ما قلناه من أنهم كانوا هم المقصودون أو المقصودون بالدرجة الأولى من المقاطعة التي انطوت في الآية ؛ فلعلهم أسرعوا إلى الاتصال بالنبي حينما أعلن تحريم دخول المشركين للحرم يوم الحج الأكبر الذي أعلنت فيه البراءة من المشركين المعاهدين الذين بدا منهم الختل أو النكث على ما ذكرناه في مناسبة سابقة ؛ أو حينما سمعوا العزم على إعلان ذلك ، لأنهم رأوا فيه ضربة قاضية عليهم ماديا ومعنويا فلم يروا مناصا من المسارعة إلى الخروج من المأزق الحرج ؛ وطبيعي أن ترجيحنا أن أهل الطائف هم المقصودون في الدرجة الأولى من المقاطعة لا يعني أن لا يكون قد قصد بها سائر من بقي على شركه .

وواضح أنه لا يرد أي معنى من معاني مصادرة الحرية الدينية في هذه المقاطعة والحظر ، لأن البيت الحرام قد أصبح طاهرا من مظاهر الشرك ، وأصبحت تقاليد الحج مثل ذلك ، وصار تحت السلطان الإسلامي ؛ وليس من المعقول أن يسمح للمشركين بممارسة تقاليد الوثنية فيه ، عدا ما له من الحق الطبيعي في سد بابه على أعدائه السياسيين والدينيين .

- ٢١ -

وفي صيف السنة التاسعة استنفر النبي المسلمين إلى غزوة تبوك التي بسطنا ظروفها ونتائجها في فصل النصارى ، والتي نزلت فصول عدة من سورة التوبة في صددها ؛ فنكتفي بهذه الإشارة إليها هنا لإتمام التسلسل التاريخي للوقائع الجهادية التي ذكرت في القرآن .

هذا ؛ ونريد أن نشير إلى آية مدنية في سورة الشعراء لما ينطوي فيها من صورة جهادية طريفة ؛ وهي الآية الأخيرة منها :

« إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ...

وقد جاءت بعد آيات مكية فيها حملة لاذعة على الشعراء ، وهي الآيات ٢٢٤ - ٢٢٦ التي أوردناها في مناسبة سابقة .

وطابع الآية المدني لا يتحمل شكا ؛ فالمسلمون إنما استطاعوا أن ينتصروا لأنفسهم في العهد المدني ، وحكمة وضعها من السورة المكية واضحة ، والاستثناء هو للشعراء المسلمين كما يبدو واضحا كذلك حينما يقرأ ما قبل الآية .

أما الصورة التي تنطوي فيها فهي أن شعراء المسلمين المخلصين كانوا ينتصرون للمسلمين بشعرهم ممن كان يبدؤهم بالظلم والبغي ، أي أن شعراء الكفار كانوا يحاربون النبي والمسلمين بسلاح الشعر ، وكان شعراء المسلمين يقابلونهم بالمثل ، وهذا مما أيدته الروايات المتواترة ، ومما هو طبيعي ؛ لأن الشعر كان جزءاً مهما من حياة المجتمع العربي وسلاحاً من أسلحته في ذلك العهد .

ويلفت النظر خاصة إلى روعة اتساق استعمال شعراء المسلمين لهذا السلاح مع المبدإ الجهادي العام وهو الدفاع والمقابلة .

فصــــل
فى التشريع القرآنى وصلته بالسيرة النبوية

تمهيـــد

صلة التشريع القرآنى بالسيرة النبوية ومشاهدها - مدنية التشريع ومداها .
تعليل مدنية التشريع . مباحث هذا الفصل .

— ١ —

للتشريع القرآنى صلة قوية بالسيرة النبوية لا تحتاج إلى بيان مسهب ؛ فإن جل الآيات والفصول التشريعية إن لم نقل كلها قد نزلت إجابة على أسئلة واستفتاآت ، أو بمناسبة حوادث ووقائع وظروف متصلة بالسيرة النبوية ومواقف وتصرفات المسلمين وغير المسلمين فى أثنائها ؛ فكانت من جهة حلا لمشاكل وشؤون ومسائل واقعية ، ومن جهة تشريعا مستمر الحكم والتلقين والمدى ، وبعبارة أخرى إن التشريع القرآنى يشتمل على صور من السيرة النبوية والعهد النبوى ، والمجتمع الإسلامى فيه .

وفى التشريع القرآنى بعض التطورات ؛ نعنى أن هناك أحكاما أو أوامر ونواهى أبكر من أحكام وأوامر ونواهى ، وأن من المتأخر ما جاء ناسخا أو معدلا للمتقدم على حسب ما اقتضته الحكمة من مراعاة الظروف أو التطابق معها سلبا وإيجابا ، وتخفيفا وتشديدا ، وضيقا وسعة ؛ وينطوى فى هذا كذلك صور مثل تلك كما هو المتبادر .

— ٢ —

وإذا استثنينا الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وركنى الصلاة والزكاة ، استطعنا أن نقول إن التشريع القرآنى مدنى ؛ مع التنبيه إلى نقطة هامة وهى أننا لا نقصد بالتشريع المبادئ المتنوعة التعبدية وغير التعبدية التى تضمنتها الدعوة القرآنية ، وإنما نقصد ما فيه من قواعد وحدود للشؤون السياسية

والاجتماعية والاقتصادية والعائلية ، بل الواجبات التعبدية أحيانا ؛ ذلك لأن جل المبادئ الإيمانية والتعبدية والأخلاقية والاجتماعية ، بل الاقتصادية والسياسية التى يصح أن يقال إن التشريع القرآنى بالمفهوم الذى نبهنا إليه ، وباستثناء آيات قليلة قد تناولها - قد وردت فى القرآن المكى ، خلافا لما يتوهم بعض المسلمين ، ويحلو للمستشرقين والمغرضين أن يكرروه بسبيل غمز النبى صلى الله عليه وسلم بالتبدل من نبى إلى سلطان ، على ما شرحناه فى كتاب خاص سميناه « تعاليم القرآن ونظمه »

وهكذا يصح أن يقال إن التشريع القرآنى المدنى صورة تطورية إلى حد ما للمبادئ القرآنية المكية فى شكل قواعد وحدود . وفى هذا أيضاً دليل آخر على صلة التشريع بالسيرة النبوية كما هو واضح .

- ٣ -

وطبيعة كل من العهدين المكى والمدنى توضح علة مدنية التشريع ومكية المبادئ العامة ؛ فالعهد المكى هو عهد دعوة كما كان عهد قلة وضعف ومحنة للمسلمين ، والمقتضى لهذا هو عرض المبادئ المتنوعة للدعوة عرضاً قويا ، وهو ما امتاز به الأسلوب المكى على ما ذكرناه فى مناسبة سابقة ؛ كما أن حالة المسلمين لم تكن لتستدعى تشريعاً وتقعيداً لأن مثل هذا إنما يكون فى حالة الاستقرار وقيام بنيان رسمى ، فى حين صار العهد المدنى عهد طمأنينة واستقرار وكثرة مؤلفة من مختلف الفئات ، وقد توطد فيه للإسلام كيان سياسى واجتماعى، هذا إلى أنه لم يكن ثمة محل لتكرار ماجاء فى القرآن المكى من المبادئ - لأن القرآن كل لا يتجزأ من حيث شموله ووجوب الإيمان والأخذ به - إلا بالقدر الذى اقتضته حكمة التنزيل .

ومن الجدير بالتنبيه أن مالا يوجد فى القرآن المكى من شؤون اختص بها العهد المدنى كالجهاد ، قد جاء عنه الكلام فى القرآن المدنى بأسلوب قوى رائع من جهة ، محتويا مبادئ عامة فيه من جهة أخرى ؛ كما يتضح من إنعام النظر فى آياته التى استعرضناها فى الفصل السابق . وبهذا تتسق حكمة التنزيل وأسلوبه اتساقا بديعا .

— ٤ —

والفصول التشريعية فى القرآن المدنى كثيرة ومتنوعة ، منها ما يتصل بالجهاد ، ومنها ما يتصل بالموقف الذى يجب أن يوقف من المنافقين وغير المسلمين فى مختلف الحالات ، ومنها ما يتعلق بالواجبات التعبدية ، ومنها ما يتصل بالشؤون السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعائلية والقضائية .

ولقد استعرضنا الآيات الواردة فى الجهاد والمنافقين والكتابيين فى الفصول الخاصة بهم ، ونبهنا إلى ما فيها من مبادئ وتشريعات ، ولهذا فإننا لانعود إلى الكلام عنها فى هذا الفصل إلا بالقدر الذى تمس الحاجة إليه مما يتصل بالشؤون الأخرى تدعيما أو توضيحا .

وعلى هذا فإن مباحث هذا الفصل هى ما يلى :

١ ـ التشريع التعبدى .

٢ ـ التشريع السياسى .

٣ ـ التشريع الاجتماعى .

٤ ـ التشريع الاقتصادى .

٥ ـ التشريع العائلى والآداب السلوكية البيتية .

وسيكون الكلام غير مسهب فى هذه المباحث ، لأن المقصد الرئيسى من الفصل هو استعراض صور السيرة النبوية من هذه الناحية فحسب ، ولنا كتاب مفصل فى تعاليم القرآن يصدر بعد هذا إن شاء الله ، ضمناه بحوثاً مستفيضة فى هذه الشؤون .

هذا ؛ ونريد أن ننبه إلى أمر فى صدد هذا الفصل ؛ فإن كثيرا من الآيات التى استعرضناها قد أوردت فى فصول سابقة ، وقد نبهنا فى تلك الفصول إلى الصور التى انطوت عليها ، غير أننا لم نر هذا مغنيا عن هذا الفصل ، حيث أردنا أن نرسم فيه صورة متسلسلة للتشريع القرآنى وتطوره بصورة خاصة ، ودون غيره من ملابسات ، مما رأينا فائدة كبيرة له لإتمام الصورة القرآنية للسيرة النبوية الشريفة .

المبحث الأوّل

التشريع التعبـــدى

تبكير فرض الصلاة وممارستها ـ ليس فى القرآن تحديد لكيفيات وأوقات وإنما كان هذا بتشريع نبوى ـ آيات التطهر للصلاة ومداها ـ ترجيح ممارسة الوضوء مبكراً بتشريع نبوى ـ تطهير الثياب ـ آيات صلاة الخوف ومداها ـ قصر الصلاة فى السفر مطلقا تشريع نبوى ـ آيات صلاة الجمعة ومداها وما فيها من صور ـ إقامة الجمعة قبلها بتشريع نبوى ـ الأذان تشريع نبوى ـ بدء القبلة تشريع نبوى ـ آيات الصوم وتبكير فرضه ـ تعليق على القول بالناسخ والمنسوخ فيها ـ بعض الصور والمناسبات التشريعية ـ الحج وترجيح مدنية تشريعه فى القرآن ـ الآيات الواردة فى الحج ومناسكه ـ إقرار مناسك الحج السابقة ومداه وحكمته ـ صور وتطورات تلهمها الآيات فى صدد الحج ـ ممارسة المسلمين الحج فى العهد المكى ـ وفى العهد المدنى .

— ١ —

الصلاة ومتعلقاتها

إذا استثنينا صلاتى الجمعة والخوف ، والطهارة والقبلة المتصلتين بالصلاة : فإننا لا نجد فى القرآن المدنى تشريعاً للصلاة . والمتبادر أن هذا كذلك لأن الصلاة قد فرضت ومورست منذ أول العهد المكى حتى أصبحت واقعية مستمرة كما يستفاد من الآيات التالية مثلا :

١ — أَرَءَيْتَ الَّذِى يَنْهَىٰ . عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ... العلق ٩ - ١٠

٢ — قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ . وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ... الأعلى ١٤ - ١٥

٣ — وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ... طه ١٣٢

٤ — أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ... الإسراء ٧٨

وفى مطلع سورة البقرة ـ وهو أول آيات العهد المدنى أو من أولها ـ تنويه بالمسلمين الذين يقيمون الصلاة ، مما يدل على ما قلناه من أنها عملية قائمة مستمرة :

« الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ...
٣

هذا مع التنبيه إلى أنه لم يرد فى القرآن مكيه ومدنيه تحديد لكيفية الصلاة وعدد ركعاتها وأوقاتها، وكل ما ذكر فيه حالات القيام والركوع والسجود. وقد حاول بعض المفسرين أن يستخرجوا أوقاتها من بعض الآيات مثل آية الإسراء التى نقلناها آنفاً، ولكنهم على كل حال لم يقولوا إن القرآن احتواها بصراحة وضبط.

فالصلاة والحالة هذه قد فرضت أوقاتاً وكيفيات بالعمل والتعليم النبوى، ومع أن هناك روايات تذكر أن أوقاتها الخمسة قد فرضت ليلة الإسراء، أى حول منتصف العهد المكى على ما يرجح وقت هذا الحادث، فإنه ليس مما يتحمل شكا أن النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين كانوا يمارسون الصلاة الإسلامية منذ فجر البعثة؛ وكل ما يمكن أن يحتمل أن تكون السنة النبوية قد ثبتت لها أوقاتاً وعدداً وكيفيات بعد هذا الفجر، ولا نستبعد إن لم نقل نرجح أن يكون هذا قد جرى على مراحل وليس دفعة واحدة.

وهدف تعدد الصلاة الإسلامية هو - فوق أنه إلى واجب المؤمن بعبادة الله وأدائه بعض حقه من الشكر على آلائه - موالاة إيقاظ ضمير المسلم بذكر الله وتهذيب نفسه وتنقية روحه؛ وعلى حاجة الإنسان الدائمة إلى هذا فإننا لا نشك فى أنه كان عظيم الأثر فى تهذيب وتنقية المجتمع الإسلامى الناشئ الذى كان جل أفراده يدينون بالشرك ويرتكسون فى أعمال وعادات وطقوس جاهلية.

- ٢ -

أما التطهر للصلاة فقد ورد تشريعه فى موضعين من القرآن المدنى كما ترى فيما يلى:

١ - يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ النِّسَآءَ

فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا [1] صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ
إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ... النساء ٤٣

٢ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ
وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ
كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ
مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا
فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ
وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ...
المائدة ٦

والآية الثانية أوضح من الناحية التشريعية كما هو ظاهر . وقد روى المفسرون والرواة أن التيمم قد رخص به فى طريق العودة من إحدى الغزوات حيث أدرك المسلمين وقت صلاة ولم يتيسر لهم ماء للوضوء ؛ وفى هذا صورة واقعية من صور السيرة ، وواضح أنه أريد بالرخصة تلقين أهمية الاستعداد للصلاة بالتطهر ولو بما يقوم مقامه رمزيا .

ومع أن هناك روايات ذكرت أن النبى والمسلمين كانوا يتطهرون بالماء من الحدثين قبل الدخول فى الصلاة منذ العهد المكى ، فإن روح الآيات ومضمونها يلهمان أن هذا التطهر لم يكن مرعيا رعاية تامة ، فاقتضت الحكمة التنبيه والتشريع مرة بعد أخرى . والذى نرجحه أن هذا الإهمال أو عدم الرعاية إنما كان يقع من المستجدين فى الإسلام وخاصة من الأعراب .

على أن التشريع فى آية المائدة لا يحتوى تفصيل الكيفيات الذى تكفلت به السنن المروية على اختلاف فيها ؛ وقد يكون هذا محل بحث ؛ فإن آية المائدة مما نزل

(١) أصل المعنى : اقصدوا أو اختاروا بقعة طاهرة من الأرض فامسحوا بغبارها وجوهكم وأيديكم، ثم صارت كلمة التيمم التى هى بمعنى القصد والتوجه اصطلاحاً إسلاميا .

متأخراً، وعلى كل حال بعد آية النساء، والتطهر للصلاة مما كان قديما ؛ فاكتفاء القرآن بما حددته آية المائدة، وما فى الروايات فى السنن من خلاف، ثم ماهناك من اجتهاد فقهى بأن الأركان الأربعة المذكورة فى الآية مجزية - قد يدل على أن هذا هو الأصل الذى كان جاريا منذ البدء، وأن السنن المروية لم تكن مستمرة دون انقطاع وتبديل، وأن الاهتمام قد ظل منصباً على الأركان الأربعة . وفى الفقرة الأخيرة من آية المائدة قرينة على هذا فيما يبدو لنا .

- ٣ -

وتطهير الثياب ركن من أركان الدخول فى الصلاة كما هو معلوم ؛ ولم يرد فيه تشريع مدنى، ولقد ورد فى مطلع سورة المدثر آية هى من أبكر ما نزل : « وثيابك فطهر » ٤، مما يسوغ القول بأن هذا التطهير كان مثل التطهر من الحدثين منذ فجر البعثة، وأن النبى صلى الله عليه وسلم قد علمه للمسلمين وجروا عليه ؛ أما كيفياته وحدوده فقد تكفلت السنة ببيانها على اختلاف فى الروايات، مما يسوغ القول إنه كان يتساهل فى ذلك بعض التساهل أيضاً ؛ ويلفت النظر خاصة إلى ماقرنته الفقرة الأخيرة من آية المائدة من حكمة تشريعية سامية، وإن أسلوبها ومضمونها ليلهمان أن من هدفهما إثارة الحافز فى نفوس المسلمين إلى التطهر والنظافة فى الدرجة الأولى ؛ وإذا لوحظ أن المجتمع الإسلامى الناشئ قد كان فيه جماعات كبيرة من البدو قلما يعنون بنظافة وطهارة، وأنه كان يسكن منطقة شحيحة الماء تضطر ساكنيها إلى الاقتصاد بالماء وعدم التطهر والنظافة كما يجب، بدت لنا الحكمة السامية الخاصة مضافة إلى الحكمة السامية الخالدة .

- ٤ -

وآية النساء تحتوى فوق تشريع التطهر للصلاة كمبدإ، تشريع عدم المرور من المسجد إلا على طهارة مالم يكن هناك ضرورة ملزمة على ما أوله المفسرون لجملة « إلا عابرى سبيل »، وقد رجحنا فى مناسبة سابقة أن هذا قد كان لأن حجرات النبى صلى الله عليه وسلم متصلة بمسجده الشريف . وفى هذا على كل حال صورة واقعية . أما النهى عن الصلاة فى حالة السكر ومافيه من صورة واقعية فسيأتى الكلام عنه بعد .

- ٥ -

وقد جاء فى صدد صلاة الخوف الآيات التالية :

« وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلوة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكفرين كانوا لكم عدوا مبينا . وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلوة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة وحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكفرين عذابا مهينا . فإذا قضيتم الصلوة فاذكروا الله قيما وقعودا وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلوة إن الصلوة كانت على المؤمنين كتبا موقوتا ...

النساء ١٠١ - ١٠٣

وفى الكيفية المذكورة لايذكر الركوع ولا قعود التشهد ولا ماهية القصر من الصلاة ، مما تكفلت ببيانه السنة ؛ وفى هذه الرخصة صورة واقعية ، إذ تدل على أن المسلمين كانوا يرون حرجاً فى اضطرارهم إلى الوقوف أمام العدو فى ظروف الحرب أو الخوف ، وعدم تمكنهم من أداء الصلاة ، كما أن فيها تنبيها إلى خطر أداء الصلاة فى أوقاتها مهما كان الأمر ، فحلت المشكلة على الوجه المذكور .

ومن الجدير بالذكر أن هذا الحل إنما كان فى حال الخوف ، فى حين أن هناك سنة بقصر الصلاة فى حالة السفر مطلقاً ، مما يسوغ القول أن هذه الرخصة تشريع نبوى ، وواضح أنه لايتعارض مع تلك الرخصة لأنه ليس فى الآية حصر ، وهذه واحدة من كثير من أمثالها جرت بتشريع نبوى ، منها مامر كالصلاة والتطهر لها

وكيفياتهما ، ومنها ماستأتى الإشارة إليه ؛ وفى هذا صورة من صور السيرة النبوية والتشريع فى أثنائها .

— ٦ —

وقد جاء فى صدد صلاة الجمعة الآيات التالية :

« يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَٰرَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ ...

٩ - ١١

وروح الآيات وأسلوبها يدلان على أن هذه الصلاة لم تشرع حين نزول الآيات ، وإنما كانت أقدم من ذلك ، وأن الآيات إنما نزلت للتنبيه على خطورتها ، وإيجاب الاهتمام لها ، بسبب ما كان يبدو من المسلمين أو بعضهم من تقصير فى ذلك ناشئ عن الانهماك فى التجارة واللهو ، إذ احتوت أمراً تشريعيا بوجوب ترك البيع واللهو والمسارعة إلى صلاة الجمعة حينما يؤذن لها .

ولقد ذكرت الروايات أن النبى صلى الله عليه وسلم قد أقام صلاة الجمعة فى حى بنى عوف حينما قدم مهاجراً من مكة ، وكان هذا طبعا قبل نزول الآيات ، مما يستأنس به على صحة الاستلهام ، ويؤيد أن النبي والمسلمين كانوا يجتمعون لصلاة الجمعة فى مكة منذ عهد قد يكون مبكراً ، ومما يسلك فى سلك التشريع النبوى أيضا ؛ كما ذكرت الروايات أن الأنصار كانوا « يجمّعون » أى يقيمون الجمعة بعد إسلامهم وقبل الهجرة ، مما يسوغ القول بأنهم قد تلقوا ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ويدعم ما قلناه آنفا .

وعلى هذا فالآيات وهي تنبه على خطورة صلاة الجمعة تنطوى على صور متنوعة ،

منها اشتغال بعض المسلمين بالبيع عن هذه الصلاة ، ومنها انفضاض بعضهم من المسجد والصلاة قائمة أو والنبي قائم لها حينما تعرض لهم عارضة من تجارة أو لهو ، ومنها الاهتمام لتجميع المسلمين يوم الجمعة للصلاة وما فى هذا من قصد اجتماعى جليل فيه تعليم وتأديب ومصلحة عامة ، سواء بالنسبة للمجتمع الإسلامى الناشئ الحاضر أو للمجتمع الإسلامى بصورة عامة .

- ٧ -

وليس فى القرآن تشريع للأذان أيضا ، وكل مافيه إشارة إلى أن المسلمين كانوا ينادون للصلاة ، كما جاء فى آيات سورة الجمعة وكما جاء فى إحدى آيات سورة المائدة هذه :

« وإِذَا نَادَيْتُمْ إِلى الصَّلَوٰةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا ولَعِبًا ... ٥٨

وقد ذكرت الروايات أن الأذان للصلاة بالكيفية الجارية قد ابتدأ فى المدينة ؛ وهذا معقول ، لأنه متصل بطبيعة العهد المدنى دون المكى ، حيث لم يكن المسلمون فى هذا كثرة وأحراراً يمكنهم أن ينادوا للصلاة جهرة وجماعة ، فى حين كان هذا ممكنا وضروريا فى العهد المدنى ؛ وعلى كل فإن حال تشريع الآذان هو تشريع نبوى كما هو واضح .

- ٨ -

والقبلة ركن من أركان الدخول فى الصلاة كما لايخفى ، وقد بسطنا الكلام عما تقلب عليه أمرها بما فيه الكفاية فى فصل اليهود فنكتفى بهذه الإشارة ، مع التنبيه إلى أن استقبال المسجد الحرام (الكعبة) قبل المسجد الأقصى ثم التحول إلى هذا إنما كانا تشريعا نبويا ، وأن التحول عن هذا إلى الأول هو وحده التشريع القرآنى ، مع ملاحظة ماقلناه فى المناسبة السابقة من احتمال أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالتحول قبل نزول آيات القبلة ونزول هذه الآيات بعد ذلك مثبتة مشرعة .

- ٩ -

الصوم

هناك روايات تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم قد صام عاشوراء وحض على صيامه قبل نزول آيات فرض صيام رمضان ، وأن صيام هذا اليوم متصل بتقليد جاهلي يوم تجديد ستار الكعبة على ما ذكرناه في كتابنا « عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته قبل البعثة » ، وعلى كل حال فإن صيام شهر رمضان لم يفرض إلا في العهد المدني بالآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ (١) فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ . أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ

(١) أي من كان مقيما وحاضرا أيام الشهر .

الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى الَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى الْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَٰتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ... البقرة ١٨٣ - ١٨٧

واستئناساً بأن سورة البقرة أولى سور العهد المدنى يمكن أن يقال إن صيام رمضان قد فرض فى السنين الأولى من هذا العهد ؛ والروايات تذكر أنه كان بعد تحويل القبلة إلى الكعبة بشهر ، أى فى الثلث الثالث من السنة الهجرية الثانية .

ولقد قال بعض العلماء والمفسرين بوجود ناسخ ومفسوخ فى آيات الصوم ، إذ استدلوا من الآية الثانية على أن الصيام فرض فى أول الأمر بصورة عامة ، وبدون تحديد شهر كامل ، مع تخيير المسلمين القادرين عليه بين الصيام والفداء عنه بإطعام مسكين عن كل يوم ، ثم أكدت الفريضة بالآية الثالثة إذ جعلت كامل شهر رمضان ، وحتم صيامه على غير المريض والمسافر ، ونسخ التخيير بين الصوم والفداء بالنسبة للقادرين ؛ فإذا صح هذا كان الفرض الأول هو الخطوة الأولى التى اقتضت الحكمة أن تكون لعدم الإحراج ، حتى إذا تعود المسلمون الصيام كانت الخطوة الثانية . وفى هذا مظهر من مظاهر التطور يمكن أن يكون قد سار مع قوة رسوخ الدين فى عامة المسلمين ورغبتهم فى التطوع لله بالصيام . على أن أمر الفسخ ليس مسلماً به عند علماء آخرين قالوا إن جملة « شهر رمضان » هى بدل من الأيام المعدودات ، وإن الآيات الثلاث الأولى قد نزلت دفعة واحدة . والحق أن صيغة هذه الآيات ومضامينها تتحمل صحة القولين معاً . وإذا أردنا أن نقيس فرض الصيام على تشريعات تعبدية أخرى كالصلاة وكتحريم الخمر ساغ ترجيح القول الأول ، لأننا نرى فى هذا وتلك تدرجا اقتضته الحكمة ، ويمكن أن يكون فرض الصوم سار على مقتضى هذه الحكمة .

والآية الأخيرة تدل على أن المسلمين وقعوا فى شىء من الحرج أو الإثم فى صدد قرب نسائهم فى ليالى الصوم ، وقد ذكرت الروايات أنهم كانوا يرون وجوب الامتناع عن الأكل والنكاح إذا ناموا بعد العشاء ثم استيقظوا قبل الفجر ، وأن بعضهم قد فعل ذلك فأهمه الأمر فلجأ إلى النبى صلى الله عليه وسلم يعتذر فنزل الوحى

بالآية؛ وطبيعى أن تكون الآية قد نزلت متأخرة عن الآيات الثلاث الأولى، ومضمونها يؤيد ذلك، وقد وضعت فى مكانها لإتمام السياق. وبعض العلماء يقولون إنها ناسخة لأمر كان يعتبره المسلمون واجباً؛ ولعل هذا كان تعليما نبويا فى صدد الكيفيات حينما فرض الصوم، فخفف الله عنهم حينما ظهر الحرج. وأسلوبها ومضمونها يؤيدان هذا على ما هو المتبادر.

- ١١ -

الحج

إذا صح ترجيحنا أن آيات سورة الحج ٢٥ - ٣٧ مدنية - وترجيحنا مستند إلى إلهام الآيات ومضمونها، وخاصة تنديدها بالكفار الذين يصدون عن المسجد الحرام - فإننا نستطيع أن نقول إن الآيات التى فرضت الحج وذكرت مناسكه مدنية، وبالتالى إن تشريع الحج هو تشريع مدنى؛ أما القرآن المكى فلم يحتو إلا إشارات إلى الحرم وأمنه وبيت الله المحرم وبركانه وعلاقة إبراهيم وإسماعيل صلى الله عليهما وسلم به... الخ.

وإليك أولا الآيات الواردة فى الحج وتشريعه:

١ - إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ...

البقرة ١٥٨

٢ - يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ... البقرة ١٨٩

٣ - وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ

أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ (١) فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَٰأُولِى الْأَلْبَٰبِ . لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ . ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِى الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِى الْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ . وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ . وَاذْكُرُوا اللهَ فِى أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ

---

(١) اعتمر بمعنى زار . والاعتمار فى الاصطلاح الفقهى هو الزيارة فى غير موسم الحج أو بغير نية الحج . فالحاج حينما يحرم إما أن ينوى العمرة فقط ، أو ينوى قرن العمرة والحج معا . فإذا نوى العمرة فإنه حينما يصل إلى مكة يطوف بالكعبة زائرا ثم يتحلل من أحرامه ، وحينما يأتى وقت الذهاب إلى عرفات يحرم بنية الحج ؛ أما إذا نوى القران فإنه يظل محرما إلى أن ينزل من عرفات فيزور الكعبة حين دخوله مكة ويظل محرما إلى أن يقف فى عرفات وينزل منها فيذهب إلى مكة ويطوف بالكعبة ثم يتحلل من أحرامه ؛ وكذلك إذا دخل زائر إلى منطقة الحرم فى غير موسم الحج فعليه أن يحرم بنية العمرة ، وحينما يدخل إلى مكة يزور الكعبة ويطوف بها ثم يتحلل من إحرامه .

تُحْشَرُونَ ... البقرة ١٩٦ - ٢٠٣

٤ — إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ . فِيهِ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ الْعَٰلَمِينَ ... آل عمران ٩٦ - ٩٧

٥ — يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ . يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَٰئِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْىَ وَلَا الْقَلَٰئِدَ وَلَا ءَامِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَٰنِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ...

المائده ١ - ٢

٦ — يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ . يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَٰلِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ . أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ

وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرما واتقوا الله الذى إليه تحشرون .
جعل الله الكعبة البيت الحرام قيما للناس والشهر الحرام والهدى
والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض
وأن الله بكل شىء عليم ... المائدة ٩٤ - ٩٧

٧ — إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى
جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه
من عذاب أليم . وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا
وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود . وأذن فى الناس بالحج
يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا
منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة
الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم
وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق . ذلك ومن يعظم حرمات
الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم
فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور . حنفاء لله غير
مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير
أو تهوى به الريح فى مكان سحيق . ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها
من تقوى القلوب . لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى
البيت العتيق . ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على مارزقهم
من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين .
الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى

الصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ . وَالْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُمْ مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ...

الحج ٢٥ - ٣٧

- ١٢ -

وجل المناسك والطقوس التي أشارت إليها الآيات وشرعتها - إن لم نقل كلها - قد أقرّ على ما كان عليه قبل البعثة بعد تهذيبه من المناظر القبيحة وتجريده من شوائب الشرك والوثنية ؛ مما يسوغ القول بأنها كانت من التقاليد المقدسة الراسخة فى الناس ، كما أنها كانت تنطوى على فوائد متصلة بما توخته الدعوة فيما توخته من مثل جمع القاصين والدانين على اختلاف أجناسهم وأهوائهم فى مظهر متحد فى وقت ما وشكل ما ؛ وتبدو لنا حكمة أخرى فى هذا الإقرار وهى تأنيس الناس الذين كانت تلك التقاليد راسخة فيهم رسوخاً شديداً للدعوة الإسلامية وقد أخذ أفقها يتسع بعد الهجرة وترشح ليشمل جميع العرب على اختلاف منازلهم فضلا عن غيرهم .

وفى الآيات صور واقعية وخطوات تطورية متصلة بالسيرة النبوية نفبه عليها فيما يلى :

(١) يفهم من آية البقرة (١٥٨) أن المسلمين قد تحرجوا من الطواف بالصفا والمروة جرياً على تقليد الجاهلية فأقرّ هذا الطواف وأعلن أنه من شعائر الله .

(٢) ويفهم من آية البقرة (١٨٩) أن العرب كانوا يتحرجون من التظلل بالسقوف وبالتبعية من دخول البيوت من أبوابها المظللة أثناء أشهر الحج فظلوا على هذا إلى أن أبطلته الآية .

(٣) ويفهم من آية البقرة (١٩٨) أن المسلمين تحرجوا من الاشتغال بالتجارة

فى أثناء أشهر الحج. وقد كان العرب يقيمون الأسواق التجارية فى هذه الأثناء - وظنوا أن من الواجب أن يكرسوا جميع الوقت للعبادة وعدم مزج شىء من عمل الدنيا معها، لا سيما أن الآية ١٩٧ قد نبهت على وجوب اجتناب الجدال والفسوق والرفث فى أشهر الحج، فأباحت الآية لهم ذلك.

(٤) ويفهم من آية البقرة (١٩٩) أن بعض طبقات من العرب أو من الزعماء كانوا يأنفون من الوقوف فى موقف عامة الناس أثناء بعض المناسك، وأن هذه العادة ظلت جارية وقتا ما بعد البعثة، فأبطلت بها للتسوية بين الناس فى هذا الموقف التعبدى الذى يتجه الناس جميعهم فيه إلى الله وحده دون تجبر أو استكبار.

(٥) ويفهم من آيات البقره ١٩٦ - ٢٠٢ أنها توخت فيما توخته أن تستبدل بما كان من عادة الحجاج فى منى من عقد مجالس المفاخرة، مجالس ذكر الله وعبادته وتكبيره

(٦) ويفهم من آيات المائدة ١ - ٢ أن أحداً حاول أن يلحق الأذى بأهل مكة فيمنع عنها الحجاج، فحظرت ذلك بشدة وأيدت بقوة وجوب احترام حرمة الحج والأشهر الحرم وتقاليدها ومناسكها.

(٧) ويفهم من آيات المائده ٩٤ - ٩٧ أن العرب كانوا يحرمون صيد البر والبحر معا فى أشهر الحج المحرمة، فأباحت صيد البحر للتخفيف عن الناس وخاصة عن القوافل وتيسير الطعام لهم، كما أنها جعلت حالة التحريم قاصرة على وقت الإحرام الذى حددته السنة النبوية بلبس الثياب غير المخيطة حين دخول المسلم منطقة الحرم إلى أن يقضى عمرته أو حجه بعد أن كانت شاملة لأشهر الحج كلها.

٩ - ويفهم من آيات سورة الحج أن العرب كانوا يتحرجون من أكل لحوم قرابينهم؛ ومنهم من كان يمنعها عن الناس ويعتبرها محرمة لله، فأباحت لأصحابها الأكل منها وإطعام غيرهم وخاصة الفقراء والمعوزين منها.

- ١٣ -

والموضوع يتحمل بحث نقطة مهمة متصلة بوقائع السيرة وهى هل قام المسلمون بمناسك الحج فى العهد المكى وإلى السنة السابعة من العهد المدنى حين زاروا مكة وفاقاً لشروط صلح الحديبية زيارة رسمية وإجماعية وعلى رأسهم النبى عليه السلام؟

فبالنسبة للعهد المكى ليس فى القرآن شىء صريح ينفى ذلك أو يثبته إلا ماجاء فى آية سورة الكوثر : « فصل لربك وانحر » إذ قال المفسرون فيما قالوه إن النحر هو نحر الأضحية عقب وقفة عرفات ؛ فإذا صح هذا ففيه إشارة إلى أن النبي والمسلمين كانوا يقومون ببعض مناسك الحج لله وهم فى مكة حيث كان المشركون يقومون بمناسكهم التقليدية أيضاً . على أنه إذا صح أن آيات الحج ٢٥ - ٣٧ مكية كما ذكرته بعض الروايات فإن فيها دلالات كثيرة على أن النبي والمسلمين كانوا يقومون بكثير من مناسك الحج وهم فى مكة ؛ إذ فيها خطاب للمسلمين بذكر اسم الله على القرابين التى تقرب فى الحج ، وبحل أكلها وإطعام المعوزين منها ، وبالطواف بالبيت وتعظيم حرمات الله وشعائره ، واجتناب الأوثان والتوجه إلى الله وحده ؛ ومما يلفت النظر ماتضمنته الآيات من تقرير جعل الله لكل أمة منسكا ، وما تضمنته آيات أخرى فى سورة الحج يحتمل جدا أن تكون مكية وهى :

« لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِى الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ . وَإِن جَـٰدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ . اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ...

٦٧ - ٦٩

إذ تلهم أن الله أجاز لنبيه القيام بمناسك الحج بغض النظر عما يقوم به المشركون من مناسكهم الوثنية ودون ضرورة ما إلى الجدل معهم ، ووكالة الأمر إلى الله فى معرفة المخطئ من المصيب ، مما يتسق كل الاتساق مع الأسلوب المكى وظروف المسلمين فى مكة .

أما بالنسبة للعهد المدنى فإن ورود آيات مناسك الحج وفرضه فى سورتى البقرة وآل عمران التى يحتمل كثيراً أن تكون قد نزلت قبل اعتزام النبي زيارة الكعبة الذى أسفر عن صلح الحديبية - يجعلنا نظن أنه أذن لمن يريد ويستطيع من المسلمين ، بالقيام بواجب الحج ومناسكه ، وتنبيه على ما يجوز ومالا يجوز منها له ، وأن من المسلمين من كان يقوم بذلك فعلا ، وإن كنا نميل إلى القول بأن هذا كان فى نطاق محدود جدا ؛ وفى بعض الآيات ما يمكن أن يساعد على صحة هذا القول ، كآيات

البقرة ٢٠٠ - ٢٠١ التى قد تلهم أن المسلمين كانوا يشتركون فى الحج إلى جانب المشركين ، فيدعون الله أن يؤتيهم حسنة فى الدنيا وحسنة فى الآخرة فى حين كان المشركون يكتفون بطلب حسنة الدنيا ، وكآية البقرة ١٩٦ التى قد تلهم أن بعض المسلمين كانوا يذهبون إلى الحج فيحصرون أو يحال بينهم وبينه ، ولعل آيات الحج ٢٥ والبقرة ٢١٧ والأنفال ٣٤ التى تندد بالمشركين لصدهم عن المسجد الحرام - وليس هذا إلا صد المسلمين - متصلة بذلك ؛ ثم على رجحان أن آيات الحج مدنية ، وأنها نزلت قبل صلح الحديبية ، فإنها بما احتوته من تشريع وتحديد ، وإباحة وحظر ، وتنبيه وتنويه ، ومن خطاب للمسلمين -لتلهم أن من المسلمين من كان يذهب إلى مكة فى الأشهر الحرم ويقوم بمناسك الحج ؛ ولعل فى آية آل عمران ٩٧ قرينة قوية تدعم هذا ، إذ تذكر أن لله على المستطيع من الناس حج بيته ، وتنطوى إلى ذلك على إذن أو حث للمستطيعين من المسلمين على ذلك ، ويرجح أن المستطيع منهم قد استجاب لهذا الحث أو استفاد من هذا الإذن ؛ وهذا إنما كان على الأغلب قبل الصلح المذكور . ولعل فى آية المائدة (٢) قرينة تكاد تكون حاسمة ، إذ تدل على أن من المسلمين من كان يحاول صد من أراد الحج عن قصده يريد نكاية أهل مكة ، وتعبير « يبتغون فضلا من ربهم ورضواناً » يدل على أن آمين البيت الحرام المذكورين فيها هم من المسلمين . ولقد ذكرنا فى الفصل السابق أن النبى صلى الله عليه وسلم قد خرج فى السنة السادسة معتمراً أو حاجاً مع جمع من المسلمين استلهاماً من رؤيا رآها فى نومه ، فتصدى لهم المكيون وصدوهم على ما ذكرته سورة الفتح ؛ وفى هذا دليل على ما كان يعتلج فى نفوس المسلمين من الرغبة فى الحج والعمرة تنفيذا لأمر الله وفرضه ، وعلى استجابتهم إلى نداء النبى صلى الله عليه وسلم إلى ذلك ، واستبشارهم بإلهام الله له به ؛ فمن المعقول أن يكون من قدر قبل هذا على تحقيق هذه الرغبة قد سعى إلى تحقيقها .

هذا ؛ ويلفت النظر خاصة إلى ما فى إقرار جل تقاليد الحج بعد تهذيبها من شوائب الشرك والوثنية من معان متصلة بالمجتمع الإسلامى الذى كان إذ ذاك هو

المجتمع العربى بوجه عام ، فالعرب على مختلف منازلهم ونحلهم وثقافتهم كانوا متحدين فى هذه التقاليد تقديساً وممارسة ، وكان لهم فى ظروفها منافع عظيمة متنوعة ، وكانت راسخة فيهم رسوخاً شديدا من المتعذر التغلب عليه ، وكان أهل مكة وهم أئمة العرب متخوفين من انتشار الدعوة الإسلامية ظنا منهم أنها ستلغى هذه التقاليد ويفقدون بذلك مركزهم الممتاز ومنافعهم الكبيرة ، وهذه التقاليد فى أصلها مما هو متصل بملة إبراهيم التى دعا إليها القرآن ، وكان العرب يعرفون هذه الصلة ويبنون تقاليدهم عليها ؛ ولقد استهدف القرآن فيما استهدف توسيع أفق العرب وإخراجهم من نطاق القبلية الضيقة إلى كيان الأمة الموحدة ؛ فكل هذا مما يفسر حكمة ذلك الإقرار ، ويوضح المعانى التى أشرنا إليها كما هو المتبادر .

المبحث الثانى

التشريع السياسى

مدى التشريع السياسى ومقتاوله ـ الآيات الواردة فى توطيد مركز أولى الأمر وما يجب لهم وعليهم ومداها ودلالاتها ـ الآيات الواردة فى توطيد العدل وحياطته ومداها ودلالاتها ـ الآيات الواردة فى العقوبات والحدود ومداها ودلالاتها ـ تعليق على تطور عقوبة الزنا وتشريع حد السكر والتطور التشريعى فى حظر الخمر ـ توطيد بيت المال ـ الزكاة ومدى ودلالة التبكير فى فرضها ـ تطور الأسلوب القرآنى فيها ـ صلة الزكاة ببيت المال ـ غنائم الحرب ـ تشريع الخمس من غنائم الحرب الفعلية ومغزاه ـ تشريع الفئ ومداه ـ تعليق على الفرق الملحوظ بين مستحق غنائم الحرب والزكاة ـ بعض الصور فى صدد التشريعات المالية .

— ١ —

نقصد بهذا ما يتصل بتوطيد كيان الدولة فى الإسلام وواجباتها وصلاحيتها : والتشريع فى هذا مدنى ، وكل ما كان من أمر بالنسبة للقرآن المكى أن خطوطه مما تضمنته آيات مكية كآيات الشورى ٣٧ ـ ٤٣ التى تنوه بالمسلمين الذين يجعلون أمرهم شورى بينهم ، وينتصرون من ظالميهم ، وآيات الإسراء ٣١ ـ ٣٥ التى تنهى عن القتل وتجعل لولى الدم حقا يؤخذ له ، وتأمر برعاية مال اليتيم والوفاء بالعهد ؛ وكآيات النحل ٩٠ ـ ٩٢ التى تأمر بالعدل والإحسان وتنهى عن نقض العهود ، وكآية الأنعام ٥٢ التى تأمر بالعدل بالقول دون أى محاباة وبالوفاء بالعهد ، وكالمحاورة المحكية فى سورة النحل عن ملكة سبأ وما يحتمل أن يكون قد انطوى فيها من تلقين القدوة ، وكآيات ص عن داود عليه السلام وخطاب الله له فى بيان ما يجب على الخليفة مراعاته وما يحتمل أن يكون انطوى فيها من تعليم وتلقين كذلك .

ونبه إلى نقطة مهمة فمع قولنا إن التشريع السياسى مدنى فإن القرآن المدنى لم يحتو هو أيضا إلا القليل من التفصيل والتحديد ، وأكثر ما جاء فى صدد هذا الموضوع قد جاء مطلقاً وعاما كخطوط ومبادئ ؛ مما يمكن أن يكون قصد به ترك التفاصيل والجزئيات للنبى صلى الله عليه وسلم وخلفائه فى المسلمين ، يسيرون منه على حسب

الظروف والإمكانيات فى نطاق تلك الخطوط والمبادئ ، وهذا من معجزات الشريعة الإسلامية التى رشحتها للخلود .

والتشريع القرآنى السياسى يتناول عدا الأمور المتصلة بالجهاد ، وصلات المسلمين بغير المسلمين فى مختلف حالاتهم ـ مما ألممنا به فى فصوله الخاصة ولا نرى العودة إليه هنا ـ الأمور الآتية :

١ ـ ماله صلة بتوطيد مركز أولى الأمر وما يجب لهم وعليهم ،
٢ ـ ماله صلة بتوطيد العدل .
٣ ـ ماله صلة بالعقوبات والحدود .
٤ ـ ماله صلة بتأسيس بيت المال .

- ٢ -

ففى الأمر الأول نزلت آيات عدة نورد منها مايلى :

١ ــ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ... آل عمران ١٥٩

٢ ــ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ... النساء ٥٩

٣ ــ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُولِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ... النساء ٨٣

٤ ــ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . وَٱتَّقُوا فِتْنَةً

لاتُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ...

الأنفال ٢٤ - ٢٥

٥ — يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ... الأنفال ٢٧

٦ — وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَٰزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّٰبِرِينَ ... الأنفال ٤٦

٧ — لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ... التوبة ١٢٨

٨ — يَٰأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّايُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ ... الممتحنة ١٢

فهذه الآيات رمت كما هو المتبادر :

١ - إلى توطيد السلطان الإسلامى فى شخص النبى صلى الله عليه وسلم أولا وإلى توطيد إطاعة أولى الأمر ثانيا.

٢ - إلى جعل القرآن والسنة النبوية هما الناموس العام الذى يجب أن يهتدى ويستلهم منه فى حل المشاكل وتصريف الأمور وخاصة عند اختلاف الآراء.

٣ - إلى تلقين جعل المصلحة العامة وحياة المجتمع للعامة ضابطاً عاما فى تأييد المسلمين للسلطان والاستجابة إلى ما يدعو إليه وإطاعته فيه.

٤ - إلى إيجاب ردّ الأمور من قبل العامة إلى أولياء الأمور وأهل الحل والعقد القادرين على تمحيصها والأخذ بما هو الأصلح منها.

٥ - إلى تقرير صفات ولى الأمر فى الإسلام من لين الجانب وخفض الجناح،

والرأفة بالمسلمين، والاستغراق فى مصلحتهم وخيرهم، وعدم أمرهم بغير المعروف، وعدم دعوتهم إلى مافيه المعصية.

٦ - إلى إيجاب إشارة أهل الحل والعقد على ولى أمر المسلمين.

٧ - إلى إيجاب الإخلاص والأمانة والطاعة على المسلمين لأولياء أمورهم فى حالة تحقق الصفات المذكورة فيهم.

٨ - إلى إيجاب التضامن والاتحاد فيما بينهم فى ذلك أيضا.

ويمكن أن يلخص هذا بأن التشريع السياسى قد رمى إلى جعل المجتمع الإسلامى من الوجهة السياسية كياناً محكما يجب فيه على أولياء الأمور والرعية أن يتضامنوا ويتبادلوا الحقوق والواجبات والتشاور؛ ويهدفوا جميعا إلى خير هذا الكيان، دون أن يكون لأولياء الأمر حق إلا مقابل واجب وصفات، ودون أن يكون للرعية حق إلا مقابل واجب وصفات أيضاً.

ومن إنعام النظر فى نصوص الآيات والاطلاع على تفسيرها ومناسبات نزولها - وهو مما ألممنا به بعض الإلمام فى الفصول السابقة التى استعرضنا فيها أكثر هذه الآيات -[1] يبدو أولا أنها قد نزلت فى مختلف أدوار التنزيل، وهذا يعنى أن التشريع السياسى القرآنى إنما جرى على مراحل على اختلاف ظروف العهد المدنى الذى نزلت فيه آياته؛ وثانيا أن هذه الآيات قد نزلت فى مناسبات وظروف معينة، وهذا يعنى أنها انطوت على صور ومواقف ومشاهد من صور العهد المدنى؛ فرمت إلى معالجة الموقف على الوجه الذى اقتضته الحكمة، ثم كانت إلى ذلك تشريعا مستمر التلقين والمدى.

- ٣ -

وفى الأمر الثانى نزلت كذلك آيات عدة نورد منها مايلى:

١ — إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ

(١) جل هذه الآيات نقل وشرح فى فصل الجهاد والمنافقين.

مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا . أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا أَن يَكْفُرُوا بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ... النساء ٥٨ - ٦١

٢ — إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا . وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا . وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا . يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ... النساء ١٠٥-١٠٨

٣ — وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ... النساء ١١٢

٤ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُۥٓا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ... النساء ١٣٥

٥ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا ٱعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ... المائدة ٨

٦ — سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ... المائدة ٤٢

٧ — وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ . وَإِذَا دُعُوٓا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ . وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ . أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ . إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ... النور ٤٧ - ٥١

وفى سورتى البقرة والمائدة آيات فى صدد الدين والعقود والشهادات والوصية، وقد استهدفت فيما استهدفته حياطة الحق والعدل والأمانة، عما يصح أن يسلك فى سلك الآيات السابقة كما نرى فيها:

١ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ وَٱسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْـَٔمُوٓا أَن

تكتبوه صغيرًا أو كبيرًا إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهدة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجرة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم. وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهن مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمنته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهدة ومن يكتمها فإنه ءاثم قلبه والله بما تعملون عليم ...

٢٨٢ - ٢٨٣

٢ — يأيها الذين ءامنوا شهدة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو ءاخران من غيركم إن أنتم ضربتم فى الأرض فأصبتكم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلوة فيقسمان بالله إن ارتبتم لانشترى به ثمنا ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهدة الله إنا إذا لمن الآثمين. فإن عثر على أنهما استحقا إثما فـَٔاخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليـن فيقسمان بالله لشهدتنا أحق من شهدتهما وما اعتدينا إنا إذا لمن الظلمين. ذلك أدنى أن يأتوا بالشهدة على وجهها أو يخافوا أن ترد أيمن بعد أيمنهم واتقوا الله واسمعوا والله لايهدى القوم الفسقين ...

١٠٦ - ١٠٨

وتوطيد فكرة العدل والحق بين الناس بصورة مطلقة وشاملة وعدم المحاباة والتساهل مع المبطلين، وعدم الضعف فى ذلك بسبب ظروف القربى أو البغضاء - بارزة المرمى فى الآيات، كما ترى مثل ذلك فى فكرة إيجاب تضامن المسلمين فى تحقيق هذه

الغاية ، ومساعدة القضاء الإسلامى على القيام بها على الوجه الأوفى ، وبجملة واحدة : قد رمت إلى جعل العدل والحق والأمانة بين الحاكم والرعية ، ثم بين الرعية فيما بينهم ، مسئلة تضامنية من جهة وفوق كل إعتبار من جهة أخرى .

والآيات كما هو واضح قد نزلت فى مختلف أدوار التنزيل كما نزلت فى مناسبات وظروف خاصة ، وانطوت على صور ومواقف ومشاهد من صور العهد المدنى فى مختلف أدواره ، مما نبهنا على أكثره فى فصول سابقة ؛ وقد رمت إلى معالجة الموقف الحاضر على الوجه الذى اقتضته الحكمة ، ثم كانت إلى ذلك تشريعا مستمر التلقين والمدى .

— ٤ —

وفى الأمر الثالث نزلت آيات عدة أيضاً نوردها فيما يلى :

١ — يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰأُولِى الْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ... البقرة ١٧٨ - ١٧٩

٢ — وَالَّٰتِى يَأْتِينَ الْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا . وَاللَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ... النساء ١٥ - ١٦

٣ — وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَٰتِ الْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ الْمُؤْمِنَٰتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ

بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ
فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَٰتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَٰلِكَ
لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ...

النساء ٢٥

٤ — وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا
فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ
مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ
يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ...

النساء ٩٢

٥ — إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ
فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ
أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ
عَظِيمٌ . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... المائدة ٣٣ - ٣٤

٦ — وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا
مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ
يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... المائدة ٣٨ - ٣٩

٧ — الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم
بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ

عذابهما طائفة من المؤمنين ... النور ٢

٨ - والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون . إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ...

النور ٤ - ٥

٩ - والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين . والخامسة أن لعنت الله عليه إن كان من الكاذبين . ويدرؤا عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ... النور ٦ - ٩

١٠ - إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون ...

النور ١٩

١١ - لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا . ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ... الأحزاب ٦٠ - ٦١

وقد حددت الآيات - كما هو واضح - عقوبات الجرائم الرئيسية كالقتل والزنا والسرقة وقذف الأعراض ، والإفساد فى الأرض ، وإخلال الأمن ، وإثارة الاضطراب فى المجتمع بإشاعات السوء والأذى والإرجاف مما له صلة بدماء الناس وأعراضهم وأموالهم وأمنهم وحرياتهم ؛ وهى أهم ما يهم المجتمع كما لا يخفى .

والآيات مما يمت إلى مختلف أدوار التنزيل ، وهذا يعنى أن هذه

التشريعات قد تمت على مراحل ، حسبما اقتضته الظروف والأحوال ؛ ولذلك نزل جلها أو كلها فى مناسبات ووقائع معينة ، وهذا يعنى أنها انطوت على صور متنوعة من العهد المدنى وطبقات المجتمع الإسلامى فيه أيضا ، مما هو متصل بالسيرة النبوية ومشاهدها

وآية البقرة (١٧٨) نصت على القصاص فى القتل ، وحددت قتل الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ، وقد يفهم منها أن الحر لا يقتل بالعبد ولا الذكر بالأنثى ؛ غير أن هناك تعديلا ثابتا لذلك فى السنة النبوية مستلهما على ما يتبادر من المبدأ العام الذى احتوته الآية (١٧٩) وهو القصاص مطلقا . ولقد ذكرت الروايات أن الآيات نزلت فى قبيلتين كان بينهما دماء قبل الإسلام ، وكانت إحداهما أقوى من الأخرى ، فأقسمت القوية على الاقتصاص من عدوتها قصاصا مضاعفا ومهينا ، فلما أسلمت جاءتا إلى النبى صلى الله عليه وسلم للاحتكام ، فنزلت الآيات فى حل المشكل القائم على الوجه الحكيم الذى جاءت به . وفى هذا وذاك صور واقعية للتشريع وتطوره . وآيات قتل الخطأ انطوت على صورة لما كان الأمر عليه فى العهد النبوى المدنى ، إذ كان هناك مسلمون من فريق أو قبائل غير مسلمة ، منها من كان عدوا محاربا ومنها من كان معاهداً ؛ فاحتوت أحكاماً لكل من الحالتين بالإضافه إلى حالة قتل مسلم لمسلم آخر أهله مسلمون ، فكانت علاجا للحالة القائمة وتشريعا مستمر المدى فى الوقت نفسه .

وآيات النساء ١٣ - ١٦ لا تنص على حد للزنا ، وكل ما أوجبته على المرأة الحبس فى البيوت ، وعلى الرجل أذى ، أى ضربا غير محدد ؛ ثم جاءت آيات النور ٢ - ١٠ فعينت حد الزنا ، وأضافت إلى جريمته جريمة القذف ، وعينت حداً للقاذف ، كما حلت مشكلة تهمة الزوج لزوجته إذا لم تكن مستندة إلى شهود ؛ وفى هذا من الصور التطورية ما هو ظاهر ، وقد اقتضته ظروف وتطور الحالة الاجتماعية فى العهد المدنى على ما هو المتبادر ؛ ومما لا يحتمل شكا أن الآيات قد نزلت بمناسبة وقائع وحادثات ، إذ جاءت علاجا للحالة التى نزلت بمناسبتها ووفق ظروفها ، ثم صارت تشريعا مستمر المدى .

وقد نصت آية النساء (٢٥) على أن عقوبة الزنا على الأمة المتزوجة هو نصف عقوبة الزنا على الحرة ، وهو خمسون جلدة . وهذا يمت فيما يتبادر لنا إلى ما كان فى عصر النبى وبيئته من ارتكاس الإماء فى البغاء وتعرضهن له أكثر من الحرائر ، مما تلهمه الآية نفسها على ما شرحناه فى كتابنا « عصر النبى صلى الله عليه وسلم وبيئته » .

وآيات الأحزاب ٦٠ - ٦١ والنور ١٩ تتضمن صوراً لما كان من المنافقين ومرضى القلوب من مواقف مؤذية ومثيرة للقلق والاضطراب فى المجتمع الإسلامى اقتضت الحكمة أن يشرع لها عقوبات زاجرة صارت فى الوقت نفسه تشريعا وتلقينا مستمرى المدى. وآيات المائدة ٣٣ - ٣٤ أيضا تتضمن صورة لما كان من عيث بعض الناس فى أمن الأرض ومحاربة دعوة الله ورسوله ، فاقتضت الحكمة أن يشرع لمثل هذا عقوبات زاجرة تطبق على الذين يقبض عليهم قبل التوبة والارعواء ، وصارت فى الوقت نفسه تشريعا وتلقينا مستمرى المدى ؛ وقد طبقت فى العهد النبوى على بدو أظهروا إسلامهم ثم ارتدوا ونهبوا مواشى بيت المال وقتلوا رعاتها .

وآية حد السرقة جاءت بعد هذه الآيات بقليل، مما يلهم أنها نزلت بسبب تساءل عن حد السرقة العادية ، أو حادث سرقة عادية اقتضت الحكمة تشريعا خاصا لها يعالج به الموقف ويكون تشريعا مستمر المدى أيضا .

ولقد اكتفت الآيات المكية بتقبيح الزنا والنهى عنه ، وفعلت مثل ذلك بالنسبة للقتل والفساد فى الأرض ، ولم تذكر السرقة ألبتة ، فجاءت الآيات المعينة لتشرع القصاص فى القتل ، والحد فى الزنا والسرقة والقذف ، ولتضع أحكاما فى القتل الخطأ على حسب حالة القاتل والمقتول وصلاته بالكيان الإسلامى ، وعقوبات زاجرة للمفسدين والمرجفين ، والمثيرين لقلق المجتمع وأمنه ، والمتعرضين لأعراض الناس وأموالهم ؛ وفى هذا كله صورة تطورية للعهدين مستمدة من طبيعتهما .

- ٥ -

ونريد أن نستطرد إلى الحد الإسلامى على شارب الخمر لنقول إن هذا الحد ليس قرآنيا وإنما هو سنة نبوية وراشدية على اختلاف فى الروايات عن كيفية إقامة الحد ومداه ، إذ روى أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بجلد الشارب أربعين جلدة مرة وثمانين مرة ، وبضربه بالنعال والأيدى مرة ، ونهى عن لعنه مرة ؛ وكل ما فى القرآن هو نهى حاسم عن الخمر فى أواخر العهد المدنى . وبعد تدرج فيه انطوى على صور من العهدين المكى والمدنى من جهة ، وعلى ما كان للخمر والسكر من شيوع ورسوخ فيهما ومنذ قبل البعثة من جهة أخرى ، فالوعد بمتعة خمر الجنة ومجالسها

ورائحتها ولونها ومزاجها وطعمها ولذتها قد تكرر ، وهذا يلهم ما قلناه من شيوعها ورسوخها فى بيئة النبى التى خوطبت بالقرآن لأول مرة . ولقد احتوى وصف خمر الجنة نفيا لوجود ما تستكرهه النفس فى خمر الدنيا وما يسبب للشارب من الصداع [1] وهذا يمكن أن يكون نواة أولى لتقرير كراهة الخمر وإعلان تحريمها ؛ وفى أوائل العهد المدنى سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن الخمر والميسر فأوحى إليه بالآية التالية :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ... البقرة ٢١٩

وليس فى الجواب منع أو تحريم كما هو ظاهر ، ولكنه قوى فى تقرير إثمه يصح أن يعد خطوة مهمة إلى النهاية المحتومة ، ثم كان أن صلى بعض المسلمين وهم سكارى فخلطوا فى الركعات وفى قراءة القرآن ، وراجع عمر بن الخطاب رضى الله عنه - على ما روى - النبى صلى الله عليه وسلم ، ودعا إلى الله أن ينزل حكما فى الخمر ، فنزلت الآية التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ... النساء ٤٣

ثم نزلت آيات المائدة التالية بعد مدة ما :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ...

٩٠ - ٩٢

وقد احتوت نهيا حاسما وقويا عن الخمر ، ووصفتها بالرجس ، وسلكتها فى سلك

---

(١) اقرأ آيات الصافات ٤٧ والواقعة ١٩

الشرك ؛ والآية الثانية تلهم أن الآيات نزلت بمناسبة وقوع شقاق ونزاع بين بعض المسلمين بسبب الخمر والميسر ، مما هو مألوف الحدوث فى حالة السكر وتعاطى الخمر والميسر ، وأن الحادث كان خطير الأثر والنتيجة استثار حنق الناس وأسفهم ، فكانت مناسبة ملائمة للخطوة النهائية إلى حظر الخمر لتعالج الحالة القائمة ولتكون تشريعا مستمر المدى أيضا . وذكر الأنصاب والأزلام فى الآية الأولى قد يلهم أن هذه الآيات قد نزلت قبل الفتح المكى ، إذ كانت الأنصاب قائمة والعادات الجاهلية الوثنية فى اللهو والاستخارة جارية .

ولقد جاء بعد هذه الآيات آية تنطوى على ما هو المتبادر منها على صورة لأثر النهى الحاسم فى بعض المسلمين ، وهى هذه :

« لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ... ٩٣

فالظاهر أن الذين كانوا يتعاطون الخمرة من المسلمين هلعوا من أسلوب الآيات وسلكها الخمر فى سلك عبادة الأنصاب ووصفها بالرجس ، نزلت الآية لتسكن من هلعهم بالنسبة لما كان منهم قبل نزولها إذا اتقوا بعدها غضب الله وعذابه ، وصدقوا بما نزل ، وأحسنوا الأعمال .

— ٦ —

أما الأمر الرابع فمن متناوله الزكاة أولا ؛ ومعلوم أن هذا الركن الإسلامى ليس مدنى التشريع فى أصله ؛ إذ كان هو والصلاة من مواضيع الدعوة الإسلامية منذ فجر العهد المدنى ، صراحة حينا وكناية حينا كما ترى فى الأمثلة التالية :

١ — إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ . كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . وَفِى أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ...

الذاريات ١٦ - ١٩

٢ — إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ... فاطر ٢٩

٣ — وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَٱبْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ...

الإسراء ٢٦

٤ — قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ... المؤمنون ١ - ٤

٥ — وَالَّذِينَ فِى أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ . لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ...

المعارج ٢٤ - ٢٥

٦ — وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا فِى أَمْوَٰلِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِندَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ...

الروم ٣٩

ومما يلفت النظر خاصة تعابير « حقه » و « حق للسائل والمحروم » و « حق معلوم » فى الآيات ، إذ يمكن أن تلهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حدد مقادير معينة على أموال القادرين من المسلمين فى العهد المكى زكاة عن أموالهم المتنوعة؛ ومما يتبادر أنه بالإضافة إلى أن الزكاة ومقاصدها هدف أساسى من أهداف الدعوة الإسلامية ، فإن التبكير فى الدعوة إليها ، والتنويه الذى احتواه القرآن بالمؤمنين الذين كانوا ينفقون أموالهم سرا وعلانية ، ويؤدون الزكاة ، ويعرفون أن فى أموالهم حقاً معلوماً للسائل والمحروم - يدل على أن ظروف الدعوة كانت تدعو إلى فرض شىء من المال على الغنى المسلم للفقير المسلم فى ذلك الحين الذى كان الفقراء فيه أكثر عدداً من جهة ، ومعرضين للأذى والمطاردة أكثر من غيرهم من جهة أخرى ؛ ولعل مشروع الدعوة الإسلامية نفسه كان فى حاجة إلى نفقات لابد منها كان النبي صلى الله عليه وسلم يتقاضاها من أغنياء المسلمين كزكاة واجبة الأداء عن أموالهم ؛ مما اقتضت الحكمة أن يكرر فى فرض الزكاة والحث على أدائها والتنويه بمؤديها .

كذلك مما يلفت النظر ما فى الآيات المكية من قوة التعبير التى تدل على أن إعطاء الغنى زكاة ماله فى الإسلام لم تكن الدعوة إليه حتى فى أوائل العهد المكى على أنه صدقة تطوعية ، بل على أنه حق محتوم واجب الأداء للطبقات المحتاجة والمصلحة الإسلامية العامة ؛ هذا فضلا عما احتواه من حث على الإنفاق ومساعدة المحتاجين مما يمكن أن يكون قصد به التبرع التطوعى بالإضافة إلى الحق الواجب .

ومن السائغ أن يقال إن تشريع الزكاة فى العهد المكى هو الوحيد بين التشريعات غير التعبدية ؛ إذ أن جل هذه التشريعات إنما كان فى العهد المدنى على ما أشرنا إلى ذلك فى مناسبة سابقة . والتعليل الذى يتبادر لهذا أن الزكاة إنما فرضت على المسلمين ليؤدوها بطيب أنفسهم وبدافع إيمانهم كالصلاة ؛ فلم تكن قلة المسلمين وضعفهم فى العهد المكى مانعين لهذا التشريع منذ البدء ؛ فضلا عن مساس الحاجة إلى ذلك منذ ذلك الوقت .

ومع هذا كله فلعل من الحق أن يقال إن الأمر بالزكاة والإنفاق وإيتاء حق ذوى الحق فى أموال الأغنياء ظل فى العهد المكى دعوة وتشويقاً وترغيباً وترهيباً كما يدل على ذلك أسلوب الآيات التى نقلنا أمثلة عنها ، فى حين أن الآيات المدنية قد جاءت أو جاء كثير منها بأسلوب الأمر والإيجاب كما ترى فى الأمثلة التالية :

١ — وأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وءاتُوا الزَّكَوٰةَ وما تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ ... البقرة ١١٠

٢ — وأَقِمْنَ الصَّلَوٰةَ وءاتِينَ الزَّكَوٰةَ وأَطِعْنَ اللهَ ورَسُولَهُ ...

الأحزاب ٣٣

٣ — ءأَشْفَقْتُمْ أن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فإذْ لَمْ تَفْعَلُوا وتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وءاتُوا الزَّكَوٰةَ وأَطِيعُوا اللهَ ورَسُولَهُ ...

المجادلة ١٣

٤ — وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ... المزمل [١] ٢٠

٥ — وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ... البينة ٥

وفى حين أنها دخلت فى العهد المدنى فى طور رسمى ، وأصبحت فى جملة ما يدخل جبايته فى صلاحية السلطان الإسلامى الذى كان يتمثل فى شخص النبى صلى الله عليه وسلم وجعلت من حق بيت المال الرسمى ، وموردآ من موارده ، وأوجب عليه صرفها فى مصارف معينة ، وعبر عن الزكاة ومصارفها بتعبير « فريضة من الله » كما يستفاد من الآية التالية :

« إِنَّمَا الصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَٰكِينِ وَالْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ وَالْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ... [٢] التوبة ٦٠

وتعبير « الصدقات » فى الآية هو كناية عن الزكاة كما هو المجمع عليه ؛ ويلفت النظر خاصة إلى جملة « والعاملين عليها » إذ تعنى الموظفين الرسميين الذين كان يعينهم النبى صلى الله عليه وسلم لجباية الزكاة ، مما يدل دلالة حاسمة على رسمية هذا المورد المالى .

وآية التوبة هذه قد تكون متأخرة فى النزول ، غير أن أسلوبها من جهة وسياق ورودها التنديدى بالمنافقين الذين كانوا يطمعون بحصة من الزكاة على غير استحقاق من جهة أخرى [٣] يدلان على أن الأمر كان جارياً قبل نزولها على ماذكرته بتشريع نبوى جاءت مويدة له .

والصورة التطورية فى أمر الزكاة ورسمية جبايتها وصرفها واضحة بالنسبة للعهدين ؛

---

(١) هذه الآية مدنية وكان موضعها فى السور المكية المناسبة (٢) الرقاب كناية عن تحرير الرقاب، والغارمون هم الذين يحملون الغرامات ، أى الدية ولا يطيقون أداءها وحدهم ، والمدينون المعسرون

(٣) أرآيات التوبة ٥٨ - ٥٩

ولا ريب فى أنها مستمدة من طبيعة العهدين نفسيهما . وليس فى القرآن تعيين لمقادير الزكاة ، وقد تكفلت بذلك السنة النبوية ، شأن كثير من الحدود والقواعد على ما نبهنا إليه فى المناسبات السابقة .

وهناك نقطة جديرة بالبحث فى صدد صلة الزكاة ببيت المال ؛ إذ جرى التعامل على أن تكون زكاة الزروع والأشجار والمواشى فقط هى التى يجبيها بيت المال الرسمى ، وإذ تواترت الروايات بأن النبى صلى الله عليه وسلم إنما كان يرسل عمال الصدقة ليأخذوا حصة بيت المال من هذه الأعيان ويوزعوها على الفقراء بتفويض منه أو يرسلوها إلى خازن المال ؛ ونقول إن الآية لاتحتوى تخصيصا ، كما أن شمول الزكاة للأموال جميعها لايحتمل شكا ؛ ولقد ذكرت روايات معتبره [1] أن النبى صلى الله عليه وسلم قبض أكثر من مرة زكاة مال عمه العباس للذى كان تاجراً ولم يكن ماله زرعاً وماشية ، كما أن الخليفتين عمر وعثمان رضى الله عنهما كانا يحاسبان أصحاب المرتبات من المسلمين على زكاة أموالهم حين تأدية هذه المرتبات السنوية ، ويحجزان المستحق عليهم لبيت المال منها ؛ هذا إلى ما هناك من أقوال منسوبة إلى كبار الصحابة بوجوب تأدية زكاة جميع أنواع الأموال إلى بيت المال ، الأمر الذى نرجح أنه كان جاريا بصورة عامة ؛ ويستفاد من الروايات المعتبرة أنه كان لما قام من فتن سياسية أدت إلى نشوء الدولة الأموية أثر فى إهمال استيفاء بيت المال زكاة النقد والعروض الأخرى ، أو فى حمل بعض المسلمين على عدم تأديتها إليه ، ثم سرى هذا إلى الجمهور ، وتساهلت الدولة فى الأمر ؛ لتفادى الفتنة من جهة ، ولأن النقد والعروض الأخرى ليس مما يمكن الاطلاع عليه وأمرهما موكول إلى أصحابهما من جهة أخرى.

- ٧ -

ومن متناول الأمر الرابع غنائم الحرب ثانياً . وهذه الغنائم نوعان : نوع يشترك فى اغتنامه المسلمون فى حرب فعلية ، وآخر لاتقع فى سبيله حرب فعلية ؛ والنوع الثانى

---

(١) فى كتاب الأموال للامام القاسم بن سلام ، وهو من أقدم الكتب وأهمها ، أقوال وأحاديث وروايات عدة فى هذا الموضوع .

يسمى « فيئاً » ، إذ تتضمن الكلمة معنى الهبة .

وقد قررت آية الأنفال (٤١) الخمس من النوع الأول كنصيب لبيت المال الرسمى كما ترى :

« واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتمى والمسكين وابن السبيل إن كنتم ءامنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ... »

ونصت الآية على مستحق هذا الخمس ، وتواترت الروايات حتى صار يقينا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقبض الخمس ويتولى إنفاقه فى مصارفه ، ومن أجل هذا قلنا إنه نصيب بيت المال الرسمى .

وقررت آية الحشر (٧) جميع النوع الثانى كنصيب لبيت المال كما ترى :

« ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتمى والمسكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما ءاتكم الرسول فخذوه وما نهكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب . »

ومستحقو الفىء هم مستحقو خمس الغنائم أنفسهم ؛ وقد تواترت الروايات كذلك حتى صار يقينا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقبض الفىء ويتولى إنفاقه على مصارفه ؛ ومن أجل هذا قلنا إنه نصيب بيت المال أيضا .

وبين مستحق الزكاة ومستحق الفىء والغنائم بعض الفرق ؛ إذ دخل فى عداد الأولين المؤلفة قلوبهم ، والعاملون عليها ، وتحرير الرقاب ، والغارمون ؛ وفى هذا الفرق صور واقعية للعهد المدنى على ما يتبادر لنا ؛ إذ يمكن أن يلهم أنه كان من المسلمين فئة تمس الحاجة إلى تأليف قلوبها بالمال ، وفئة أخرى تمس الحاجة إلى مساعدتها على حمل مغارمها الناشئة عن طبيعة المجتمع ؛ كما كان هناك أرقاء مسلمون يجب شراؤهم وتحريرهم ، فاقتضت الحكمة النص على مساعدتهم ؛ ويلفت النظر خاصة إلى النص على مساعدتهم من مال الزكاة الذي هو دائم المورد دون الغنائم الحربية ،

وفى هـذا ما يلهم خطورة مساعدة هذه الفئات فى العهد النبوى ، وما علمه الله من خطورة مساعدتها دائما أيضا ، إذ أن فى الآية معالجة للموقف الحاضر ، وتشريعا مستمر المدى بطبيعة الحال .

أما الفقراء والمحتاجون فقد نص على مساعدتهم من النوعين، عما يبدو حكيما وطبيعيا ، لأنهم جزء من كل مجتمع فى كل وقت ، ولا بد من مساعدتهم ومن تولى السلطان الإسلامى أمر هذه المساعدة حتى لا يكونوا تحت رحمة الصدقات التطوعية والمتصدقين وأذاهم . ومما لاريب فيه أن هذا كان هو الواقع ؛ وقد أشارت آيات البقرة (٢٦٣-٢٦٤) التى نقلناها فى فصل الجهاد إلى ذلك . أما ذوو القربى الذين نص عليهم فى خمس الغنائم وفى الفىء ، فالأكثر على أنهم أقارب النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وإذا لاحظنا أن أكثر أقارب النبى صلى الله عليه وسلم حينما نزلت آية الأنفال كانوا كفارا وفى مكة ومنهم من خرج محاربا مع قريش ، ومنهم من أسر كالعباس عم النبى وعقيل ابن عمه وأمثال هؤلاء ممن جعل لهم حق فى نصيب ذوى القربى ، ثم إذا لاحظنا أن أقارب النبى فى عهد الخلفاء الراشدين إنما كانوا يتقاضون مايتقاضون كمخصصات عامة أسوة بسائر المسلمين ولم يؤد لهم هذا النصيب إلا فى ظرف خاص فى عهد الدولة العباسية كما ذكرته الروايات - جاز لنا أن نتوقف فى أن التعبير كان يعنى أقارب النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن النبى كان يؤدى إليهم نصيبا خاصا من الفىء والغنائم ؛ وإنه لمما يرد بالبال أن يكون هذا التعبير إنما عنى من كان يتقرب إلى النبى بخدمة عامة ، أو يقوم بعمل عام يكون فيه قربى إلى الله ورسوله ؛ وفى إحدى آيات سورة التوبة استعمل هذا المعنى كما ترى فيها « ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ماينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم . . . ٩٩ » مما يمكن أن يكون قرينة قرآنية ما على التوجيه الذى وجهناه .

هذا ؛ ولقد نبهنا فى فصل الجهاد على أن آيات الخمس والفىء قد نزلت بالأمر الحاسم الذى تضمنته فى صدد نصيب بيت المال بمناسبة ما بدا من بعض المسلمين من اعتراض على ذلك أو تذمر منه ؛ وفى هذا صورة واقعية حدثت فى سياق توطيد بيت المال الرسمى كما هو واضح تتمثل فى عدم رضاء بعض المسلمين عن احتجاز قسم من مال أو تخصيص مال ظنوه من حقهم ليقبضه النبى صلى الله عليه وسلم ويتولى إنفاقه ،

ومما لا ريب فيه أن هذا الموقف إنما كان من طبقة المسلمين الثانية ، كما أنه مما يمت إلى طبيعة البشر بوجه عام .

ولقد نبهنا إلى صورة مماثلة فى فصل شخصية النبى صلى الله عليه وسلم إذ أراد فرض رسم على الاستفتاءات الشخصية على ما استلهمناه من آيات المجادلة ١٢ - ١٣ فاقتضت الحكمة العدول عنه ؛ وهذا مما يمت إلى توطيد بيت المال الرسمى بسبب ما ، فنكتفى بالإشارة إليه منبهين فقط إلى ما يلهم هذا من رغبة النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك التوطيد ، وفى تنميته موارد ذلك البيت حتى يمكن أن يسد الحاجة ، وإلى ما فى هذا من مشهد متصل بالسيرة النبوية فضلا عن ما فيه من تلقين مستمر المدى ، متصل بحياة البشر الاجتماعية أيضا .

وواضح من الآيات أن توطيد بيت المال قد تم على مراحل ، واقتضى أن يكون الأسلوب القرآنى فى توطيده شديداً حازما إلى حد ما لما فى ذلك من أثر عظيم فى تدعيم بنيان الدولة التى أخذت تنشأ فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وكفالة مصالح المسلمين العامة التى أخذت تتسع وتزداد تشعباً .

المبحث الثالث

فى التشريع الاجتماعى

متناول هذا التشريع ـ الفرق الأسلوبى بين الآيات المكية والمدنية فيه ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وملهمات الآيات فيه ـ توطيد الأخوة الاسلامية والكيان الاسلامى بالنسبة للخارج وملهمات الآيات فيه ـ توطيد الأمن والصلح فى داخل الكيان الاسلامى وملهمات الآيات فيه ـ وقاية المجتمع الاسلامى من أسباب الفتنة والأحقاد وملهمات الآيات فيها ـ بحث فى الرق والتشريع فيه ـ الآيات القرآنية فى صدد ذلك وملهماتها .

ـ ١ ـ

نقصد بهذا التشريع ماله علاقة بما يجب على المسلمين فى كل ما يتصل بالمصالح العامة المشتركة بين الجماعات الإسلامية من تضامن وتعاون على البر والخير ، ودفع الشر والضرر ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبناء مجتمع إسلامى يقوم على تولى المسلمين بعضهم بعضا ، لاخصام بين أفراده وهيئاته مهما اختلفوا أجناسا وأرومات ، ولا نزاع ولا انتقاص ، ولا تمايز ولا تنابز ولا سخرية ، تربط بعضهم ببعض رابطة الأخوة الإسلامية الشاملة التى تحل محل العصبية العائلية والقبلية والعنصرية الضيقة .

ومن الحق أن نقول إنه يوجد فى القرآن المكى آيات كثيرة احتوت مبادئ وسننا اجتماعية جليلة جاء أكثرها فى مساق الأمثال والتذكير ، والحملة على البغى والظلم والفساد والزعماء الماكرين وتبعاتهم الاجتماعية وتقرير ما أحله الله وماحرمه من أعمال الناس الاجتماعية ، والحض على التضامن فى الدعوة إلى الرحمة والصبر والحق كما ترى فى الآيات التالية :

١ ـ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ...

الأنعام ١٣١

٢ ـ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا

وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون ... الأنعام ١٢٣

٣ — وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ... الأنعام ١٥٣

٤ — قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق ... الأعراف ٣٣

٥ — فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير. ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ... هود ١١٢ - ١١٣

٦ — فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين. وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ...

هود ١١٦ - ١١٧

٧ — إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ... الرعد ١١

٨ — أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ... الرعد ١٧

٩ — إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون. وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم

كَفِيلًا إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ... النحل ٩٠ - ٩٣

١٠ — وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَٰقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ... النحل ١١٢

١١ — وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ... الإسراء ١٦

١٢ — ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ... الروم ٤١

١٣ — ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ... البلد ١٧

١٤ — وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ... العصر

غير أن الآيات المدنية قد اتجهت للقصد مباشرة فى صدد الكيان الإسلامى الاجتماعى ، وواجبات الجماعة الإسلامية ، وتوثيق الأخوة بين المسلمين ؛ وهى أكثر وضوحا وأشد لصوقا بالموضوع ، وأحمل لطابع التشريع الاجتماعى من الآيات المكية .

- ٢ -

وتستعرض فيما يلى الآيات المدنية مصنفة على حسب مرماها الاجتماعى .

فأولا ما يتصل بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتضامن فى البر والخير والتقوى :

١ — وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ... آل عمران ١٠٤

٢ — كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ... آل عمران ١١٠

٣ — لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ... النساء ١١٤

٤ — وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ... المائدة ٢

٥ — وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... التوبة ٧١

٦ — التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ... التوبة ١١٢

٧ — الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ... الحج ٤١

٨ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ

وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ... المجادلة ٩

وأسلوب آية آل عمران ١٠٤ قوى حاسم فى إيجاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والدعوة إلى الخير على الجماعات الإسلامية ، وفى إيجاب أخذ طائفة منهم ذلك على عاتقها بصورة دائمة بحيث يصح أن يعتبر تشريعاً ؛ ويدعم هذا ما قاله بعض العلماء من أن هذه الآية قد فرضت على المسلمين واجباً إذا لم تقم به طائفة منهم أثموا جميعهم ؛ ومثل هذا يصح أن يقال فى آية المائدة (٢) فى أمرها ونهيها . على أن الآيات الأخرى قوية التلقين أيضاً فى إيجاب هذا على المسلمين لما فيه من تمكين لهم فى الأرض ، وفى تعليل اصطفاء الله لهم وجعلهم خير أمة أخرجت للناس .

والآيات من سور نزلت فى مختلف أدوار التنزيل المدنى ؛ وهذا يعنى أن هذا الواجب العظيم قد وطد بالتكرار لخطورة شأنه ؛ ولقد نزلت كل آية أو مجموعة منها فى مناسبة كما يلهم سياقها ومضمونها وأسلوب الخطاب فيها ؛ ويدل هذا على أنها قد انطوت على صور واقعية كانت وسيلة لتوطيد هذا الواجب ، مما نبهنا إلى أكثره فى الفصول السابقة التى أوردنا فيها كثيراً منها ؛ بحيث عولجت بها الحالات التى اقتضت الحكمة نزول الآيات بمناسباتها ، ثم كانت تشريعاً وتلقيناً وإيجاباً مستمر المدى ؛ وصلة هذا بالسيرة النبوية وأحداثها واضحة ، ويمت إلى التشريع القرآنى وتطوره وظروفه على ما نبهنا إليه فى تمهيد الفصل .

- ٢ -

وثانياً : - مايتصل بالحث على الأخوة الإسلامية وتبادل الولاء بين المسلمين دون غيرهم :

١ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ... آل عمران ١١٨

٢ — يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ... النساء ١٤٤

٣ — إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ . وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَٰلِبُونَ . يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ... المائدة ٥٥ - ٥٧

٤ — إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ...

الأنفال ٧٢

٥ — وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ... الأنفال ٧٣

٦ — يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ ...

التوبة ٢٣

٧ — وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ... التوبة ٧١

٨ — لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ

حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ... المجادلة ٢٢

٩ – يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ... الممتحنة ١

١٠ – لَا يَنْهَٰكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَٰكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ ...

الممتحنة ٨ - ٩

والآيات قوية حاسمة فى الصدد الذى نزلت فيه ، وهو توثيق الأخوة والولاء بين المسلمين ، وبناء المجتمع الإسلامى على هذا الأساس بدلا من أساس العصبية الضيقة الذى كان يقوم عليه المجتمع العربى ، وعدم الإخلال بالتضامن الإسلامى بتولى أعداء الإسلام والمسلمين بأى شكل .

والآيات من سور عدة نزلت فى مختلف أدوار التنزيل ، وبمناسبة أحداث واقعية ؛ وهذا يعنى أن هذا الأمر الخطير قد توطد أو استهدف توطيده بالتكرار ، وفى كل مناسبة سانحة ، كما يعنى أن الآيات انطوت على صور ومشاهد من صور ومشاهد السيرة فى العهد المدنى مما نبهنا إليه وشرحناه فى الفصول السابقة ، وخاصة فصول اليهود والمنافقين والجهاد التى أوردنا فيها جل الآيات إن لم يكن كلها . وقوة الآيات وحسمها وتكرارها مع وحدة الموضوع والهدف ، أدلة على ما كان من رسوخ للعصبية الضيقة فى المجتمع العربى أولا ، وعلى ما كان من تغلغل اليهود - لأن كثيراً من الآيات فى شأنهم - فى حياة هذا المجتمع ثانيا ، وعلى ما كان يعتلج فى نفوس المسلمين

من أزمات إزاء ذوى أرحامهم وبنى قومهم من الكفار الذين انقلبت الصلات بينهم من عصبية الولاء القوية الراسخة إلى العداء والقطيعة ثالثا ؛ وفى هذا بوجه عام صورة للعهد النبوى كما هو واضح ؛ وقد جاءت الآيات لتعالج الموقف وتحسمه بهذا الأسلوب الشديد، دفعا للخطر عن الكيان الإسلامى الناشئ، وتوطيداً للأخوة الجديدة التى تقوم على أساس جديد؛ ولتكون فى الوقت نفسه تشريعا وتلقينا مستمرى المدى أيضا.

- ٣ -

وثالثا مايتصل بالحث على الاتحاد والصلح بين المسلمين وعدم التنازع والتفرقة :

١ — يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ . وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَٰنًا ...

آل عمران ١٠٢ - ١٠٣

٢ — وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَٰتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ... آل عمران ١٠٥

٣ — وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَٰزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّٰبِرِينَ ... الأنفال ٤٦

٤ — وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ...

الحجرات ٩ - ١٠

والآيات - وإن كانت مما يمت إلى هدف آيات الموضوع السابق شيئا ما - بينها

شىء من الفرق من حيث استهدفت هذه توثيق الإخاء والتضامن والوحدة بين المسلمين من الداخل ، فى حين استهدفت تلك تكوين جبهة إسلامية تجاه الخارج .

وهذه الآيات كتلك نزلت فى مختلف أدوار التنزيل ، وفى مناسبات معينة انطوت فيها صور ومشاهد للعهد النبوى ، وقد ألممنا بها فى الفصول السابقة التى أوردنا فيها هذه الآيات ؛ وقد جاءت لتعالج الموقف بأسلوبها القوى الحكيم ، ولتوطد بنيان الكيان الإسلامى الجديد وتوثق الإخاء والوحدة بين أفراده ، ولتكون فى الوقت نفسه تشريعاً وتلقيناً مستمرى المدى أيضاً .

ورابعاً ما يتصل بتنقية المجتمع الإسلامى من عوامل الأحقاد والضغائن وأسباب الفتنة .

١ - وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ... النساء ١١٢

٢ - وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ... الأنفال ٢٥

٣ - إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ... النور ١٩

٤ - وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ... الأحزاب ٥٨

٥ - لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا . مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ... الأحزاب ٦٠ - ٦١

٦ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ . وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ

لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَـٰئِكَ هُمُ الرَّٰشِدُونَ . فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ... الحجرات ٦ - ٨

٧ — يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَـٰبِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَـٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّـٰلِمُونَ . يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ . يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ...
الحجرات ١١ - ١٣

والآيات مما نزل فى مختلف أدوار التنزيل ، ومضامينها وسياقها يلهمان أنها نزلت فى مناسبات معينة ، لمعالجة مشاكل وأحداث متصلة بمشاهد السيرة وأحوال المجتمع الإسلامى فيها .

فآية النساء نزلت فى مناسبة حادث سرقة الدرع واتهام السارق غيره بالسرقة وتآمر أهل السارق لتبرئة قريبهم وتضليل النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وآية الأنفال نزلت فى ظروف وقعة بدر وما كان فيها من نزاع كاد يؤدى إلى فتنة ، وآية النور نزلت فى مناسبة حديث الإفك ، وآيات الأحزاب نزلت بسبب مواقف المنافقين الخبيثة على ما شرحناه فى أمكنة سابقة ، وروح آيات الحجرات ٦ - ٨ تلهم أنها نزلت فى مناسبة هياج أحدثه بعض الأنباء الكاذبة ، وأن من المسلمين من كان يهيج لأقل شىء ويطلب من النبى صلى الله عليه وسلم تصرفا غير حكيم ؛ وآيات الحجرات ١١ - ١٣ أيضا نزلت على ما شرحناه فى مكان سابق بسبب تصرفات بعض المسلمين إزاء

بعضهم بما فيه إثارة غيظهم وأذى نفوسهم. وهكذا تكون الآيات قد نزلت لمعالجة هذه المشاكل والأحداث بما فيه توطيد حسن الإلفة والانسجام بين المسلمين، والقضاء على عوامل الفتنة والحقد والضغينة بينهم، ولتكون تشريعا وتلقينا مستمرى المدى فى الوقت ذاته.

- ٤ -

والرق من مظاهر المجتمع؛ وهذا يجعل المناسبة تتحمل البحث فى التشريع القرآنى فى صدده.

ونبادر إلى القول بأنه لم يرد فى الآيات المكية شىء يحتمل معنى التشريع فى هذا الصدد، وكل ما ورد فيها هو إشارات إلى الرق باعتباره نظاما قائما ومألوفا أولا، ودعوة إلى عتق الأرقاء، واعتبار ذلك من أحسن القربات إلى الله ثانيا؛ كما ترى فى الآيات التالية:

١ — ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا عَبدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ ... النحل ٧٥

٢ — ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ... الروم ٢٨

٣ — وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ... المعارج ٢٩ - ٣٠

٤ — فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ . وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ . أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ... البلد ١١ - ١٤

أما الآيات المدنية فقد ورد فيها تشريعات عديدة فى صدده من معاملة وعتق وتحرير. والقرآن لا يذكر بصراحة جواز استرقاق الأسرى؛ والأسرى هم

مادة الرقيق فى العصور الأولى عند العرب وغيرهم فى الدرجة الأولى ؛ وكل ما جاء فيهم آيات سورة محمد (٤) والأنفال (٦٧-٦٨) التى نقلناها وشرحنا مداها فى فصل الجهاد مما لا حاجة إلى إعادته هنا ؛ وننبه فقط إلى ما فى التطور الملموح بين آيات الأنفال وآية محمد ؛ والأولى نزلت قبل الأخرى ، وقد عاتبت على الأسر ، وقررت قاعدة حربية هى أن توطيد الهيبة فى نفوس الأعداء يقتضى الشدة فى بدء الأمر ، لأن اللين مما يحمل على الضعف والوهن ؛ أما الأخرى فيبدو أنها نزلت حين كان السلطان الإسلامى موطداً ، فقررت القاعدة الدائمة وهى إباحة الأسر بعد أن يكون الرعب قد وقع فى قلوب الأعداء بالإثخان ، ثم معاملة الأسرى بالمنّ أو الفداء بعد أن تضع الحرب أوزارها . ومهما يكن من أمر التواتر الذى يحكى أن بعض سبي الحرب فى العهد النبوى قد استرق ، وأن هذا قد وقع أيضا لسبى الحروب فى عهد الخلفاء الراشدين ، ومع أن سكوت آية محمد عن الذين لا يرى النبي صلى الله عليه وسلم المنّ عليهم ولا يستطيعون افتداء أنفسهم قد ألهم جواز استرقاقهم - فإن الآية قد احتوت قاعدة واسعة المدى فى صدد إلغاء رقّ أسرى الحرب ولو كانوا كفاراً كما هو واضح منها .

ومن فحوى الآيات القرآنية يصح أن يقرر أن المسلم لا يمكن أن يسترق ، فإذا اقتتلت طائفتان من المسلمين وأسرت إحداهما أسرى من الأخرى فلا استرقاق ، لأنهم إخوتهم فى الدين وأندادهم على ما جاء فى آية الحجرات ٦ - ٨ التى نقلناها فى مكان سابق .

والمروى أن الأسرى المسترقين كانوا يوزعون على المسلمين أسوة بالغنائم ، ويقبض بيت المال خمسه منهم ، ومن الممكن أن يفهم من آية التوبة (١١) التى نقلناها فى فصل الجهاد أن أسرى الكفار إذا أسلموا قبل أن تضع الحرب أوزارها وقبل أن يقرر مصيرهم بالمن أو الفداء أو الاسترقاق والتوزيع ، فإنهم لا يجرى عليهم استرقاق لأنهم أصبحوا إخوانا للمسلمين ؛ أما إذا أسلموا بعد ذلك فيبقون أرقاء لأنهم أصبحوا حقوقاً مكتسبة للغير إن صح هذا التعبير .

وإليك الآن الآيات المدنية التى احتوت تشريعات عدة فى معاملة الرقيق وعتقه وتحريره .

١ — وءاتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ... البقرة ١٧٧

٢ — واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا ...

النساء ٣٦

٣ — وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطئا ومن قتل مؤمنا خطئا فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ...

النساء ٩٢

٤ — لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ... المائدة ٨٩

٥ — إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب ... التوبة ٦٠

٦ — وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم . وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا وءاتوهم من مال الله

الذِي ءاتَاكُمْ ولا تُكرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَوٰةِ الدُّنيَا وَمَنْ يُكْرِههُّنَّ فإنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... النور ٣٢ - ٣٣

٧ - والَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ... المجادله ٣

والآيات استهدفت كما هو واضح تلقين إحسان معاملة الرقيق، والاهتمام بتحريره بمختلف الوسائل، ومن جملة ذلك تحمل بيت المال هذه المهمة .

ومما لاريب فيه أنها نزلت فى مناسبات ، وأنها انطوت على صور مما كان جاريا فى العهد النبوى، من مثل كثرة الأرقاء المسلمين، ومن عدم معاملتهم معاملة حسنة، وحرمانهم حقوقهم ومتعهم الطبيعية ؛ فنزلت الآيات لمعالجة الموقف الذى اقتضاه نزولها، ولتكون فى الوقت نفسه تشريعا وتلقينا مستمرى المدى أيضاً .

المبحث الرابع
فى التشريع الاقتصادى

متناول هذا المبحث - أسلوب ومدى الآيات المكية والمدنية فى موضوعه - الوصية وملهمات الآيات الواردة فيها - الارث وملهمات آياته عناية القرآن باليتامى وأموالهم ومدى الآيات الواردة فى ذلك - تشريع سن الرشد وما تلهمه الآية الواردة فيه - التشريع بشأن تصرف السفهاء - النهى عن الربا وما فى الآيات الوارده فى ذلك من ملهمات - تنظيم العقود والديون وصيانة الحقوق وما فى الآيات الواردة فى ذلك من ملهمات :

— ١ —

يتناول الكلام فى هذا المبحث مسائل الوصايا والإرث والبيع والشراء والربا والديون والعقود والرهن والشهادات والشهود ... أما ماله صلة بموارد الدولة والزكاة ومصارفها وتوطيد التعامل الاقتصادى الحقوقى بين الناس فقد تكلمنا عنه فى التشريع السياسى فلا نعود إليه هنا بطبيعة الحال .

وننبه إلى أن القرآن المكى احتوى آيات عدة فيها مبادئ متصلة بهذه الأمور من قريب أو بعيد جاءت بأسلوبه الخاص من الوعظ والحض والتنويه والتنديد كما تراه فى الآيات التالية :

١ — وءاتِ ذَا القُرْبَىٰ حَقَّهُ والمِسْكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ ولا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ...
الإسراء ٢٦

٢ — ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلولةً إلَىٰ عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْهَا كلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلومًا مَحْسُورًا ...
الإسراء ٢٩

٣ — وأَوْفوا الكَيْلَ إذَا كِلْتُمْ وزِنُوا بالقِسْطَاسِ المُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ...
الإسراء ٣٥

٤ — ولاَ تَقْرَبُوا مَالَ اليَتِيمِ إلَّا بالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وأَوْفُوا

الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ...

الأنعام ١٥٢

هذا فى حين أن القرآن المدنى احتوى آيات أكثر عدد أو تنوعا وسعة من جهة، وطابع التشريع عليها أشد بروزاً من جهة أخرى، مما هو متصل كذلك بطبيعة العهدين. وسنستعرض الآيات ونشرح مداها على حسب المواضيع كما فعلنا فى المباحث السابقة:

- ٢ -

فأولا: الوصية.

(١) جاء فى سورة البقرة الآيات التالية:

« كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ. فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ...

١٨٠ - ١٨٢

والآيات مما نزل مبكرا كما يستلهم من مضمونها، إذ تأمر بالوصية للوالدين مع أن آيات المواريث خصصت لهم أنصبة فى ميراث أبنائهم. ويستلهم من الآيات أن الأنصبة فى الميراث للوالدين والأقربين لم تكن صريحة ومحددة؛ ولما كانت آيات المواريث قد احتوت كما قلنا تحديدا للأنصبة فقد ساغ أن يقال والحالة هذه إن هذه الآيات جاءت كخطوة أولى فى سبيل تقرير أمر التركات؛ كذلك يمكن أن يستلهم من الآيات أن الوصية كانت من الأمور المألوفة، ولكنها كانت عرضة للتحريف والتبديل، وكانت تنطوى أحيانا على قصد الإضرار والحيف بأناس دون آخرين، إذ أنذرت المحرفين، وحضت على إصلاح البين حتى لا يكون العداء أو الجفاء

سببا من أسباب الحيف والإجحاف فى الوصية .

(٢) وجاء فى سورة المائدة الآيات (١٠٦ - ١٠٨) التى نقلناها فى المبحث الثانى من هذا الفصل ، وهى وإن جاءت فى صدد الذين يتوفون غرباء فإنها من حيث المبدأ فى صدد تشريع تنظيم ظرف من ظروف الوصية والتركات كما هو واضح ، وقد نزلت بمناسبة تلاعب بعض الناس بتركة مسلم مات غريبا ، لإحقاق الحق لأهله ولتكون تلقينا وتشريعا مستمرى المدى فى الوقت نفسه .

(٣) وقد تكرر فى آيات المواريث ذكر الوصية كما ترى فيها :

١ — ... مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ... النساء ١١

٢ — ... » » » » يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ... » ١٢

٣ — ... » » » » تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ... » »

٤ — ... » » » » يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ... » »

وهذا يدل على أن الوصية مما كان مألوفا ، وظل الأمر كذلك بعد تعيين أنصبة الوارثين فى التركات أيضاً ، كما أن تكرار التأكيد بوجوب تنفيذ الوصية يلهم أن الوارثين كانوا يجنحون أحياناً إلى إهمال تنفيذ الوصية على وجهها ، فاقتضت الحكمة هذا التكرار لمعالجة الموقف وإحقاق الحق لأهله ، وليكون الأمر تشريعاً مستمر المدى أيضا . والآيات لاتحدد الوصية بحد بحيث أنها توجب تنفيذ الوصية قبل توزيع الميراث مع سداد الدين ؛ ومما هو ثابت أن الشرع الإسلامى قد حدد الوصية بثلث الإرث بعد الدين على الأكثر ؛ وهو تشريع نبوى .

- ٣ -

وثانيا : الإرث .

جاء فى سورة النساء فى صدد الإرث الآيات التالية :

١ — لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا

تَرَكَ الْوَٰلِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا . وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَـٰمَىٰ وَالْمَسَـٰكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ... ٧ - ٨

٢ — يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِى أَوْلَـٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَا أَوْ دَيْنٍ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا . وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَـٰلَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ[1] فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِى الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ... النساء ١١ - ١٢

٣ — وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا . وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ الْوَٰلِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ

(١) من أمهات متعددة وأب واحد

وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ... النساء ٣٢ - ٣٣

٤ — وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ... ١٢٧

٥ — يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً[1] فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ... ١٧٦

والآيات ١١ - ١٢ و ١٢٧ و ١٧٦ تشريع واف فى الصدد الذى نزلت فيه يتمم بعضه بعضا ، كما أن السنة النبوية قد أكملت مايبدو من فراغ فيه كأنصبة الأجداد والعصبات الأخرى .

والآيات ٧ - ٨ و ١٢٧ تلهم مع الاستئناس بالروايات أن نصيب المرأة فى الميراث لم يكن مسلما به ، سواء من حيث الأصل أو المقدار ؛ كما أن الآية ١٢٧ تلهم أن إرث اليتامى كان عرضة للأكل ؛ والآيات جميعها تلهم أن أنصبة الإرث كانت تتموج على حسب الوارثين قوة وضعفا وذكورة وأنوثة وكبرا وصغرا ودرجة قرابة[2] ؛ فاقتضت الحكمة نزولها لمعالجة الموقف بتعيين حق كل مستحق وتأكيد إيجاب السير على ذلك ، وإنهاء عهد فوضى الإرث والتحكم فيه وفقا لتقاليد العصبية الجاهلية

(١) المقصود هنا الأخوة الأشقاء.

(٢) مما روى أن امرأة شكت للنبي أن زوجها توفى عنها وعن ثلاثة أيتام ، وأن عمهم أبى عليهم إرثهم قائلا إنه هو الذى يتحمل المغارم وحده ، وإن التركة من نصيبه وحده والحالة هذه

الأولى ، ولتكون فى الوقت نفسه أساسا قويما تشريعيا مستمر المدى ؛ وفقرة إرث الكلالة فى الآية ١٢ وآية الكلالة الثانية (١٧٦) تلهمان أن هذا الإرث كان كذلك من المشاكل التى تحتاج إلى حل وتركيز ؛ وقد جاءت فقرة الآية (١٢) بسبيل حل مشكلة الإخوة لأمهات متعددة ، ثم جاءت الآية ١٧٦ بسبيل حل مشكلة الأخوة الأشقاء ؛ والظاهر أن المشكلة الأولى كانت هى الأكثر غموضا وتعقيدا ، أو هى التى عرضت مناسبتها أولا ، ثم كان بعد ذلك بمدة ما سؤال واستفتاء بشأن المشكلة الثانية لمناسبة عرضت أيضا . وفى هذا صورة من صور التشريع والعهد وظروفهما .

ولقد اختلفت الأقوال فى مدى فقرة « والذين عقدت أيمانكم » فى الآية (٣٣) فقيل إنها عنت الزوجات ، وقيل إنها عنت الأبناء بالتبنى الذين كان لهم حق الإرث ، لأن التبنى كان بمثابة عقد ؛ وقيل إنها عنت الحلفاء أو العتقاء ، كما قيل إنها عنت المهاجرين والأنصار الذين آخى النبى بينهم ، وكان من مفهوم المؤاخاة أن يرث بعضهم بعضا ؛ وروح الآية مع الآية التى قبلها تلهم أنهما نزلتا أبكر من آيات المواريث ، واحتوتا تمهيدا لإيجاب احترام كل مستحق فى الإرث لحق كل مستحق آخر ، وعدم بغى بعضهم على بعض ؛ ثم نزلت آيات المواريث محددة معينة وحاكمة . ولا يمنع هذا أن يكون قبل نزولها تعامل متعارف عليه أو أمر النبى صلى الله عليه وآله وسلم باتباعه فى شأن أو أكثر من تلك الشؤون المذكورة فى الآية (٣٣) ؛ وهكذا تكون آيات المواريث قد نسخت كل ماخالفها ، كما نسخت الوصية للوالدين ؛ وبعض ماقلناه يصح أن يقال بالنسبة للآيات ٧ - ٨ من حيث أنها تمهيد لتوطيد حقوق كل مستحق فى الإرث ، وفى هذا وذاك صور تطورية للتشريع القرآنى كما هو واضح .

- ٤ -

وثالثا : أموال اليتامى

وهذا الموضوع من المواضيع التى نالت عناية قرآنية كبيرة ؛ ففى القرآن المكى آيات عدة فيه ، وقد نقلنا جملة منها سابقا ، وأسلوبها أسلوب وعظ وتحذير ؛ وقد احتوى القرآن المدنى آيات عدة فيه كذلك ، غير أن طابع التشريع عليها أكثر بروزاً ؛ وهذه العناية تدل - فوق اعتبار حماية الضعيف أساساً من أسس الدعوة

الإسلامية - على أن اليتامى كانوا عرضة للاضطهاد والبغى ، وأن أموالهم كانت عرضة للنهب والتلاعب ؛ ولعل من أول الآيات المدنية فى هذا الأمر آية سورة البقرة هذه :

« ... ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم ... ٢٢٠

إذ تلهم أن بعض المسلمين فى العهد المدنى تحرجوا من خلط أموال اليتامى بأموالهم بسبب ما كان من تشديد فى القرآن المكى ، فنزلت الآية تبيح هذا على أساس الإصلاح ونية الخير الذى هو مقصود الأوامر القرآنية ، ولتكون تلقينا مستمر المدى فى الوقت نفسه .

ثم نزلت آيات عدة فى سورة النساء فى صدد توكيد حق اليتيم وصيانة ماله كما ترى فيها :

١ - وءاتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا . وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث وربع ... ٢ - ٣

٢ - وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن ءانستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا ... ٦

٣ - إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ... ١٠

٤ - الآية ١٣٧ التى نقلناها فى الفقرة السابقة .

وتحريج الآيات وتحذيرها قويان استهدفا دون ريب حماية اليتامى وحقوقهم وأموالهم مما كان تتعرض له من تلاعب وبغى على ماذكرناه من قبل. ولقد روى أن أوصياء اليتيمات الغنيات كانوا يمنعون تزويجهن بالغريب خشية مطالبته بمالهن، وكانوا يتزوجونهن ولولم يكن جميلات للاستيلاء على مالهن، فيتعرضن بذلك للأذى فى أنفسهن وفى أموالهن، وأن الأوصياء كانوا يسرعون فى تبديد أموال اليتيم قبل أن يبلغ، أو يبدلونها بأموالهم الرديئة؛ فنزلت الآيات ٢ و ٦ و ١٢٧ لتعالج الموقف بما فيه الحق والصيانة، ولتكون تلقينا مستمر المدى؛ وهكذا تكون الآيات قد انطوت على صور لما كان عليه الأمر، كما أنها نزلت لمناسبته أيضا.

ويلفت النظر خاصة إلى مافى الآية (٦) من أسلوب تشريعى فى تعيين سن الرشد، إذ لم تكتف ببلوغ اليتيم سن النكاح بل شرطت التثبت من رشده العقلى والتصرفى أيضا؛ ولعل الأمر كان جاريا على الاكتفاء بالبلوغ لسن النكاح والقدرة الجنسية، ولعل مشكلة ما قد قامت واستفتى النبي صلى الله عليه وسلم فيها فنزلت الآية تحتوى تعديلا أوعلاجا شافيا، وتكون فى الوقت نفسه تشريعا مستمر المدى.

- ٥ -

ورابعا: وقاية المال من تبديد السفهاء:

جاء فى سورة النساء الآية التالية:

« وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ... ٥

وكلمة «السفهاء» تعنى ضعفاء العقل، وهذا يحتمل أن يكون بالنسبة لكبار السن وصغارهم، وقدجاءت آية تعيين سن الرشد للأيتام عقب هذه الآية، مما قد يلهم أن يكون النهى فيها منصبا على تسليم الأموال للأولاد بعد بلوغهم سن الرشد؛ ومهما يكن من أمر فالآية قد احتوت حكما مستقلا بالنسبة للسفهاء، إذ تحظر تسليمهم أموالا أو أموالهم تفاديا من تبذيرها بسبب ضعف عقولهم أو عدم رشدهم، وإذ توجب فى الوقت نفسه الإنفاق عليهم وتطييب نفوسهم. والمرجح أن الآية نزلت لمناسبة

معينة فكانت معالجة حكيمة للموقف وتشريعا مستمر المدى أيضاً .

- ٦ -

وخامسا : النهى عن الربا :

يصح أن يقال إن إحدى الآيات المكية قد احتوت مايلهم أن يكون نواة لكراهة الربا كما ترى فيها :

«وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوا فِي أَمْوَٰلِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِندَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ...

الروم ٣٩

أما الآيات المدنية فقد احتوت نهيا صريحا عنه وحملة شديدة على المتعاملين به كما ترى فيما يلى :

١ - الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَٰنُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ . يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِى الصَّدَقَٰتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ...

البقرة ٢٧٥ - ٢٧٦

٢ - يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ الرِّبَوٰا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ . وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ...

البقرة ٢٧٨ - ٢٨٠

٣ - يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَوٰٓا أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ... آل عمران ١٣٠ - ١٣٢

والآيات صريحة الدلالة على أن بعض المسلمين كانوا يتعاطون الربا ويأكلونه أضعافاً مضاعفة ، وأنه كان عند العرب عملا تجاريا حلالا كالبيع ، فظل هذا المفهوم مستقراً بعد الإسلام فى أذهان المسلمين الذين تعودوه . وقد تلهم آية البقرة (٢٨٠) خاصة أن المرابين كانوا يستغلون إعسار المدينين فيضاعفون رباهم ، وأنه كان لذلك عواقب شديدة الضرر فى هؤلاء ؛ ولايبعد أن يكون بعضهم قد شكا أمره للنبي صلى الله عليه وسلم فكان هذا سببا لنزول الآيات لمعالجة الموقف بهذا الأسلوب القوى المتناسب مع شدة ضرره ، ولتكون فى الوقت نفسه تشريعاً قوياً مستمر المدى فى المجتمع الإسلامى يحول دون هذا الضرر وتلك العواقب .

ولقد احتوت آية البقرة ٢٧٩ حلا للمشكلة التى وقعت نتيجة للحملة على الربا وشدة النهى عنه ، إذ أمرت أصحاب الأموال المرابين بأسلوب قوى شديد بإسقاط الربا عن مدينيهم ، واستيفاء رؤس أموالهم فحسب ، وحثتهم على إمهال المعسرين والتصدق عليهم بإسقاط ديونهم جملة . وفى هذا مشهد من مشاهد السيرة النبوية ، وتلقين جليل مستمر المدى .

ومما يروى أن آيات البقرة فى الربا من أواخر ما نزل من القرآن ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أعلن بعدها إسقاط ربا عمه العباس رضى الله عنه فى حجة الوداع ، مما يستأنس به على صحة تأخر الآيات ؛ والذى نرجحه أن الربا كان جارياً فى مكة وفى المدينة على السواء بسبب ما كان فى مكة من حركة تجارية ، وبسبب وجود اليهود الذين كان الربا من أعمالهم الرئيسية فى المدينة ، وأن الزراعة فيها هى العمل الرئيسى للأوس والخزرج ، والزراع يحتاجون دائماً إلى الاستسلاف . وقد كان اليهود يتعاطون الربا كما جاء ذلك فى معرض التنديد بهم فى آية النساء ١٦٠ على ما شرحناه فى فصلهم الخاص .

- ٧ -

وسادساً تنظيم العقود والديون والحقوق المتصلة بها .

إن أهم ماورد فى هذا الباب آيتان فى سورة البقرة أوردناهما فى مبحث التشريع السياسى ، وهما الآيتان ٢٨٢ - ٢٨٣ . ولقداحتوتا قواعد وأحكاما وتلقينات قويمة ورائعة فى صدد حياطة حقوق المسلمين بين بعضهم وبعض، وتنظيم العقود والديون وتسجيلها وتسجيل أعمال التجارة عامة بقدر مايتسع له الإمكان ، تفاديا من الخطأ والنزاع ، وكذلك فى صدد إيجاب الشهادة على الشهود وعدم كتمانهم شهادتهم ، وإيجاب الأمانة على الكتاب ، وفى صدد حماية هؤلاء وأولئك من الأذى والضرر بسبب عملهم .

وقد يمكن أن تلهم الآيات أن هذه الأمور لم تكن تراعى رعاية وافية ، وأنه كان يحدث بسبب ذلك خلاف ونزاع ، وأن مناسبة شديدة الأثر كانت سببا لنزول الآيات لمعالجة الموقف معالجة حكيمة قويمة ، ولتكون تلقينا مستمر المدى فى الوقت نفسه .

ونذكر بهذه المناسبة ما احتوته آيات المواريث فى سورة النساء من توكيد متوال لضرورة تسديد ديون المورثين قبل توزيع التركات على الورثة ، مما يمكن أن يكون له صلة بالحالة التى كانت حين نزولها : إذ أرادت تلقين المسلمين وجوب احترام بعضهم حقوق بعض ، ووفاء ديون الميت من ماله ، لأن هذا المال مما قد يكون تكون من هذه الديون أو بعضها ، وهى من حق صاحبها وليست حق الميت وورثته ، وفى هذا تلقين جليل الشأن مستمر المدى فى هذا الصدد ، ومعالجة لما كان عليه الأمر من شذوذ لايتفق مع الحق .

ونذكر كذلك ما احتوته آية البقرة ١٨٨ التى نقلناها فى مبحث التشريع السياسى لأن لها صلة بهذا المبحث أيضا ، إذ تنهى المسلمين عن أكل أموال بعضهم بالباطل والتحايل لدى الحكام لتحقيق أطماعهم فيها . ومن هذا القبيل آية سورة النساء هذه :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ... ٢٩

فالمرجح أن الآيات قد نزلت بمناسبة وقائع بدا فيها من بعض المسلمين بعض تصرفات مغايرة للحق بالنسبة لأموال غيرهم وحقوقهم ، واستهدفت التنديد بذلك وحظره بهذا الأسلوب لمعالجة الموقف الحاضر ؛ وصارت فى الوقت نفسه تشريعا وتلقينا مستمرى المدى .

المبحث الخامس

فى التشريع العائلى

متناول هذا المبحث - مدى الآيات المكية فى موضوعه - الزواج وآيات النساء وملهماتها - التشريع فى صدد التزاوج بين المسلمين وغيرهم ومداه وما فى آياته من ملهمات - زواج الزناة - الحث على التزاوج وما فى آياته من ملهمات - تشريعات وتلقينات فى الحياة الزوجية من سورة البقرة والنساء والمجادلة وما فى الآيات من ملهمات - تشريعات وتلقينات فى الطلاق من سور البقرة والأحزاب والطلاق وما فى الآيات من ملهمات - التشريع فى الترمل وما فى آياته من ملهمات - تشريعات وتلقينات فى الآداب البيتية وما فى الآيات من ملهمات .

- ١ -

يتناول هذا المبحث مسائل الزواج والطلاق ومركز المرأة من الرجل فى العائلة والمجتمع والتصرف الشخصى ، وواجباتهما وآدابهما المتقابلة ، كما يتناول قواعد السلوك فى دخول الناس بعضهم لبعض وزيارة بعضهم لبعض أيضاً .

وآيات هذا الموضوع مدنية فى الأعم الأغلب ؛ وكل ما ورد فى القرآن المكى مما يمت إليه ، آيات وعد فيها الذكر والأنثى على السواء بالأجر وحسن الجزاء ، أو ذكر فيها ما كان من نعمة الله فى جعله المودة والرحمة بين الزوجين ، أو ذكر فيها واجب الولد نحو والديه ، كما ترى فيما يلى :

١ — وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ ... النحل ٧٢

٢ — مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ... النحل ٩٧

٣ — وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا

قَوْلًا كَرِيمًا . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ... الإسراء ٢٣ - ٢٤

٤ — وَمِنْ ءَايَٰتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ... الروم ٢١

فى حين أن الآيات المدنية قد تناولت الشؤون التى تناولها هذا المبحث بعناية وسعة وبأسلوب مطبوع بطابع التشريع ؛ والفرق فى الأسلوبين متصل بطبيعة العهدين بالنسبة للمسلمين وظروفهم على ما نبهنا إليه فى تمهيد هذا الفصل .

والكلام فى متناول هذا المبحث سيكون مصنفاً على حسب المواضيع كما فعلنا فى المباحث السابقة :

- ٢ -

فأولا : الزواج

(١) جاء فى سورة البقرة الآية التالية :

« وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ... ١٢١

وقد حظرت على المسلمين التزوج بالمشركات وعلى المسلمات التزوج بالمشركين ؛ مما يلهم أن هذا مما كان جاريا قبل نزولها فنزلت لتمنع استمرار الجارى ولتكون تشريعا مستمر المدى أيضا ، ويستلهم من فقرة فى سورة الممتحنة وهى « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » - إذ تنهى المسلمين عن الاحتفاظ بزوجاتهم الكافرات فى عصمتهم - أن النهى فى آية البقرة انصبَّ على إنشاء المصاهرة بين المسلمين والمشركين ، وأنها

نزلت مبكرة ، أو قبل نزول آية الممتحنة على الأقل ، وهى التى نزلت بعد صلح الحديبية على ماشرحناه فى مناسبة سابقة ، بدليل أن المسلمين المتزوجين بزوجات كافرات من قبل ظلوا محتفظين بعصمهن إلى أن نهت آية المجادلة عن ذلك . وآية البقرة جاءت بعد قليل من آيات فرض القتال ٢١٦ - ٢١٨ التى نقلناها سابقا ؛ وإنه لمن السائغ أن يقال إن العداء الذى تحول إلى حالة حرب بين المهاجرين ومشركى مكة حين وقع الاشتباك الحربى الأول ، قد اقتضى النهى عن صلات المصاهرة بين أولئك وهؤلاء ، وإن هذا النهى قد كان بمناسبة جنوح من بعض المسلمين المهاجرين إلى الاستمرار فيها ، إذ كانت وشائج القربى تربطهم بالمشركين فى مكة ، وفى هذا ما هو واضح من صور مما كان جاريا ومن المناسبات التشريعية فى هذا الصدد ؛ ولعل آية البقرة بناء على هذا أولى الآيات المدنية التى نزلت فى صدد النكاح .

(٢) وجاء فى سورة النساء الآيات التالية :

«وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِى الْيَتَـٰمَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا[1] . وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ... ٣ — ٤

والفقرة الأولى من الآية الأولى بسبيل ماذكرنا روايته من قبل ، مما كان الأوصياء يفعلونه من ممانعة تزويج اليتيمات الغنيات للغريب والتزوج بهن ، وما كن يتعرضن له بسبب ذلك من أذى ، إذ نبهت على وجوب العدول عن ذلك فى حالة غلبة احتمال العدل ؛ ثم استطردت فأشارت إلى مافى النساء من بديلات يستطيع الرجل أن ينكح ماطاب له منهن واحدة واثنتين وثلاثا وأربعا . وقد تلهم روح الآيتين أن مااحتوتاه من التنبيه إلى أن هذا العدد هو فى حالة إمكان العدل بحيث يكتفى بواحدة أو بما يملك الرجل من إماء إذا غلب ظن الجور ، وإلى وجوب أداء المهر للزوجات كاملا وعدم التصرف بشىء منه إلا إذا طابت الزوجة به نفسا - قد جاء هذا التنبيه استطرادا . وعلى

---

(١) ذلك أضمن لعدم الجور

كل حال فقد اعتبر ذلك من لدن عهد النبي صلى الله عليه وسلم تشريعا أساسيا .

ولقد روى أن الرجال كانوا يجمعون فى عصمهم زوجات بدون تحديد ؛ ومن الثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد جمع فى عصمته فى وقت واحد تسعا ؛ فلما نزلت الآيتان طلق الذين زاد عدد زوجاتهم على الأربع الزوائد ، ونزل فى أمر زوجات النبي صلى الله عليه وسلم تشريع خاص فى آيات فى سورة الأحزاب يتفق روحا مع التحديد على ما شرحناه فى مبحث حياة النبي الزوجية ؛ وهكذا يكون هذا التشريع قد عدّل حالة جارية من قبل البعثة إلى مابعد الهجرة بمدة غير قصيرة - أى إلى السنة الهجرية السابعة أو بعدها إذ نزل تشريع زوجات النبي فى ظرف نزول هذا التشريع - تعديلا حكيما استهدف توطيد الحق والعدل والهناء العائلى بالنسبة للحاضر والمستقبل . وفى هذا صورة من صور السير التشريعى كما هو واضح ؛ والذى نرجحه أن الآيتين قد نزلتا بمناسبة وقعة أو مشكلة ما رفع أمرها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فى صدد اليتيمات أو فى صدد تعدد الزوجات أو مهورهن أو فى كل ذلك .

ولم تحدد الآية الإماء كما لم تشترط لهن مهرا ، لأنهن ملك يمين صاحبهن ؛ وهذا ما كان جاريا من قبل كما تلهمه آيات المعارج المكية ٢٩ - ٣٠ التى نقلناها فى مبحث سابق وغيرها من آيات مكية ومدنية أخرى ، فأقر الأمر على ما كان .

(٢) وفى سورة النساء أيضا الآيات التالية :

« وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا . حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ الَّٰتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ الرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَٰئِبُكُمُ الَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ الَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا . وَالْمُحْصَنَٰتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ كِتَٰبَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن

تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة إن الله كان عليما حكيما . ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وءاتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم ...

٢٢ - ٢٥

وقد احتوت الآيات تشريعاً وافياً فى محرمات النكاح ، ومتمما لما احتوته الآيات من تشريعات فى الزواج ؛ ومن أهم ما احتوته شرطها نية إنشاء كيان عائلى فى الزواج والإحصان فيه لا السفاح به .

وقد أباحت التزوج بالإماء لمن لا يقدر على الحرائر ماليا ولا يطيق الصبر ، على شرط أن يكون ذلك بإذن مالكيهن ومقابل مهر وبموجب عقد ، وأن يكون فى التزوج بهن قصد الإحصان العائلى لا السفاح ولا المخادنة وحسب ، وواضح أن هذا هو غير ما أبيح لمالك الإماء من التسرى بهن من دون مهر وعقد على ماشرحناه من قبل . ولعل هذا كان تشريعا جديداً ، إذ يستلهم من الآية أن التزوج بالإماء لم يكن سائغاً لغلبة احتمال ارتكابهن فى البغاء والسفاح ؛ ولعل حكمة جعل حد الزنا عليهن نصف ما هى على الحرائر هى هذه ، ويستلهم من محتويات الآيات أنه كان هناك بعض الشذوذ فى الانكحة كنكاح الرجل زوجة أبيه المتوفى ، وجمعه فى عصمته أختين ، وتحريمه على نفسه أرملة أو مطلقة ابنه بالتبنى ، ونية المسافحة والمخادنة فى الزواج بالحرائر والإماء أكثر من نية الإحصان والكيان العائلى الخ ... كما لا يستبعد أن يكون هناك شذوذ آخر ، أو أن لا يكون هناك تقيد وثيق فى أمر الانكحة المحرمة الأخرى ، فنزلت الآيات لمعالجة الأمر

وإقراره فى النطاق الحكيم الذى يجب أن يكون فيه بالنسبة للحالة الحاضرة وللأجيال المقبلة معاً. ونرجح أن تكون الآيات قد نزلت بمناسبة مشكلة من مثل هذه المشاكل نقلت إلى النبي صلى الله عليه وسلم واستفتى فى شأنها.

وليس من الممكن الجزم بالوقت الذى نزلت فيه الآيات؛ ولكن النص على تحريم حلائل الأبناء من الأصلاب فقط، قد يدل على أن ماكان جاريا من تحريم حلائل الأبناء بالتبنى قد ألغى قبل نزولها؛ ولما كان هذا الإلغاء قد تم بتزوج النبى صلى الله عليه وسلم بمطلقة متبنيه فى أواسط العهد المدنى على ماشرحناه فى مبحث حياة النبى صلى الله عليه وسلم الزوجية، فمن السائغ أن يقال إن ماأشرنا إليه من شذوذ فى الأنكحة ومحرماتها قد ظل جاريا إلى أواسط هذا العهد، إذ اقتضت حكمة التنزيل تنزيل الآيات فى تنظيم وتحديد الأمر فى هذا الظرف.

- ٣ -

(٤) وجاء فى سورة المائدة الآية التالية:

«الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَٰتُ مِنَ الْمُؤْمِنَٰتِ وَالْمُحْصَنَٰتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى الْءَاخِرَةِ مِنَ الْخَٰسِرِينَ ... ٥

وقد أباحت للمسلمين التزوج بالكتابيات. وقد فسر بعضهم «المحصنات» بالحرائر، وبعضهم بالعفيفات؛ ولعل الفقرة الثانية من الآية تدعم القول الثانى، إذ شرط فى التزوج بالكتابيات نية الإحصان لا السفاح والتخادن؛ ولقد يدل هذا أيضا على ما كان من غلبة ارتكاس الكتابيات فى هذا العهد فى البغاء، وقد كنّ من حيث الواقع يهوديات كما لايخفى، فكأنما نبهت الآية - وهى تبيح التزوج بهن - إلى وجوب حسن الاختيار، وعدم التزوج بمن لا تكون مشهورة الصيانة والعفاف؛ وهكذا تكون

الآية قد عالجت حالة قائمة ، واحتوت تلقيناً مستمر المدى فى الوقت نفسه .

وقد أوضحت الآية أو قيدت آية البقرة (٢٢١) التى نقلناها قبل قليل ، إذ كان حكمها مقصوراً على المشركين أو غير الكتابيين ، ومن المحتمل أن يكون المسلمون بعدها كفوا عن المصاهرة مع غير المسلمين عموماً إلى أن نزلت آية المائدة التى احتوت تعديلا لهذا المفهوم ؛ والمرجح أن الآية نزلت فى سلسلتها بعد صلح الحديبية ، لأن مطلع السورة قد احتوى إشارة ما إلى هذا الصلح على ما نبهنا إليه فى مبحث الوقائع الجهادية ؛ ولعلها نزلت بعد خضد شوكة اليهود فى خيبر والقرى الأخرى الذى وقع بعد قليل من هذا الصلح على ما ذكرناه سابقا أيضا ؛ وإذا صح هذا كانت الإباحة بعد خضد تلك الشوكة ، وعدم بقاء حظر التزوج بالكتابيات ، ولتدعيم ما ظل القرآن يشير إليه من وحدة المصدر والأسس بين المسلمين والكتابيين فى المصاهرة والمؤاكلة ؛ وفى هذا صورة من صور السير التشريعى والحكمة السياسية التشريعية لمعالجة الموقف الحاضر ، ولتوطيد خطة مستمرة تقوم على المدى والأسس والظروف التى تلهم الآية وظرف نزولها .

وواضح أن الآية إنما أباحت التزوج بالكتابيات دون تزويج الكتابيين ، وهكذا تظل المسلمة محظورة على غير المسلم ؛ وحكمة ذلك غير خفية ، فالرجل قوام وإليه ينسب النسل ، فليس فى تزوجه بكتابية محظور من وجهة النظر الإسلامية ، بل إنه مفيد من وجهة نظر الدعوة الإسلامية ، وعكس هذا وذاك تزويج المسلمات بغير المسلمين .

ومن الثابت أن النبى صلى الله عليه وسلم قد تزوج بصفية الخيبرية عقب فتح خيبر ، ومع أن الروايات ذكرت أنها أسلمت فليس يستطاع الجزم بأن إسلامها كان قبل الزواج أو بعده ، وبالتالى لا يستطاع الجزم بأن النبى صلى الله عليه وسلم قد تزوجها ممارسة لإباحة آية المائدة أو لا ، ومما يقف فى سبيل الجزم أن الروايات ذكرت أن النبى دخل بها فى طريق عودته من خيبر ، فى حين يرجح أن تكون الآية مع سلسلتها السابقة قد نزلت بعد مدة ما من فتح خيبر .

ولم نطلع على خبر يشير إلى أن المسلمين قد مارسوا هذه الإباحة فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم وإن كنا نرجح ذلك ، لاسيما أن المعروف أنه بقى بعض اليهود فى المدينة وخيبر والقرى اليهودية الأخرى دون ما حول ولا طول .

- ٤ -

(٥) وجاء فى سورة النور الآية التالية :

« الزَّانِى لاَ يَنكِحُ إلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً والزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى المُؤْمِنِينَ ... ٣

وقد تعددت الأقوال فى مدى الآية ، إذ قيل إنها للتنديد والتشنيع ، وإن التحريم منصب على الزنا نفسه ؛ كما قيل إنها بسبيل تحريم الزانية ؛ وقد روى أن بعض المسلمين استأذن النبي صلى الله عليه وسلم فى نكاح بغى يشتهيها أو يحبها فنزلت الآية جواباً . ومهما يكن من أمر فالآية تنطوى على كل حال على كراهية التزوج بالزانية وتزويج الزانى ، وخاصة إذا ما ثبتت عليهما جريمة الزنا وأقيم عليهما الحد ؛ لأن الآية جاءت بعد تعيين الحد وإيجاب إقامته ، والاتصال فى المفهوم بينها وبين ماسبقها واضح الوثاقة ؛ وسواء أصحت الرواية أو لم تصح - لأن هذا الاتصال يدعم كون الآية تتمة لما قبلها - فمن المحتمل أن يكون التزوج بالزانية أو تزويج الزانى مما لم يكن عليه غبار فى نظر البعض فى ذلك العهد ، وكان مما يمارس ، فنزلت الآية بالتحريم ، أو على الأقل بالتشنيع ، ليكون فيها زجر للزناة وتهديد لمقاطعتهم ؛ وهكذا تكون الآية قد تضمنت علاجاً حكيماً للحالة الحاضرة مستمراً مداه الحكيم بعدها .

(٦) وجاء فى السورة نفسها الآيات التالية :

« وأَنكِحُوا الأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ والصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُم وإمَائِكُم إن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ واللهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ . وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللهُ من فَضْلِهِ والَّذِين يَبْتَغُونَ الْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم فكَاتِبُوهُمْ إنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وءَاتُوهُم مِّن مَّالِ اللهِ الَّذِى ءَاتَـٰكُم ولاَ تُكْرِهُوا فَتَيَـٰتِكُم عَلَى البِغَاءِ إنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَوٰةِ الدُّنيَا ومَن يُكْرِههنَّ فإنَّ اللهَ مِن بَعْدِ إكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... ٣٢ - ٣٣

والآية الأولى تحث المسلمين على تزويج الذين لا أزواج ولا زوجات لهم ، وعلى تزويج رقيقهم رجالا ونساء ؛ وهذا الحث يتسق مع قواعد العمران وطبيعة الإنسان ، وينطوى فيه مقصد جليل من هذه الوجهة ، كما فيه تدعيم لما استهدفه القرآن فى آيات النساء من توطيد الحياة العائلية فى الإسلام . ويبدو أن الفقر كان كثيراً مايمنع التزاوج ، فنبهت الآية إلى وجوب التساهل فى الأمر حتى لا يتعطل ذلك المقصد الجليل ، وفى هذا معالجة لحالة قائمة ، وتلقين مستمر المدى لقاعدة اجتماعية جليلة فى الوقت نفسه .

أما الآية الثانية فإنها تحث الذين لا يقدرون ماليا على النكاح من ناحية على العفة ؛ وهى من أسس المكارم الأخلاقية الإسلامية ؛ ومن ناحية على عدم إكراه الفتيات على البغاء فى سبيل أعراض الدنيا ؛ ولقد روى فى صدد النقطة الأخيرة أن زعيم المنافقين كان يجبر بعض إمائه على البغاء والتكسب به لحسابه ، وأن هذه العادة مما كان جاريا قبل البعثة . ولسنا مطمئنين إلى هذا لما فيه من مسبة إجتماعية كبرى لا يعقل أن يقدم عليها زعيم ، ولأن فى الآية وفيما قبلها مايجعل هذا القول غير وارد ، فالآية الأولى تحث على تزويج غير المتزوجين أحرارا وأرقاء ، رجالا ونساء ؛ فالمعقول أن تكون الفقرة الأخيرة من الآية الثانية بمعنى نهى المسلمين عن عدم تزويج فتياتهم إذا ما تيسر لهن الزواج تفادياً من الإنفاق أو تغاليا فى المهور ؛ لأنه قد يكون فى ذلك دفع لهن إلى البغاء .

ولقد روى أن عبداً طلب من مالكه المسلم أن يسمح له بشراء نفسه بثمن يدفعه مقسطا ـ وهذا معنى الكتاب أو المكاتبة ـ فأبى ، فاشتكى للنبي صلى الله عليه وسلم ، فأمرت الآية بذلك . وورود الأمر بالمكاتبة فى آيتين تشريعيتين فى الزواج ، مما يلهم أن يكون العبد قد رغب فى التزوج أيضا فرغب بالمكاتبة ليتحرر وليتزوج كما يشاء ، فلما أبى مالكه عليه ذلك رفع أمره لله والنبي .

وظاهر من هذا كله أن الآيتين قد احتوتا صوراً واقعية ، ونزلتا فى مناسبات لتحل ما كان من مشاكل حلا قويما متسقا مع الحق والعدل وطبيعة الإنسان واجتماعه ، ولتكون فى الوقت نفسه تشريعا مستمر الحكم والتلقين .

- ٥ -

وثانيا : فى الحياة الزوجية :

(١) جاء فى سورة البقرة الآيات التالية :

«وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ . نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ . وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ . لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ...» ٢٢٢ - ٢٢٧

وهى توجب اعتزال النساء فى المحيض ، وتأمر بتقوى الله فيهن ، وتحل مشكلة الإيلاء بالمعاشرة أو الطلاق . وقد روى أنّ أهل المدينة كانوا ينحون نحو اليهود فى عزل نسائهم وعدم الاكتفاء بعدم قربهنّ جنسيا ، فسأل بعض المسلمين عن ذلك فنزلت الآيتان الأوليان .

وكان من عادة الأزواج فى الجاهلية إذا كرهوا زوجاتهم أو غضبوا منهن لأمر ما أن يحلفوا بعدم قربهنّ فتصبح الزوجة معلقة لاهى زوجة ولا مطلقة ، مما عرف بالإيلاء وهو الحلف ، فشكا بعض النساء أمرهنّ للنبى صلى الله عليه وسلم ، فنزلت الآيات الأربع الأخيرة ؛ وليس فى الروايات ما لا يتسق مع الآيات ؛ وكل ما يمكن أن يكون هو أن السلسلة قد نزلت وحدة بناء على شكاوى واستفتاءات سابقة . وعلى كل حال فالآيات قد انطوت على صور واقعية لما كان عليه الأمر فى الجاهلية ثم استمر إلى ما بعد الهجرة النبوية بمدة ما ، ونزلت لمناسباتها جواباً على استفتاءات

وشكاوى لحل المشاكل ومعالجة الحالة حلا وعلاجا قويمين حكيمين مستهدفين لتوطيد الحق والبر والإصلاح ومنع الأذى، ولتكون تشريعاً وتلقيناً مستمرّى المدى أيضاً.

ويظهر من بعض الآيات أن بعض الازواج قد احتجوا باليمين وتقيدهم بها، فأجابت على هذا الاحتجاج بما فيه الحكمة الجليلة، وهو أن المهم هو المقصد المبيت فى النفس وليس الكلام الذى يمكن أن يكون قد صدر بسائق الغضب والتسرع أو الهوى؛ فإذا كان القصد الفراق وجب أن يكون الفراق، وإلا فلا يجوز أن تكون اليمين وسيلة للأذى والضرر ومانعة عن البر والتقوى والإصلاح، وفى هذا صورة من السير التشريعى والمساجلة فيه للإقناع ووضع الحجة.

- ٦ -

(٢) وجاء فى سورة النساء الآيات التالية:

« يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا. وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا. وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ...

١٩ - ٢١

والآيات قوية التلقين فى صدد حسن معاشرة الزوجات وعدم إزعاجهن لابتزاز أموالهن بدون حق، والتنويه برابطة الزوجية ووجوب رعايتها رعاية تامة من جانب الرجل. ومضمونها وأسلوبها يلهمان أن بعض الزوجات كن يلقين عنتا من أزواجهن فى الحياة الزوجية، لابتزاز أموالهن: كما أن الآية الثانية تلهم أن بعض الازواج بعد أن قيدتهم الآية بأربع نساء كانوا حينما يريدون أن يتزوجوا بزوجة جديدة يعمدون إلى تطليق إحدى القديمات، وأنهم كانوا بسبيل ذلك يعمدون إلى مساومة زوجاتهم

لاسترداد بعض ما دفعوه من المهور لهن، وفى هذا وذاك صور لما كان عليه الحال إلى وقت متأخر من العهد المدنى؛ وقد استهدفت الآيات توطيد الحق والعدل والهناء العائلى، وتلقين الصبر وسعة الصدر نحو الزوجات، فكانت علاجا قويا وحكيما للحالات والتصرفات الشاذة، وتشريعا جليلا مستمر المدى والتلقين أيضا.

(٣) وقد جاء فى السورة نفسها الآيات التاليه أيضا:

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا. وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ... ٣٤ - ٣٥

وقد استهدفت الآيات توطيد الانسجام فى الحياة العائلية، وبيان مركز كل من الرجل والمرأة فيها، وقررت قوامة الرجل معللة إياها بما وهبه الله للرجال من مزايا وبما أخذوه على عاتقهم من مسئولية النفقة، كما قررت على المرأة وجوب الطاعة للرجل والأمانة والصيانة، وحثت على توسيط وسطاء الخير فى الحالات التى يخشى فيها تفاقم الشقاق توطيداً للهناء والانسجام العائلى. والراجح أن التأديب والتوسيط هما من أجل تلافى النشوز والشقاق والطلاق، إبقاء على الرابطة الزوجية. ومن الراجح أن الآيات قد نزلت بمناسبة مشكلة زوجية رفع أمرها إلى النبى صلى الله عليه وسلم فكانت حلا حكيما للمشكلة، وتلقينا مستمر المدى أيضا. كذلك من الراجح أن قوامة الرجل على المرأة وحق تأديبه لها مما كان جاريا ومعترفا به قبل نزولها، كما يستلهم من أسلوب أول الآيات التقريرى، فأقرت الآيات للرجل بعض ما كان جاريا وعللته وجعلت حق تأديبه لزوجته مقيدا بقيود وحدود؛ وهكذا ينطوى فى الآيات كما هو المتبادر صور عما كان عليه الحال، ومشاهد من مشاهد الحياة الزوجية فى العهد المدنى.

(٤) وجاء فى السورة نفسها كذلك الآيات التالية :

«وإنِ امْرأةٌ خافَتْ مِن بَعْلِها نُشوزًا أو إعْراضًا فلا جُناحَ عَلَيْهِما أن يُصْلِحا بَيْنَهُما صُلْحًا والصُّلحُ خَيْرٌ وأُحْضِرَتِ الأنفُسُ الشُّحَّ وإن تُحْسِنُوا وتَتَّقُوا فإنَّ اللهَ كانَ بما تعمَلُونَ خَبِيرًا . ولَن تَستَطِيعُوا أن تَعدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ ولَوْ حَرَصْتُمْ فلا تَمِيلُوا كلَّ المَيْلِ فتَذَرُوها كالمُعَلَّقَةِ وإن تُصْلِحُوا وتَتَّقُوا فإنَّ اللهَ كانَ غَفُورًا رَحِيمًا . وإن يَتَفَرَّقا يُغْنِ اللهُ كُلًّا مِن سَعَتِهِ وكانَ اللهُ واسِعًا حَكِيمًا ...   ١٢٧ - ١٣٠

وقد استهدفت الآيات أيضا توطيد الحياة الزوجية ووجوب رعايتها إلى أبعد حد ممكن ، بحيث لا يكون الفراق إلا فى الحالة التى لا مندوحة عنها .

وقد يلهم مضمونها أنها فى صدد مشكلة متصلة بالمعاشرة الزوجية وتعدد الزوجات ، ومن الراجح أنها نزلت بمناسبة معينة رفع أمرها إلى النبى ، وتكررت أمثالها مما هو طبيعى الوقوع فى الحياة الزوجية ، وخاصة فى حالات التعدد ، فكانت حلا حكيما وقويما للمشاكل القائمة ، وتلقينا مستمر المدى فى الوقت نفسه أيضا . وإذا لوحظ أن آية النساء (٣) قد نبهت على وجوب الاقتصار على واحدة فى حالة غلبة عدم العدل ، وأن هذه الآيات قررت تعذر هذا العدل ، وأن تعدد الزوجات مما كان مألوفا فى ذلك العهد والبيئة - أمكن أن يلمح فى هذه الآيات وفى الآية المشار إليها معا تلقين بالكف عن التعدد أو الاقتصاد فيه ، وبالتالى قصد لتعديل ما أبيح للرجال من عدد محدد كانت إباحته نفسها تعديلا لما كان مألوفا من عدم التحديد . وفى خلال ذلك تتعاوى صورة من صور السير التشريعى كما هو المتبادر .

- ٧ -

(٥) وجاء فى سورة المجادلة الآيات التالية :

«قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها وتَشْتَكِي إلَى اللهِ واللهُ

يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ . الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم
مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ
الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ . وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ
يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ
بِهِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن
قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا
بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ... ١-٤

وقد احتوت الآيات كما هو واضح منها حكاية موقف جدال بين النبي صلى الله عليه وسلم وإحدى زوجات المسلمين فى صدد شكواها من زوج ظاهرها ، وفى هذا صورة لما كان الأمر جاريا عليه فى ظروف الحياة الزوجية ومشاكلها ، وما كان يرفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم منها فتنزل الآيات بمناسباته . والمظاهرة تعنى قول الرجل لزوجته أنت علىّ كظهر أمى ! فيحرم عليه قربها ، وتصبح معلقة لا زوجة ولا مطلقة ، وقد كان الأزواج يعمدون إلى هذا إذا ما أرادوا أن يضاروا زوجاتهم أو يبتزوا أموالهن ، أو فى حالة غضب وغيظ منهن لأمر ما . ومضمون الآيات يلهم أن المرأة لم تجد فى النبي صلى الله عليه وسلم فى بادئ الأمر أذناً سامعة ومسارعة إلى إقرار حقها فى الشكوى ، ولعله اكتفى بالنصح والوعظ لها ولزوجها ، ولم يكن فى ذلك تشريع واف وإلزامى ، فهتفت شاكية إلى الله ، فنزلت الآيات تقر حقها فى الشكوى ، وتندد بالمظاهرة والمظاهرين وتسفههم ، وتحل المشكلة حلا إلزاميا .

ولقد جاء فى سورة الأحزاب فقرة فيها تسفيه للظهار والمظاهرة دون أن تحتوى حلا ، وهى هذه :

« وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ
أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ... ٤

فلم تكن حاسمة ، فلما كانت مشكلة الزوجة المجادلة المشتكية إلى الله جاءت آيات المجادلة حاسمة ؛ والكفارة تدل على أن الظهار كان أشد أثرا فى التحريم من الإيلاء

العادى فى المجتمع ، فاقتضت الحكمة التشديد فيها لتسويغ إبطاله على ما هو المتبادر . وفى كل ما تقدم صور لسير التشريع القرآنى كما هو واضح :

هذا ؛ وموقف الزوجة المجادلة عن حقها المشتكية إلى الله موقف قوى رائع ؛ قد يدل على أن الإسلام والسيرة النبوية قد أوجدا فى المرأة شيئا من الطمأنينة بالإنصاف ، وجرأة على الدفاع عن حقها ، وحافزاً إلى المطالبة بإبطال ما كن يتعرضن له من الأذى والحيف بسبب من عادات وتقاليد جاهلية . وفى هذا ما فيه من مشهد تطورى فى المجتمع الإسلامى الناشئ كما هو واضح .

- ٨ -

وثالثاً : فى الطلاق وعواقبه .

(١) فى سورة البقرة الآيات التالية :

« لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُو فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِى أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا

حُدُودَ اللهِ وتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وإذا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْسَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ولاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا ومَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ولاَ تَتَّخِذُوا ءَايَٰتِ اللهِ هُزُوًا واذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللهِ عَلَيْكُم ومَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الكِتَٰبِ والحِكْمَة يَعِظُكُمْ بِهِ واتَّقُوا اللهَ واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ . وإذا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضِلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ ذَٰلِكُم أَزْكَىٰ لَكُم وأَطْهَرُ واللهُ يَعْلَمُ وأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ . والْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وعَلَى المَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وكِسوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لاَ تُضَارَّ وَٰلِدَةٌ بِوَلَدِهَا ولاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَٰدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا ءَاتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ واتَّقُوا اللهَ واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ... ٢٢٦ - ٢٣٣

ويبرز فى الآيات قصد حماية الزوجة وحقها فى مختلف الحالات، كما يبرز قصد حماية الكيان الزوجى أو العائلى من الهدم بسبب الحقد والتعنت، أو الرعونة والطيش، بروزاً قويا جليل المدى.

ومن المرجح أن الآيات قد نزلت بمناسبة مشكلات حدثت وتكررت وشكاوى رفعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم طلبا للحل والإنصاف؛ ويلهم مضمونها ومقاصدها البارزة أن المرأة كانت إلى حين نزولها عرضة للضرر والإزعاج والأذى والابتزاز فى ظروف الطلاق والمعاشرة الزوجية، من زوجها أحياناً ومن أهلها أحياناً وبسبب عادات جاهلية أحياناً، وأن الشكاوى المرفوعة كانت من جانب الزوجات على الأغلب،

وإن كان هذا لايمنع أنها كانت أحياناً من جانب الأزواج ، وهكذا تكون الآيات قد انطوت على صور لما كان الأمر جاريا عليه من قبل البعثة إلى حين نزولها ومعالجة حكيمة للحالة الحاضرة استهدفت توطيد الحق وحماية الكيان العائلى ، وإنصاف المرأة ، وتشريعا مستمرا فى هذه الشؤون الخطيرة .

(٢) وفى السورة نفسها الآيات التالية :

١ — لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ . وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ... ٢٣٦ - ٢٣٧

٢ — وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ . كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ... ٢٤١ - ٢٤٢

وقد احتوت تشريعات أخرى فى صدد الطلاق متممة لما سبقها ، ويبرز فيها كذلك قصد حماية الزوجة ورعاية حقها . والآيات متصلة السياق بالسلسلة السابقة ؛ وقد تخللتها آيات تتعلق بحالة الترمل سنوردها بعد . وروح الآيات ومضمونها يلهمان أن مااحتوته من أحكام هو جديد لم يكن مألوفاً أو جارياً من قبل ، بحيث يسوغ أن يقال إن حق المرأة فى الحالات المذكورة فيها لم يكن معترفا به ، أو كان رهناً بالظروف ، مع أن هذه الحالات مما يتكرر وقوعه فى الحياة الزوجية ؛ فاقتضت الحكمة إكمال التشريع بهذه الأحكام؛ ولا يبعد إن لم نقل نرجح أن مشكلات حدثت وشكاوى رفعت إلى النبي حول هذه الشؤون ، فجاءت السلسلة محتوية لحل ما كان من مشكلات والإجابة على مارفع من شكاوى فيها أيضا ، عليها فى الوقت نفسه طابع التشريع المستمر المدى .

- ٩ -

(٣) وجاء فى سورة الأحزاب الآية التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ... ٤٩

وقد احتوت حكما متمما لما جاء فى سلسلة آيات البقرة السابقة . ويبدو أن بعض المسلمين ظنوا أن العدة لابد منها فى كل حال ، أو أن بعضهم استفتى النبي صلى الله عليه وسلم فى الحالة التى ذكرتها الآية، أو حصلت مشكلة ما فى صددها ، أو أن هذا هو ما كان جارياً قبل نزولها ؛ فنزلت مشرعة للأمر بما هو متسق مع المنطق ، إذ أن العدة إنما شرعت لاستبراء الرحم ، ومتصل بقصد حماية المرأة ؛ إذ أن اعتدادها بسبب هذه الحالة مما يضر بمصلحتها . وفى الآية من بعد صورة لسير التشريع القرآنى كما هو ظاهر .

(٤) وجاء فى سورة الطلاق الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا . فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا . وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ

يجعل له من أمره يسرا . ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله
يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا . أسكنوهن من حيث سكنتم من
وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا
عليهن حتى يضعن حملهن فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا
بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى . لينفق ذو سعة
من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله
نفسا إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا ... ١ - ٧

وقد احتوت الآيات تشريعات متممة للطلاق وظروفه ، يبرز فيها كتلك قصد حماية المرأة وصيانة حقوقها بروزاً قويا كذلك ، بل إن هذا القصد بارز هنا بروزاً أكثر ، بدليل ما تكرر خلال الآيات من الأمر بتقوى الله والإنذار به ، وما في الآيات من تكرار لبعض الأحكام السابقة ؛ وهذا يلهم أن بعض المسلمين اقترفوا بعض المخالفات لروح أو نصوص الآيات السابقة متأثرين بعوامل متنوعة ، فحدثت بسبب ذلك مشكلات ، ورفعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم شكاوى ، فنزلت الآيات لإيضاح ما قد ظل غامضا من أحكام بعض الحالات ؛ وللتنبيه إلى وجوب التزام أوامر الله وتقواه في هذه الشؤون الخطيرة ؛ وقد جاء الأمر مطبوعاً بطابع التشريع العام ليكون تشريعا حكما مستمر المدى . والآيات كما هو واضح تحتوي مشهدا من مشاهد المجتمع الإسلامي في العهد المدني ، وصورة من صور التشريع القرآني أيضا .

- ١٠ -

ورابعا : في الترمل :

(١) جاء في سورة البقرة الآيات التالية :

١ — والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة
أشهر وعشرا فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن

بِالْمَعْرُوفِ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . ولا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِن خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِى أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَـٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ولا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَـٰبُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مافِى أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ... ٢٣٤ - ٢٣٥

٢ — والَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَـٰعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِى أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... ٢٤٠

والآيات كما قلنا جاءت فى سلسلة آيات البقرة ، وقد قال المفسرون والرواة إن عدة المترملة الحدادية كانت قبل نزولها حولا كاملا ، لاتخرج فيه من بيتها ولا تتزين ولاتتطيب ولا تتعرض لنكاح أو خطبة نكاح ، وإن الآية (٢٤٠) نزلت قبل الآيتين (٢٣٤ - ٢٣٥) تقر هذه العادة مع إعطاء المرأة حرية الخروج قبل تمام الحول والتصرف بنفسها بما ليس فيه منكر ، وإلزام ورثة الزوج بنفقتها ، ثم نزلت الآيتان لتقرير القاعدة الدائمة ، وقالوا بناء على ذلك إن الآيتين قد نسختا الآية (٢٤٠) وإن كان فى ترتيبها تقديم للناسخ وتأخير للمنسوخ .

والآية (٢٤٠) تلهم فعلا أن عدة حداد الأرملة كانت حولا كاملا ، وأنها قد أقرتها بشكل ما ، وأن الآية (٢٣٤) قد حددت هذه العدة بأربعة أشهر وعشر ليال ، وأن فى هذا شيئا من النسخ التشريعى ، غير أن فى الآية (٢٤٠) شيئا من الموضوع المستقل أيضا بحيث لا يقال إنها نسخت جملة ؛ لأنها تقرر حق الأرملة فى السكنى والنفقة طيلة مدة الحداد ، وتمنحها حق الخروج من بيت الزوجية قبل انتهاء هذه المدة . وعلى كل حال ففى الآيات صور لما كان عليه الأمر فى العهد النبوى إلى حين نزولها ، كما فيها صورة لسير التشريع القرآنى أيضا . وقصد الرعاية لحق المرأة وحمايتها فى الآيات الثلاث بارز شأن الآيات التى نقلناها جميعا ، مما يدعم ما استدللنا عليه من هذا

الأسلوب من سوء حالة المرأة ومعاملتها . والمرجح إنه حدثت مشاكل فى هذا الصدد ورفعت شكاوى للنبى ، وربما تضمنت هذه الشكاوى التماس التخفيف من وطأة العادات الجاهلية وقد كرم الله المسلمين بالإسلام ، فنزلت الآيات لتحل المشكلة وتعالج الموقف بما يقتضيه الحق والرحمة بالمرأة ، ولتكون تشريعا مستمر المدى فى الوقت نفسه .

ولقد نصت آيات سورتى البقرة والطلاق التى نقلناها فى موضوع الطلاق على أن عدة براءة الرحم للحائضات ثلاث حيضات ، ولغير الحائضات ثلاثة أشهر ؛ فتكون عدة الأرملة المذكورة فى الآية (٢٣٤) والحالة هذه ليست عدة براءة رحم ، وإنما هى عدة حداد تدخل فيها عدة براءة الرحم ، ويكون القرآن والحالة هذه قد أقر فكرة حداد المرأة على زوجها التى كانت قبل نزول التشريع ، بعد أن أدخل عليها التخفيف والتنظيم ، كما أقر أشياء كثيرة بعد تخفيفها أو تهذيبها أو تنظيمها مما مرت بنا صور عدة منه .

وآية سورة الطلاق (٤) قد جعلت عدة المطلقة الحامل وضع حملها دون نظر إلى عدد الحيضات وعدد الأشهر ؛ لأن الأصل فى العدة كما قلنا براءة الرحم ؛ ولقد رويت سنة نبوية بأن هذا أيضا هو عدة الأرملة ، بحيث لو وضعت الأرملة الحامل عقب وفاة زوجها وقبل مرور الأشهر الأربعة والليالى العشر اعتبرت عدتها منقضية ؛ فإذا صحت السنة المذكورة كان فيها تعديل استهدف التخفيف عن المرأة وصورة من صور التشريع النبوى فى شكل تخفيف أو توضيح للتشريع القرآنى .

- ١١ -

وخامساً : فى الآداب البيتية .

(١) جاء فى سورة النور الآيات التالية :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا فَٱرْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا

بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون . قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو ءابائهن أو ءاباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون ... ٢٧ - ٣١

وقد احتوت تشريعات تأديبية للمسلمين فى إيجاب الاستئذان والإذن قبل دخولهم بيوت غيرهم ، وغض الرجال والنساء أبصارهم عن بعضهم بعضا تفاديا من الفتنة ، واحتشام المرأة فى اللباس بحيث لا تظهر من زينتها على غير محارمها إلا ما لا إمكان لإخفائه ، تفاديا من الفتنة أيضا . وروح الآيتين الأخيرتين ، ثم وحدة الآيات والسياق ، تلهم أن التأديب فى الآيتين هو فى صدد دخول غير المحارم إلى البيوت بعد الاستئذان والإذن ، وإن كان يحتمل الشمول لداخل البيوت وخارجها ، والأمر الوارد بالتوبة فى الفقرة الأخيرة من الآية الأخيرة قد يلهم أنه وقع شذوذ أو تصرف غير مستحب فى سياق دخول بعض الناس على بعض رفع أمره إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، كما أن المقصد التأديبى والتنظيمى فى الآيات يلهم أن الأمر لم يكن جاريا على ما احتوته ، وأن حكمة التنزيل اقتضت تحقيق هذا المقصد بعد ما تم نشوء المجتمع الإسلامى ، فنزلت الآيات تنظم ذلك هذا التنظيم القويم الحكيم ، وتؤدب المسلمين بهذا الأدب الرفيع ؛ لمعالجة الحالة الحاضرة ، وليكون تلقينا مستمر المدى أيضا ؛ والآيات ٣٢ - ٣٣ التى نقلناها قبل قليل والتى تأمر بتزويج الأيامى والصالحين من

الأحرار والعبيد رجالا ونساء، وتحث على العفة - قد تكون قرينة قوية للمناسبة التى ذكرناها لنزول الآيات .

(٢) وجاء فى السورة نفسها الآيات التالية أيضا :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ [1] ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ...

٥٨ - ٦١

والآيات كسابقاتها بسبيل التعليم والتأديب ، كما تناولت أمورا أخرى ؛ وقد

---

(١) يعني يخلعن ثيابهن، أي يتخففن ولا يتشددن بالخمر .

تلهم أن النساء اللاتى لا يرجون نكاحا قد اشتكين من التشديد فى التخمر الذى أوصت به الآيات السابقة ، وأن بعض المسلمين سألوا النبى صلى الله عليه وسلم بمناسبتها عما هو جار من دخول الخدم المماليك والأطفال على مخادع الزوج والزوجة فى كل وقت دون استئذان وإذن ، أو تمنوا أن ينزل الله تعليما بذلك ، وأن بعضهم تحرج من الاجتماع على الطعام مع العمى والعرج والمرضى ، أو بصورة مختلطة ، أو تمنى كذلك أن ينزل الله تعليما بالأمر ، كما أن المقصد التأديبى والتنظيمى فى الآيات كما فى تلك ، يلهم أن الأمر لم يكن جاريا على ما احتوته ، وأن حكمة التنزيل اقتضت تحقيق هذا المقصد ، فنزلت الآيات تتمة لما نزل سابقا وبعده بمدة ما .

وفى هذا تنطوى صورة لسير التشريع القرآنى كما هو واضح .

(٣) وجاء فى سورة الأحزاب الآية التالية :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ...

٥٩

وقد ذكر المفسرون والرواة أن النساء الحرائر والإماء كن يتزيين بزى واحد ، فيتعرض الحرائر لأذى الفساق كالإماء ، فنزلت الآية بجعل زى خاص للمسلمات الحرائر حتى يميز الناس بينهن وبين الإماء وينجون من الأذى . وعلى كل حال ففى الآية حل لتفادى تعرض نساء المسلمين للأذى ، مما فيه صورة لما كان يحدث فى العهد المدنى اتخذت وسيلة لمعالجة الحالة الحاضرة ، وليكون تشريعا وتلقينا مستمرى المدى فى الوقت نفسه أيضا .

(٤) ونشير بهذه المناسبة إلى آيات الأحزاب ٣٢ - ٣٤ و ٥٣ - ٥٥ والتحريم ١ - ٥ التى نقلناها فى مبحث حياة النبى صلى الله عليه وسلم الزوجية . فإن ما فى هذه الآيات من تعليم وتشريع وصور هو خاص بهذه الحياة ، وقد ذكر ذلك فى الآيات بصراحة ؛ ومع ذلك فإن ما احتوته يصح أن يكون فيه تلقين الاقتداء والأسوة ، وأن تسلك من أجل ذلك فى سلك آيات الآداب البيتية ؛ كما أن فيها صورة لسير التشريع القرآنى وخصوصياته وعمومياته أيضا .

استـــــدراك

وقع غلط فى الصفحتين ١٩٣ و ١٩٤ من هذا الجزء؛ فإن الفقرة: «وفى الآيات إنذار لمرضى القلوب ... الخ» إلى «أفراد بارزون» فى الصفحة ١٩٤ يجب أن تقرأ بعد آيات سورة محمد ٢٩ و ٣٠ فى الصفحة ١٩٣ فلزم التنبيه .

فهرس

الجزء الثانى